

الْجَائِغُ

فِي أَخْبَارِ أَبِي لَعْلَاءِ الْمَعْرِيِّ وَأَشْأَارِهِ

الْفَتْهُ
مُحَمَّدُ سَلِيمُ الْمُجَنْدِي

الْمَجْرُزُ الْأَوَّلُ

عَلَّقَ عَلَيْهِ وَأَشْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ
عَبْدُ الْهَادِي هَاشِمُ

دار صبادر
بيروت

الناشئ

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الجامع

في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره

الفه

محمد سليم الجندى

الناشر
الجزء الأول

علق عليه واشرف على طبعه

عبدالحادي هاشم



دار صادر
بيروت

الناشئة

الجامع
في أخبار أبي العلاء المعري وأثاره

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى دمشق ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م
الطبعة الثانية بيروت ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

طبع بإذن من للجمع العلمي العربي بدمشق
رقم ٥٠٤/ص بتاريخ ١٩٩١/١٢/٨

الناشر



ص.ب. ١٠ بيروت ، لبنان / فاكس : ٩٢٠٩٧٨-٠٤
هاتف : ٩٢٨٢٧١-٠٤ ، ٤٨٨٢٧-٠١ ، ١٣٢٥٦-٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الناشئة

تمهيد

١ - لم تنجب الحضارة العربية في العصور الخوالي من يفرق أبا العلاء المري ٣٦٣ - ٤٤٩ هـ في أصالة الرأي ، ونفاذ البصرة ، وصدق النظرة ، وروعة الخيال ، وإحكام القول ، وصلاح التعبير ، والإحاطة بالعريضة وعلومها . ولم يشغل النقادة والباحثين أديب عالم وفيلسوف مفكر كما شغلهم رهين الحبسين . فقد أربت مصادر دراسته على « ٣٥٠ » مصدرا ، ونيفت مؤلفاته المعروفة على السبعين . ولعل مقبلات الأيام تقفنا على مصادر ومؤلفات أخرى لا نحيط الآن بها خيرا .

وقد كتب في أخبار المري وآثاره كثير من الأفاضل على نوالي العصور ، واختلف في أمره الباحثون والناقدون ، على أنه لم يظهر إلى يوم الناس هذا - فيما نحسب - كتاب جامع لذلك كله ينسم بالنصف ، ويتصف بالاستقصاء ، ويؤن ما قال المري وما قيل فيه بالقسط المستقيم مثل هذا الكتاب الذي خلفه الأستاذ المرحوم سليم الجندي . فقد قضى في تصنيفه سنين طوالا ، وتوفي بعد أن فرغ أو كاد من تبييضه ، ولم يلبس له الأجل أن يدعه إلى الطبع ، فشاء الجمع العلمي العربي - وفاة بحق الزميل الراحل ، وخدمة للباحثين والدارسين - نشر هذا الكتاب ، وعهد إلى النظر في مخطوطة الكتاب ، وضبط شواهدا ، والتعليق عليها في إيجاز ، والإشراف على طبعها ، ظمت بذلك على قدر ما أعانت عليه الطاقة ،

وانع له الوقت . وقد آزرني في ذلك كله الصديق الكريم الأستاذ
عدنان الدرويش .

٢ — والأستاذ محمد سليم الجندي (١٢٩٨ — ١٣٧٥ هـ) مثال العالم
المتمكن ، والمحقق الثبت والباحث الثقف . كان واسع المعرفة والرواية ، ضليعاً
في اللغة وعلومها وآدابها ، بصيراً بأسرارها ، وكان الى ذلك كله معجباً
بالمعري ، حافظاً لأشعاره ، متتبعاً لآثاره وأخباره ، عارفاً بما قاله
وما قيل فيه .

ولد الأستاذ الجندي في معرة النعمان بلدة أبي العلاء ، ونشأ والده
تنشئة أدبية صالحة ، وحضه منذ الصغر على حفظ البارع من الشعر والحكم
من النثر ، وأولع الجندي الفتى د بشعر أبي العلاء المعري منذ حداثة سنه
وحفظ منه شيئاً كثيراً وقد تخرج بالشعر والأدب واللفظ بما درسه
وحفظه من شعر أبي العلاء وغيره ، (١) .

وتحول عن المعرة مهاجراً مع والده الى دمشق عام ١٣١٩ هـ ، وقد
نصف على العشرين من سني حياته ، ولقي فيها جماعة من علمائها الأعلام ،
فتخرج بهم ، وأفاد من صحبتهم ، وقرا عليهم الكثير من الكتب التي
كانوا يقررونها لطلابهم في شتى العلوم المعروفة يومئذ ، وذاع صيته
وعُرف فضله .

فلما قامت الحكومة العربية في دمشق ، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ،
أرادت تعريب الدواوين وتقويم الحروب المكتبة فيها ، فوكلت الى الأستاذ
الجندي وبعض زملائه أن ينهضوا بهذا العبء ، وسمته (منشأ أول)

(١) من ترجمة للرحوم الجندي لنفسه لم تنشر في حياته .

في ديوان رئاستها ، ثم انضم إلى الرعيل الأول من علماء الشام الذين أقاموا
المجمع العلمي العربي الذي ما يزال إلى يوم الناس هذا موئل العاملين في
الحفاظ على اللغة وآدابها ، ونشر تراث أعلامها .

ولما دالت الدولة العربية على يد الغاصبين الدخلاء ، انتقل الأستاذ الجندي
من ديوان رئاسة الحكومة إلى التدريس في المدارس الثانوية ، وفي مدرسة
الأدب العليا من بعد ، وخرج الكثيرين من أدباء الشام وعلمائها وباحثيها ،
ثم أحيل إلى التقاعد في أوائل الحرب العالمية الثانية ، ففرغ لتأليف فيما
اتسع له من وقت لم يتوفر له قبل أن يتحلل من قيود الوظيفة ، ومن
ذلك إتمامه تأليف هذا الكتاب عن المعري .

وكان قد ألف قبل ذلك الكثير من التصانيف والرسائل ، فمن ذلك
ثلاثة كتب سماها (عدة الأديب) جمع فيها مع زميل له طائفة من
كلام البلغاء والحكماء والعلماء والشعراء وطبعها سنة ١٣٤٥ هـ ، ثم ألف
سلسلة أخرى من الكتب سماها (عدة الأديب) جمع في كل جزء منها
ما يتعلق بكتاب واحد أو شاعر واحد من أخباره وأشعاره ودراسة آثاره ،
كأمرى القيس وابن المقفع والناطقة الذبياني وعلي بن أبي طالب . وهنالك
الكثير من الكتب والرسائل القيمة الأخرى التي نشرها في حياته ، وأكثر
منها ما لم ينشر إلى اليوم ، ككتابه الوافي في (تاريخ المعرة) الذي
لا يزال مخطوطا . وله في حجة المجمع العلمي العربي وفي غيرها دراسات
وانتقادات لغوية وأدبية كثيرة .

ووقعت له مخطوطة قديمة نادرة من (رسالة الملائكة) للمعري ، فشرعها
وحققها وفسر شواهدا وإبان عن أصحابها وترجم لهم . وقد طبعها المجمع

الطبي العربي في دمشق عام ١٣٦٣ هـ بمناسبة المهرجان الذي أقيم يومئذ
لمرور ألف عام على ولادة العربي .

٢- ومن أعظم الكتب التي ألفها الأستاذ الجندي ولم تنشر في حياته
هذا الكتاب الذي يرى القارئ جزء الأول في الصفحات التالية ، وهو
أجمع كتاب فيما نعلم لأخبار أبي العلاء ودراسة أشعاره وأدبه ، وفيه
تحقيق كبير لما كُتب في أبي العلاء أو نسب إليه ، وتصحيح لما اعتور
هذا أو ذاك من الخطأ .

وقد تتبع المرحوم الجندي ما كُتب عن حكيمة المرأة ، وقص آثاره
أثراً بعد أثر ، ووضع هذه المادة الضخمة الغزيرة من الأخبار والآثار في
ميزان المحاكمة والمناقشة العلبتين ، فخرج منها إلى نتائج فيها الجدة والإصابة
والحجة القاطعة .

وهو إذ قص آثار هذه الأخبار في مظانها التي استطاع الوقوف عليها
وأغاد منها وتكلم عنها أشار أحياناً إلى هذه المظان وأحال عليها ، إلا-
أنه كثيراً ما اقتصد في ذلك ، كما ترك جل النصوص والمقطعات والأبيات
العلائية وغيرها مهمة من الضبط بالشكل . ويبدو أن الأستاذ الجندي
بعد أن أنجز كتابه الجليل هذا ، وأتم تنقيحه ، لم يقطع برأي في تسمية
الكتاب ، ولذلك ترك مكان اسم الكتاب في التوطئة ص ٩ أبيض ،
فرأى الجمع معنا أن يسمى (الجامع في أخبار أبي العلاء العربي وآثاره)
نوعياً للدلالة بالعنوان على المضمون .

وحينما شرعنا في النظر في الكتاب وإعداده للطبع استوفينا ما اقتصد
فيه الأستاذ الجندي ، فضبطننا النصوص العلائية المنظومة والمنثورة بالشكل

الكامل ، وأما القول فضيطنا منها ما نخدس أن فيه بعض اللبس على القارئ ، وأحلنا القول إلى مظاهها ، وأكلنا بعض النصوص العلانية حبا يقتضيه مقام إيرادها ، وأشرنا إلى مواضعها في آثار أبي العلاء .
ثم أوضحنا بعض ما يشكل في إيراد النصوص ومعانيها بالتعليق والشرح ، وأثبتنا كل ذلك في حواشي الكتاب .

ولكيلا يقع اللبس بين ما صنعه الأستاذ الجندي من تعليقات وشروح وإحالات ، وبين ما وضعناه ، أشرنا إلى ذلك بإشارة مميزة ، فألحظنا بكل تعليق أو إحالة أو شرح للأستاذ الجندي الحرف (ج) الحاط به لابن أسودين . وتركتنا ما أضفناه من تعليقات وإحالات وشروح غفلا من أي رمز أو إشارة .

وكانت عدتنا في هذا العمل الكتب والمصادر التالية :

ديوان اللزوميات — الطبعة الهندية سنة ١٣٠٣ هـ وقد رُمز إليها في الحواشي بالحرف (هـ) .

رسالة النفراث للعري — تحقيق بنت الشاطيء — الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠ القاهرة .

رسالة النفراث ورسائل أخرى — تحقيق كامل كيلاني طبع القاهرة سنة ١٣٥٩ هـ .

ملق السبيل — للعري — تحقيق كامل كيلاني طبع القاهرة سنة ١٣٥٩ هـ .

وسائل أبي العلاء المعري — شرح شامخ عطية — طبعة بيروت سنة ١٨٩٤ م .

رسالة الملائكة — للعري — تحقيق سليم الجندي — المجمع للعلم العربي

سنة ١٣٦٣ هـ .

النصول والغايات — للعري — شرح زغاني — طبعة القاهرة سنة ١٣٥٦ هـ .

- شروح سقط الزند - طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٥-١٩٤٨ م .
- تعريف القدماء بأبي العلاء - طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٤ م .
- أبو العلاء وما إليه ، وضيئه فائز شعر أبي العلاء - للبني الرابحوتي - طبعة مصر سنة ١٣٤٤ هـ .
- ذكرى أبي العلاء - للدكتور طه حسين - الطبعة الثانية - مصر سنة ١٩٢٢ م .
- أوج التحري عن حجة أبي العلاء المعري - يوسف البديمي - تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني نشر المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٤٤ م .
- زبدة الحلب في تاريخ حلب - لابن العديم - تحقيق سامي الدمان - منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٤ م .
- ديوان مر بن الرودي - طبعة الجرائب الفلسطينية سنة ١٣٠٠ هـ .
- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب - ليازجي - طبعة بيروت سنة ١٣٠٥ هـ .
- ديوان أبي غنم - شرح الحياط - طبعة بيروت سنة ١٣٢٣ هـ .
- الأعلام - خير الدين الزركلي - الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ .
- ديوان البحري - طبعة بيروت سنة ١٩٢٤ م .
- ديوان ذي الرمة - طبع مطبعة كامبردج سنة ١٩١٩ م .
- ديوان جرير طبعة القاهرة سنة ١٩٣٥ م الطبعة الاولى .
- ديوان ابن الرومي - شرح كامل كيلاني - طبعة القاهرة .

— ١ —

ديوان ابن أبي حبة — تحقيق محمد أسعد طلس — منشورات المجمع
العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٧٥ هـ .
هذا وتقدر أن يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء أو أربعة ، وفيما يلي
الجزء الأول .

دمشق في { صفر سنة ١٣٨٢
وقوز سنة ١٩٦٢

عبد الرهمن هاشم



بسم الله الرحمن الرحيم

نوطة

الحمد لله على نعمه التي لا أحيط بها عدداً ، ولا أحصي عليها ثناء ،
ولا أطيق لها شكراً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اصطفاه من
صفوة خلقه ، وأرسله رحمة للعالمين ، وهادياً للضالين ، فأوضح الحق ،
وأنار الحق ، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بآياته البينة ،
وحكته الباهرة ، وموعظته الحسنة ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه
وتابعيه الى يوم الدين .

أول اتصال بأبي العلاء المغربي وسيرة

وبعد ، فإن والدي ، تمتدح الله برحمته ، كان مولعاً بأبي العلاء ،
حريصاً على الاطلاع على أخباره وآثاره ، وقد كنت شرعت في الدراسة
في المعرة منذ سنة ١٣١٠ هـ الى سنة ١٣١٩ هـ تقريباً ، ولم يكن في
ذلك العهد في المعرة ، من أدناها الى أقصاها ، شيء من كتب أبي العلاء
[سوى نسخة مخطوطة من (سقط الزند) مكتوبة منذ ستائة سنة كانت
ملئكا لم أبي السيد أمين الجندي مفتي المعرة ودمشق ، استولى عليها بعض
أقاربنا ، وأخفاها عنا هو وعقبه ، ثم رأيتها عند بعض حفدته في نحو
سنة ١٣٦٥ هـ] .

فكان والدي كلما وقع إليه شيء من كلام أبي العلاء يثقه ودفنه إليّ
لأحفظه . ثم هاجرت إلى دمشق سنة ١٣١٩ هـ ، فاطلعت على جملة من

كتب الأدب ، وعلى طائفة مما كتب العلماء في أبي العلاء ، وعلى جملة من آثاره المخطوطة والمطبوعة ، وكنت شديداً شاكاً من العلوم الشرعية والفنوية والاجتماعية ، ورأيت فريقاً من العلماء يستشهد بأقوال أبي العلاء في المباحث الفغوية والأدبية والدينية والاجتماعية والسياسية ؛ وفريقاً آخر ينقد أقواله ويقند آراءه .

وكان قد اجتمع لديّ جملة صالحة من كلامه المنظوم والمنثور ، واطلعت على ما طبع من آثاره وأشعاره ، فأمنت النظر في أقواله وآرائه وتفكيره ، فهاهي من ذلك أمراّن : (١) ألفاظ أبي العلاء ومعانيه ، (٢) تألب العلماء والأدباء عليه ، والدعوة السبئة إلى شعره للتشغير منه :

(١) ألفاظ أبي العلاء ومعانيه :

الأمر الأول : ما رأيت في كلامه من الدقة في استعمال الكلمات وإحكام وضعها في المواضع اللاتقة بها ، ومن قوة التأليف مع طلاوة وانسجام ؛ وكثرة المعاني المبكرة ، وروعة الصور المتخيلة ، ووفرة الأمثال والحكم ، والتلحيع إلى مصطلحات علوم متعددة ، وحوادث تاريخية . ومن غريب ما رأيت من قدرته وتفته تصغيره المعنى الكبير وإفراغه في قالب موجز مقول واف بالقصود ، كما يتراءى ذلك في قوله من أبيات يصف فيها خرقاً : أي فلاة واسعة :

وَتَكْتُمُ فِيهِ الْعَاصِفَاتُ نَفُوسَهَا فَلَوْ عَيْشَتْ بِالنَّبْتِ لَمْ يَتَأَوَّدِ^(١)

نقد صغر العواصف ، وأضعف تأثيرها ، وأفرغ هذا المعنى الضخم في هذا البيت الموجز السهل المنسجم ، وأبدع في قوله : (وتكتم ..)

(١) شروح سبط الزند ق ١ ، ص ٣٧٧ ، وفيها : « فلو صفت بالنبت » . وفي شرح الخوارزمي : « ولو صفت » .

ولا يقل عنه في ذلك قوله من أبيات يصف فيها مَنهلاً :
يَعْرِ به رَأْدُ الضُّحَى متَنَكِّراً غِخَافَةً أَنْ يَغْتَالَهُ بِقَتَامِهِ^(١)
فإنه جعل الضحى متنكراً يخفي نوره غخافة اغتاله ، وأمثال هذا
كثير في كلامه .

ومن التريب أيضاً ، الكثير في كلامه ، انتزاعه من الأشياء القريبة التي
لا يكثر بها غيره معاني عالية أو استعمالها في أغراض عالية كالحكمة
والتشبيه وما أشبهها ؛ فانظر إلى المعاني التي انتزعها من الإنسان وأعضائه
حيث قال في العين :

أَحْسِنَ جَوَاراً لِلْفَتَاةِ وَعُدَّهَا أَخْتَ السَّمَاءِ عَلَى دُنُو الدَّارِ
كَتَجَاوَرَ الْعَيْنَيْنِ لَنْ تَتَلَفَيَا وَحِجَاؤُ بَيْنَهُمَا قَصِيرُ جِدَارِ^(٢)

★ ★ ★

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْفِرُ الْأَبْصَارَ رُؤْيَتَهُ وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لِالْلَّجْنِ فِي الصَّغْرِ^(٣)
وفي الجفن :

كَمَا أَغْضَى الْفَتَى لِيَذُوقَ غُمْضاً فَصَادَفَ جَفْنُهُ جَفْناً قَرِيباً^(٤)

★ ★ ★

حَصَلْنَا عَلَى التَّمْوِيهِ وَارْتَابَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ فَعَدَدَ الْعَيْنَ رَيْبٌ مِنَ الشُّفْرِ^(٥)

-
- (١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ . وإتمام كتاب : النبار .
(٢) الزويمات ص ١٦٤ وفيها : دَيَّيْتُهُمَا . وفي القاموس : العين : الناحية والفصل
بين الأرضين .
(٣) شروح سقط الزند ، ق ١ ، ص ١٦٢ ، وفيها : «الأبصار صورته » ، ولها أصح .
(٤) شروح سقط الزند ، ق ١ ، ص ٢٣٨ .
(٥) الزويمات ص ١٤٧ ، والدُّرُّ بالضم : أصل نبات الثمر في الجفن .

وفي الأذن والشم :

أَصْمْتُ وَإِنْ تَابَ فَأَنْطِقْ نَصْفَ مَا سَمِعْتُ

أُذْنَاكَ فَالْقَمُ نَصْفُ اثْنَيْنِ فِي الْعَدَدِ^(١)

وفي الريق :

فَرَبَّمَا ضُرَّ خِلٌ نَافِعٌ أَبَدًا كَالرَّيْقِ يَحْدُثُ مِنْهُ عَارِضُ الشَّرْقِ^(٢)

كَانْفَاقِهِ مِنْ عَمَرِهِ وَمَسَاغِهِ مِنْ الرِّيقِ عَذَابًا لَا يُحِسُّ لَهُ طَعْمًا^(٣)

وفي التواجد من أبيات يصف فيها حن اقامية :

وَحِيدًا بِشَقْرِ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ بِفِيهِ مُبَقًى مِنْ نَوَاجِذِ أَذْرَدِ^(٤)

وفي القلب :

وَسُمَيْلٌ كَوْجَنَةُ الْحَبِّ فِي اللَّوْنِ وَقَلْبُ الْمَحَبِّ فِي الْخَفَقَانِ^(٥)

مَهْجَتِي ضِدِّي يَحَارِبُنِي أَنَا مَتَّى كَيْفَ أُحْتَرَسُ^(٦)

وفي اليد :

وَالْكَفُّ تَقْطَعُ إِنْ خِيفَ الْمَلَاكُ بِهَا عَلَى الذَّرَاعِ بِتَقْدِيرٍ وَتَسْبِيبِ^(٧)

فَلَوْ بَانَ عَضْدِي مَا تَأَسَفَ مِنْكِي وَلَوْ بَانَ زَنْدِي مَا بَكَتَهُ الْأَنَامِلُ^(٨)

-
- (١) اللزومات ٥ ص ١٠٩ ، وفيها : « شطر ما سمعت » .
 (٢) شروح سطر الزند في ٢ ، ص ٦٨٧ ، وفيها : « يحدث عنه عارض » .
 (٣) اللزومات ٥ ص ٢٣٩ .
 (٤) شروح سطر الزند في ١ ، ص ٣٦٣ .
 (٥) شروح سطر الزند في ١ ، ص ٤٣٣ .
 (٦) اللزومات ٥ ص ٣١١ .
 (٧) اللزومات ٥ ص ٥٠ .
 (٨) شروح سطر الزند في ٢ ، ص ٥٣١ ، وفيها : « ولومات زندي » .

وفي الظفر :

أَنْفِقْ لِتَرْزُقَ فَالْثَرَاءُ الظَّفَرُ إِنْ يُتْرَكَ يَشِينُ وَيَعُودُ حِينَ يُقْلَمُ^(١)

وفي الرجل :

وَقَسْ بِمَا كَانَ ، أَمْرًا لَمْ تَكُنْ ، تَرَهُ

فَالرَّجُلُ تَعْرِفُ بَعْضَ الْمَوْتِ بِالْخَدَرِ^(٢)

وفي الأنفاس :

يَفْنِي الزَّمَانُ وَأَنْفَاسُ الْأَنَامِ لَهُ خُطَى بَيْنَ إِلَى الْأَجَالِ يَزْدَلِفُ^(٣)

عَمْرِي غَدِيرٌ كُلُّ أَنْفَاسِي بِهِ جُرْعٌ تَعَادَرَهُ كَأَمْسِ النَّاصِبِ^(٤)

وفي الشيب :

هَذَا الْبَيَاضُ رَسُولُ الْمَوْتِ يَنْبَعُثُهُ فِي كُلِّ عَصْرِ إِلَى الْأَجْيَالِ وَالْأُمَمِ^(٥)

وفي الجسم :

وَالْجِسْمُ ظَرْفٌ نَوَائِبٍ وَكَأَنَّهُ ظَرْفٌ يُؤَخَّرُ تَارَةً وَيَقْدَمُ^(٦)

وأشال هذا كثير في شعره . وربما استعمل الضم الواحد في أغراض مختلفة ، وصور متعددة .

ومن الغريب أيضاً انتزاعه الحكمة أو المثل من أصغر شيء وأنتهه إلى أكبر شيء وأعظمه ، وذلك مثل قوله :

(١) الزوميات ٥ ص ٢٣٦ .

(٢) الزوميات ٥ ص ١٤٩ ، ولعل صحيح الرواية : « لم يكن »

(٣) الزوميات ٥ ص ٢٩١ .

(٤) الزوميات ٥ ص ٥١ .

(٥) الزوميات ٥ ص ٢٤٨ .

(٦) الزوميات ٥ ص ٢٣٦ .

من يفقد الحس لا يُعرف بمخزية إن الذباب متى يعلو الجنى ينم^(١)

والنحل يجني المر من نور الرُّبى فيعودُ شهداً في طريق رُضابه^(٢)

فإن أبا الأشبال يخشاه مثله ويأمنُ منه أرضٌ ونِمال^(٣)

حساطرٌ في صمته من دم الفتى فصغر ذاك الصمتُ مُعظَمَ ذنبه

ولم يك في حال البعوض إذا شدا له نغمٌ عالٍ وأنت أذ به^(٤)

ولا تحتقر شيئاً تساعفه به فكم من حِصاةٍ أيدت ظهراً مجذلاً^(٥)

ومن الغريب أنه يذكر الكلمة التي لها أكثر من معنى واحد ويريد بها معنى معيناً، ولكنه يذكر شيئاً من خصائص معنى آخر ليوم أنه يريد به ، وذلك مثل قوله المتقدم : (وحيد بنثر المسلمين . . . الخ) فإن الثغر يطلق على الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو . وهو المراد هنا ، ويطلق الثغر على البسم وعلى الثنايا ، فلما ذكر الثغر ذكر بعده الفم والنواجذ والأردود وهي من خصائص المعنى الآخر . وقد أبدع في التشبيه والتشجيع ، ومنه قوله : إذا صدق الجده افتقرى العم للفتى مكارم لا تُكرى وإن كذب الخال^(٦)

(١) الزويات ٥ ص ٢٤٨ ، وفيها : « نلر » .

الجنى : السل وما يجني من الشجر مادام غصاً . ووم الذباب يذيم كوعد ونياً : خرى . (ج)

(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٧٢٠ ، وفيها : « فيعبر شهداً » .

(٣) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٠٦١ ،

الأرض : قال في النور : ضرب من الدود يقع في الورق ، ولم أر هنا الجمع

ولله جمع أرض ، وهي دودة تاكل الخشب ودودة تنور في الرمل : بنات النمل (ج)

(٤) الزويات ٥ ص ٤٨

حساطر : حشرات بدنية ، الطاسر : البرغوث ، أذ من أذى : الشدب الحاذي .

(٥) الزويات ٥ ص ٢١١ ، والمجدل كبير : القصر .

(٦) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٢٦٢ ، وأكرى هاهنا : هوى .

فإن الجذ يطلق على الحظ وهو المراد هنا ، ويطلق على أبي الوالد ، وقد ذكر العم والحال ليوم أنه يريد المعنى الآخر ، وكذلك العم يطلق على الجماعة وعلى أخى الأب ، وكذلك الحال يأتي بمعنى الظن وبمعنى أخى الأم ، وهنا أبدع في كل وأجاد . ومن هذا القيل قوله في النوق :

حُرُوفٌ سُرَى جَاءَتْ لِمَعْنَى أَرَدْتُهُ بَرْتَنِي أَسْمَاءُ لَهْنٍ وَأَفْعَالٌ^(١)

وقوله :

كُلُّ الْبَرِّيَّةِ شَاكٍ لَوْ سَمَا زَحَلٌ إِلَى السَّمَاءِ رَأَاهِ يَشْتَكِي الْعَزَلَ^(٢)

فإن الحُرُوفَ جاءت بمعنى النوق ، وبمعنى الألفاظ المعروفة عند النحويين ، وقد ذكر المعنى والأسماء والأفعال وهي من خصائص المعنى الثاني . وإن لفظ (شاكٍ) جاء من شكاه إذا أخبر عنه بسوء فعله به ، وجاء مقلوبا من شائك من الشوكة وهي الحد والقوة في السلاح ، يقال : « شائك السلاح وشاكي السلاح » ، وقد ذكر « العَزَل » وهو الاسم من قولهم : رجل أعزل أي لا سلاح معه أو الذي لا رمح له . وفي النجوم ، سما كان : أحدهما السِّبَاك الرامح وهو الذي قدامه كوكب كأنه رمح له ، والثاني السِّبَاك الأعزل وهو الذي لا كوكب أمامه ، ويسمى « أعزل » لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب كالأعزل الذي لا سلاح معه ، ولما ذكر العَزَلَ ذكر لفظة شائك ليوم أنه من شاكي السلاح .

ولو استقرينا ما في أقواله التي أتبع لنا الوقوف عليها من هذا النوع لتحصل لدينا منه ديوان واسع جامع لأنواع مختلفة من الحكم والأمثال والتشبيهات الرائعة والصور الحيايلة وغو ذلك من أقانين الشعر وبدائنه . وقد تبين لي بعد البحث والإمعان أن أبا العلاء متسكن في علوم

(١) فروع سطر الزند ق ٣ ، ص ١٢٥٥ .

(٢) الزوحيات ص ٢٠٤ .

كبيرة ، وله في كل فن مناقشات ومعارضات وآراء تدل على رصوخه فيه ، لا سيما العلوم الشرعية والفقهية . وإن سعة لغته واستثنائه بالألفاظ التي يراها غيره غريبة ، وحبه للجnas والتورية ومراعاة النظر وغيرهما من الصناعات البديعية ، وميله الى الأسلوب المتين الجزل حمله على استعمال ألفاظ وجل أدى الى أن يخفي كثيرا من حكمته الفائقة ومعانيه البديعة فلا ينسى لكل أحد فيها إلا باستعانة كتب اللغة والأدب لفهم المراد منها وإدراك النكتة التي تشتمل عليها . وكذلك كثرة ما في كلامه من الإشارة إلى المصطلحات العلمية والحوادث التاريخية جعل فهم المقصود منها موفوقا على معرفة ذلك ، إذ لا يمكن فهمها إلا للعالم بها .

ورأيت بعض أقواله يناقض بعضاً آخر بحسب الظاهر ، ولكنه عند التأمل لا تظهر عليه مسحة التناقض ، لأنه استعمل كل مقال في مقام يوافقه .

(٢) تأييد العلماء والدعاة السيرة الى شعره للتفسير

الأمر الثاني : أني رأيت كلمة العلماء في أبي العلاء مختلفة ، وآراءهم متفاوتة ، وعلى أكثر أقوالهم مسحة من الحداد والتعصب الشديد والتقليد الأعمى والجهالة .

فإن فريقاً منهم ينقل عنه ما رأى أو ما سمع من غير تبيين ولا تمحيص ، وفريقاً يلحق بكلامه ما ليس منه وآخر ينسب إليه أموراً لا يؤيدها العقل ولا يقبها التاريخ والنقل ، وفريقاً استباح لنفسه التصرف في أقواله ، فهو يروي منها ما يشاء كما يشاء ، ويفسر ما يطابق فيه لا بما يوافق الحقيقة والواقع . وأن جمهوراً عظيماً من هؤلاء اعتقد أن أبا العلاء زنديق أو كافر ، فرسخت هذه العقيدة في نفس ، فهو يصرف كل أقواله إليها ، ويفسرها بما يرجعها إلى هذه العقيدة ، وإن كان خطأه في ذلك أوضح من الفلق . ومنهم من إذا رأى في أقوال أبي العلاء ما يدل على اعتقاد حسن قال : إنه نقيّة ، أو لا يقيم له وزناً . ومنهم من لو استطاع

أن ينسب إلى أبي العلاء كل قول فيه كفر أو ما يورث الكفر لما تأخر ،
بناء على ما رسخ في نفسه .

وأغرب ما رأيت في هذه العصة أن يفهم من يكفر أنها العلاء متابعة
لغيره ، وربما كان لم يطلع على شيء من كلامه ، وفيهم من طعن فيه ليقال
إنه انتقد أبا العلاء ، وربما سجل على نفسه بسبب انتقاده هذا أنه جاهل
لا يدري ما يقول . وفيهم من قصر فهمه عن إدراك ما يريد أبو العلاء
من كلامه ، فخطب خطب عشواء ؛ وسنذكر فيما يأتي طائفة من هؤلاء وغيرهم
وأقوال كل منهم فيه .

ورأيت أكثر العلماء الشرعيين يستفرغون الجهود في التفسير من شعره
لئلا يطلع الناس على ما فيه من نقد الطاء ورؤساء المذاهب والحكومات
وحرية الفكر في المباحث الدينية والسياسة والاجتماعية ونحو ذلك مما لا نظير
له في غير كلام أبي العلاء . وقد تبين لي أن سبب هذا كله يكاد ينحصر
في أمور من أعظمها الحد من أعدائه ، والتحصن من رؤساء الأديان
والمذاهب ، وطلب الشهرة على حساب ، وتقصير الفهم عن إدراك معانيه
ومقاصده .

سبب تأليف هذا الكتاب

فلما رأيت كثيراً من هذا وأمثاله أشقت على أدبه النادر وعلمه الواسع
وحكمه الرائع وآرائه الحرة ، وحرصت على إظهار الحقيقة من معتقده ،
وإيضاح الغامض من قوله ، والدلالة على مواطن الروعة والعبقريّة منه ،
والإشارة إلى مواضع الدقة من علمه ، والحداد من رأيه ، وتبيين كذب
المفتقرين عليه ، وتحريف العابثين بأقواله بقدر ما تسامحت به الأيام ، فزمت
على وضع هذا الكتاب وسميته [.....] (١) .
وقد اضطررتني ما ألزمت به نفسي إلى أمور :

(١) يانز في الأصل وقد اخترت لاسم كتاب (الجامع في أخبار أبي العلاء وآثره) .

- ١ - أن أغزو أكثر النصوص إلى مظانها ومصادرها ، كيلا يظن أنني حرفتها أو صرفتها إلى ما أريد .
- ٢ - أن أذكر قول أبي العلاء بنفسه ، وربما اضطررت إلى ذكر ما قبله أو ما بعده ليتضح الغرض المقصود من ذكره أو ليتم .
- ٣ - أن أكرر ذكر البيت أو ما هو أكثر منه في مواطن متعددة ، للاستدلال به في كل موطن ، لأن الحاجة قد تدعو إلى الاستشهاد بالبيت الواحد في أغراض متعددة .
- ٤ - أن أكرر النصوص المنقولة للاستشهاد بها أيضا في مواطن مختلفة .
- ٥ - أن أذرح بعض الكلمات لفرض يقتضي إيضاح معانيها ، وربما دعت الضرورة إلى ذكر أصل المعنى في اللغة .
- ٦ - أن أوضح بعض العقائد والمذاهب والمزاعم ، لتبيين علاقة قول أبي العلاء بها .

الغاية من وضع هذا الكتاب :

- والذي أؤمي إليه من وراء هذه الأمور المذكورة أمور ضرورية ، منها :
- ١ - إطلاع القارئ على ما أخذ الكتاب في الأقوال والآراء المنقولة ، لتكون تبعه كل قول على صاحبه .
 - ٢ - وإطلاعه على أقوال أبي العلاء بنفسها ليأمن التعريف والتلاعب بالنقل ، وليطلع على ما لم يطلع عليه من أقواله ، ويستغني عن الرجوع إلى كبة لمعرفة قوله ، وليرى بعينه ما فيها من جمال تأليفه وطلاوة ديباجته وإشارات ونكت وإيجاز ونحو ذلك من محسنات وأضدادها ونحوه .
 - ٣ - وإطلاعه على ما وقع لبعض العلماء من تصرف في كلام أبي العلاء بزيادة أو نقص أو تحريف أو تصحيف ، ومن افتراء عليه ، وصرف

لأقواله إلى ما لم يرد ، ومن ضعف مدارك بعضهم عن فهم كلامه حتى عبثوا به وكفروه ظلما وجهلا .

وإيضاح مثل هذا وتأييده أو إدحاضه ، وإقامة الأدلة عليه إثباتا أو نفيا ، والاحتشاد له أو عليه وما شاكل ذلك ، يعوز إلى بسط وتطويل وإعادة وتكرير .

تقسيم الكتاب وترتيبه

ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة وأربع مقالات وخاتمة : -

أما المقدمة فانها تتضمن لمحة موجزة من أحوال الشر والشراء وعلاقة أبي العلاء بها ومنزله منها . وفيها ذكر مولده واسمه ونسبه وميلاده ومماته ، وتشتمل على اعراض بملل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية في عصره ، وتحت هذا أنواع من العلوم المعروفة في عصره ، والخطابة والكتابة والشر والرواية لتشتمل أمام القارئ صورة من حياة الأمة بجميع أنواعها المذكورة .

وأما المقالات ، فالقالة الأولى منها تشتمل على جزء من حياته من سنة ٣٦٣ هـ إلى ٤٠٠ هـ وفيه الكلام على نشأته وتعلّمه وبعض علماء المرة وأدبائها في عهده ، والطريقة التي تعلّم عليها ، وشيوخه والزمان والمكان اللذين أتم فيها تعلّمه ، ورحلاته إلى بعض البلاد الشامية وبغداد ومن عرفه فيها والجالس العلمية فيها ، ووداعه إياها وحنينه إليها .

وأما المقالة الثانية : فإنها تشتمل على حياته في المرة بعيد رجوعه

من بغداد سنة ٤٠٠ هـ إلى آخر ممّره سنة ٤٤٩ هـ . وفيها الكلام على ماله وطعامه ولباسه وفرائشه ومسكنه وأخلاقه واعتقاده في الخير والشر وتشاؤمه ورافته ورجائه وخوفه ومعتقده ومزاعم الناس فيه ورميه بالإلحاد والشك ، ونعته بأنه معتزلي وجبري ويومئ ونحو ذلك ، ووصفه بالتبعية .

وخلامة ما أراه في اعتقاده بأفقه ورسله والملائكة والجن والحشر والنشر ولزومه بيت وحليته ومرضه ووصاياه ووفاته وقبره وما رُئي به والرائون وكيف رؤي في النوم بعد موته .

وأما المقالة الثالثة : فتشتمل على شهرته ، وتلاميذه والذين كاتبوه نظما ونثرا ، وزواره في المرة ، ومنزله عند الملوك والعظماء ، وأقواله الطاء فيه مدحا وفضا ، وفضة الضيوف الحنين وسقوط الدار عليهم ، وما ألف في مدحه وذمه ، والذين ردوا عليه بعض أقواله ، وذكره بدهاءه وثقته بطله ونقده وما كبه وما ألفه من الكتب ، وثقته في اسمائها واساليبها وانغراضها ، وكتابه وثقافته في العلوم الشرعية واللغوية وغيرهما ومصادرها ، والكتب التي ذكرناها في كلامه وأسماء العلماء والأدباء والشعراء الذين ذكروهم .

وأما المقالة الرابعة : فهي تشتمل على بحث ودراسة لكلامه في نثره وبيات خصائصه والأغراض التي كتب فيها ، والتقليد والتجديد في نثره ونقسيه بحسب الزمان ومميزات كل طور ، وما ألفه العلماء في الاحتذاء على مثاله أو معارضة .

وتشتمل أيضا على مباحث في علاقته بالشعر ، وابتداء قوله إياه ، وتقسيم شعره بحسب الزمن وخصائصه وأطواره وتاريخ بعض قصائده وإبياته ، والكلام في (ديوان الغزل) ، و (سطر الزند) ومقدمته وشخصيته فيها وأسلوبه فيه ، والتقليد في شعره وما أخذه من غيره ، والأغراض التي يشتمل عليها من غزل ومدح ورناء وغيرها ، وفيها الكلام على (لزوم ما لا يلزم) ، ومقدمته وشخصيته فيها وترتيبه وأسلوبه ، ونسخ اللزوم وما فيها من تحريف وخطأ في المتن والشرح ، ومعرفة أقواله ، وفلسفته ومنشأها ومصادرها واتصالها بها ومصادرها وموضوعها ، والفلسفة الطبيعية والرياضية ،

واعتقاده في الكواكب وتأثيرها ، والفلسفة الإلهية : الروح والجسم بعد الموت وحس النبات والجماد والتأخخ والحلول والملائكة والجن والنبوت والكتب والشرائع والمزاعم والاديان والمذاهب ، وما أنكر عليه من كلامه بعض الفرق المسلمة والحشر والنشر . والفلسفة العملية : أصل الانسان وغرائزه ونقد المجتمع وطبقات الناس ورؤساء الأمم غير المسلمة ، وأحكام عامة على الناس ، ومحاولة إصلاح البشر والإخفاق فيها وتفاوت الناس وتساويهم في رأيه ، والزواج والمرأة والنسل والعدم والوالدان والولد والرفق بالانسان وترك الحروب والاشتراك بها والرفق بالحيوان والاخلاق والعزلة والسياسة وولاية الأمر والرعية والدنيا والإسلام والحظ في الإنسان والحيوان والجماد والصمت والنطق والحمد والمال والحر .

وأما الخطاة فهي تشتمل على طائفة مما يمكن استنتاجه من أقواله من الأخلاق والعادات والمواضعات والمزاعم .

مقدمة الكتاب

لمة عن الشعر والشعراء

أتى على الأمة العربية حين من الدهر كان فيه الشعر أعظم مظهر للحياة العقلية عندها ، وأجل معرض تعرض فيه غرات الفرائح ونتائج الفكر ، وأوسع ميدان يتبارى فيه ذور الفصاحة واللحن . وقد كان الشعر العربي ، ولا يزال ، يحتفظ لنفسه بأكثر هذه الخصائص . وإذا استقرينا أحواله وأطواره في العصور القليلة والحاضرة رأيناه قبل الإسلام خاضعا لسنن الجمالية ، جاريا على وفق الأهواء التي يستنبها أهل ذلك العصر ، بعيدا عن الاتصال بالعالم إلا ما وقع على سبيل الاتفاق ، لأن جمهرة الأمة في ذلك العهد ليست لها صلة بالعلم ، ولا بينها وبينه جامعة تجمعها .

ثم لما جاء الإسلام واستنفذ العرب من هوة الجهل ، وفتح لهم طريقاً لاجباً إلى العلم ، انجى الشعر نحو العلم ، واتصل بأجزائه ، وقد غرست مقدمات ذلك في بدء الإسلام ، ثم انخل عودها في أخريات العصر الأموي ثم أبنعت في النصف الأول من العصر العباسي ، وبلغت ما لم تبلغه في عصر قبله . ثم قبل عودها وصوت نبتها بعد ، حتى أصبح هتافاً تذروه الرياح . ولم أر شاعراً يضاهي أبا العلاء المبري أو يدانيه في إخضاع العلم والفلسفة للشعر .

تقسيم الشعراء

وإذا استقصينا أحوال الشعراء ، وسبرنا أغوارهم في كل عصر منذ

عرف العرب الشعر إلى هذا العهد ، تبين لنا أن الشعراء أربعة : شاعر
قصر أكثر شعره على أغراض نفسه وأهوائها فهو شاعر فردي . ومن هذا
النوع شعراء الغزل : كعمر بن أبي ربيعة ومن طبع على غراره ، وشاعر
أضاف إلى أغراض نفسه ما يتعلق ، بقبيلته فهو شاعر قبليّ أو شاعر
قبيلة ، كالنابغة ومن نسج على منواله ؛ وشاعر تجاوز ذلك إلى ما يتعلق
بالأمة كلها أو جلها فهو شاعر أمة ، كالفرزدق ومن احتذى على مثاله ،
فإنه لم يقتصر في شعره على حاجة نفسه وقبيلته ، وإنما تعداها إلى غيرها
من القبائل ، وتصدى في شعره إلى أعمال العمال والولاة والأمراء والخلفاء ،
ولكنه لم يتعرض كثيرا إلى غير العرب ؛ وشاعر لم يقتصر شعره على أمة
واحدة وإنما تناول في شعره أمة مختلفة ، فتصدى لعاداتها وآدابها وعقائدها
وما شاكل ذلك فهو شاعر عالمي .

هوقفة بالشعر ومزلة بين الشعراء

ولا أعرف أحدا من شعراء العرب أجدر بقلب (الشاعر العالمي)
من أبي العلاء ، ولا من سواه في شمول مباحثه الأهم التي كان لها في
عهد شأن يؤهلها للتصدي لذكرها ، وليست لأبي العلاء هاتان الخاصتان
فحسب ، وإنما له من الخصائص والمزايا كثير مما ليس في غيره من الشعراء ،
وسنذكر جملة منها نبين فيها أنه جدير بالدروس والبحث والعناية بإظهار
قيته العلمية والأدبية أكثر من غيره من الشعراء ، وأن حقيقته العلمية
لا تزال بعيدة عن متناول كثير من الناس ، وإنما عرفوا منها ما قرب
وهان ، وألما به الإمام الطبراني بالجزء ، أو الإمام طبر الماء بالعس^(١) .

عناية العلماء بأبي العلاء

وقد عني جماعة من المستشرقين بأبي العلاء ، فترجموا (لزوم ما لا يلزم)

(١) والتأس : ضرب من البُر (الحان) .

إلى اللغة الألمانية ، وترجموا (رسالة الفجران) إلى اللغة الإنكليزية ، وترجموا
قطعا من نظمه ونثره إلى الإفرنسية ، وأفاضوا في بيان فلسفته ، وأطالوا
القول في بيان 'نبغه' وعبقريته .

وعني جماعة من علماء العرب وأدباؤهم في القديم والحديث بأبي العلاء
عناية شديدة ، وأكثروا القول في زندقته وإلحاده ، وتولى الانتصار له
فريق منهم .

وفي هؤلاء فريق حاول أن يظهر فضل أبي العلاء ، وآخر أراد أن
يظهر فضل نفسه على حساب أبي العلاء ، وفي كلا الفريقين من لم يوفق
في بعض عمله ، وفيهم من أخطأ في كثير من الآراء والاستنباط ، ومن
أخطأ لاعتماده على قول غيره من غير تثبت ، شأن العلماء والمؤلفين ، وسنبين
ذلك في فصل خصصناه بمن كتب في أبي العلاء ، إن شاء الله تعالى .

وقد غرّبت 'بأبي العلاء' ، وغرّيت 'حبه' في صدري ^(١) قبل أن أبلغ
الحلم ، لأنّ شعره ونثره كانا في المرة في ذلك العهد أعز من الأبلق
العفوق ^(٢) ، ومن بيّض الأثوق ^(٣) ، فكان والذي رحمه الله إذا
ظفر بشيء من شعره حضني على حفظه ، فشببت 'وشبت على حبه' وحب شعره .
وزادني ولعا به ما بيني وبينه من الصلات والجوامع ، إذ تجمع بيتنا
وحدة الدين والوطن والجنس ، وقد نتحد في الموى والنزعات كثيرا ،
وقد تخرجت به في الشعر .

ولما شرعت في تدوين تاريخ المرة ^(٤) رأيت أن صدره لا ينسجم

(١) غرّيت بالعني : أولع به وغرّيت العني في صدره : لست به كالغاف السق بزراء (ج)
(٢) الأبلق العفوق : تحول الرب : طلب الأبلق العفوق : أي ما لا يمكن ، لأن الأبلق
الذكر ، والعفوق : الحامل .

(٣) بيّض الأثوق : الأثوق : الرخة ، وليل : ذكر الرخم ، وفي التل : أعز من ييض
الأثوق ، لأنها غرّزه فلا يكاد يظفر به لأن أوكارها في رؤوس الجبال (السان: أق) .

(٤) كتاب جليل خفف المؤلف مخطوطاً ، ولم يهد أحد بدو للمطبعة

لترجمة أبي الغلاء ، وأحييت أن أدلي دلوي في الدلاء ، وأزج برأي بين
الآراء ، ولا أبالي أن أعد بمن كتب فيه ليظهر فضله ، أو ليظهر فضل
نفسه على حسابيه ، بعد أن استفرغت المجهود في البحث والاستقراء والجمع
لا تفرق من أخباره وأقوال الناس فيه بقدر ما سمعتني به الأيام .
وآثرت الابتداء بذكر بلاده ومحتده ، وما يتصل بها ، لأنني رأيت
بعض من كتب فيه لم يصب شاكلة الصواب في بعض المباحث المتعلقة بها .

(١)

مولد أبي العلاء

ولد أبو العلاء في مدينة مرة النعمان . وقد اختلف العلماء في الأصل الذي اشتق منه لفظ المرة ، وفي المراد منه ، والأصل القوي في لفظ المرة هو موضع القمر أي الجرب ، وقد جاء في اللغة لمعان كثيرة ، منها : الإغم والغرم والدبة والجنابة وتلون الوجه من الغضب والأمر القبيح والأذى والشدة والسبة والأمر المكروه وكوكب دون المجرة من ناحية القطب الشمالي ، وقد قيل لرجل نزل بين حين من العرب : أين نزلت ؟ فقال : نزلت بين المتعة والتجعة ؛ والمجرة التي في السماء : البياض المعروف ، والمرة ما وراءها من ناحية القطب الشمالي ، سميت مرة لكثرة النجوم فيها . وقد أراد أنه نزل بين حين عظيمين لكثرة النجوم . والعرب تسمي السماء الجراء ، لكثرة النجوم فيها تشبها بالجرب في بدن الإنسان . وقالوا : أرض مرة ، إذا انجرد نباتها ، وأرض مرة ، إذا كانت قليلة النبات . وقد جاء في كلام مر بن الخطاب [ض] : « اللهم إني أروأ إليك من مرة الجيش » ، قيل : هي أن يزلوا بقوم فيأكلوا من زروعهم شيئا بغير علم ، وقيل : أن يقاتلوا بدون إذن الأمير .

والمرة اسم لهذه المدينة والقرى كثيرة من عملها وعمل حماة ودمشق ونصيبين وحلب وغيرها ، منها ما هو باق إلى هذا العهد ، ومنها ما انطمست معالمه واندرس أثره ولم يبق إلا ذكره وخبره .

(١) للولد يأتي بمعنى زمان الولادة ومكانها هو الثاني هو المراد هنا . (ج) .

وفي حمل المعرة إلى هذا اليوم قرية يقال لها معرة حرمة ، وأخرى معرة بيطر ، وثالثة معرة ماطر ، ورابعة معرة الصبن وغيرها . وكان في المعرة محلة يقال لها معرة' عليها أو قرية' ولا تعرف الآن .

وفي حمل المعرة قرى كثيرة يقال لها مَعَرّ بلاهه مضافة إلى اسم آخر مثل مَعَرْتَنْسَى^(١) ومعر شمارين وغيرها ، وقد ذكرنا أسماء كثير منها في كتابنا (تاريخ المعرة) ، ونقلنا عن التاج أن مَعَرّ بلاهه اسم لإحدى عشرة قرية كلها بأعمال حماة . وأن معرين اسم لقرى فيها وفي غيرها . وهذه المدينة مسماة بهذا الاسم قبل الإسلام ، وفي أول الفتح كانت يقال لها معرة حمص كما سيأتي ، وإذا تأمل الإنسان في المعاني المقدمة التي يدل عليها لفظ المعرة لا يكاد يجد معنى مناسباً تمام المناسبة لأن يكون هذا الاسم مشتقاً منه .

وقد تكلف بعض الأدباء في عصرنا من المشرقين وغيرهم وأعتوا أنفسهم لإيجاد مناسبة بين هذا الاسم ومما ، ولكنهم سلكوا في التأويل سبلا بعيدة لا تستند إلى دليل يؤيدها .

فقال بعضهم : ان لفظ المعرة أصله في السريانية «مَعَرّا» ثم حرف إلى معرة ، ومعناه الكهف ويرادفه المغارة . وزاد آخر على هذا فقال : وسميت بذلك لأن هذه المدينة مشتقة على كثير من المغاور . وثاؤها في الهمزة للتأنيث . وأخبرني عالم باللغة السريانية أن لفظة المعرة سريانية أصلها «معرقا» ومعناها : المغارة ، والجمع مَعَرّى بإمالة الراء نحو الكسرة الحالية . وقال آخر^(٢) : يجيل إلينا أنت أصله مَعَرّس النعمان ، ثم أبدلت

(١) ولها التي يقال لها الآن مَعَرْتَنْسَى . (ج) .

(٢) صاحب ذكرى أبي اللؤلؤ ص ١٠٤ . (ج) .

الثاء من السين ، وتلك لفة من لغات العرب ، ثم لما طال العهد على استعمال هذه الكلمة فتحت الميم لتتفق مع الألفاظ التي يألها العرب المتكلمون بها ... وقال آخرون : كان أهل المعرة يسكنون «سيات» ، فلما افترس الأسد ولدأ للنعمان بن بشير دفنه في موضع المعرة ، وقال لاهل سيات : من كان يودني فليبن له موضعاً عند الموضع الذي ابنته . فبنى الناس المعرة وسميت بذلك لما لحق النعمان من معرة الحزن على ولده ، وذهب آخرون إلى غير ذلك . وهذا كله من باب الظن وحب الإتيان بالغريب ، ومثله لا يصح أن يبنى عليه حكم قاطع ، وإنما يحتاج إلى دليل تاريخي موثق به . وإذا سلمنا إمكان القول الأول والثاني فإننا لا نستطيع معرفة الذي حرف اللفظ ولا الزمن الذي 'حرف فيه' ، ولا نعلم من أين جاء تشديد الراء مع أن الغالب في التحريف التخفيف لا التشديد .

ولو أننا سلمنا إمكان القول الثالث والرابع لاستصى علينا ذلك التوجيه والتأويل في بقية البلدان المسماة بالمعرة مضافة إلى لفظ آخر ، مثل معرة الحصين ومعرة الإخوان ومعرة بيطر ، ومعرة مصرين ، إذ لم يحددنا التاريخ أن الحصين نزّلوا المعرة ، ولم يعرفنا من هم الإخوان ومن هو بيطر ، ومصرين و . و . ، ولانعلم السبب الذي أوجب إضافة المعرة إلى كل واحد منها . وظاهر قول أبي العلاء :

يُعَيِّرُنَا لَفْظُ الْمَعْرِ أَنَّهُ مِنْ الْعَرِّ قَوْمٌ فِي الْعَلَاءِ غُرَبَاءُ

وما لحق التثريبُ سكانَ يَثْرِبٍ مِنْ النَّاسِ لَا بَلَّ فِي الرِّجَالِ غُبَاءُ^(١)

يدل على أن هذا اللفظ مأخوذ من العر ، وهو (٢) لا يعيب أهل هذه المدينة ، كما أن أخذ يثرب من التثريب لم يغيّر أهلها ولم يعيبيهم ،

(١) الزوميات ص ٢١ ، وفيها : « للمرة أنها . . » و « حل لحق التثريب » .

(٢) يريد أن اشتقاق المرة من العر . (ج) .

ولا يصح أن يراد غير هذا المعنى من هذا البيت ، إذ لا يستقيم التثليل بالبيت الثاني إلا على هذا التأويل .

والذي أعتدده أن جميع الأسماء لا تعطل ، ولا يجب أن يكون بينها وبين مسمياتها مناسبة ، وإذا استقام لنا ذلك في قليل من الأسماء فانه لا يستقيم في كثير منها ، ولا سيما أسماء الأعلام للأشخاص والأماكن . وإذا لم يكن لنا بد من التعليل ورد الاسم إلى أصل ، فأقرب الوجوه أن تكون مأخوذة من السريانية ثم حرفها العرب على ما في ذلك من التكلف والتعسف .

وأما النعمان الذي أضيفت إليه لفظة المعرة فقد اختلف فيه العلماء ، فذهب قوم إلى أنه النعمان بن بشير الأنصاري (١) ، كان والياً في حمص فاجتاز بالمعرة فمات له ولد فيها ، فدفنه وأقام عليه حزيناً أباناً فسميت به . وقيل : إنه تدبير ما نسبته إليه ، وكانت قبل ذلك تسمى « معرة حمص » . وقد ذكر هذه الإضافة جماعة ، منهم ابن خلكان (٢) والبلاذري (٣)

- (١) هو وأبوه وأمه صحابيون ، ولد على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة ، وهو أول مولود من الأنصار بعدها ، وكان كريماً شجاعاً شامراً ، استعمل معاوية على حمص ثم على الكوفة سنة ٥٩ هـ ، ومات معاوية وهو على الكوفة ، ثم عزله يزيد وأرسله إلى المدينة سنة ٦٢ هـ لينزع قومه عن الخروج عليه ، ثم استعمله على حمص ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا إلى ابن الزبير ، وقيل إنه دعا بعد ذلك إلى عهده ، فواجهه مروان ، ثم قتل عمرو بن الجلتى الكلابي سنة ٦٤ هـ ، ونجد أخباره وشيئاً من شعره في (تذويب الأسماء واللقب) لثعوي وأسد القابة ، و (الإصابة وابن جرير والكمال ، والسنن والأثر ، والكمال للبرد) (ج)
- (٢) هو أبو الباس أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي الأرملي . المعروف بابن خلكان للتوفي سنة ٦٨١ هـ ، له (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) كتاب في الأعيان فرغ من تأليفه سنة ٦٧٢ هـ . (ج)

- (٣) هو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري التوفي سنة ٢٧٩ هـ له كتب منها (فخوح البلدان وتاريخ الأضراف) وغيرها . (ج)

وأبو الفداء ^(١) ، وابن بطوطة ^(٢) في رحلته ، وابن العديم ^(٣) وابن الأثير في (الكامل) ^(٤) .

وقال ياقوت ^(٥) : « هذا في رأيي حبيب ضعيف لا تسمى بثله مدينة » والذي أظنه أنها سماه بالتهان وهو الملقب بالساطع وهو النعمان بن عدي ابن غطفان التنوخي .

سياثُ أو المعرة الصغرى

وقال ياقوت في (معجم البلدان) ^(٦) : سياث كانت بليدة بظاهر معرة النعمان وهي القديمة ، والمعرة اليوم محدثة ، كذا ذكره ابن الهذب في تاريخه ، اجتاز بها القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين المعري ، والناس يلقون بنيانها ليعبروا به موضعاً آخر ، فقال [أربعة أبيات أولها] ^(٧) :
مررتُ برسم في سياث فراعني به زجلُ الأحجار تحت المعاول

(١) هو الملك المؤيد اسماعيل بن علي صاحب حاة التنوخي سنة ٧٣٢ هـ له كتب منها : (توم البلدان) ومنها (المختصر في أخبار البشر) رتب على السنين وانتهى فيه إلى سنة ٧٠٩ هـ على ما قاله ابن الوردي في (تنقيح المختصر) . (ج) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الهوائي الطنجي المروفي بابن بطوطة ، بدأ رحلته سنة ٧٢٥ هـ واستمرت خاتمة وعشرين سنة . (ج) .

(٣) هو صاحب كال الدين عمر بن عبد الله القبلي المروفي بابن العديم ، وابن أبي جردة التنوخي سنة ٦٦٦ هـ ، له كتب منها : (بنية الطلب في تاريخ حلب) ومنها (رفع الظلم والتجري عن أبي اللؤلؤ المري) وورد اسمه : كتاب (الانصاف والتجري في دفع الظلم والتجري عن أبي اللؤلؤ المري) . (ج) .

(٤) هو أبو الحسن علي بن عبد الله الشيباني المروفي بابن الأثير الجزري التنوخي سنة ٦٣٠ هـ له كتب كثيرة ، منها كتاب (الكامل في التاريخ) أو تاريخ الكامل ، ابتداء فيه من أول الزمان إلى سنة ٦٢٨ هـ . (ج) .

(٥) هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحوي التنوخي سنة ٦٢٦ هـ له كتب كثيرة منها (معجم البلدان) و (معجم الأدباء - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وغيرهما . (ج) .

(٦) تعريف القدماء بأبي اللؤلؤ ، حشبة س ٤٩٤ عن معجم البلدان - ياقوت .

(٧) الصحيح أن الأبيات المذكورة لأبي الهيثم أخي أبي اللؤلؤ الصغير . (ج) .

وقد أنكر ابن العديم قول ياقوت وشنع على قائله ، حيث قال في (الانصاف) عند كلامه في الساطع [النعمان] (١) : وبعض الجهال يقول : إن معرة النعمان تنسب إليه ، وليس بصحيح بل تنسب إلى النعمان ابن بشير الأنصاري ، وكان والياً على حمص وقنشرين في ولاية معاوية وابنه يزيد . ومات للنعمان بها ولد ، وجدّد عمارتها فنسبت إليه ، وكانت تسمى أولاً « ذات القصور » . وقبل : إن سياث كانت المدينة ، وهي آفة فخرج ابن للنعمان بن بشير للتصيد ، وكان موضع المعرة أجرة ، فافترسه السبع فجزع عليه وبني له موضعاً عند قبره ، فبنى الناس لبنانه ، فنسبت معرة النعمان إليه لذلك ، وإنما نسبت الجهال المعرة إلى النعمان بن عدي المعروف بالساطع لأن أهلها كلهم أو بعضهم من بني الساطع فظنوا أنها منسوبة إليه .

وقال أبو العباس الشربشي في (شرح المقامة العربية) للحريزي : النعمان اسم للجبل المطل على المعرة فأضيفت إليه ، وقال ابن بطوطة في رحلته مثل هذا (٢) .

وقال مغلطاي في (تاريخ سلاطين مصر والشام) في ذكر ما فتحه الفرنج : معرة النعمان بن المنذر . ونسبها آخر إلى النعمان بن امرئ القيس لأنه غزا بلاد الشام غير مرة وأكثر المصائب والسبي في أهلها . وقال .. وقال .. هذا كلام طائفة من العلماء والمؤرخين في المعرة والنعمان . ويظهر للتأمل أن كل ما ذكره من الوجوه والعلل في تسميتها وإضافتها قائم على الظن ، لا يعتمد على دليل يوثق به ، ولا نص يعول عليه ، وكله بعيد عن الحقيقة . أما قول ياقوت (٣) : إن هذا سبب ضعيف لا تسمى

(١) تعريف القدماء بأبي اللاذ ، ص ٤٨٧ عن الإصناف والتحري - لابن الدمج .

(٢) تعريف القدماء بأبي اللاذ ، ص ٥٩٧ عن تحفة النظار - لابن بطوطة .

(٣) تعريف القدماء بأبي اللاذ ، ص ٥٨٥ عن مصبم البلدان - لياقوت - مع اختلاف يسير في الثقل .

بجدة مدينة ، فواضع وهو صحيح ، ويؤيده أنه لا يعرف الآن في المرة
أجدة . وموقعها بعدد عن أن يكون أجدة ، وليس فيها ماء يسبح على
وجه الأرض وفي شمالها وغربها أودية يفيض ماؤها في الشتاء والربيع ،
ولكن المدينة أعلى من هذه الأماكن .

ولا يعرف فيها قبر لابن النعمان ، ولو كان ذلك حقاً لاحتفظ الناس
به أو بآثاره ، كما احتفظوا بكثير من القبور المنسوبة إلى جماعة من
الصلحين وإن لم يكونوا مقبورين فيها حقيقة ، وفيهم كثير ممن هو أدنى
منزلة في اعتقاد الناس من ابن النعمان . وإذا فرضنا أن بني مروان درسوا هذا
القبر وطسوا معاله فليس لدينا ما يثبت به ما يدعون من إضافتها إلى النعمان .
وإذا تأملنا قول ياقوت تبين لنا أن فيه تناقضاً ، فإنه ذكر أولاً
أنها منسوبة إلى النعمان (١) بن بشير ، ثم بين أن ذلك ضعيف ، ورجح
أن تكون منسوبة إلى الساطع ، وهذا نوفي قبل الإسلام ولم تثبت وفاته
في المرة ولا نزوله فيها . ثم قال في سيات (٢) : بليدة بظاهر معرة
النعمان وهي القديمة والمعرة اليوم محدثة ، ثم ذكر أن القاضي أبا يعلى
اجتاز بها ورأى الناس ينقضون بنيانها ليصروا به موضعاً آخر ، وقد كان
أبو يعلى هذا في القرن الخامس . ونسب ابن العديم (٣) هذه الأبيات إلى
أبي الهيثم عبد الواحد أخيه أبي العلاء وكانت وفاته سنة ٤٠٥ هـ ، فكلام
ياقوت يدل أوله على أن المعرة كانت عامرة قبل الإسلام منذ عهد الساطع
ثم يقول : إن سيات هي القديمة والمعرة اليوم محدثة ، ثم يقول : إن
أبا يعلى رآهم ينقضون بنيانها ليصروا به موضعاً آخر في القرن الخامس ،
ولم يبين ذلك الموضع ، وكلامه يدل على أن بنيان سيات كان بعضه باقياً

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨٥ ، عن معجم البلدان - لياقوت - .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩٤ الحاشية ، عن معجم البلدان - لياقوت .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٤ عن الاضاف والتحرير - لابن العديم .

في زمن أبي يعلى . فلم يتضح لنا أي أقواله أرجح لناخذ به ونقول عليه ، وإذا كانت سيات هي المدينة القديمة والمرة محدثة فكيف يجوز أن نسيها مرة ونضيفها إلى النعمان الساطع قبل أن توجد ؟ .

وكلام ابن العديم يشبه كلام ياقوت في تناقضه ، فإنه ذكر أولاً أنها كانت تسمى ذات القصور ^(١) ، ثم لما مات للنعمان ولد فيها جدد عمارتها فسميت إليه ، ولم يبين من أين جاء لفظ المرة والاستعاضة به عن ذات القصور ، وكلامه هذا يدل على أنها كانت موجودة وجدد عمارتها .

ثم قال ^(٢) : وقيل إن سيات كانت المدينة وهي آهلة . وكان موضع المرة أجرة ، فلما افترس السبع ابن النعمان بنى له موطئاً عند قبره فبنى الناس لبنائه فسيت مرة النعمان لذلك . وهذا يدل على أن المرة لم تكن موجودة قبل ذلك وإنما كانت سيات . فتأمل كيف خفيت الحقيقة لتناقض الأقوال والآراء ، وسيأتي في الكلام على قلعة المرة أن الملك المظفر لما بنى قلعة المرة نقل حجارها من سيات .

والمؤرخون تكاد تتفق كلتهم على أن أبا عبيدة لما فرغ من فتح حماة مر بالمرّة فصالح أهلها سنة ١٥٠ هـ ، وهذا يدل على أن هذه المدينة كانت موجودة عامرة مسماة بهذا الاسم قبل أن يتولى النعمان بن بشير حمص وغيرها . ويدل ذلك على أنها كانت عامرة قبل ذلك ما زعمه بعض المؤرخين من أن فيها قبر عبد الله بن عمار بن بامر الصحابي وقبر يوشع بن نون .

وأما قول الشريشي : إن النعمان جبل مطل عليها فهو أقرب إلى القبول من سائر الأقوال لو صح أن هناك جبلاً يسمى بهذا الاسم ، ولم أوفق للعثور على مستند تاريخي يثبت ذلك ، على أني سمعت من بعض أهل

(١) تعريف القدماء : بأبي اللؤلؤ ص ٨٨ هـ عن بنية الطلب - لابن العديم .

(٢) المصدر ذاته ، وقد تصرف المؤلف بنقل الخبر .

المرة أن الجبل الغربي الذي يقع غربي وادي الخطيب إلى جهة الحيا يقال له النعمان ، ولكن نقي لم تطئن إلى هذا الخبر .
وقول من قال : إنها مضافة إلى النعمان بن المنذر أو النعمان بن امرئ القيس لا يصح أن يعمل عليه حتى يزيده دليل ، ولم نعثر على هذا الدليل .

والذي نستطيع فيه من مجموع ما تقدم أن هذه المدينة كانت قبل الفتح الإسلامي عامرة ، وكانت تسمى المرة وذات القصور ، ولا يتمتع أن يكون لها اسمان فأكثر كما أن لدمشق ومصر وبغداد أسماء متعددة ، ثم لما جعلت من محل حص قيل : مرة حص . وأما إضافتها إلى النعمان فلم أعلم في أي وقت كان وأن كل ما ذكره العلماء في سبب تسميتها واشتقاق اسمها وإضافته لا يخرج عن حدود الظن ولا يجوز الجزم بشيء منه ، غير أن أكثر المؤرخين قالوا إنها مضافة إلى النعمان بن بشير ولا يضيرنا أن نوافقهم حتى يظهر الدليل القاطع لكل احتمال وظن .

إضافتها إلى حصص وغيرها

ذكر فريق كبير من المؤرخين أن هذه المدينة كان يقال لها مرة حص ، منهم ابن خلكان والبلاذري وأبو الفداء وابن بطوطة وابن الأثير وغيرهم ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق .
ورقع إضافتها إلى حلب في (فتوح الشام) للواقدي .

تسميتها «ذات القصور»

وذكر جماعة من المؤرخين أنها كانت تسمى « ذات القصور » منهم ابن العديم^(١) ، ونقله ابن بطوطة^(٢) عن ابن جزي ، وذكره شيخ الربوة

(١) تريف القدماء بأبي اللاء ص ٥٨٨ عن بنية الطلب - لابن العديم .

(٢) تريف القدماء بأبي اللاء ص ٩٧ عن تحفة النظار - لابن بطوطة .

في (نغمة الدهر في عجائب البر والبحر) . وقال ابن الوردي المعري
من قصيدة :

سلام على ذات القصور وأهلها ومستقبل من حسن حال ومامضى

المعرة من العواصم

العواصم حصون وولاية تحيط بها بين حلب وانطاكية ، وقد كانت
قصبها انطاكية ، وعند البلاذري قصبها منبج ، والمعرة منها ، كما ذكره
ابن خردادبه وابن خلكان (ج ١ ص ٤٤٥) وغيرهما . وقد قال التبريزي
في شرح سقط الزند عند قوله : « ولكن بالعواصم من عدي . . . » العواصم
حصون بين حلب الى حماة سميت عواصم لاعتصام الناس بها والالتجاء
اليها . . ثم قال : سألته عن العواصم وقت القراءة عليه ، فقال : العواصم
من حلب الى حماة لانها حصون وجبال يعتصم بها الناس . وفسر العواصم
بمثل هذا في غير موضع من شرحه ويشير الى هذا قول ابي العلاء :

مَتَى سَأَلْتُ بَغْدَادُ عَنِي وَأَهْلَهَا فَانِي عَنْ أَهْلِ الْعَوَاصِمِ سَأَلُ^(١)
وغیره من الآيات الآتية .

المعرة من الثغور

قال الطبري : ان هارون الرشيد غزل الثغور كلها من بلاد الجزيرة
وقنسرین وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم ، وذلك سنة ١٧٠ هـ ، وذكر
ذلك في (صبح الاعشى) ونقله عن صاحب حماة . وهذا يقتضي ان
تكون الثغور والعواصم اسمين لمسمى واحد .

النسبة الى معرة النعمان

نقل السمعاني عن ابي نصر الراشي : ان النسبة الصحيحة الى معرة

(١) شروح سقط الزند في ٣ ، ص ١٢٥٣ .

النعمان «مَعْرَمِي» ليفرق بينهما وبين النسبة الى معرفة مسرين اذ يقال :
مَعْرَمَتِي . ورداه ابو الغداء في (تقويم البلدان) : معرمني ، وقال :
ان أكثر أهل العلم لا يعرف ذلك . وأنا أقول : إن المعروف في الثانية
مسرّين لا مسرين ولا ندرين ، كما ذكرها ياقوت . وان هذه النسبة لم
يرض بها غير قائلها ، ولذلك لم تلق رواجاً عند المتقدمين والمتأخرين ،
ولم تقع في كلام فصيح ، والمشهور ان النسبة الى معرفة النعمان معرّمي
فقط ، وقد درج عليه المتأخرون تبعاً للتقدمين .

المعرفة في شعر أبنائها

لم أقف على ذكر المعرفة في شعر أحد من أبنائها قبل القرن الرابع
لأنني لم أغر على تراجم وافية لكثير منهم ، وفيهم طائفة من الشعراء . ومن
البعيد أن يجنّوا أشعارهم من ذكر موطنهم والحسين إليه أو التذمر منه .
وأكثر من ذكرها أبو العلاء ، فقد ذكرها في مواطن من شعره في
السطر مثل قوله : (١)

سرى بَرَقُ المعرفة بعد وَهْنٍ فبات برامةً يَصِفُ الكلالا
وقوله وهو في بغداد : (٢)

فهل فيك من ماء المعرفة قطرةٌ تغيثُ بها ظمآن ليس بسال
وذكرها في لزوم في مثل قوله المتقدم : (٣)

يعيّنا لفظَ المعرفة أنها من العرّ قومٌ في العُلاغرباء

(١) شروح سبط الزند ق ١ ص ٧٨ .

(٢) شروح سبط الزند ق ٣ ، ص ١١٩٥ .

(٣) شرح لزوم ما لا يلزم - طه حنين - الأياري - ١٦١ .
والمر بالفتح والضم : الجرب .

وقوله في رواية : (١)

نَجَى الْمُعَرَّةَ مِنْ بَرَاثِنِ صَالِحٍ رَبُّ يُفَرِّجُ كُلَّ أَمْرٍ مُغْضِلٍ
وذكرها الأمير أبو الفتح بن أبي حصينة ، وكان معاصراً لأبي العلاء ،
بقوله : (٢)

وَزَمَانٍ لَهُوٍ بِالْمُعَرَّةِ مُوْتَقٍ بَسِيَاثِهَا وَبِجَانِي هَرْمَاسِهَا
وقوله في رثاء أبي العلاء : (٣)

وَعَجِبْتُ أَنْ تَسَعَ الْمُعَرَّةُ قَبْرَهُ وَيَضِيقَ بطنَ الْأَرْضِ عَنْهُ الْأَوْسَعُ
وذكرها محمود بن علي بن المهنا المعري المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، بعد أن
أخذها الفرنج :

مُعَرَّةُ الْأَذْكِيَاءِ قَدْ حَرِدَتْ عَنَا وَحَقَّ الْمَلِيحَةُ الْحَرْدُ
فِي يَوْمِ الْأَثْنَيْنِ كَانَ مَوْعِدُهُمْ فَمَا نَجَا مِنْ خَمِيْسِهِمْ أَحَدُ
وذكرها القاضي أبو سهل عبد الرحمن بن مدرك التنوخي في قصيدة بقوله :
مَا لِلْمُعَرَّةِ مِثْلُهُ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَلَا الْعِرَاقِ
وذكرها أبو محمد عبد الله بن أخي أبي العلاء بقوله : (٤)

وَاحْلَفَ بِأَنَّكَ لَا تَعُوْدُ إِلَى الْمُعَرَّةِ بِالطَّلَاقِ

(١) القزوينيات ٥ ص ٢٢٠ ، وفيها : « نَجَى الْمَاشِر » .

(٢) ديوانه ١/٣٥٥ .

(٣) ديوانه ١/٣٧٣ .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٨ عن الاخفاف والتخري - لابن الدم

وذكرها ابن الردي بقوله :

رأى المعرة خوداً زانها حَوَرٌ لكن حاجبها بالجور مقرون

وذكرها السيد امين الجندي عم ابي التوفى سنة ١٢٩٥ هـ في قوله من
ايات عجز بها فريقاً من اهلها :

أهل المعرة لا يوركنهم أبداً^(١)

وذكرها السيد محمد بن عمر اليوسفي بقوله من ايات يفتخر بها :

إن المعرة والذي فلق النوى بلد بها أهل المكارم لم تنزل
يا من تجاهل فضلها سفهاً فسل ركباً بأطلال الحمى نزل^(٢)

وقد ذكرها أبو العلاء في بعض رسائله مرة بلفظ المعرة فقط ، كما
في رسالة (الإغريض) ص ١٥ - ١٦ ، ورسالته (إلى أهل المعرة)
ص ٨١ . ومرة أخرى بلفظ معرة النعمان كما في رسالته إلى خاله أبي القاسم
ص ٦٢ . وثالثة بلفظ البلدة المضافة إلى النعمان ، كما في رسالته إلى القاضي
أبي الطيب حيث يقول ص ١٠٠ : من المستقر في البلدة المضافة إلى
النعمان . وقوله في (رسالة الاغريض) ص ٥٢ : وغير معلوم سيدنا
لو أعرض عن سقائق النعمان الربيع ومدائح البروج ملاً من أهل البلد
المضاف إلى هذا الاسم .

أما في رسالة الفخران فقد ذكرها بلفظ معرة النعمان في ص ١٣٥
و ص ١٩٢^(٣) . وفي النصول والغايات ص ٣٠٧ بقوله : ما أفا والبلد
المضاف إلى النعمان بعد 'صحبته' 'قريباً' والمراجع .

(١) روى للؤث صدر البيت ولم يُتم .

(٢) البز مكسور ، ولم تحذف طي منه .

(٣) وفي رسالة الفخران ط ١ تحقيق بنت الشاطي . ص ٥

أما ذات التصور فلم أراه إلا في بيت ابن الوردي المتكلم . وأما العواصم فقد ذكرها أبو العلاء في مواطن كثيرة من حقط الزند ، كقوله وهو في بغداد :

متى سألت بغداد عني وأهلها فإني عن أرض العواصم سألت^(١)
وقوله :

ندمت على أرض العواصم بعدما غدوت بها في السوم غير مغال^(٢)
وقوله :

ولكن بالعواصم من عدي أمير لا يكلفنا السؤال^(٣)
وقوله يعنف ابلا :

تذكرن من ماء العواصم شربةً وزرُق العوالي دون زرُقِ جماه^(٤)
وقوله في الزوم :

لو قام أموات العواصم وحدها ملأوا البلادَ حزو نها وسهولها^(٥)

المرة قبل الإسلام

لم تكف على شيء مفصل من أخبار المرة قبل أن يتدفق فيها رواق الإسلام ، ولا أحطنا علما بما بلغت إليه من الحضارة والعمران في القرون الحالية ، ولا بمن نبغ فيها من العلماء والعظماء . وكل ما استطعنا معرفته

(١) فروح سبط الزند ق ٣ ، ص ١٢٥٣ .

(٢) فروح سبط الزند ق ٣ ، ص ١٢٠٧ .

(٣) فروح سبط الزند ق ١ ، ص ٨٥ .

(٤) فروح سبط الزند ق ٢ ، ص ٤٩٥ .

(٥) الزوهمات ص ٢٠٧ .

من ذلك معرفة بحلة لا تزال اللبس ولا تشفى علة النفس ولا تروي غلة الباحث .

كل ما استطعنا معرفته أن هذه المدينة كانت ولا تزال جزءاً من بلاد الشام شاركها فيها تعاقب عليها من الأطوار ، وانضوى تحت اللواء الذي كان يرفرف على أرجائها الفسيحة التي كانت منذ برأ الله الخلق ، ولم تزال إلى يوم القيامة مطحاً لأنظار الفزاة والفانحين ، ورحمى تطحن فيها المطامع الدول والأمم ، ومجزرة البشر ، يقرب فيها القوي الضعيف ضحية لأطماعه وشهوته ، وقد شهدت هذه البقعة الباركة من الوقائع والفظائع ما لم تشهد أرض غيرها ، وضمت بين جوانحها من الأنبياء والصالحين والملوك والأبطال والعظماء ما يخجل إلى المرء أن أديم أوصها من تلك الأجساد .

ضن علينا التاريخ فلم ندر هل كانت المرة عامرة قبل الطوفان آهة بالسكان ، لقربها من مهد الإنسان أم لا ؟ وكذلك حالتها بعد الطوفان محفوفة بالغموض والإبهام . إلا أن الباحث يستطيع أن يدرك من خلال الكلام المجل في سورة عامة أن هذه المدينة خضعت للحثين الذين امتد سلطانهم من جنوبي سورية إلى البحر الأسود فيما يقال ، وأصابها ما أصاب سورية من التكتبات والكوارث بسبب الحروب التي شبت بين أهلها وبين الفراعنة والآشوريين والرومانيين وغيرهم ممن بسطوا سلطانهم على تلك الأصقاع . ولكننا لا نعلم شيئاً خاصاً بالمعرة ، وفيها كثير من الآثار القديمة والمعابد والتمائمات التي خلفتها الأمم التي تديرت أو تقلبت عليها ، إلا أن جهل أهل بلاد الشام عامة بمعرفة الآثار وقسوتها حملهم على التهاون بالآثار القديمة وتكريض العامر منها وتخطيم كثير مما سلم منها من عاديات الدهر ، وجعلهم يضيفون كل قديم من بناء وغيره إلى الرومانيين ، لأنهم أقرب أمة كانت مستولية عليها قبل الإسلام ، ويشجعهم على ذلك كثرة ما للرومانيين من الآثار الخالدة في المدينة وضاحيتها .

المعرة بعد الاسلام

لما افتتح أبو عبيدة دمشق وحصص ، مضى إلى حماة ، فصالح أهلها ، ثم مر بالمعرة سنة ١٥ هـ فصالح أهلها على مثل صلح حماة ، ثم لما استخلف معاوية ، ولى النعمان بن بشير حصص وأضاف إليه المعرة كما سبق .

ولما استخلف هرون الرشيد أفرد العوام ، وجعل المعرة منها على نحو ما أسلفنا ، ثم تعاقبت عليها أطوار شتى ، وتداولتها دول مختلفة ، فكانت مرة من عمل حصص ، وثانية من عمل حماة ، وثالثة من عمل حلب ، ورابعة إقطاعاً لأمير ، وخامسة قطعة لمتقلب . وكان لها في كل عهد نصيب وافر من قتل أهلها وسبيهم وظلمهم وخراب ممراتها ، وإذا سلت من فظائع هؤلاء ، لقبت الأمرين من عينت البداة وغاراتهم ، فإذا قدر لها النجاة يوماً من كلا الأمرين ، قالت قطعاً وافرأ من ظلم الطبيعة ما بين زلزال يقوض بنيانها ، وطاعون يفتي سكانها ، وقطبيد إنسانها وحيوانها ، فإن سلت من ذلك كله قيص الله لها من خصام أبنائها وتناحرهم وكيد بعضهم لبعض ما يغني عن الزلزال والطاعون والطبيعة^(١) وهي لا تزال إلى هذا اليوم تنفج على هذا المتوال ، وتحذري على هذا المثال ، ومن استقرى ما لقبت من البلاء يتعجب كيف كتب لها الخلود ، ولم تح من صحيفة الوجود .

موقع المعرة ووصفها في كلام المتقدمين

لم أقف على وصف هذه المدينة في كلام المتقدمين وصفاً يوضح كيف

(١) والظاهر أنها كانت على هذا النمط في عهد ابن الردي لأنه يهول فيها في رواية :

ان المعرة آخوذ زانها آخوذ
لكن حاجتها بالجور مرون
ماذا الذي يضل الطاعون في بلد
في كل يوم له بالظلم طاعون (ج)

جا (٣)

كان ممرانها وسكانها ، وأكثرهم ذكر لها وصفاً مجملًا ، منهم ابن حوقل المتوفى سنة ٣٨٠ هـ ، قال : هي مدينة كثيرة الخير والسعة والتين والفتق وما شاكل ذلك من الكروم .

ومنهم الرحالة ناصر خسرو الفارسي ، فقد دخل المرة سنة ٤٣٨ هـ ، وذكرها في رحلته ، فقال ما خلاصته ^(١) : 'إن المرة مدينة عامرة يحيط بها سور من حجر ، وعلى بابها سارية من الحجر ارتفاعها نحو عشرة أذرع كتب عليها بحروف غير عربية ، فسألت عنها ، فقبل لي : إنها طلثم يدفع العطارب عن المدينة فلا تدخلها ، فإذا جيء إليها بعقرب من خارجها فر منها وابتعد عنها ، وأسواق المدينة طافعة بالأرزاق ، وجامعها الأعظم مبني على نشز من الأرض في وسطها ، ومن أية جهة أتيت ارتقت إليه ثلاث عشرة درجة . ولا يزرع في أرضها إلا الحنطة ، وهي تغل غلة عظيمة ، ويكثر فيها شجر الزيتون والتين والفتق واللوز والعنب ، وماؤها من الأمطار والآبار .

وقد وصفها كثير من المؤرخين وأصحاب الرحل ، منهم ياقوت ^(٢) وأبو الفداء ^(٣) والاصطخري ^(٤) وابن جبير ^(٥) وابن بطوطة ^(٦) وغيرهم ، وكلهم يصفه قريب من بعض ، كلهم يصفها بكثرة التين والفتق واللوز والثمار ، وكلهم متفقون على أن مائها من الآبار وليس فيها ماء جار على سطح الأرض .

(١) هذه الرحلة ترجعها كثيرون وقد لحصنا من مجموع أقوالهم ما ذكرته . (ج) .

وفي تعريف القنداء بأي البلاد ص ٥٨١ عن سفرنامه - لناصر خسرو

(٢) تعريف القنداء بأي البلاد ص ٥٨٥ عن معجم البلدان - لياقوت .

(٣) تهوع البلدان ص ٢٦٥ - لأي القنداء .

(٤) للسالك والمالك للأصطخري ص ٦١ ، ط برل ١٩٢٧ م .

(٥) رحلة ابن جبير طبعة لندن ص ٢٥٤ .

(٦) تعريف القنداء بأي البلاد ص ٥٩٧ عن نخبة النظائر - لابن بطوطة .

وذهب بعض شراح (سقط الزند) ان الخاض الذي ذكره أبو العلاء في قوله :

كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْخَاضِ وَحَارِمٍ كَتَّابٌ يُشْجِنُ الْفَلَاحِيَّامُ^(١)

هو نهر بالقرب من معرة النعمان . وقال الفيروز آبادي في القاموس : خاض كضباب نهر بقرب المعرة . ولكن لا يعلم أحد اليوم اثرأ لهذا النهر . ثم رأيت في شرح سقط الزند للبطلوسي^(٢) والتبريزي وغيرهما ان الخاض : نهر يخاض ، في الأرض التي تعرف بالروج ، وهي قريبة من معرة النعمان ، وقد لقي في هذا الموضع عسكر للمسلمين وعسكر للروم وكان أمير عسكر المسلمين بنجوتكين التركي الذي اصطنعه أبو منصور تار الملقب بالعزیز ابن معد الملقب بالمعز ، فاقتل العكران والخاض بينهما ، ثم عبر اليهم المسلمون ، فانهزموا ، وذكر في (ذيل تجارب الأرض) هذه الواقعة في حوادث سنة ٣٨١ هـ ، وقال : وطرحت العرب خيولهم في النهر ، وهجم العسكر على الخاض ، وحصلوا على الروم في أرض واحدة . وبهذا يتبين أن الخاض ليس بنهر قريب من المعرة قرب اتصال بل بينهما مسافة بعيدة .

ووصفها أبو العلاء في بعض رسائله ، فقال : اسمها طيرة ، وعند الله ترجى الخيرة ، المورد بها عتيس ، وظاهر ترابها في الصيف بيس ، ليس لها ماء جار ، ولا تغرس بها غرائب الأشجار ، إذا أوز لأهلها ذبح يؤمل به لديهم الريح ، تحبه صبح بخطر ، فكأنما يرمق به هلال الفطر ، وقد يميئها وقت يكون فيها جدي المز في العزة كجدي الفرفد ، ومثل حل الكواكب حل النقد . ويذكر فقيرها على الهداية ، قبل أبي الفرخين

(١) شروح سقط الزند في ٢ ، ص ٦٠٣ .

(٢) شروح سقط الزند في ٢ ، ص ٦٠٣ ، ٦٠٤ .

ابن دابة ، حتى يقف بيائع الرسل ، فكأنما وقف يرضوان يستوبه ماء الحيوان ، فإن سبه ضياء الفجر فإنه يرجع خائباً . . . (١)

وهذا وصف حقيقي ، وإن خالف بعضه أهل زماننا . فليس في المرة ماء جار على وجه الأرض ، ولكن فيها يتابع حرارة في باطن الأرض ، يستخرج ماؤها بالدواليب ، الدلاء وغيرها . وقد زرع فيها غرائب الأشجار ، إلا أنها لا تدوم طويلاً لسببين ، أحدهما : طبيعة الإقليم ، فإنه لا يعيش فيه الليمون والبرتقال وما أنشبهها ، وكذلك لا يعيش فيه النخل وما شاكله وثانيها : أن بعض أهلها إذا أراد أن ينتم من خصه قلع أشجاره . . أما اللحم فيكثر في زمن الربيع والصيف حتى يزيد عن حاجة أهلها ، وكان يقل في الشتاء لذهاب البدر إلى جهة الشرق وصعوبة الطرق وقلة الوسائط الثقيلة بين البلاد ، وكذلك اللبن واللحم وكل ما خرج من الضرع أو الزرع ، يكثر في أوانه ويقل في غيره . وأهلها يكرهون لأخذ ما يحتاجون إليه من الأسواق من طعام وغيره ، وربما لا يجد المتأخر منهم بعض حاجته ، ولكنهم يفتون ذلك بعد الفجر لا قبله . هذه حالة المرة في السنة التي هاجرت فيها منها إلى دمشق وهي سنة ١٣١٩ هجرية . أما الآن فإن فيها كثيراً من الأشجار المثمرة ، كالنخيل والحبوب والكمثرى والمشمش والكرز والفسق والزيتون والرمان ، وفيها أنواع من العنب والتين والبطيخ والخضراوات ، وقد تستطيع أن تستغي بما تبت أرضها عن غيرها ، بل تصدر ما يزيد عن حاجتها إلى غيرها من البلدان ، ويكثر فيها الخضراوات الأعذاه (٢) ، وغناها أطيب من المسقوي . وقد وصفها الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المعروف بالوزير المغربي الآتية ترجمته ، وقد كان زار المرة

(١) أبو اللات. وما إليه - البني - س ١٧ عن رسائل المري ، أكفورد ١٨٩٨ م. ص ٥٥ .

(٢) البني يكره أوله ويفتح : الزرع لا يلبه إلا للطر .

قبل سنة ٤٠٠ هـ بأبيات ، نقل ابن العديم في (بنية الطلب) هذه الأبيات منها :

ما على ساكني المعرفة لو أن دياراً نبئت بهم وطلّولا^(١)
يَسْكُنُونَ الْعُلَا مَعَاقِلَ شُمَا وَيَرَوْنَ الْأَدَابَ ظِلًّا ظَلِيلًا
مَنْزِلَ شَافِي أَنَيْسٍ وَمَا كَانُ رُسُومًا نَوَاحِلًا وَطُلُولًا
حَيْثُ يُدْعَى النَّسِيمُ فُظًّا وَيُلْفَى سَبْلُ الْغَادِيَاتِ شَكَاً بِخَيْلٍ^(٢)
أَيْنَمَا تَلْتَفَتَ تَجْذُ ظِلٌّ طَوْبِي وَتَجْذُ كَوْنُراً أَعْرُ صَقِيلًا
تُرْبُهَا طَيِّبَ الشَّبَابِ فَمَا يَصُحْبُ إِلَّا السُّرُورَ فِيهَا خَلِيلًا
فَتَرَى اللَّهْوَ إِنْ أَرَدْتَ طَلِيقًا وَالتَّقَى إِنْ أَرَدْتَ مَغْلُولًا
وَإِذَا مَا اعْتَزَى بِهَا الْأَدَبُ الْعَذَّ رِيًّا جَاءُوا عِمَارَةً وَقَبِيلًا
لَيْتَ لَا يَغْنُفُ السَّحَابُ عَلَيْهِمَا لَيْتَهُ جَادَهَا عَلِيلاً كَلِيلًا
وَسَلَامٌ عَلَى بَنِيهَا وَلَا زَا لَ نَعِيمُ الْحَيَاةِ فِيهِمْ نَزِيلًا

وقال ابن جبير^(٣) في (رحلته) التي أنشأها سنة ٥٧٨ هـ : ورأينا عن بين طريقنا ، بمقدار فرسخين ، بلاد المرة ، وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفسقن وأنواع الفواكه ، ويتصل الغاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا . . .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩١ عن بنية الطلب - لابن العديم .

(٢) الببل ، بالتحريك : المطر . والشكس ، ككف : البخل وسكن قشر .

(٣) رحلة ابن جبير طبعه ليدن ص ٢٥٤ .

المعرة مركز للعرب في القصر

وذكر في صبح الأعشى (ج ١٤ ص ٣٨١) ، أن المعرة من مراكز العبد ، وفيها يروج مقرر للحام الرساتلي . والطلسم الذي ذكره ناصر خسرو ، قال صاحب (الذكري) (١) : إنه لم ير من ذكره من مؤرخي العرب . وأنا أقول : قد ذكره جماعة منهم أبو الفضل محمد بن الشحنة في تاريخه المسمى (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) ، حيث قال ص ١٢٩ : وبمعرة النعمان مود فيه طلسم للبق (٢) . وذكر عن أهل المعرة أن الرجل كان يخرج يده وهو على سور المعرة الى خارج للسور فيسقط عليها البق ، فاذا أعادها زال عنها . وأخبرني رجل من أهلها ، قال : رأيت أسفل داري مودا ، فتحت موضعه لأستخرجه ، فانفجرت إلى مفارة ، فأزلت إليها انساة ظننا مني أنها مطلب فوجدناها مفارة كبيرة ولم نجد فيها شيئاً ، ورأيت في الحائط صورة بقعة ، فن ذلك اليوم كثر البق في المعرة . وذكر أهل المعرة أن حبانها لا تؤذي إذا لدغت كما يؤذي غيرها .

ومنها ابن العديم ، قال : سمعت إبراهيم بن أبي الفهم رئيس المعرة يقول : إن العود القائم في مدينة المعرة هو طلسم الحيات ، وهو قائم مستقر على قاعدة بزرية حديد في وسطه ، يله الإنسان فيبيل ، وكذلك تعمل فيه الريح القوية ، وإذا مال يضع الناس تحت الجوز واللوز فينكسر .^١ وأمر هذا الطلم غريب ، وتنافس الأقوال فيه أغرب ، فقد جعله ناصر خسرو سارية بالقرب من باب السور وطلما للقطارب ، وفي كلام ابن الشحنة : أنه مود قريب من السور وهو طلسم للبق ، وفي

(١) ذكرى أبي اللا - له حين ط ٢ ص ١٢٣

(٢) البقة : البوضة ودوية مخرطة حراء منتنة .

قول ابن العديم : أنه مود يله الإنسان والريح وهو طلسم للحيات ،
وصاحب (نهر الذهب) جعلها مودين ، أحدهما البق والثاني للحيات .
ولعل هذا الصود من المزاعم الموروثة عند أهل ذلك العصر ، أما في
عصرنا الحاضر فإن العقارب والحيات في المرة أكثر من الحصى عند جرة
العقبه (١) ، وهي تقتك في الناس فتكاً ذريعاً ، وكثيراً ما أردت بحياة
لديها ، وكذلك البق ينتشر في الصيف انتشاراً عظيماً ، فينقل جراثيم
الملاريا ، وقل من يسم من أهلها من شره . ولعل هذا الطلسم انعكس
أمره في أيامنا ، أو أن العقارب والأفاعي تألبت على الطلسم ، فكانت
لها الدولة والغلبة عليه ، أو أن طبيعة الإقليم تبدلت بكثرة ما تعاقب
عليه من الحوادث والكوارث .

أبراهم أهلها بالبحر

ونقل صاحب (الذكري) (٢) عن اللفظي (٣) والذهبي (٤) أن أهل
المرة كانوا بجلاء في عهد أبي اللؤلؤ ، فكان يضيق ذرعاً لكثرة الوافدين
عليه وقلة ما يملكه . وأن مرجليوت استبعد ذلك وقال : إن بلاداً يخص
أهلها عطاء غير قليل للبحري حين كتب إليهم بذلك أبو تمام لا يقتظر أن

-
- (١) جرات للناسك ثلاث : الجرة الأولى والجرة الوسطى وجرة الغبة .
 - (٢) ذكرى أبي اللؤلؤ - ط ٢ ص ١٢٢
 - (٣) هو أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي ، نبة إلى قط بلد بالصعيد
الأعلى من مصر ولد سنة ٥٦٨ هـ وتوفي سنة ٦٤٦ هـ ، وولي القضاء والوزارة
في حلب ، وله كتب كثيرة ، منها (تاريخ مصر) و (إنباء الرواة على أبناء النخلة)
وقد سماه بعضهم (أخبار النحويين) ، وآخرون (تاريخ النحويين) . وغيره . (ج)
 - (٤) هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن إسماعيل التوفسي سنة ٧٤٨ هـ له
مصانيف كثيرة منها (تاريخ الإسلام) و (طبقات للشاهير والأعلام) أجداً فيه
من الهجرة النبوية وانتهى إلى سنة (٧٠٠ هـ) وقسمه إلى سبعين طبقة ، وجعل
من كل عشرين طبقة سبعة على الحروف ، وله (تذكرة المفاظ) ، و (ميزان
الاعتدال) و (للفتنة) و (دول الإسلام) وغيرها . (ج)

يكونوا بخلاء . ولم يستبعد ذلك صاحب (الذكري) واحتج لوقوعه بأن الحال قد تحول ، وأن المصائب التي اختلفت على أهل المرة بسبب اختلاف المدائنة والعبيدة والمرداسية والروم على حلب أيام أبي العلاء حربة أن ترد الكرم بخيلاً . وتابعه على ذلك الأستاذ السني . وهذا قول من لم يعرف حقيقة أبي العلاء وحقيقة أهل بلده ، فإن أبا العلاء ما كان ليضيق ذرعاً بالإتفاق على الوافدين من بخله ، وإنما كان يحب الإتفاق ولا يكتب ما له من المال والفقرة ، ويأبى أن يأخذ من أحد شيئاً فيضيق صدره لذلك ، أي لأن ماله لا يساعده على كل ما يريده من الإتفاق . ولو كان يضيق من الإتفاق بسبب بخله لما أقدم على أمور هو في غنى عنها وليس ثم ما يجبره عليها . فقد أنفق على أبي زكريا التبريزي مدة مقامه عنده ، وكانت يجري رزقا على جماعة ممن كان يقرأ عليه ويعطي الفقراء والمعتزين كما سيأتي إيضاح ذلك . ولو كان بخيلاً لكان محباً للمال ، لأن حب المال والحرص على جمعه من لوازم البخل ، وأبو العلاء كان على خلاف ذلك فقد بذل له المستنصر ما في بيت المال بالمرة فأباه وكتب داعي الدعاة إلى تاج الأمراء أن يجري على أبي العلاء كل ما يحتاج إليه فأبى ، وكتب الوزير الفلاحى إلى عزيز الدولة أن يحمل أبا العلاء إلى مصر وسمح له بخراج المرة بأبى ذلك ، ولو كان بخيلاً أو محباً للمال لكان شأنه غير ذلك . وأما أهل المرة فالمعروف عنهم في عهد أبي العلاء وبعده أنهم غير بخلاء ، بذلك على ذلك ما ذكره ابن خلكان وغيره من أن أبا تمام كتب إلى أهل المرة كتاباً يشهد فيه بحقوق البحتري ، فلما صار إليهم البحتري أكرموه ووظفوا له أربعة آلاف درهم . وذكر الصفدي في (نكت المبيان^(١)) وغيره : أن محمود بن صالح صاحب حلب أرسل خمسين فارساً ليحلوا أبا العلاء إليه ، فلما أتوا المرة أنزلهم أبو العلاء دار

(١) تعريف القضاة بأبي العلاء ص ٢٩٣ عن نكت المبيان - للصفدي .

الضيافة . . ولم يحدثنا التاريخ أن لأبي العلاء داراً للضيافة . فلا شك في أنها لرجل من أهل المعرة من أقربائه أو من غيرهم ، ولو كانوا بخلاء لأحجبوا عن مثل ذلك .

ومن عادة أهل المعرة في عهدنا أن الرجل إذا نزل به ضيوف ولم يكن موسراً بحيث يستطيع أن يقدم لهم من القرى ما يقدمه أمثاله ، سارع الناس من أصعابه أو أقاربه إلى مساعدته من حيث لا يشعر ضيوفه بذلك . وقد علمت رجلاً من أعيان المدينة ضافه جماعة كثيرون من وجوه إدلب وأريحا ، وكان لا يملك شروى نقيز ، فأمدّه رجل آخر من الأعيان بكل ما يحتاج إليه للقرى . وكانت بينها في ذلك الوقت عداوة عظيمة وخصومة شديدة . وأظن أن هذا الخلق موروث عن الأقدمين ، يدل على ذلك دار الضيافة التي أنزل أبو العلاء بها الحنين فارساً ، ولدينا أدلة كثيرة تدل على أن أهل المعرة بريثون من البخل في القديم والحديث ولكن سردها يخرجنا عن الغرض المقصود من هذه الرسالة . ويقرّبنا من نهضة التعصب لهم لأنهم أهل بلدي وأبناء جلدتي . .

وصف المعرة الآن

رأيت كثيراً ممن كتب في المعرة لم ينبج من غلط في رأيه ، أو خطأ في قوله ، لأن معظمهم نقلوا ما يكتبونه عن العامة أو عن أناس لم ينقبوا عن الحقيقة ، ولم يأخذوا عن يوثق به .

منهم الأستاذ صاحب (ذكرى أبي العلاء) (١) نقل عن غيره أن قلعة المعرة متخربة من عهد الصليبيين ، وأنها تعرف بقاعة النعمان . . . ومنهم الأستاذ المبني (٢) نقل عن غيره أيضاً أن من مبانيها الخان الذي

(١) ذكرى أبي العلاء - لطفه حين ط ٢ ، ص ١٢٤

(٢) أبو العلاء وما إليه - عبد العزيز المبني ص ١٩

شيده مراد المعروف بالجلبى منذ نيف وثلاثئة سنة ، ويازانه خان آخر بناء سنان باشا ، وقلمة متخربة من عهد الصليبيين تعرف بقلمة النعمان ... ومنهم صاحب (نهر الذهب) ، زعم أن في المعرة جامعاً فيه غار يشتمل على قبر عطا الله بن أبى رهاح حامل لواء النبي (ﷺ) . . . وأن القلمة كانت في وسط البلدة ، وذكر في أبوابها ما تزعمه العامة . وقد تابعه على ذلك أمصاب بحلة (الماديات) التي تصدر في حلب في العدد الأول من السنة الثانية سنة ١٣٥٠ هـ وزعموا أن القلمة من عهد الملك الظاهر

وإذا كان بعض هؤلاء عذر لأنهم كتبوا ما سمعوا ، فليس لهم عذر في الأخذ من لا يوثق بنقله ، ولا في عدم البحث والتقيب عن الحقيقة . ونحن نصفا الآن على وفق ما رأينا أو نقلنا عن النقات أو المآخذ الرسمية ، وتنصدي لأكثر ما وقع فيه الخطأ سواء أكان ذلك في الأماكن أم غيرها لإيضاح الحقيقة فقط .

فالمرء الآن أي في سنة ١٣٦٣ هجرية و سنة ١٩٤٤ ميلادية فما بعد ذلك مدينة بين حلب وحماة ، بينها وبين حلب ثمانون كيلومتراً ، وبينها وبين حماة ثمانية وخمسون كيلومتراً بحسب قيد وزارة النافعة في الدولة السورية سنة ١٣٥٤ و سنة ١٩٣٥ ، ويمر طريق السيارات من طرفها الشرقي ، وهذا الطريق حدث مجدداً ، وهو شرقي الطريق القديم الذي كان يذهب من المعرة إلى حماة وقد حولته الحكومة الى شرقي المدينة وهو الآن يبلغ نحو ٦٣ كيلومتراً وطولها إحدى وستون درجة وأربعون دقيقة وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة كما في تقويم البلدان . وارتفاعها عن سطح البحر نحو خمسة وستين وثلاثئة م . لي ما قاله صاحب (الذكري)^(١) هو غير سديد والصواب :

(١) ذكرى أم البلاد - لطف حنين ، ط ٢ ، ص ١٢٤

أن ارتفاعها نحو اربعمائة وستة وتسعين متراً على حسب قيد وزارة النافعة السورية .

وهي مركز قضاء تابع لحلب يبلغ عدد نفوسه كله نحو [٢٨٥٣٠] وعدد نفوس المدينة منه نحو ستة آلاف وسبعمائة . وقد أخذت هذا الإحصاء من فيود الحكومة سنة ١٣٥٢ هـ ويزداد بعد ذلك لأن المكتومة أسماءهم كثيرون . وفيها حاكم إداري [قائم مقام] ، وحاكم صلح يقوم بأعمال القاضي الشرعي .

ودار للحكومة شرقي المدينة والحان ، بنيت نحو سنة ١٣٤٣ هـ ، ومكتبان ابتدائيان ، أحدهما للذكور وعدد الطلاب فيه [٣١٢] والثاني للإناث وعدد الطالبات فيه [١١٨] ، ولم تكن الحكومة بها ولذلك كانت فائدتها قليلة .

وفيها كتاب يعلم فيها على الغالب جماعة من البصراء القرآن والقراءة ولا نبالغ إذا قلنا : إن التعليم الحقيقي مفقود فيها وفي قراها وإن النهضة الثقافية فيها لم تختلف عما كانت عليه في العهد التركي ، وفي قرى المرة أربعة كتابت يبلغ عدد الطلاب فيها نحو ٤٠٥ وهذا بحسب إحصاء الحكومة سنة ١٣٦٠ هـ سنة ١٩٤١ م والعناية بها أقل منها في مكاتب المرة .

وقد كان في المرة مدارس ولم يبق منها إلا مدرسة بناها ابن نجاة ابن عز الدين بن علي بن معافا سنة ٥٧٥ هـ في أيام محمد ابن أبي ايوب ، ويزعم الناس أنها من بناء نور الدين الشهيد ، وأطلال مدرسة أخرى بناها الشيخ ممر بن الوردى المعري في النصف الأول من المائة الثامنة . وفيها زوايا بقي منها إلى الآن زاوية بني الكيال والداودية وزاوية الصبي ، وقد تكام الصلاة في بعضها .

وفيها مساجد كثيرة أكبرها وأشهرها الجامع الكبير المعري ، وفيه ألقاط مختلفة من البناء في عصور متعددة ، وفي ساحته قبة قائمة على ثمانية

أعمدة من حجر تشبه القباب التي كانت في عهد عمر بن الخطاب ، وبليها
قبة أكبر منها بسيل إليها الماء فأنه على أعمدة من حجر يتوضأ الناس منها .
وقد ذكر المؤرخون أن أبا عبيدة صالح أهل المعرة على أن تكون
كتبسهم العظمى جامعاً . وذكروا أن ملك الروم أحرق هذا الجامع
سنة ٣٥٧ هـ ، وأن الفرنج أحرقوه سنة ٤٩٢ هـ . والظاهر أنه بقي منه
شيء من آثار عهد عمر وشيء من آثار الكنيسة . وأكثر البناء القائم يشهد
على نفسه بأنه حدث بعد عمر ، ولا شك أن المسلمين أضافوا إلى الكنيسة
أكثر منها .

وفي هذا المسجد منارة من أجل الآثار العمرانية التي خلفها ذلك الزمن
في المعرة ، لتدل على ما بلغت إليه صناعة البناء من الإتقان والإبداع في
المعرة في الأيام الحالية . وبنائها إسلامي ، وقد وجدت نقوش كتابة
عربية على أطرافها وفي أعلاها مثل : صنعة قاهر بن علي بن قانت رحمه الله .
الحمد لله رب العالمين . ومثل : جدد هذه الشبكة العبد الفقير إلى الله تعالى
الحاج خليل بن الحاج محمد النطار عفا الله عنه وعن المؤمنين . وقاهر هذا
هر الذي بنى المدرسة التي بناها ابن نجاشة سنة ٥٧٥ هـ كما قدمنا ذلك ، ولم
أعثر على تاريخ بنائها ، وأصحاب بحجة (العاديات) زعموا أنها منذ سنة
٤٢٧ هـ وأن على البرج الثالث منها هذه الجملة « محمد بن قانت بن قاهر بن
علي » . وفيها كتابات غير ما ذكرنا لم نستطع قراءتها . والجامع يجملته
ومنارته إسلامي عربي ، إلا ناحية في الجهة الشرقية منه تشبه أن تكون
قبل ذلك .

وفيها مسجد يقال له مسجد الشيخ عطا قائم على نشز في الجهة الغربية
زعم أصحاب بحجة (العاديات) أن فيه غاراً يشتمل على قبر عطا الله بن
أبي رباح حامل لواء النبي . . وهذا الكلام مجموعة أغلاط ، لأن عطاء بن
أبي رباح ولد في آخر خلافة عثمان وتوفي في مكة نحو سنة ١١٥ هـ كما

ذكر ذلك النووي في (تهذيب الأسماء واللغات) ص ٣٣٣ ، فهر لم يكن في عهد النبي ولم يحمل لواءه ، ولم يدفن في المرة ، ولا قبر في غار ، وليس في هذا المسجد غار ، وهذا المسجد حادث بعد صدر الاسلام فقد كتب على منارته ما يدل على أنه بني بعد القرن الخامس .

وفي المرة قلعة خربة يحيط بها خندق عميق ، وهي في شمالي المرة الغربي ، وبينها مسافة بعيدة يفصل بينها مقابر وأرضون فيها آثار أبنية قديمة . وهذه القلعة بناها الملك المظفر صاحب حماة ، أشار عليه بيتانها سيف الدين علي بن أبي علي الهذلي فبناها وتم بناؤها سنة ٦٣١ هـ ، وشعنا بالرجال والسلاح ، وكان بناؤها بلية على المدينة ، لأن الحلبيين حاصروها سنة ٦٣٥ هـ وأخذوها وخربت المرة بسببها . ثم هدم التتر القلعة المذكورة سنة ٦٥٨ هـ حين استيلائهم على حلب وحماة ، فتكونت مدة بقائها عامرة نحو سبع وعشرين سنة كما يظهر من كلام أبي الفداء وابن الوردي في تاريخيهما وذكر ابن العديم في (بنية الطلب) (١) ان الملك المظفر محمود بن ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه حين بنى القلعة نقل جدرانها من سيات مدينة خربة كانت قريبا منها ومن أبنية الروم التي في الكنائس المتهدمة في بلدها .

وهذا يتبين أن ما ذكره الأستاذ طه حسين نقلا عن أستاذه إسماعيل بك رأفت ، والأستاذ الميمني نقلا عن مجلة المشرق ، لا نصيب له من الحقيقة . وقد أخبرني بعض شيوخ المرة ان حجارة هذه القلعة أخذت وبني بها خان اسعد باشا المقابل لخان مراد جلبي الآتي ذكره .

وفي المرة خان جميل البناء والرصف في شرقي المرة إلى الشمال ، بناء حامي دقاتر الديوان السلطانية مراد جلبي سنة ٩٧٤ هـ ، كما هو منقوش على حجر فوق بابه . وجهه وقفا على أبناء السبيل ، ويقال له خان التكية

(١) تحريف القدماء بابي اللاه ص ٨٧ عن بنية الطلب - لابن العديم - مع اختصار في النقل .

لأن في جانبه تكية وحاماً ، يقال : إن الغريب كان ينزل في الخانات
بجنا ، ويفضل في الحمام بجنا ، ويأكل من التكية بجنا . ولكن الحمام
في عهدنا يؤجر كنفه من أبنية الوقف ، والخانات لا يزال الناس ينزلونه
بغير أجر وأمامه خان آخر بناه أسعد باشا العظم المعري سنة ١١٦٦ هـ ، كما
يظهر من الأبيات المنقوشة فوق الباب . وقد اتخذته الحكومة العثمانية ثكنة
ثم الحكومة السورية . وقد رأيت سنة ١٣٥٧ هـ وقد أخرج الجند منه وصار
سوقاً تباع فيها الدواب ، وهو على وشك التدهار والانهيار .
وهذا يبين أن ما قاله الأستاذ المبني ^(١) : « إن هذا الخان بناه سنان
باشا » ، بعيد عن الصواب .

وكان الجامع الكبير الذي سبق ذكره يصعد إليه من أية ناحية أتيت
بثلاث عشرة درجة في عصر أبي العلاء ، واليوم ينزل إليه من الباب الشمالي
بخمسة درجات ، ومن الباب الغربي بعشر درجات .

وهذا يدل على تغير المدينة بسبب الحروب والزلازل ، فكان أهل
المدينة كلما خربت أو احترقت يبنون البناء الجديد على أنقاض القديم ،
حتى ارتفع البناء عن المسجد بعشر درجات فأكثر ، بعد أن كان يصعد
إليه بثلاث عشرة درجة ، وقد كشف في أيامنا على مقربة من الجامع
من الجهة الشرقية الشمالية عن حمام خربة وحوانيت منهمة ، سقفها أدنى
من أرض المسجد ، وهذا يؤيد ما قاله ناصر خسرو . وما رأينا أحداً
أراد أن يحفر أساساً لبناء إلا وقد غر على آثار أبنية مردومة .

وكانت المرة تنقسم إلى محلتين كبيرين يقال لإحدهما : المحلة أو الحارة
الشمالية ، والثانية القبلية . وكل منهما يقسم إلى محلات عديدة تسمى بأسماء
مختلفة ، فلما أرادت الحكومة فتح شارع أبي العلاء أنشأت شارعاً من
شرقي المرة يمر من أمام دار الحكومة ومن بين الخانات السابق ذكرها

(١) أبو العلاء وما إليه - المبني ص ١١٠ .

ويمتد إلى غربي المدينة حيث يمر جنوبي مقبرة بني الجندي ويمر من شرقها إلى أربحا فشطرت المدينة شطرين أحدهما شمالي والثاني جنوبي ، وفيه ضريح أبي العلاء . وأخذ الناس يشيدون أبنية على الطراز الحديث على جانبي الشارع . كما أقيم بناء دار الحكومة فيه ، وقد شرعت في هدم مسجد أبي العلاء ومدفته في ٦ آب سنة ١٩٣٨ م . وبدأت إعادة بنائه في ٧ شوال سنة ١٣٥٨ هـ و ١٨ تشرين الثاني سنة ١٩٣٩ م وأرصدت له عشرة آلاف ليوة سورية ، وأحدثت طابعا باسم أبي العلاء وباعته لهذه الغاية . ولم يتم بناؤه إلا بعد مدة . وفي سنة ١٣٦٧ هـ هدمت القسم الشمالي منه وبنت فيه غرفة بجانب الباب اما المسجد القديم الذي كان فيه ضريح أبي العلاء فقد كان يشتمل على ساحة صغيرة وغرفة أمام الباب فيها قبر أبي العلاء وإلى جنوبها غرفة كانت كُتّابا يعلم فيه الصبيان . ومن شرقها ساحة خربة فيها بئر ماء وشجرات من الرمان والتين ، وفي جنوبها إلى الغرب غرفة كبيرة كان الناس يصلون فيها ، وفيها قبر عليه كتابة بالخط الكوفي لم نستطع أن نقرأ منها غير سورة الإخلاص ، ولا حاجة للإطالة في وصفه بعد ما هدم . وبكفي ان نعلم أن هذا المدفن كان من دور بني سليمان التنوخي أمل أبي العلاء ، أو في ساحة من دورهم . وإذا صح هذا فهو أقدم بناء أبقته الأيام في المعرة ، ولذلك لم يكن هدمه من الحكمة ولا جرى على سنن الرشد ، ولو أبقي وأضيف إليه البناء الجديد لكان ذلك أقرب إلى السداد والعقل وأرضى للتاريخ والعلم .

ترجمة أبي العلاء

اسم وكنية ولقب

سماء أبوه أحمد ، وكناه بأبي العلاء منذ ولده ، وقد جرى في ذلك على عادة أهل بلده ، إذ قلما وجدنا ناهياً في ذلك العهد إلا وله كنية . والظاهر أنهم كانوا يكونون الأولاد منذ الحداثة أو قبل ان يولد لهم كما قال في الزوم :

من عثرة القوم أن كنوا وليدَهُمُ أباً فلان ولم يُنسِلْ ولا بلغاً^(١)

ويبدو ان أبا العلاء كني بمقتضى هذه العادة وهو صغير كما سيتضح ذلك من حادثته مع الحلبيين الذين جاءوا ليختبروه ، على أنه صرح بهذا في قوله في الفصول والغايات ص ٢٠٩ ، حيث قال : « كُنيتُ وأنا وليدُ بالعلاء ، فكانَ علاءُ مات ، وبقيتُ العلامات . لا أختارُ لِرَجُلٍ صدقٍ ما ولدَ له أن يُدعى أباً فلان . ورب شجرة شاكِهٍ ثمرها غير عذب ، وليس ظلُّها يروح ، اسمها الشُّرة ، وكنيتها أمُّ غيلانَ » . ويظهر من كلامه أنه كان غير راض بهذا الاسم ولا بتلك الكنية لما يشعران به من المدح والتعظيم ، فقد قال في الأول :

وأحمد سَمَاني كبيرِي ، وقلْما فَعَلْتُ سِوى ما اسْتَحِقُّ به الذِّمَّ^(٢)

(١) الزوميات ص ٢٨٨ .

(٢) الزوميات ص ٢٣٨ .

وقال في الثانية :

دُعِيتُ أبا العلاء وذاك مَيَّنْ وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ أَبُو النَزُولِ^(١)

وهذه شئنة أبي العلاء في كرهه كل ما يشعر بتكريمه وتعظيمه .
وقد كتب أبو الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري كتاباً إلى
أبي العلاء ، وجعل فيه اسمه محمداً ، وكتبه أبا الأملى بالقصر في نظمه
ونثره^(٢) ، فتوهم أبو العلاء أن في هذا التغير والقصر تعدياً يراد منه
تخثيره ، فأكر عليه ذلك ، وانحال عليه بغروب من الاستخفاف ، وأعقبها
بشيء من الاعتذار كما سيأتي .

لقب

لم أر أحداً من المتقدمين ذكر لأبي العلاء لقبا ، كما أتى لم أر ذلك
كثيراً فبين كان من العلماء في المرة في ذلك العهد ، ولعل العناية بالكنى
كانت أشد من العناية بالألقاب في ذلك العصر والمصر .

ولما عاد أبو العلاء من بغداد^(٣) ، وعزم على لزوم منزله ، لقب
تلقبه رَهْنُ الْحَبِيبِينَ^(٤) ، للزومه منزله ، وذهاب عينيه ، ثم لما أمعن

(١) القزويني ٥ ص ٢١٩ .

(٢) اعترف الأستاذ البني عن هذا الرجل بأن صنيعه هنا كان في الشر . . وهو غير
صحيح لأن أبا العلاء صرح في جوابه بقوله : ولو كان تخيّر اسمي في النظم دون
النثر لكان عنفه منبسطاً . فحوله هنا وتنته يدلان دلالة صريحة على أن التغير
والقصر لهما في النظم وحده . (ج) .

(٣) ابن الديم . (ج) .

(٤) في شاهد التنصيص رهن الحبيبين يعني حبس نفسه في منزله وحبس بصره بالمشي
ورهن : سرحون . ملزم ثابت دائم والمحبس والمحبس : الموضع . (ج) .

في البحث عن أمرار الحياة ، وأنفذ أشعة عقله إلى أعماقها ، رأى أنه في ثلاثة سجون لا في مجبيين ، وذلك قوله : (١)

أُراني في الثلاثة من سُجونى فلا تسأل عن الخبرِ النَّبِيثِ
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكوْن النفس في الجسد الخبيث

وقد كنتي بأبي الملاة جماعة من أهل المرأة ، منهم : أبو العلاء بن عبد الله بن الحسن ، وأبو العلاء بن أبي الندى ، وأبو العلاء أحمد بن أبي اليسر شاكراً ، وأبو العلاء الحسن بن الحسين بن محمد بن أحمد بن جعفر ، وأبو العلاء سعد بن حماد .

والظاهر أنهم كثروا أولادهم بهذه الكنية ، تيناً بأن يكونوا مثل أبي الملاة هذا ، والأخير روى (ملقى السبل) عن أبي العلاء .

نسب من قبل أبيه

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان [الثالث] بن محمد بن سليمان [الثاني] ابن أحمد بن سليمان [الأول] بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النعمان - وهو ساطع الجلال - بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بَرِيح بن جذيمة بن تيم الله ابن أسد بن وَبَرَة بن تغلب بن 'حلوان بن حَمِيْر بن سَبَّأ بن يَشْجُب ابن يَغْرُب بن قحطان ، وهو مجتمع قبائل اليمن .

وقد اختلفت كلمة العلماء في هذا النسب على وجوه كثيرة ، فمنهم من جعل سليمان واحداً ، ومنهم من جعل أرقم ابن أنور بن أسحم ، ومنهم من جعل خزيمه بدلاً من جذيمة ، ومنهم من جعل مالك ابن مرة ،

(١) اللزومات ٨ ، ص ٧٢ . يقال نبث الزاب : أي استخرجه من بئر أو نهر فهو نبث . وخيبت نبث : تَبَيْتُ شره أي يستخرجه (ج) .

ومنهم . . . ومنهم . . . وقد آثرنا رواية صاحب الرويات (١) ، لأنها موافقة
لرواية ابن العديم (٢) ، إلا في جعل أسحم ابن أرقم . وهما أكثر من كل من
كتب في هذا الموضوع تحريماً وتثبناً ، وروايتها موافقة لرواية السعفي
والعيني في الأكثر .

وكذلك اختلفت كلتهم في تنوخ ، فقبل : إنها مشتقة من تنخ
في المكان تنوخا أي أقام ، وقبل : إن تنوخ قبيلة . وقيل قبائل . وإنا
نسبوا بذلك ، لأنهم اجتمعوا وتحالفوا على التناصر وأقاموا في مكات ،
والتنوخ : الإقامة .

واختلف في هذه القبائل ، فقبل : إنهم ثلاثة أبطن من القحطانية نزار
والأحلاف ، وقيل غير ذلك .

واختلف في المكان ، فقبل : في الشام ، وقيل في البحرين ، وقيل
في الحيرة .

واختلف في قضاة ، فقبل : إنهما من معد بن عدنان ، وقيل من قحطان .
وجعل بعضهم قحطان من ولد إسماعيل .

وتحصيل الحقيقة من بين هذه الأقوال المتضاربة أصعب من عقد الشقيقة ،
ولنا في حاجة إلى الإطالة في تحقيقها ، وحسبنا الآن أن نعلم أن قبائل
من قضاة تنوخوا على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن قيس الله ،
وزلوا معه الحيرة ، فاخطوها ومروها ، وكانوا أولي قوة وبأس ، فغزاهم
سابور الأكبر ، حتى ضعفوا عن مقاومته ، فسار معظمهم إلى الضيزن بن
معاوية ، وهو صاحب الحضرم والحضر حصن عظيم بين دجلة والفرات ،
والضيزن من الذين تنخوا بالسواد . وقد قتل سابور واستباح الحضرم ،

(١) تريف القدماء بأبي اللاس ١٨٢ عن الرويات - لابن خلكان .

(٢) تريف القدماء بأبي اللاس ٤٨٦ عن الانصاف والحري - لابن العديم .

وقتل كثيراً من قضاة ، ثم إن تنوخ ملكوا ما جاورهم من البلاد ، واشتدت شوكتهم ، فملكوا عليهم الساطع وهو النعمان بن عدي ، وإنما سمى ساطعاً لجماله وبهائه ، فملك عليهم بركة ، وكانت له حروب مع الفرس . ولما هلك الساطع تفرقت كلمة تنوخ وتنازعوا الرياسة من بعده . ثم إن ملك الفرس غزا الروم فقتل وسبى منهم كثيراً ، فاستنجد ملك الروم تنوخ على الفرس ، لأنهم أقرب القبائل إليه ، فأنجدوه وقاتلوا معه قتالاً شديداً ، ثم سألوه أن يتولوا حرب الفرس منفردين ، فأجابهم إلى ذلك ، فقاتلوا الفرس وظفروا بهم ، فأعجب بهم ملك الروم ، وفرق فيهم الدنانير والثياب ، وقربهم وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد إلى الجزيرة ، وسورية مدينة بقرب الأحص^(١) على جانب البرية ، وإليها ينسب اللسان السورباني .

ونزل جماعة منهم المرة ؛ فلما جاء الإسلام ، نزلوا قنسرين ومنبج وسورية وحماة ومعرة النعمان وكفرطاب وغيرها ، وتغلبوا عليها ، وامتنعوا عن أداء ما يقع عليه اسم الجزية ، وقبل عمر بن الخطاب أن يأخذها على أمم الحجاج ، ثم أسلم بعضهم بعد بعض وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبي العلاء ، وأجداد بني الفصيصة ولادة قنسرين . وبيوت المرة منهم ، وهم يرجعون إلى أسحم وعدي وغنم أولاد الساطع . فبنو سليمان جد أبي العلاء ، وبنو أبي حصين ، وبنو عمرو ، ينسبون إلى أسحم . وبنو المهذب ، وبنو زريق ، ينسبون إلى عدي . وبنو حواري ، وبنو جبير ينسبون إلى غنم .

مرزبان تنوخ

قد اتضح مما سبق أنهم في الجاهلية وفي صدر الإسلام ، وقد قال

(١) الأحص وشيب : موضحان بحلب (عن القاموس) .

٥ المراجع لأخبار أبي العلاء ، ١

ابن العديم^(١) : تنوخ من أكثر العرب مناقب وحسباً ، ومن أعظمها مفاخر وأدبا ، وفيهم الخطباء والفصحاء والبلغاء والشعراء ... وبنو الساطع هم المشهورون بالشرف والودود والرياسة والشجاعة والجلود والفضل ... وأكثر فضاء المرأة وفضلاتها وعلماؤها وشعراتها وأدهانها من بني سليمان بن داود بن المطهر . وقد ظلت الفتيا فيهم نحو مائتي سنة ، وكانوا على مذهب الإمام أبي حنيفة ، كما قال ابن العديم في ترجمة سالم بن عبد الجبار^(٢) وقد ذكرناها في (تاريخ المرأة) .

وقد ولي قضاء المرأة وحص جماعة منهم . منهم : أبو الحسن سليمان^(٣) [الثاني] بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر ، وهو أول من تولى منهم قضاء المرأة ، وليه سنة ٢٩٠ هـ إلى أن مات ، فولى بعده ابنه أبو بكر محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان . وقبل هذا الذي تولى سنة ٢٩٠ هـ وتوفي سنة ٣٣١ هـ ومدحه أبو بكر الصنوبري^(٤) بأبيات منها قوله :

بأبي يا بن سليمان نَ لَقَدْ سُدَّتْ تَنُوخَا
وهم السادة شُبا نأَ لعمرى وشيوخا

(١) تريف القدماء بأبي اللاه من ٤٨٩ عن الانصاف والنعمري - لابن العديم .

(٢) بنية الطالب - لأبن العديم ١٩٠/٩ وجه المخطوطة .

(٣) جمل يافوت في (معجم الأدباء) عبد الله أبا أبي اللاه ابن سليمان بن داود .

وجعل مرة ثانية سليمان بن أحمد بن سليمان جد أبي اللاه .

وجعل أبا بكر محمد بن سليمان عم أبي اللاه .

وتبعه في ذلك صاحب (ذكرى أبي اللاه) وهو خطأ ، والصواب أن سليمان بن

داود جد سليمان الثاني بن أحمد ، وسليمان الثاني جد سليمان الثالث بن محمد وهذا

هو جد أبي اللاه .

وأن أبا بكر محمد بن سليمان جد عبدالله والد أبي اللاه (ج) .

(٤) هو أحمد بن محمد المالبي الصنوبري ، شاعر رقيق الشعر ، توفي سنة ٣٣٤ هـ ،

وقد ذكر في (فوات الوفيات) طائفة من شعره (ج) .

أَذْرَكَ الْبُغْيَةَ مَنْ أَضْحَىٰ بِنَادِيكَ مُنِيخًا

ثم وليه أبو الحسن سليمان بن محمد بن سليمان ، بعد موت أبيه أبي بكر ،
ثم ولي بعد ذلك قضاء حمص وتوفي فيها ، وهو على قضاها سنة ٥٣٧٧ هـ ،
ودفن ظاهر باب الرستن ، وقد كانت ولادته سنة ٥٣٠٥ هـ .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن سليمان بن محمد . . والد أبي العلاء ، ولد
في المعرة سنة ٥٣٣٠ هـ ، وولي قضاء حمص ، وتوفي فيها سنة ٥٣٧٧ هـ ،
على قول ياقوت^(١) ، و سنة ٥٣٩٥ هـ على قول ابن الهديم^(٢) في المعرة .
ومنهم عبد الله بن محمد أخيه أبي العلاء ، ولي قضاء المعرة سنة ٥٤٤٣ هـ
على كره من عمه أبي العلاء ، وولي بعده ابنه أبو مسلم وادع ، ثم
أخوه وادع محمد الملقب بمجد القضاة .

ومنهم علي بن محمد أخيه أبي العلاء ، ولي قضاء المعرة وحماة .
هؤلاء كلهم من بني سليمان الأول جد أبي العلاء ، ولهم أولاد وأغقاب
تولوا القضاء بعد عصر أبي العلاء .

وولي القضاء منهم ومن أبناء مهم جماعة منهم : القاضي أبو يعلى
عبد الباقي بن أبي حصين ، ولي قضاء المعرة وهو ابن خمس وعشرين سنة ،
وكان عالما شاعرا . وأبو المحاسن الفضل بن محمد بن مسعر المتوفى سنة ٥٤٤٣ هـ .
وأبو غانم ، عبد الرزاق بن أبي حصين ولد سنة ٥٤١٨ هـ ، وتوفي
سنة ٥٤٩١ هـ أو أكثر ، وكان شاعرا مجيدا .

وأبو حمزة الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمرو بن سعيد بن محمد
ابن داود بن المطهر المتوفى قبل الأربعمائة ، وهو الذي رثاه أبو العلاء
بقصيدته الدالية .

(١) تحريف القدماء بأبي اليلاء ص ٦٩ عن إرشاد الأريب إلى معرفة الأدب - لياقوت .

(٢) تحريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٣ عن الانصاف والتحري - لابن الدمج .

وأبو سعيد الحسن بن إسحاق بن بلبل .
وأبو محمد عبد الله بن أخيه أبي العلاء ، الذي كان يتعهد عمه .
وأمثالهم وهم كثيرون ، منهم من ولي القضاء في معرة النعمان . وفي
معرة مصرين ، وحماة ، وحمص ، وبعبك ، ودمياط ، وغيرها . وقد
اقتصروا على هذا القدر خشية الإطالة . وأستوفينا ذكر من وقفنا عليه
منهم في (تاريخ المعرة) .
ومنهم من تولى غير القضاء ، كأبي القاسم علي بن الحسن بن جَلَبَات
التوخجي ، فإب عضد الدولة بن بويه استعمله على بغداد ورد أمورها
إليه ، ومنهم . ومنهم . .
وأما الشعراء منهم ، فأكثر من أن يحصوا ، وأظن أن الثمانين شاعراً
الذين وقفوا على قبر أبي العلاء ورثوه كلهم تنوخيون . وقد جاء من أعقابهم
وأبنائهم عدد كبير من العلماء والشعراء والكتاب والقراء إلى ما بعد
القرن الثامن .

نسب من قبل أمه

لم ننف على تفصيل لأسرة أمه في كلام المتقدمين ، إلا ما قاله ابن العديم^(١) :
وهو أن أمه بنت محمد بن ميكة ، وأظن أن أباها من أهل حلب ،
وخاله علي بن محمد بن ميكة الذي يقول فيه [من قصيدة في
سقط الزند] :

أرانا يا علي وإن أقمنا نشاطك الصباية والشهادا^(٢)

(١) تعرف القديما بأبي العلاء س ٥١١ عن الاضاف والحريري - لابن العديم .

(٢) غرور سقط الزند ، ق ٢ س ٧٧١ .

ويقول أيضا :

كَانَ بَنِي سَبِيكَةَ فَوْقَ طَيْرٍ يَجُوبُونَ الْغَوَاطِرَ وَالنَّجَادَا (١)

وأما المتأخرون فقد استنتجوا من كلام المعري نتائج غريبة منهم صاحب (ذكرى أبي العلاء) ، قال (٢) : إن شعر المعري ونثره يمثلان من هذه الأسرة ثلاث خصال ، الأولى : كثرة الرحلة . واستدل على ذلك بما في بعض رسائله ، وبما في قصيدته التي بعث بها إلى أحد أخواله ، وقد عاد من سفره إلى الغرب . الثانية : الكرم والحرص على صلة الرحم . وقد استنتج ذلك من رثاء أبي العلاء لأمه ، ومن شكره لحاله . غير مرة على معونته وإياديه ، وذهب إلى أبعد من ذلك فجعل سفره إلى بغداد ومقامه بها ورجوعه منها من نوافل خاله . الثالثة : حب العلم والنبوغ فيه . واستظهر ذلك من المكاتبة التي اتصلت بين المعري وبين خاله أبي طاهر في بغداد ، ومن لفظ الرسائل التي كتبها إلى أخواله . واستنتج من هذه الرسائل ، أن أبا العلاء يرى لهم التفوق وإتقان العلم ، وأنهم أصحاب ثروة ويسار ، وزاد على هذا كله قوله : ولا بد لنا من أن نلاحظ أن رسائل أبي العلاء ولزومياته ودبوانه المعروف بسقط الزند ، تخلو كلها من ذكر أسرته لأبيه ، إلا ما كان من رثاء والده ، بينما تستغرق أسرته لأمه ، من دبوانه ورسائله ، مقداراً غير يسير ، فلا شك في أن إيابي أمه وأخواله كانت متظاهرة عليه ، وإن معونة أسرته لأبيه كانت منقطعة عنه لفقر أو جفاء . ٥١ .

وجرى قريبا من هذا الأستاذ الميمني في (أبي العلاء وما إليه) (٣) .

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٨٢ .

(٢) ذكرى أبي العلاء - لطفه حين - ط ٢ ، ص ١٢٢ .

(٣) انظر أبو العلاء وما إليه - للميمني - ص ٣٧ .

والحق أن مثل ذلك لا يصح استنتاجه من قول العربي في خاله :^(١)
 كَانَ بَنِي سَبِيكَةَ فَوْقَ طَيْرٍ يَجُوبُونَ الْغَوَاطِرَ وَالنَّجَادَا
 أَبَا إِسْكَندَرَ الْمَلِكِ اقْتَدَيْتُمْ فَمَا تَبْضَعُونَ فِي بَلَدٍ وَسَادَا
 حتى يعضده مستند تاريخي ولم نره . لأن هذه القصيدة طائفة بالغلو
 والبالغة مثل قوله :^(٢)

إِذَا سَارَتْكَ شُهْبُ اللَّيْلِ قَالَتْ أَعَانَ اللَّهُ أَنْبَعَدَنَا مُرَادَا
 وَإِنْ جَارَتْكَ هُوجُ الرِّيحِ كَانَتْ أَكَلَّ رَكَائِبًا وَأَقْلَّ زَادَا
 وقوله^(٣) :

وَيَبْكِي رَقَّةً لَكَ كُلُّ نَوْءٍ فَمَلَأَ مِنْ مَدَامِعِهِ الْمَزَادَا
 ويجوز أن يكون خاله علي سافر مرة إلى مصر ، وأخرى إلى المغرب ،
 ولم يسافر إلى غيرهما ، فأراد أبو العلاء أن يبالغ ، جرباً على أسلوبه
 في هذه القصيدة ، فأوهم كثرة الرحل ، كما يجوز أن يكون هذا خاصاً
 بخاله علي دون غيره ، ولا يبيط اللثام عن وجه الحقيقة إلا النص
 التاريخي ، وهذا لم نعهز عليه ، ولذلك لا يصح أن تكون كثرة
 الرحل خصلة عامة في الأسرة كلها .

وأما الاستدلال بشكر أبي العلاء لخاله على معونته إياه ، وأن سفره
 إلى بغداد إلى رجوعه من نوافل خاله فأمر غريب ، وأغرب منه قوله^(٤) :
 إِنْ رَسَائِلَ الْعَرَبِيِّ وَدِيَوَانِيهِ خَالِيَةٍ مِنْ ذِكْرِ أَمْرِهِ لِأَبِيهِ . واستنتاجه من

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٨٣ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٧٣ . وسارنك : أى تكلفت معارضتك في سري
 الليل ، وهي صيغة المفاعلة من السرى .

(٣) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٧٦ .

(٤) النظر صفحة ٥٧ الحاشية ٢ .

ذلك أن أبيادي أخواله كانت متتابعة عليه ، بخلاف أسرة أبيه فإنها كانت منقطعة . .

وإذا تأملات ، وجدت هذا كله غير صحيح لأسباب كثيرة :
منها : أن رسائل المعري وشعره لم يصل إلينا وافر من كليها ، وما وصل منها ، فالذي يتعلق بأسرة أبيه أكثر مما يتعلق بأسرة أمه ، لانتالاجد في شعره إلا قصيدته الدالية التي أرسلها إلى خاله علي ، في حين أن في شعره قصيدة رثى بها جعفر بن علي بن المهذب التوخي . مطلعها : (١)
أَحْسَنُ بِالْوَاكِدِ مِنْ وَجْدِهِ صَبْرٌ يُعِيدُ النَّارَ فِي زَنْدِهِ
وأخرى رثى بها أبا حمزة الحسن بن عبد الله التوخي أحد بني مه
مطلعها : (٢)

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرَنُّمُ شَادٍ
وهاتان القصيدتان من أفضل ما قيل في الرثاء ، ورثى أبا به بقصيدة
مطلعها : (٣)

نَقَمْتُ الرُّضَى حَتَّى عَلَى ضَاحِكِ الْمَازِنِ فَلَا جَادَنِي إِلَّا عَبُوسُ مِنَ الدَّجَنِ
وله قصيدة مدح بها أبا الرضي النصيبي التوخي مطلعها : (٤)

يَا سَاهِرَ الْبَرْقِ أَيْقُظْ رَاقِدَ السَّمْرِ لَعَلَّ بِالْجِزْعِ أَعْوَانًا عَلَى السَّرِّ
ومدح أبا القاسم علي بن الحسن بن جبلة التوخي بقصيدة مطلعها : (٥)
يَرَوْكُمْ وَالْجُوزَاءُ دُونَ مَرَامِهِ عَدُوٌّ يَغِيبُ الْبَدْرَ عِنْدَ تَمَامِهِ

(١) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٠٦ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ٩٧١ .

(٣) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٩٠٧ .

(٤) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ١١٤ .

(٥) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ١٧٣ .

وبأخرى مطلعها : (١١)

أَيَذْفَعُ مَعْجَزَاتِ الرُّسُلِ قَوْمٌ وَفِيكَ وَفِي بَدِيهَتِكَ اعْتِبَارٌ
ومدح الفضل بن سعد بن عمرو التوخي فيما قيل - وكان قد مدح
أما العلاء - بقصيدة أجابه فيها مطلعها : (١٢)

يَا لِلْمُفْضَلِ تَكْسُونِي مَدَائِحُهُ وَقَدْ خَلَعْتُ لِبَاسَ الْمَنْظَرِ الْإِنِّقِ
ومدح أما القاسم التوخي بقصيدة هنا فيها بملود مطلعها : (١٣)

مَتَى نَزَلَ السَّمَاءُ فَحُلَّ مَهْدًا تُغْذِيهِ بِدِرَّتَيْهَا الشَّدِيءُ
وبأخرى مطلعها : (١٤)

هَاتِ الْحَدِيثَ عَنِ الزُّورَاءِ أَوْ هَيْتَا وَمُوقِدِ النَّارِ لَا تَكْرِي بِتَكْرِيَتَا
وبثالة مطلعها : (١٥)

لَوْلَا مَسَاعِيكَ لَمْ نَغْذُذْ مَسَاعِينَا وَلَمْ نُسَامِ بِأَحْكَامِ الْعَلَا مُضَرَا
ومدح ابن أخيه عبد الله بن محمد ، وهو الذي كان يخدمه ، بأبيات
يقول فيها : (١٦)

وَقَاضٍ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ عَنِّي وَطَوَّلَ نَهَارَهُ بَيْنَ الْخُصُومِ

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٨١٠ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٦٧٣ ، وفيها قبل هذا البيت :

ارْتَدَّ هَيْثَا نَابِي دَائِمِ الْأَرْقِ وَلَا تَشْفَنِي وَغَيْرِي سَالِبًا فَتَقِ

وفي الشروح أيضاً : « يكسوني مدائحه » .

(٣) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٣٢١ .

(٤) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٥٩٣ .

(٥) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٧٣٦ .

(٦) تعريف القدماء ، أبي العلاء ص ٤٩٧ عن الانصاف والحريري - لابن العميد .

وبابيات أخرى يقول فيها : (١)

أَعْبَدَ اللَّهُ مَا أُنْشَدَى جَمِيلًا نَظِيرَ جَمِيلٍ فَعَلِكَ غَيْرُ أُمِّي
ولو استقرينا كلامه لوجدنا فيه غير ما ذكرنا ، ومن هذا يتضح لنا
أن أبا العلاء مدح في شعره أمة أبيه أكثر من أمة أمه ، وإن كان يريد
ذكر اسم الأسرة ، فإنه قد ذكر تنوخ في شعره كثيرا كقوله في السقط : (٢)
إِلَى التَّنُوخِيِّ وَاسْأَلْهُ أُخُوَّتَهُ فَقَبِلَهُ بِالْكَرَامِ الْغُرَّ أَوْخِيَتَا
وقوله فيه : (٣)

وَحَمَلَكَ الشَّعْرَ مِنْ أَشْعَارِ طَائِفَةٍ وَحَشِيَّةٍ مِنْ تَنُوخٍ تُنْكِرُ الْجُدْرَا
وقوله في اللزوم : (٤)
فَشِعَارِي قَاطِعٌ ، وَكَانَ شِعَارًا لَتَنُوخٍ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ ، وَاصِلٌ
وقوله في غيره : (٥)

فَقَالَ : أَرِيدُ عِنْدَكُمْ تَنُوخًا فَقُلْتُ : أَصَبْتَ إِنَّا مِنْ تَنُوخٍ
وإيراد كل ما ذكره من هذا النوع يخرجنا عن الغرض المقصود ،
وهذا القدر يتضح أن أبا العلاء ذكر أمة أبيه في موطن واحد من شعره
وأمة أبيه في مواطن كثيرة ، أما كتاب التهذيب إلى خاله أبي القاسم
بأمة وبجالة فهذا أمر طبعي ، لأن أمة أخته وأخوه فعلم حكم
الغرضاء الذين عزام أو دهم .

- (١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٦ عن الإصناف والتحري - لابن الدم .
- (٢) شروح سقط الزند ق ٤ ص ١٦٣٠ .
- (٣) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٧٣٨ وفيها : « وحلك الجزء » . أما في التنوير
فكما ورد في المتن .
- (٤) الروميات ه ص ٢٢٦ .
- (٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٢ عن الأنساب - للسماني ، وفيه : « إني من تنوخ » .

وسأني ما يدل على أن أبا العلاء لم يكن مغفورا بنواخل أخواله ولا
غيرهم ، وأن معرفة خاله في استنساخ الكتاب وفي سفر بغداد كانت من
قبيل التوسعة به لمساعدته في حله وترحاله ، ولم تكن نفقة من غير ماله ،
ولكنه كان يعظم الصنعة ويكثر الشكر على كل شيء ، وهذا لا يمنع
أن يكون خاله أهدى إليه شيئا قبله أو أعانه بشيء في رحلته ، ولكن
الذي نستبعده هو أن يكون عاش في ظلالهم ورحل بأموالهم . على أنه
يقول في كتابه المتعلق بشرح السيراني ^(١) : « وإنما رجوت بيوتك أن
يتفق أفس كما قال الله تعالى : « ومن رزقناه نحن بخرام معدودة وكانوا
فيه من الزاهدين » . وهذا يشعر بأنه هو الذي يريد دفع ثمن الكتاب
ولذلك نفي أن يكون بخسا ، ولو كان طلبه من أبي طاهر بجانا لما تصدى
لذلك .

وقد ذكر المتأخرون أن له أخوالا ثلاثة : الأول ، أبو القاسم علي
وهو الذي أرسل إليه القصيدة الدالية وفيها يقول : ^(٢)

أَرَانَا يَا عَلِيُّ وَإِنْ أَقَمْنَا نَشَاطِرُكَ الصَّبَابَةَ وَالشَّهَادَا

وأرسل إليه رسالة عند طلوعه من العراق ^(٣) ، وفيها يذكر موت
أمه ويصف بعض ما لقيه في بغداد وطريقها ، ويعتذر عن عدم مروره
بجلب في الذهاب والإياب .

ورسالة أخرى يعزبه فيها بأخيه أبي بكر .

الثاني : أبو بكر ، وهذا لم نعتز له على خبر ولكن يظهر من
الرسالة التي كتبها إلى خاله أبي القاسم يعزبه فيها به أنه كان يكنى بأبي بكر
وأنه توفي في دمشق وأن له ولدا كهلا ولولده أبناء .

(١) تحريف القدماء ، بأبي الدلاء ، ص ٩٣ عن إرشاد الأريب - لياقوت .

(٢) خروج سقط الزند ، ق ٢ ص ٢٢١ .

(٣) تحريف القدماء ، بأبي الدلاء ، ص ٨٣ عن إرشاد الأريب - لياقوت .

الثالث : أبو طاهر ، ولم أر أحدا من المتقدمين ذكر أن له خلا يكنى بأبي طاهر ، ولكن المتأخرين استتجوا ذلك من رسائله .

وأبو العلاء أرسل إلى أبي طاهر (١) هذا كتابا وهو بغداد ، يبحث فيه عن كتاب يقال إنه شرح السيرافي لكتاب سيبويه ، وليس في هذا الكتاب ما يدل على أنه خاله ، ولكن جاء في عنوان الكتاب . كتب إلى أبي طاهر الشريف بن سبيكة . . وذكره في رسالته إلى خاله أبي القاسم التي كتبها إليه حين طلوعه من العراق ، وفيها يقول (٢) : وأما سيدي أبو طاهر فقد حملني من الأنعام أوقفا . . وما ورث بري عن كلاله . . إنما تقبل أبا . . ومن أشبه أبا فما ظلم . ويقول في آخرها : وأن أحمل إلى مولاي ، أدام الله عزه ، وإلى مولاي أبي طاهر عضدي الله ببقائه - لا ما . . وذكره في رسالته التي عزي فيها خاله بقوله . والله يقيه ولا يشقه . . ويريه في مولاي أبي طاهر وولده ما رآه في ولده سعد العشرة . . وهو أدام الله عزه شجرة لا تنمر إلا طيبا . ومن أشبه أبا فما ظلم . . . وهذا يدل على أن أبا طاهر ابن أبي القاسم لا أخوه ، لأن كلمة ومن أشبه أبا فما ظلم ، إنما تقال في مشابة الولد أبا ، لا في مشابة الأخ أخاه . وسعد العشرة إنما سمي كذلك لكثرة ولده وولد ولده ، لا لكثرة أولاد أخيه .

★ ★ ★

(١) انظر الحاشية (١) من صفحة (٦٢) .

(٢) تريف القدماء بأبي العلاء من ٨٨ عن إرشاد الأريب - باقوت والأوق بالفتح : التحل .

ميجور أبي العلاء

اتفق جمهور من المؤرخين على أن أبا العلاء ولد في المعرة عند غروب
الشمس من يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٥٣٦٣هـ ، وقد
نقل ذلك أبو الخطاب العلاء بن حزم عن أبي العلاء نفسه ، وذكره
أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب المعري التنوخي ، وذكره
كذلك أصحاب (نزهة الألباء) (١) و (الوفيات) (٢) و (نكت
المبيان) (٣) و (معاهد التنصيص) (٤) و (ابن الوردي) (٥) و (الشذرات) (٦)
و (معجم الأدباء) (٧) و (دول الاسلام) و (الكامل) (٨) لابن الأثير
و (بنية الوعاة) (٩) و (لسان الميزان) (١٠) و (النجوم الزاهرة) (١١)
و (مرآة الزمان) (١٢) و (البداية والنهاية) (١٣) وغيرهم .

-
- (١) تعريف القدماء بأبي العلاء من ١٧ عن نزهة الألباء - لابن الأباري .
 - (٢) تعريف القدماء بأبي العلاء من ١٨٣ عن وفيات الأعيان - لأبن خلكان .
 - (٣) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٢٩٥ عن نكت المبيان - للمفدي .
 - (٤) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٣٣٥ عن معاهد التنصيص - لأبي الفتح الباسي .
 - (٥) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٢٠٧ عن تنبيه المختصر - لابن الوردي .
 - (٦) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٣٤٧ عن شذرات الذهب - لابن العماد .
 - (٧) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٦٧ عن معجم الأدباء - لياقوت .
 - (٨) تعريف القدماء بأبي العلاء من ١٤٢ عن الكامل - لابن الأثير .
 - (٩) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٣٣٢ عن بنية الوعاة - للبطوني .
 - (١٠) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٣١١ عن لسان الميزان - لابن حجر .
 - (١١) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٣٣٠ عن النجوم الزاهرة - لابن قنبري بردي .
 - (١٢) تعريف القدماء بأبي العلاء من ١٤٣ عن مرآة الزمان - لبسط ابن الجوزي .
 - (١٣) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٣٠١ عن البداية والنهاية - لأبن كثير .

وقال فريقت : إنه ولد لثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأول ،
وقيل : سنة ست وستين . ونقل أبو الفداء القولين ، وقال ابن العديم : (١)
الصحيح الأول أي سنة ٣٦٣ هـ وهو الذي اعتمده الجمهور .

عمامه

حياة أبي العلاء كلها مصائب ، وأول فاجعة منها ذهاب بصره
بسبب الجدري .

وقد اختلفت الكلمة في زمن عماء ، فقيل : إنه ولد أمي (٢) ، وقيل :
ممي وهو ابن ثلاث سنين (٣) ، وقيل : ابن أربع ، وقيل : ابن أربع
وشهر (٤) ، وقيل ابن سبع (٥) ، وقال الخطيب البغدادي : (٦) إنه ممي في
صباه ، وقيل : ممي وهو ابن سبعين عاماً (٧) .

وأصح الأقوال أنه أصيب بالجدري وذهب بصره وهو ابن أربع
سنين ، وقد قال أبو العلاء نفسه في رسالته إلى داعي الدعاة (٨) : وقد
علم الله أن سمعي ثقيل ، وبصري عن الأبصار قليل (٩) ، قضي علي وأنا ابن

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١١ عن الانصاف والحري - لأبن السديم .

(٢) هل ذلك أبو الفداء ج ٢ ص ١٧٦ والفتنات (ج) .

(٣) أبو الفداء ، وقال : إنه الصحيح (ج) .

(٤) ابن السديم (ج) .

(٥) البداية والنهاية - لابن كثير (ج) .

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٧ عن تاريخ مدينة السلام - للخطيب البغدادي .

(٧) هله الميمني عن صاحب آثار الصمم (ج) .

(٨) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٧١ عن إرشاد الأريب - لياقوت .

(٩) في إرشاد الأريب « ثقيل » ، والقليل : التريب . جا (٥)

اربع ، لا أفرق بين البازل^(١) والرُبْع^(٢) . وأبو العلاء أصدق الناس
فيما يحدث به عن نفسه ، على أنه يجوز أن يكون قد تسمع ببض الأيام
التي تريد على الأربع أو تنقص عنها .

أثر الجدرى في وجهه

كان من آثار هذه النكبة التي ابتلي بها أبو العلاء في فاتحة حياته ،
أنه غشي عنه البنى بياض فندرت ، وذهبت البسرى جملة فنارت ، وظهر
في أديم وجهه أثر الجدرى . وقد نقل ابن العديم عن ابن منقذ أنه رأى
أبا العلاء وهو صبي دون البلوغ ، وأنه وصفه فقال^(٣) : وهو صبي دميم
الخلفة مجذور الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدرى كأنه ينظر بإحدى
عينيه قليلاً ، وظل موسوماً بهذه السمة الى آخر حياته .

فقد نقل المؤرخون عن أبي محمد عبد الله بن الوليد بن عريب الأيادي
المعري أنه دخل على أبي العلاء يزوره ، وهو شيخ فان ، فرأى إحدى عينيه
نادرة والأخرى غائرة جداً ، وهو مجذور الوجه نحيف الجسم .

أثر الجدرى والعشى في نفسه

سيأتي عن أبي الحسن الدلفي المصبي الشاعر أنه سمع أبا العلاء يقول^(٤) :
أنا أحمد الله على العشى كما مجده غيبي على البصر ، فقد صنع لي وأحسن

(١) البازل من الإبل : ما كان في تاسع سنه .

(٢) الربع من ذوات الخف : ما بلغ السابعة من سنه

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٤٤ عن الإصناف والتحري - لابن العديم

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٥٨ عن الإصناف والتحري - لابن العديم .

بي إذ كفاني رؤبة العلاء والبغواء ونسبوا إليه هذين البيتين : (١)

قالوا العمى منظر قبيح قلت بفقدانكم يهون
والله ما في الوجود شيء تأسى على فقد العيون

وقد نسبها الشريفي إلى بشار . و (الوطواط) لأبي العيلاء (٢) .
وقال في لزوم مالا يلزم :

ذهاب عيني صان الجسم آونة عن التطوُّح في البيد الأماليس
وأن أبيت سميّر الكذري في بلد تطوى فلاه بتهجير وتغليس (٣)

وحدد الله على العمى لبس عن سرور واغتراب به ، وإنما هو من
تلقي القضاء بالرضى والاستسلام إلى مالا يستطيع دفعه ، وكم من مكروب
يحمد الله على ما أصابه ، وليس معنى هذا أنه راض به ، مبتجٍ بمصولة ،
وإنما هو نفقة مصدور ، لا يشذ صاحبها عن طريق الدين والأدب مع ربه .

ومن تتبع شعر أبي العلاء الذي يعرض فيه لذكر الجدرى والعمى
يجده مضوراً بالألم الشديد والحزن العميق طافحاً بالحسرات والزفرات .
وهذا يدل على أن لها في نفسه أشد وقع وامن أثر ، فانظر إلى قوله
في فم الحمر :

(١) تعرف القدماء بأبي العلاء ص ٣٥٣ عن نزهة الجلبس - لابن مكي ، وص ٤٠٧ عن

النبت المجمع - لقصدي ، وص ٤٠٨ عن نكت المياني - لقصدي .

(٢) وفي روايته تنبير فراج فيه ص ١٦١ (ج) .

(٣) اللزومات ص ٣٠٠ ، وفيها : « عن الطرح » بالراء .

والأماليس : التي لا تبث شيئاً .

أَصْرٌ مِنْ جُدْرِيَّ شَانَ حَامِلَهُ بِحَمَلِهِ جَدْرِيٌّ جَاءَ مِنْ جَدْرٍ^(١)
وقوله :

الْحَظُّ لِي وَلِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ أَنْ لَا يَرَانِي أُخْرَى الدَّهْرِ أَصْحَابِي
وَشِقْوَةٌ غَشِيَتْ وَجْهِي بِنُضْرَتِهِ أَبْرُؤِي مِنْ نَعِيمٍ جَرَّ إِشْحَابِي^(٢)
وقوله :

غَدَا رَمَضَانِي لَيْسَ عَنِّي بِمَنْقُضٍ وَكُلُّ زَمَانِي لَيْلَتِي آخِرَ الشَّهِرِ^(٣)
وقوله المتقدم :

أَرَانِي فِي الثَّلَاثَةِ مِنْ سَجُونِي

وقوله :

عَمِيَ الْعَيْنُ يَتَلَوُّهُ عَمَى الدِّيزِ وَالْهَدَى فَلَيْلَتِي الْقُصُوى ثَلَاثُ لَيَالٍ^(٤)
وقوله :

مَالِي غَدَوْتُ كَقَافِ رُؤْبَةٍ قَيَّدَتْ فِي الدَّهْرِ لَمْ يُقَدَّرْ لَهَا إِجْرَاؤُهَا
أُعْلِلْتُ عِلَّةً قَالَ وَهِيَ قَدِيمَةٌ أَعْيَا الْأَطْبَةَ كُلَّهُمْ إِجْرَاؤُهَا^(٥)

(١) جمر : فرية بين حمى وسلية تجلب منها الحر . (ج) ، واليت في اللزومات ٨ ص ١٤٩ .

(٢) هكذا في الديوان ، وزعم البني أنه تصحيف ، والصواب : أشجاني . وهو خطأ لأن

اليت من آيات خة التزم فيها الماء قبل الألف وروى البا . (ج) . واليتان في

اللزومات ٨ ص ٤٩ .

(٣) اللزومات ٨ ص ١٤٦ وفيها على رواية : « لبتا آخر الفجر » .

(٤) اللزومات ٨ ص ٢١٢ وفيها « فلبني القصرى » بالراء .

(٥) اللزومات ٨ ص ٢٣ .

وقوله :

وما بي طريقٌ للمسير ولا الشرى لأنني ضريرٌ لا تُضيء لي الطريق^(١)

وقوله :

وأوقدت لي نارَ الظلام فلم أجد سنالكِ بطر في بلِ سنالكِ في ضنبي^(٢)

وقوله :

إذا كفَّ صلُّ أفعوانٍ فما له سوى بيته يقات ما عمير الثريا

ولو ذهب عينا هزير مساور لما راع ضائاً في المراتع أو سرباً

أو التمعت أنوار عمرو وعامرٍ لما حملارُحما ولا شهدا حرباً^(٣)

وقوله :

وكيف أَرَجِي من زماني زيادة وقد حذَفَ الأصلي حذَفَ الزوائد^(٤)

وقوله في السقط :

فليتَ الليالي ساحتني بناظر يرالكَ ومن لي بالضحى في الأصائل^(٥)

وقوله في السقط :

ويا أسيرةً حجلينها أرى سفها حمل الحلي لمن أعياعن النظر^(٦)

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٩٨ . والطرق : النعم والقوة والسن .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٧١ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٣٨ .

(٤) اللزوميات ٥ ص ١٠٥ وفيها : « من زمان » .

(٥) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٨٤ .

(٦) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ١١٦ وفيها : « بمن أعيا » .

٦ الجامع لأخبار أبي العلاء ١

إلى غير ذلك من الأبيات الكثيرة ، ولا تكاد نجد بيتاً يذكر فيه الجدرى أو العى إلا وهو يفيض بالحزن والألم ، وترى آثار التبرم والتلف تترقق في أضعاف كلماته .

والظاهر أن بين هذا المرض [الجدرى] وبين المعرة صداقة أو قرابة ، فهو يعادها حيناً بعد آخر ، ولقد تنشى بالمعرة وضاحتها نحو سنة ١٣١٢ هـ ، فذهب بعيون كثير من الناس ، وشوه وجوهاً كثيرة ، وعمي بسببه كثيرون لفقد الأطباء وجعل الدواء وعدم اكتراث الحكومة مثل هذا الأمر لجهلها ، ولقد رأيت كثيراً من الناس من أصيب بهذه العلة أصبحت وجوههم بعد نضرتها تشبه ما وصف به وجه أبي العلاء .

ما يعلم من الألوان

كان أبو العلاء يعد اللون الأحمر ملك الألوان ، فقد نقل ابن العديم (١) عن الحسن بن الحشاب الحلبي أن أبا العلاء قال لجماعة حضروا عنده : عدوا على الألوان ، فقالوا : أبيض وأخضر وأصفر وأسود وأحمر ، فقال : هذا هو ملكها ، يعني الأحمر ، ولعل سبب ذلك هو أنه لما أصيب بالجدرى ألبس نوباً أحمر ، أو مصبوغاً بالأصفر ، فهو يعرف اللون الأحمر من ذلك الثوب ، ولا يفضل غيره على ما نقله عنه ابن العديم وصاحب (المعاهد) (٢) وغيرهما . وهذا غريب جداً لأن أبا العلاء تصدى في شعره إلى وصف كثير من الأشياء الملونة بغير الأحمر وأحكم فيها الوصف والنشيد ، وسيأتي تحقيق ذلك وإيضاحه .

(١) تعريف القدماء . بابي العلاء ص ٦٥٢ عن الأصناف والنحري - لابن العديم .

(٢) تعريف القدماء . بابي العلاء ص ٣٣٥ عن معاهد التنصيص - للباسي .

الحياة السياسية

في عصر أبي العلاء

لا يشبه أبو العلاء غيره من الشعراء ، فإنه تناول في شعره طرفاً من أخبار الملوك والدول التي أظله عصرها ، وذكر طائفة من الأحداث التي وقعت في ذلك العهد ، وهذا يجعل التصدي لذكر الحالة السياسية ضرورياً لينسى فهم المراد من كلامه حين يعرض لذكرها ، ولتبين أثر ذلك في تكوين مزاجه الخلفي والفلسفي . ولما كان أبو العلاء أدرك جملة من الملوك والأمراء ، وشاهد كثيراً من مهلك دولة وقيام أخرى ، وأبنا أن نرد أسماء الخلفاء والملوك الذين ثبوتوا العروش من فاتحة حياته إلى خاتمتها ، ونضيف إلى ذلك ما يتوقف عليه ربط الحوادث والدول وتسلطها ، ليكون الكلام برزناً من الفموض والنقص . وابتدأنا بملوك حلب والشام لأن المعرة في ذلك العهد تابعة لحلب ، وقد تكون حلب تابعة لدمشق ، وليس غرضنا من ذلك تحقيق الحوادث التاريخية أو استيفائها ، وإنما الغرض المقصود توضيح القضايا ولو بصورة مجملة لينضح كلام أبي العلاء المتعلق بها وليعلم مبلغ أثرها فيه كما قلنا .

الدولة الحمدانية

في سنة ٣٣٣هـ استولى سيف الدولة على حلب ، وانتزعها من يد أبي الفتح (١)

(١) كذا في (أعلام النبلاء) عن زبدة الحلب وفي ابن الوردي من يد أحمد بن سعيد الكلابي نائب الأخشيذ ، (ج) .

عثمان بن سعيد الكلبي ، ثم انتزعها منه الإخشيد بعد انتصاره عليه ،
ثم استقر بينها الصلح على أن تكون حلب وحمص ، وأنطاكية لسيف الدولة ،
ودمشق للإخشيد . ثم استولى سيف الدولة على دمشق فحاربه كافور
سنة ٣٣٥ هـ وكسره ودخل حلب وولى علياً يانس المونسي .

وفي سنة ٣٣٦ هـ تغلب علياً سيف الدولة وانهزم يانس واحتقر سيف
الدولة بحلب إلى أن مات سنة ٣٥٦ هـ ، ثم ملك بعده ابنه أبو المعالي سعد
الدولة شريف ، وكان له غلام يقال له قرعونة^(١) فتغلب عليه واستولى
على حلب وأخرجه منها سنة ٣٥٨ هـ إلى حماة ، ثم صالحه سنة ٣٥٩ هـ ،
وكان أبو المعالي في حمص ، وخطب له في حلب ، ثم اتفقا على أن يخطبا في
أعمالهما للمعز العلوي صاحب مصر .

وكان قرعونة استناب غلامه بكجور ، فقوي أمره وقبض على
قرعونة وجبه في قلعة حلب ، وأقام بها نحو ست سنين ، ولما استبد
بكجور بالأمر كتب أهل حلب إلى أبي المعالي شريف أن يقصد حلب ،
فسار إليها فصرها أربعة أشهر ثم ملكها سنة ٣٦٦ هـ ، وبقيت القلعة بيد
بكجور ثم طلب الأمان ، وأن يوليه حمص ، فأجابته إلى ذلك وسيروه
إلى حمص واستلم القلعة ، وكان بكجور يتقرب إلى العزيز صاحب مصر ،
وطلب منه أن يوليه دمشق ، فوعده بذلك فلما كانت سنة ٣٧٢ هـ وقعت
بين أبي المعالي وبكجور وحشة ، فكتب إليه أن يخرج من بلاده ،
فأرسل إلى العزيز أن ينجز ما وعده به فولاه دمشق سنة ٣٧٣ هـ وبقي
فيها إلى سنة ٣٧٨ هـ ، وقد أساء إليه ، فسير إليه العزيز عسكراً مع
القائد منير الحادم ، فالتقى عند داريا ، والتحم القتال بينهما فانهزم بكجور

(١) كتبه بعضهم قرعويه وفرعويه وفرغويه و . و . والصواب ما ذكرناه كما ضبطه
ابن الشحنة (ج) .

وطلب الأمان من منير لبس البلد إليه ، فأجابه إلى ذلك ، فجمع ماله وسار خفية إلى الرقة فاستولى عليها وعلى ما يجاورها ، وكتب إلى بهاء الدولة ابن بويه أن ينضم إليه ، وإلى باذ الكردي المتغلب على ديار بكر والموصل أن يسير إليه . وكتب إلى سعد الدولة أن يعود إلى طاعته ويقطعه مدينة حصص كما كانت له ، فلم يجبه أحد ، فكتب إلى صاحب مصر يقطعه في حلب ، ويطلب انجاده بالعاكر ، فأجابه وسار إلى حلب ، فخرج عنها سعد الدولة وكتب إليه يستجبه ويدعوه إلى الموافقة ويقطعه من الرقة إلى حصص ، فأبى . فلما التقى الجيشان تباطأ جيش مصر عن اللحاق بـكجور ، واقلب العرب الذين كانوا معه فتهبوا سواده لأن سعد الدولة أطمعهم واستألمهم ، ثم وقعت بين الفريقين معركة ، انتهت بهزيمة بكجور مائياً^(١) . ثم قبض عليه سعد الدولة وقتله ، ثم سار إلى الرقة فأسلمها بأمان وعهود . ثم أصابه الفالج فمات ، وعهد إلى ولده أبي الفضائل سعيد الدولة ، ووصى به لؤلؤ بن عبد الله السبني الكبير مولى سيف الدولة . وكان ذلك سنة ٣٨١ هـ كما سيأتي .

ثم إن الوزير أبا الحسن المغربي سار إلى العزيز بمصر ، وأطمعه في حلب ، فسير إليها جيشاً عليه منجوتكين أحد أمرائه فصرها ، فاستنجد أبو الفضائل ولؤلؤ بملك الروم ، ثم بذل لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي وغيره مالا ليردوا منجوتكين ، فسار إلى دمشق ، وبلغ الخبر إلى العزيز بالله فغضب وكتب يعود العسكر إلى حلب وإبعاد المغربي ، فنزل^(٢) العسكر حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهراً ، ولما استنجد لؤلؤ بملك الروم سار إلى حلب فوصل إليها فرحل عنها منجوتكين كالتهمز ، فغضب ذلك على العزيز

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٥ (ج) .

(٢) كنا في الأصل والصواب (نزل) .

بأفه ، فخرج من القاهرة لغزو الروم الذين استنجد بهم لؤلؤ وأبو الفضائل ،
ثم حدثت به أمراض منته من المسير ، ثم أدركه الموت سنة ٣٨٦ هـ . وأبو
العلاء مدح -عبد الدولة بقصيدة أولها :

أَعْنِ وَخَدِ الْقِلَاصَ كَشَفْتَ حَالاً^(١) ...

وأشار فيها إلى إخفاق المصريين في حربه كما سيأتي .

أما لؤلؤ بن عبد الله فقد كان مولى لسيف الدولة مقدماً عنده ، وعند
ولده سعد الدولة ، وقد قدمه على أصحابه ، وجعله مدبر الملك بعده كما
تقدم ، فلما ولي أبو الفضائل كان هو المدبر للملك . وقد تزوج أبو الفضائل
ابنته وأقام بحلب إلى أن توفي في سنة ٣٩١ هـ مسوماً ، ويقال : إن لؤلؤاً
سمته وسمّ ابنته زوجة أبي الفضائل فماتا جميعاً .

واستولى لؤلؤ بعد موت أبي الفضائل على تدبير ابنتيه : أبي الحسن
علي وأبي المعالي شريف ، ثم استقل بالامر وأخرجها إلى مصر سنة ٣٩٤ هـ ،
وبقي إلى أن توفي سنة ٣٩٩ هـ ، فلك حلب بعده ابنه منصور أبو نصر
مرتضى الدولة ، وكان خطب للحاكم الميدي ، فلقبه مرتضى الدولة ،
ثم فسد ما بينه وبين الحاكم .

وكان لابن لؤلؤ غلام اسمه فتح ، وكان دزداناً قلعة حلب ، فعصى
استافه وكاتب الحاكم ، وخطب له وأخذ منه حيداً وبيروت وكل ما في
حلب من الأموال ، واستولى على حلب ولقب بمبارك الدولة وسعدها وعزها ،
ثم سلمها إلى نواب الحاكم ، وسار مولاه أبو النصر بن لؤلؤ إلى أنطاكية ،
وكانت للروم ، فأقام عندهم ، وكان ذلك سنة ٤٠٦ هـ وفي (النجوم
الزاهرة) ج ٤ ص ٢٣٥ استولى الحاكم على حلب ، وزال ملك بني
حدان منها في سنة ٤٠٤ هـ .

(١) شروح سخط الزند ، ق ١ ص ٢٥ ، وعجزه : ومن عند الظلام طلبت مالا .

ثم تنقلت حلب بأيدي نواب الحاكم . منهم مختار الدولة والي طرابلس ،
ومرهف الدولة والي صيدا ، حتى صارت بيد رجل من الحمدانيين يعرف
بعزيز الملك (١) وبقي نائب الحاكم فيما حتى قتل الحاكم سنة ٤١١ هـ وولي

(١) هكذا ذكره أبو الفداء ج ٢ ص ١٤١ وابن الوردي ج ١ ص ٣٢٣ وابن الأثير
ج ٩ ص ٩٥ في حوادث سنة ٤٠٢ هـ . وذهب الأستاذ المبني إلى أنه عزيز الدولة فانتك
أبو شجاع ، وكان رومياً ، واحتج لذلك بأمور :

أولها : أن ابن الفلاني ذكره في تاريخه سراً عزيز الدولة .

ثانيها : أن ياقوت ذكر في (معجم الأدباء) أن أبا اللاء صنف كتاب (الصالح
والشاحج) لأبي شجاع فانتك الملقب بعزيز الدولة والي حلب من قبل المصريين وكان رومياً .
ثالثها : نقل عن ابن المديم في تاريخه ، أنه كان عبداً أرمنياً لتجنونكبن الذي
أرسل مع عسكر مصر لمحار حلب سنة ٣٨٤ هـ . وكان العزيز فلد ولاية حلب من
الحاكم سنة ٤٠٧ هـ .

رابعها : أن صاحب (التة) ذكره كذلك : عزيز الدولة .

خامسها : أن عزيز الدولة ورد ذكره في رسالتين لأبي اللاء ، وهو الذي طلب أبو
نصر صدقة بن بوب الفلاح أبا اللاء إلى حضرته ، فاعتنر بصفه وعجزه . أ .
وزيد على ذلك أن ابن المديم صرح في (الإصاف) بأن كتاب (الصالح والشاحج)
صنف للأمير عزيز الدولة أبي شجاع فانتك بن عبداً الرومي مولى منجونكبن العزيزي ،
وكان أبو شجاع هذا والي حلب من قبل المصريين في أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر
الذي قتله بخلعة حلب سنة ٤١٣ هـ مملوك له هندي يقال له نودوك . أ ؛ وأن الذهبي
قال : قتل فانتك متولي حلب سنة ٤١٢ هـ . قتله مملوك له هندي . وأن صاحب
(النجوم الزاهرة) قال في ج ٤ ص ١٩٤ : قال ابن الصامي : وكان على حلب
عند هلاك الحاكم عزيز الدولة فانتك الوحيد ، ثم ذكر أنه عظم أمره وحدثه شه
بالحيان ، فلاحظته ست الملك ، وبنت إليه بالخلع والحبل بمراكب الذهب ، ثم أفندت
عليه غلامه براً ، وكان مالك أمره ، وكان فانتك غلام هندي ييواه ، فاستنواه بحر حتى
قتل فانتكا ، ثم استدعى السلطان فقتلوا الهندي ، وولك بداراً مكان فانتك . وفيها تحصيل
الحادثة فلتراجع .

أما صاحب (ذكرى أبي اللاء) فقد رأى تناقضاً بين التاريخ وبين ما عرف من آثاره —

مكانه الظاهر لإعزاز دين الله فشق عصا الطاعة عليه ، وواطأت -ت الملك
أخت الحاكم فـواساً له على قتله فقتله سنة ٤١٣ هـ ، ثم ولي مدينة حلب
للمصريين رجل يعرف بابن نصبان^(١) . وولي القلعة خادماً يعرف بموصوف
وبقيا فيها إلى أن انتزعها منها صالح بن مرداس سنة ٤١٤ هـ .

— أمي اللاء لبب ذكر عزيز الدولة ، وسأل من هو عزيز الدولة ؟ وزعم أن المصري
لم يعملوا على حلب رجلاً يعرف بعزيز الدولة . ثم ذكر أن المؤرخين 'حرف عليهم
لفظ عزيز الدولة فسماه مـز الدولة ، وأطال في استنتاج رأي له ، رجعه على ما وقع
للمؤرخين ، خلاصته أنه جعل عزيز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس .

وقد ذكر الأستاذ اليسبي في ذيل ص ٢٣٠ في الرد على صاحب الذكرى أن
(اللامع الزيزي) منسوب إلى عزيز الدولة بن ثابت بن ثمال بن صالح . .

وإذا رجعت إلى كتب التاريخ ، تبين لك أن عزيز الدولة لقب به اثنان :
أحدهما : فائز بن عبد الله مولى منجوتكين ، وقد تقدم ذكره ، وهذا صنف له أبو
اللاء كتاب (الصاهر والهاجج) وكتاب (لسان الصاهر والهاجج) وكتاب (القائف)
ولم يؤلف منه سوى أربعة أجزاء ، لأن أبا شجاع هذا قتل ، وكان هو الذي
أسر بانياته . الثاني : أبو الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس ، لقب بعزيز
الدولة أيضاً ، وهذا ألف له أبو اللاء كتاب (اللامع الزيزي) ويقال له (الثابت
الزيزي) وأبو ثمال يقال له مـز الدولة ، وقد كتب له أبو اللاء (رسالة الضمين)
وسأني إضاح ذلك عند الكلام في كتبه ورسالته . وما ذكرناه يبين لك ما في
كلام الأستاذين طه حسين واليسبي من الخطأ .

أما ما ذكره ابن الأثير وغيره من أن حلب سارت يد انسان من الحمدانيين يعرف
بعزيز الملك ... فلم نجد إلى ما يشبهه ، ولم تبين وجه التحريف فيه (ج) .

(١) هكذا ذكره ابن الأثير وأبو القداء وابن الوردي : وقال ابن خلدون : عبد الله
ابن علي بن جفر الكنامي وهو المعروف بابن شعبان ولهم حرفوا شعبان بشعبان .
لأن أعماله كانت أعمال ابن شعبان .

وسأني أن أبا اللاء كتب (الرسالة الندية) إلى سند الدولة بن شعبان الكنامي
الذي جعل والياً على حلب سنة ٤١٤ هـ من قبل المصري (ج) .

الدولة المرداسية

كان أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن أدريس من بني كلاب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة من مضر ومن عرب البادية .

وفي سنة ٣٩٩ هـ . قتل أبو علي بن نغال الحفاجي^(١) ، وكان الحاكم صاحب مصر ولاء الرجة ، فسار إليها فخرج إليه عيسى بن خلاط العقيلي فقتله ، وملك الرجة ، ثم أخذها منه بدران بن المقلد العقيلي ، فأمر الحاكم لؤلؤاً البشاري نائبه في دمشق بالمسير إليها وملكها وملك الرقة ثم عاد إلى دمشق ، وكان بالرجة رجل من أهلها يعرف بابن محكان فملك البلد واحتاج إلى من يستعين به على من يطمع فيه ، فكتب صالح ابن مرداس يقدم عليه وأقام عنده مدة ، ثم تنير صالح وسار إلى ابن محكان وقاتله على البلد وقطع الأشجار ، ثم تصالحا وتزوج ابنة ابن محكان ودخل البلد ، إلا أن أكثر مقامه كان بالحلة . ثم راسل ابن محكان أهل عانة ، فاطاعوه ونقل ماله وأهله إليهم وأخذ رهانهم ، ثم خرجوا عن طاعته وأخذوا ماله واستعادوا رهانهم وردوا أولاده ، فاجتمع ابن محكان وصالح على قصد عانة ، فسارا إليها ، فوضع صالح على ابن محكان من يقتله ، فقتله غيلة وسار صالح إلى الرجة ، فملكها وأخذ أموال ابن محكان وأحسن إلى الرعية ، واستمر على ذلك ، إلا أن الدعوة كانت للمصريين .

وفي سنة ٤٠٢ هـ فقد ما بين الحاكم ومرئضى الدولة أبي نصر بن لؤلؤ صاحب حلب ، فطمع فيه صالح بن مرداس وبنو كلاب ، وكانوا يطالبونه بالهلات والحلج ، ثم اجتمعوا في خمائة فارس ، ودخلوا حلب ،

(١) ابن الأثير ٨٢/٩ (ج) .

فأمر مرتضى الدولة بإغلاق الأبواب ، وقبض على مائة وعشرين رجلاً ، منهم صالح بن مدراس ، وحبسهم وقتل مائتين وأطلق من لم يفكر به ، وكان صالح تزوج ابنة عم له تسمى جابرة ، وكانت جميلة ، فوصفت لمرتضى الدولة ، فخطبها إلى أبناء أخوتها ، وكانوا في حبسه ، فقالوا : إن صالحاً قد تزوجها ، فلم يقبل منهم ، وتزوجها ثم أطلقهم وبقي صالح في الحبس ، حتى صد من السور وألقى نفسه من أعلى القلعة إلى تله ، واختفى في ميل ماء ، فأرسل مرتضى الدولة الحيل في طلبه فلم يظفروا به ، فلما سكن عنه الطلب سار بقيقه ولبنة حديد في رجله إلى قرية الباسرية ، ففرقه جماعة من العرب وحملوه إلى أهله في مرج دابق^(١) .

فجمع ألفي فارس ، وحاصر حلب اثنين وثلاثين يوماً ، فخرج إليه مرتضى الدولة فقاتله صالح وأمره بقيقه بقيقه الذي كان في رجله ولبنة ، ثم بذل له مائتي ألف دينار ومائة ثوب ، وأطلق كل أسير عنده من بني كلاب فأخذ صالح ذلك وأطلقه ورحل . ثم عصى فتح مولاه مرتضى الدولة ابن لؤلؤ كما قدمنا .

وفي سنة ٤١٤ م كان للمصريين نائب بالشام يعرف بأنوشكين^(٢) الدزيري ويده دمشق والرمّة وعقلان وغيرها . فاجتمع حان أمير بني طيء ، وصالح بن مدراس أمير بني كلاب ، وسان بن عليان أمير

(١) الكامل ٩٤/٩ . والباسرية : هي قرية على نهر عيسى ، بينها وبين بغداد ميلان . ودابق : قرية قرب حلب من عمل إزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ عندها سور مشب فيه قبر سليمان بن عبد الملك بن سروان (ج) .

(٢) ابن عبد الله الأمير المظفر منتجب الدولة ولد يلاذ الترك وحل إلى بغداد ثم إلى دمشق سنة ٤٠٠ هـ فاشترى القائد دزير ثم اتصل بالحاكم فبثه إلى دمشق سنة ٤٠٦ هـ ثم أرسله إلى قتال صالح (ج) .

بني كلب . وتحالفوا وانتفوا على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح ،
ومن الرمة إلى مصر لحسان ، ودمشق لنان .

فسار حسان إلى الرمة فصرها ، وكان أنوشكين بها ، فسار عنها
إلى عقلاق ، واستولى عليها حسان ونهبها ، وقتل أهلها ، وذلك سنة ٤١٤ هـ
وحاصر ننان دمشق سنة ٤١٦ هـ وجرت بينه وبين أهلها حرب شديدة ،
وخرب داريا وأعمالها ومات ننان سنة ٤١٩ هـ فاتصل ابن أخيه رافع بن
أبي الليل بن عليان بالظاهر ، فآثره على الكلبيين وسير معه جنداً لقتال
حسان بن المفرج بن الجراح أمير طبرستان ، وقصد صالح حلب ، وبها ابن
شعبان الكتامي وموصوف بالقلعة . فلم أهل حلب المدينة إلى صالح ،
لإحسانه اليهم وسوء سيرة المصريين معهم . وصعد ابن شعبان إلى القلعة ،
فحصره صالح فيها ، فغار الماء الذي بها فلم يبق لهم ما يشربون ، فلم
الجنود القلعة إليه وذلك سنة ٤١٤ هـ ، وملك من بعلبك إلى عانة وأقام
فيها ست سنين .

وفي سنة ٤١٥ هـ قبض على قاضي حلب ابن أبي أسامة ، ودفعه حياً
في القلعة ، وفي سنة ٤١٦ هـ استوزر صالح فاخرس النصارى ، وكان عنده
صاحب السيف والقلم .

وفي سنة ٤١٨ هـ خرج صالح إلى الحيرة ، وأمر باعتقال أكابرها ،
لأنهم هدموا ماخوراً أراد صاحبه أن يغصب امرأة نفسها ، وشفع عنده
أبو العلاء كما سيأتي .

وفي سنة ٤٢٠ هـ^(١) جهز الظاهر صاحب مصر جيشاً إلى الشام أضافه إلى
رافع أمير الكلبيين لقتال صالح وحسان ، وكان مقدم العسكر أنوشكين ،

(١) هكذا قال ابن الأنبرج ٩ ص ٩٦ ثم ذكر لي ج ٩ ص ١٥٣ أنه في
سنة ٤١٩ هـ وأنها لولان (ج) .

فاجتمع صالح وحسان على قتاله ، فاقبلوا بالأنحواة إلى الأردن عند طبرية ، فقتل صالح وولده الأصغر ، ونفذ رأسهما إلى مصر ، ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح ، فجهزوا إلى حلب فملكها وكان لقبه شبل الدولة ، فلما علمت الروم بأنطاكية الحال ، تجهزوا إلى حلب في عالم كثير ، فخرج أهلها اليهم فعاربوهم فهزموهم ونهبوا أموالهم فعاد الروم إلى انطاكية ، وقد أشار أبو العلاء إلى هذه الفتن والحوادث في موطن من شعره .
 منها قوله من أبيات (١) :

أَرَى حَلْبًا حَاذَهَا صَالِحٌ وَجَالَ سِنَانٌ عَلَى جَلْقًا
 وَحَسَانٌ فِي سَلَفِي طَيِّئٌ يُصَرِّفُ مِنْ عِزِّهِ أَهْلًا
 فَلَمَّا رَأَتْ خَيْلُهُم بِالْغُبَارِ نَغَامًا عَلَى جَيْشِهِمْ عُلْقًا
 رَمَتْ جَامِعَ الرَّمْلَةِ الْمُسْتَضَامَ فَأَضْبَحَ بِالدِّمِّ قَدْ حُلْقًا
 وَمَا يَنْفَعُ الْكَاعِبَ الْمُسْتَبَا هَامٌ عَلَى عَضْبٍ فُلْقًا
 وَطُلَّ قَتِيلٌ فَلَمْ يُدْكَرْ وَغُلَّ أُسِيرٌ فَمَا أُطْلِقًا
 وَكَمْ تَرَكْتَ أَهْلًا وَحَدَهُ وَكَمْ غَادَرْتَ مُشْرِيًا مُنْلِقًا
 يَسْأَلُ فِي الْحَيِّ عَنْ مَالِهِ وَمَا الْقَوْلُ فِي طَائِرٍ حَلْقًا
 وقوله من أبيات آخر: (٢)

وَالرَّمْلَةُ الْبَيْضَاءُ غُودِرَ أَهْلُهَا بَعْدَ الرَّفَاعَةِ يَا كَاوْنَ قَفَارَهَا (٣)

(١) القزويني ٥ ص ٣٠٥ .

(٢) القزويني ٥ ص ١٤٣ .

(٣) القفار : بقال : خبز قمر أو قمار ، أي غير مأدوم .

وَالْعُرْبُ خَالَفَتِ الْحَضَارَةَ وَاسْتَقَّتْ سُكْنَى الْقَلَاءِ وَرَعَلَهَا وَصَفَارَهَا
كَانَتْ إِمَاؤُهُمْ زَوَافِرَ مَوْرِدٍ فَالآنَ أَثْقَلَ نَضْرُهَا أَزْفَارَهَا
أَهْلَتْ بِهَا الْأَمْصَارُ فِي ضَوَارِبٍ عَمَدَ الْمَمَالِكِ لَا تُرِيدُ قِفَارَهَا
لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَوْمَ جِيَادُهُمْ رُمَحًا^(١) لَتَقْطَعَ رَمْلَهَا وَجِفَارَهَا
عَتَرُوا الْقَوَارِسَ بِالصَّوَارِمِ وَالْقَنَا وَالْمَلِكُ فِي مِصْرٍ يُعْتَرُ فَارَهَا
جَعَلُوا الشِّفَارَ هَوَادِيًا لَتَنُوفَةٍ مَرَاهٍ تَكْحَلُ بِالْدَجَى أَشْفَارَهَا
يَكْبُورُ تَاهُ الْقَادِحِينَ وَعَامِرٌ بِالشَّامِ تَقْدَحُ مَرَحَهَا وَعَفَارَهَا

وقوله (٢) :

قَدْ أَشْرَعَتْ سِنْبِسُ ذَوَابِلَهَا وَأَرْهَفَتْ بُخْتُرُ مَعَابِلَهَا^(٣)
لِفَتْنَةٍ لَا تَزَالُ بَاعِثَةٌ رَامِحًا فِي الْوَغَى وَنَابِلَهَا
حَسَنًا فِي الْمُلْكِ لَا يَحْسُ لَهَا تُزْجِي إِلَى مَوْتِهَا قَنَابِلَهَا

وقوله (٤) :

أَصَابَ الرَّمْلَةَ الْحَدَثَانُ يَوْمًا فَخَصَّ وَمَا يَزَالُ أَخَا اشْتِمَالِ

(١) رُمَحُ قُرْبَى بِالضَّمِّ .

(٢) الزَّوْمِيَّاتُ ٨ م ٢٠٨ .

(٣) سِنْبِسُ وَبُخْتُرُ قِيْلَانُ مِنْ طَبَقِ ، (ج) وَفِي الْأَصْلِ : «بُخْتُرُ وَمَالِهَا» وَالصَّوَابُ مَا أُتِيَتْهُ .

ج (٦)

(٤) الزَّوْمِيَّاتُ ٨ م ٢١٨ .

وقوله (١) :

ألم ترَ طَيِّئًا وبني كلابٍ سَمَوْا لِبِلَادِ غَزَةَ والعريشِ
ولو قَدَرُوا على الطَّيْرِ الغَوادي لما نَهَضَتْ إلى وَكْرِ بَرِيشِ

وقوله في سقط الزند ، من قصيدة يمدح بها خازن دار العلم ببغداد (٢) :
وما أَذْهَلْتَنِي عن وِدَادِكَ رَوْعَةً وكيف وفي أمثالها (٣) يجب الغَبْطُ
ولا فتنَةُ طَائِيَّةٍ عامريةٌ يُحَرِّقُ في نيرانها الجَعْدَ والسَّبْطُ
وقد طَرَحَتْ حَوْلَ الفَرَاتِ جِرَانَهَا إلى نيلِ مِصرٍ فالوَسَاعُ بها تَقْطُو
فوارسُ طَعَانُونٍ ما زالَ للِقْنَا مع الشَّيْبِ يومًا في عَوَارِضِهِمْ وَخَطُ
وكلُّ جَوَادٍ شَفَّهَ الرِّكْضُ فِيهِمْ وَجٍ يَتَمَشَّى أَنَّ فَارِسَهُ سُقْطُ
وَنَبَالَةٍ من بُحْتُرٍ لو تَعَمَّدُوا بَلِيلِ أَنَاسِي النُّوَاطِرِ لَمْ يُخْطُوا

أراد بالطائفة قوم حسان أمير طبرستان ، وبجترقية من طبرستان ، وأراد
بالعامرية قوم صالح بن مرداس وم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .
وبقي شبل الدولة مالكا حلب إلى سنة ٤٢٩ هـ ، فأرسل إليه الدزيري
العاكر المصرية ، وكان صاحب مصر حينئذ المنتصر بالله ، والتي سنة
٤٢٧ هـ بعد وفاء الظاهر ، فلقبهم عند حماة ، وقُتِلَ في شعبان وملك
الدزيري حلب في رمضان سنة ٤٢٩ هـ . ولا كان أوتشكين في دمشق

(١) القزوبات ٨ ص ٣٢٧ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٦٧٥ .

(٣) كذا في الشروح ، وفي الأصل : أمثاله .

كان يوجه إلى أبي العلاء بالسلام ، ويحفي السألة عنه ، فأراه جزاءه على ما فعل ، فعمل له كتاباً سماه (شرف السيف) كما سيأتي . وبليت حلب في ملك الدزيري حتى توفي في جمادى الأولى سنة ٤٣٣ هـ .

وكان أبو علوان غال بن صالح بن مرداس الملقب بمعز الدولة بالرجبة ، فلما بلغه موت الدزيري جاء إلى حلب فلما تسلمها من أهلها ، وحصر امرأة الدزيري وأصحابه بالقلعة أحد عشر شهراً ، ثم ملكها في صفر سنة ٤٣٤ هـ وبقي إلى سنة ٤٤٠ هـ . وجيز غال إلى المرة والياً فأساء التدبير ، فأنحرف عنه الناس وهرب ، فبادر جعفر أمير حمص ونجيز إلى المرة بنفسه ولقبه 'مقلد بن كامل بن مرداس فأوقع به وقتله وشهر رأسه بحلب . ثم أنفذ المصريون إلى محاربته أبا عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان ، فخرج أهل حلب إلى حربه ، فهزمهم واختلق بالباب منهم جماعة ، ثم إنه رحل عن حلب وعاد إلى مصر .

فأنفذ المصريون إلى قتال معز الدولة خادماً يعرف برفق ، فخرج إليه في أهل حلب فقاتلوه فانهزم المصريون وأمر رفق في ربيع الأول سنة ٤٤١ هـ . ومات عندهم .

ثم إن معز الدولة أصلح أمره مع المصريين ، وأرسل إليهم الهدايا ، ونزل لهم عن حلب فأنفذوا إليها أبا علي الحسن بن علي بن ملهم ولقبه مكين الدولة ، فقتلها من غال في ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ وسار غال إلى مصر في ذي الحجة ، كذا في ابن الأثير وقال : (ج ٩ ص ٢٣٣) في سنة ٤٤١ هـ وصل عسكر مصر إلى حلب فخافهم غال ، فانصرف عنها ، فلما المصريون . وفي (النجوم الزاهرة) ج ٥ ص ٤٥ : وفي سنة ٤٤١ هـ صرف المستنصر طارفاً الصقلي عن إمرة دمشق وولى مكانه عدة الدولة المستنصري ، ثم صرفه عنها وبعث به إلى حلب ، وولى دمشق حيدرة بن

الحسين بن منلق ويعرف بأبي الكرم المؤيد ، فأقام عليها حيدرة تسع سنين .
وقد تقدم أن أبا العلاء ولد سنة ٣٦٣ هـ وسيأتي أن وفاته في سنة
٤٤٩ هـ في ربيع الأول ، فيكون مولده في زمن أبي المعالي سعد الدولة
ابن سيف الدولة ، في العهد الذي تغلب فيه قرءوثة على مولاة سعد الدولة ،
وتغلب بكجور على قرعوة . وتكون وفاته في عهد معز الدولة ثمال بن
صالح بن مرداس .

ولقد نزل في هذا العهد جماعة كثيرون منهم :

- (١) أبو المعالي سعد الدولة شريف بن سيف الدولة .
- (٢) وقرعوة غلام سعد الدولة .
- (٣) وبكجور غلام قرعوة .
- (٤) وأبو الفضائل ، سعيد بن سعد الدولة سنة ٣٨١ هـ .
- (٥) ولؤلؤ بن عبد الله مولى سيف الدولة سنة ٦٩٤ هـ .
- (٦) وابنه منصور أبو نصر مرتضى الدولة .
- (٧) وغلامه فتح مبارك الدولة وسعدها وعزها سنة ٤٠٦ هـ .
- (٨) ومختار الدولة والي طرابلس .
- (٩) ومرهف الدولة والي صيدا .
- (١٠) وعزيز الدولة فائق أبو شجاع مولى منجوتكين سنة ٤٠٧ هـ .
- (١١) وابن شعبان الكناهي سنة ٤١٣ هـ .
- (١٢) وصالح بن مرداس سنة ٤١٤ هـ .
- (١٣) وابنه أبو كامل نصر شبل الدولة سنة ٤٢٠ هـ .
- (١٤) وأنوشكين الوزيري سنة ٤٢٩ هـ .
- (١٥) وأبو طوان ثمال بن صالح معز الدولة سنة ٤٣٤ هـ ، وبقي
فيها إلى ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ أي بعد وفاة أبي العلاء بنحو ثمانية أشهر ،

وقد سماه أبو العلاء تاج الأمراء في شرحه لشعر الأمير أبي الفتح بن أبي
حسين وكناه بأبي الطوان .

وإذا تأملت وجدت في التاريخ تناقضاً بيننا وغموضاً ظاهراً ، فإن
ابن الأثير ذكر أولاً أن معز الدولة نزل عن حلب وتسلمها مكين الدولة
سنة ٥٤٤٩ هـ وذكر بعد ذلك أن معز الدولة في سنة ٥٤٤٩ هـ خاف عسكر
مصر فانصرف عن حلب وملكها المصريين ، وصاحب (النجوم الزاهرة)
ذكر أن :

١٦ - طارقاً الصقلي ولي حلب سنة ٥٤٤٩ هـ ، ولم يعلم هل اخذها من
غال أم من غيره .

وقد ذكر أبو العلاء طائفة من ملوك حلب والأمراء المتغلبين عليها ، منهم
١٧ - أبو الفضائل سعيد بن سعد الدولة ، مدحه بقصيدة مذكورة في

أول سقط الزند ، وفيها يقول على لسان النوق : ^(١)

سَأَلَنَ فَقُلْتُ مَقْصِدُنَا سَعِيدٌ فَكَانَ اسْمُ الْأَمِيرِ لَهْنَ فَالَا
ويقول فيها :

ولكن بالعواصم من عَدِيٍّ ^(٢) أَمِيرٌ لَا يَكْلَفُنَا السُّؤَالَ

وفيها يشير إلى وقعة بينه وبين عسكر مصر والمغرب بقوله :

إِذَا خَفَقَتْ لِمَغْرِبِهَا الثُّرَيَّا تَوَقَّتْ مِنْ أَسْنَتِهِ اغْتِيَالَا

ولعلها الوقعة التي جاء فيها منجوتكين مع عسكر مصر إلى حلب

وكانت بينهما ما بين سنة ٥٣٨٣ وسنة ٥٣٨٦ هـ .

(١) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ٤١ .

(٢) سيف الدولة يفتي إل عدي بن أسامة من أخاد غم بن تلب (ج) .

٧ الجامع لأخبار أبي العلاء ١

١٨ - ومنهم عزيز الدولة فانك مولى منجوتكين ، وهذا الف له كتاب (الصاهر والشاحج) و (الفائف) وذكره في رسالة إلى أبي نصر صدقة ابن يوسف الفلاحي لما دعاه إلى حضرة عزيز الدولة بقوله ص ٩٦ : وإنما ذكرت ذلك لينتهي إلى حضرة عزيز الدولة .. إني تخلفت عن خدمته بمرض منع من أدائه المفترض . وذكره في رسالة ثانية ص ٢٢٩ ، وهو طلب من أبي الحسن بن سنان أن يطلب من أبي العلاء اختصار كلية ودمنة .
١٩ - ومنهم عبد الله بن شعبان الكتامي عمل له الرسالة السندية .
٢٠ - ومنهم صالح بن مرداس ذكره في مواطن من شعره تقدم بعضها ، ومنها قوله :

بُعِثْتُ شَفِيعاً إِلَى صَالِحٍ وَذَاكَ مِنَ الْقَوْمِ رَأْيِي فَسَدَ^(١)
وقوله :

نَجَى الْمَعْرَةَ مِنْ بَرَاثِنِ صَالِحٍ رَبِّ يَعْفِي كُلَّ دَاءٍ مُغْضِلٍ^(٢)
وقال ابن العديم^(٣) : إن كتاب (تاج الحرة) وضعه أبو العلاء لبعض الخليلات من النساء ويغلب على ظني أنها « طرُود » زوج صالح بن مرداس .
٢١ - ومنهم شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، ذكره في (رسالة الغفران) حيث قال ص ٥٨ : «^(٤) فأقام هاتفاً حتف في الموقف : يا عبدَ المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب في زمان شبل الدولة ... » وقد كرر ذكره .
٢٢ - ومنهم أنوشكين الدزيري عمل له كتاب (شرف السيف)
٢٣ - ومنهم معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس عمل له رسالة (الضبعين) .

* * *

(١) الزوبيات ص ١١٦ .

(٢) الزوبيات ص ٢٢١ ، وفيها : « نجي العاشر ... رب يفرج كل أمر مضل » .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٩ عن الانصاف والتحري - لابن العديم .

(٤) في الطبعة الأولى لرسالة الغفران تحقيق بنت الناطق ص ١٥٥ .

طائفة من الأعمدة التي حدثت في حياة أبي العلاء

في حلب والمرة وما يتعلق بها منها

قدمنا أن أبا المعالي شريفاً استولى على حلب ، وكان حاصرها أربعة أشهر ثم ملكها هي والقلمة ، وتولى بكجور حمص سنة ٥٣٦٦ هـ . وفي سنة ٥٣٦٨ هـ وقعت حرب بين سعد الدولة وسلامة البرقيدي أبي تغلب ابن حمدان متولي ديار مصر ، وساعد عضد الدولة سعد الدولة فأخذ عضد الدولة الرقة لنفسه ، وترك ما فيها لسعد الدولة .

وفي سنة ٥٣٧٣ هـ نزل فردوس الدمشقي على باب حلب في خمائة ألف ، فالتقى في الميدان مع عسكر سعد الدولة ، ثم رجع عسكر فردوس ، وأتبعه سعد الدولة جيشاً من قبله غازياً حتى بلغ عسكره أنطاكية .

وفي سنة ٥٣٧٨ هـ التى عسكر مصر مع القائد منير الخادم مع عسكر بكجور عند داريا ، فاقتلوا وفر بكجور إلى الرقة فاستولى عليها ، وكان له رفقاء في حلب ، فكتبوا إليه يطعمونه في حلب ، وأعلموه أن سعد الدولة مشغول بلذاته ، فكتب إلى صاحب مصر يبذل له فتوح حلب ويستعينه فكتب صاحب مصر إلى نزال الثوري صاحب طرابلس بالسير إليه متى استدعاه ، وكان نزال من صنائع الوزير عيسى بن نطورس ، فكتب إليه عيسى أن يظهر المارعة ، فلذا تورط بكجور مع هؤلاء . تأخر عنه وأسلمه . فكتب بكجور إلى نزال أن يسير من طرابلس ليكون وصوله إلى حلب في وقت واحد وسار إليها ، ورحل نزال من طرابلس وأبطأ في سيره . وكان يكتب إلى بكجور بنزوله في منزل بعد منزل .

أما سعد الدولة فقد كتب إلى بيل عظيم الروم يطلبه بصبان بكجور ، ويطلب منه ألا يكتب إلى البرجي صاحب أنطاكية بالسير إليه متى استجده ، فكتب إليه بيل بذلك . فلما وصل بكجور كتب سعد الدولة إلى البرجي فدار إليه ، وبرز سعد الدولة في غلته وعساكره ومعه

من العرب مرو بن كلاب وعدنهم خمسمائة فارس ، ثم استدعى كاتبه فكتب الى بكجور عنه يستعطفه ويذكره الله ويقطعه من الرقة إلى باب حصص ، ويدعوه إلى المودعة ورعاية حق العبودية . فلما وقف على الكتاب قال للرسول : الجواب ما يراه عيافا . فلما عاد الرسول أخبر سعد الدولة بما قاله . فتقدم سعد الدولة وتقارب العسكران ، وكان سعد الدولة كاتب العرب الذين مع بكجور وأمنهم ووعدهم ، فانقلبوا على بكجور ونهبوا سواده واستأنوا إلى سعد الدولة ، فلما رأى بكجور تقاعد نزال عن نصرته واتقلاب العرب عليه وإخلاف رفاقه الذين وعدوه ، قال لكاتبه أبي الحسن المغربي : لقد غررتني ، فما الرأي الآن ؟ فأشار عليه بالرجوع إلى الرقة وإخبار صاحب مصر بما فعله نزال واستنجاده مرة أخرى . ثم اختار بكجور جماعة من غلمانه وشجعانه وأخبرهم أنه يريد أن يحمل على سعد الدولة بنفسه فوافقوه على ذلك ، وأخبر لؤلؤ الجراحي بما عول عليه ، فأخبر لؤلؤ سعد الدولة ، فانتقل إلى مكان غير مكانه ، ووقف لؤلؤ مكانه ، فحمل بكجور في أربعمائة غلام ، فأخرجته المساكر حتى وصل إلى لؤلؤ وهو يظن أنه سعد الدولة فضربه فقد الحنوفة ووصل السيف إلى رأسه فوقع لؤلؤ على الأرض وأظهر سعد الدولة نفسه وعاد إلى مكانه . فلما رآه غلمانه اشتدت شوكتهم وحلوا على بكجور حتى انهزم في سبعة نفر وتبعه عشرة فوارس من العرب فلبسوه وأصعابه واختبأ . ثم رأى جماعة من العرب وفيهم رجل من بني قطن كان يستخدمه ، فمرقه بنفسه وجعل له حمل بغيره ذهابا إن أوصله إلى الرقة . فأردفه وحمله إلى بيت وكاه . وكان سعد الدولة بث الخيل في طلبه ، وجعل لمن أخضه حكمة . وكان بكجور مخبئاً يخاف البدوي أن يغدر به ، فأمرع إلى سعد الدولة وأخبره بحال بكجور واحتكم عليه مائتي فدان زراعة ومائة ألف درهم ومائة راحلة محملة برأ وخسين قطعة ثيابا ، فبذل له سعد الدولة ذلك كله . ثم جاء لؤلؤ الجراحي فأخبر بما قاله البدوي فقال : ابن أهلك ؟ قال : في المرج على بعد فرسخ . فأمر جماعة من غلمانه أن يسرعوا ويلبضوا على بكجور ويحلوه . فتوجهوا وبلي

قابضاً على يد البدوي خشية أن يطمعه بكجور فينجو حتى جازا به فقتله (١) ثم فصب سعد الدولة إلى الرقة ، وفيها سلامة الرشيقي ، وأبو الحسن المغربي وأولاد بكجور وحرمة ، فحلف لسلامة مينا يؤمنهم فيها ثم غدر بهم وأخذ أموالهم . وكان أبو الحسن المغربي فر من الرقة إلى المشد بالكوفة ، فلما مات سعد الدولة خلفه ابنه أبو الفضائل ، فعظم أبو الحسن المغربي أمر حلب عند صاحب مصر وكثر أموالها وهون حصولها عليه ، فقدم غلاماً يسمى منجوتكين وولاء الشام وأمر القواد والأكابير بالتعجل له واستكتب إليه أحمد بن محمد القشوري (٢) وسيره إلى حلب ، وضم إليه أبا الحسن المغربي ، فوصل إلى دمشق وأقام بهامدة ثم وحل إلى حلب ونزلها في ثلاثين يوماً ، وتحصن أبو الفضائل ولؤلؤ بالبلد وكان لؤلؤ حين علم بورود العساكر المصرية كتب إلى بسيل عظيم الروم يذكره بما كان بينه وبين سعد الدولة من المعاهدة ، وبذل له عن أبي الفضائل الجري على تلك العادة وحل إليه أطافاً كثيرة واحتججه وأرسل إليه ملكوتاً (٣) السرياني رسولا ، فقبل ذلك وكتب إلى البرجي صاحبه بأنطاكية يجمع عسكر الروم ، وقصد حلب فصار البرجي في خمسة آلاف . وفي (الكامل) لابن الأثير ج ٩ ص ٣٧ في خمسين ألفاً ، ونزل بجسر الحديد بين انطاكية وحلب ، فعرف منجوتكين وأبو الحسن

(١) في (النجوم الزاهرة) ج ٤ ص ١٦٠ بكجور التركي ولي إمرة دمشق لأستافه الفرز [صاحب مصر] قل إليها من حمص . . ولما كثر ظله عزله الفرز وولى مكانه منيراً الخادم سنة ٣٧٨ هـ فلم يلم بكجور البلد إلا بعد قتال ، وتوجه إلى جهة حلب ، ثم قتل بمكان يقال له الناعورة وكان أصل بكجور من موالى سعد الدولة . . توفي سنة ٣٨١ (ج) .

(٢) في (النجوم الزاهرة) : القشوري ، وفي (مرآة الزمان) القشوري (ج) .

(٣) في (النجوم) : ملكوت (ج) .

ذلك فجمعوا وجوه العسكر وتشاوروا في الأمر ، فأجمعوا على الانصراف عن حلب ومقاتلة الروم أولاً ، فسادوا اليهم وخاض المسلمون النهر الملقب (١) وهجموا على الخاض ، وقد سبق أنه نهر يخاض في الأرض التي تعرف بالروج فالتحموا بالروم ، فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل ، وأفلت البرجي في عدد قليل (٢) . ومضى منجوتكين إلى أنطاكية فنهب رسائيقها (٣) وأحرقها ، ثم رجع إلى حلب ، فكتب لؤلؤ إلى أبي الحسن والقشوري وبذل لهما من المال ما استألهما به ، وسألهما أن يشيرا على منجوتكين بالانصراف عن حلب في هذا العام والمعاودة في العام القابل لعلقة تعذر الأقوات والمعلوقات ، فخطبا منجوتكين بذلك فقبل وعاد .

فلما بلغ ذلك صاحب مصر استشاط غضباً ، فصرف إليها الحسن وجعل مكانه صالح بن علي الروزباري ورجع منجوتكين في السنة الثانية إلى حلب ، وأقام عليها ثلاثة عشر شهراً ، وأبو الفضائل ومن معه متحصنون بالبلد ، ثم أنفذ لؤلؤ ملكوفا إلى بسل يستجده مرة ثانية ، وكان في بلاد البلخ ، فقال له : متى أخذت حلب فتحت أنطاكية بعدها . فصار إلى حلب وقطع ثلاثمائة فرسخ في ستة وعشرين يوماً ، وكان الزمان ربيعاً ، وقد أنفذ منجوتكين وعسكره كراعهم إلى المريج ، وقرب هجوم بسل وهم لا يشعرون . فأرسل لؤلؤ إلى منجوتكين أن بسل أظلمكم بجيوش الروم فخذوا حذرکم ، وأن عصاة الإسلام الجامعة لنا تدعوني إلى إندادكم ونصحكم . وجاءت طلائع منجوتكين بمثل هذا الخبر ، فأحرق الخزانين والأسواق والأبنية التي كان أحدثها وعاد منهزماً ، ثم نزل بسل على باب

(١) النهر الملقب هو النهر المعروف اليوم بالهامي .

(٢) هذا يؤيد قول ابن الأثير أن البرجي قدم في خيبر الحاء (ج) .

(٣) الرسائيق مفرد ما رؤساق بالضم : الزرداق وهو السواد والقرى ، عرب .

حلب فخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ ولياها ، ثم عاد ورحل في اليوم الثالث ، ففتح حصن ونهبها وسبها . ثم نزل على طرابلس فأقام عليها نيفاً وأربعين يوماً . فلما آيس منها عاد إلى بلاد الروم . أما صاحب مصر العزيز ، فلما بلغه انهزام منجوتكين أعظم ذلك واستنفر الناس ، فنفروا وخرج مع عساكره وعدده حتى نزل بلبس ، فأقام بظاهرها ثم اعترضه عتِل ففضى نجه ، واشتل المصريون بأنفسهم بسبب موته وبطلت تلك الحملة . وفي سنة ٤٢١ هـ خرج ملك الروم من القسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل إلى الشام ، فبلغوا قريباً من حلب وصاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، فزلوا على يوم منها ، وكان الزمان صيفاً ، فلحقهم عطش شديد ، وكان أصحابه مختلفين عليه . وكان معه ابن الدوقس ، يريد هلاك الملك ليلك بعده ، فأشار الملك بالإقامة حتى نجيء الأمطار ، فقبح ابن الدوقس هذا الرأي ، وأشار بالإسراع قصداً لشر يتطرق إليه ، ولتدبير كان دبره ، فسار ففارقه ابن الدوقس وابن لؤلؤ في عشرة آلاف فارس ، وسلكوا طريقاً آخر . فجاء بعض أصحاب الملك ، وأخبر الملك بأن ابن الدوقس وابن لؤلؤ حالفا اربعين رجلاً وهو أحدم على الفتك به ، فخاف ورحل من يومه راجعاً ، وتبعه ابن الدوقس ، وسأله عن سبب عودته ، فقال : قد اجتمعت علينا العرب وقربوا منا ، وقبض عليه وعلى ابن لؤلؤ ، فاضطرب الناس ، ورحل الملك ، وتبعهم العرب وأهل السواد والأرمن ، يقتلون وينهبون ، ونجا الملك ولم يسلم من أمواله شيء ، وقد ذكر هذه الحادثة ابن الأثير في سنة ٤٠٢ و ٤٢١ و ٤٢٦ هـ .

وذكر ابن الوردي^(١) عن ابن المهذب المعري ، أن ملك الروم اسمه أرمانوس ، وكانوا ستمائة ألف ، وخرج في شهر تموز ومعه ملك البلقر وملك

(١) النظر ديوان ابن أبي حمزة الحاشية ص ٣٤٧ عن تزيغ ابن الوردي .

الروس والألمان والخزر والأرمن والبلجيك والفرنجة ، وغنم السلجون منهم
ملا بجصى ، وأمرُوا جماعة من أولاد ملوكهم ، وفي ذلك يقول الأمير أبو
الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حَـصِينَة العربي التنوخي ، من قصيدة
أنشدها شبل الدولة بظاهر قنسرين مطلعها : ^(١)

ديارُ الحيِّ مقفرةٌ يَبَابُ كان رسومَ دِفْنَتِها كتابُ
وفيه يقول :

وأرمانوسُ كان أشدَّ بأساً وحلَّ به على يدِكَ العذابُ
أناكَ يجرُّ بحراً من حديدٍ له في كلِّ ناحيةٍ عُبابُ
إذا سارت كتابُهُ بأرضٍ تَزَلَّزَتِ الأباطحُ والهضابُ
فعاد وقد سَلَبَتِ الملكَ عنه كما سَلَبَتِ عن الميتِ الثيابُ
فما أذناه من خيرٍ مجيٍّ ولا أقصاه عن شرٍّ ذهابُ

ولعل أبا الغلاء يشير إلى هذه الحادثة بقصيدته التي يقول فيها : ^(٢)

أَيُوعِدُنَا بِالرُّومِ ناسٌ وإنما هم النَّبْتُ والبَيْضُ الرُّقَاقِ سَوَامُ
كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيْنَ النَّحَاصِ وحارِمٍ كُتَّابُ يُشْجِنُ الفَلا وَخِيَامُ
كُتَّابُ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبٍ تَأَلَّبَتِ فُرَادَى أَتَاها الموتُ وهو زُؤَامُ ^(٣)

(١) ديوانه ٣٤٧/١ ، ٣٤٨ .

(٢) فروع سقط الزند ، ق ٢ ص ٦٠٢ .

(٣) في الفروع : « أَلَمَّا الموتُ ومي 'نؤام' » .

لأنه يقول فيها :

وظَنُّوكَ مِنْ يُطْفِئُ الْبَرْدُ نَارَهُ إِذَا طَلَعَتْ عِنْدَ الْغُرُوبِ جَهَامٌ
ويموز أن يكون يشير بها إلى الحادثة التي قبلها ، لأنه ذكر فيها
الحاض ، ويقول فيها بعد قوله : وظنوك من ... :

وَأَنْتَ أَتَيْنِيهَا قُبَالَةَ جِلْقٍ مَتَى لَاحَ بَرْقٍ وَأَسْتَهْلَ غَمَامٌ^(١)
وهذه الحادثة تدل على أن الحاض موضعٌ على النهر الملقب^(٢) لانهر
بقرب المعرة .

وفي سنة ٤٣٢ هـ دخل جماعة من بني جعفر بن كلاب ولاية أفامية ، ضلوا
فيها ونهبوا عدة قرى ، فخرج عليهم جمع من الروم ، فأوضوا بهم وأزالوهم
عن بلادهم ، فأرسل الناظر بحلب إلى الدزيري يعرفه الحال ، فجهز جيشاً
وسيره على مقدمته ، فالتقوا بجيش الروم بين مدينة حماة وأفامية ، واشتد
القتال ، فانهمز الروم وأسر ابن عم الملك ، وقتل منهم خلق كثير .

الاعتماد التي وقعت في المعرة في عهد أبي العلاء

في سنة ٣٩٣ هـ خرب لؤلؤ السيفي الجراحي المتقلب على حلب بعد أبي
الفضائل كفر روما ، وهي قرية من قرى المعرة ، وقد كانت حصناً حصيناً ،
وحصن أرواح ، مخافة أن يقصد فيها .

وفي سنة ٤١٧ هـ صاحبت امرأة يوم الجمعة في جامع المعرة ، وذكرت
أن صاحب الماخور أراد أن ينفسيها نفسها ، وكان نصرانياً ، ففر كل من في
الجامع ، إلا القاضي والمشايع ، وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ونهبوه

(١) في المروج : « واستهل غمام » .

(٢) النهر الملقب هو كما سـ بنا : النهر المعروف اليوم بالهامي .

وحرقوه وقتلوا الضامن ، وكان صالح بن مرداس صاحب حلب يومئذ في نواحي صيداء ، وكان له وزير يقال له : تازروس [أو تاذروس ، أو تادروس] ابن الحسن النصاراني ، وكان متمكنا عنده ، وكان صاحب السيف والقلم ، وكان أهل المرة قتلوا حماء الحوري ، فكان في نفس تازروس شيء من أهل المرة من أجل حبه ، فكان يؤذيهم ، ويتبع قتلته حتى قتلهم وصلبهم ، فلما أنزلوا عن الحشب لصلبهم عليهم ويذقتوا ، قال الناس : قد رأينا عليهم طيوراً بيضا ، وما هي إلا اللائكة ، يريدون بذلك كيد النصارى ، فبلغت هذه الكلمة تازروس ، فنقها على أهل المرة واعتدتها ذنبا لهم ، وتربص بهم السوء ، فلما وقعت حادثة الماخور ، على ما ذكرنا ، وسوس الوزير لصالح وأوغر صدره على أهل المرة . وكان صالح قد وصل إلى حلب سنة ٤١٨ هـ فعاصر المرة ونصب المناجيق وشدد الحصار عليها واعتقل سبعون رجلاً من شيوخها وأعيانها (١) ، ولبثوا سبعين يوماً في عبس الحصن ، وذلك بعد عيد الفطر بإيام ، وقد دُعي للمعتقلين على المنابر بآمَدَ وميتافارقين ، وكان تازروس أشار على صالح أن يقتل المذهب الشيخ أبا الحسن وأبا المجد محمد بن عبد الله بن سليمان أخا أبي العلاء ، وأمره أن في ذلك إقامة للهيئة ، فأبى صالح أن يوافقه على القتل ، وقطع تازروس ألف دينار (٢) على أهل المرة وكان بعض بني سليمان جده أبي العلاء ممن اعتقل ، فلما اشتد الحصار على أهلها ، وآنسوا من نفوسهم العجز عن مقاومته ، لأنه جاءهم بما لا قبل لهم به ، جاءوا إلى أبي العلاء ، وقالوا له : إن الأمر قد عظم ، وليس له غيرك ، وسألوه أن يخرج إلى صالح

(١) في الوافي والوفيات : قُبض أحد كبار كتاب صالح على سبعين . . (ج)

(٢) في طبقات النحاة والقرويين : ص ١٧٠ عشرة آلاف دينار (ج) .

بنفسه ، ويدبر الأمر بوابه ، إما بأموال يبذلونها ، أو طاعة يعطونها . فخرج أبو العلاء ويده في يد قائده ، فلما فتح له باب من أبواب المعرة وخرج منه ، رأى صالح شيخاً قصيراً يلوذ رجل . فقال : هذا أبو العلاء ، فحيثوني به ، فلما مثل بين يديه ، سلم عليه ثم قال :

الأمير ، أطال الله بقاءه ، كالنهار المانع اشتد هجيراء ، وطاب أبراده ، وكالسيف القاطع ، لان صفحة وخشن حداء ، ﴿ اخذ العفو وأمر ﴾ بالمعروف وأعرض عن الجاهلين ﴿ فقال صالح : ﴿ لا تريبَ عليكم اليوم ﴾ وقد وهبت لك المعرة وأهلها . ثم قال له : أنشدني نبأ من شرك ، فقال أبو العلاء : (١)

تَغَيَّبْتُ فِي مَنْزِلِي بُرْهَةً سَتِيرَ الْعُيُوبِ فَقِيدَ الْحَسَدِ
فَلَمَّا مَضَى الْعُمْرُ إِلَّا الْأَقْلُ وَحَمَّ لِرُوحِي فِرَاقُ الْجَسَدِ
بُعِثْتُ شَفِيعاً إِلَى صَالِحٍ وَذَاكَ مِنَ الْقَوْمِ رَأْيٍ فَسَدِ
فَيَسْمَعُ مِنِّي سَجْعَ الْحَمَامِ وَأَسْمَعُ مِنْهُ زَيْرَ الْأَسَدِ

فقال له صالح : بل نحن الذين نسمع منا سجع الحمام ونسمع منك زير الأسد . ثم أمر بتقويض الحمام والناجيين ، فنقضت ، ورحل ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، ولو علم ذلك لسأل صالحا رده ، ولما رجع أبو العلاء قال : (٢)

فَجِئْتُ الْمَعْرَةَ مِنْ بَرَاثِنِ صَالِحٍ رَبُّ يَغَافِي كُلَّ دَاهٍ مُعْضِلٍ

(١) اللزوميات ٥ ص ١١٦ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٢٠ ، وانظر الحاشية (٤) ص ٤٨ .

ما كان لي فيها جَنَاحُ بَعُوضَةٍ اللهُ الْبَسَمُ جَنَاحُ تَفَضَّلِ

وبعض الرواة يقول : ^(١) إن صالحا استدعى إليه أبا العلاء ، وهو بظاهر
المرءة . وآخر يقول : ^(٢) استدعاه إليه وهو في حلب . ولم يثبت أن أبا
العلاء خرج من المرءة إلى حلب بعد رجوعه من بغداد . وعلى كل رواية
ثبت أنه خرج إلى لقاء صالح ، ولقيه وقال له ما تقدم معناه ، على اختلاف
في الروايات .

وروى بعضهم كلمة أبي العلاء لصالح على غير هذا الوجه ، وذكر
آخرون : أنه قال الأبيات الدالية بعد مفارقتها صالحا ، وهذا أقرب إلى
القبول ، لأن بعدها بيتا خامسا ذكره في (لزوم مالا يلزم) ورواه ابن
الديم وهو قوله :

فَلَا يُعْجِبُنِي هَذَا التَّفَاقُ فَكَمْ نَفَقَتْ مِحْنَةً مَا كَسَدَ ^(٣)

والظاهر من مواضع أهل ذلك العصر أن مثل هذا البيت لا يقال
لمثل صالح في مثل هذا الموقف الخطير ، وفي (لزوم مالا يلزم) قبل البيت
الآخرين الذين على روي اللام ، بيت آخر وهو :

أَلَيْتُ أُرْغَبُ فِي قَمِيصِ مُمُوهِ فَأَكُونُ شَارِبَ حَنْظَلٍ فِي حَنْظَلٍ ^(٤)

الحنظل : الغدير الصغير وجمع خنطة وهو الماء في الصخرة ، والحنظل
نبات مر معلوم .

- (١) تعريف القدماء بأبي العلاء س ٦٧ عن الأضاف والتحرى - لابن الديم .
- (٢) روى هنا الخبر ابن الديم في الأضاف والتحرى وأثبت في س ٦٦ من تعريف
القدماء بأبي العلاء .
- (٣) الزوميات ه س ١١٦ ، وروى هنا الخبر تعريف القدماء بأبي العلاء س ١٤١
عن إرشاد الأرب - لياثوت .
- (٤) الزوميات ه س ٢٢٠ وفيها : « حنظل من . . . » بدل : « حنظل في . . . »

وهذه القصة رواها ياقوت في (معجم الأدباء) وابن العديم والقفطي والذهبي والورددي والصفيدي وغيرهم ، ونقلت عن أبي غالب بن الهذب المعري في تاريخه وهو أوثق الجميع ، لأن الحادثة وقعت في حياته ، وكلهم أخذوا عنه ، وتصرف بعضهم بما لا يضر في إثبات الحادثة ، وقد خُص ما ذكرناه من أقوال الجميع . ولم يبين لنا ظاهر المعرة الذي كان به صالح : هل هو في الشرق أم في الغرب ، أم في غيرهما ، ويغلب على الظن أنه من جهة الشرق ، فإن لم يكن فن جهة الشمال لأنها أول ما يتناول القادم من حلب إلى المعرة . والآيات اللامية المذكورة رويت بروايات مختلفة

وقد ذكر أبو العلاء هذه الحادثة في قصيدة في (لزوم مسالاً يلزم)

قال : (١)

أَتَتْ جَامِعُ يَوْمِ الْعَرُوبَةِ جَامِعاً	تَقَصُّ عَلَى الشُّهَادِ بِالمَصْرِ أَمْرَهَا
فَلَوْلَمْ يَقُومُوا نَاصِرِينَ لِصَوْتِهَا	تَحَلَّيْتُ سَمَاءَ اللَّهِ تُفْطِرُ جَمْرَهَا
فَهَدُّوا بِنَاءً كَانَ بِأَوْيِ فَنَاءِهِ	فَوَاجِرُ الْقَتْلِ لِلْفَوَاحِشِ حُمْرَهَا
وَزَامِرَةٌ لَيْسَتْ مِنَ الرَّبِّ بِدِخْضُبَتْ	يَدَيَهَا وَرِجْلَيْهَا تَنْفَقُ زَمْرَهَا (٢)
أَلِفْنَا بِلَادَ الشَّامِ إِلْفَ وَلَادَةٍ	نَلَاقِي بِهَا سُودَ الْخُطُوبِ وَحُمْرَهَا
فَطَوَّرْنَا نَدَارِي مِنْ سُبَيْعَةٍ لَيْثَهَا	وَحِينَا نُصَادِي (٣) مِنْ رِبْعَةٍ نَمْرَهَا

(١) القزوينيات ٥ ص ١٣٨ .

(٢) زمر يزمر وزمر غنى في القصب واسماء زامرة وزمرن الثامنة مدين والزامرة الزانية (ج) .

جا (٧)

(٣) نداري (ج) .

أليس تميمٌ غيرُ الدهرِ سَعْدَها أليس زُبَيْدٌ أَهْلَكَ الدهرُ غَمَرها
وددتُ بأنِّي في عَمَامةٍ^(١) فارِدٌ^(٢) تعاشرني الأروى^(٣) فأكرهُ قَمَرها^(٤)
أفر من الطغوى^(٥) إلى كل قفرةٍ أو أنسُ طُغياها^(٦) وألفُ قَمَرها
فإني أرى الآفاقَ دانتَ لظالمٍ يَغُرُّ بغاياها ويشربُ خَمَرها
ولو كانت الدنيا من الإنسِ لم تكن سوى مومِسٍ أفنتَ بماساءِ غَمَرها
تدينُ لمحدودٍ وإن باتَ غيرُه يَهْزُلُ لها بيضُ الحروبِ وسُفَرها^(٧)
وما العيشُ إلا لجةٌ باطليةٌ ومن بَلَغَ الخمسينَ جاوزَ غَمَرها
ومَازالتِ الأقدارُ تتركُ ذا النَبى عديماً وتعطي مُنيَّةَ النفسِ غَمَرها
إذا يسرَّ اللهُ الخطوبَ فكم يدُ وإن قَصُرَتْ تَجَنِّي من الصابِ غَمَرها
ولولا أصولُ في الجيادِ كوامِنٌ لما آبتِ الفُرسانُ تَحْمَدُ ضَمَرها
وقد احتبط صاحب (الذكري)^(٨) من هذه الأبيات أن اسم المرأة
التي صاحت (جامع) ، وذهب الأستاذ الميمني^(٩) إلى أن الجامع هي الحامل ،

(١) جبل (ج) .

(٢) مفرد (ج) .

(٣) الوعل (ج) .

(٤) قر الطائر : عناه في الليل بالنار ليصده ، وقره خدعه (ج) .

(٥) اسم من طغى إذا جاوز وارتفع وغلا في الكفر وجاوز الحد في الصيان (ج) .

(٦) طغيا : بكرة الوحش أو الضئير من بحر الوحش ، والقُدرة لونٌ إلى الحضرة

أوياس فيه كسرة ، حار أقر وأمان قراء (ج) .

(٧) ذكرى أبي العلاء - لطف حين - ط ٢ ص ٢٠٩ .

(٨) أبو العلاء وما إليه - للميمني - ص ٢٤٠ .

وقد قال في (لسان العرب) : وامرأة جامع في بطنها ولد . وكلا القولين لا يخرج عن حدود الفن والاحتمال لأن لفظ الجامع جاء علماً ، وجاء لمعان غير ما ذكر ، وإنما يجلي الحقيقة النص التاريخي وليس لدينا ذلك .

الخلفاء الفاطميون الذينهم أدركهم أبو المنصور

م خمسة : الأول : المعز لدين الله أبو نعيم معد بن المنصور إسماعيل ، ولي الخلافة سنة ٣٤١ هـ وتوفي سنة ٣٦٥ هـ في آخر عهده ولد أبو العلاء سنة ٣٦٣ هـ

الثاني : العزيز بالله نزار بن المعز ، ولي بعد أبيه سنة ٣٦٥ هـ وتوفي سنة ٣٨٦ هـ .

الثالث : المنصور الحاكم بأمر الله ابن العزيز ولي سنة ٣٨٦ هـ وتوفي سنة ٤٢١ هـ .

الرابع : الظاهر لإعزاز دين الله علي بن المنصور ولي سنة ٤٢١ هـ وتوفي سنة ٤٢٧ هـ .

الخامس : المستنصر بالله معد بن الظاهر ولي سنة ٤٢٧ هـ وتوفي سنة ٤٨٧ هـ . وقد توفي أبو العلاء في عهده سنة ٤٤٩ هـ .

وقد استولى الفاطميون على دمشق سنة ٣٥٨ هـ ، وخطب في حلب أبو المعالي وقرعونة للمعز الفاطمي سنة ٣٥٩ هـ وسلم فتح غلام مرتضى الدولة حلب إلى نواب الحاكم سنة ٤٠٦ هـ على نحو ما تقدم .

الخلفاء العباسيون الذين أدركهم أبو المصعود :

في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ كلف سبكتكين التركي الخليفة المطيع لله الفضل بن المقتدر أن يخلع نفسه ففعل ، وهو الثالث والعشرون من خلفاء بني العباس ، وكانت ولادة أبي العلاء في ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ فيكون أدرك من خلافته نحواً من سبعة أشهر ونصف على اختلاف في الأقوال .

وخلفه في هذه السنة ولده الطائع لله عبد الكريم وهو الرابع والعشرون ، ثم قبض عليه بهاء الدولة ابن عضد الدولة سنة ٣٨١ هـ وحبه في داره وأشهد عليه بالخلع ، ونهب دار الخلافة واستر الطائع سجيناً في منزله إلى أن توفي سنة ٣٩٣ هـ .

وبويع القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر في تلك السنة وتوفي سنة ٤٢٢ هـ . ثم خلفه ابنه القائم بأمر الله عبد الله بن القادر في تلك السنة وتوفي سنة ٤٦٧ هـ وقد كانت وفاة أبي العلاء في سنة ٤٤٩ هـ . فيكون أدرك أربعة خلفاء منهم .

طائفة من الوعدهات

التي وقعت في عهد أبي العلاء في العراق وغيرها

في سنة ٥٣٣٤ هـ وصل معز الدولة ببغداد وبايع المستكفي بالله ثم خلفه ونهب داره ، وبايع المطيع بالله واستلم نواب المعز العراق بأسره ، ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه إياه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته ، ثم مات معز الدولة وولي بعده ابنه عز الدولة بختيار .

وفي سنة ٥٣٦٣ هـ سار بختيار إلى الأهواز وتخلف سبكتكين التركي عنه ببغداد . فأوقع بختيار بن معه من الأتراك واحتاط على أقطاع سبكتكين فخرج عليه سبكتكين ببغداد فسين بقي معه من الأتراك ونهب دار بختيار ببغداد ، وألزم المطيع أن يخلع نفسه ويسلم الخلافة إلى ولده الطائع ففعل . وفي هذه السنة سارت القرامطة إلى بلاد مصر فحاربهم المعز العلوي ، فانهزموا ، فأرسل في إثرهم عشرة آلاف فارس ، فسارت القرامطة إلى الأحساء والقطيف ، فأرسل المعز القائد ظالم بن موهوب العقيلي إلى دمشق فدخلها وعظم أمره . ثم وقع بين أهل دمشق والفاربة وعاملهم المذكور فقتل دامت إلى سنة ٥٣٦٤ هـ أحرقوا خلالها بعض مدينة دمشق .

انحدر سبكتكين في سنة ٥٣٦٣ هـ بالأتراك إلى واسط ، وأخذ معه الخليفين الطائع والمطيع ، فمات المطيع وسبكتكين ، وولى الترك عليهم أفتكين ، وصاروا إلى واسط وبها بختيار ، فاقتتلوا نحو خمسين يوماً ، وكان الظفر للأتراك ، فاستنجد بختيار بأبن عمه عضد الدولة ، فأرسل في سنة

٥٣٦٤ هـ بمساكر فارس ، فلما قارب واسط رجع أفندي إلى بغداد ، فسار إليها عضد الدولة من الجانب الشرقي ، وسار بجختيار من الجانب الغربي ، وخرجت الأتراك فقاتلوا عضد الدولة فهزمهم ، ثم شغب الجند على بجختيار يطلبون أرزاقهم ، فأشار عليه عضد الدولة أن يتبرأ من الإمارة ليصلح الحال مع الجند ففعل . فأشهد عضد الدولة الناس على بجختيار أنه عاجز وقد استعفى من الإمارة ، ثم قبض على بجختيار وإخوته واستتب له الأمر ببغداد . وكان لبختيار ولد يقال له المرزبان ، كان متولياً بالبصرة ، فكتب إلى ركن الدولة أي عضد الدولة بذلك ، فإزال يلع على ولده عضد الدولة حتى أخرج بجختيار من حبسه ، وأعادته إلى ملكه ، وسار عن العراق .

وأما أفندي التركي فقد كان مولى لمعز الدولة بن بويه ، فلما انهزم من بجختيار سار إلى دمشق : فالتقى مع أهلها وأخرجوا ريان الخادم أميرها من قبل المعز العلوي الذي مات في هذه المدة سنة ٥٣٦٤ هـ .

فلما ولي ابنه العزيز جهاز القائد جوهرراً إلى الشام ، فوصل إلى دمشق وحصر أفندي فيها ، فاستنجد بالقرامطة ، فلما قربوا منها رحل جوهر إلى مصر ، وتبعه أفندي والقرامطة ، فأدركوه قرب الرملة ، فدخل عسقلان فحصره فيها ، فبذل إلى أفندي أموالاً عظيمة ، فأخذها ورحل عنه .

وسار جوهر إلى مصر فأعلم العزيز بما وقع ، فخرج بنفسه إلى الرملة ، فالتقى بأفندي والقرامطة ، فهزمهم والتجأ أفندي إلى مفرج بن دغفل الطائي ، فأعلم العزيز به ، فأرسل من أحضره وخلع عليه واصطحبه إلى مصر وبقي عنده مكرماً حتى مات .

وفي سنة ٥٣٦٦ هـ سار عضد الدولة بعد موت أبيه إلى العراق ، فخرج بجختيار إلى قتاله بالأهواز ، ثم انهزم بجختيار إلى واسط وبعث عضد الدولة عسكراً فاستولى على البصرة ، ثم سار إليها وقرر أمورها وذهب بجختيار إلى بغداد .

وفي سنة ٣٦٧ هـ كتب عضد الدولة إلى بختيار يقول له : اخرج من هذه البلاد وأنا أعليك أي بلاد اخترت غيرها . فرفض رسار إلى نحر الشام ، ودخل عضد الدولة بغداد واستقر فيها ، ولعل أبا العلاء يشير إلى هذه الحوادث بقوله : (١)

لو بُعِثَ المنصورُ نادى أيا مَدِينَةَ التَّسْلِيمِ لَا تَسْلِمِي
قَدْ سَكَنَ القَفْرَ بنو هَاشِمٍ وَاتَّقِلِ المَلِكُ إِلَى الدَّيْلَمِ
لو كُنْتُ أدري أَنَّ عُقْبَاهُمْ كَذَاك لَمْ أَقْتُلْ أَبَا مُسْلِمٍ
قَدْ خَدَمَ الدَّوْلَةَ مُسْتَنْصِحًا فَأَلْبَسَهُ شِيَةَ العِظْلَمِ

ثم اطع حمدان بن ناصر الدولة بختيار في ملك الموصل وهو ن عليه أمر أخيه أبي تغلب ، وأرسل أبو تغلب إلى بختيار يقول له : إن سلّمت إلى أخي حمدان صرت معك وقاتلت عضد الدولة . فقدر بختيار وسله إلى أخيه فحبه ثم سار أبو تغلب وبختيار إلى بغداد فخرج منها عضد الدولة والتقا بقصر الجص من نواحي تكريت فقتل بختيار وهرب أبو تغلب إلى ميافارقين ، فأرسل جيشاً في طلبه مقدّمه أبو الوفاء ، فهرب أبو تغلب إلى بدليس فتبعه ، فهرب إلى نحر بلاد الروم فتبعه وجرى بينهما قتال ، فانتصر أبو تغلب وهزم العسكر وسار إلى حصن زياد ، وهو خرت بورت ، ثم إلى آمد فأقام بها . وكان عضد الدولة بعد قتل بختيار سار إلى الموصل فلحقها .

وفي سنة ٣٦٨ هـ فتح أبو الوفاء المذكور ميافارقين بالأمان فسار أبو تغلب إلى الرجة ، ثم فتح أبو الوفاء آمد واستولى عضد الدولة على جميع ديار بكر ثم ديار مضر والرجة ، فاستخلف أبا الوفاء على الموصل وعاد إلى بغداد . أما أبو تغلب فإنه سار إلى دمشق ، وقد كان قسام استولى عليها ،

(١) الزمريات ٢٠٢ ص ٢٠٢ ، وفيها : «لذلك لم أتل ...» والظم : ابل المظم وبنت مبع به

فقاتل أبا تغلب ومنعه من دخولها ، فسار إلى طبرية ، ثم سار إلى الرقة سنة ٤٣٦٩ هـ ، ولم يبق معه إلا سبعة رجل من غلمانه وغلمان أبيه . وكان في تلك الجهة دغفل بن مفرج الطائي وقائد من فواد العزيز اسمه الفضل ، جهزه العزيز إلى الشام فساروا لقتال أبي تغلب فولى منهزماً ، ثم أمر فقتله دغفل ، وكان معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة وزوجته بنت محمد سيف الدولة ، فحملها بنو عقيل إلى حلب ، وبها ابن سيف الدولة فأبقى أخته عنده وأرسل جميلة إلى بغداد ، فاعتقلت في حجرة في دار عضد الدولة .

وفي سنة ٤٣٧٢ هـ سار العزيز العلوي جيشاً إلى الشام مع بكتكين ، فوصل إلى فلسطين وعليها مفرج بن الجراح فانهزم وكثر القتل في أصحابه ، ثم سار بكتكين إلى دمشق وعليها قسام ، فغلبه بكتكين ، وأرسله إلى العزيز بصر ، واستقر بدمشق ، وفيها توفي عضد الدولة وولي الإمارة بعده ولده كاليجار الرزبان ، ولقبوه صمصام الدولة ، وكان أخوه شرف الدولة شيرزيك بكرمان ، سار إلى فارس فلحقها .

وفي سنة ٤٣٧٠ هـ قصد القرامطة الكوفة ففتحوها ونهبوها ، فجهز صمصام الدولة جيشاً فهزمهم وأكثرت القتل فيهم .

وفي سنة ٤٣٧٦ هـ سار شرف الدولة شيرزيك من الأهواز إلى واسط فلحقها وركب إليه أخوه صمصام الدولة بنحو مائة مستأناً ، فطيب قلبه ، فلما خرج من عنده غدر به وفض عليه ، وسار إلى بغداد ودخلها ، وأخوه معتقل معه ، ثم أرسله إلى فارس ، فاعتقله في قلعة هناك .

وفي سنة ٤٣٧٩ هـ أرسل شرف الدولة محمد الشيرازي لبسل أخاه صمصام الدولة ، فوصل إليها بعد موت شرف الدولة وسلمه فأعماه ، ولما توفي شرف الدولة خلفه أخوه أبو نصر بهاء الدين ، وقيل اسمه خاشاذ ، وفيها وقعت الفتنة في بغداد بين الترك والديلم واقتتلوا خمسة أيام ، وظل

جاء الدولة في داره اثني عشر يوماً راسلهم في الصلح فلم يسموا ، ثم صار مع الترك ، فضعف أمر الديلم ، وأجابوا إلى الصلح ، وأخذ بعد ذلك أمرُ الترك يقوى ، وأمرُ الديلم يضعف .

وفي هذه السنة شخص أبو الطاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة إلى الموصل فاستوليا عليها وطردا العامل والعسكر الذي قاتلها إلى بغداد واستقرا في الموصل .

وفي سنة ٣٨٠ هـ استولى أبو الذرادر محمد بن المسيب بن رافع أمير عجيل على الموصل ، وقتل أبا الطاهر وأولاده وعدة من قواده بعد قتال شديد .
وفي سنة ٣٨١ هـ خلع جلاء الدولة الطائفة طمعاً في ماله ، وبويع بعده القادر بالله .

وفي سنة ٣٩٠ هـ ولي الحاكم نيابة الشام ضلع بن نعيم فرض ومات .
ولي سنة ٣٩٢ هـ ولي الحاكم عوضه على دمشق علي بن جعفر بن قلاح .
وفي سنة ٣٩٩ هـ ولي الحاكم القائد أبا الجيش حامد بن ملهم أميراً على دمشق بعد علي بن جعفر فوليا سنة وأربعة أشهر ، ثم عزل بمحمد بن بزال .

وفي سنة ٤٠٩ هـ ولي الحاكم لؤلؤ بن عبد الله الشيرازي البشاري أو البشاروي منتجب الدولة ثم عزله وولى أبا المطامع ذا القرنين ابن حمدان التغلبي (وحيد الدولة) .

وفي سنة ٤٠٣ هـ توفي جلاء الدولة ، وولي الملك بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع .

وفي سنة ٤٠٦ هـ قتل سلطان الدولة فأنبته بالمرق ففر الملك أبا غالب واستوزر أبا محمد الحسن بن سهلان .

وفي هذه السنة ولي الحاكم دمشق سالكين سهم الدولة بموعزله سنة ٤٠٨ هـ .

وفي سنة ٤١١ هـ ثقب الجند ببغداد على سلطان الدولة ، فاستخلف
أخاه مشرف الدولة على العراق ، وسار إلى الأهواز ، واستوزر في طريقه
ابن بهلان ، ثم أرسله ليُخرج أخاه مشرف الدولة من العراق ، فاقتلا
فانتصر أخوه وأمسك ابن بهلان وسمله ، ففر سلطان الدولة إلى الأهواز
في أربعمائة فارس ، واستقر أخوه في ملك العراق ، وخطب له في أواخر
الحرم سنة ٤١٢ هـ ثم في سنة ٤١٣ هـ اصطالحا على أن يكون العراق
لمشرف الدولة ، وكرمان وفارس لسلطان الدولة ، وفيها استوزر مشرف
الدولة أبا الحسن بن الحسن الرخبي ، ولقب مؤيد الملك ، ثم قبض
عليه سنة ٤١٤ هـ واستوزر أبا القاسم المغربي ، وتوفي مشرف الدولة سنة ٤١٦ هـ .
وفي سنة ٤١٧ هـ تسلط الأتراك في بغداد ، فأكثروا مصادرات
الناس بسبب خلو بغداد من سلطان .

وفي سنة ٤١٨ هـ استدعى الجند بأمر الخليفة جلال الدولة أبا طاهر
ابن بهاء الدولة إلى بغداد ، فعلقه الخليفة القادر واستوثق منه . واستقر
في بغداد .

وفي سنة ٤٢٣ هـ ثقب الجند ببغداد على جلال الدولة ، ونهبوا داره ،
وأخرجوه من بغداد إلى عكبراه ثم اتفقوا معه ، وعاد إلى بغداد .

وفي سنة ٤٢٦ هـ انحل أمر الخلافة والبطنة ببغداد وعظم أمر
العبّارين^(١) ، فصاروا يأخذون أموال الناس ليلاً ونهاراً ، والسلطان
جلال الدين عاجز ، والخليفة أعجز منه ، وانتشرت العرب في البلاد ،
ونهبوا النواحي وقطعوا الطريق .

(١) البار كشد الرجل الذكي الكثير التطواف والحركة والعرب تمدح وتنم بالبار .
قال ابن الأباري : البار من الرجال الذي يغتني همه وهو ما لا يروها
ولا يزرعها ، كذا في الصباح ولله : لا يردعها . (ج)

وفي سنة ٤٣٥ هـ توفي جلال الدين ، وكان ابنه العزيز أبو بكر منصور بواسط ، فكان به الجند فيما يحيط بهم ، فلم ينتظم له أمر فار يطلب النجدة من الملوك ، مثل قرواش وأبي الشوك ، فلم يجده أحد . فقصده نصر الدولة بن مروان وتوفي عنده بميفارقين سنة ٤٤١ هـ .

ولما لم ينتظم أمره كاتب الملك أبو كاليبجار بن سلطان الدولة بن جيه الدولة ابن عضد الدولة عسكر بغداد ، فاستمر له الأمر ، وخطب له ببغداد سنة ٤٣٦ هـ . وفي سنة ٤٤٠ هـ خرج بهرام الديلمي عامل أبي كاليبجار عن طاعته ، فار أبو كاليبجار إلى بلاد كرمان ، فقويت به الحمى فمات بمدينة جناب من كرمان ، ونهب الأتراك الخزان والسلاح والدواب من العسكر . وكان معه ولده أبو منصور فلاستون ، فذهب إلى شيواز فملكها . وله ولد آخر كان ببغداد وهو الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز بن أبي كاليبجار ، فاستولى على بغداد ، ثم أرسل عسكراً إلى شيواز ، فقبض على أخيه فلاستون وعلى والدته .

وفي هذه السنة أي سنة ٤٤٠ هـ ولي المستنصر طارفاً الصقلي دمشق وعزله عنها ناصر الدولة الحسن بن الحسن بن حمدان .

وفي سنة ٤٤١ هـ سار الباسيري كبير الأتراك ببغداد وملك الأنبار وقرر قواعدها ، وعاد إلى بغداد .^(١)

وفيهما وقعت فتنة ببغداد بين السنة والشيعة ، وعظم الأمر حتى بطلت الأسواق ، وشرع أهل الكرخ في بناء سور عليهم محيطاً بالكرخ ، وشرع السنة من القلايين ومن يجري مجراهم في بناء سور على سوق القلايين ، وكان

(١) الباسيري مملوك تركي من ممالك جيه الدولة بن عضد الدولة اسمه أرسلان ، ينسب إلى مدينة باغارس وكان سيد هذا الملوك منها قبل له الباسيري .

الاذان بأماكن الشيعة بـ (حي على خير العمل) ، وبأماكن السنة : (الصلاة خير من النوم) .

وفي هذه السنة صرف المنصر طارقاً الصقلي عن دمشق ، وولى مكانه عدة الدولة المنصري ، ثم صرفه وبعث به إلى حلب ، وولى دمشق جدارة بن الحسين بن مفلح أبو الكرم المؤيد فأقام بها تسع سنين .
وفي سنة ٥٤٤٣ هـ وقعت فتنة بين الشيعة والسنة وعظم الأمر ، وأحرق ضريح موسى بن جعفر وقبر زبيدة وقبور بني بويه وجميع القرب التي حواليها ووقع النهب ، وقصد أهل الكرخ إلى خان الحنفين وقتلوا مدرّس الحنفين أبا سعيد السرخسي وأحرقوا الخان ودور الفقهاء ، ثم صارت الفتنة إلى الجانب الشرقي فاقتل أهل باب الطاق وسوق يحيى والأساكفة ، وعادت الفتنة سنة ٥٤٤٤ هـ .

وفي سنة ٥٤٤٧ هـ ثارت جماعة من السنة ببغداد وطلبوا من الخليفة أن يأذن لهم أن يأمرؤا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، فأذن لهم وزاد شرم وأذن لهم في نهب دور الباسيري ، وقد كان غائباً في واسط فنهبوها وأحرقوها ، وأرسل الخليفة إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد الباسيري فأبعده ، وصار إلى جهة ديبس بن مرثد لمصاهرة بينها .

وفي هذه السنة نزل طغرل بك حلوان ، فمظم الإرجاف ببغداد ، وأرسل قواد بغداد يبذلون له الطاعة والخطبة فأجابهم إلى ذلك ، ثم أرسل طغرل بك واستأذن في دخول بغداد ، فتوجهت إليه الرسل فحلفوه للخليفة القائم وللك الرحيم فحلف لهما ، ودخل بغداد ، ونزل بباب الشمسية . ثم جرى بين عسكره وبين بعض السوقية هوة ، ولار أهل تلك المحلة على من فيها من الفرز عسكر طغرل بك ونهروهم ، ولارت بينهم الفتنة ببغداد ، وخرجت العامة إلى وطافات طغرل بك ، فركب عسكره وتقاتلوا ، فانهمزت العامة ، وأرسل طغرل بك يقول : إن كان هذا من الملك الرحيم فهو لا يقدر على

الحضور إلينا ، وإن كان بريثاً من هذا فلا بد من حضوره . فأرسل الخليفة إلى الملك الرحيم أن يخرج هو وكبار القواد وهم في أمان الخليفة ، فخرجوا إلى طبرلبك ، فقبض عليهم ، فعظم ذلك على الخليفة القائم ، وأرسل إلى طبرلبك في أمرهم ، وشكا من عدم حرمة وعدم الالتفات إلى أمانه ، فأفرج عن بعض القواد واستمر الباقون والملك الرحيم في الاعتقال .

وفي هذه السنة وقعت فتنة بين الشافعية والحنابلة ببغداد ، فأنكرت الحنابلة على الشافعية الجهر بالبسمة والفتن في الصبح والتراجع في الأذان .

ثم لما أقام طبرلبك في بغداد ثقلت وطأة عكره على الرعية إلى الناية ، فرحل في العاشر من ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ إلى نصيبين ثم إلى ديار بكر ، ولم يلق الخليفة مدة مقامه في بغداد ثلاثة عشر شهراً وإياماً .

وفي سنة ٤٤٩ هـ عاد إلى بغداد بعد أن استولى على الموصل وأعمالها ، وسلمها إلى أخيه إبراهيم ينال . ولما قارب القفص خرج لتلقيه كبار بغداد ، فلما دخلها قصد الاجتماع بالخليفة القائم ، فجلس له على سرير عال عن الأرض نحو تسعة أذرع وعليه البردة . ودخل طبرلبك في جماعته وأحضر أعيان بغداد وكبراء العساكر ، وذلك يوم السبت لحس بقين من ذي القعدة ، فقبل الأرض ويد الخليفة ، ثم جلس على كرسي ثم قال له رئيس الرؤساء : إن الخليفة قد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ، ورد إليك مراعاة عبادته ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك . وخلع على طبرلبك ، وأعطى المهد ، فقبل الأرض ويد الخليفة ثانياً وانصرف . ثم بعث إلى الخليفة خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً من الأتراك ، ومعهم خيولهم وسلاحهم مع ثياب وغيرها .

وكان أبو العلاء توفي في الثالث أو الثالث عشر من ربيع الأول
من هذه السنة .

وقد أشار في شعره إلى ما كان يقع من الحوادث والفتن في مثل
قوله ^(١) :

إِنَّ الْعِرَاقَ وَإِنَّ الشَّامَ مُذْ زَمَنِ صَفْرَانِ مَا بِهِمَا لِلْمُلْكِ سُلْطَانُ
وقوله ^(٢) :

وَالشَّامُ فِيهِ وَقُودُ الْحَرْبِ مُشْتَعِلٌ يَشْبُهُ الْقَوْمُ شَدَّتْ مِنْهُمْ الْحُجُزُ
وَبِالْعِرَاقِ وَمِيزُ يُسْتَهْلُ دَمًا وَرَاعِدٌ بِلِقَاءِ الشَّرِّ يَزْتَجِرُ
وقوله ^(٣) :

وَمَهْلِكُ دَوْلَةٍ وَقِيَامُ أُخْرَى كَذَلِكَ الدَّهْرُ أَمْرٌ بَعْدَ أَمْرٍ
وقوله ^(٤) :

دَعِيَ وَذَرِيَ الْأَقْدَارُ تَمْضِي لِشَأْنِهَا فَلَمْ تَخَمْ مُلُكًا أَلَا دِمَشْقُ وَلَا مِصْرُ
وَلَا الْحَرَّةُ السُّودَاءُ حَاطَتْ سَيَادَةً وَلَا الْبَصْرَةُ الْبَيْضَاءُ حَصَّنَتْهَا الْبَصْرُ

(١) الزويمان ٥ ص ٢٦٢ .

(٢) الزويمان ٥ ص ١٧٢ .

(٣) الزويمان ٥ ص ١٥٣ .

(٤) الزويمان ٥ ص ١١٩ ، والبصر والبصر : المجازة البصر .

الحياة الباسية في شعرايى العصور

اتضح مما تقدم أن أبا العلاء عاصر دولاً متعددة ، وشهد انقراض دول وقيام أخرى ، وما يستتبع ذلك من إراقة دماء وتزريق أشلاء ، وسمل عيون ودفن أجساد وهتك أعراض واستباحة محارم وخراب عامر وإحراق أموال وحبس ذخائر ومجاعات وما شاكل ذلك من الفظائع التي يقترفها الغالب والفائح ، والفجائع التي يرتكبها الموتور والمفلوب إذا سحت له الفرصة ، أضف إلى ذلك ما كانت فجرة الفتن التي تضطرم باسم الدين ويشمل أذاها القاصي والداني ، حتى أفضى ذلك إلى خراب البلاد وهلاك العباد . ولم يكن هذا الويل مختصاً بالشام أو العراق أو مصر ، بل كل الأصقاع كانت مغمورة بفتن كتقطع الليل المظلم . ولم تكن الأندلس أحسن حالاً من الشام وإنما كانت فيها عروش تنهار ودماء تراق وممران يتداعى وأمراء تسوقهم أطعمهم إلى أن ينجروا بيوتهم بأيديهم وأيدي الفرقة الذين يتربصون بهم السوء ولا يفكرون عن الكيد لهم . وفي إفريقية كانت تلتهب نيران الفتن يشبها البربر وغيرهم ، فلتهم الأخضر واليابس ، وما شئت أن تقول عن بلاد الأعاجم وما كان فيها من حروب طاحنة وفتن مبيدة فحدث ولا حرج .

كل هذا أدركه أبو العلاء ، وكان شديد العناية بحالة المسلمين عامة ، كثير التحصي لأخبارهم في الأصقاع المختلفة ، إلا أنه كان يطلع على أخبار البلاد العربية أكثر من غيرها ، لأنها كانت مقر الخلافة والملك ، ولأنها أقرب من غيرها إليه ، وكان أكثر اتصالاً بالرجال العالمين بأحوالها من أبناءها وغيرهم ، ولذلك تصدى في كلامه إلى ما كان فيها أكثر من غيرها . وقد أورثه ما كان يسمعه من أمورها أسمى وحزناً وليس لديه ما يفرج كربها إلا ما كان ينعا على الملوك والأمراء وأعراسهم ، ولقد صور في

شمره الحياة السياسية أجل تصوير ، فيتن لنا أن شأن الملوك عزف وترنف ، ونهب الأموال واستباحة الفروج وظلم المستضعفين وتكليف الرعية ما لا تطيق وعدم جبايتها وإقامة العدل فيها وكثرة القتل وخضوع الآفاق للظالم المنهك في ملاذه ، حتى مل المقام لا يراه من جور الحكام الذين هم أجراه الأمة .

وإن الشام والعراق خاليان من سلطان يقيم العدل ، وإنما يسوس كل مصر شيطان لا يله إلا مله بطنه بالخر وغيرها ، وأنه لا يرى موضعاً إلا وهو منخور بالفنق والمنكرات .

وإن مصر والعراق والشام والحجاز عاجزة عن حماية الملك واستقراره ، فهو ينتقل من يد غاصب متقلب إلى يد أقوى منه سلطاناً وأشد جشعاً وغشاً ، وستأتي أمثلة من ذلك في شمره في السياسة وفي غيره .

الحياة الاقتصادية في عصره وشمره

لا يتنى لأمة أن تحيا حياة الراحة والدعة إلا إذا خيم فوق ربوعها السلم ، وكانت النبله فيها للحق والعدل ، وتقياً أهلها ظلاً وظليلاً من الأمن والطأنينة ، وتمتعوا بنعة الأمانة والوفاء ، فتتسع بذلك موارد الثروة ، وتغصب مرافق الحياة ، ويصبح كل إنسان آمناً في سربه على نفسه وعرضه وأهله وماله ،

وللحياة الاقتصادية صفة محكمة بالحياة السياسية ، وقد عرفنا مما تقدم أنها كانت على أسوأ حالة ، تثل فيها عروش ، ويهدم هامر ، وتستباح دماء وأموال ، قضاء لشهوة وإشباعاً لنهية ، وربما فعل الواحد بقرية ما لا يفتنه أشد عبو بعده . وكثيراً ما تنفضي هذه الأمور إلى وفور الناس بين أنياب القافة والجوع . وفي التاريخ عجائب وعبر مما وقع في هذا العهد من البؤس والجوع الذي اضطر الناس إلى أن يأكلوا أنواع الجيران حياً وميتاً وأن يأكل بعضهم بعضاً . وربما كانت الطيعة

عوناً للإنسان الظالم على الضعفاء المظلومين فاعانتة بزلزال أو قحط أو طاعون
أو مطر عظيم أو عواصف شديدة أو نحو ذلك مما يزيدهم ضعفاً على إباله .
وهذه جملة موجزة من الحوادث نوضح فيها الحياة التي صحبها أبو العلاء من
أول عمره إلى آخره ، وما وقع منها في الأمصار العربية أو ما يجاورها .

ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٦٣ هـ القنبنة التي أثارها المغاربة جنود
المعز في دمشق ، وأحرقوا البلد من ناحية باب الفراديس ، فامتدت النار
إلى جهة القبلة ، فأحرقت كثيراً من البلد وهلك من الناس والأثاث والأموال
ما لا يحصى . ثم عادت القنبنة سنة ٣٦٩ هـ فأحرقوا من البلد ما كان قد سلم ،
وغرقت المنازل وانقطعت الموارِد وانسدت المسالك وقطع الماء عن البلد
ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد .

وفي سنة ٣٦٥ هـ حصر جيشُ العزيز مكةَ ومنع الميرة عن أهلها فغلت
الأسعار ولقي أهلها شدة شديدة .

وفي سنة ٣٦٧ هـ وقعت زلازل في المهديّة وامتدت أربعين يوماً .

وفي سنة ٣٦٨ هـ وقعت زلازل وكان أشدها في العراق .

وفي سنة ٣٧١ هـ وقع حريق في الكرخ دام أسبوعاً هلك فيه خلق
كثير ومال أكثر .

وفي سنة ٣٧٣ هـ غلت الأسعار بالعراق وما يجاوره وعدمت الأقوات
فمات كثير من الجوع .

وفي سنة ٣٧٦ هـ كانت بالموصل زلزلة شديدة هدم فيها كثير من المنازل
وهلك كثير من الناس واشتد الفلاء بالعراق حتى جلا أكثر أهلِه عنه .

وفي سنة ٣٧٧ هـ اشتد الفلاء كذلك وتأخر المطر .

وفي سنة ٣٧٨ هـ كثر المطر والبرد الكبار حتى امتلأت الأنهار والآبار

يبلاد الجبل ، وخربت المساكن وانقطعت الطرق ، كثرت العواصف بغم
الصلح ، وأهلك كثير من الناس وأغرقت كثيراً من السفن الكبيرة الملوئة
وفي سنة ٣٨١ هـ كثرت الفتن والحريق في بغداد ووقعت حرب بين الروم
ومنجوتكين وعبر الملون الحاض بالروج كما سيأتي .

وفي سنة ٣٨٢ هـ غلت الأسعار ببغداد فبيع رطل الخبز بأربعين درهماً .
وفي سنة ٣٨٣ هـ اشتد الفلاء فيها حتى بيع كر الحنطة بستة آلاف وسبعمائة
درهم فبائية .

وفي سنة ٣٨٤ هـ اشتد أمر العيارين^(١) ببغداد ووقعت فتنة بين أهل الكرخ
وأهل باب البصرة واحترق كثير من المال .

وفي سنة ٣٩٥ هـ كان بإفريقية غلاء شديد هلك فيه الناس وذهبت أموال
الأغنياء وكثر الوفاة .

وفي سنة ٣٩٧ هـ اشتد الفلاء فضج العامة وشغب الجند وكانت فتنة .
وفي سنة ٣٩٨ هـ زلزلت الدينور زلزلة شديدة خربت بها المساكن وهلك
خلق كثير من أهلها وكان الذين دفنوا ستة عشر ألفاً سوى من بقي تحت
الهدم ولم يشاهد .

وفي سنة ٤٠١ هـ اشتد الفلاء بخراسان جميعها وعدم القوت حتى أكل
الناس بعضهم بعضاً ، ثم تبعه وباء عظيم حتى عجز الناس عن دفن الموتى .

وفي سنة ٤٠٢ هـ نهب حسان أمير طبرستان عسقلان وقتل أهلها .

وفي سنة ٤٠٨ هـ عظم أمر العيارين ببغداد فأفسدوا ونهبوا الأموال .

وفي سنة ٤١٣ هـ وقع غلاء شديد وجماعة عظيمة بإفريقية لم يكن مثلاً
في تعذر الأقوات .

وفي سنة ٤١٤ هـ استولى حسان أمير طبرستان على الرملة ونهبها وقتل أهلها .

(١) انظر الحاشية (١) ص ١٠٦ في التبريد بالبيان ،

وفي سنة ٤١٦ هـ عظم شر المبارين ببغداد فقتلوا النفوس ونهبوا الأموال وأحرقوا الكرخ وغلا السمر حتى بيع كر الحنطة بمائتي دينار قاسانية ، وفيها حاصر سنان دمشق ، ووقعت بينه وبين أهلها حروب طاحنة وخربت دارياً وأعمالها كما تقدم .

وفي سنة ٤١٨ هـ سقط في العراق جميعه برّد كبار أصغره كالليضة وفيه الواحدة تبلغ رطلاً أو رطلين ، فأهلك الغلات . وفي آخر تشرين الثاني هبت ربيع هاردة في العراق جرد منها الماء والحل وبطل دوران الدواليب على دجلة . وفي سنة ٤١٩ هـ عذمت الأرباط بالعراق للبرد الذي كان في السنة السابقة . وفي سنة ٤٢٠ هـ سقط في البلاد برّد عظيم وكان أكثره بالعراق ، واعتبه ربيع شديدة سوداء قلعت كثيراً من الأشجار ، وكانت فتنة ببغداد قري فيها أمر المبارين والصوص .

وفي سنة ٤٢١ هـ ظهر ببغداد متلصصة من الأكراد فكانوا يسرقون دواب الأتراك .

وفي سنة ٤٢٢ هـ تجددت الفتنة ببغداد بين السنة والشيعة ، فنهبت دور وهدمت أسواق وأحرقت أماكن وقتل خلق كثير .

وفي سنة ٤٢٣ هـ كان في البلاد غلاء شديد ووباء عظيم في العراق والشام والجل وخراسان وغزنة والهند وكثر الجدري ولم تخل دار من مصيبة . وفي سنة ٤٢٤ هـ دار الميادون ببغداد وأخذوا أموال الناس ظاهراً واشتد شرهم .

وفي سنة ٤٢٥ هـ كثرت الزلازل بمصر والشام ، وكان أكثرها بالرملة ، فقد انهدم نحو ثلثها وهلك تحت المدم خلق كثير وهبت ربيع بالمرسل فقلعت كثيراً من الأشجار ، وكثر الموت بالخرانتي في العراق والشام والموصل وخوزستان وغيرها حتى كانت الدار يسد بها لموت أهلها .

وفي سنة ٤٢٦ هـ ضعف أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وعظم أمر العيارين ،
فصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهاراً ، ونهب العرب النواحي وقطعوا
الطرق ووصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء في القابر .
وفي سنة ٤٣٢ هـ اشتد الغلاء بإفريقية لعدم الأمطار فسُمِّيت سنة الفجار ،
ودام ذلك إلى سنة ٤٣٤ هـ .

وفي سنة ٤٣٩ هـ كان بالعراق كله والجزيرة غلاء عظيم أكل الناس فيه
الميتة وتبعه وباء مات فيه كثير .

وفي سنة ٤٤٨ هـ انقطعت الطرق عن العراق خوفاً من النهب فقلت الأسعار
وتعمدت الأفوات وغيرها ، وأكل الناس الميتة ولحقتهم وباء عظيم ، وكان
بمصر وباء شديد يموت فيه كل يوم ألف نفس ، ثم عم ذلك سائر البلاد من
الشام والجزيرة والموصل والحجاز واليمن وغيرها .

وفي سنة ٤٤٩ هـ زاد الغلاء ببغداد والعراق حتى أكل الناس الميتة
والكلاب وغيرها ، وكثر الوباء حتى عجز الناس عن دفن الموتى ، فكانوا
يحيطون الجماعة في الحفيرة الواحدة .

أما مصر فقد أصابها من الكوارث والنكبات ما يجعل الولدان شيباً ،
وحسبك منه ما أصابها من المصائب في عهد الحاكم حين قطع الكروم
ومنع بيع العنب ، ولم يَبْقَ في ولايته كَرْمٌ ما ، وأراق خمسة آلاف
جرة من العمل في البحر خوفاً من أن تعمل نبيذاً ، ونهى عن السك
واللؤلؤ والخيا والفئاع^(١) ، وقتل من باع ذلك ومنع بيع الرطب .

وأمر قواده وعرفاهه بالمسير إلى مصر لحرقها ونهبها ، فذهب الصيد

(١) الفئاع كرمان : شراب سمي بذلك لما يرتفع في رأسه من الزبد ونبات إذا يس
ملب صار كالأفرون .

والروم والمغاربة ، وأوقعوا النار في أطراف البلد ، واستمرت الحرب بينهم وبين المصريين ثلاثة أيام . وكان الحاكم يركب كل يوم إلى القرافة ويشاهد النار من الجبل ويسأل عن ذلك ، فيقال له : العبيد يحرقون مصر فيلعنهم ثم أندرت كتامة والأتراك بأنهم يستنفرون العرب ويحرقون القاهرة إذا لم يكفهم ، فركب حماره ، ووقف بين الصفين ، وأشار إلى العبيد بالانصراف فانصرفوا .

واحترق ثلث مصر ونهب نصفها ، ثم تتبع المصريون من أخذ أزواجهم وبناتهم وأخواتهم وابتاعوهن من العبيد بعد أن فضحوهن ، وقتل بعضهن نفوسهن خوفاً من العار .

وفي سنة ٤٤٨ هـ أصاب مصر والشام ما أصاب غيرها من القحط والوباء حتى أكل الناس الميتة وبلغت الرمانة والفرجة ديناراً ، وكذا الحبارة والينوفرة^(١) وانقطع ماء النيل .

هذا غيض من فيض مما كان يعانيه أهل الأمصار المذكورة من أحكام الطبيعة العاتية . أما ما كانوا يقاسونه من جور الحكام واستنفاذ الأموال وذهاب الكثير منها بين الحرق والنهب وغير ذلك فما لا يحيط به وصف . وقد قدمنا ذكر شيء من هذا السبل وسيأتي ذكر شيء آخر منه . ومن طبيعة هذه العوامل أن توقع الناس في ضنك وفاقة وشظف . وعلى هذا يمكن أن يقال : إن الحياة الاقتصادية في العهد الذي أظلمت أياه العلاء كانت على أسوأ حالة ، وقد أثرت في نفسه أثراً بيناً في شعره حين يتصدى لذكر المال وأعمال الملوك والولاة وتطاولهم على أموال الرعية وإسرافهم في النهب والسلب وأخذ المكوس وما شاكل ذلك . وكونت في نفس

(١) كذا في الأصل ولها البيلوفرة ؛ وهي نوع من الرمرميت في اللياء يستعمل في الدواء .

أي العلاء رايًا في تقسيم الثروة حين رأى الناس بين غني وموسر وضمير
معر ومتوسط بينها ، فأحب أن يشترك الناس في النعمة ، وحض على
الزكاة والوصية والرأفة بالمعدم على نحو ما سنذكره في فلسفته وفي مباحث
أخرى وذلك مثل قوله (١) :

كَذَلِكَ مَجْرَى الرِّزْقِ وَادِبْلَانْدَى ووادٍ به فيضٌ وآخر ذو حفرٍ
ومنه :

يعاني مقيمٌ بالعراقِ وفارسٍ وبالشامِ ما لم يلقه ساكنُ القفرِ
وقوله (٢) :

يَأْقُوتُ مَا أَنتَ يَا قُوتٌ وَلَا ذَهَبٌ فكيف تُعْجِزُ أَقْوَامًا مَسَاكِينًا...
وقوله (٣) :

لَقَدْ جَاءَنَا هَذَا الشِّتَاءُ وَتَحْتَهُ فقيرٌ معرّيٌ أو أميرٌ مُدَوِّجٌ
وقد يُرْزَقُ الْمَجْدُودُ أَقْوَاتُ أُمَةٍ ويُحرَمُ قُوتًا وَاحِدٌ وَهُوَ أَحْوَجُ
ومثل قوله (٤) :

فَأَطْعِمِ مَنْ عَرَاكَ وَلَوْ كَظْفَرٍ

(١) الزوبيات ٥ ص ١٤٧ .

(٢) الزوبيات ٥ ص ٢٦٧ .

(٣) الزوبيات ٥ ص ٧٣ والألواج كرمان وغراب : الحاف الذي يُلبَس .

(٤) الزوبيات ٥ ص ١٥٥ وصره : إذا أوتيتَ ملةً يتر طاماً .

وقوله (١) :

أَغَثْتُ لِهَيْفَهُ بِالْمُسْتَدَفِّ ..

يدل على أن لهذا القدر القليل شأنًا كبيراً في زمن الشدائد ، وقد قدمنا ذكر طائفة منها ، اضطرت الناس إلى أن يأكلوا الإنسان والحيوان حباً وميتاً .

الحياة الربيفية في عصر أبي العلاء

ظهر الإسلام في الحجاز بظهور النبي ﷺ ، وكان الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، رغبة في الدين وطعاً فيما أعدّه الله للمؤمنين من الثواب ، حتى كان الرجل يغامر بنفسه في الحرب لينال الشهادة ، رغبة في ثوابها . وكان جمهور المسلمين في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، يقتنعون بفهم ظاهر الآيات والأحاديث ، ولا ينتظمون في دراسة ما نشأه منها ، وغاية العالم منهم أن يستنبط شيئاً من الأحكام منها بقدر ما كانت تدعو الحاجة إليه . وكان المسلمون عامة يرجعون فيها أغلق عليهم فيه من الكتاب أو السنة إلى النبي ﷺ مدة حياته ، وإلى الصحابة وفقهائهم من بعده . كما يرجعون إليهم فيها استعصت عليهم معرفته من الأحكام الشرعية .

ظهور الزندقة والخلاف في العقائد

ثم لما قتل عثمان رضي الله عنه وقامت خلافة بني أمية على غير إجماع من المسلمين ، انقسم المسلمون إلى فرق ثلاث ؛ إحداها مع علي ، والثانية

(١) القرويات ٨ ص ٢٩٥ وصره : إذا وَرَدَ الفقير على احتياجي ، والمستدف : المكن والندف .

مع معارضة ، والثالثة أمسكت عن الفريقين ، وهي أقلها ، ثم اندمج أكثرها مع إحداهما ، وانقسم أصحاب عليّ على أنفسهم في حياته ، فخرج عليه فريق منهم .

وكان امتزاج العرب بغيرهم من الأمم التي خضعت لسلطانهم آخذاً في الازدياد ، وفي هؤلاء من لم يكن راضياً عن بقاء السلطان في العرب ، ولم يستطع انتزاعه منهم بالقوة ، فعد إلى تمزيق الوحدة العربية من طريق الدين وبواسطة ترجمة كتب الأديان المختلفة وكتب الزنادقة والمُجَّان ونشرها بين الدماء . وقد فسح بنو أمية المجال للمناظرة في العقائد والمجاهرة بها ، كما رأينا ذلك فيها وقع بين الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ ، وداود بن عطاء من رؤوس المعتزلة المتوفى ١٣١ هـ حين اعتزل مجلس الحسن ، وضم إليه نقرأ يقرر لهم النزلة بين المذلتين ، كعمرو بن عبيد وغيره . وكذلك فقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد ينهم بالزندقة كما اتهم بها الوليد ، ومروان بن محمد يشايح الجعد بن درهم على زندقته وعقيدته حتى نسب إليه ، فقبل : مروان الجعدي ، وكان مؤدباً له ولولده وكان خالد بن عبد الله القسري يُمنى بالمانوية كثيراً ، وكان يرمى بالزندقة .

ثم لما قامت الدولة العباسية اتسع الحرق على الراقع ، لأن امتزاج العرب بغيرهم من الأعاجم بلغ أقصى غايته ، فقد ألقى العباسيون حبل كلٍّ على غارب في البحث ، فجاهر الناس بما تكنه صدورهم من التزيغ والانحراف ، ولما ترجمت كتب الفلسفة والعقائد وغيرهما ، زاد ذلك الزنادقة والملاحدين ضئلاً على إتهامه ، وأخذ أعداء الاسلام والعرب ينفون الضعفاء بما يلبسون عليهم من أمور دينهم ، ويلقون حبال الشبه والشكوك ليقعوا فيها الدماء ، فيتكفوا من تمزيق الوحدة الاسلامية وإضعاف

القوة العربية ، فكانوا يتقنون عن المتناقض من الحديث والمثابه من القرآن ، ويشغّبون على اللويّ ويلبّسون على الضعيف ، ثم أخذوا ينشرون كتب المرقونية (١) والدّيسانية (٢) والمانيّة (٣) وغيرها من الفرق الزائفة بين أيدي المسلمين على أيدي جماعة من العجم والعرب ، من محروس ونصاري وإسلام زنادقة من أرباب المجاعة وغيرهم .

وقد اشتهر جماعة منهم بالعراق ، منهم حماد عجرد (٤) وبشار بن برد (٥)

-
- (١) المرقونية : طائفة من النصاري زعمت أن الأصلين القديمين هما النور والظلمة ، وأن كوناً ثالثاً مزجها ، واختلقوا فيه ثقبيل هو الحياة ، وثقبيل عيسى [ص] ، وقيل عيسى رسول الله وقالوا يتزبه الله عن الشرور ، وأن خلق جميع الأشياء ضرر . (ج)
- (٢) الديسانية : أصحاب ديسان ، أثبتوا أصلين : النور والظلام ، فالنور يعمل الخير قصداً واختياراً ، والشر يعمل طبعاً واضطراباً ، فالخير والنفع والحسن والطيب من النور ، والشر والضرر والقبح والفتن من الشر . والظلام ميت جاهل عاجز جاد لا فعل له ولا تغيير ، وقد ظهر ديسان بعد سرفيون بنحو ثلاثين سنة . (ج)
- (٢) المانيّة : نسبة إلى ماني ، وهذا ظهر بعد سرفيون بنحو مائة سنة ، وظهر ديسان بعد سرفيون بنحو ثلاثين سنة كما قدما ، وزعم أنه الفارقيط الذي بشر به عيسى واستخرج مذهبه من المجوسية والصراية ، وقد قال : مبدأ العالم كونان ؛ نور وظلمة ، وكل منهما منفصل عن الآخر ، فالنور هو العظيم الأول ، وهو الإله ملك جنات النور وله خمسة أعضاء ، والظلمة له أعضاء أيضاً ، وإذا أردت إيضاح هذا فالتسه في (الملل والنحل) للشهرستاني ، و (فهرست) ابن النديم وكتب القائل . (ج)

(٤) هو حماد بن عمر بن يونس المروفي عجرد ، نادم الوليد بن يزيد الأموي وقدم بغداد أيام المهدي وبينه وبين بشار أمّاج مفضقة توفي سنة ١٦١ هـ . (ج)

(٥) بشار بن برد البجلي ، أشهر المولّدين ومخضرم الدولتين ، ولد سنة ٩٥ هـ ، وكان شاعراً راجزاً سجعاً خطيباً ، قتل على الزندقة في البصرة سنة ١٦٧ هـ . (ج)

ويونس بن فروة^(١) وأشباههم وكان خلفاء بني العباس لا يهلون معاقبة هذه الفئة ، فكانوا كما قال الجاحظ بين مقتول وهارب ومناق . وقد نجم عن هذا ان السليين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً في أهوائهم ، حتى بلغ عدد الفرق أكثر من سبعين ، ما بين معتزلية وشيعية وجبرية ومرجئة وأهابية وغيرها . وأن الناس نهانوا بأمر الحلال والحرام ، وأخذوا بالفاسد من الأخلاق ، واستباحوا إنباك المحارم ، فكان ذلك جناية على الدين والأخلاق معاً .

ثم أخذ المعتزلة يرتبون أفرامهم وأدلتهم على أسلوب المناطقة والحكام ، فاضطر السنيون إلى محاربتهم بمثل هذا السلاح ، وجرى مجرام غيرهم من من الفرق الأخرى . وانتظم أمر الجدل واتخذت له قواعد وآداب للبحث ، وعقدت له مجالس يشهدا صفوة الصفوة من علماء كل فريق . وكان الخلفاء كثيراً ما يشايعون فريقاً وينصرونه على غيره ، فتناقم أمر الخلاف واستطار ثره ، حتى انقلب إلى فتن وحروب واستباحة كل فريق دم الآخر وماله وعرضه ، وتفرع عن هذه الفرق فرق أخرى استنفوت بعقائدها فريقاً من الدهماء ، واتخذت منهم عدة لاشباع نهبها ، والانتقام من خصومها .

ثم لما أخذ أمر العباسيين يضعف ، منذ منتصف القرن الثالث ، جاهر بعض الفرق بعقائدهم ، وجردوا السيف على خصومهم ، فأغاروا على البلاد الآمنة الطمينة ، فنهبوا أموالها واستحبوا نساءها ، وخربوا كل عامر فيها ، وزاد فريق منهم ، فتصدى للاستخفاف بأعظم ما يقدره المسلمون من شعائرهم .

(١) كنا في الأصل والصواب: ابن أبي . وهو يونس بن محمد بن كيسان (الملقب بأبي فروة) كاتب مترنق ، عمل كاتباً للأمير العباسي (عيسى بن موسى) وخالط ابن الفصح ، ووالبة بن الحباب ، وبناراً ، وحاداً الراوية وغيرهم ، توفي نحو سنة ١٥٠ هـ .

فهؤلاء القرامطة أغاروا على بلاد العراق ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، واستباحوا كل محرم فيها ، ولم تسلم الشام ولا مصر من شرورهم ، وتعدى تطاولهم وأذاهم إلى بيت الله الحرام ، فقتلوا الحُجُجَاجَ وسلبوا أموالهم ، وأخذوا الحُجُجَ الأسود إلى بلادهم ، وقد لقيت البلاد منهم قتلًا التهمت الأخضر واليابس ، حتى أباد الله خضراءهم .

وكذلك الاسماعيلية ، اتخذوا معازل في بلاد الفرس ومصر ، والإباضية أقاموا دولة في جبال البربر ، وفعل كل فريق منهم الأفاعيل في البلاد التي كانوا يقطنون بها أو يجاورونها .

ومن رجع إلى التاريخ ، رأى عجائب من الفظائع والفتن التي وقعت بين الشيعة وأهل السنة في العراق ، وبين الحنابلة والشافعية ، وبين الحنابلة والحنفية ، حتى هُدم أكثر بغداد ، وأحرق كثير من الأموال والمساكن ، ومنبت البلاد بضروب من البلايا ذهبت بحضارتها ورونتها ، وأضعفت الأمة ، حتى استطاع التتار أن يخضع شوكتها ويذهب بسلطانها في وقت قصير وعمل قليل . ومن المؤسف جداً أن تكون كل هذه الأعمال باسم الدين ، وعلى حساب الدين .

وهذا على ما فيه من شر ، يدل على أن علم الكلام والجدل فضجا في هذا العهد ، وتعدى الحياة العلمية ، إلى الحياة العملية ، فكان له ما كان من الأثر الذي أُلغى إليه . وكذلك غيرها من العلوم اللسانية والعلمية والدينية ، فقد بلغ كل منها الغاية القصوى من الازدهار . ونبغ في كل علم طائفة كبيرة كانوا معتصبين بحبل الدين ، فكانوا يذودون عن حياضه ، ويدفعون عنه مزاعم أهل الزيغ وشبه الزنادقة والملحدين . وزعم بعض المتأخرين أن بعض علماء المسلمين اظلموا على مذاهب الهند واليونان وما

فيها من الآراء المتعلقة بوحدة الوجود - أي اتحاد الموجد والموجود في نفسه ، وإن اختلفا في الاعتبار - وعلى الأقوال المتعلقة بتهديب النفس وإبعادها عن عالم المادة وما يتصل به حتى تتصل بخالقها . وأضافوا إلى ذلك شيئاً من الدين الإسلامي يتلاءم مع تلك الآراء ، فتكون المذهب الصوفي وأخذ به جماعة من المسلمين ، فمنهم من غلا فيه حتى تجاوز حدود الدين ، ومنهم من سلك سبيل القصد كالجُنَيْدِ وأمثاله . ثم تفرعت من كل فرقة فرقة ، وجعلت كل واحدة لنفسها شريعةً ومنهاجاً ، تخالف غيرها في الفروع وتوافقها ، ثم نشأت منها فرق تخالف غيرها في بعض الأصول ، ونوسع فريق في تأويل الكتاب العزيز والسنة الشريفة التي جعلتها مطابقة لما يذهب إليه ، وسبأني شيء بوضع هذا المقال .

وصفة القول أن علوم الدين في هذا العهد تم نضجها وتعددت فنونها ، وأن المسلمين تعددت فرقهم واختلفت نحلهم وتباينت مناهجهم وتنوعت مذاهبهم في الكلام والفقه . فكان فيهم الورع والصالح والزاهد والأشعري والماتريدي والمعتزلي والشيعة والحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والصوفي ونحو ذلك من الفرق الملمة ، وكان فيهم الزنديق والملحد والمارق والشاك ومن لف لفهم . وأن غير المسلمين وبعض المسلمين كانوا يكيدون للإسلام ، وأن في الولاة والحكام والخلفاء من كان يعني بالدين ، وأكثرهم كان يتخذ الدين وسيلةً للدنيا ، فلا ينظر إليه إلا من الجهة التي يتخذ منها سبيلاً إلى مال يسلبه أو عِرْض يستبيحه أو خصم يذقم منه ، أو ما أشبه هذا من الأمور التي تعود إلى حظوظه النفسية وشهواته الحيوانية .

وقد أثرت هذه الحياة المختلفة الألوان في أبي العلاء ، وأثارت حفيظته حتى ضاق ذرعاً بالناس واغتمد ما تركوه من الآثار العلمية مملاً غير خالص

له ، وإنما أراد به أصحابه التنافس في الدنيا أو جذبها إلى الرؤساء ،
ورأى أن رؤساء الفرق يزلون بأصحابهم ، واشتدت ثقته على التصوفة
والقراطة وأصحاب مذهب الحلول ، حتى سمعنا مثل قوله :

لولا التنافس في الدنيا لما وجدت كتب التناظر لا المغني ولا العمدة^(١)

. . .

إنما هذه المذاهب أسباب تجذب الدنيا إلى الرؤساء^(٢)

. . .

شهدت بأن ابن المعلم هازل بأصحابه والباقلاني أهزل^(٣)

. . .

نحن قطنيّة ، وصوفيّة أنتم فقطني من التجمّل قطني...^(٤)

. . .

ودين مكة طاو عنا أئمتّه عسرافما بالدين جاء من هجرا^(٥)

وستأتي جملة من أقواله في هذا الباب . وقد نشأ في هذا العهد غلاة
من بعض الفرق ، فكان بعضهم ينال من مخالفه ويتطاول عليه بالتدفع

(١) الزوايات ص ٩٢ .

(٢) الزوايات ص ٢٦ .

(٣) الزوايات ص ١٩٥ ، وفيها « وأعلم أن » .

(٤) الزوايات ص ٢٨١ ، قطني بالفتح : أي حني ، بكفي .

(٥) الزوايات ص ١٤٠ .

والطعن . ومنهم من تعدى ذلك إلى القدح في رؤساء الفرق ، ومنهم من تجاوز هذا ، حتى قال الذهبي : وفي هذا الزمان كانت البدع والآهواء فاشية ببغداد ومصر من الرفض والاعتزال والضلال . وقد فر صاحب (النجوم الزاهرة) قول الذهبي ببغداد ، انه أراد ما كان بسبب عضد الدولة ، فإنه كان ينشع ويكرم جانب الرافضة ، ومصر ما كان يظهره خلفاء بني عبيد من الرفض وسب الصحابة ، وكذلك أعوانهم وعملائهم .



الحياة الاجتماعية

لا تكون الصلات بين أفراد الأمة حسنة ، والروابط محكمة ، إلا إذا هيمن عليها الوازع الديني ، وخشيت بأس الوازع الدنيوي ، وهو السلطان ومن يقوم مقامه في نشر العدل والأمن وإحقاق الحق ونصرة الضعيف والضرب على أيدي العابثين بالشرائع والنظم والعائين في الأرض فساداً ، وكان بعد ذلك كل فرد يتنع بنصيب من الحياة الاقتصادية لا ينتزعه منه متغلب ، ولا يمنعه منه منسلط ، فإذا توفرت هذه العوامل ، وأتبع للأمة ان يقوم فيها من 'يرشد'ها إلى الأخلاق الفاضلة ، عاشت عيشة راضية واستقامت أمورها واستفاضت فيها مكارم الأخلاق والجبايا المروية ، وأصبحت كلها كالجمد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وفيا أسلفنا برهان واضح على اختلال الحياة السياسية وضعف الوازع الديني وفساد النظام الاقتصادي ، ومن مقتضيات هذه الأمور أن تسود الفوضى في كل محل ، ويضطرب جبل الأمن ، وتفكك عرى الحبة ، ويعم التدابر والتقاطع ، وتشرتب اعناق المطامع ، فيسمى كل فرد إلى انتزاع ما في يد غيره من سلطات ونعمة ولو أدنى ذلك إلى محوه من صحيفة الوجود .

ومن رجع إلى التاريخ ، في المهد الذي أظل أبا العلاء ، يجد عبراً من تكالب الملوك وتقائهم في سبيل الملك ، حتى أن الرجل يحارب حمية أو يقتله ، ويثور على سيده وبمالي أعداءه عليه ، ليخلقه في سلطانه .

وهذا عضد الدولة ، أخرج ابن عمه مجتبار من الملك بالحيلة أولاً وبالقوة ثانياً . وشرف الدولة ، اعتقل أخاه بعد أن جاءه مستأمناً ، ثم سجنه وسمل عينه . وقد تغلب فرعونة على مولاة سعد الدولة ، ثم تغلب بكجور على فرعونة ، وتغلب لؤلؤ وابنه على أبي الفضائل وابنيه ، واستعان لؤلؤ بالروم لمحاربة المصريين ، وصت الملك انتدبت ابن دواس لقتل أخيها الحاكم ، ثم قتله وقتلت ولي العهد .

وهناك ألوف من الأمور المنكرة والفظائع التي كانت تقع في بيوت الخلافة والملك والإمارة ونحوها في الأصقاع عامة . ولا شك أن الحكام صرورة مصفرة عن الأمم التي يحكمونها ، لأن الحاكم فرد منها ينطوي على كثير مما تنطوي عليه من خصائص وسجايها في كل عصر ومصر ، فينبها تشابه قوي على نحو ما جاء في الآثار النبوية من مثل قوله (ﷺ) : (أعمالكم عمالكم . وكما تكونوا بولي عليكم ^(١)) . ولم تكن هذه الحال الذميمة منحصرة في الأمر المالكة فحسب ، بل كانت الأمة كلها تطبع على غرار واحد ، ولولم تكن أواصر المحبة فيها رامية وعرى الأخلاق مفككة ، لا لبث كل داع وتبع كل فاعب . ولكن تمكن من قلوبها افتراق الكلمة ، وزين لها الثورة على كل سلطة وكره الحاكم الحاضر وحب الجديد ، فكانت لاتسمع بتغلب خرج على السلطان إلا ودخلت في طاعته ولو كان صعلوكاً أو عبداً مملوكاً .

(١) روى الطبراني عن كعب الأحبار أنه سمع رجلاً يدعو على الحجاج ، فقال : لاتصل ، إنكم من أقصم أئمة ، فقد روي : أعمالكم عمالكم وكما تكونوا بولي عليكم ، وروى قوله كما تكونوا . على هذا الوجه : كما تكونون كذلك يؤمر عليكم . وقد نظر العلماء في هذا الحديث بجميع رواياته ورأوا أنه ليس صحيح ، وإن روى بضه الديلمي والبيهقي وابن جبير والقضاءي . (ج)

وقد ذكر ابن الأثير وصاحب (النجوم الزاهرة) أن العزيز العلوي خرج عليه رجل يقال له قسام الحارثي ، وهو من قرية تليفينا من قرى جبل سنير ، كان ينقل التراب على الخيل ، وكان شجاعاً . وقبل كان من العبّارين ، فتغلب على دمشق حتى لم يبق لنواب العزيز معه حكم ، فسير إليه العزيز جيشاً مع قائد اسمه الفضل فلم يظفر به فعاد عنه . ثم سير سليمان ابن جعفر بن فلاح ، فقتل بظاهر دمشق ، ثم أخرجه أصحاب قسام وقتلوه ، ثم أرسل إليه بلسكين أو تكين فأخرجه .

ولفساد الحياة الاجتماعية في هذا العصر أسباب كثيرة من أعظمها :

١ - تولي الأعاجم على العرب ، فقد كان المسيطر منهم لا يبالي أفسدت أخلاق الأمة أم صلت ، وإغناهم مال ينهب وعرض يستبيح وسلطان ييسطه من أي طريق كان وبأية وسيلة كانت ، ومنهم من كان يسمى لإفساد الحياة الاجتماعية حتى يسهل عليه التوصل إلى ما يريد ، ولا يجد من ينكر عليه ، وأعوان الضلال أكثر من أعوان الهدى .

٢ - توسيد الأمور إلى الغرهاء من البلاد ، فإن الصيدين كانوا يتخذون ولاية على دمشق وحلب وغيرهما من المقادير أو الترك أو الروم ، ويتخذون القواد والأمراء وذوي الكرامة النافذة من هؤلاء الذين يؤثرون مصالحهم الخاصة على مصلحة الدولة ، أو من أمثالهم ممن لا يهمهم خراب البلاد وموت أهلها من الجوع أو الحرب إذا مرت خزائهم بالأموال ، وامتألت بطونهم بالطعام الطيب والشراب اللذيذ ، وقضوا أوطارهم من الملاذ والشهوات ، وكان أحدهم يتصرف بالناس تصرف للتاجر بسلعته ، ويبدل في سبيل الوصول إلى غاياته الحسية ما عز وهان ، ويتجرد عن كل خلق إنساني لأجل ذلك ، وربما رآه غيره فاستهان بما استهان به صاحبه ليصل إلى ما وصل إليه ، وهذا شأن من تولى العراق من الأعاجم .

جا (٩)

٣- كثرة الجواري الحسان ورخص أثمانهن ، فكان العربي يجمع الكثير منهن لقضاء شهوته ، وبدع أمر كل واحد من بنيه إلى أمه فهي تنشئه كما نشأه ، وتقديره من طباعها وأهراقها وتزعمها كما نهوى ، فيكون هذا فارسي التزعة كأنه وذلك تركياً والثالث هندياً والرابع روميّاً والخامس عريشاً وهكذا . وربما كان الولد لا يجد من العطف على أخيه من أبيه ما يجده من العطف على حقيقته . والحلاصة أن البيت الواحد كان يضم أهواء مختلفة وتزعات متباينة ، ويفقد كل أسرة من أواصر المحبة التي يجب أن تكون بين الإخوة ، وكثيراً ما تحقد المرأة على زوجها بله إلى ضررتها ، فتشئ أولادها على كره أبيهم وأولادهم وزوجاتهم فيكون أعدى عدو لأبيه وإخوته منه . وكثيراً ما هان على الأخ قتل أخيه في سبب تافه .

٤- كثرة الغلمان ، فقد كانت ولاية الأعاجم المختلفة تهدي إلى الخلفاء والأمراء الوصائف والوصفاء ، تنخيرهم من ذوي الجمال الرائع ، وتبعث بهم وبين زرافات ووحدا ، والخلفاء والأمراء يصطفون لأنفسهم خيرة الخيرة منهم ، ثم يهون ما زاد عن حاجتهم إلى غيرهم . وكانت هؤلاء الجواري والغلمان أقتل من السم ، لأنهم كانوا ينقلون إلى الأمة العربية ما عند أمهم من الأخلاق الفاسدة والأممال المنكرة ، ففتت في الأمة العربية بسببهم الدعارة والحلاعة والجهانة والعهر واللواط وما أشبه ذلك من الأخلاق السيئة ، فازداد العرب بذلك ضعفاً على إهالة . وكان أكثر العمال يقلدون هؤلاء الغلمان أعمالهم العظيمة ، ويمنحونهم من السلطة أعظم ما لديهم ، فكانوا لا يجعون عن منكر ولا يتورعون عن قبيح ، ويستخفون بالأعراض ويستبحرن الأموال ، وفيهم من دُرّب وعلم في بلاده ليكون أداة شرّ في البلاد العربية ، ومن كان على شاكلة هؤلاء وارتقى إلى الولاية بمثل ما ارتقوا

لا ينتظر منه أن يصلح المجتمع ويجذبه لأن ذلك مخالف لفشانه وجبته ، ولا ينكر عليه أن ينزع الملك والنعمة من سيده ولا أن يقتله ويسجنه أو يشرده . ثم بعد حين يعد في رجالات العرب وتجل أعماله النظيفة في حساب العرب .

٥ - تعدد الزوجات لاسيما غير العريسات ، فقد دلت الحوادث التاريخية على أن الرجل قد نكون نزعته إلى أخواله أشد من نزعته إلى أعمامه ، بسبب تعليم أمه وإعمال أبيه تربيتهم ، حتى لا يثقل بمعاذاة عمه لمرأته خاله . على أن الرجل لا يستطيع أن يعدل بين النساء ، ولا أن يجمع بين رضاهن جميعاً ، ومتى فسد رأيه في واحدة أو آثر عليها تنكرت له واستفرت ماعندها من كيد واذى ، وغيرت قلب ولده عليه حتى تصبح الأسرة الواحدة في البيت الواحد متقسمة على أنفسها مضطفتاً بعضها على بعض ، وفي قلب كل ولد من الحقد والبغض لمن تبغضه أمه ما لا يحسد ، وربما خاتته في أعز شيء عليه نكابة له أو جرباً مع شواتها اللاتي لم يوفها حقها منها ، ونحو ذلك من الأعمال التي أشار إليها أبو العلاء في كلامه .

٦ - جور الحكام والخوف من ظلمهم ، فإن ذلك يحمل الناس على الخنوع والكذب والتفاق ومجاوزة حدود الدين والمروءة والأدب اقتداءً لشرم أو للتخلص منه أو ابتغاء لمرضايتهم .

وهناك كثير من الأسباب والعلل ، فإذا أضفنا هذا إلى ما تقدم من فساد السياسة وضعف الدين هان علينا أن نرى الأخلاق في هذا المهد بلغت من الفساد والانحطاط إلى أسفل الدرجات . ولو أردنا أن نستقي الناجية الخلفية لأنفسنا بنا ذلك إلى الإطئاب المل ، وحببنا أن نسمع من أبي العلاء شيئاً من أخلاق أهل عصره كقوله :

وَجُومُكُمْ كَلْفٌ وَأَفْوَاهُكُمْ عِدَى وَأَكْبَادُكُمْ سَوْدٌ وَأَعْيُنُكُمْ زُرْقٌ^(١)

. . .

سَجَايَا كُلُّهَا غَدَرٌ وَخُبْنٌ تَوَارَثَهَا أَنَسٌ عَنْ أَنَسٍ^(٢)

. . .

فَأَمِيرُهُمْ نَالُ الْإِمَارَةِ بِالْخَنَا وَتَقِيَّتُهُمْ بِصَلَاتِهِ يَتَصَيَّدُ^(٣)

. . .

أُنَافِقُ فِي الْحَيَاةِ كَفَعْلٍ غَيْرِي وَكُلُّ النَّاسِ شَائِبُهُمُ النَّفَاقُ^(٤)

. . .

قَدْ أَعْرَسَتْ عِرْسُ الْأَمِيرِ بِتَابِعٍ ضَرَعَ فَأَيْنَ حَلِيلُهَا الْمِغْيَارُ^(٥)

. . .

واعتاضَ حِلَّ النِّكَاحِ قَوْمٌ بِنِسْوَةٍ مَالِهَا مُهُورٌ^(٦)

. . .

(١) الروميان ٥ ص ٢٩٨ ، والكُلْفُ : ج أَكْلَفَ وهو من علت وجهه حمرة كديرة .

(٢) الروميان ٥ ص ٣٢٢ .

(٣) ، ، ٩٧ وفيها د تصيد .

(٤) ، ، ٣٠٠ .

(٥) ، ، ١٣١ .

(٦) ، ، ١٢٤ .

قَوْمٌ سُوءٌ فَالشَّبَلُ مِنْهُمْ يَغُولُ اللَّـيْثُ فَزَسَاوَالِئِثُ يَأْكُلُ شِبْلَهُ^(١)

• • •

وَبِيعَتِ بِالْفُلُوسِ لِكُلِّ خِزْيٍ وَجَوْهٌ كَالِدَنَانِيرِ الْحَسَنِ^(٢)

• • •

وَلِحُبِّ الصَّحِيحِ آثَرَتِ الرُّؤْيُ مُمْ اتَّسَابَ الْفَتَى إِلَى أُمِّهِ^(٣)...

ونحو ذلك من الأبيات الآتية في الناس ، والسياسة والأخلاق ، التي تدل على أن هذا العصر 'فقد فيه الفاعل والصادق والقي والجميل والوفى والطاهر والمخلص والكريم والعالم العامل .

★ ★ ★

(١) اللزوميات ٤ ٨ ٢٠٩ .

(٢) اللزوميات ٢٧٩ ٠٨ .

(٣) ٧٠ ٤ ٤ .

الحياة العقلية

لم يمر على الأمة العربية عصر كانت الحياة العقلية فيه والتهفة الفكرية أشد ازدهاراً بما وصلت إليه في العصر العباسي عامة وفي هذا العصر خاصة ، فقد استبحرت فيه العلوم ، ونضجت العقول ، واجتنت الأمة العربية فيه أطيب الثمرات التي غرست نواتها فيه وفي العصر الذي قبله ، وقد أثرت في هذه الحياة عوامل كثيرة كان لها أبلغ الأثر في إيقاظ الشعور وتنمية العقل وإرهاق الذهن وتلطيف الذوق . منها تنافس بعض الملوك في ترقية العلم وتقوية العقل ، وعناية بعضهم برفع المستوى العقلي ، فكانوا يقربون العلماء والأدباء ويتخذون المكاتب الحافلة بأنواع الكتب ، ويصطفون خالصاً لهم من حملة العلم ويـبغون عليهم نعماً إضافية ، فأخذ الناس يجتهدون في التعلم والتعليم والتأليف حتى امتلأت الخزائن العربية بالكتب المتنوعة من كل فن من فنون العلم التي اهتدى إليها العقل البشري في ذلك العهد .

واطلع العلماء على ثقافات الأمم وتنخلوا منها ما يلائم دينهم ولقمتهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم صهروا ذلك في بوتقة الإسلام وصبغوه بالصبغة العربية ، فخرج عربي النشأة والصبغة ، ولو شاء العرب أن ينسبوا أكثر المسائل من تلك العلوم وكثيراً من العلوم إليهم لجاز ذلك على كثير من الناس ، ولكنهم لم يجحدوا فضل أمة من الأمم كان لها أثر عمود في العلم فعزوا كل شيء إلى مصدره ، وإن هم نقوه وهذبوه وصحروه وأنموه . وادخروه إلى الأجيال التي تأتي من بعدهم .

أنواع العلوم

أما العلوم التي اشتهلوا بها فكثيرة ، ولكن كان اهتمامهم ببعضها أشد منه ببعض آخر ، فمن ذلك :

الخط

علم الخط : وقد نبغ في هذا العصر والذي قبله طائفة جودوا الخط واقتنوا في أنواعه ووضعوا له أصولاً وقواعد . منهم الوزير أبو علي محمد بن مقلة المتوفى سنة ٢٢٨ هـ . وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ، وقد أخذ عن الوزير ابن مقلة أبو عبد الله محمد بن أسد القاري المتوفى سنة ٤١٠ هـ ، وأخذ عن ابن أسد أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المتوفى سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن في المتقدمين والمتأخرين من كتب مثله أو قاربه ، وهو الذي هذب طريقة ابن مقلة ونقحها ، وإليه انتهت الغاية . وقد ذكره أبو العلاء بقوله :

ولاحَ هِلَالٌ مِثْلُ نُونٍ أَجَادَهَا بجاري النصارِ الكاتبُ ابنُ هلالٍ^(١)
ولابن هلال قصيدة رائية في علم الخط استقصى فيها أدواته .

الفرائد والنجوم

ما عنت أمة من الأمم بكتاب بقدر ما عني الملون بالقرآن الكريم ، فانهم استفرغوا كل مجهود في ضبط روايت وتفسير غريبه وإيضاح معانيه ومقاصده ، وألفوا كتباً كثيرة في عدد حروفه وآياته ، وبيان الناصخ

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٢ ، والنصار : الذهب .

والمسوخ منه وأسباب نزول آياته وما نزل منه في مكة والمدينة ،
ومواطن الفصل والوقف والابتداء والمد فيه ، وتحقيق مخارج حروفه
وإعرابه ، ولم يدعوا شيئاً يتعلق به إلا أفردوه بتأليف متعددة .

وحسبك أن تقرأ الفن الثالث من المقالة الأولى من كتاب (الفهرست)
لابن النديم . و (الإتيان في أحكام القرآن) للسيوطي ، و (منار الهدى في
بيان الوقف والابتداء) لأحمد بن محمد الأشموني ، و (المرشد في الوقف
والابتداء) لأحمد بن علي الهادي ، و (المقصد لتلخيص ما في المرشد)
لذكرى الأنصاري ، و (النشر في القراءات العشر) لابن الجوزي ، و (إتحاف
فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر) للشيخ أحمد الدباطي البنا ، و (شرح
الشاطبية) لابن القاصح . و (المنع في معرفة مرسوم معاصف أهل الأمصار)
لأبي عمرو الداني . وكتاب (الشكل والنقط) له . فإن في هذه الكتب
ما يدل على مقدار ما بذله المتقدمون من العناية بالقرآن الكريم ، وعلى مقدار
تقنتهم في التأليف . وقد جعلوا الكلام فيه على أنواع : فما يتعلق بإعطاء كل
حرف حقه وترتيبه ، ورده إلى مخرجه وأصله وتلطيف النطق به على كمال
هيئته من غير إصراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف يسونه « التجويد » ،
وهو حلية القرآن . وما يبحث فيه عن كيفية النطق بالفاظ القرآن ومدلولاتها
وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التركيبية يسونه : « التفسير والتأويل » ،
وقبل : التفسير توضيح معنى الآية ومآلها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه
بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة . والتأويل صرف اللفظ الظاهر إلى معنى يحتمله
إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب والسنة ، مثل قوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ ، إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً ، وإن
أراد به إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلاً ، وقبل
غير ذلك .

وقد ألف المتقدمون كتباً كثيرة في غريب القرآن وجزاز القرآن ومعانيه ومشكله ولغانه وآياته وتفسيره وغير ذلك ، وكان العصر الذي أظلم أبا العلاء عصر تنافس في ذلك ، ونبغ فيه من المجتهدين في هذا العلم أبو عبد الله أحمد بن محمد الثعلبي المتوفى سنة ٢٧٤هـ ، وأبو الحسن علي بن أحمد الراحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ .

وقد نبغ فيها في المعرة طائفة واشتهر منهم أبو الحسين ابن علي بن الفضل بن جعفر بن الهذيل المتوفى سنة ٤٥٥هـ ، وسيأتي أن أبا العلاء قرأ القرآن بكثير من الروايات . وفي (رسالة الملائكة) و (لزوم ما لا يلزم) - شواهد وإشارات تدل على أنه كان عالماً بما وراء القراءات العشر .

الحديث

وكانت غلبة السليمن بأحاديث النبي (ﷺ) تلي عنايتهم بالقرآن الكريم ، فقد تجرد جماعة من الحفظ للثقاة الأعلام المتقدمين لبيان الحديث الصحيح من غيره ، ووضعوا كتباً للجرح والتعديل وعنوا بضبط الألفاظ وتفسير الغريب وشرح معاني الحديث وبيان ما فيه من المجاز ، وقسموا الحديث إلى أقسام بحسب المتن والإسناد ، وفي عصر أبي العلاء كان اهتمام العلماء بذلك لا يقل من سبقهم ، وسيأتي في « ثقافته » أسماء الذين نبغوا في عهده في المعرة وأسماء شيوخه الذين روى عنهم وبيان شأن الرواية .

الفقه

مر العلم بالأحكام الشرعية العلية المكتسب من أدلتها التفصيلية ، وقبل غير ذلك . وقد كان المسلمون يرجعون في معرفة الأحكام إلى القرآن الكريم والنبي (ﷺ) مدة حياته ، ثم إلى فقهاء الصحابة ، ثم التابعين فتعددت

بذلك مذاهب الفقهاء في آخر العهد الأموي وأول العهد العباسي . ثم اتفقت كلمة جمهور من المسلمين على ترجيح أربعة مذاهب على غيرها : مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، ومالك بن أنس الأصمعي المتوفى ١٧٩ هـ ، والشافعي محمد بن إدريس الهاشمي القرشي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وأحمد بن محمد بن حنبل المتوفى ٢٤١ هـ .

فاقتصرت الناس على هذه المذاهب الأربعة ، ونبغ في كل مذهب طائفة من الأعلام من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم في كل عصر . وكانت للناس عناية كبرى بدراسة الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية الفرعية ، لأن القضاء والفتوى كان على واحد من تلك المذاهب في كل صقع ، وكان الناس في عهد أبي العلاء يتنافسون في التفقه إمارعة في قضاء أو فتوى ، أو طلباً لرجحان في حظوة أو مناظرة أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية ، وكان فيهم فريق يتفقه لمعرفة الحلال والحرام وصحة الأعمال وبطلانها ، وقد نبغ في القرن الخامس جماعة من الفقهاء ، على مذهب الإمام الشافعي ، منهم أبو حامد أحمد بن محمد الأسفرائيني المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، وهو الذي كتب إليه أبو العلاء قصيدة في أمر الفينة كما سبأتي ، ومنهم أبو إسحق إبراهيم بن علي الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، ومنهم عبد الملك بن عبد الله إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ هـ .

ونبغ فريق من الفقهاء على مذهب أبي حنيفة ، منهم : أبو الحسين أحمد ابن محمد القدوري المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ، وأبو بكر محمد بن أحمد بن سهل الرخمي صاحب كتاب (المبسوط) المتوفى سنة ٤٨٣ هـ .

وأشهر في المعرة جماعة من الفقهاء في هذا العصر ، منهم أبو حمزة الحسن بن عبد الله التنوخي الذي رثاه أبو العلاء بدليته ، ومنهم أبو المحاسن الفضل بن محمد بن مسعر التنوخي الآتي ذكره .

أصول الفقه

ويتصل بعلم الفقه علم أصول الفقه ، وهو العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية ، وهذا العلم يتوقف على معرفة العلوم العربية ، وبعض العلوم الشرعية ، كأصول الكلام والتفسير والحديث وبعض العلوم العقلية كالمناطق ، وقد عني به المسلمون غناية كبرى ونبتغ فيه في القرن الرابع والخامس جماعة من الأئمة منهم : أبو بكر محمد بن علي القفال الكبير المتوفى سنة ٣٦٥ هـ ، وأبو بكر أحمد بن علي الجصاص المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، وأبو زبید عبد الله بن عمر الدبوسي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، وعلي بن محمد البزدوي المتوفى سنة ٤٨٢ هـ ، وشمس الأئمة الرخسي المتوفى سنة ٤٨٣ هـ .

اللغة

أول ما ابتدأ به علماء العرب في تدوين اللغة أنهم كانوا يضعون رسائل صغيرة في مواضيع خاصة ، كالرسائل التي وضعت في خلق الإنسان أو القوس أو الإبل ، وكرسالة الكرم أو النخل أو ما شابه ذلك . وأول من وضع كتاباً جامعاً في اللغة الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ هـ ، فإنه وضع كتاب (العين) ، ومات قبل أن ينه ، فأتمه بعض تلاميذه ، فجاء مضطرباً مختلاً ، ولم يسلم من النقد .

وقد استدرك عليه الفضل بن سلمة بن عامر المتوفى سنة ٢٥٠ هـ ،
وللفضل كتب كثيرة منها كتاب (البارع في اللغة) و (الفاخر فيما تلحن
به العامة) و (ما يحتاج إليه الكاتب) و (الرد على الحليل) في نقد
كتاب العين ، و (ضياء القلوب) في معاني القرآن و (الزرع والنبات) ، وغيرها .
ثم وضع أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ ،
كتاب (الجهرة في اللغة) ، وله كتب كثيرة منها : (الاشتقاق) و
(المقصور والمدود) و (الملاحن) و (صفة السرج والاجام) و (السحاب
والفيث) و (تقويم اللسان) و (اللغات) و (المجتنى) وغيرها .
ثم وضع إسحاق بن إبراهيم الفارابي خال الجوهري المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ،
(ديوان الأدب) .

ثم وضع أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم المتوفى سنة ٣٥٦ هـ كتاب
(البارع في اللغة) ، وله كتب كثيرة منها : (الأمالي والنوادر) ،
و (المقصور والمدود والمهوز) .

ثم وضع أبو منصور الأزهرى محمد بن أحمد بن الأزهر المتوفى سنة
٣٧٠ هـ كتاب (التهذيب في اللغة) . وله (غريب الألفاظ) التي استعملها
الفقهاء و (تفسير القرآن) .

ووضع خلال هذه المدة جماعة من أئمة اللغة كتباً في النوادر والنصح
وغريب القرآن والحيل والإبل والسلاح والشجر والنبات ، وما أشبه ذلك
من المواضيع الخاصة .

ثم عني أهل اللغة بالترتيب والتنقيح وال ضبط والجمع والتقريب والاختصار ،
فاختصر أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ
كتاب (العين) ، وهذا أخذ عن القالي ، وله (طبقات النحويين) و (لحن العامة) .

وضع صاحب اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ (المحيط) وهو سبع مجلدات .

وضع أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ (المجمل في اللغة) . وله (مقاييس اللغة) و (الصاحي) و (الفصح) و (تمام الفصح) و (فقه اللغة) و (جامع التأويل في تفسير القرآن) ، وغيرها .

وضع أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى ما بين سنة ٣٩٣هـ ، إلى سنة ٣٩٨هـ كتاب (الصحاح) وله كتاب في العروض ومقدمة في النحو . ووضع أبو منصور النعالي عبد الملك بن محمد بن اسماعيل المتوفى سنة ٤٢٩هـ (فقه اللغة) وله كتب كثيرة منها (يتيبة الدهر) و (المضاف والمنسوب) و (الكتابة والتعريض) وغيرها .

وقد أجاد علماء القرن الرابع والخامس في الترتيب والجمع وفاقوا من تقدمهم في التقريب والتسهيل ، ونبغ فيها طائفة من اللغويين البارعين ، منهم أبو الحسن علي بن سيده الأندلسي المتوفى في دانية سنة ٤٥٨هـ وكان ضريراً كاتبه ، وله كتاب (المختص في اللغة) وكتاب (الحكم) و (شرح ما أسكل من شعر المتنبي) و (الأنثى) شرح حاشية أبي تمام وغيرها .

ونبغ في العرة في القرن الرابع والخامس طائفة من اللغويين ، منهم أبو الهامان المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي ، وأبو العلاء ، وأبو عبد الله بن سليمان .

النحو والصرف

أهل القرن الثاني والثالث في هذين العلبين كتباً كثيرة ، والغالب فيها أن يكون التأليف إما على مذهب البصريين أو الكوفيين . فلما كان القرن الرابع أخذ فريق من العلماء يجمعون بين المذهبين ، وقد نبغ فيه

طائفة من الأئمة ، منهم الحسن بن عبد الله أبو - عبد السيرافي المتوفى سنة ٤٣٦٨ هـ ، وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالوية بن حمدان المتوفى سنة ٤٣٧٠ هـ وله كتب منها (شرح مقصورة ابن دريد) ، و (ليس في كلام العرب) و (الاشتقاق) . وأبو علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار المتوفى سنة ٤٣٧٧ هـ ، وأبو الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة ٤٣٩٢ هـ .

ويزيد علماء هذا العصر على من تقدمهم بما بحثوا فيه من الناسبات بين الألفاظ ومدلولاتها ، وما بين أصوات اللغة والطبيعة من التشابه أو التقارب . والبحث عن علل الإعراب والبناء ، وبما أدخلوه من مصطلحات المناطق والأصوليين في النحو ، وجروا على طريقة المنطقة بتحرير الحدود والقواعد . ويصح أن يقال : إن هذا العصر أسبق العصور إلى البحث في الفلسفة اللغوية ، وفي كتاب (الخصائص) ما ينفع المراتب ويبين الحد الذي انتهى إليه علماء هذا العصر في مثل هذه المباحث .

ويتصل بعلم الصرف علم الاشتقاق ، ومن العلماء من أفرد بتأليف مستقل كالفضل بن حجة والأصمعي ^(١) والمبرد ^(٢) وابن دريد والأخفش المجاشعي ^(٣) وابن خالويه ، وفي (رسالة الملائكة) شواهد جمة تدل على أن أبا العلاء كان إماماً في هذه العلوم .

(١) هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمعي الباهلي راوية العرب وأحد أئمة اللغة له تصانيف كثيرة وتوفي سنة ٢١٦ هـ . (ج)

(٢) هو محمد بن يزيد التلي الأزدي إمام الحرية وأحد أئمة الأدب ، توفي في بغداد سنة ٢٨٦ هـ ، وله كتاب (الكامل) و (المنتصب) و (إعراب القرآن) وغيرها . (ج)

(٣) هو سيد بن مسعدة المجاشعي عالم بالنحو واللغة والأدب أخذ عن سبويه وله كتب منها (تفسير معاني القرآن) و (الاشتقاق) و (معاني الشر) توفي سنة ٢١٥ هـ . (ج)

علم المعاني والبيان والبرع

عني السلون أولاً بتدوين العلوم التي تحفظ الكلام من الخطأ في خارج حروفه وفي إعرابه وتصريفه وتفسير المعلق والغريب منه ، حتى إذا فرغوا من ذلك وجهوا عنايتهم إلى البحث في فصاحة الكلام وبلاغته وبيان وجوهها . وكان غرضهم من ذلك كله وضع قواعد عامة لمعرفة اللغة وضبطها بقواعد كلية ليدراوا عنها اللحن والخطأ ، ويدربوا الأعجمي ومن في حكمه على التكلم بالفصح والصحيح ، وعلى إدراك ما في القرآن الكريم من أسرار البلاغة وأدلة الإعجاز . وكان البحث في ذلك قديماً عند المتقدمين إلا أن مسأله غير مجمعة ولا محررة .

ولعل أول كتاب وضع في البيان (المجاز في غريب القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ تقريباً . وقد تصدى الجاحظ في البيان والتبيين إلى ذكر شيء من عيوب اللسان ومحسنات البيان . واحتذى على مثاله جماعة من العلماء ، مثل قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، وابن دريد ، وأبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٣٨٢ هـ .

ثم جاء عبد القاهر المبرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ فجمع ما تشقت من مسائل المعاني والبيان ووضع لها قواعد ، وألف كتابين (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ، ثم تم تحرير هذه العلوم وتمييز كل واحد منها من الآخر بعد هذا العصر .

أما البديع فأول من ألف فيه كتاباً عبد الله بن الممتر البساسبي المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، ثم زاد عليه قدامة بعض الأنواع ، وكذلك العسكري وابن رشتق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦ هـ .

وسأني أن لأبي العلاء يبدأ طولى في هذا العلم والإرشاد إلى طرقه بما أورده من نقد العلماء والكنب .

العروض والقوافي

أول من وضع هذا العلم الخليل بن أحمد ، ثم جاء من بعده الأنخس المجاشعي فزاد واستدرك عليه مجرا . ثم ألف فيه جماعة ، منهم المازني بكر ابن محمد المتوفى سنة ٢٤٩ هـ ، والبود ، وأبو إسحق إبراهيم بن محمد الزجّاج المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، والجوهري صاحب الصحاح وغيرهم .

وعني أبو العلاء بهذا العلم عناية كبرى . واشتهر به من علماء المعرة في هذا العصر أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين ، وله كتاب في العروض والقوافي يذكر فيه أنه سأل أبا العلاء عن بعض مسائل هذا الفن . ومنه نسخة خطية في المكتبة الظاهرية في دمشق .

التاريخ

أول ما شرع في التاريخ في عهد بني أمية ، يقال : إن معاوية استقدم عبيد بن ثرية الجزمي فكتب له كتاب (الملوك وأخبار الماضين) ، وإن وهب بن منبه المتوفى نحو سنة ١٤٩ هـ وضع كتاباً في ذلك . ولكن ما كتب في ذلك العهد كان أولياً بسيطاً ، ينقل المؤرخ ما يرويه عن غيره بالسند ، ولما جاء العصر العباسي انجذبت نفوس العرب إلى العناية بالتاريخ فقسوه إلى أنواع : المغازي والفتوح وطبقات الرجال [ويقال إن العرب لم يسبقوا إلى هذا النوع] والأنساب وأيام العرب وتاريخ الملوك والأمم والبلدان وسيرة النبي ﷺ لأنهم كانوا يريدون معرفة الأزمنة والأمكنة التي نزلت فيها آيات القرآن أو قيلت فيها أحاديث الرسول ﷺ ، والبلدان التي فتحت صلحاً أو عنوة لتنظيم أمر الجزيرة والحجاج . والتعرف برواة الحديث وحملة الشريعة للبحث عن عدالتهم وطبقاتهم ، ومعرفة القبائل

الكربة من غيرها ، والارشى من غيره ، وما كان لأنجاد^(١) العرب وأجادهم وأجوادهم من الأعمال الجليلة ، ومعرفة أسباب الشر ومواقفه ونحو ذلك من المقاصد .

وقد ألف في كل نوع منه طائفة ، منهم محمد بن يسار المطليبي المدني المتوفى سنة ١٥١ هـ صاحب (السير النبوية) ، ومحمد بن سعيد المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، وهشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، والواقدي محمد بن عمر المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، وعبد الملك بن هشام الجعفي العسافري المتوفى سنة ٢١٣ هـ ، وهو صاحب (السير النبوية) ، والمدائني علي بن محمد المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ، ومحمد بن سعد بن منيع الزهري صاحب (طبقات الصحابة) المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، وأحمد بن واضح البقولي المتوفى سنة ٢٨٧ هـ ، ومحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وأبو زيد البلخي أحمد بن سهل المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، والسعودي علي بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، وابن مسكويه أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ .

وكان سبيل العرب في التاريخ أن يسرد المؤرخ ما وقع إليه من الحوادث في كل سنة أو ما انتهى إليه علمه من حوادث أمة وأخبار دولة ، ويقل عنهم نقد الرجال والتوسع في البحث عن أحوال الأمم الاقتصادية والاجتماعية ، وتعليل الحوادث والإمعان في تحقيقها ما خلا المحدثين فإنهم بالنسبة في الاستقصاء والتحري والبحث عن أحوال الرجال وعاداتهم وما تتوقف عليه معرفة ذلك .

وكان المؤرخ العربي يرى أن التاريخ عبارة عن نقل الحوادث كما هي ، وهذا لا يقتضي أكثر من الأمانة في النقل والتحري في ضبط الرواية وهم لم يقصروا في ذلك . على أن غلط التاريخ تغير في هذا العصر ما

(١) الأنجاد : مرادها نجيد ونجيد وهو الشجاع الماضي فيما يجز غيره .

كان عليه من قبل ، فإن أكثر المؤرخين فيه كانوا يرحلون إلى كثير من الأفطار ليكتبوا ما يشاهدون . وإن كثيراً منهم درس الفلسفة ففتت ذهنه ووجهت نفسه إلى شيء من نقد الحوادث وتعليلها وإلى ما في بعض الأقاليم من الحوادث الاجتماعية والطبيعية ، كما يتبدل ذلك في كتاب (مروج الذهب) للسعودي ، فإنه رحل إلى بلاد الفرس والشام ومصر وغيرها وذكر في كتابه طائفة مما شاهده من العادات والمعتقدات والأخلاق. وما رآه من آثار الطبيعة كالزلازل والمد والجزر ونحوها .

ومنهم من أدخل في التاريخ شيئاً من المباحث العلمية والأدبية . وقد ألف فيه جماعة من أهل المرة في عصر أبي العلاء ، منهم أبو غالب ممام بن جعفر بن المهذب التنوخي المعري . ومنهم يحيى بن علي ابن زريق التنوخي المعري .

وآثار أبي العلاء تدل على أن له عناية كبرى بمعرفة الرجال والأمم وأخبارهم وأحوالهم .

تقويم البلدان والجغرافيا

ازدهر في العصر العباسي علم تقويم البلدان ، وعني المؤرخون به خاصة حتى أن كثيراً منهم من جمع بينه وبين التاريخ في كتاب ، وقل من لم يكن منهم له باع طويل في هذا الفن ، وقد ألف فيه جماعة منهم : أبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، له كتاب (البدء والتاريخ) . ومن العلماء من ينسب إلى المطهر بن طاهر المقدسي ، وابن واضح البعقوبي له كتاب (البلدان) وعبيد الله بن أحمد بن خرداذبة المتوفى سنة ٢٨٠ هـ له كتاب (المسالك والممالك) ، ومحمد بن حوقل المتوفى سنة ٣٨٠ هـ^(١) له (المسالك

(١) كذا في الأصل ، وفي الأعلام للزركلي (المتوفى بد سنة ٣٦٧ هـ) .

والممالك) ، ومحمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ له كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) . وأبو الربحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ .

الفلك

كان العرب الأقدمون يعرفون كثيراً من أسماء الكواكب وأوقات طلوعها وسقوطها وقران بعضها ببعض ، ويدعون بها في ظلمات البر والبحر ، وكانوا ينسبون كثيراً من الحوادث الطبيعية إليها ، كالحر والبرد والمطر ، ولهم فيها عقائد وأساطير ملأوا الأدب العربي بها ، ولم يحدثنا التاريخ بأكثر من هذا .

فلما جاء العصر العباسي وترجمت كتب الهند والفرس واليونان جعل بعض الناس يتكهنون بحوادث النجوم ويرتقون بها ، والظاهر من أقوال أبي العلاء أن ذلك كان مستفيضاً في عهده ، لأنه أكثر التذمر من المنجمين ، وحض الحكام على إزالتهم عن الطرق ، وحذر النساء منهم وحرضهن على اجتنابهم . ويقال : إن هذا النوع مقبوس من الهنود والفرس ، وقد لقي رواجاً عند الخلفاء العبيديين ، كالحاكم وغيره ، كما لقي رواجاً عند غيرهم .

أما علم الفلك الذي اقتبسه العرب من اليونان فقد كسبهم معرفة رصد الكواكب وتوقيت الحوادث ، وكان علم الفلك بأقسامه مزدهراً في القرن الرابع والخامس لاسيما في مصر . وقد تأثر أبو العلاء بهذا الفن ، ولذلك نجد في كلامه كثيراً من أسماء الكواكب وتشخيصها ، وذكر شيء من خصائصها والبحث في قديمها وقثانها ، والعناصر التي تركبت منها ، وفي حثها وما يزعمه الناس فيها ، ونحو ذلك مما يأتي . وقد نبغ في هذا الفن أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الشهير بابن يونس المصري المتوفى سنة ٢٩٩ هـ

وهو صاحب (الزيج الحاكم) المعروف (بزيج ابن بونس) صح به أغلاط من سبقه من مصنفي الأزياج ، وأبو الريحان البيروني .
وإنما ذكرنا هذا الفن عقب التاريخ وتقوم البلدان لشدة تأثرهما به ، وكثرة مباحثه التي ادخلها المؤلفون فيه .

الفلسفة

الترجمة

أول من عني من العرب بترجمة كتب العلم إلى العربية خالد بن يزيد ابن معاوية المتوفى سنة ٨٥ هـ ترجم بعض الكتب في النجوم والطب والكيمياء^(١) ، ثم ترجم ماسرجويه كتاب (أهرون) في عهد عمر بن عبد العزيز . ثم لما قامت الخلافة العباسية اهتم الخليفة الثاني المنصور بالترجمة واستقدم نفرآ من المنود والسريان والفرس وغيرهم فترجموا له كتباً كثيرة ، وسأل ملوك الروم أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه ما لديهم من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم . وأول ما عني بترجمته من العلوم المنطق والنجوم . وكانت للترجمة طريقتان : الأولى ، أن تفسر كل لفظة من اللغة المنقول عنها بما يرادفها من اللغة العربية ، ومن رجال هذه الطريقة يوحنا بن البطريق وابن ناعمة الحصري .

(١) اليان والبيين ١ / ٢١٢ . والونيا ١ / ٢١١ . وطبقات الأطباء .

١ / ١٠٩ . (ج)

١١ الجامع لأخبار أبي الملاء ١

والثانية، أن يترجم كل جملة من غير أن يتبد بتفسير كل كلمة على حدة، ومن رجالها العباس بن سعيد الجوهري، وحنين بن إسحاق. وهذه الطريقة أسلم عاقبة من الأولى وأكثر فائدة منها. ثم فترت الترجمة بعد موت المنصور، حتى قام الرشيد فبعثها من مرقدها وترجم في عهده كل ما عثر عليه من كتب الطب والنجوم والكيمياء وغيرها. فلما جاء عهد المأمون أُرُفِدَ إلى بلاد الروم طائفة ليختاروا له الكتب ويحملوها إليه، منهم الحجاج بن مطر، وسالم صاحب بيت الحكمة، وابن البطريق، وبنو شاكر النجم وغيرهم^(١). فلما تم له ما أراد اختار أفضل التراجمة فترجموها له خير الكتب، ونبغ في عهده طائفة من العلماء المحققين فأصلحوا ما في ترجمة من تقدمهم وما في الكتب المترجمة نفسها من الخطأ. وكانت من هؤلاء يعقوب بن اسحق الكندي المتوفى سنة ٢٦٠ هـ وله ٢١٣ كتاباً في الطب والفلسفة والحساب والفلك والهندسة والموسيقى، وقد ترجم كثيراً من كتب الفلاسفة وأوضح المشكل منها، وكان أبوع الناس في الترجمة عن اليونانية، ثم تتابع من بعده العلماء على التأليف والتنقيح والإصلاح. وكانت التراجمة يعمون بها بغدق عليهم الخلفاء وغيرهم، وفي الفهرست ص ٣٤٠ أن بني النجم كانوا يرزقون جماعة من النُفَّة في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة. ولم يأت العهد الذي كان فيه أبو العلاء إلا وقد انتهى نقل ما كان عند اليونان والهند وغيرهما من أنواع الفلسفة والحكمة، وأصبح الناس يدرسونه في المدارس والمساجد والنازل ويبينون خطأ من تقدمهم من الفلاسفة، وقد ألف جماعة من العرب كتباً كثيرة في فنون مختلفة.

العلوم الفلسفية عند المتقدمين

قسم المتقدمون العلوم الفلسفية إلى أربعة أنواع^(١) : رياضية ومنطقية وطبيعية والهيبة . وقسموا الرياضية إلى أقسام أربعة : الأول علم الأرتماطيقي ، وهو معرفة خواص العدد ، ونحته علم الوفق والحساب .

الثاني : علم الهندسة بالبراهين ، وقسموها إلى علمية وعملية ، ونحتها علم دفع الأثقال وعلم الجبل المائية والهوائية والمناظر والحرب .

الثالث : علم النجوم ، ونحته علم الهيئة والميقات والزيج والأحكام والتحويل .
الرابع : علم الموسيقى ، ونحته علم الإيقاع والعروض .

وقسموا العلوم المنطقية إلى خمسة أنواع : معرفة صناعة الشعر . والخطب . والجدل . والبرهان . والمغالطة : سوفسطايا .

وقسموا العلوم الطبيعية إلى سبعة أنواع : الأول : علم المبادئ ، وهو معرفة خمسة أشياء لا ينفك عنها جسم ، وهي الميولى والصورة والزمان والمكان والحكمة . الثاني : علم السماء والمعلم وما فيها . الثالث : علم الكون والفساد . الرابع : حوادث الجو . الخامس : علم المعادن . السادس : علم النبات . السابع : علم الحيوان ، ويدخل فيه علم الطب وفروعه .

وقسموا العلوم الإلهية إلى أنواع : علم الواجب وصفته ، وعلم الروحانيات ، وهي معرفة الجواهر البسيطة العقلية وهي الملائكة . والعلوم النفسانية ، وهي معرفة النفوس المتجسدة . والأرواح السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية من الفلك المحيط إلى مركز الأرض . وعلم السياسات : وهو أنواع سياحة الدولة وسياسة الملك ونحته الفلاحة والرعايا وهو الأول المحتاج إليه

(١) راجع كشف الظنون . (ج)

في أول الأمر لتأسيس المدن ، وعلم قرد الجيش ومكايد الحرب والبيطرة والبيطرة وآداب الملوك . والعلم الديني كعلم سياسة الخاصة وهي سياسة المنزل . وعلم سياسة الذات وهو علم الأخلاق .

وقد عني العرب بهذه العلوم وألفوا فيها كثيراً من الكتب . ونبغ منهم في كل عصر طائفة كبيرة ، ومن أفضل الفلاسفة في القرن الرابع والخامس . أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى في بغداد سنة ٨٣١ هـ ، وأبو نصر محمد بن محمد الفارابي المتوفى في دمشق سنة ٨٣٩ هـ وأبو علي الحسين ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ وقد ذكر ابن النديم في (الفهرست) والفنطري في (أنباء الحكماء) وابن أبي أصيبعة في (طبقات الأطباء) عدداً كبيراً من اعلام الفلاسفة وكتبهم ، كما ذكر غيرهم من المؤرخين كثيراً منهم .

طريقة فيوسفة المسلمين

وكانت لفلاسفة المسلمين طريقتان : إحداهما لم يتقيد أصحابها بدين ولا غيره ، وإنما جعلوا العقل هو المتصرف المطلق . ومن رؤساء هذا الفريق الفارابي وابن سينا ، وقد شذ أهل هذا المذهب في كثير من القضايا عن سنن الإسلام ، فأنبتوا كثيراً مما نقاه المسلمون كقدم العالم ، ونفوا كثيراً مما أثبت المسلمون كحشر الأجساد ، ولذلك روي أكثرهم بالإلحاد والزندقة . والثانية أراد أصحابها أن يوفقوا بين الدين والفلسفة فتكافوا لذلك وجوهاً وفتقوا في بعضها دون بعض آخر ، ومن هذا الفريق علماء الكلام فلمهم حاولوا ذلك في كثير من المسائل وأرادوا أن يسيروا الفلسفة وراء الدين . ومن رجال هذه الطريقة أبو الحسن الأشعري علي بن اسماعيل ، وأبو منصور المتزيدي محمد بن محمد ، وأبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب ، وأبو إسحق الإسفرائيني إبراهيم بن محمد ، ومحمد بن عبد الوهاب الجبائي ، وابن الملم أبو عبد الله محمد بن محمد .

ومن رجال هذا الفريق المنصوفة ، وقد ذكر صاحب (الذكرى) ^(١) أن الفلسفة الصوفية تتألف من عنصرين يونانيين ؛ أحدهما وحدة الوجود ، وهو مذهب الرواقيين أصحاب زينون ، زعموا أن ليس في الوجود إلا قوة واحدة ذات وجهين ؛ أحدهما عقل صرف به الحركة ، والثاني صورة تظهر فيها هذه الحركة . وعلى هذا يكون الوجود وموجده شيئاً واحداً في نفسه وإن اختلفا في الاعتبار . وهذا المذهب ظهر عند الهند قبل اليونان فإن البوذيين يرون اتحاد العالم بموجده . والثاني هو الإشراق ، ويقوم هذا المذهب على قاعدة فرضها أفلاطون وهي أن هناك عالماً عقلياً مجرداً يماثل عالم المادة المركب ومنه أهبطت النفس الإنسانية إلى عالم المادة لتبتلى وتخلص ، فلما جاء الاسكندريون قالوا لاشك أن هذا حق فمن اليسير أن تتصل النفس بعالمها العقلي في أثناء حياتها المادية ، وسيل ذلك أن يصفى جوهرها بهجر الذات وحصر الفكر في موضوع واحد فإذا تم ذلك - وهو لا يتم إلا بعد جهاد - فقد تطلع النفس على ما في العالم العقلي من جمال وتتصل ببدعها وفي ذلك لذة لاتمدلها لذة أخرى ، وهذا المذهب هندي أيضاً لأن المعروف عن نساك الهند المتقدمين أنهم يعتكفون في كهف مظلم وينقطعون عن اللذات ويعرضون عن المادة ليتصلوا بالإله . وهذان العنصران نقلا إلى المسلمين في القرن الثالث ، وأضيف إليهما شيء من ظاهر الدين فنشأ مزاج فلسفي خاص أظهر الحلّاج والجنيد ^(٢)

(١) ذكرى أبي العلاء - لطفه حين - ط ٢ ص ٨٩ - ٩٢ . وما أثبتته المؤلف تلخيص لما جاء في الذكرى .

(٢) الحلّاج : هو الحسين بن منصور توفي سنة ٣٠٩ هـ ، واختلت الكلمة فيه ، ففريق يده من الزهاد المتعبدين ، وفريق آخر يده من الزنادقة للحمدين وأنه كان يقول بالحلول وقتل على الزندقة ، وقد ذكره أبو العلاء وذكر كنه في رسالة النفران ص ١٥٠ ، والجنيد هو أبو القاسم بن محمد البغدادي توفي سنة ٢٩٧ هـ وعرف بالقواريري لسه القوارير وعرف بالحرّاز لسه الحرّز وهو أول من تكلم بالتوحيد ببنّاد ، وشيخ منعب الصوف لضبط مذهب فواعد الكتاب والسنة . وكان الكبة يحضرون مجله لألفاظه والشراء لتصاحبه والتكلمون لمناجيه . (ج)

وغيرهما من متصوفة القرن الرابع ، والمتصوفة أقرب إلى الشيعة منهم إلى أهل السنة ، فظهر فيهم مذهب الباطنية وكثر تأولهم للكتاب والحديث وانتشر مذهبهم في العامة فأدى إلى فنون من الإباحة ومخالفة الدين ، واخترعوا أشكالاً للعبادة التي توصلهم إلى الله فنشأت طرقهم في الذكر واتخذوا الحشيش وسيلة إلى غاياتهم فكثرت منهم الحماقات والأباطيل وضاق بهم أبو العلاء ذرعاً فأشبعهم رداءً وازدراء . . . ولئن كثرت أضرابهم فإن فيهم قوماً يوردون استنهام أبو العلاء من ذلك اه .

وفي هذا الكلام نظر من رجوه . منها : أننا لانلم بأن العنصرين المذكورين نقلا إلى الاسلام في القرن الثالث ثم نشأ عنها مزاج فلسفي خاص . لأن الانقطاع عن الناس والذات أمر قديم في الإسلام ، فقد ثبت في الأخبار الصحيحة أن النبي (ﷺ) حجب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث^(١) فيه حتى جاءه الملك بالوحي ، وبعد النبوة كان يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان . ومنها أن المتصوفة كانوا يطبعون على غرار الصحابة لاسيما أبي بكر ومروان وعلي . ومنها : أننا لم نعرف عن المتقدمين من المتصوفة أنهم اتخذوا الحشيش أو غيره من المنكرات . ومنها أن الحلاج والجنيد على طرفي نقيض ، فالأول في رأي الجمهور زنديق ملحد ، والثاني تقي ورع ضبط مذهب بقواعد الكتاب والسنة .

على أننا لا ننكر أن في الصوفية ألقاً عبثوا بالشريعة وصرفوا آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ عن وجوهها وتأولوا أقوال الصحابة والعلماء على ما تقتضيه أهواؤهم ، ولكن هؤلاء فربق قليل في المتقدمين ، ومثلهم كمثل فربق من العلماء زاغوا عن سبيل الهدى وشذوا عن طريق الجماعة ، وذلك يعود إلى خصائص في نفوسهم لا إلى أصل مذهبهم وطريقتهم ،

(١) نحت : نجد البالي ذوات الدد أو اعتزل الأصنام .

وهؤلاء انتقدهم أبو العلاء كما انتقد فريقاً من العلماء ؛ أما المتأخرون من المتصوفة فحدث عنهم ولا حرج .

الدُّوب

عرفه المتقدمون بأنه علم يجتري به عن الخلل في كلام العرب لفظاً أو كتابة ، واختلفوا في أقسامه فقل : ثمانية ، وقيل : اثنا عشر ، وقيل : أربعة عشر ، وقد جعلوا له أصولاً وفروعاً ، أما أصوله ، فاللغة والصرف والاستقاق والنحو والمعاني والبيان وال عروض والقفية ، والبديع ذيل للمعاني والبيان ، وأما فروعها ؛ فالخط وقرض الشعر والانشاء والمحاضرات ، منها التواريخ (١) .

الخطابة

كان للخطابة شأن عظيم في فاتحة العصر العباسي ، ونبغ طائفة من الخطباء المصاقع كداود بن علي العباسي وشبيب بن شبة والفضل بن عيسى الرقاشي ، وكان في الخلفاء العباسيين خطباء بلغاه كالنصور والرشد والمأمون وكذلك كان في رجال الدولة وأمرائها وقوادها مقال أبنائه كهبد الله ابن طاهر وعبد الملك بن صالح العباسي .

ثم لما تولى قيادة الجيوش ومعالجة الولايات كثير من الأعاجم والوالي واستعجم السلطان ، أخذ شأن الخطابة يتناقص ويضحل حتى لم يبق منها إلا الخطب الدينية في الجمع والعيدين والزواج . وزادها سقوطاً وانحطاطاً مدة اختلاط العجم بالعرب وفترة الجند من العرب .

ولما كان عهد أبي العلاء كانت القاية من الخطب الدينية إظهاراً لماعند

(١) راجع كلمات أبي البقاء ص ٢٥ وكف الظنون ١ / ٢١ . (ج)

الخطيب من فصاحة مصنوعة وبلاغة مسجوعة . ومنهم من كان يستعين بغيره فيعد له الخطب ويحيثها ، وسيأتي أن أبا العلاء ألف كثيراً من الخطب لغيره .

وقد خلف الخطابة في الأمور السياسية المناشير التي كانت تصدر عن الخلفاء والأمراء ، وفي الأمور الدينية مجالس المناظرة والجدل بين المتكلمين والفقهاء وبين الفقهاء أنفسهم وبين السنية والشيعة ونحو ذلك ، كالنظرة التي وقعت بين أبي الحسن الأشعري وأبي علي الجبائي في الأصلح والتعليل وفي أسماء الله هل هي توقفية أم لا ^(١) ، كالنظرة بين الأشعري وأبي بكر الصيرفي محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٣٣٠ هـ ^(٢) ، والنظرة بين أبي إسحق الشيرازي وأبي عبد الله الدامغاني محمد بن علي المتوفى سنة ٤٧٨ هـ . وبين أبي إسحق وإمام الحرمين عبد الملك الجويني . والنظرات التي وقعت بين أبي الطيب الطبري طاهر بن عبد الله المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وأبي الحسن الطالقاني . وبين الطبري وأبي الحسن القدوري الحنفي ^(٣) . وكان للعلماء مجالس للوعظ والتنزيه والإملاء وغيرها .

الكتابة

نبغت في العصر الأول العباسي والذي بعده طائفة من الكتاب

(١) طبقات السبكي ٢ / ٢٠ . (ج)

(٢) طبقات السبكي ٢ / ١٧٠ . (ج)

(٣) طبقات : ١٨٢ . (ج)

والجودين كابين المقفع^(١) ويحيى^(٢) وجعفر^(٣) والفضل^(٤) البرمكيين وإسماعيل^(٥)
ابن صبيح وعمرو^(٦) بن مسعدة وأحمد^(٧) بن يوسف ومحمد^(٨) بن عبد الملك
الزيات والجالحظ ومحمد^(٩) بن العبيد .

(١) هو عبد الله بن المقفع الكاتب الشهور المتوفى سنة ١٤٢ هـ تقريباً وقد وضعت
كتاباً خاصاً سمّيته (عمدة الأدب) (عبد الله بن المقفع) جمعت فيه طائفة من
آثاره وأخباره ودراسة أدبه ودللت على مواطن البغربة في كنهه وهو أجمع
كتاب في هذا الغرض؛ وقد طبع في دمشق سنة ١٣٥٥ هـ ج ١ . (ج)

(٢) ويحيى بن خالد بن برمك مؤدب الرشيد سجنه الرشيد يوم نكبة البرامكة في
الرفقة إلى أن مات سنة ١٩٠ هـ . (ج)

(٣) جعفر هو ابن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد كانت له توقيعات جيلة وهو
معهود بفصاحة اللسان والقول قتل الرشيد فيمن قتل من البرامكة
سنة ١٨٧ هـ . (ج)

(٤) والفضل هو ابن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد توفي سنة ١٩٣ هـ في -جن
الرفقة مع أبيه . (ج)

(٥) إسماعيل بن صبيح ، كان وزيراً للرشيد بن جعفر . (ج)

(٦) عمرو بن مسعدة بن سعد بن شول كان يوقع بين يدي جعفر البرمكي في عهد
الرشيد ثم اتصل بالأمويون فكان وزيراً له وكان في إنشائه بخار الإيجاز والجزل
من الألفاظ ، توفي في آذنة أي أطنة في زركبة سنة ٢١٧ هـ . (ج)

(٧) أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح من أهل الكوفة كان كاتباً مجوداً وشاعراً
وزير للأمويين وتوفي سنة ٢١٣ هـ . (ج)

(٨) محمد بن عبد الملك بن أبان . . المشهور بابن الزيات ، نبغ في الإنشاء والأدب
واللغة ، ووزر للصمصام وعول عليه في أموره . وكفلك ابنه الواثق ، ولما مرض
الواثق أراد أن يولي ابنه ويحرم التوكل فلم يوفق فلما ولي التوكل نكبه وعذبه
ومات في بغداد سنة ٢٣٣ هـ . (ج)

(٩) ابن السيد محمد بن الحسين السيد كان عالماً كاتباً حتى قيل فيه : بدئت الكتابة
بسيد الحميد وختت بابن السيد ، وكان يقب بالجالحظ الثاني لقوسه في العلم والأدب
وتقدمه في الكتابة ولي الوزارة لركن الدولة البويهي وبه تخرج عند الدولة
توفي سنة ٣٦٠ هـ . (ج)

وفي العهد الذي كان فيه أبو العلاء نبغت طائفة طبعت على غرار من تقدمها وزادت عليه ما أدخلته في فن الكتابة من مسائل العلم ومصطلحاته ومن الصناعة البديعية ، وإن سمجت عند بعض المتكلفين منهم ، والمستقري لتاريخ الكتاب وآثارهم في هذا العهد يجد كثيراً منهم ممن استطاع أن يجمع بين تخير الألفاظ السهلة وجمال الجمل الرشيقة وروعة المعاني اللطيفة وأن يتصرف في فنون القول بأسلوب عذب ورصف محكم .

وبين أيدينا آثار أبي بكر الخوارزمي محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، والصابي إبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، والصاحب إسماعيل ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، والبديع المذاني أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٣ هـ .

وهي أفضل ماتركه ذلك العهد من التراث الأدبي الثري . وبعد هذا ففي وسعنا أن نقول : إن صناعة الإنشاء في هذا العهد لم تنحط عما كانت عليه في العهد الذي كان قبله وإن كان في رجاله بعض المتكلفين في الصناعة وقلما وجد عصر غير مطبوع بطابع التفاوت في نظمه ونثره .

النقد

لم يصل البناء من الأدب الجاهلي إلا الشعر وقليل من النثر ، والشعر الذي وصل البناء محكم التأليف متلاحم الأجزاء مصقول الديباجة صحيح المعنى مشذب مهذب ، وقد جعل العلماء أقصى مداه قبل الإسلام بقرن ونصف ، وليس من العقول أن يولد الشعر ويبلغ في الجودة والإتقان وتعدد الأنواع والأغراض والأوزان إلى هذا الحد في مثل هذه المدة بل لابد أن يكون قد مرت به أطوار مختلفة من التحرير والتنقيح والتعذيب في أوزانه وقوافيه وفي ألفاظه مفردة ومركبة ، وأطوار متعددة من

التقويم والتصحيح في معانيه حتى جاء على هذه الصورة الرائعة ، فإذاً من المتيقن أن الشعر مر بضروب من القد الأدبي في العصر الجاهلي . غير أننا لم نجد لهذا النوع مسائل مجموعاً بعضها إلى بعض محصورة تحت كل نوع منها أفراد متقاربة أو متشابهة كما هو الشأن في كل علم من العلوم . وإنما نقلت إلينا مسائل مبعثرة مرتبطة كل منها بمحادثة ، منها انتقاد أم جندب زوجها امرأ القيس الكندي (١) أنه جهد فرسه بسوطه ، وحرك رجله وزجره بخلاف علقمة .

ومنها ما انتقده طرفة على السيب بن علس (٢) حين قال له : استنوق

(١) امرؤ القيس : حنـدج بن حجر الكندي إمام الشعراء الجاهليين ، قالوا : إنه تنازع هو وعلقمة بن عبدة في الشعر وادعاء كل منهما على صاحبه . فقال علقمة : قل شعراً تمدح به فرسك والصيد ، وأقول في مثل ذلك ، وحكمتها أم جندب في ذلك فقال امرؤ القيس لصيدته :

تـخـلـيـلـي سـرّاً بـي عـلـى أـم جـنـدـب . . . ونبها يقول :
فلـسـاق أـلـهـوب وـلـسـوط دـيـرة . . . ولـزـجـر مـنـه وـفـه أـهـوج مـنـصـب .
وقال علقمة قصيدته :

ذـهـبـت مـن أـلـهـجـران فـي كـل مـذـتـجـب . . . ونبها يقول :
فأـقـبـل يـهـوي ثـانـياً مـن عـيـانـيـه . . . كـمـر الرائـع المـتـحـلـب .
فقال لزوجها : علقمة أشعر منك ، لأنك ضربت فرسك بسوطك ، وامترته سائك ، وزجرته بسوطك ، وأدرك علقمة الصيد ثانياً من عنائه . فغضب امرؤ القيس وقال ليس كما قلت ولكنك هوبته . فطلعتها وتزوجها علقمة . وحينئذ سمي علقمة الفصل ١٥ ، وتفصيل هذه القصة في كتابنا (عمدة الأدب) : امرؤ القيس .
وقد طبع في دمشق سنة ١٣٥٤ = ١٩٣٦ م . (ج)

(٢) طرفة بن العبد البكري الوائلي أحد أصحاب المقاتل توفي قبل الإسلام بأكثر من نصف قرن . وهو شاعر فحل . والسيب بن علس من ضبيعة بن ربيعة ابن نزار كان ينشد أحياناً في وصف جل فقال فيها :

وقـد أـتـاسـي أـلـهـم عـنـد اـحـتـضـاره . . . بـانـج عـلـيـه المـيـة رية مـكـدـم
فقال له طرفة : استنوق الجبل . أي أنك كنت في وصف جل ، فلما قلت الصبرية عدت إلى ما توصف به النوق لأن الصبرية سمة لا تكون إلا في عنق الناقة . (ج)

الجل . ومنها انتقاد أهل المدينة شعر النابغة الذبياني (١) لما فيه من الاقراء .
ومنها انتقاد الحناء بيت حان (٢) :

لنالجففات الغرُيلمعن في الضحى وأنسياً فنا يَقْطِرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
وفي هذا القول ما يرجع إلى اللفظ ، وفيه ما يرجع إلى المعنى . وكان
المرجع في النقد عند الجاهلين هو الذوق الفني فقط ، وليس لديهم قواعد
يرجع إليها في ذلك ، ولا كانوا يعدون إلى حل الشعر والتفكير فيما بين

(١) نظم النابغة الذبياني قصيدته :

من آل بَـةٍ رائجٍ أو مُتَدِرٍ على الدال الكسورة وفيها يقول :
زَعَمَ الدُّعَاةُ بَأَن رَحِمَتْنَا غَدًا وَبِذَلِكَ نَخْبِرُنَا الدُّعَاةُ الْأَسْرَدُ
ونقول :

بمختصيه رخص كان بناءه عزم يكاد من اللطافة يقصد
وفي كلا البيتين إفواء ، وهو اختلاف حركة الروي بضم وكسر . فلما دخل المدينة
'بَـة' إل ذلك ضمير الجين . وإيضاح هذه القصة وتحقيقها مبسوط في كتابنا (النابغة
الذبياني) ج ١ ص ٨٤ ، وقد طبع في دمشق سنة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م . (ج)
(٢) الحناء : تناصر بنت عمرو بن الحارث بن الصريد من بني 'سليم' ، أدركت
الجاهلية والإسلام وهي أرقى وأرنب شاعرات العرب . توفيت قبل الحسين من
الهجرة . وحنان بن ثابت الأنصاري الخزرجي عاش سنين سنة في الجاهلية ومثلها
في الإسلام أنهذ النابغة في سوق عكاظ قصيدته البليغة :

ألم تال الرّيحَ الجديدَ التكلما

ثم أنشدته الحناء قصيدتها الرائبة :

فدى بيبك أم بالين عوار

فقال النابغة : أنت أشعر ذات ثانة . فقلت : وذى خيبة . فقال : وذى خيبة .
فنضب حان ولال : أنا أشعر منك ومنها ؛ ثم قال النابغة للحناء : خاطيه ا
فسأله : ما أجود بيت في قصيدته فقال :

لنا الجفّنات الغرُيلمعن في الضحى

فانشدته في مواضع . وعصبل هذه الحادثة وتحققها في رسالتينا في (الحناء وحنان)
وفي كتاب (النابغة) للعلم ذكره . (ج)

أجزائه وعناصره من التلاحم والتوافق ونحو ذلك من محل الفكر الذي لم يمتد إليه فكر الجاهلي أو لم يمتد نحن إلى معرفته . والحوادث تدلنا على أن ذلك الذوق كان صحيحاً سليماً دقيقاً . إن امرأ النيس وعقبة لما تحاكما إلى أم جندب ، وضعت لهما مقياساً دقيقاً لتعول عليه في الموازنة بينها وتستند إليه في تفضيل أحدهما على الآخر ، فأمرت كلامها أن يقول شعراً على روي واحد ووزن واحد في غرض واحد وهو وصف الفرس والصيد أو هما اقترحا ذلك ، ويتضح من ذلك أن الذي اتخذ مقياساً للموازنة والمفاضلة في هذه القصة أمور ثلاثة : وهي وحدة الوزن والقافية والغرض . وهذا وأشباهه يدل على أن للنقد نواة صحيحة في العصر الجاهلي وإن لم نعلم كتبها على التحقيق .

فلما جاء الإسلام واطلع العرب على القرآن الكريم ، ارتقى العقل والذوق العربيان لأن الإسلام أكرم بالنظر والاعتبار في ملكوت السموات والأرض ، ووجه نقوسهم إلى طلب العلم وأرام ما لم يروا من مشاهد الطبيعة وحضارة الأمم التي كانت تجاورهم . والقرآن لطف أذواقهم وشحذ أذهانهم ، فانسعت دائرة النقد لديهم ، وحسبك أن تقرأ ما كان يقع من تفضيل شاعر على آخر أو تفضيل شاعر على جميع الشعراء مع بيان الأسباب التي تقتضي ذلك ، كما فعل عمر بن الخطاب في تفضيل زهير على غيره (١) .

(١) قال عمر بن الخطاب لابن عباس : هل تروي لشاعر الشعراء ؟ قال : ومن هو ؟ قال : الذي يقول :

ولو أن حذماً أخذت الناس أخذوا . .

قال : ذاك زهير . قال : فذاك شاعر الشعراء ، قال : وم صار كذلك ؟ قال : لأنه كان لا يباطل في الكلام ويتجنب وحشي الشعر ، ولا يقول إلا ما يبرف ، ولا يمتدح

الرجل إلا بما فيه (ج) جا (١١)

الرجل إلا بما فيه (ج)

وكما فعل جماعة بعمر بن أبي ربيعة ^(١) ونحوه . وما كان يفعله الخلفاء والأمراء بن إرشاد الشاعر إلى الجسد من المدح واطراح الرديء منه كما فعل معاوية بالأخطل ^(٢) أو استهجان لفظ أو معنى لما يورمه مما لا يلائم المقام أو لا يوافق مراد الشاعر كما فعل عبد الملك بمجير ^(٣) وذو الرمة ^(٤)

(١) قال ابن أبي عتيق : لشعر 'عمر لوطه' في القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر . وقال عمر بن ميمب : إن لشعر عمر لوقفاً في القلب ومخالطة لنفس لبنا لغيره ، ولو كان شعر يعمر لكان شعره سحرأ . (ج)

(٢) قال الأخطل لمعاوية : إني امتدحتك بآيات فاسمها ! فقال : إن كنت شبيهي بالية والأسد والصقر فلا حاجة لي بها ، وإن كنت قلت كما قالت الخنساء : فما تلجّ المهدون للناس رمدحةً وإن أطنبوا إلا الذي فيك أنضل قل ! فقال الأخطل : واحة لقد أحسنت ، وقد قلت فيك بيتين مامها بسونما ، وأنشد :

إذا امتّ مات الرّف وأقطع الذي فلم يبقَ إلا من قليل 'مصرّد'
نسبها إل الأخطل في زهر الآداب ج ٦٤/٤ ، وأمالى المرتضى ج ١١٣/٣ ، وفي كتاب المصنوعين : إن نصر بن الحجاج السلمي قالها لمعاوية ، فلما سمعها قال لابنته لوطه وهي ثبي : اسمعي إلي مرثيتي وأنا حي . (ج)

(٣) دخل جرير على عبد الملك ، فأنشده قصيدته :
أصبحو أم فؤادك غير صاح
فقال بل فؤادك يابن القاعة . وجرير بن عطية بن حذيفة الكلبي البربوعي أشعر أهل عصره ولد باليمامة سنة ٢٨ هـ ومات بها سنة ١١٠ هـ . (ج)

(٤) ذو الرمة : غيلان بن عتبة الطدوي من مضر شاعر فعل قيل : بديء الشعر بلرمي القيس وختم بندي الرمة توفي سنة ١١٧ هـ ودخل على عبد الملك فاستنشد شتأ من شعره ، فأنشده قوله :
ما بال عينك من الماء يذّكب .

وكانت بين عبد الملك وريفة وهي تنمّع أبداً ، فتوم أنه عرض به ، فقال : وما سؤالك عن هنا يا جاهل ؟ وأمر بإخراجه . العدة ١ : ١٤٨ (ج)

والحجاج بليلى الأخبيلة (١) . ونحو ذلك بما طفعت به كتب الأخبار والأدب .

وقد ينبغي للمعنى في استقصاء هذه المباحث أن النقد في العصر الإسلامي لم يقتصر على نقد الألفاظ والمعاني فحسب بل تعدى ذلك إلى الشعور والحنن ، كما سمعنا من قول ابن أبي عتيق ، وممر بن مصعب في ممر بن أبي ربيعة من تفضيل شعر ممر بما ذكرناه فيه على غيره لخلوه من ذلك . ولكن النقد في هذا العصر - وإن تعددت وجوهه - لم يعتمد على قواعد فنية ، وإنما كان يعتمد على الذوق واللياقة والنفرة وكثرة الممارسة التي تجعل في النفس ملكة يتميز بها الجيد من الرديء . ولما قامت الدولة العباسية وزخرت بمجور العلوم التي وضعها العرب أو ترجموها عن الأعاجم ونضجت علوم اللغة أخذ فن النقد يتقدم وينمو على أيدي اللغويين والأدباء من كتاب وشعراء ، وتعددت وجوهه ، وكان في أول هذا العهد يعتمد على الذوق ويستند في بعض مناجيه إلى العلم . وقد كان العصر العباسي الأول أي من سنة ١٣٤ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ عصر ترجمة وتدوين وسماع لغة من أفواه أهل البادية الذين لم تفقد سلاتقهم بمخالطة المتجمل والمستعجبين ، فهو عصر غرس ونهضة .

وأما العصر الثاني فقد كان عصر بحث وإعمال للعقل وإنتاج للفكر ، فهو عصر نضج وإزهار وإثمار . ولذلك دون فيه من الكتب والرسائل

(١) وَافَت بِلَى الْأَخْبِيلَةِ عَلَى الْحَجَّاجِ فَدَحَتْهُ بِأَيَاتٍ مِنْهَا قَوْلُهَا :

شَفَاكَ مِنَ الدَّاءِ الْعَامِ الَّذِي بِيَا غَلَامٌ إِنْهَا مِنْ الْقَنَاءِ تَنَاهَا

فَقَالَ لَهَا : لَا تَقُولِي . غَلَامٌ قَوْلِي هَمَامٌ . الْكَامِلُ ١٧٦/٣ . وَبِلَى بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ

شَاعِرَةٌ ذَكِيَّةٌ لَهَا أَخْبَارٌ مَعَ تَوْبَةَ بْنِ الْحِجْرِ تُوِفِّيَتْ سَنَةَ ٢٧٥ هـ . (ج)

مالم يعرف أهل العصر السابق ، وحدث فيه من القنون مالم يكن من قبل ، ومن ذلك المسائل العائدة إلى علم البلاغة الشامل لعلم المعاني والبيانات والبديع^(١) فهذا من ثمرات هذا العصر ونتاج عقول بنيه . أما كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى (مجاز القرآن) فإنه وإن أراد بالمجاز اللفظ المحتمل في غير ماوضع له إلا أنه لم يفرق بين أنواع المجاز التي قسمها علماء هذا الفن بعده . والجاحظ تصدى كما قلنا في (البيان والتبيين) إلى شيء من مباحث البيان إلا أنه لم يجر فيه على طريقة علمية تميز كل نوع من غيره وتلحق كل مفرد بنوعه ، وكذلك ما جاء في مثل كتاب (الكامل) للبورد (والشعر والشعراء) لابن قتيبة لا يتعدى كونه مسائل انتقد فيها من بعض الوجوه ، لا ترجع إلى قاعدة عامة ولا إلى ضابط كلي ، وقد كانت هذه المباحث في الأدب . ثم لما اختلفت كلمة العلماء في إعجاز القرآن ووجوه إعجازه وطرقه استمد كل منهم من مسائل علم البلاغة ما يؤيد به رأيه ويضعف رأي غيره ، فكان ذلك باعثاً لوجود هذا العلم .

ويمكن أن يقال : إن مسائل هذا العلم التي فاضت بها كتب الجاحظ والبورد وابن قتيبة وغيرهم ، كانت نواة له في القرن الثالث والرابع ، ولم يكد يبرز فجر القرن الخامس حتى أصبحت هذه المسائل علوماً متميزة ببيادتها وموضوعاتها ومسائلها وغاياتها فطلع عبد القاهر الجرجاني بكتابه وجعلها أساساً للمعاني والبيان . ثم بلغت هذه العلوم غايتها من تحرير

(١) كثير من العلماء يسمي الجميع علم البيان . وكثير من يسمي الثلاثة علم البديع . وبعضهم يسمي الأول علم المعاني ، والثاني والثالث علم البيان كما ذكر ذلك السد وغيره من فراج التلخيص ج ١ ص ١٥١ . (ج)

المباحث وتمييز مسائل كل علم منها على حدة على يد أبي يعقوب يوسف
السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ وأشابهه .

وزعم بعض الأدباء أن البيان والنقد شيء واحد . والحق أنها قد
ينتقان ويحتملان في بيان وجوه الحسن ، وينفرد علم البيان في بيان
تأدية المعنى بطريق أوضح من غيره ، وفي بيان أقسام الجاز والاستعارة
والكناية ومسائل العلوم الثلاثة كالفصل والوصل والذكر والحذف وغيرها
فليس شيء من هذا يسمى نقداً . وينفرد النقد بكثير من المباحث التي
لا علاقة لها بالبيان فينبغي موم وخصوص من وجه .

ونقل الإنشائي في حاشيته على (رسالة البيان) للعبان عن السيوطي :
أن المتقدمين كانوا يدعون علم البلاغة وتوابعها علم نقد الشعر ، وصناعة
الشعر ونقد الكلام ، وفيه ألف قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٥ هـ
كتاباً سماه (نقد الشعر) وألف الحسن بن عبد الله العسكري المتوفى
سنة ٣٨٢ هـ كتاباً سماه (الصناعتين) يعني صناعتي النظم والنثر ، وإنما
الغاية بالمعاني والبيان والبدیع حادثة من التأخرين . وفي هذا الكلام
نظر لأن عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ألف كتاباً في البديع .
ومن الحق أن يقال : إن العرب في العصر الجاهلي والإسلامي وأول
العصر العباسي عرفوا فن النقد بأذواقهم وسلاتقهم وإن لم يعرفوه علماً
مستقلاً ، له من الخصائص والميزات ما لكل علم .

وإن ما قدمناه من الأمثلة التي انتقدت على امرئ القيس والتأبغة
والمهيب وجريو وغيرهم . وما ذكره محمد بن سلام الجمعي المتوفى سنة
٢٣٢ في (طبقات الشعراء) والجاحظ مورو بن بحر المتوفى سنة ٢٥٥ هـ
في (البيان والتبيين) وابن قتيبة عبد الله بن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦ هـ
في (أدب الكاتب) والبهره محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٦ هـ في (الكامل)

وأبو الفرج الاصفهاني علي بن الحسين المتوفى سنة ٣٥٦ هـ في (الأغاني) وعلي ابن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ في (الوساطة بين المتنبي وخصومه) والآمدي الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ هـ في (الموازنة بين أبي تمام والبحري) والصاحب اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ في (كشف ماوىء المتنبي) والحافظي أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر البغدادي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ في الرسالة التي انتقد فيها المتنبي وبيّنه سرقاته ، وما شاكل هذا من الكتب والرسائل . كل هذا يدل على معرفتهم النقد قبل أن يكون علما . ولقد أظلم أبا العلاء طرف من المهد الذي كان فيه علم البلاغة بأنواعه علما كاملا . وقد تأثر بالنقد العلمي والأدبي كما سيأتي ، وكان لنقده أثر كبير مهد به السبيل للجرجاني والساكبي ومن لف لقيها . وسنذكر بقية العلوم التي كانت في هذا العصر في الكلام على ثقافته .

الشعر

ابتدأ تقدم الشعر في ألفاظه ومعانيه وأخيلته ، وتعددت أوزانه وقوافيه وأغراضه من فاتحة العصر العباسي ودبت إليه صناعة البديع من مهد بشار ابن برد ، وتمت على يد مسلم بن الوليد . وتمت على يد أبي تمام واستعذب الشعراء طريقته فاحتذوا على مثاله . ونبت في القرن الرابع والخامس طائفة من الشعراء المقلين كأبي الطيب المتنبي وأبي فراس الحمداني وأبي القحح بن أبي حصينة والشريف الرضي وأمثالهم . ولم يحل شعر هؤلاء من أثر بين لقضاء البديعة ، ولكن على الغالب كان حظها قليلا من التكلف الذي يورث الكلام حماجة . ومنها ما يزيد الشعر رونقا وطلاوة .

ألفاظ الشعر

وكان الغالب على هذه الطبقة النزوع إلى الإيجاز واطراح الفضول من القول والعناية بتخير الألفاظ الفالقة المبنى الكثيرة المعنى ، واستعمال كثير من الاصطلاحات العلمية المتعددة وذكر كثير من أسماء رجال التاريخ كأرسطو وجالينوس ، والإشارات إلى أصحاب التحل والمذاهب كاللأونية والدمرية والقعدية ونحو ذلك مما اكتظ به شعر المتنبي والرضي والمعري وغيرهم .

المعاني

وأما المعاني فقد تأثرت بالحضارة العباسية والنهضة الفكرية والحياة السياسية والاجتماعية ، ولقد أمدت هذه المؤثرات قرائع الشعراء وشحذت فطنتهم وغنت ثقافتهم فبرزت لديهم المادة واتسعت آفاق الحبال وتمددت صوره ، فجاءت معاني الشعر وأخيلته آية في الوضوح والروعة .

وبما زاد الشعر تقدماً ورقياً في هذا العهد تعدد الملوك والأمراء والمتغلبين وحرص كل منهم على أن يتخذ من الشعراء لساناً يتوهم بذكره ويعدد مناقبه ويقرظ أفعاله وينال من خصومه لتعزير منزلتهم في أعين الناس . وكانت كثير من هؤلاء الرؤساء على شيء من العلم والأدب ، فكانوا يجلون الشاعر بقدر إجادته ، ويفدون عليه من الصلات والأعطيات ما يملك لسانه على مدح غيرهم ، وكانوا يجنون معرفة الشعراء ويتلون أدام ، كما وقع للمتنبي عند سيف الدولة أولاً وعند كافور ثانياً وابن العبد ثالثاً وعضد الدولة رابعاً . فكانت هذه العوامل مع ما للشاعر من الميزة عند العامة والخاصة تدفع الشعراء إلى النساب في الإجابة والإقتان في الابتكار ، وكثر بذلك سواد الشعراء ، وبكيفية برهانا على كثرتهم في كل عصر أن صاحب ابن عباد بن قسراً نهأ به خمسون شاعراً ، وأنه قال : 'مدحت

والعلم عند الله بمائة ألف قصيدة شعراً عربية وفارسية . وأن سيف الدولة اجتمع بيابه خلق كثير من الشعراء النوابغ ، وأن أبا العلاء وقف على قبره فنانوه شاعراً أو أكثر .

فنونه الشعر

أما فنون الشعر في هذا العهد فقد تناولت جميع ما نظم فيه المتقدمون ، وارتقت عليها من كل جانب ، ولم يزد الشعراء فناً جديداً على من تقدمهم . إلا أن أبا العلاء أحدث الشعر الفلفي ولم يكن معروفاً قبله بهذا الشكل . وليست النهضة الشعرية في هذا العهد مقتصة بالشعر العربي فحسب وإنما كانت شاملة غير العرب إذ فيه نظمت الشاهنامة الفارسية ، وهي ستون ألف بيت في سنة ٥٣٨٤ .

ويمكن أن يقال باختصار : إن الشعر في هذا العهد بلغ أقصى غاية في الاقتنان في التشبيه وتنويع المجاز والاستعارة ولطف الكناية وروعة الخيال وصحة المعاني ونيل المقاصد ، واستخلاص اللباب من الثقافات الأعجبية والعربية وإدماج مسائل العلم واصطلاحاته في الشعر . كل ذلك بأسلوب رائع جامع بين الرقة والمتانة والإيجاز الوافي بالعرض في أكثر الأحيان .

الرواية

كان لكل شاعر في الجامعة رواية فأكبر ، ودرج على ذلك الناس في العصر الأموي وقسم من العصر العباسي . ولكن لما جاء الإسلام تعددت أنواع الرواية ، فكان للقرآن رواية وللحديث رواية وللغة رواية وللأدب رواية ، وقد عني أهل الحديث غناية كبرى بالرواية وشروطها وشروط

الراوي ، وفسموا المروي بحسب السند والمثل إلى أقسام متعددة . وجعلوا طرق تحمل الحديث المروي ثمانية ، الأول : سماع لفظ الشيخ وهو أعلاها . الثاني : القراءة على الشيخ ويسيه بعضهم عرضاً . الثالث : الإجازة كأن يقول لرجل : أجزتك صحيح مسلم أو أجزت لك أن تروي عني صحيح البخاري مثلاً . الرابع : المناولة ؛ كأن يدفع الشيخ إلى الطالب أصل سماعه ويقول له : هذا سماعي أو روايتي عن فلان فاروه عني أو أجزت لك روايتي عني . الخامس : الكتابة ؛ وهي أن يكتب الشيخ مسموعه لرجل ، ويقول له : أجزتك ما كتبت به إليك . السادس : إعلام الشيخ الطالب أن هذا الحديث أو الكتاب سماعه من فلان . السابع : الوصية ؛ وهي أن يوصي الشيخ عند موته أو سفره بكتاب يرويه لشخص آخر . الثامن : الوجدادة ؛ وهي أن يقف على أحاديث بخط راجعها . ولكل واحد من هذه الأقسام شروط وأنواع مبسطة في كتب المحدثين ؛ وفي بعضها خلاف بين العلماء . وفي كتاب (تدريب الراوي في شرح تقريب المناوي) للسيوطي ص ١٢٩ ما يكفي لإيضاح هذا المقام .

وقد جرى بعض الأدباء على شيء من طريقة المحدثين وإن فسروا عنهم في الضبط والتحرير والبحث عن عدالة الراوي وصفاته التي تدعو إلى الوثوق بروايته . وكانت رواية الأدب في فاتحة العصر العباسي باللغة أشدها من العناية وتحري الصدق ؛ إلا أن كتب الأدب كانت صغيرة وأكثرها في موضوع خاص .

ثم تغيرت في العصور التي بعده رغبة الأدباء من التأليف في غرض واحد أو نوع واحد إلى جمع أنواع متعددة من الأدب ، فظهر مثل كتاب (البيان والتبيين) و (الحيوان) للجاحظ وكتاب (المنظوم والمنثور) لأحمد ابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ وهو من تلاميذ الجاحظ ، ومثل كتاب

(الكامل) للبردو (الأغاني) و (أمالى القالي) و (العقد الفريد) و (يتبية الدهر). كثير من أمثال هذه الكتب التي جمعت ما تفرق من الروايات كما جمعت صوراً مختلفة من الأدب.

وسنرى أن أبا العلاء كان متأثراً بطريقة أهل عصره وما قبله في الرواية في الحديث والأدب، وأنه قال في كتاب (غريب الحديث) : قرأه علينا عثمان بن عبد الله وهو سمعه من عدي بن عبد الباقي وهو سمعه من علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد. وأنه قال في الجزء الثاني من ذكرى حبيب : قرأ علي هذا الجزء أبو الحسن يحيى بن محمد الرازي من سنة ٤٤٦هـ إلى سنة ٤٤٧هـ وأجزت له أن يرويّه عني على حسب ما قرأه.



المقام في اللؤلؤ

نشأته ومبائه :

لم ننف في كلام الذين كتبوا في أبي العلاء قديماً وحديثاً على مايفصل لنا نشأته في فاتحة حياته ، ولا مااجتازه من الأطوار وألم به من المصائب في حياته كلها . وكل ماذكروه في ذلك أنه ولد سنة ٣٦٣ هـ ومي بالجدري في السنة الرابعة من عمره ، وأنه رحل إلى حلب وبغداد ، ثم لزم منزله في المرة حتى توفي . وأشبه ذلك من الحوادث التي لاتتفق غة الباحث وما قطعه من مراحل الحياة ، ومر به من الأطوار والأحوال لايزال سرأغامضاً لم تساحنا الأيام بالاطلاع عليه .

وقد كان أبوه يحدب عليه حتى توفي في حص سنة ٣٧٧ هـ على قول ياقوت في (إرشاد الأريب) جزء ١ ص ١٦٣ . وفي معرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ على قول ابن العديم^(١) ، فيكون عمره عند وفاة أبيه أربعة عشر عاماً على قول ياقوت ، ونحو اثنين وثلاثين عاماً على قول ابن العديم . ولعل موته في المعرة أقرب إلى الصواب لأنه لو كان ميتاً في حص لأشار إليه أبو العلاء في مراثيته أو غيرها ؛ ولم أر في كلامه مايدل على ذلك بل قال صاحب (التنوير) في شرح قوله :^(٢)

مُجَاوِرَ سَكْنٍ فِي دِيَارٍ بَعِيدَةٍ مِنْ الْحَيِّ سَفِيَّالٍ دِيَارِوَالسَّكَنِ

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٣ عن الانصاف والتحري - لابن العديم - .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٩٢٤ والتنوير ٢٨٧/١ . والسكن : أهل الديار .

أي حلت في البيت الجديد مجاوراً للقرم ساكنين في ديار ، يعني المقابر ، وهي بعيدة من الهي على قربها بالمسافة . وهذا يشعر بأن المقابر التي دفن فيها قرية فهي في المرة ولو كانت في حمص لكانت بعيدة .
وسأتي أن أمه توفيت سنة ٤٠٠ هـ ، وهو في بغداد ، أي قبل رجوعه إلى المرة .

لعب في مراثيه وبعدها

وذكر أنه في حداثة سنه كان يلعب مع الصبيان ، كما يأتي ذلك في قصة الحلبين الذين جاءوا ليختبروه ، ونقل الثعالبي في (تة البقية)^(١) عن أبي الحسن الدلفي المصمعي أنه قال : « لقيت بجمرة النعمان أُمِّي شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من المزل والجد ، يكنى أبا للعلاء » ، وسأتي تمام قوله في الكلام على من زاره في المرة .

قال ابن العديم :^(٢) « وهذا إن صح عن أبي العلاء فقد كان في حال الحدادة لأن أبا العلاء كان بعيداً عن الهو والمزل » . وشك صاحب (الذكري) في صحة ذلك فقال :^(٣) « وما نشك في إحدى اثنتين : إما أن تكون الرواية مكذوبة ، وإما أن يكون لعبه بالشطرنج قد كان بأحجار معلقة تميزها الأيدي ، وذلك شيء لم نصل إلى معرفته الآن . وربما كان يلعب الشطرنج بلسانه كما يلعب أهل الغرب الآن بوسائل البرق والبريد » . ١ هـ

(١) تعريف القمصاء بأبي العلاء ص ٣ عن تة بنية الدر - للثعالبي - .

(٢) تعريف القمصاء بأبي العلاء ص ٥٥٨ عن الاضاف والتحريري - لابن العديم - .

(٣) ذكرى أبي العلاء - لطف حسين - ط ٢ ص ١٦١ ، باختصار في النفل .

أما أن الرواية مكذوبة فيحتاج إلى ما يؤيده ، والقول المبرد في مثل هذا لا يفيد شيئاً ، وأما أن يكون اللعب بأحجار مطقة أو بالهاتن فأما ارتضائه فإنه يدل على أنه كان يلعب به . وقد ذكر الشطرنج ورفقته وأسماء قطعه في مواطن من شعره ، منها قوله في القط : ^(١)

أَيُّهَا اللَّاعِبُ الَّذِي فَرَسُ الشُّطْ—رَنْجٍ هَمَّتْ فِي كَفِّهِ بِالصَّهِيلِ
مَنْ يُبَارِيكَ وَالبَيَازِيقُ فِي كَفِّهِ—كَ يَغْلِبُنْ كُلَّ رُحٍ وَفِيلِ
تَصْرَعُ الشَّاهَ فِي الْمَجَالِ وَلَوْجَا ، مُرْدَى بِالتَّاجِ وَالْإِكْلِيلِ
كُفِّ رَأْيِي يَسْتَأْسِرُ الْمَلِكَ الْآءَ—ظَمَ بِالْوَاحِدِ الْحَقِيرِ الذَّلِيلِ ...

وقوله في اللزوم ^(٢) :

إِنْ لَمْ تَحَوَّلْ فَرَازِينَآ بَيَازِيقُكُمْ فَالشَّاهُ فِيلٌ وَذَلِكَ الْفِيلُ فِرْزَانٌ

وقوله ^(٣) :

فِي بُقْعَةٍ مِنْ رُقْعَةٍ يَسَّرَتْ لِلْبَيَازِيقِ الْفَتْكَ بِفِرْزَانِهَا

فمثل هذه الأبيات لا يتأتى قولها إلا لعارف منزلة الرخ والفيل والفِرْز والفَيْز ، عالم بأن البيزق أضحا وأن الفرز أقوامها ، وأن البيزق قد يفك بالفرز . وقد يحول فرزا ، وقد يقتل الشاه لأن غير العالم بذلك لا يستطيع أن يصوغ هذه المعاني المطابقة للعب الشطرنج . وقد استوفى

(١) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ٢٠٦٨ ، والرخ : حيوان على صورة البعير له سنامان وسمي به شخص من أشخاص الشطرنج .

(٢) اللزوميات ص ٢٦٢ .

(٣) اللزوميات ص ٢٨٠ .

أسماء الرقعة والقطع التي يلعب بها وهي الشاه والفرز والرخ والفيل والبيذق .
وقد ذكر الصفي أنه رأى في مصر أمى يلعب بالشطرنج مع العوالي
ويطلبهم وقال في (نكت المبيان) ص ٨٦ : فإنه كان عالية في الشطرنج
يلعب ويتحدث وينشد الشعر ويتوجه إلى بيت الخلاه ويعود إلى اللعب
ولا يتغير عليه نقل شيء من القطع ... »

وكان أبو العلاء غزير العلم واسع الاطلاع على أخبار الأمم وعقائدها
ومزاعمها وأيامها كثير الحفظ للنوادر والحوادث ، فكان جليله منه معين
لا ينضب ومورد لا يئبل ، واكتنالم نوفق إلى معرفة حياته بصورة مفصلة .

تعليمه

لم يفصل لنا التاريخ الطريقة التي سلكها أبو العلاء في تعلمه ، ولا بين
جميع الشيوخ الذين تخرج بهم في العلوم التي تعلمها ، ولا أوضح لنا ما أخذه
من كل واحد منهم ، ولا أي كتاب درسه في كل فن . وبجمل ما ذكره
المؤرخون في هذا الباب مخوف بالغموض والإبهام ، وأكثره قائم على الظن
يتابع فيه اللاحق السابق من غير بحث ولا تحصيل ولا توضيح وتحقيق ،
وأكثر من كتب في أبي العلاء من المتأخرين طبع على غرار المتقدمين
واقفى آثارهم ، ولم يبين لنا من أين استمد أبو العلاء ثقافته الواسعة
واقبى علومه المتعددة ، ولهم في ذلك عذر لأن المتقدمين غفلوا عن ذكر
هذه الناحية أو أغفلوها . وكل ما ذكره أنه قرأ القرآن بكثير من
الروايات على شيوخ يشار إليهم في القراءات ، وأنه قرأ النحر واللفة بالمرّة
على أبيه وعلى جماعة من أهل بلده كفي كثر أو من يجري مجراهم من

أصحاب ابن خالويه وطبقته ، وأنه قرأ مجلب على ابن سعد . ولم يعرفوا
بواحد من هؤلاء إلا قليلاً وإلا بصورة مجمة . ومثل ثقافة أبي العلاء الماثرة
في نظمه ونثره والمستندة من علوم مختلفة لا يمكن أن تال إلا بطريق
الدراسة ، ولا يمكن إحرازها كلها من علم القراءة والنحو واللغة . وأراد
بعضهم أن يتوسع ، فزعم أن أبا العلاء قرأ في غير المعرة : في اللاذقية أو
بغداد أو غيرهما ، وهذا بكذبه أبو العلاء نفسه كما سيأتي .

وإذا كان أبو العلاء نخرج في هذه العلوم المتعددة في المعرة وجب أن
تكون المعرة في عهده حافلة بالأدباء مكتظة بالعلماء ، ولم نثر على نص
تاريخي يوضح لنا الحياة العقلية فيها في ذلك العهد . ولكننا وقفنا على تراجم
فريق من كان في عصره من العلماء والشعراء ، وفيهم الزراء والفقهاء واللغويون
والنحاة والمحدثون والأورخون وغيرهم من العلماء في علوم مختلفة ، وهذه
أسماء طائفة منهم :

العلماء الذين كانوا في المعرة في عصره

١ - أبو نصر أحمد بن علي ... بن أبي الفضل الكنرطابي العربي
المتوفى سنة ٤٥١ هـ كان عالماً فاضلاً واسعاً في علم الحديث ، روى عنه
جماعة من الأفاضل .

٢ - أبو الفضل أحمد بن علي بن عبد اللطيف ... بن زريق قرأ على أبي
العلاء وروى عنه سبعة أجزاء خرجها من حديث أخيه أبي الهيثم .

٣ - جعفر بن أحمد بن صالح . . يجتمع مع أبي العلاء في جده
سليمان الأعلى . وكان من أعيان كتّابه وقرأ عليه كثيراً من كتب الأدب
وروى عنه .

٤ - جعفر بن علي بن المهذب المري ، روى عن سليمان بن محمد جد أبي العلاء ، وهو الذي رثاه أبو العلاء بقوله من قصيدة في السقط : (١)

فَلْيَذْرِفِ الْجَفْنُ عَلَى جَعْفَرٍ إِذْ كَانَ لَمْ يُفْتَحْ عَلَى نَدْوٍ

٥ - أبو حمزة الحسن بن عبد الله بن محمد .. للتوخي المري الذي رثاه بأدالية المشهورة ، وفيها يقول : (٢)

قَصَدَ الذَّهْرُ مِنْ أَبِي حَفْزَةَ الْأَوْ ابِ مَوْلى حَجى وَخَدْنِ اقْتِصَادِ

٦ - أبو سعد عبد الغالب بن عبد الله بن الحسن بن أبي حصين المري .

٧ - عبد القاهر أخو عبد الغالب .

٨ - أبو الحسن علي بن محمد أخو أبي العلاء ، سمع على عمه جميع أماله وولي قضاء المرأة وحماة .

٩ - أبو الحسين علي بن محمد بن عبد اللطيف .. ابن زريق المري ، قرأ على أبي العلاء .

١٠ - أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاتم كتب كتب أبي العلاء بأسرها .

١١ - الفضل بن أبي الحسين بن محمد المري ، أحد من روى الحديث عن أبي العلاء .

١٢ - أبو الفتح محمد بن الحسن ... بن روح المري .

١٣ - أبو الفتح محمد بن علي .. بن أبي هاتم ، وكان يكتب لأبي العلاء ووضع له كتاب (المختصر الفتح) و (عون الجمل) .

١٤ - أبو المحاسن الفضل بن محمد بن مسعر المصري ، قرأ على القدوري والصيري ، وصنف كتاباً في الرد على الشافعي وتاريخاً للنحاة واللغويين وتوفي سنة ٤٤٤ هـ .

(١) دروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٠٧

(٢) دروح سقط الزند ، ق ٣ ص ٩٨٥

- ١٥ - أبو الحسن ميسر بن هبة الله بن محمد بن مسمر المعري ، صنف كتاباً في معاني الشعر الذي ابتكره قائله وأبدع فيه ، فرغ من تصنيفه سنة ٥٤٥٠ .
- ١٦ - أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب المعري ، كان معاصراً لأبي العلاء وله تاريخ نقل عنه ابن العديم وابن الوردي وياقوت وغيرهم .
- ١٧ - أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف .. بن زريق المعري كان عالماً بالأخبار ، وقد جمع تاريخاً على ترتيب السنين . وأدرك أبا العلاء .
- ١٨ - أبو زكريا يحيى بن مسمر التتويحي المعري ، روى عنه أبو العلاء وغيره .
- ١٩ - أبو الحسين بن علي بن الفضل بن جعفر بن المهذب المعري ، كان من القراء اليهودين والشعراء المجيدين . قرأ القرآن للبهمة ولغيرهم وكانت مفسراً خطيباً وتوفي نحو سنة ٥٤٥٥ .
- ٢٠ - أبو طالب المعري شاعر مجيد أورد له صاحب (دمية القصر) أبياتاً جيدة .
- ٢١ - أبو الحسن سليمان بن محمد جد أبي العلاء التتويحي سنة ٥٣٣٧ روى عنه أبو العلاء وغيره .

الشعراء الذبحه لأنوا في عهده في المعرفة

- ١ - إبراهيم أبو الفضل المعري ، كان جيد الشعر وله مدائح في شبل الدولة نصر بن صالح المقتول سنة ٥٤٢٩ .

٢ — إبراهيم بن عبد الرحمن المري ، وذكره البخارزي وقال :
إنه من مداح صاحب .

٣ — أبو اليقظان أحمد بن علي الترخي المري كان شاعراً محمناً ،
سمع من أبي العلاء ثلاث قصائد .

٤ — أبو الحسن أحمد بن محمد بن الدويدة المري ، شاعر مطلق
حنيف الروح كثير الدعابة .

٥ — الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله ... بن أبي حصينة ، شاعر
مطلق قال الإمامة بشعره وقد رثى أبا العلاء كما سيأتي .

٦ — أبو يعلى حمزة بن عبد الرزاق بن أبي الحصين المري وهو
الذي رثى مقلد بن مقلد والد ملوك خيبر المتوفى سنة ٤٣٥ هـ .

٧ — أبو القاسم سالم بن الفرج بن عشاير الحصيني الترخي المري ،
شاعر مجيد وكان متصلاً بأبي الفتح بن أبي حصينة .

٨ — أبو المظفر سعد بن أحمد بن حماد المري ، وهو الذي روى
(ملئ السيل) عن أبيه عن أبي العلاء .

٩ — القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين ، أحد حنات وقته
كان عالماً شاعراً .

١٠ — القاضي أبو غانم عبد الرزاق بن عبد الله بن الحسن . . ابن
أبي الحصين الترخي المري ولد سنة ٤١٨ هـ وتوفي سنة ٤٩١ هـ وكان
شاعراً مجيداً .

١١ — أبو سالم عبد الله بن أحمد بن الدويدة المري .

١٢ — علي بن أحمد بن الدويدة أخو عبد الله .

١٣ — أبو محمد عبد الله بن محمد أخيه أبي العلاء الذي تولى خدمته .

١٤ — أبو الهيثم عبد الواحد أخو أبي العلاء المتوفى سنة ٤٤٢ هـ .

١٥ — أبو الرضا عبد الوهاب بن فوت ، وسياتي فيمن رثى أبا العلاء .
١٦ — أبو القاسم علي بن الحسن بن جليات ، وبينه وبين أبي العلاء مراسلات شعرية .

١٧ — أبو الحسن علي بن همام تلميذ أبي العلاء وأحد من رثاه ، وسياتي .
١٨ — القاضي أبو القاسم المحسن بن عبد الله . . بن ممرؤس التنوخي الحنفي المتوفى سنة ٨٤١٩ هـ ، كان من أوعية العلم وله مصنفات كثيرة ووصايا وأشعار .

١٩ — أبو الجهد محمد أخو أبي العلاء المتوفى سنة ٨٤٣٠ هـ .
٢٠ — أبو الجهد محمد بن عبد الله بن محمد أخيه أبي العلاء ، روى عن عم أبيه مصنفاته وأشعاره وكان شاعراً ناثراً فحماً راوياً لأحدث مفتياً خطيباً .

٢١ — أبو صالح محمد بن المهذب العربي ابن ممة أبي العلاء ، وسياتي فيمن رثاه من شعره .

٢٢ — أبو الخير المفضل بن سعيد بن ممرؤس الملقب بالعزيمي لاختصاصه بعزير الدولة أبي شجاع فاتك .

٢٣ — أبو نصر مهنا بن علي بن المهنا المعروف بالناظر الشاعر المهيد المتوفى سنة ٨٤٥٤ هـ .

٢٤ — القاضي الرئيس أبو مسلم وادع بن عبد الله بن محمد أخيه أبي العلاء كان رجلاً زمانه حمة وعلماً وأديباً وكرماً وحليماً وله شعر ونثر ولد سنة ٨٤٣٦ هـ .

٢٥ — أبو المقدم وجيه بن عبد الله بن نصر أو مسر التنوخي كان شاعراً فاضلاً فصيحاً ولد سنة ٨٤٣٠ هـ .

٢٦ — أبو الحسين العربي المعروف بالقتنوع ، له شعر جيد وكان معاصراً لأبي العلاء .

٢٧ — البليغ العربي المذكور في وقائع الفرنج في نصر بن صالح .

٢٨ — أبو العباس أحمد بن خلف المتع .

٢٩ — إبراهيم بن الحسن البليغ .

وقد ذكرنا طائفة في (تاريخ المعرة) من العلماء والقراء والشعراء غير هؤلاء .

وأكثر هؤلاء الذين ذكرناهم هنا جمع بين العلم والشعر ، وهناك طائفة كبيرة لم نغتر على تراجمهم منفصلة وإنما ذكرنا في الشيوخ الذين روى عنهم عنهم ، وفي أقال من وقفنا على تراجمهم ما يدل على أن لهم حظاً وافراً من العلوم العقلية . وسيأتي أن غانين شاعراً ونوه على قبره ، وأكبر ظني أنهم كلهم من المعرة ومن تدوخ أيضاً ، وهذا وإن لم يوضح لنا الحياة العقلية في المعرة في ذلك العهد توضيحاً حقيقياً ، يدلنا على أن أهل المعرة فيه قد ضربوا بسهم وافر في كل علم واخذوا حظاً جزيلاً من كل فن ، ونبغ فيهم عباقرة وأفذاذ في العلم والشعر ، وألفوا كتباً عظيمة في فنون كثيرة ، وابتكر بعضهم تأليفاً في موضوع لم يسبق إليه كالكتاب الذي ألفه مَبْسُور بن هبة الله في معاني الشعر الذي ابتكره قائله ، فإني لأعلم أحداً تقدمه في ذلك .

ويدلنا أيضاً على أن العلماء فيها كانوا أحراراً في تفكيرهم وفي إبداء آرائهم في كل علم ، وعلى مدى تفكيرهم وجرائهم ، حتى رأينا أبا المحاسن الفضل بن محمد بن مسمر يصنف كتاباً في الرد على الإمام الشافعي .

وقد رأينا المؤرخين يقولون في ترجمة بعضهم : كان من أوعية العلم ، وفي ترجمة آخر : صنف كتاباً في كذا . . وفي ترجمة آخر : له مصنفات

كثيرة ، وفي ترجمة آخر : كانت رحل زمانه علماً وأدباً وشعراً ، وفي هذا : كان شاعراً مجيداً ، وفي ذلك : كان مفصلاً أو خليلاً أو مؤرخاً أو كان أحد حسنة وقته ، أو نحو ذلك من الصفات واكتنا لم نعتز على أثر لواحد منهم ولا على حسنة من حسناته ، ولا عرفنا مقدار ما ألفه كل واحد منهم ولا نوع ما ألفه ولا شيئاً من شعر شاعر إلا قليلاً . وأظن أننا لو أتبع لنا الاطلاع على كل من نبغ في العلم والأدب في ذلك العهد وعلى آثار كل واحد منهم لرأينا علماً جماً وأدباً واسعاً وشعراً رائعاً وبياناً معجزاً وابتكاراً بارعاً .

ولسبل علينا أن نصدق أنها العلاء على كثرة علمه وأدبه ، بقوله (١) : « وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتهاد علم من عراقية ولا شام » . لأنه استغنى بما في بلده من أنواع العلوم وبمن فيها من العلماء والمبارزة عن غيرهم . على أننا سنذكر بعضاً من شيوخه الذين عرفناهم وما عرفناه من مزاياهم وخصائصهم .

الطريقة التي درس العلوم فيها :

لم يوضع لنا التاريخ الطريقة التي سلكها أبو العلاء في تعلمه . والعادة المتبعة التي أدركناها في معرفة الزمان منذ أول هذا العصر في تعليم الأطفال المبصرين والكفوئين أن الطفل إذا بلغ السابعة من عمره وضعه أبوه في مكتب عند شيخ . وأول ما يعلّمه حروف الهجاء ، ثم يعلّمه القرآن ، ثم يعلّمه أحكام القراءة والتجويد ، فإذا أتّم ذلك نقله إلى شيخ آخر في مسجد أو مدرسة ، فيعلّمه شيئاً من النحر والفقه ، ثم إذا شاء نقله إلى شيخ آخر فدرس عليه ما أراد من علوم الدين واللسان وغيرهما .

(١) من رسالته إلى خاله أبي القاسم علي بن سبيكة - رسائل أبي العلاء المعري - شرح شاهين عطية ص ٧٨ .

وأظن أن هذه الطريقة موروثة عن المتقدمين من أهل المعرفة ، لأن أبي وقبله جدي تعلما على هذه الطريقة ، وأنت أبا العلاء درج عليها في فائحة تعلمه كما درجت عليها أنا وأمثالي من أهلها . ومن الجائز القريب أن يكون أبو العلاء تعلم الهجاء بالحروف النافرة التي يعلم بها المكفوفون في هذا العصر ، لأنها كانت معروفة في ذلك العهد على ما يشعر به كلام أبي العلاء حيث يقول (١) :

كَأَنَّ مُنَجِّمَ الْأَقْوَامِ أَعْمَى لَدَيْهِ الصُّحُفُ يَقْرَؤُهَا بِلَمْسٍ

وبزيد هذا تصويره أشكال بعض الحروف كقوله (٢) :

وَلَا حَ هَلَالٌ مِثْلُ نُونٍ أَجَادَهَا بِجَارِي النَّضَارِ الْكَاتِبِ ابْنِ هِلَالٍ

وقوله (٣) :

أَنَا مَنْ أَقَامَ الْحَرْفَ وَهِيَ كَأَنَّهَا نُونٌ بِدَارِكَ وَالْمَعَالِمُ أُسْطَرُ

وقوله (٤) :

وَحَرْفٍ كَنُونٍ تَحْتِمْرَاءُ وَلَمْ يَكُنْ بِدَالٍ يَوْمَ الرَّسْمِ غَيْرَهُ النُّقْطُ

وأما العلوم التي أتقنها وأشار إلى بعض ما اصطاح عليه أهل كل فن فكثيرة ؛ وسنذكر جملة منها مع ما في كلامه من الاشارات إلى ما اصطاح عليه أهلها ، ونشير إلى جماعة ممن أخذ عنهم وأخذوا عنه ممن عرفناهم .

(١) الزوبيات ٨ ص ٣٠١

(٢) خروح سقط الزند ق ٣ ص ١١٩٧ .

(٣) خروح سقط الزند ق ٣ ص ١١١٧

(٤) خروح سقط الزند ق ٤ ص ١٦٥١

شيوخه

قال في (ذكرى أبي العلاء)^(١) بعد مقدمة استنتج منها أمرين ، أحدهما : أن العلم هو الذي ملك حياة أبي العلاء . والثاني : أنه اعتمد على نفسه في تحصيل علمه أكثر مما اعتمد على الأساتذة والشيوخ : .. « ويؤيد هذا أفا لا نعرف له من الأساتذة إلا أباه ومحمد بن سعد في اللغة ، وبجيب بن مصير في الحديث » .. إلى آخر كلامه .. والصواب بجيب بن مسعر كما سبق ذلك ؛ ومن المقرر عند العلماء أن عدم معرفة الشيء لا تستلزم عدمه . وقد عرفنا بعض شيوخه في بعض العلوم .

الحديث

ذكر ابن العديم^(٢) أنه أخذ الحديث عن أبيه أبي محمد ، وعن جده سليمان بن محمد ، وعن أخيه أبي الجهد محمد بن عبد الله ، وعن جدته أم سلمة بنت الحسن بن إسحاق بن بلبل . وعن أبي زكريا بجيب بن مسعر بن محمد ابن بجيب بن الفرج المري التتوخي ، وعن أبي الفتح محمد بن الحسن بن روح المري ، وعن أبي الفرج عبد الصمد بن أحمد بن عبد الرحمن الضرير الطحفي ، وعن أبي بكر محمد بن عبد الرحمن الرحي ، وعن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن كركير الدقي ، وعن القاضي أبي مرو عثان بن عبد الله الطرسوسي قاضي معرة النعمان . وروى عن أخيه أبي الهيثم شبنأ من شعره ، وخرج من حديثه سبعة أجزاء رويت عنه .

اللغة والنحو

ذكر ابن العديم^(٣) أنه قرأ اللغة والنحو في المعرة على أبيه وعلى أبي

(١) ذكرى أبي العلاء - له حجب - ط ٢ ص ١٤١ - ١٤٨

(٢) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٦ عن الأوصاف والنحري ، لابن العديم .

(٣) المصدر السابق ص ٥١٥ عن الأوصاف والنحري ، لابن العديم

بكر محمد بن مسعود^(١) بن محمد بن يحيى بن الفرغ النحوي ؛ وأنه دخل حلب صبياً وقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد راوية^(٢) أبي الطيب ؛ وسباني فحقيق ذلك في الكلام على ثقافته في النحو . ونقل الففطي عن الخطيب البزري أنه قال^(٣) : كنت قرأت كتاب (غريب الحديث) لأبي عبيد على أبي العلاء سنة ٤٤٥ هـ ، قال : قرأ علينا سنة ٣٨٥ هـ كتاب (غريب الحديث) الفاضي أبو مرو عثان بن عبد الله الكرجي . وذكر أنه سمعه من أبي مبر عدي بن عبد الباقي ، وسمعه أبو مبر من علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد . وذكر الففطي أيضاً أنه أخذ اللغة عن قوم من بلده كني كوثراً أو من مجري مجرام من أصحاب ابن خالويه وطبقته .. هؤلاء عرفناهم من شيوخه في الحديث واللغة والنحو ، ولم نقف على اسم أحد من شيوخه في بقية العلوم ، وزعم الففطي وغيره أنه ذهب إلى طرابلس واللاذقية وأخذ العلم عن راهب . وزعم ابن المديم^(٤) أنه سافر إلى بغداد للاستكثار من العلم فأخذ بها عن علي بن عيسى الربعي وأبي أحمد عبد السلام البصري المعروف بالواجك ، وأبي علي عبد الكريم بن الحسن ابن حكيم السكري النحوي اللغوي . وزعم السيوطي^(٥) أنه سمع من عبد السلام البصري في بغداد . وزعم صاحب (الضرام) أنه تلمذ على عبد الوهاب بن نصر المالكي ، وقال أبو الفداء وابن الشحنة في (روض

(١) كذا في الأصل وأظن أنه مر بدلاً من مسعود وإله أخو يحيى المتقدم (ج)

(٢) ورد في الأصل : رواية ، وصحهما : راوية ، كما في التريف .

(٣) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢ عن إنهاء الرواة على أبناء النواة - لقفطي مع اختلاف بيرفي النفل .

(٤) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٥ عن الانصاف والنحوي - لابن المديم .

(٥) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٢ عن بنية الرواة - للسيوطي .

الناظر (١) : إنه لم يتخذ لأحد أصلاً . وجميع هذه الأقوال قائمة على الظن والوهم وسيفتتن بطلانها في الكلام على رحلانه وفيمن اجتمع به .

منى أتم تعلم

لم يحدثنا التاريخ منى أتم أبو العلاء دراسته وتحصيله ، وقد ذكر في رسالته التي أنفذها إلى خاله أبي القاسم بعد رجوعه من بغداد ما يدل على الزمن الذي استغنى فيه عن أخذ العلم عن غيره دلالة إجمالية حيث يقول (٢) : وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتهاده علم من عراقي ولا سأم . وهذا يدل على أنه أتم تعلمه في العشرين أو قبلها .

أتم تعلم

قد سمعنا أقوال المؤرخين أنه قرأ على أبيه وجماعة من أهل بلده ، وعلينا من التاريخ أن المرة في عهده كانت تخرج بالعلماء والشعراء ويدل ظاهر قوله المتقدم : وقد فارقت العشرين من العمر . . على أنه لم يرحل بعد العشرين لطلب علم . وأما قبلها فسيأتي أنه لم تثبت له رحلة إلى مكان لطلب علم أو تحصيله . فهو إذن أتم تعلمه في المرة وعلى علمائها . وقد وقع في كلام أبي العلاء مثل قوله في رسالة الإغريض (٣) : وقد كنت عرفت سيدنا أن الأدب كعمود في غيب عمود . وإني نزلت من ذلك الغيب ببلد طسم . . . وقوله في رسالته إلى أبي نصر صدقة

(١) تعرف القدماء بأبي اللاس ٣٠٩ عن روضة الناظر لابن السكنة . وذكر صاحب كشف الظنون أن الكتاب هو روض الناظر ، كما جاء في المتن .

(٢) انظر الحاشية ص ١٨٣ .

(٣) رسالة الإغريض في الجزء الرابع من رسالة الغفران ص ٦٠٦ - شرح كامل الكيلاني .

الغلامي (١) : . . . وكيف يتأدى العلم إليّ وأنا رجل ضريب . . . ونشأت في بلد لا عالم فيه . . . وأمثال ذلك من الأقوال الدالة على قلة العلم والعلماء في بلده . وهذا من باب المغالاة في نواضعه ، نظير قوله في رسالة الغفران (٢) :
يظن أنني من أهل العلم وما أنا بالصاحب له ولا بالحليم . وقوله فيها :
وقد علم الله أنني لا في العير ولا في النغير . . . وقوله الآتي في رسالة الملائكة ،
وقوله في لزوم ما لا يلزم : (٣)

مَاذَا تُرِيدُونَ لَا مَالَ تَيْسَّرَ لِي فَيَسْتَمَاحُ وَلَا عِلْمَ فَيَقْتَبَسُ

وغير ذلك من الأقوال التي يريد بها تحقير شأنه والتواضع ولا يريد التي الحقيقي لأن الواقع يكذبه ، وسأتي أمثلة من ذلك في الكلام على تواضعه .

رحلاته

زعم كثير من كتب في أبي العلاء أنه بعد أن أتم ما أخذه عن علماء بلده رحل إلى حلب وانطاكية واللاذقية وطرابلس من البلدان الشامية ، وإلى بغداد لأجل طلب العلم ، وهذا ما قالوه وما نراه فيه .

رحلته إلى حلب

قال ابن العديم (٤) : إنه دخل حلب وهو صبي وقرأ على محمد بن عبد الله

(١) رسائل أبي العلاء المري ، شرح شاهين عطية ص ٩٦ .

(٢) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطئ . ط ١ ص ٣١٦ ، والحليم : الصديق والساحب

(٣) الزمبابات ٥ ص ٢٩٣ .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٥ عن الإصناف والتحريري - لابن العديم ،

وفيه : رواية ديوان التتبي .

ابن سعد رواية ديوان المتنبي . وذكر هذه الرحلة ابن خلكان والسيوطي وغيرهما . ولم يذكر أحد منهم أنه قرأ عليه شيئا من العلوم ، ولا عين نوع العلم ولا الكتاب الذي قرأه ، كما أنه لم يعين أحد منهم الزمن الذي رحل فيه لأن لفظ الصبي يقال للولد من حين يولد إلى أن ينفطم ، ويقال للغلام الذي طر شاربه صبي أيضا ، وقد بينا في غير هذا الموضع أنه اختلف هو ومحمد بن عبد الله بن سعد في رواية بيت المتنبي ، وكان القول ما قاله أبو العلاء (١) . وقد ذكر حلب في مواطن من شعره ، منها قوله في السقط (٢) :

لَيْتَ التَّحْمُلَ عَنْ ذَرَاكَ مُحْلُولٌ وَالسَّيْرَ عَنْ حَلَبٍ إِلَيْكَ رَحِيلٌ

وقوله من قصيدة يختم بها واليا بعرس (٣) :

يَا شَاكِي الثَّوْبِ انْهَضْ طَالِبًا حَلَبًا تُهَوِّضُ مُضْنَى لَحْظِ الدَّاهِ مُتَمَسِّسٌ

وقوله من قصيدة يختم بها ملكا بزفاف (٤) :

حَلَبٌ لِلْوَلِيِّ جَنَّةٌ عَدْنٌ وَهِيَ لِلْفَادِرِينَ نَارٌ سَعِيرٌ

وقوله من قصيدة يرثي بها أبا إبراهيم العلوي (٥) :

دَعَا حَلَبًا أُخْتَ الْغَرِيبَيْنِ مَصْرَعٌ بِسَيْفٍ قَوْنِقٍ لِلْمَكَارِمِ وَالْحَزَمِ

(١) ساق النسخة المصدر السابق .

(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٨٦٧ . وفي رواية البطليوسي () والبر من حلب إليك قول) .

(٣) شروح سقط الزند ق ٢ ص ٦٩٠ .

(٤) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ٢٣٥ .

(٥) دروح سقط الزند ق ١ ص ٩٥٧ ، والترنابان : لبرا ماك وطيل لسمي جنيفة الأبرش . واليف : شاطئ البحر .

وقوله في (لزوم ما لا يلزم) في المحر (١) :

حَلَبِيَّةٌ فِي النِّسْبَةِ لَأَنَّهَا حَلَبُ الْكُرُومِ وَأَنَّ مَوْطِنَهَا حَلَبٌ

وقوله فيه في الصوفية (٢) :

جُنْدٌ لَا يُبْلِسُ فِي بَدْلِيسٍ أَوْ نَهْ وَتَارَةٌ يَحْلِبُونَ الْعَيْشَ فِي حَلَبَا

وسمعه هذا لا يدل على أنه شعر صبي ، كما لا يدل على أنه دخل حلب . . وذكر حلب أيضا في مواطن من نثره منها قوله في رسالته إلى خاله : ما نكبت حلب في الإبداء والاكفاء (٣) . وقوله في رسالة إلى أبي عمرو : لم يطل به عن زيارة حلب انقطاع (٤) . وذكر في رسالة الغفران أسماء طائفة من رجالها . ولكن ذلك كله لا يوجب أن يكون عرفهم ، ولا أن تكون معرفته بهم في حلب ، ولا أن يكون أخذ علما عن أحد من علمائها . وقد كانت في حلب مكاتب كثيرة في عهد أبي العلاء ، منها مكتبة يجمع حلب وقفها سيف الدولة وغيره وقد أحرقها الشيعة سنة ٤٦٠ هـ ، على ما يفهم من كلام الذهبي . وأشار ابن العديم (٥) إلى أن خزانة الكتب في حلب نهبت في زمن أبي العلاء ، ولم يبق فيها إلا القليل ثم جدد الكتب فيها هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتباً أخرى . فلا يبعد أن يكون أبو العلاء دخلها للاطلاع على مكانها . والذي يتحصل معنا الآن أن أبا العلاء لم تثبت رحلته إلى حلب لطلب العلم بطريق صحيح واضح ، وإن نقل أنه رحل إليها فرحلته لغير ذلك .

(١) الزويات ٥ ص ٥٥ .

(٢) الزويات ٥ ص ٣٩ .

(٣) رسائل المري ص ٦٩ شرح شامين عطية .

(٤) رسائل للمري ص ٨٨ شرح شامين عطية .

(٥) تعريف القضاة بأبي العلاء ص ٥٥٦ عن الإصناف والبحري - لابن العديم .

رحلة الى انطاكية

روى البديعي في (الصبح النبي) عن الأمير أسامة بن مئذ قصة خلاصتها (١) : أنه كانت بانطاكية خزانة كتب ، وكان الخازن بهارجلا علويًا ، فقال الأمير يوما : قد خبأت لك خبيثة غريبة لم يسمع بثلاثي ، قلت : وما هي ؟ قال : صبي دون البلوغ ضرير يتردد إليّ وقد حفظته في أيام قلانل عدة كتب ، وذلك أني أقرأ عليه الكرامة والكراسين مرة واحدة فلا يستعيد إلا ما يشك فيه ، ثم يتلو عليّ ما سمعه كأنه كان محفوظا له . قلت : لعله قد يكون محفوظا له . قال : سبحان الله أيكون كل كتاب في الدنيا محفوظا له ؟ ولئن كان كذلك فهو اعظم . ثم حضر ذلك الصبي وهو دميم الحليقة مجدّر الوجه على عينيه بياض من أثر الجدري كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا وهو يتوقد ذكاء ، يقوده رجل طويل أحمر يهرب من نسيبه . فقال له الخازن : يا ولدي هذا السيد رجل كبير القدر ، وقد وصفتك عنده وهو يجب أن يحفظ اليوم ما يختاره لك . فقال له : سمعا وطاعة فليختر ما يريد ؟ قال أسامة : فاخترت شيئا وقرأته عليه وهو يموج ويستزيد فإذا مر بشيء يحتاج إلى تقريره في خاطره قال : أعد هذا ؟ فأردده مرة أخرى حتى انتهيت إلى ما يزيد على كرامة ، فقلت له : أيقنع هذا ، قال : أجل ، ثم تلا عليّ ما أملت عليه حروفا حروفا ، وأنا أعارضه بالكتاب حتى انتهيت حيث وقفت عليه فكاد عقلي يذهب لما رأيته منه ، وعلمت أن ليس في العالم من يقدر على ذلك . وسألت عنه فقل لي : هذا أبو العلاء المعري التنوخي من بيت العلم والقضاء والثروة والغنى . وذكرها البديعي أيضا في (أوج

(١) نريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٢٣ عن الصبح للنبي - البديعي .

التحري) عن ابن منذ ولكنه لم يذكر اسمه . وذكرها ابن العديم (١)
عن كتاب وضعه الشريف أبو علي المظفر بن الفضل بن يحيى العلوي
الإسحاقى نزيل بغداد ، ورواها والده عن ابن منذ ولم يذكر اسمه ،
وعبارته مقاربة لما نقلناه عن البديعي وبعد أن أوردها ابن العديم قال :
وهذه الحكاية فيها من الروم ما لا يخفى ، وذلك أنه كان بأنطاكية خزانة
كتب ... إلى آخر ما ذكرناه . وهذا شيء لا يصح فإن أنطاكية أخذها
الروم من أيدي المسلمين في ذي الحجة سنة ٣٥٨ هـ وولد أبو العلاء بعد
ذلك بأربع سنين وثلاثة أشهر في شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ وبقيت في
أيدي الروم إلى أن فتحها سليمان بن قطاش في سنة ٤٧٧ هـ ، وكان أبو العلاء
قد مات قبل ذلك في سنة ٤٤٩ هـ وأخلاها الروم من المسلمين حين استولوا
عليها فلا يتصور أن يكون بها خزانة كتب وخازن وتقصّد الاشتغال
بالعلم . ثم ذكر احتمالين ، أحدهما : أن يكون ذلك في كفرطاب لأنها
كانت مشحونة بالعلماء قبل أن يجلبها الفرنج في سنة ٤٩٢ هـ وهي قرية
من المرة ، فيحتمل أن يكون تصحف كفرطاب بأنطاكية فإن كان
كذلك فإن منذ الحاكي لهذه الحكاية أبو المزوج مقلد بن نصر بن منذ .
والاحتمال الثاني : أن يكون ذلك بحلب ، فإن أبا العلاء دخلها وهو صبي
واجتمع بمحمد بن عبد الله بن سعد ورد عليه خطأ في شعر المتنبي ،
فيحتمل أن تكون هذه الحكاية التي حكّاها ابن منذ في حلب ، وأبو المزوج
كان في حلب وله فيها دار ومنزل ، وكان بها خزانة كتب في الشرقية
التي في جامع حلب ، ثم نبت في زمن أبي العلاء وجددها أبو النجم هبة الله
ابن بديع وزير الملك رضوان ، فيحتمل أن أبا العلاء لما دخل حلب وهو
صبي اتفق له في خزانة الكتب ما ذكره ابن منذ . هذه خلاصة ما قاله
ابن العديم ، وعملها أن الرحلة إلى أنطاكية لم تثبت ، لأن البلد

(١) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٥٤ . عن الاضاف والتحري - لأبن العديم .

كانت في أيدي الروم ، ويستبعد أن تكون بها خزانة كتب بقصدها المسلمون البصرياء الباقون ، فما بالك بضير دون البلوغ ؟ .

وقد قال صاحب (الذكري) ص ١٤٤ : ولا شك أن هذه الرواية إما أن تكون منتحلة وإما أن يكون اسم أسامة وقع خطأ موقع اسم أحد آبائه من أبناء منتقد ، لأن أسامة ولد سنة ٤٨٨ هـ ، ولكنه قال قبل ذلك : قالوا : وكانت بها مكتبة عربية تشتمل من نقائس الكتب على عدد غير قليل ، فحفظ أبو العلاء منها ما شاء الله أن يحفظ . وقال بعد ذلك : لم ير أبو العلاء بأنطاكية تلك الحضارة الراقية ... ولكنها وصفت له .. وعرف آثارها بلا ريب ولعل تلك البناءات .. قد أظلت أبا العلاء حيناً ، وامل قائده قد ذكر له محاسنها .. واند كان جمهور أهل أنطاكية من الروم تمثلهم لأبي العلاء طمطهم الإغريقية .. وكانوا .. ظاهرين على أهل العراق من المسلمين .. فمن الواضح أن يؤس المسلمين قد كانت ظاهراً يستطیع هذا الصبي .. أن يتردد إلى المكاتب ويدرس فيها العلم [ملاحظته والتمكيد فيه] . فكل هذه المؤثرات قد عملت من غير شك في تكوين المزاج الخلفي والعقلي لأبي العلاء قليلاً أو كثيراً .. ، إلى آخر كلامه .

وظاهر قوله أنه استبعد أن يكون أسامة بن منتقد صاحب الحكاية ، ولولادته بعد موت أبي العلاء . وأما الرحلة إلى أنطاكية فقد قبلها بعدما شك فيها واستنتج منها ما استنتج .

والأستاذ الميني أورد كلام البديعي في ص ٥٤ وقال في ذيل الصفحة (١) : وهذه الحكاية توجد باختلاف يسير منسوبة إلى التبريزي في (غرر الحقائق) ص ١٨٧ . ولبست هذه القصة في الوضع المذكور في غرر الحقائق ، وإنما فيه قصة الأعجمي الذي سأل عن التبريزي في حلقة أبي العلاء ، وحفظ أبو العلاء كلامه بالفارسية وسأني .

(١) انظر أبو العلاء وما إليه - للميني .

ثم قال في ص ٤٦ : أقول : جمع البديهي بين الضب والنون ، وحاول أن 'يجري في البرادي الفلك المشعرون ، إن صاحبنا توفي سنة ٤٤٩ هـ وأسامة ولد سنة ٤٨٨ هـ ، فلعل الحكاية عن بعض متقدمي بني منقذ قبل أن يلكوا شيرز بنحو نصف قرن أو أكثر ، أو الأصل ممن حدثه عن أبي العلاء فيوجد ثم واسطة بينهما ، ثم رجع الأول وأشار إلى قول ابن العديم : أن صاحب أبي العلاء هو أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ ، وإن الخزانة في كنز طاب أو حلب . ثم قال ص ٦٩ : وأما رحلته إلى أنطاكية ونقلها الروم سنة ٣٥٣ — سنة ٤٧٧ (١) فقد مر ذكرها في حكاية أسامة ، ولم أر أحداً من أصحاب التراجم ذكرها ولكن شعروا بشهد لها ، قال (٢) :

لَا يَنْزِلَنَّ بِأَنْطَاكِيَّةٍ وَرِعَ كَمْ خَلَّلَ الدِّينَ مَقْدُ لِلزَّنَانِيرِ

الآيات الثلاثة . . وظاهر كلامه أنه سلم بهذه الرحلة . هذا ما قاله بعض المتقدمين والمتأخرين في رحلته إلى أنطاكية .

والذي يظهر لي أن رحلته إلى أنطاكية غير صحيحة لأسباب :

١ — منها : أنها لو كانت حقيقة لتضافرت الروايات على نقلها ، كما تضافرت على ذكر رحلته إلى بغداد ، في حين أن كثيراً ممن كتب في أبي العلاء لم يتعرض لها .

٢ — وأنها لو كانت أمراً واقعاً حقيقة لذكرها أبو العلاء في مواطن من نثره ونظمه ، كما ذكر بغداد ولكنه لم يذكرها فيما وصل إلينا من

(١) هكذا في جميع البلدان وهو غريب والصواب أن الروم غلبوها سنة ٣٥٨ كما

ذكر ذلك ابن العديم وأبو العلاء . (ج)

(٢) الزويات ٥ ص ١٥٢ .

كتبه إلا في أبيات اللزوم السابقة . وذكرها في رسالة الغفران ص ١٩٠ بقوله ^(١) : وكأني به وقد مر بأنطاكية ، فذكر قول امرئ القيس :

عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِیَّةِ فَوْقَ عَقْمَةٍ كَجِرْمَةِ نَخْلٍ أَوْ كَجَنَّةٍ يَثْرِبُ ^(٢)

وخطر له أن اللطك ، وهو اللفظ الذي يجب أن يشتق منه أنطاكية — لو كانت — عربية مهمل لم يحكيه مشهور من القعات .

على أن ذكرها في كلامه لا يوجب أن يكون قد رحل إليها أو نزل بها ، لأنه ذكر كثيراً من البلدان الدرية والعجبية وبحث عن أحوالها المختلفة ولم يدخلها ، مثل مصر ومكة والمدينة والقدس والشام وغانة وأسران وقم وبديليس والهند وغيرها .

٣ — ومنها : أن نسبة الحكاية إلى أسامة ، وقد تقدم ، أنه ولد بعد وفاة أبي العلاء .

٤ — ومنها : أن قول ابن المديم محتمل أن تكون أنطاكية تصحفت بحلب أو كفرطاب يدل على أنها لم تكن أنطاكية يقينا .

٥ — ومنها أن الروم بعد أن ملكوا أنطاكية أدخلوها من المسلمين . وإذا جوزنا بقاء فريق منهم ووجود مكتبة ^(٣) فمن البعيد أن ينسى لصي .

(١) وفي الرسالة تحقيق بنت الشاطي ص ٥٠٥ الطبعة الأولى .

(٢) ديوانه ص ٨٠ وفي اللسان (جرم) : وجريمة النخل : ما جرم منه واصلطرم .

(٣) ذكر القفطي في (أخبار الحكماء) في ترجمة ابن بطلان ، أنه شاهد في كتاب

الريح لمحمد بن حلال بن الحسن نسخة سفره إلى الرئيس حلال وقد ذكر فيها

أن في أنطاكية شيخا يعرف بأبي نصر بن الطار قاضي القضاة فيها له يد في

العلوم ... وكانت هذه الفترة سنة ١١٠ هـ . (ج)

ضرب أن يتأبها ، والروم كانوا يضطهدون المسلمين في البلاد التي أخذوها منهم .
٦ - ومنها أنه لم يعين أحد زمن هذه الرحلة ، ولا أي كتاب وقع عليه اختيار ابن منقذ . وأما قولهم : صبي دون البلوغ ، فيحتل منذ زمن الولادة إلى قبيل البلوغ ، وكان ينبغي أن يكون أبوه معه في هذه الرحلة ، ولو ذكرت أمانة في التاريخ أو في كلام أبي العلاء تدل على هذه الرحلة لسرنا على ضونها في الحكم على صحتها ؛ ولكننا لم نجد غير ما نقله البديعي وابن العديم وهو محض بالأدلة الواضحة على بطلانه ، وبناء الحكم على الظن البعيد غير صحيح ، وبناءه على الشيء الباطل باطل . ويتحصل معنا أن رحلته إلى أنطاكية لم تثبت من وجه صحيح .

رحلته إلى اللاذقية

ذكر القفطي^(١) والذهبي^(٢) والصفدي^(٣) والسيوطي^(٤) والعثماني وغيرهم ما خلاصته : أن أبا العلاء بعد أن أخذ عن علماء بلده وحل إلى طرابلس ، وكانت بها خزائن كتب وقد وقفها ذور البسار ، واجتاز في طريقه باللاذقية ، ونزل في دير فيها [سماه القفطي دير الفاروس ، وهو على مقربة منها] . وكان فيه راهب له علم بأقوال الفلاسفة ، فسمع منه أبو العلاء كلامه ، أو أخذ عنه ما شككه في دينه وغيره من الديانات ، فصل له بعض المحلل . وقال ياقوت^(٥) : وقال المعري الملحد : إذ كانت اللاذقية

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠ عن إنباء الرواة على أنباء النحاة - لقفطي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٠ عن تاريخ الإلام - للذهبي .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٦٧ عن الرواة بالوفيات - للصفدي .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٣ عن بنية الرواة - للسيوطي .

(٥) صبح البلدان - ياقوت الحموي (اللاذقية) .

بيد الروم ، بها قاض وخطيب ، وجامع لعباد المسلمين ، إذا أذنوا ضرب
الروم النوافيس كياداً لم فقال :

في اللاذقية فثنة مائين أحمد والمسيح
هذا يعالج ذلبة والشيخ من حنق يصيح

الدبة : الناقوس ، والشيخ الذي يصيح : أراد به
المؤذن . ا هـ . وفي كلام صاحب (الذكري^(١)) ما يدل على قبول هذه الرحة ،
وأنه لا يشك في أن الرحة قد اشنت بين أبي العلاء وبين النصارى قبل
رحلته إلى بغداد ، بحيث استطاع أن يدرس دينهم ودين اليهود وبناقشهم
فيها ، وأنه لم يدرسها في المرة لأن حياته العلمية لم تكن تسمح بذلك ،
فلا شك في أنه قد درس هاتين الديانتين في أسفاره الأولى ، أما في
انطاكية أو في اللاذقية ، ورجع الثاني لأمرين ، أحدهما : رواية المؤرخين
المذكورين . والثاني : البيتان المتقدمان اللذان رواهما ياقوت .

وردى الأستاذ المسني قول الخطمي والذهبي وغيرهما ، ثم قال :^(٢)
ولا نستبعد أصلاً أن يستنوي راهب ناشئاً ثم أتراه في اللهب والهب .
وذكر كلاماً كيد الروم وضربهم النوافيس إذا أذن المسلمون . وذكر
أن بعض المستشرقين شك في هذا الخبر ، وزعم أن العرب تضيف إلى
الربان كثيراً من الآراء التي يبعد ما بينها وبين الإسلام . وأن العربي
احتذى في هذه الشكوك على مثال المتنبي فإنه كان لا يبجل الأنبياء .
وكلام الجميع يشعر بأن هذه الرحة قبل رحلته إلى بغداد . وإذا أنهم

(١) ذكرى أبي العلاء - لطف حسين - ط ٢ ص ١٤٦ .

(٢) أبو العلاء - وما إليه - للمسني - ص ٦٨ باختلاف يبر في الثقل .

الإنسان النظر تبين له أن هذه الرحلة على هذا الوجه ، إن لم تكن باطلة ،
فبينها وبين الباطل رحم واشجة ، ويدل على ذلك أمور ، منها :

١ — أن هذه الرحلة لم يعين زمنها على التحقيق ، ولم تتبين مدة
إقامت في اللاذقية ، بل لبشر كلام بعضهم أنه بأت ليلة عند الراهب ، ولم
يبين ذلك الراهب ، ولا ما سمعه من أقواله ، ولا علم ماهو الذي أخذه عنه
في هذه المدة الليلية ، فشكك في دينه وغرره ، وحصل له بسببه انحلال ..
ولا علم أيضاً بأية لغة كان يخاطب الراهب والراهب يخاطبه ، لأن الراهب
كان رومياً وأبو العلاء لايعرف غير العربية . ولا علم من كان يصحبه في
هذه الرحلة ، ولا كيف اتصل بالراهب ، بل هذه الرحلة كلمة مضمورة
بالإجماع والغرض . وقد علمنا أن أبا العلاء لم تحدث نفسه باجتداء علم منذ
فارق الشرين .

٢ — وأن هذه الرحلة مبنية على رحلة طرابلس ، وسيأتي أنها باطلة ،
وما بني على الباطل باطل .

٣ — وأن اللاذقية كانت بيد الروم ، وكانوا يشتدون في إيذاء المسلمين
وكيدهم ، فقد ذكر الفطحي في (أخبار الحكماء) ص ١٩٥ عن ابن بطلان
أنه قال : وخرجت من أنطاكية إلى اللاذقية ، وهي مدينة يوفانية ، ولها
ميناء وملعب وميدان للخيول مدور ، وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم
كنيسة ، وكان في أول الإسلام مسجداً ، وفيها قاضي للمسلمين وجمايع
يصلون فيه ، وأذان في أوقات الصلوات الخمس ، وعادة الروم إذا سمعوا
الأذان أن يضربوا النافوس ، وقاضي المسلمين الذي كان بها من قبل الروم .
ومن عجائب هذا البلد أن المنتسب بجميع اللعاب والغرائب المؤثرين للفساد

من الروم في حلقة ، وينادي على كل واحدة منهم ، ويتزايد الفسقة فيهن
للبئس تلك ، ويؤخذون إلى القنادق التي هي الخانات لسكنى الغرباء ، بعد أن
تأخذ كل واحدة منهم خاتماً من المطران حبة بيدها من تعقب الوالي لها .
فإنه متى وجد خاطياً مع خاطية بغير ختم المطران ألزمه جنابة .. اه .
هذه حالة اللاذقية في عهد أبي العلاء . ومن البعيد أن ينسى لئله أن يجتمع
براهب ويتلقى عنه ، والروم لا بالون جهداً في كبد المصلين ، وهم على مانع
من الصلف والعجرفة في ذلك العهد .

٤ - وأن هذه الرحلة لو كانت واقعة حقيقة لاجتمعت الروايات
على نقلها ، ولذكرها أبو العلاء كما ذكر بغداد ، لاسيما قضية القحاب والفسقة .
واننا لنجد كثيراً ممن ترجم أبا العلاء لم يذكر هذه الرحلة . كما أن ذكر
اللاذقية في كلامه قليل ، فقد ذكرها في رسالة الغفران ^(١) ص ١٣٨ في قصة
الكتاب الذي قتل المتنبي على جرحه فبرئ . والرجل الذي أخبره المتنبي
بأن الكلب سيوت فمات .

ه - وأن بيتي المعري اللذين ذكرهما ياقوت لا يصح الاحتجاج بهما
على اجتيازهم باللاذقية ، ولا على اجتماعهم براهب ذها ، لأن أبا العلاء ، كما قلنا
من قبل ، ذكر بلاداً كثيرة ، وانتقد كثيراً من الأعمال والعادات والمعتقدات
من غير أن يجتاز بها ، على أن البيتين المذكورين لا يظهر عند التأمل أن
بينهما وبين شعره في مثل هذا الغرض شيئاً من الشبه ، وأهل المعرة يروونها
على هذا الوجه .

فِي الْقُدْسِ قَامَتْ ضَجَّةٌ مَا يَنْ أَحْمَدَ وَالْمَسِيحَ
هَذَا بِنَاقُوسٍ يَدُ قَوْذَا بِمِثْدَنَةٍ يَصِيحُ

(١) وفي الرسالة تحقيق بنت الناطق ط ١ ص ٣٥٥ .

ويزيدون بيتنا ثالثاً وهو :

كُلُّ بُعْظٍ دِينُهُ يَالَيْتَ شِعْرِي مَا الصَّحِيحُ

ولم أر أحداً من المتقدمين رواها على الوجه الأخير ، وإنما سمعت كثيراً من الناس يروونها كذلك ، واستبعد بعض المنتشرين هذه الرواية ، وزعم أن لفظ القدس لم يطلق على المدينة المشهورة إلا في القرن السادس فما بعده . وهذا غير صحيح لأن أبا العلاء ذكرها في مواطن من شعره في (السقط) و (لزوم ما لا يلزم) .

كقوله ^(١) :

وَاطْلَعْ حِذَاءَ لَيْلٍ إِنْ حَازَتْ بِمَآشِرَفَا كَفِعَلِ مُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ فِي الْقُدْسِ

وقوله ^(٢) :

وَصَاحِبُ الشَّرْعِ كَانَ الْقُدْسُ قَبْلَتَهُ صَلَّى إِلَيْهَا زَمَانًا ثُمَّ حَوَّلَهَا

وقوله ^(٣) :

الْقُدْسُ لَمْ يُفَرَضْ عَلَيْكَ مَزَارُهُ فَاسْجُدْ لِرَبِّكَ فِي الْحَيَاةِ مُقَدَّسًا

٦ - وليس في هذين البيتين ما يحتاج إلى اطلاع واسع على الديانة المسيحية أو درس عميق لها ، وإنما يتأتى لأي رجل كان أن يذكر ما فيها . على أن المعرة في عهد أبي العلاء ، كان فيها وفي ضاحيتها نصارى ورجال ، والدليل على ذلك قصة صاحب الماخور المقدمة في حوادث سنة ٤١٨ هـ ،

(١) نروح سبط الزند : ج ٢ ص ٦٩١ وفيها مذهبها ورعاً .

(٢) اللزوميات ص ٢٠٤ .

(٣) اللزوميات ص ٢٩٦ .

وفي رسائل أبي العلاء ص ١٥٠ (١) رسالة كتبها في رجل نصراني محبوس سرقته لأمه أربع دجاجات فطلب إطلاقه . وقد ذكرنا أن القنطي رأى راهباً ينسج الحصر في مسجد المرة .

وقد ذكرنا في (تاريخ المرة (٢) في حوادث سنة ٤٢٠ هـ أن أهل كفرنبل كانوا نصارى ، فأكثروا القتل من المسلمين ورحلوا مراً إلى الروم . وذكرنا في حوادث سنة ٤٩٢ هـ أن الصليبيين لما هجروا على المرة انضم إليهم الأرمن وبعض نصارى البلاد ...

ولا يبعد أن يكون لأبي العلاء اتصال بهم ، تمكن به من أن يطلع على شيء من عقائدهم ، ثم أنه من دراسته . كما لا يبعد أن يكون اطلع على ذلك من كتب الكلام والفقه وغيرهما ، أو تلقاه من أفواه الرواة ، كما كان ذلك بالنسبة إلى عقائد الشيعة والباطنية والحلولية والتناسخية والفرامطة والمجوس وغيرهم ، فإنه لم يرحل إلى مدينة من أجل ذلك ولم ينجس يوهبان ولا غيرهم من أجلها .

٧ - أن الشك مستفيض في كلام أبي العلاء في البيانات وغيرها منذ حداثة سنه ، وكثيراً ما يريد به غير ظاهره ، وكثيراً ما يتخذ وسيلة لليقين ، كما بينا ذلك في غير هذا المكان .

وبما ذكرناه يتضح أن الذي يمكن قبوله من هذه الرحلة - إذا أمكن قبول شيء منها - أنه اجتاز باللاذقية في رحلته إلى طرابلس ، إن صحت تلك الرحلة ، على ما فيها من غموض وإيهام ، وقد يشعر بضعف هذه الرحلة قول البديعي : قيل : واجتاز باللاذقية ونزل ديرا ،، فتعير بلفظه قيل ، دليل على عدم جزمه بوقوعها .

(١) رسائل أبي العلاء المرعي شرح شاهين عطية .

(٢) كتاب مخطوط المؤلف لم ينشر به .

رحلة الى طرابلس

قد سمعنا قول القنطري والذهبي والسيوطي والصفدي وغيرهم في رحلة أبي العلاء إلى طرابلس ، وذكرها غيرهم على نحو النمط الذي ذكره هؤلاء ، وقد قال ابن العديم^(١) : ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها .

واشته عليه ذلك بدار العلم في بغداد ، ولم يكن بطرابلس داره لم في أيام أبي العلاء ، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ، وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك سنة ٤٤٩ هـ ، أي قبل تجديدها بثلاث وعشرين سنة . ووقف بها من تصانيف أبي العلاء (الصاهل) و(الشاحج) و(الجمع الساطاني) و(الفصول والغايات) و(السادن) و(إقليد القابات) و(رسالة الإغريض) .

وقد ذكروا أن هذه المكتبة كانت تسمى دار العلم ، وأن فيها كتباً قبل إن عددها نحو ثلاثة آلاف ألف كتاب . وفيها خمسون ألف مصحف ، وعشرون ألف تفسير ، وإن لم يكن في جميع البلدان مثلاً ، وقد ذهبت بها ربح الحروب الصليبية .

وقد قبل صاحب الذكرى هذه الرحلة وقال^(٢) : قد درس بها أبو العلاء ماشاء ثم عاد إلى بلده . وكذلك الأسناذ الميني قبلها ، ثم قال في ص ٦٩^(٣) : وعندنا ما بعض قول القنطري والذهبي ، وهو أنه نقل عن كتاب

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٧ عن الانصاف والتحري - لابن العديم .

(٢) ذكرى أبي العلاء - لطف حسين - ط ٢ ص ١٤٧ .

(٣) أبو العلاء وما إليه .

بده الخلق من كتب التوراة في رسالة الغفران ص ١٨٠ ، قال : وذكر من نظر في كتاب المبدأ حديث طالوت لما أمر ابنته - وهي امرأة داود [ص] - أن تدخله عليه وهو نائم ليقتله ، فجعلت له في فرائس داود زق خر ودمته عليه ، وضربه بالسيف ، وسالت الحجر ، فظن أنها الدم ، فأدركه الأسف والتندم ، فأومأ بالسيف ليقتل نفسه ومعه ابنته فأصكت يده وحدثه ما فعلته فشكرها على ذلك . ثم قال : ولا يستغرب إن قلنا إنه أحال على غيره من ناظري الكتاب تنصلا من القذف بالإلحاد ، أو الارتياب ، على أن الرجل أعمى لا ينظر ، أي إن صنيعة [هذا] أحد الملاحن والمعاذير ، وهي في الناس تكثر ، واستعمال كلمة عبرية وأخرى حبشية . . يشهد لمخالطة القوم بالبلدتين النصرانيتين ، وهذا على كثير من عاداتهم وأخلاقهم التي ألم بها في اللزوم ٥١٠ .

وأراد بالمكلمة العبرية لفظ 'منش' في قوله في اللزوم من أبيات يذم فيها الزواج والنل ثم يقول : (١)

لَعَمْرِي لَقَدْ أَمِنَ الْعَائِدُونَ وَعُونَشَ ذُو بَغْضَةٍ فَأَعْتَشَ
فَيَاقَسْ وَقَعَ بِرِزْقِ الْخَطِيئَةِ — بِوَانْظُرْ بِمَسْجِدِنَا يَا مُنَشْ
قالوا : منش كلمة عبرية ومعناها الناظر . وأراد بالكلمة الحبشية لفظ
'أبي ضابط' في قوله في اللزوم من أبيات (٢) :

وَتَغْبِطُ كُلًّا عَلَى مَا حَوَاهُ وَمَالِكَ فِي الْعَيْشِ مِنْ غَابِطٍ
وَقَفَّتْ عَلَى كُلِّ بَابٍ رَأَيْتَ حَتَّى نَهَاكَ أَبُو ضَابِطٍ

(١) عائش : عائش ، واعتشه اعتته في القتال وظله . (ج) ، والبيتان في اللزوميات ٥ ص ٣٢٩ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ١٨٠ .

قالوا : أبو ضابط كنية الموت بالحشية . وهذا الاستنباط غريب لأسباب ،
أولها : أن قول أبي العلاء : وذكر من نظر في كتاب المبتدأ الخ ..
لا يتوقف على مخالطة النصارى ولا الرحلة الى بلادهم ، بل مثل هذا الحديث
يمكن ان يؤخذ عن أي شخص نظر في ذلك الكتاب في أي بلد كان
وأي زمن كان .

ثانيها : أن هذا الخبر لا يحتاج فيه إلى إحالته على غيره ليقترن من
الفن بالإنحاد ، لأن أبا العلاء صرح بما هو أعظم منه في رسالة الغفران
وغيرها ، ولم يحجب لأحد حسنها ، ولا التجأ إلى التعريض أو إلى التلميح .
فهذا ضرب من الإسراف في سوء الظن بأبي العلاء بغير موجب .

ثالثها : أن استعمال كلمة « منش » العبرية وكلمة « أني ضابط » الحبشية لا يوجب
أن يكون قد خالطه القوم بهاتين البلدتين النصرانيتين خاصة ، إذ يجوز
أن يكون سمعها أو علمها في غيرهما من أحد أو من كتاب ، بل هذا
أقرب إلى الغفل ، لأننا نرى في كلامه بعض الكلمات الفارسية مثل كلمة
« آراء » في قوله (١) :

إِذَا قِيلَ لَكَ : اخشَ اللَّهَ مَوْلَاكَ فَقُلْ : آرَا

فقد ذكرها في موضعين في اللزوم وفي "فصول والغايات" ، وقال : إنها
فارسية بمعنى نعم ، واستعملها في نظمه ونثره من غير أن يذهب إلى بلاد
فارس ويخالط أهلها ويطلع على ديارهم .

الرابع : أن أبا العلاء ، كما قلنا غير مرة ، ذكر كثيراً من عادات
الأمم المختلفة وأحوالها وأخلاقها وعقائدها ، من غير أن يخالط أحداً منهم .

(١) الروميات ص ٢٨ ، وأبو العلاء وما إليه - للبني - ص ٥٦ .

على أننا لانسلم أن «أبا ضابط» حبشية لأنها مركبة من لفظين عربيين ، ولم
نر في (اللسان) و(تاج العروس) و(الأساس) و(المصباح) وغيرها من ذكر أنها
كنية المورت بالحبشية أو غيرها ، وإنما ذكرها شارح لزوم مالا يلزم^(١) ،
وهو مع أنه ليس بثبت ، بعدد عن معرفة اللغة ، كما سيتضح لك ذلك
عند الكلام في لزوم . وقد جاء الضابط في اللغة بمعنى الثري الشديد ،
والشديد البطش . واللازم للشيء لا يفارقه . ولا يبعد أن يكون أبو العلاء
كناه بهذا أو سمعه عن العرب . غير أننا لم نعتز على نص بذلك .

وما تقدم يتضح أن صاحب (الذكرى) وصاحب (أبي العلاء وما إليه) لم
يوفقا كثيراً في استنباطها في هذا الباب . وأن رحلة أبي العلاء إلى
أنطاكية واللاذقية وطرابلس وقصة حفظه مايلي عليه .. وتعلمه من الراهب ..
وأخذه من مكتبة طرابلس .. لا تطعن النفس الى شيء منها ، وليس
هناك ما يوجب القطع بصحتها ، وإنما حداها الوم ولطمها الباطل . وأن قول
ابن العديم في مكتبي أنطاكية وطرابلس أقرب إلى الصواب والواقع .
وأن شك بعضهم في رحلة اللاذقية وقول بعضهم : أن العرب تضيف إلى
الريهان كثيراً من الآراء .. قريب من الحق ، لأن الذي نسب ذلك إلى
أبي العلاء أراد أن يتخذ منه وسيلة للطعن في دينه ونسبة الشك والإلحاد
إليه . وقد قال ابن قاضي شبة في (الطبقات) ص ١٧٦ : ويقال إن راهباً
اجتمع به في بعض الصوامع ، آواء الليل ، فشككه في دينه . ورواها غيره
على هذه الصورة ولم يذكر اللاذقية ولا غيرها . ولا نستطيع أن نتصور
مقدار أو نوع العلم الذي تعلمه في ليلة واحدة من راهب اجتمع به مرة
واحدة ، ثم خرج من عنده وقد امتلأ علماً وفلسفة وشكاً وإلحاداً .

(١) انظر الحاشية (٢) ص ٢٠٣

رحلة الى صنعاء

قال ابن حجر في (لسان الميزان) ج ١ ص ٢٠٤ في ترجمة أبي العلاء : مكث بصنعاء سنة لاياً كل اللحم .. ولم يزد على هذا . فنقل الأستاذ الميمني في ص ٧٠ ذلك وقال بعده ^(١) : أقول : ولعله يريد قبل رحلته إلى بغداد ، فإنه بعد الرحلة لم يخصص بتركه في موطن دون آخر ، على أن أحداً من مترجميه لم ينقل عنه رحلته بعد الرجوع منها .

وظاهر كلامه يشترقبول هذه الرحلة ، ولكنه لم يجد من ذكرها لبقويها هذه الرواية . وقد بحثت كثيراً في أقوال الذين كتبوا في أبي العلاء فلم أر من ذكر هذه الرحلة غير ابن حجر . وثبتت عن صنعاء فإذا هي امم لموضعين ، أحدهما في اليمن وهي المدينة المشهورة . والثاني امم لقرية كانت على باب دمشق دون نازة ، ثم خربت وصارت مزرعة وبساتين . وبما لاشك فيه أن هذه الرحلة غير صحيحة ، ولا يجوز أن يعول عليها لانفراد الرواية بها ، وللأسباب التي قدسناها في الرحلات السابقة . وابن حجر ، وإن كان ثقة في رواياته ، غير معصوم من الخطأ ولا من خطأ النساخ وتحرير الرواة . وأظن أن أصل عبارته هكذا : ومكث بضعا وأربعين سنة لاياً كل اللحم ، ثم سقطت كلمة أربعين فتروم الناسخ أو الطابع أنها بصنعاء . وهذا هو الموافق لما ذكره ابن حجر أيضاً في ص ٢٠٦ عن هلال الصافي في تاريخه .

ومحصل من مجموع ما قدمناه في الرحل أن أبا العلاء لم تثبت له رحلة حقيقية إلا إلى حلب وبغداد وكلتاهما ليست لطلب علم كما مر وكما يأتي .

(١) أبو العلاء وما إليه .

رحلته إلى بغداد

كانت بغداد في عهد أبي العلاء عاصمة الحضارة الإسلامية ، ومقر الأشراف ، وملتقى الأمم من عرب وجمع ، وجمع العلماء والأدباء والرواة والمترجمين والمعربين ، ومبعث النور إلى الفarsية والادانية ، وكعبة القاصدين ، وزهرة الدنيا في حضارتها ونفرتها . وفيها من مجالس العلم والأدب والمناظرة والوعظ ما ليس في غيرها . وكان كل إنسان يحس أن يلم بها التماساً للعلم أو الرزق أو الشهرة ، أو تقرباً من الخلافة أو ما شاكل ذلك من الأسباب والأمانى . وإذا كان حبل السياسة مضطرباً فيها في ذلك العهد فإن النهضة العلمية فيه كانت على خير ماكانت عليه في عصر من العصور .

وكانت فيها خزائن كتب كثيرة ، منها مكتبتان عامتان ، إحداهما بيت الحكمة ، وهي التي أسسها الرشيد وهي خزانة الخلفاء ، وكانت فيها من الكتب ما لا يوصف كثرة . قال في (صبح الأعشى) ج ١ ص ٤٦٦ : ويقال : إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن ، إحداهما خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد ، فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة ، ولا يقدم عليه نقاسة ، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت النار ببغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد ، فذهبت خزانة الكتب فيها ذهب ، وذهبت معالمها وأعفيت آثارها . وقد ذكروا في ترجمة نصير الدين الطوسي محمد بن محمد أنه اتخذ خزانة كتب ، انهب من بغداد وغيرها ، اجتمع فيها أربعمائة ألف مجلد . وذكر صاحب (الفهرست) جماعة ممن كان يعمل في هذه الخزانة أي خزانة الحكمة ، منهم : علان الشعوبي ، ص ١٥٠ ، كان ينسخ فيها . وابن أبي الحريش ، ص ١٤ ، كان يجلد فيها ، ومنهم : سهل بن هرون وشريكه فيها سعيد بن هرون ص ١٧٤ و ص ١٨٢ ، ومنهم :

الفضل بن نوبخت ص ٣٨٢ ، وصالهم ص ٣٣٩ و ٤٢٤ ، ومنهم : محمد بن موسى الخوارزمي كان منقطعاً إليها ص ٣٨٣ .

الثانية : مكتبة سابور بن أردشير وزير جهاء الدولة في الكرخ في علة بين السورين ، وقد احترقت فيما احترق من محل الكرخ عند ورود طغرل بك أول ملوك السلاجقة إلى بغداد سنة ٤٤٧ هـ . وفي ابن الأثير سنة ٤٥٠ هـ . قال بإقوت : ولم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعبرة وأصولهم المحررة . وقال ابن الأثير في سنة ٣٨٣ هـ : بنى أبو النصر سابور ببغداد داراً للعلم ، ووقف فيها كتباً كثيرة ، وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد . ونقل عن الرافعي أن فيها [١٠٤٠٠] غير مائة نسخة من المصاحف المكتوبة بخط بني مقله ، وقد اختلفت كلمة ابن الأثير فيها فقال مرة : بنيت سنة ٣٨١ هـ ثم قال : سنة ٣٨٢ هـ ثم قال في حوادث سنة ٤١٦ هـ : وعمل دار الكتب سنة ٣٨١ هـ . وقد أشار إليها أبو العلاء بقوله (١) :

وَعَنَتْنَا فِي دَارِ سَابُورَ قِيْنَةً مِنْ الْوُرُقِ مِطْرَابُ الْأَصَائِلِ مِيهَالُ

وقد وقعت تسميتها بدار العلم في كلام ابن الأثير وابن خلكان وإياقوت . إذ قال عن ابن الجوزي في ج ٦ ص ٣٥٨ : محمد بن أحمد بن طاهر بن حمد أبو منصور الخازن لدار الكتب القديمة من ساكني درب منصور بالكرخ . ثم قال بعد ذلك : وحدث عن غرس النعمة أبو الحسن محمد بن الصائغ في كتاب (المفوات) قال : كان بدار العلم التي وقفها سابور .. خازن يعرف بأبي منصور ...

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٣٩ . وميهاك : فقال من الوهل ، وهو الفزع .

أما أبو العلاء فقد قال في رسالته إلى خاله (١) : والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها . وقال في كتابه إلى أهل المعرفة (٢) ص ٨٣ : ولكن أثرت الإقامة بدار العلم . وقال في رسالة الغفران (٣) ص ١٠ : ولم تكن في النسخة التي في دار العلم . ونقل عنه في الوفيات ج ٢ ص ٤٦٢ ، قال أبو العلاء : حدثني عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد ، وقال من قصيدة كتبها إلى عبد السلام المذكور (٤) :

أَخَازِنَ دَارِ الْعِلْمِ كَمْ مِنْ تَمَوْقَةٍ أَتَتْ دُونَنَافِيهِ الْعَوَازِفُ وَاللَّغَطُ

وقال في رسالة الغفران (٥) ص ٧٢ : أنا « نوفيقي السوداء » التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد ، على زمان أبي منصور الخازن . وذكرها في غير هذه المراتن . وفي تاريخ بغداد ج ١١ ص ٥٨ ، وفي زهرة الألباء ص ٤١٢ في ترجمة عبد السلام البصري : وكان يتولى ببغداد دار الكتب . وفي الففطي (٦) : وحضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام البصري . وما تقدم يدل على أن دار الكتب القديمة ودار العلم واحدة ولكنه يشكل من حيث إن أبا منصور بن حمدستل عن مولده فقال سنة ٤١٨ هـ قتائل .

(١) رسائل أبي العلاء المري - شاهين عطية - ص ٧٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) رسالة الغفران - تحقيق بنت الشاطي - ط ١ ص ٢٣ .

(٤) شروح سفيط الزند : ق ٤ ص ١٦٧٢ ، التنويع : البربري ، والموازف : الجن .

(٥) الغفران تحقيق بنت الشاطي - ط ١ ص ١٩٣ ونها : « على زمان أبي منصور حمد

ابن علي الخازن » .

(٦) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ عن إنباء الرواة - للقفطي .

وكان في بغداد غير هاتين المكتبتين كثير من المكاتب الخاصة . منها مكتبة أبي الحسين عبد العزيز بن إبراهيم المعروف بابن حاجب النعمان . ولم يشاهد خزانة للكتب أحسن منها ، لأنها كانت تحتوي على كل كتاب عين ، وديوان فرد ، بخطوط العلماء المنسوبة . وأبو الحسين هذا أحد أفراد الزمان في الفضل والنبيل ، وكان إليه ديوان السواد أيام معز الدولة ، وله كتب كثيرة ، توفي سنة ٥٣٥١ هـ وترجمته في الفهرست ١٩٣ ، وتاريخ بغداد ج ١٠ ص ٤٥٦ . وقد ذكره أبو العلاء في رسالة الغفران^(١) ص ١٠ ، وذكر دار العلم في هذا الموضع .

ومنها خزانة حكمة للفتح بن خافان ، جمعها له علي بن يحيى النجم ، لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، كما في معجم الأدباء . ج ٦ ص ١١٧ ، والفهرست ص ١٦٩ و ص ٢٠٥ .

ومنها خزانة لأبي حسان الحسن بن عثمان الزبادي وهي خزانة حسنة كبيرة كما في الفهرست ص ١٦٠ .

سمع أبو العلاء بهذه الخزائن ، لاسيما دار الكتب ، فاشترأبت نفسه إلى زيارة بغداد والاطلاع على ما فيها ، فعقد النية على ذلك واستأذن أمه كما جاء في رسالته إلى خاله أبي القاسم^(٢) ص ٦٩ : على أبي وأشاه قد أعلنتها أبي مرتحل وأن عزمي على ذلك كجاء مزعم ، فأذنت فيه ، وأخسبها ظننته مذقة الشارب ، ووميض الحارب ﴿ واكل أجل كتاب ﴾ .

(١) الغفران - تحقيق بنت الناطلي ، ط ١ - ص ٢٣ .

(٢) الرسائل - لثامين عطية - والذقة : اللين المزوج بللاء ، ويريد أنها كانت تظن أنه لن يسافر .

أسباب رحلته الى بغداد

لم تسلم هذه الناحية من اختلاف في الأقوال وتضارب في الآراء ، فقد ذكر جماعة منهم القفطي^(١) والذهبي^(٢) وغيرهما أن عامل أو أمير أو نائب حلب عارض أبا العلاء في وقف له ، فسافر إلى بغداد منتظماً شاكياً ، ولم يعين أحد منهم ذلك العامل أو النائب في ذلك العهد ولا في أية سنة وقعت المعارضة ولا نوعها ولا نوع ذلك الوقف .

وقد كنا قدمنا أن أبا المعالي سعد الدولة ملك حلب سنة ٣٥٦ هـ وتغلب عليه غلامه قرعونة واستولى عليها سنة ٣٥٨ هـ ثم ملكها أبو المعالي سنة ٣٦٦ هـ ، وبقيت القلعة بيد بكجور ، ثم ولاء حمص ، وبقي أبو المعالي إلى أن توفي سنة ٣٨١ هـ ، وعهد إلى ولده أبي الفضائل ، ورعى به لؤلؤ ابن عبد الله السيفي الكبير مولى سيف الدولة ، فكان المدير لملكته ثم سمى فات سنة ٣٩١ هـ ، واستولى لؤلؤ على حلب واستل بالأمر إلى أن توفي سنة ٣٩٩ هـ ، ثم ملك حلب بعده ابنه أبو منصور نصر مرتضى الدولة ، وكان خطب للحاكم العبيدي ثم تغلب عليه غلامه واستولى على حلب ثم سلمها إلى نواب الحاكم سنة ٤٠٤ هـ أو بعدها .

وكان العزيز صاحب مصر يطمع في الاستيلاء على حلب ويطمع به بعض ولاتها من عهد بكجور ، وكان يرسل الجيش تلو الجيش للاستيلاء عليها ، وتم ذلك للحاكم علي يد نصر بن لؤلؤ كما تقدم . وعلى هذا ينبغي أن يكون عامل حلب الذي عارض أبا العلاء هو لؤلؤ المتوفى سنة ٣٩٩ هـ ، لأن أبا العلاء سافر من المرة في أواخر سنة ٣٩٨ هـ . وتكون

(١) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ عن إنباء الرواة - للقفطي .

(٢) تريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٠ عن تاريخ الإسلام - للذهبي .

حلب غير خاضعة لسلطان بغداد ، بل هي على وشك الدخول في حوزة
المصريين . ومن البعيد أن يذهب أبو العلاء الى بغداد متظاهراً من عامل
لبس لحكومة بغداد سلطان عليه . ولو كان ذهابه من أجل ذلك لمرض
لذكره أو لذكر ما وقع له من أجله ، كما فعل بـغـيـته التي اغتصبها
رجال الحكومة في سفره إلى العراق . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن .
وهذا دليل على أن سفره إلى بغداد لم يكن للنظم ، أما الوقف فبأني
أن لأبي العلاء وفقاً يغل نحو ثلاثين ديناراً أو أقل في كل عام .

وقال أبو غالب همام بن المهذب المصري ^(١) : إن أبا العلاء حدثه
أنه ذهب إلى بغداد ليقرأ بها العلم فلم يصادف بها مثله . وقال ابن
الديم ^(٢) : إنه رحل إليها لطلب العلم والاستكثار منه والاطلاع على
الكتب التي ببغداد ، ولم يرحل لطلب دنيا ولا رفعة .

وزعم بعض المستشرقين أن سيره إلى بغداد كان تبرماً من أمر اختلال
معيشته ، لا تظلاً إلى الخليفة في استرداد مال . وقال صاحب الذكري في ص
١٦٣ : ونحن نعتقد أن حب العلم وطلب الشهرة وسعة العيش وبغض الحياة
السياسة مجلب وما آلت إليه من الاختلاف والفن هي التي كونت في نفس أبي
العلاء عزمه على الرحلة من بلاد الشام إلى العراق . .

وذكر الأستاذ الميمني في ص ١٠٢ ^(٣) أسباباً كثيرة لرحلته ، منها دار
الكتب ولقاء العلماء والإفادة والاستفادة لهم ومنهم ، والسأم والتبرم من الفن ،
والغارات والحروب التي يثيرها البدو والروم والمصريون . وأعجبه قول
المستشرق : أنه رحل تبرماً لا تظلاً . ولقد أكثر هو وصاحب الذكري من
الأسباب حتى إذا لم تكن كلها حقيقة كان بعضها . . .

(١) ابن الوردي ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٢ عن الانصاف والتحري - لابن الديم .

(٣) أبو العلاء وما إليه - للبيبي .

هذه خلاصة ما قاله جمهور من المؤرخين والعلماء في أسباب رحلته ، وفيها ما يستبينه الذوق ويجوزّه العقل لو كان له دليل يزيد أو ينقص بعضه . ولقد ذكر أبو العلاء سبب رحلته وأغنى عن التكلف لالتباس وجوه بعيدة عن الحقيقة والواقع ، وذلك حيث قال في رسالته إلى خاله أبي القاسم عند رجوعه من العراق ^(١) ص ٧٧ : وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتهاد علم من عراق ولا شام . . والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها . وقال في كتابه الذي أرسله إلى أهل المصرة من بغداد ^(٢) ص ٨٣ : وأحلف ما سافرت أستكثر من النصب ، ولا أتكثر ببقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمان إقامتي فيه . . وقال من قصيدة أرسلها إلى عبد اللام المعري بعد عودته من بغداد إلى المصرة ^(٣) :

وما أريي إلا معرّسٌ معشّرٌ همُّ الناسُ لا سوقُ العروسِ ولا الشطُّ

قال التبريزي في شرح السقط : يعني بقوله : معرس ، معشر ، دار العلم ، لأنه كان يجتمع مع أهل العلم فيها .

وقال في التنوير : أي لبست حاجتي إلا معرس معشر ، يعني دار الكتب . ببغداد . وسوق العروس : سوق فيها تباع فيها الطرّف .

وأما طلب العلم والأدب والمال والشهرة وسعة العيش وما شاكل ذلك فقد صرح في مواطن من كلامه بنفيه والتبرؤ منه .

(١) الرسائل - لتأليفه عطية .

(٢) المصدر السابق .

(٣) غرر حرق سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٧١ والتنوير ج ٢ ص ١٧٢

وقد كان أبو الغلاء بعيد النظر شديد الاحتراس والحذر ، فكان في كل موطن وموقف يصرح بأنه لا يريد المال ولا الجاه ولا غيرهما . وقد قال في كتابه إلى خاله : وانصرفت وماء وجهي في سقاء غير متراب . ما ارفت منه فطرة في طلب أدب ولا مال . وقال في كتابه إلى أهل المرة : وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ولا أنكثر بقاء الرجال . وقال في قصيدته الآتية إلى أبي حامد الإسفرائيني ^(١) :

ولم أكن ورسولي كالفرزدق في إرسال وقاع
ولا أنقل في جاه ولا نشب ^(٢)

وقال في مرثية الشريف أبي أحمد الموسوي ^(٣) :

أوضعت في طرق التشرف سامياً بكما ولم أسلك طريق العافي

وقال من قصيدة أنشدتها في العراق ^(٤) :

أإخواننا بين الفرات وجلق يد الله لا خبرتكم بمحال

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٦٠ وفيها :

ولم أكن ورسولي حين أرسله مثل الفرزدق في إرسال وقاع
وقواع : غلام للفرزدق : كان بوجهه في أشياء ليست بالجملة .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٥٦ وعجزه : ولو عدت أخاصدكم وإدقاع .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٢٠ .

(٤) جلق : دمشق ، وأراد بأخوانه الذين هم بين الفرات وجلق المرة وأهلها لوقوعها بينهما ، ويد : بمعنى العهد . منسوبة بصل مضر أي ألزم نفسي عهد الله . وغيلان : هو ذوالرمة بن غيبة الشاعر الذي قال فيه أبو عمرو بن الغلاء : فتح الشعر بأسرى القيس وختم بذى الرمة توفي سنة ١١٧ هـ . وبلال بن أبي بردة عاصم ابن أبي موسى الأشعري ، كان قاضياً بالبصرة وأميراً ، توفي سنة ١٢٥ هـ وكان ذوالرمة ينتسبه ويأخذ صلاته وجوائزه (ج) .

والآيات في شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٠٤ - ١٢٠٥ وروى التبريزي :

« أجبراتا » .

أَنْبَأَكُمْ أَنِي عَلَى الْعَمْدِ لَمْ أَزَلْ^(١) وَوَجَّهِيَ لَعْنَا يُبْتَذَلُ بِسُؤَالِ
وَأَنِّي تَيَمَّمْتُ الْعِرَاقَ لِغَيْرِ مَا تَيَمَّمَهُ غَيْلَانُ عِنْدَ بِلَالٍ

وقال من قصيدة قالها في العراق : (٢)

وَكَمْ مَا جَدِ فِي سَيْفٍ دِجْلَةٌ لَمْ أَشْمَ لَهُ بَارِقًا وَالْمَرْهَ كَالْمَزْنِ هَطَالُ

وقال من قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم التنوخي بعد عودته إلى المرة : (٣)

رَحَلْتُ لَمْ آتِ قِرْوَانًا أَزَاوُلُهُ وَلَا الْمَذْبَ ابْغِي النَّيْلَ تَقْوِيَتَا

فهذا القدر الذي أوردناه من كلامه يدل دلالة صريحة واضحة على أن
الذي أفندمته ' بغداد حب' الاطلاع على دار الكتب فحسب . ولم يرحل
إليها رغبة في طلب علم أو أدب أو شهرة أو مال أو غيرها ، ولا نظماً من
عامل ولا تدمراً من حياة سياسية في المرة أو غيرها . وأبو العلاء أصدق
الناس فيما يحدث به عن نفسه ، وأخبرهم بدخلك وما يكتنه صدره .
ولو كان التذمر من الحياة هو السبب لما عاد إلى بلده ، لأن الحياة
بأنواعها لم تتغير فيها خلال المدة التي غاب فيها عنها ، ولأن البغداديين

(١) في شروح الفسطاط : أني علي الدهد سالم .

(٢) شام البرق : نظر أين يطر سحابه ، وشام برق فلان : رجاسه وفنه (ج)
والبيت في شروح الفسطاط ٣ ص ١٢٥٩ .

(٣) فروان بن العلاء الغبلي صاحب الموصل والكوفة والمدائن وسفي القرات ، ولها
من سنة ٣٩١ هـ إلى سنة ٤٤١ هـ ، ثم سجنه أخوه فترقي سنة ٤٤٤ هـ
والهذب : علي بن نصر أمير البطيحة ، وليها بعد وفاة خاله الظفر سنة ٣٧٦ هـ بهد
منه ، وتوفي فيها سنة ٤٠٨ هـ ، وفي التويرج ٢ ص ١١٩ فروان اسم أمير
كان والي بغداد والهذب وزيره . (ج) والبيت في شروح الفسطاط : ق ٤ ص ١٦٣٩ .

أرادوه على المقام بين ظهرانيهم ، وعرضوا عليه أموالاً كثيرة فأبى ،
وسيتضح لك ذلك في الكلام على غفائه وزهده ، ويتبين مبلغه من الأنفة والفناعة .

وبتحصل من مجموع ما ذكرناه ان ما قاله العلماء المتقدم ذكرهم في
أسباب رحلك إلى بغداد يخالف للحقيقة والواقع ولقول أبي العلاء نفسه .
على أننا لا ننبعد أن يكون الشيء الواحد أسباب متعددة ، ولكن السبب
الأول الذي عليه المعول في هذه الرحلة هو ما ذكره أبو العلاء ، وهو الاطلاع
على دار الكتب .

وبشده لهذا قول أبي المينم عبد الواحد أخيه أبي العلاء من قصيدة
أرسلها إلى أبي العلاء وهو في بغداد (١) :

بَغْدَادُ لَا سَقِيَتْ رُبُوعُكَ دِيْمَةً	وَعَدَتْ رِيَاضُكَ حَنْظَلًا وَمُرَارًا
أَضْرَمْتُ قَلْبِي بِاجْتِدَابِكَ مَا جِدَا	كَالسَّيْفِ أَعْجَبَ رَوْقًا وَغَرَارًا
مَنْيْتِهِ مَخْضًا فَلَمَّا شَفَّهُ	ظَلَمًا أَتَاكَ بِهِ سَقِيَتْ سَمَارًا (٢)
وَجَلَبْتِهِ فَنَحَاكَ يَعْتَسِفُ الرَّدَى	وَيَخُوضُ مِنْهُ لُجَّةً وَغَمَارًا
شَغَفًا بِدَارِ الْعِلْمِ فِيكَ وَقَلْبُهُ	مَا زَالَ رَبْعًا لِلْعُلُومِ وَدَارًا
مَا زِدْتَ عَمَّا عِنْدَهُ فَسَقَاكَ مَنْ	رَفَعَ السَّمَاءَ نَقِيصَةً وَعِثَارًا
وَأَجَارَ أَهْلَكَ فِي الْمَعَادِ فَإِنَّهُمْ	أَوْفَى الْخَلَائِقِ ذِمَّةً وَجَوَارًا

(١) تعرف القدماء بأبي العلاء من ١٠٥٠ عن الإنشاف والتحرى - لابن الدمج ، والآيات
من مطبوعة مطلها :

بَارَبَ فَدَ جَنَحَ الْوَيْسَ وَغَارَا فَاسَى الْمَوَاطِرَ رُبُوعًا وَنَوَارَا

(٢) الدمار : القين الكثير الماء .

ابنراه سفره :

لم يتبين لنا اليوم الذي شخص فيه أبو العلاء من المرة ، ولا على أي شيء اجتاز منها إلى بغداد . ولكننا رأينا رسالة كتبها جواباً إلى القاضي أبي الطيب الطبري طاهر بن عبد الله بن طاهر^(١) قال فيها : إنه كتبها لتسع خلون من رمضان . وقد جاء فيها : وإلى الله أرغب في تسهيل الهجرة إلى فنانه السعيد على أمون مِقتلات^(٢) . . . أو أخرى طليت بالقار من غير داء ، ولم تَخْطُ وجه البداء . . . وكيف تفرّق من الأظهاء وإنما تحيد في الماء^(٣) . ثم قال : وفي هذا اليوم وهو يوم كذا ورد إليه الشيخ أبو سعيد الخوارزمي^(٤) . . . فاصد البيت الحرام . . . فخبّرني سلامة سيدي القاضي ، وعرفني أن كتابه كان معه . . . وأن البادية ظفرت به . . . فأخذته في جملة كتبه . ولكننا لم نعلم منها في أي رمضان كتبت . وقد ذكر الميني^(٥) ص ١٠٨ أن أبا سعيد الخوارزمي زار أبا العلاء في المرة سنة ٤٩٨ هـ ، وهذه الرسالة تدل على أن أبا العلاء كان يحدث نفاً بالهجرة إلى بغداد وأن بينه وبين القاضي الطبري معرفة ومكاتبة .

(١) الطبري كان إماماً جليلاً أخذ عنه الرازيون العلم وحلوا مذهب الثاني ولد بآل سنة ٤٤٨ هـ وتوفي سنة ٤٥٠ هـ ، وقد روى عنه جماعة كبارون ، منهم الخطيب البغدادي وأبو إسحق الشيرازي ، راجع طبقات البكي ١ / ١٧٦ ورسائل المري ص ٩٩ - لشامين عطية - (ج)

(٢) نالة أمون : موقفة يؤمن عثارها ، الفلات التي تضع ولداً ثم لا تحمل غيره . (ج)

(٣) يريد سفينة . (ج)

(٤) أبو سعيد هذا اسمه أحمد بن محمد . . . ابن غفر الخوارزمي الضرير نفقه على أبي حامد الاسفرائيني ، ومات في العاشر من صفر سنة ٤٤٨ هـ . طبقات البكي ج ٢ ص ٣٣٠ (ج)

(٥) انظر أبو العلاء وما إليه .

طريقه الى بغداد :

رحل أبو العلاء إلى بغداد من المرة ولم يتبين لنا على أي شيء كان رحيله ولا أي طريق سلك . والظاهر من رسالته إلى القاضي الطبري السابق ذكرها ، ومن رسالته إلى خاله أنه ركب أولاً مطية ثم ركب سفينة ، فإنه قال فيها^(١) : وما هبطت من طريقي واديا ، ولا فترعتُ جبلاً ولا حملتني سفينة ولا ذات لي مطية إلا بمنّ الله . . .

وسأبقي أنه مر بشجرة وهو على جبل فقيل له : طأطأه راحك . . ويظهر أنه لم يمر بحلب في ذهابه إلى بغداد ، كما لم يمر بها في إيايه ، لأنه يقول في رسالته : فوالذي أخرج الجذع من الجروية^(٢) والنار من الوثيبة^(٣) ما نكبت حاب في الإبداء والانكفاء ، إلا كما تنكّب خريدة الحار لما دونها من هول البحار .

ولكنه نزل بالرفقة وكتب منها كتاباً إلى خاله يشرح له فيه ماحله على النزول .

وكذلك يقول في قصيدته لأبي حامد^(٤) .

يا نائقُ جدِّي فَقَدْ . . .

وقد ركب في رحلته هذه سفينة ، فسارت به إلى الأنبار ، ثم اعترضه نفر من أصحاب السلطان ، فأخذوا السفينة إلى موضع يقال له الفارسية^(٥) .

(١) رسائل أبي العلاء - لثامين عطية - ص ٧٥ ، وترجع الجبل : صعدته .

(٢) النواة . (ج)

(٣) المجارة . (ج) والنسب في الرسائل - لثامين عطية - ص ٦٩

(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٤٢ ، والبيت :

يا نائق جدِّي فقد أنت أنانك بي صبري وعمرى وأحلاسي وأناعي

(٥) الفارسية باللهاء والراء وهكذا رواها النبريزي وذكرها في شرحه ، وقال الحوارزمي : الفارسية موضع وهو باللهاء والراء عن الامامين صاحب الايضاح والتوير . ثم قال : كان الاستاذ البارح قد أسمعني بالقاف والذال ، وهو —

نحوه بغداد

اختلفت كلمة العلماء في الوقت الذي دخل فيه أبو العلاء بغداد وفي مدة إقامته فيها وفي أسباب خروجه منها .

فقال الخطيب في (تاريخ بغداد)^(١) : إنه دخلها سنة ٣٩٩ هـ ووافق في ذلك (لسان الميزان) ، و (مرآة الزمان) ، و (مرآة الجنان) ، و (انقضي ، والذهبي ، وأبا القداء ، و (البداية والنهاية) ، و (عقد الجمان) ، و (الأنساب) ، و (المنتظم) .

وقال ياقوت^(٢) : رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ وأقام بها سنة وسبعة أشهر . وقال في (نزهة الألباء)^(٣) : رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ ودخلها سنة ٣٩٩ هـ وأقام بها سنة وتسعة أشهر . وروى ابن العديم عن الخطيب التبريزي^(٤) أنه رحل إليها سنة ٣٩٨ هـ ودخلها سنة ٣٩٩ هـ وأقام سنة وستة أشهر . وقال ابن خلكان^(٥) : دخلها سنة ٣٩٨ هـ ودخلها ثانياً

— سهو ، لأن القادسية أول منزل في البادية بينها وبين الكوفة مرحلة ، وما للبيئة والبادية ؟

وقد جاءت في شرح الفسط اللخمي المسمى بالتوير من ٢٣٤ القادسية بالقاف والبدال فهي خطأ على قول الخوارزمي .

وقال ياقوت : الفارسية : قرية غناء نزهة ، ذات بساتين موهبة ورياض مبرقة ، على ضفة نهر عيسى بعد المحول من قرى بغداد ، بينها فرسخان .

والمحول : بلدة كثيرة البساتين والفواكه والأسواق بينها وبين بغداد فرسخ . (ج)

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء من . عن تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٦٨ عن إرشاد الأريب - لياقوت .

(٣) من ١٧ عن نزهة الألباء - لابن الأباري .

(٤) من ٥٤٣ عن الانصاف والتحري - لابن العديم .

(٥) من ١٨٣ من وفيات الأعيان - لابن خلكان .

سنة ٣٩٩ هـ . وقال غير واحد : اتفق يوم وصوله إلى بغداد موت الشريف الطاهر والد الرضي والمرضى ، وورثاه بقصيده الفائية ، وكانت وفاته سنة ٤٠٠ هـ . ونقل ذلك ابن الوردي عن أبي غالب همام بن . المهذب العربي . وهناك أقوال متضاربة تجعل بين الباحث وبين الحقيقة سداً منيعاً من الشكوك والتناقض وقد اضربنا عن مردها مخافة التطويل

والذي يظهر لي أنه شرع في رحلته في آخر سنة ٣٩٨ هـ ، وانتهت هذه السنة وهو في الطريق ، ثم دخل بغداد في صفر سنة ٣٩٩ هـ . ويؤيد هذا قول بعضهم أنه رحل أو سافر إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ . وبعضهم يقول دخلها سنة ٣٩٩ هـ . ومنهم من التبس عليه الأمر بين رحل ودخل . ولكن يشكل على هذا قول بعضهم أنه دخلها سنة ٤٠٠ هـ ، ولعل هذا المضارب أدهم ابن خلكان أن أبا العلاء رحل مرتين إلى بغداد . وتابعه في ذلك من تابعه من غير تمحيص ولا تثبت كصاحب (الشذرات) وابن الوردي بعد نقله عن أبي غالب ما تقدم . وأكثر الأقوال يؤيد ما استظهرناه .

ولم أرَ أحداً عيّن اليوم الذي دخلها فيه ، ولا الشهر ، وإنما اكتفوا بذكر السنة عن ذلك .

منزله في بغداد

سأني عن القاضي أبي الطيب الطبري أن أبا العلاء نزل في سوية غالب ، وهي من محالّ بغداد . وقال في قصيدته إلى القاضي التنوخي^(١) :

أَيَّامَ وَأَصْلَتَنِي وَدًّا وَتَكْرِمَةً وَبِالْقَطِيعَةِ دَارِي تَحْضُرُ النَّهْرَا

(١) شروح مفط الزند : ق ١ ص ١٧٣٧ ، وفي التنوير ج ٢ ص ١٩٣ .

قال في (التنوير) : القطيعة ، محبة في بغداد على شط دجلة . وقد ذكر
ياقوت مواضع تسمى قطيعة ، مضافة إلى أسماء ، مثل قطيعة إسحاق قرب
الكرخ ، وقطيعة الربيع بالكرخ ، وقطيعة الفقهاء بالكرخ وغيرها . ورجع
الأستاذ الميني أنها قطيعة الفقهاء ، واستدل على ذلك بقول أبي العلاء من
قصيدة يجيب بها أبا نعيم البرقي (١) :

بِمَحَلَّةِ الْفُقَهَاءِ لَا يَغْشَوُ الْفَتَى نَارِي وَلَا تُنْضِي الْمَطْيَى عَزَائِمِي
وقال : وإن كان صاحب التنوير والغرام أراداً بمحبة الفقهاء بغداد ، وأظن أن
هذا من عدم علمها بقماء ، وإلا فظاهر أن المحبة لا يراد بها مدينة عادة هـ .
وهذا احتياط لا بأس به ، ولكني أعتقد أن أبا العلاء لو أراد قطيعة
الفقهاء لأمكنه أن يقول :

بِقَطِيعَةِ الْفُقَهَاءِ لَا يَغْشَوُ

وأطاعه اللفظ والمعنى والوزن ، أما إطلاق المحبة على المدينة فقد يسه
المجاز المرسل . ويجوز أن يقال : جعلها كلها محبة الفقهاء لكثرتهم بها كما
قال صاحب (التنوير) . وأما الكرخ فالظاهر من كلام المعري أنه نزلها ،
لأنه قال من قصيدة في السقط (٢) :

دَمَاهُ بِلَادِي كَانَ أَنْجَعَ مَشْرِبَا وَلَوْ أَنَّ وَمَاءَ الْكَرْخِ صَهْبَاهُ جَرِيَالُ
وقال من أخرى فيه (٣) :

فَيَا بَرْقُ لَيْسَ الْكَرْخُ دَارِي وَإِنَّمَا رَمَانِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لَيْالٍ

-
- (١) أبو العلاء وما إليه - للسيبي - ص ١١٣ ، والبيت في الصروح ق ٤ ص ١٥٢٣ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٤ والجريال : صبح أحر وماء الذهب ، وسببت
الحمر جريالا لصبها بالذهب ومائه .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٥ .

وقال في لزوم ما لا يلزم^(١) :

مالي وللنفر الذين عَهِدْتُهُم بِالكَرْخِ مِنْ شَاشٍ وَمِنْ إِيلَاقٍ

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب ما قاله البطليمي^(٢) فقد قال :
القطيعة موضع ببغداد يعرف بقطعة الربيع يقرب من دجلة ، وكان
أبو العلاء ساكنا فيه . وقال التبريزي^(٣) : المراد بالنهر نهر القلانين ،
والربيع هو ابن يونس حاجب المنصور .

عبارة في بغداد

ذكرنا أن القاضي أبا الطيب الطبري كانت بينه وبين أبي العلاء معرفة
ومكاتبة قبل أن يصل إلى بغداد ، وكتب إليه أبياتا حين وافى بغداد ،
فأجابه عنها في الحال ، ثم كتب إليه أبياتا آخر فأجابه عنها مرثعلا
كما سيأتي .

وقول أبي العلاء في رسالته إلى خاله^(٤) : وأما سيدي أبو طاهر
فقد حماني من الإناعام أَوْقَا (= ثَقَلَا) ما زالت كتبه تطرف أصدقاءه
محافضة على المكارم .. حتى جعلهم إلي كعُزْفِ الفرس ، أو قَوَى
المرس .. ، يفهم منه أن أصدقاء أبي طاهر كثيرون ، وأنهم كانوا يلزمون
أبا العلاء .

(١) الزوبيات ص ٣٠٨ وشاش : بلدة في ما وراء النهر .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٣٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الرسائل - لشاهين عطية - ص ٧٥ وفيه ميم الأدباء و تطرق أصدقاءه .

ولا شك أن شهرة أبي العلاء سبقته إلى بغداد ، لأن المرة في عهده كانت ملتقى السبل بين الشام وما وراءها ، والعراق وما وراءه . وكان الحجاج والتجار والرحال ورسل الملوك وغيرهم يمدون بها ، وقد كان ذكر أبي العلاء ملا تلك التواحي ، ونحطى إلى مسمع كثير من الفضلاء في العراق وغيره ، منهم الفاضل الطبري ، وأصدقاؤه أبي طاهر الذين كتب إليهم . ولما دخل بغداد كتب نصيدة إلى أبي حامد الإسفرائيني ^(١) ذكر فيها أنه انشأ الرحلة على ناقه ، فهو يجثا على السير وبأمرها أن تسرع في الليل ولا تنأى بياض الصبح ، وإن كان شيئا بالسف ، يشير بذلك إلى جيده ومضائه حيث يقول ^(٢) :

لَا وَضَعَ لِلرَّحْلِ إِلَّا بَعْدَ إِيْضَاعٍ ^(٣)

فَكَيْفَ شَاهَدْتَ إِمْضَائِي وَإِزْمَاعِي ^(٤)

يَا نَاقُ جِدِّي فَقَدْ أَفْنَتَ أَنَا نَكَّ بِي

صَبْرِي وَعُغْرِي وَأَحْلَاسِي ^(٥) وَأَنْسَاعِي ^(٦)

(١) ترجمته في الوفيات وطبقات ابن البكي . والمخطيب البغدادي وشذرات الذهب وأبني الفداء ، وهو أحمد بن محمد الإسفرائيني الفقيه الشافعي الذي انتهت إليه رئاسة الدنيا والدين ، وكان يحضر مجله ثلاثمائة نقيب وقيل سبعمائة توفي سنة ٤٠٦ هـ في بغداد . (ج)

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٤١ .

(٣) سير سريع . (ج)

(٤) عزمي . (ج)

(٥) المجلس : كاه . بطرح على ظهر البعير . (ج)

(٦) النع : سير ينفج عريضا للتصدير . (ج)

إِذَا رَأَيْتِ ظِلَامَ اللَّيْلِ فَانصَلِّتِي^(١)
وإن رَأَيْتِ بَيَاضَ الصُّبْحِ فَانصَاعِي^(٢)
وَلَا يَهْوُ لَنُكَ سَيْفٌ لِلصُّبْحِ بَدَا فَإِنَّهُ لِلْهَوَادِي غَيْرُ قَطَّاعٍ
إِلَى الرَّئِيسِ الَّذِي أَسْفَارُ طَلْعَتِهِ
فِي حِنْدِسِ الْخَطْبِ سَاعٍ بِالْمُدَى شَاعِي^(٣)
ثم أشار إلى رُكوبه الفينة ووصفها فقال :
يَعْمَتُهُ وَبُودِي أَنِّي قَلَمٌ أَسْعَى إِلَيْهِ وَرَأْسِي تَخْتِي السَّاعِي
عَلَى نَجَاةٍ^(٤) مِنَ الْفِرْصَادِ^(٥) أَيْدَهَا رَبُّ الْقَدُومِ بِأَوْصَالٍ وَأَضْلَاعٍ
تُطْلَى بِقَارٍ وَلَمْ تَجْرَبْ كَأَنَّ طُلَيْتَ
بِسَائِلٍ مِنْ ذَفَارَى^(٦) الْعَيْسِ مُنْبَاعٍ^(٧)

(١) فأسرعى . (ج)

(٢) دعى البر وخشي في ناجة . (ج)

(٣) مغلوب شائع : أي منتشر . (ج)

(٤) نافة سريعة يريد بها الفينة . (ج)

(٥) التُّوت . (ج)

(٦) جمع ذفرى . عظم نان . خلف الأذن ، يريد متأخير الآذان . (ج)

(٧) ممتدٌ منبعث . (ج)

وَلَا تُبَالِي بِمَخْلٍ إِنْ أَلَمَ بِهَا وَلَا تَنْهَشُ^(١) لِإِنْخَابٍ وَإِمْرَاعٍ

ثم ذكر المواضع التي مر بها ، وترى أصحاب السلطان لها واخذها ، فقال :

سَارَتْ فَزَارَتْ بِنَا الْأَنْبَارَ سَالِمَةً تَرْجَى وَتُدْفَعُ فِي أَمْوَاجٍ دُفَاعٍ^(٢)
وَالْفَارِسِيَّةَ^(٣) أَذَتْهَا إِلَى تَفْرِيطٍ طَافُوا بِهَا فَأَنَاخُوهَا بِجَنَجَاعٍ^(٤)

واراد أن يصف ما عرض له في رحلته من الاستعجال والحرف في الطريق ، فعبّر عن ذلك بما يتعلق باصطلاح الفقهاء الشافعية لأن أبا حامد فقيه شافعي فقال :

وَرُبَّ ظَهْرٍ وَصَانَاهَا عَلَى عَجَلٍ بِبَضْرِهَا فِي بَعِيدِ الْوَرْدِ لِمَاعٍ
بِضْرَ بَتَيْنِ : لِظَهْرٍ^(٥) الْوَجْهَ وَاحِدَةً وَلِلذَّرَاعَيْنِ أُخْرَى ذَاتُ إِسْرَاعٍ
وَكَمْ قَصَرْنَا صَلَاةَ غَيْرِ نَافِلَةٍ فِي مَنَعَةِ كَصَلَاةِ الْكَسْفِ شَعْنَاعٍ
وَمَا جَهَرْنَا وَلَمْ يَصْدَحْ مُؤَذِّنُنَا مِنْ خَوْفِ كُلِّ طَوِيلِ الرُّمَحِ خَدَاعٍ

(١) تَرْتَاخ . (ج)

(٢) مَا يَدْفَعُ بَعْضُهُ بَعْضًا (ج) . وفي شروح القبط : « تَرْجَى وَتُدْفَعُ فِي مَوْجٍ وَدُفَاعٍ »

(٣) تقدم تفسيرها وأنها بالفاء والراء (ج)

(٤) الْجَبَابِغُ : الْحُمُوسُ الضَّبَقُ الْحَثَنُ (ج)

(٥) في شروح القبط : « لظهر » .

في^(١) مَعْشَرٍ كَجَمَارِ الرَّمْلِ أَجْمَعُهَا لِيَلَاوِي الصُّبْحِ أَلْقِيَهَا إِلَى الْقَاعِ

ولقد أجاد غاية الإجابة في هذا ، فإنه ذكر كَجَمْعِ الظُّهْرِ مع العصر وذلك يكون للسافر . والتبسم بضربتين لقلد الماء ، وقصر الفريضة ، وأشار إلى طول صلاة الكسوف وهي عند الشافعي ركعتان في كل ركعة قيامان وقراءتان وركوعان طوال ، يقرأ في القيام الأول بعد الفاتحة سورة البقرة ، وفي الثاني آل عمران ، وفي الثالث النساء ، وفي الرابع المائدة ، ويسبح في الركوع الأول قدر مائة آية من البقرة ، وفي الثاني قدر ثمانين ، وفي الثالث سبعين ، وفي الرابع خمسين ، ويسبح في كل سجود على قدر الركوع الذي قبله ، ففي الأول قدر مائة وفي الثاني قدر ثمانين وهكذا . وهناك أقوال أخرى في الكيفية والمقدار كما هو مبسوط في كتب الشافعية . وهي عند الحنفية ركعتان كالنفل بركوع واحد . وأشار إلى جمع الجمار ليلاً وربما نهاراً ، وهذه كلها على مذهب الشافعي . وأعله تعمد ذلك لأنه مخاطب فقيهاً شافعيّاً ، ولقد برع وأجاد وأبدع وزاد في تشبيه معشره بالجمار يجمعها ليلاً ويفرقها نهاراً .

ثم تصدّى لذكر البادية وحدد المقام فيها ، وانتقل إلى بيان من يجهم في العراق وهجره أشباعه في جهم فقال :

وَبِالْعِرَاقِ رِجَالٌ قُرْبُهُمْ شَرَفٌ هَجَرْتُ^(٢) فِي حُبِّهِمْ رَهْطِي وَأَشْيَاعِي
عَلَى سِنِينَ تَقَضَّتْ عِنْدَ غَيْرِهِمْ أَسْفَتْ لَأَبْلَ عَلَى الْأَيَّامِ وَالسَّاعِ

(١) كذا في الأصل وفي شروح السقط : « من مشر كجمار الرمي أجمعها » ؛ وجار الرمي :

المصونات التي ترمى في مناسك الحج .

(٢) في شروح سقط الزند : « هاجرت » .

وخشي أبو العلاء أن يفهم أبو حامد من مدحه هذا أنه يفتني فواباً ،
فبين له أنفته وشماله ، وعرض عليه أخلاقه في صورة فتوى ، وأردف
ذلك بالتلميح إلى قول ابن أسلت ، وهدية المسبب ، وإرسال الفرزدق
غلامه . بسط ذلك له حتى لا يسبق إلى ظنه ما هو بعيد عنه ، وحتى يفهم
أن الحاجة التي يبتغيها عنده هي مودته ومعرفته على إعادة اليقظة ، وأنه
يشكره ويدعو له وإن لم 'يبلغه' مأمله . وهذا ما يريد به بقوله :

اسمع أبا حامد فتياً قصدتُ بها	من زائرٍ لجميل الودِّ مُبتاعٍ
مُؤدَّب النفسِ أكالٍ على سغبٍ	لحمِ الثَّوَابِ شرابٍ بأنِّقاعٍ ^(١)
أرضي وأُنصِفُ إلا أنني رُبما	أرئيتُ غيرَ مُجيزٍ خرقٍ إجماعٍ
وذاك أنِّي أُعطي الوسقَ مُنتحياً	من المودَّةِ مُعطي الودِّ بالصاع ^(٢)
ولا أثقلُ في جاهٍ ولا نَشَبٍ	ولو غَدَوْتُ ^(٣) أخاعِظم وإدِّقاع
من قال صادقٍ لئامِ الناسِ قلتُ له	قول ابنِ أسلتَ قد أبلغتَ أسماعي ^(٤)
كأنَّ كلَّ جوابٍ أنتَ ذاكرُهُ	شَنَفٌ يُنَاطُ بأذنِ السامعِ الواعي
إنَّ الهدايا كراماتٌ لا أخذها	إن كُنَّ لسنٍ لإسرافٍ وإطماع

(١) جمع جمع الماء : أي السنفع يضرب للرجل الجوال (ج) .

(٢) الوسق : ستون صاعاً . (ج) وفي شروح الفط : « المدة بالصاع » .

(٣) في الشروح : « ولو غديت » ،

(٤) هو أبو قيس بن الأسلت ، صفي بن عامر الأوسي ، شاعر حكيم اجتمع برسول الله (ص) ومات قبل أن يعلم ، يقول من قصيدة :

فالت ولم تحمد لقبل الحنا . مهلاً فقد أبلغت أسماعي (ج)

وهي القصيدة (٧٥) من الفضليات . وفي شروح الفط : « قول ابن الأسلت ... »

ولا هدية عندي غير ما حملت عن المسيب أزواح لقعقاع^(١)
ولم أكن ورسولي حين أرسلته مثل القرزدق في إرسال وقاع^(٢)
مطيتي في مكان لست آمنه على المطايا وسرحان له راع^(٣)
فأرفع بكفي فأني طائش قدمي وأمدد بضنعي فأني ضيق باعي
وما يكن فلك الحمد الجميل به وإن أضيعت فأني شاكر داع^(٤)

إذا أمر الإنسان على ذاكرته منزلة أبي حامد في بغداد ، وتلقى الشعراء في ذلك العهد ومغالاتهم في المدح ، ثم اعترض حالة أبي العلاء البصير الفقير القريب ، وما يورثه مدحه لئلا أبي حامد ، ثم أمن النظر في هذه القصيدة ، ورأى ما فيها من الإشارات اللطيفة ، والاحتراس الدقيق ، نجلى له أن أبا العلاء رأى ببصيرته ما يعتلج في الصدور ويدور في الأخلاص ، فاحترس أشد الاحتراس ، فلم يسرف في المدح ولم يغال في التلق ، وتلطف غاية التلطف في عرض حاجته بعد أن بين في فاتحة كلامه أنه زائر مبتاع لجليل الود ، مؤدب النفس بحك يقابل الود بأضعاف ،

(١) اللب بن علي : خال أعشى قيس ، مدح القعقاع بن معبد التميمي فقال من قصيدة :

فلا هدين مع الرياح قصيدة مني منقلة إلى القعقاع (ج)
ومى القصيدة (١١) من الفضليات .

(٢) وقاع : غلام للقرزدق كان يرسل به في الجانيات (ج) .

(٣) مطيتي ، يريد سببته . (ج) وفي شروح القط : « ... لها راع » .

(٤) وفي شروح القط : « الحمد الجزيل » .

ولا ينقل في جاء ولا نشب . ثم ختم كلامه بأنه مجيد المدوح ويشكره
سواء أنجح في قضيته أم أخفق . وإذا تعد ذلك لبهم النقبه وغيره أنه
لم يكن كغيره من الشعراء إذا نجح مدح وإذا أخفق قدح . ولم يعرفنا
التاريخ ما لقيت هذه القصيدة من أبي حامد ، والظاهر أنها ذهبت
كصيفة في واد .

أما السفينة فقد اجتهد آل حكار في إعادتها إليه ، وشكروا على ذلك
في قصيدة أنفذها بعد رجوعه إلى المرة إلى خازن دار العلم في بغداد ،
حيث يقول : (١)

وَعَنْ آلِ حَكَارٍ جَرَى سَمَرُ الْعُلَا بِأَكْمَلِ مَعْنَى لَا اتِّقَاصٌ وَلَا غَنَظٌ
فَإِنْ يُنْسِيهِمْ أَمْرَ السَّفِينَةِ فَضْلُهُمْ فَلَيْسَ بِمُنْسِي الْفِرَاقِ وَلَا الشَّخْطِ
أُولَئِكَ إِنْ يَقْعُدْ بِكَ الْجَاهُ يَنْهَضُوا بِجَاهٍ وَإِنْ يُبْخَلْ بِنَائِثَةٍ يُعْطُوا (٢)
إلى أن يقول :

شَكَرْتُهُمْ شُكْرَ الْوَلِيدِ بِفَارِسٍ رِجَالًا بِحِمْنٍ كَانَ جَدُّهُمْ السَّمْطُ (٣)

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٩١ وآل حكار : قوم من آل بغداد كانوا
خلصوه من العشارين .

(٢) في شروح السقط : « وإن يبخل بنافذة » ، والرواية الأولى في التنوير ص ١٧٨ .

(٣) الوليد : البحري ، شكر بني السط بيتين وهما :

جزى الله خيراً والجزاء بكعه بني السط إخوان المكارم والمجد

م وصلوني والناسف بيننا كما ارفض غيث من نامة في نجد

ويقال : إنها لتهلل بن حري ولله مثلها . (ج) ، وبنو السط : قوم

من أهل حمص .

وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَيْسَ يَبْسُطُ شُكْرَهُ عَلَى الْقُلِّ إِنَّ الْخَيْرَ نَاقَتُهُ بَسْطُ^(١)

وكان من عادة البغداديين أن يتعرفوا إلى من طرق ديارهم من الشعراء ، وأن ينشدوه ويستنشدوه . وسأني في قصة الوزير المنازي أنه أنشده شعره في جملة من أنشده ، فقال له :

وَمَنْ بِالْعِرَاقِ

وكانت لهم مجالس يتناشدون فيها الأشعار ، ويتذاكرون في الأدب ، ويبحثون فيها مع العلماء في فنون مختلفة . وسأني أنه كان يحضر مجتمعا في يوم الجمعة ، وأنه كان في حلقة القاضي التنوخي ، فاعترض عليه في لفظ « بوح » . ومات الشريف أبو أحمد الموسوي فرثاه ، وعرف ابنه الرضي والمرضى ، وكان يقضي دار الكتب ودور العلم ويجتمع بجزنتها ، وأنهم أحضروا له دستور الحراج ليختبروا حفظه .

فهذه الأسباب التي عرفناها وغيرها مما أغفل التاريخ ذكره ، مهدت له السبيل إلى أن يخاطب رجال العلم والأدب والفلسفة .

وقد قال البديعي في (أوج التحري) عند الكلام على دخوله بغداد^(٢) :
« ولما دخلها تاملت به أماناتها ، وأقبلت عليه أفاضلها ، ونظم بها قصائد لا يخلق جدتها مرور الدهور ولا يذهب بهجتها تكرار العصور ، منها القصيدة التي رثي بها الشريف أبا أحمد الموسوي . وذكر أنه نظم في بغداد قصيدته الضادية^(٣) :

مِنْكَ الصُّدُودُ وَمِنْ بَالِ الصُّدُودِ رَضَى مَنْ ذَا عَلَيَّ بِهَذَا فِي هَوَاكِ قَضَى
وكانوا يتفننون بها لحسنها ورفقها

(١) ناقة بسط : لا يمنع منها ولما (ج) .

(٢) أوج التحري - للبديعي . ص ١٨ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٥٤ ، وفي أوج التحري ص ٦ .

الذين عرفهم ببغداد

لا شك أن أبا العلاء عرف خلفاً كثيراً في بغداد من العلماء والأدباء والشعراء والكتاب ، ولكن الذين عرفناهم منهم قلٌّ من أكثر ، منهم :
 ١ - القاضي أبو الطيب : طاهر بن عبد الله الطبري السابق ذكره قال :
 « كتبت إلى أبي العلاء العمري الأديب حبيباً وافي ببغداد وكان قد نزل
 -سوية غالب (١) :

وما ذاتُ دَرٍّ لا يَحِلُّ لِحَالِبٍ تَنَاولُهُ واللَّحْمُ مِنْهَا مُحَلَّلٌ
 لِمَنْ شَاءَ فِي الْحَالَيْنِ حَيًّا وَمَيِّتًا وَمَنْ شَاءَ شَرِبَ الدَّرَّ فَهُوَ مُضَلَّلٌ (٢)
 إِذَا بَلَغْتَ فِي السِّنِّ فَاللَّحْمُ طَيِّبٌ وَآكِلُهُ عِنْدَ الْجَمِيعِ مُعْقَلٌ (٣)
 وَخِرْفَانُهَا فِي الْأَكْلِ فِيهَا كَرَاهَةٌ فَمَا لِسَخِيفِ الرَّأْيِ فِيهِزَ مَا كَلَّ (٤)
 وَمَا يَجْتَنِي مَعْنَاهُ إِلَّا مُبَرَّرٌ عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الْقُلُوبِ مُحْصَلٌ
 فَأَجَابَنِي وَأَمَلَى عَلَى الرَّسُولِ فِي الْحَالِ أَرْجَاءً (٥) :

جَوَابَانِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ كِلَاهُمَا صَوَابٌ وَبَعْضُ الْقَائِلِينَ مُضَلَّلٌ

-
- (١) الوفيات ١ / ٢٩٢ ، ابن الوردي ١ / ٣٦١ ، بدائع البداه ٢٠٤ ، شفرات الذهب ٣ / ٢٨٥ ، أوج التحري [ص ٣٠] (ج) .
 (٢) رويت هذه الأيات بروايات مختلفة ، وفي بعضها : « فمن رام شرب الدر » (ج) .
 (٣) روي : « طعت في السن » . عند الجميع « منخل » (ج) .
 (٤) روي : « .. للأكل منها كرازة » فالخفيف الرأي ... (ج) .
 (٥) الأيات مما لم يرو في الدواوين .

فَمَنْ ظَنَّهُ كَرَمًا فَلَيْسَ بِكَاذِبٍ وَمَنْ ظَنَّهُ نَخْلًا فَلَيْسَ يُجْهَلُ
لِحَوْمُهُمَا الْأَعْنَابُ وَالرُّطَبُ الَّذِي هُوَ الْحِلُّ وَالْدَّرُّ الرَّحِيقُ الْمَسْلَسَلُ
وَلَكِنْ ثِمَارُ النَّخْلِ وَهِيَ غَضِيضَةٌ

تُعَافُ^(١) وَغُضْنُ الْكَرَمِ يُجْنَى وَيُؤْكَلُ
يُكَلِّفُنَا الْقَاضِي الْجَلِيلُ مَسَائِلًا هِيَ النَّجْمُ قَدْرًا بَلْ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
وَلَوْ لَمْ أَجِبْ عَنْهَا لَكُنْتُ بِجَهْلِيهَا جَدِيرًا وَلَكِنْ مَنْ يُجِيبُكَ^(٢) يَقْبَلُ
فَأَجَبْتُهُ ثَانِيًا بِقَوْلِي :

أَثَارَ ضَمِيرِي مَنْ يَعِزُّ نَظِيرُهُ مِنْ النَّاسِ طُرًّا بَلْ أَعَزُّ وَأَفْضَلُ
تَسَاوَى لَهُ سِرُّ الْمَعَالِي وَجَهْرُهَا وَسَائِرُهَا بَادٍ لَدَيْهِ مُفْصَلُ
وَمَنْ قَلْبُهُ كُلُّ الْعُلُومِ بِأَسْرِهَا وَخَاطِرُهُ فِي حَدِّهِ النَّارُ يَشْعَلُ
وَلَمَّا أَثَارَ الْحُبَّ قَادَ صَنِيعُهُ أُسِيرًا بِأَنْوَاعِ الْبَيَانِ يُكَبِّلُ^(٣)
وَقَرَّبَهُ مِنْ كُلِّ قَهْمٍ بِكَشْفِهِ وَإِضَاحِهِ حَتَّى رَأَاهُ الْمَغْفَلُ

(١) يروى : « ومي رطينة تمر . . . »
وهكذا روي « غسن » ، ويجوز أن يكون غسن الكرم ، ولكنني لم أر من ذكره (ج)
وفي أوج التحري ص ٣١ : « وغسن »

(٢) يروى « من يودك » (ج) الأوج ص ٣٠ .

(٣) كذا في الأصل ، وفي تريف القدماء ص ٢١٣ عن تنية المختصر - لابن
الوردي « ولما أثار الحب فادى مبعه » .

وَأَعْجَبُ مِنْهُ نَظْمُهُ الدُّرُّ مُسْرِعًا وَمُرْتَجِلًا مِنْ غَيْرِ مَا يَتِمَّعِلُ
فَيَخْرُجُ مِنْ بَحْرِ وَيَسْمُو مَكَانَهُ جَلالًا إِلَى أَحْيَا الْكَوَاكِبِ تُنْزِلُ
فَهَنَاءُ اللَّهِ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهِ مُحَاسِنُهُ وَالْعَمْرُ فِيهَا مُطَوَّلُ

فاجابني مرتجلاً وأملأه في الحال :

أَلَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي بَدَّهَاتِهِ سُوِّفُ عَلَى أَهْلِ الضَّلَالِ تَسْلُلُ^(١)
فَوَاؤُكَ مَعْمُورٌ مِنَ الْعِلْمِ أَهْلُ وَجَدُّكَ فِي كُلِّ الْمَسَائِلِ مُقْبِلُ
فَإِنْ كُنْتَ بَيْنَ النَّاسِ غَيْرَ مُمَوَّلٍ فَأَنْتَ مِنَ الْقَهْمِ الْمُصُونِ مُمَوَّلُ
إِذَا أَنْتَ خَاصَمْتَ الْخُصُومَ مُجَادِلًا فَأَنْتَ، وَهُمْ مِثْلُ الْحَمَائِمِ، أَجْدَلُ^(٢)
كَأَنَّكَ عِلْمُ الشَّافِعِيِّ مُخَاطِبًا وَمِنْ قَلْبِهِ تُعْلِي فَمَا تَتَمَّعِلُ^(٣)
وَكَيْفَ يُرَى عِلْمُ ابْنِ إِدْرِيسَ دَارِسًا وَأَنْتَ يَا بَاضِحَ الْهُدَى مُتَكَفِّلُ
تَفَضَّلْتَ حَتَّى ضَاقَ ذَرْعِي نَكْرُمًا وَقُلْتَ وَكَفَى عَنْ جَوَابِكَ أَجْمَلُ^(٤)
لَأَنَّكَ فِي كُنْهِ الثَّرْيَا فَصَاحَةٌ وَأَعْلَى، وَمَنْ يَنْبَغِي مَكَانَكَ أَسْفَلُ

(١) وفي نسخة المختصر - لابن الوردي - : « بدَّهاته .. على أهل الخلاف » ، تعريف القدماء ص ٢١٤ .

(٢) وفي نسخة المختصر - لابن الوردي : « خاطبت » . والأجدل : الصفر .

(٣) وفي نسخة المختصر - لابن الوردي : « كأنك من في الشافعي مخاطب » .

(٤) وفي نسخة المختصر - لابن الوردي : « ... بشكر ما فلت ... » .

فَعَذَّرِي فِي أَنِّي أُجِبْتُكَ وَانْقَاً بِفَضْلِكَ فَلَا إِنْسَانٌ يَسْهُو وَيَذْهَلُ^(١)
وَأَخْطَأْتُ فِي إِنْفَادِ رُقْعَتِكَ الَّتِي هِيَ الْمَجْدُ لِي مِنْهَا أَحْيَرُ وَأَوَّلُ
وَلَكِنْ عَدَانِي أَنْ أُرْوَمَ احْتِفَاطَهَا رُسُوكَ وَهُوَ الْفَاضِلُ الْمُتَفَضِّلُ
وَمِنْ حَقِّهَا أَنْ يُصْبِحَ الْمِسْكُ غَايِرًا لَهَا، وَهِيَ فِي أَعْلَى الْمَنَازِلِ تُجَعَلُ^(٢)
فَعَمَّنْ كَانَ فِي أَشْعَارِهِ مُتَمَثِّلًا فَأَنْتَ أَمْرُؤٌ فِي الْعِلْمِ وَالشَّعْرِ أَمِثْلُ
تَجَمَّلَتِ الدُّنْيَا بِأَنْتَ فَوْقَهَا وَمِثْلُكَ حَقَّامِنْ بِهِ يُتَجَمَّلُ...».

٢ — ومنهم أبو أحمد عبد السلام بن الحسين المعروف بالواجك البصري .

قال في البغية ص ٣٠٥ : « عبد السلام بن الحسن ^(٣) بن محمد البصري اللغوي أبو أحمد الترميضي ، ويلقب بالواجك ، كان عالماً باللغة والآداب والقرآن صدوقاً أديباً سعيًا ، قرأ على الفارسي والعمري في وسمع محمد بن إسحاق التمار وغيره ، ومات في المحرم سنة ٥٣٢٩ هـ ، وعلى هذه الرواية تكون وفاته قبل ولادة أبي العلاء بأربع وثلاثين سنة .

والصواب ما قاله الخطيب البغدادي ^(٤) ج ١١ ص ٥٨ : عبد السلام بن الحسين بن محمد أبو أحمد البصري اللغوي ، سكن بغداد وحدث بها عن محمد بن إسحاق التمار وجماعة من البصريين .. وكان صدوقاً عالماً أديباً فارساً للقرآن عارفاً بالفرائد ، وكان يتولى ببغداد النظر في دار الكتب ، وإليه

(١) وفي نسخة المختصر - لابن الوردي : « والإنسان » .

(٢) وفي نسخة المختصر - لابن الوردي : « المواضع » .

(٣) كذا في الكامل والنور ، وذكره في البغية في ترجمة أبي العلاء بن الحسين (ج) .

(٤) انظر تاريخ بغداد .

حفظها والإشراف عليها ، سمعت أبا القاسم عبيد الله بن علي الرقسي الأديب يقول : كان عبد السلام البصري من أحسن الناس تلاوة للقرآن وإنشاداً للشعر ، وكان سمحاً سخياً ، وربما جاءه السائل وليس معه شيء يعطيه فيدفع إليه بعض كتبه التي لها قيمة كثيرة وخطر كبير . . ونوفي يوم الثلاثاء في التاسع عشر من المحرم سنة ٤٠٥ هـ ، وكان مولده سنة ٨٣٢٩ هـ كما قال البطليوسي وغيره . وترجمته في (تزهة الألباء) ص ٤١٢ قريبة من هذه ، فلعن السيوطي اشتبه عليه المولد بالوفاة ، أو وقع في النسخة ناقص في العبارة . وهذا أقرب . ولم يذكر الواجكا غير السيوطي ، وفي فهرست أبي الخير الاشيلي : قال أبو بكر المصحفي ، قال لي القبة الراوية أبو الحسن علي بن إبراهيم في بعض ما كان يخبرني به : أكبر من لقيت من رواة كتب اللغة والنحو والتفسير والأخبار ونوادير العرب وأباها الشيخ أبو أحمد عبد السلام بن الحسين البصري وكان راوية بغداد يومئذ .

وقد ذكره أبو العلاء في (رسالة الفهران) ص ١٨٤ حيث قال (١) : « وقد شاهدت عند أبي أحمد عبد السلام بن الحسين المعروف بالواجكا رحمه الله ، فلقد كان من أحرار الناس ، كتباً عليها صمغ لرجل من أهل حلب . . » وذكره في قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم علي التنوخي ، وكان حمل إليه وهو ببغداد جزءاً من أشعار تنوخ في الجاهلية ، فتوكله أبو العلاء عند عبد السلام البصري وسأله أن يرده إلى أبي القاسم فقال :

أَهْدِي السَّلَامَ إِلَى عَبْدِ السَّلَامِ فَمَا يَزَالُ قَلْبِي إِلَيْهِ الدَّهْرَ مَلْفُوتاً^(٢)

(١) رسالة الفهران تحقيق بنت الناطق ط ١ ص ٤٨٦ .

(٢) رواء القفطي : تخفين عبد السلام « نلي جيد إلى نحوه مازال ملفوتاً » . (ج)

والبيان من قصيدة في شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٤٣ .

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يَوْمِ السَّيْرِ مَبْعُوثُهُ إِلَيْكَ دِيَوَانُ تَيْمِ اللَّاتِ مَا لَيْتَا؟^(١)

وذكره مرة ثانية في (السلط) ، ولكنه لم يصرح باسمه وإنما كفى عنه
بالقصة في قوله من قصيدة أرسلها إلى التتوخي : (٢)

وَحَمَلَكِ الشُّغْرَمِنْ أَشْعَارِ طَائِفَةٍ وَحَشِيَّةٍ مِنْ تَنُوخٍ تُنْكَرُ الْجُدْرَا
جُزْءُهُ بِدَرْبِ جَمِيلٍ فِي يَدَيِ ثِقَةٍ سَأَلْتُهُ رَدَّ مَضْمُونٍ إِذَا قَدَرَا

وكان أبو العلاء يكثر إقامته عنده أيام كان ببغداد ، ويظهر من أقواله
أن عبد السلام كان في درب جميل بالكرخ ، بدليل قوله السابق : جزء
بدرب جميل .. وأنه كان يجتمع به في كل جمعة بدليل قوله : (٣)

تُرْجِعُ أَشْوَاقِي عَرُوبَةً إِنْهَا إِلَيْكَ ذَوْتُ نِي عَنْ حُضُورٍ بِمَجْمَعٍ

وفي (التنوير) ج ٢ ص ١٢١ : وقال ، وهو محتجب بعمرة النعمان يخاطب
خازن دار العلم ببغداد ، ويصف حال الفتنة بالشام ، وأمر الزورق ، ثم
ذكر قصيدته الطائفة التي يقول فيها : (٤)

أَخَازِنُ دَارِ الْعِلْمِ كَمْ مِنْ تَنُوقَةٍ أَتَتْ دُونَهَا فِيهَا الْعَوَازِفُ وَاللُّغَطُ

وقد ذكر جماعة كالبيهقي^(٥) ، أن المراد بخازن دار العلم عبد السلام .
وليس في القصيدة ما يدل دلالة صريحة على ذلك ، وإن كان عبد السلام

(١) تيم اللات : مجتمع تنوخ في النسب (ج) .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٣٨ وفيها : د وحلك الجزء .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٨٣ .

(٤) انظر ما سبق ص ٩ الماشية (٤) .

(٥) أبو العلاء وما إليه - البيهقي - ص ١٢١ .

خازن دار العلم ، بل في آياتها ما يدل على أن المراد غيره ، لأنه يذكر فيها فتنة طائفة عامرية امتدت من الفرات الى مصر ، وأظنه يريد بها الفتنة التي أثارها صالح بن مرداس الكلبي من بني عامر بن صعصعة ، وحنان أمير طيء ، وسنان بن عليان ، وانتفرا على أن يكون لصالح من حلب إلى عانة ، ولحسن من الرملة الى مصر ، ولسنان حمش ، ثم وقع ما وقع من الحروب التي ذكرناها في سنة ٤١٤ هـ فما بعدها . وقد قدمنا عن الخطيب البغدادي و (نزهة الألباء) أن عبد السلام توفي سنة ٤٠٥ هـ ، فلملح يشير إلى فتنة غير هذه ، أو ان هذه الفتنة ابتدأت في سنة ٤٠٤ هـ ثم استغل أمرها بعد ذلك . وجاء في (التنوير) أيضاً ج ٢ ص ١٠١ : « وقال يخاطب أبا احمد عبد السلام بن الحسين البصري صاحب الدولة » ، ثم ذكر قصيدته العينية . ولم أعلم ما أراد بهذه الدولة ، ولا رأيت أحداً ذكرها غيره ، وقال الخوارزمي والبطليوسي (١) : وقال أبو العلاء يخاطب أبا احمد عبد السلام بن الحسين البصري صاحب الرواية ، وكان يكثر الجلوس عنده أيام إقامته ببغداد .

وقال القفطي (٢) : وحضر خزنة الكتب التي بيد عبد السلام البصري ، وعرض عليه أسماءها ، فلم يستغرب فيها شيئاً لم يره في دور العلم بطرابلس سوى (ديوان تيم اللات) ، فاستعاره منه ، وخرج عن بغداد ، وقد سها عن إعادته ، ولم يذكره حتى صار بالمرّة فأعاده إليه ، وفي محبة القصيدة الثانية التي أولها :

هَاتِ الْحَدِيثَ عَنِ الزُّوْرَاءِ أَوْ هَتَا وَمَوْقَدِ النَّارِ لَا تَكْرِي بِتَكْرِيتَا

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٤٦ الماشية .

(٢) تريف القضاة . بابي العلاء ص ٣٢ عن إنباء الرواة - لقفطي ، وفي شروح سقط

الزند : ق ٤ ص ١٦٣٠ .

ويقول فيها :

إِقْرَ السَّلَامَ عَلَى عَبْدِ السَّلَامِ فَلِي جِدُّ إِلَى نَحْوِهِ مَا زَالَ مَلْفُوتًا^(١)

وذكر فيها (ديوان تيم اللات) فقال :

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يَوْمِ السَّيْرِ مَبْعَثَهُ إِلَيْكَ دِيوانَ تَيْمِ اللَّاتِ مَا لَيْتَا؟

هذا ما قاله التفتي . وفيه خطأ من وجوه .

أولها : ما قدمناه من أنه لم يكن في طرابلس دار للكتب في عهد أبي العلاء .

ثانيها : أن أبا العلاء استعار (ديوان تيم اللات) من أبي القاسم التنوخي ، وأودعه عبد السلام ، ورغب إليه أن يرده إلى صاحبه ، وأنه لم يصعبه إلى المرة .

ثالثها : أن القصيدة النائية المذكورة إنما قالها في التنوخي لافي عبد السلام ، لأنه يقول فيها :

إِلَى التَّنُوخِيِّ وَاسْأَلْهُ أُخُوَّتَهُ فَقَبَّلَهُ بِالْكَرَامِ الْغُرَّ أَوْخِيَتَا
يَا بَنَ الْحَسَنِ مَا أَنْسَيْتَ مَكْرُمَةً فَذَكَرْ مَوَدَّتنا إِنْ كُنْتَ أَنْسَيْتَا
ثم يقول فيها :

إِقْرَ السَّلَامَ عَلَى عَبْدِ السَّلَامِ
ويقول بعده :

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يَوْمِ السَّيْرِ مَبْعَثَهُ إِلَيْكَ دِيوانَ تَيْمِ اللَّاتِ ...
وهذا عجب من التفتي .

وقال في (الوفيات) ج ٢ ص ٤٦٢ في ترجمة أبي محمد يوسف بن أبي سعيد

(١) انظر ما سبق ص ١٢٢ حاشية ٢ .

الحسن السيرافي : قال أبو العلاء المعري : حدثني عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد ، وكان لي صديقاً صدوقاً ، قال : كنت في مجلس أبي سعيد السيرافي ، وبعض أصحابه يقرأ عليه (إصلاح النطق) لابن السكيت ، فغضى بيت حميد بن نور وهو :

وَمَطْوِيَّةُ الْأَقْرَابِ أَمَّا نَهَارُهَا فَسَبْتُ وَأَمَّا لَيْلُهَا فَذَمِّمْتُ

فقال أبو سعيد : ومطوية : أصلحته بالخض انم التفت الينا فقال : واورب . فقلت : أحال الله بقاء القاضي إن قبله مايدل على الرفع ، فقال : وما هو ؟ فقلت :

أَتَاكَ بِمِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْهُدَى وَنُورَ وَإِسْلَامٍ عَلَيْكَ دَلِيلُ
وَمَطْوِيَّةُ الْأَقْرَابِ

فعاد وأصلحه . وروي عنه غير هذا ، فتوم بعض العلماء والمؤرخين ، كالسيوطي في (البغية) ، والخضر الموصلي في (الإصعاف في شرح آيات الكشاف) ، أنه سمع أو قرأ على عبد السلام وهو غير صحيح .

وقد ظن الأستاذ المبني (١) أن الراجحاً خازن خزائن الخلفاء . وقد تقدم مايدحضه ، وقال البطليموسي في (شرح السقط) صفحة ١٦٧٣ : « ويعني بخازن دار العلم هلال بن الحسن الصابي ، وكان شيخ بغداد في عصره » . وأظنه قد وهم ، إذ لم يثبت اجتماعه بأبي العلاء في بغداد . ولو اجتمع به لذكره في كتبه وأسفاره .

(١) أبو العلاء وما إليه - للمبني - ص ١١٥ .

٣ — ومنهم القاضي التنوخي .

وهو أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي ولد سنة ٣٥٥ (١) ، وكان شيعياً معتزلياً ، ساكناً وقوراً ، ثقة في الحديث متحفظاً في الشهادة محتاطاً ، صدوقاً ، ظريفاً ، جيد النادرة . ولي القضاء في نواح كثيرة ونوفي سنة ٤٤٧ هـ .

وقد ذكر العلماء أنه قرأ على أبي العلاء شعره أو ديوان شعره ، ومنهم من قال : أخذ عنه . ولم أر من قال : إنه قرأ عليه (سقط الزند) فقط . على أن في (سقط الزند) ما قبل بعد رجوع أبي العلاء من بغداد ، ومنه قصائد أرسلها إلى التنوخي هذا ، وكان يزور أبا العلاء في القطيعة ، كما قال (٢) :

أَيَّامَ وَأَصَلْتَنِي وَدًّا وَتَكَرَّمَةً وَبِالْقَصِيْعَةِ دَارِي تَحْضُرُ النَّهْرَا

وحمل إلى أبي العلاء جزءاً من أشعار تنوخ في الجاهلية ، كان أبو المحسن جمه ، فلما رحل أبو العلاء إلى المعرة ترك الجزء عند عبد السلام البصري ليوصله إلى أبي القاسم . وكتب إليه من المعرة قصيدة يذكر فيها الجزء حيث يقول :

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يَوْمِ السَّيْرِ مَبْعَثُهُ إِلَيْكَ دِيْوَانُ تَيْمِ اللَّاتِ مَا لَيْتَا؟

وقد تقدم ذلك ، وذكر هذا الجزء في قصيدة ثانية يقول فيها :

(١) وقبل ولد سنة ٣٦٥ هـ ، وتجد ترجمه وشيئاً من أخباره في (ياقوت) ج ٥ .

مس ٣١٠ ، وتاريخ بغداد ج ١١ ص ١١٥ ، ونزعة الألباء والوفيات ج ١

مس ٥٦٥ ، والقوات ص ٦٨ ، والشفرات ج ٣ ص ١١٣ ، وابن الوردي

ج ٢ ص ٣٥٧ ، ولان الميزان (ج) .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٣٣٧ .

وَحَمَلَكَ الشُّغْرَمِنْ أَشْعَارِ طَائِفَةٍ وَحَشِيَّةٍ مِنْ تَنُوخٍ تُتَكْرَرُ الْجَدْرُ^(١)

إلى أن قال :

وَكَمْ بَعَثْتُ سُؤَالَ كَاشِفًا نَبَأًا عَنْهُ فَلَمْ أَقْضِ مِنْ عَلِيٍّ بِهِ وَطَرًا

وفي التفسير ج ٢ ص ٦٦ : وقال ببغداد جني ، أبا القاسم بن العاصي التنوخي بولوده ، ثم ذكر قصيدة يقول فيها :^(٢)

كُنِّي مُحَمَّدٌ نَسِي مُفِيدِي وَدَادَكَ وَالرَّوْيُ أَمْرٌ بَدِي
عُلُوٌّ زَائِدٌ بِأَبِي عَلِيٍّ أَنْتَكَ بِفَضْلِهِ اللَّهُ الْعَلِيُّ
فَعَاشَ مُحَمَّدٌ عُمَرَ الثَّرَيَا فَإِنْ ثَرَى الْكَرَامَ بِهِ ثَرِي

يريد بقوله : كني محمد ، أبا القاسم . وبني : نسبه إلى تنوخ ، وبأبي علي : كنية المولود ، ومحمد اسمه ، وقوله بعد ذلك فيها :

إِذَا نَأَتْ الْعِرَاقَ بِنَا الْمَطَايَا فَلَا كُنَّا وَلَا كَانَ الْمَطِيُّ
عَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ فَمَا حَيَاةٌ إِذَا فَارَقْتَكُمْ إِلَّا نَعِي^(٣)

يشعر بأن قال هذه القصيدة وهو في بغداد . وقد ذكر بانوت في ترجمة أبي القاسم ، أنه ولده ولد من جاريته سنة ٤٤٠ هـ وهو أبو الحسن محمد بن علي . والمذكور في الأبيات أبو علي محمد ، فلعله أكبر أولاده فتأمل .

(١) انظر ما سبق ص ٢٣٦ الحاشية ٢ .

(٢) وفي شروح النبط ق ٣ ص ١٣٢٣ .

(٣) وفي شروح النبط ق ٣ ص ١٣٣١ : « إِلَّا النَّعِي » .

٤ — ومنهم الشريف المرتضى .

أبو القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسى .. العلوي ولد سنة ٥٣٥ هـ ، وتوفي في بغداد سنة ٤٣٦ هـ ، وكان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر ، وكان تقيب الطالبين بعد أبيه أبي أحمد الموسوي . قيل : إنه هو الذي جمع (نهج البلاغة) ، وقيل : جمعه أخوه الرضي . وله الكتاب الذي سماه (التفرز والدور) وهو مجالس أملاها في فنون من معاني الأدب^(١) . وقد ذكر كثير من المؤرخين اجتماع أبي العلاء بالمرتضى أكثر من مرة ، ولكن لم يعين واحد منهم تاريخ كل اجتماع ليتسنى لنا ربط الحوادث وترتيبها ، ومنهم من جمع بين التقاء نصيرهما واحداً . ونحن نذكرها على حسب ما يتراعى لنا ترتيبه .

الاجتماع الاول

قال ياقوت ج ١ ص ١٦٩ : ودخل على المرتضى ، فعثر برجل ، فقال : من هذا الكلب ؟ فقال المري : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً^(٢) . وسمعه المرتضى ، فاستدناه واختبره ، فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه إقبالاً كثيراً وهذا يدل على أنه لم يعرفه من قبل . ويؤيد ذلك ما في

(١) ترجمه في (الرقيات) وتاريخ بغداد والخزانة لابن حبة ٢٣١ وفي (أوج الحمري) أنه توفي عن ثمانين سنة ص ٢٤ (ج) .

(٢) وهي مذكورة في نزهة الألباء ، والبنية ، ومساعد التميمي ص ٦٠٣ ، وحياة الحيوان ج ٢ ص ٢٣٠ ، وفي طبقات النعاة والفتوى ص ١٦٩ : أنه سرد أسماءها وقد تنوع البيوطي اللغة فحصل أكثر من ستين اسماً للكلب ، فنظمها في أرجوزة سماها (البري من مرة المري) كما قال في كشف الظنون ، ومنها نسخة بخزانة برلين ، وأخرى في بانسكي بور في المند ، وثالثة في حيدرآباد ، نسختان في مصر ، وقد طبعت فيها في كتابته في القدماء بأبي العلاء ص ٤٢٩ (ج) .

(أوج التحري) ، أنه أول ما دخل عليه قبل معرفة المرتضى . وذكر ابن العديم عن أبيه عن أسلافه (١) ، أنه اتفق يوم وصول أبي العلاء إلى بغداد وفاة الشريف الطاهر والد الرضي والمرتضى ، فدخل الى تمزيتهما ، والمجلس غاص بأهله ، فتخطى بعض الناس ، فقال له بعضهم ولم يعرفه : إلى أين يا كلب ؟ فقال : الكلب ... ، ثم جلس في أخريات المجلس ، إلى أن قام الشعراء وأنشدوا ، فقام وأنشد قصيدته الفانية التي أولها :

أودى قَلَيْتَ الحَادِثَاتِ كَفَافٍ مَالُ الْمُسَيْفِ وَعَنْبَرُ الْمُسْتَفِ (٢)

يروي بها الشريف المذكور ، فلما سمعها ولداه قاما إليه ورفعاه مجلسه ، وقالوا له : لملك أبو العلاء المعري ، قال : نعم . فأكرماه واحترماه . ثم طلب أن تعرض عليه الكتب التي في خزائن بغداد ، فأدخل إليها ، وجعل لا يقرأ عليه كتاب إلا حفظ جميع ما يقرأ عليه . وفي (مسالك الأبصار) نحو (٣) من هذا . فهذه الرواية والتي قبلها تفيدان أن العثور يوجل وقوله : الكلب من لا يعرف ... في أول اجتماع المرتضى وتعرفه إليه . ولا يبعد أن يكون أول دخوله على الشريف كان يوم التعزية بأبيه سنة ٥٤٠٠ هـ . ولكن قول ابن العديم : واتفق يوم وصوله إلى بغداد موت الشريف .. إلى آخره غير صحيح لأن المرجح أنه دخل بغداد قبل ذلك كما قدمنا .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٥٤٣ هـ عن الاضاف والتحري - لابن العديم .

(٢) البيت مطلع قصيدة في شروح سقط الزند : ق ٣ من ١٢٦٤ ، ومال' الميف : أي مال' من ذهب ماله ، والمستاف : الكاف .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٢٢٣ هـ عن مالك الأجار - المعري .

الاجتماع الثاني

قال في (المعاهد) ص ٦٠٣ : إن أبا الللاء كان يتعصب المتني ، وشرَحَ دهراته ، وسماء (معجز أحمد) ، فغض يوماً مجلس الشريف المرتضى ، فجرى ذكر المتني ، فغض المرتضى من جانبه ، فقال المعري : لو لم يكن له من الشعر إلا قوله :

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ

لكفاه فغضب المرتضى وأمر بسجته [بسجته] وإخراجه ، وقال للحاضرين : أتدرون ما عني هذا بذكر هذا البيت ؟ قالوا : لا . قال عني به قول المتني : وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمُومِي مِنْ نَاقِصٍ فِيهِ الشَّادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ وأوردها ابن حجة في (الخزانة) ٢٣٠ على هذا النحو ، وكثير من جمع هذه الحادثة إلى حادثة عثوره بوجل ، وقوله : الكلب من لا .. كياقوت و (البغية) والدميري ، ومنهم من أفرد كل واحدة ، (كالمعاهد) و (التزفة) و (الصبح الني) و (أوج التحري) ، ولا يبعد أن تكونا حادثتين في وقتين لقول صاحب (المعاهد) : فغض يوماً . وفي (الوافي بالوفيات) و (نكت المبيان) بعد أن ذكر هذه الحادثة ، أي عثوره بوجل وقوله الكلب^(١) : « وكان المعري يتعصب لأبي الطيب . والمرتضى يفضه ويتعصب عليه ، فجرى ذكره يوماً .. » وكثير من قال ذلك .

الاجتماع الثالث أو الأخير

روى أبو منصور الطبرسي في (الاختجاج) (٢) أن أبا الللاء دخل

(١) تريف القدماء بأبي الللاء ص ٢٦٧ و ٢٨٧ عن الوافي بالوفيات ونكت المبيان .

(٢) هو أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي من رجال المائة الخامسة وأدرك أوائل

السادسة . له كتاب (الاختجاج) في حجاج الشيعة مع مخالفيهم . (ج)

والخبر في تريف القدماء بأبي الللاء ص ٣٨٠ عن الاختجاج .

على المرتضى ، فقال : أها السيد ! ما قولك في الكل ؟ فقال السيد :
ما قولك في الجزء ؟ فقال : ما قولك في الشعري ؟ فقال : ما قولك في
التدوير ؟ فقال : ما قولك في عدم الانتهاء ؟ فقال : ما قولك في التحفيز
والناعورة ؟ فقال : ما قولك في السبع ؟ فقال : ما قولك في الزائد البري على
السبع ؟ فقال : ما قولك في الأربع ؟ فقال : ما قولك في الواحد والاثني ؟
فقال : ما قولك في المؤثر ؟ فقال : ما قولك في المؤثرات ؟ فقال : ما قولك في
التحسين ؟ فقال : ما قولك في السعدين ؟ فهت أبو العلاء ، فقال
السيد المرتضى عند ذلك : ألا كل ملحد ملحد ، فقال أبو العلاء : من
أين أخذت ؟ قال : من كتاب الله عز وجل : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَتَّبِعُوا
إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾^(١) . ثم قام وخرج ، فقال السيد : قد غاب
عنا الرجل ، وبعد هذا لا يرانا . فسل السيد عن شرح هذه الرموز
والاشارات ، فقال : سأني عن الكل ، وعنده الكل قديم ، ويشير
بذلك إلى عالم سماء العالم الكبير ، فقال لي : ما قولك فيه ؟ أراد أنه
قديم ، فأجبت عن ذلك ، وقلت له : ما قولك في الجزء ؟ لأن الجزء
عندم محدث ، وهو متولد عن العالم الكبير ، وهذا الجزء عندم هو العالم
الصغير ، و كان مرادي بذلك أنه إذا صح أن هذا العالم محدث ، فذلك
الذي أشار إليه ، إن صح فهو محدث أيضا ، لأن هذا من جنسه على زعمه ،
والشيء الواحد والجنس الواحد لا يكون بعضه قديما وبعضه محدثا ،
فكنت لما سمع ما قلته .

وأما الشعري : أراد أنها ليست من الكواكب السيارة ، فقلت له

(١) سورة لقمان / ١٣ .

ماقولك في التدوير ؟ أردت أن الفلك في التدوير والدوران ، والشعري لا يقدح في ذلك ^(١) .

وأما عدم الانتهاء : أراد بذلك أن العالم لا ينتهي لأنه قديم ، فقلت له : قد صح عندي التحيز والتدوير ، وكلاهما يدلان على الانتهاء .

وأما السبع : أراد بذلك النجوم السيارة التي هي عديم ذوات الأحكام ، فقلت له : هذا باطل بالزائد البري الذي يحكم فيه بحكم لا يكون ذلك الحكم منوطاً بهذه النجوم السيارة التي هي : الزهرة ، والمشتري ، والمريخ ، وعطارد ، والشمس ، والقمر ، وزحل .

وأما الأربع : أراد بها الطبائع ، فقلت له : ما قولك في الطبيعة الواحدة النارية يتولد منها دابة مجلدها تمس ^(٢) الأيدي ثم يطرح ذلك الجلد على النار فتحرق الزهومات ^(٣) ، يبقى الجلد صحيحاً لأن الدابة خلقها الله على طبيعة النار ، والنار لا تحرق النار ، والثلج أيضاً يتولد فيه الديدان وهو على طبيعة واحدة ، والماء في البحر على طبيعتين ، يتولد منها السموك والصفادع ^(٤) والحيات والسلاحف وغيرها ؟ وعنده لا يحصل الحيوان إلا بالأربع ، فهذا مناقض بهذا .

(١) هكذا في الأصل ، وهو غير واضح فلعل أصله ، والشعري لا يخرج عن ذلك أو نحوه ، فتأمل (ج) .

(٢) لعل أصلها تمس أي تمسج ، ولعل هذه الدابة هي التي يسونها السندل (ج) .

(٣) الزهومة والزهمة بالضم : ربع لحم سمين منق .

(٤) في نسخة : « الصفدع » (ج) .

وأما المؤثر : أراد به الرجل ، فقلت له : ما قولك في المؤثرات ؟
أردت بذلك أن المؤثرات كلهن عنده مؤثرات ، فالمؤثر القديم كيف
يكون مؤثراً .

وأما التحسين : أراد أنها من النجوم السيارة ، إذا اجتمعاً يخرج من
بينها سعد ، فقلت له ما قولك في السعدين إذا اجتمعاً خرج من بينها نحس ؟
هذا حكم أبطله الله تعالى ، يعلم الناظر أن الأحكام لا تتعلق بالمخبرات ،
لأن الشاهد يشهد أن العمل والسكر إذا اجتمعاً لا يحصل منها الخنظل
والعلم ، والخنظل والعلم إذا اجتمعاً لا يحصل منها الدبس والسكر ،
هذا دليل على بطلان قولهم .

وأما قولي : الا كل ملحد ملحد ، أردت أن كل مشرك ظالم ، لأن
في اللغة الحد الرجل : إذا عدل عن الدين . وأحد : إذا ظلم . فعلم أبو
العلاء ذلك ، وأخبرني عن علمه فقرأت ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ ... ﴾ ،
الآية . وقيل : إن المعري لما خرج عن العراق سئل عن السيد المرتضى ، فقال :

يَا سَائِلِي عَنْهُ لَمَّا جِئْتُ أَسْأَلُهُ أَلَا هُوَ الرَّجُلُ الْعَارِي عَنِ الْعَارِ^(١)
لَوْ جِئْتَهُ لَرَأَيْتَ النَّاسَ فِي رَجُلٍ وَالذَّهْرَ فِي سَاعَةٍ وَالْأَرْضَ فِي دَارٍ

وهذان البيتان لم يذكر في ديوانه ، ولا رأيتها في غير هذا المكان

٥ — ومنهم علي بن عيسى بن فرج بن صالح الرقي : (٢) ولد سنة
٣١٨ هـ وتوفي سنة ٤٢٠ هـ في بغداد عن نيف وتسعين سنة ، وكان

(١) وفي تعريف الفنماء بأبي اللاه وفي (أبو اللاه وما إليه) : « العاري من العار » .

(٢) ترجمته في تاريخ بغداد ١٢ / ١٨ ، ومعجم الأدباء ٢٨٧ / ٥ ، والنبذة ٣٤٤ ،

والوفيات ، والكامل (ج) .

من أكابر النخاعة ، درس على أبي علي الفارسي في شيراز عشرين سنة تقريبا ، وعاد إلى بغداد . وقد ذكروا له قصصاً تدل على أنه كان مجنوناً أو قريباً من المجنون ، منها : أنه شرح (كتاب سيدييه) ثم نازعه تاجر في مسألة ، فجعل الشرح في إجابة (١) وصب عليه الماء ، وجعل يلاطم به الحيطان ، ويقول : لا أجمل أولاد البقالين نخاعة .

وسأل اولاد الأكابر الذين يحضرون مجلسه أن يمضوا معه إلى كلواذي ، فركبوا خيولهم وهو يمشي بين أيديهم ، حتى وصل إلى خرابها ، فوقفهم على ثلج وأخذ عصا وكساء ، وتبع كلباً ، ووقع بينه وبينه مواثبة حتى أعياه ، وعاونوه حتى أمكروه فجعل يعض الكلب بأسنانه ، والكلب يستبث ، حتى اشتفى ، وقال : هذا عضني منذ أيام ، وأريد أن أخالف قول الأول :

شَاتَمَنِي كَلْبُ بَنِي مَسْمَعٍ فَصُنْتُ عَنْهُ النَّفْسَ وَالْعِرْضَا
وَلَمْ أُجِبْهُ لاحتِقَارِي بِهِ مَنْ ذَا يَعِضُّ الْكَلْبَ إِنْ عَصَا

وقال أبو منصور موهوب الجواليقي فيه : كان يحفظ الكثير من أشعار العرب بما لم يكن غيره من نظرائه يقوم به ، إلا أن جنونه لم يكن يدعه يتمكن منه أحد في الأخذ عنه والإفادة منه . وقال ياقوت ج ٣ ص ١٦٩ : « إن أبا العلاء لما ورد بغداد قصد أبا الحسن علي بن عيسى الرُبَيعي ليقرا عليه ، فلما دخل إليه قال علي بن عيسى : ليصعد الإصطبل ! فخرج منفذا ولم يعد إليه . والإصطبل في لغة أهل الشام : الأعمى ، ولعلماء العربية . ولم يبين ياقوت ما كان يريد أن يقرأ على الرُبَيعي ،

وقد بينه ابن الأنباري في (الطبقات) ص ٤٢٦ وابن العديم ، فقالا :
دخل على الربيعي ليعرأ عليه شيئا من النحر . وهذا يتنافي قول أبي العلاء :
« وقد فارقت العشرين من العمر ما حدث نفسي بأجنداء علم من عراقي
ولاشأَم » . ولا يبعد أن يكون قصده للزيارة أو الاطلاع على ما عنده ،
لا للأخذ عنه . وقال الحفاجي في (شفاء الغليل) ص ٣٣ : اصطلح بلغة أهل
الشام ، معناه الأعمى كما في كتاب (المبيان) ، ولذا قال ابن عباد : جرتوا
الإصطبل ، في قصته مع المعري ، وهذا خطأ لأن ابن عباد توفي سنة ٣٨٥
قبل ذهاب المعري إلى بغداد ولم يثبت اجتماعه به في مكان مطلقا .

٦ — ومنهم ابن فورجة

قال في (نفقات الوفيات) ج ٢ ص ١٩٨ : محمد بن حمد بن حمزة بن فوزجة
بالفاء المضمومة وبعد الواو المضمومة والزاي جيم مشددة البروجردى ! ونقل
عن الثعالبي في البنية أبياتا من شعره ، ثم قال : قال باقوت : وفاة ابن
فوزجة بن بهارند في ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ وله (التجني على ابن جني)
(والفتح على أبي الفتح) ، والكتايبان يرد فيها على ابن جني في شعر المتنبي هـ .
وعلى هذا القول لا يمكن اجتماعه بأبي العلاء في بغداد لأن أبا العلاء كان
فيها سنة ٤٠٠ هـ كما تقدم .

وقال السيوطي في (البغية) ص ٣٩ : محمد بن حمد بن محمد بن عبدالله بن محمود
ابن فورجة ، بضم الفاء وسكون الوار وتشديد الراء المهلة وفتح الجيم
البروجردى ، ونقل عن باقوت أن له كتابي (الفتح والتجني) . ثم قال :
وذكره الشيخ مجد الدين الشيрази في كتابه (البلغة في أئمة اللغة) . لكن
سماء محمد بن محمد ، ثم قال : مولده في ذي الحجة سنة ٣٣٠ هـ ، وقال

النعالي : هو من أهل أصبهان القيين بالري ، المتقدمين في الفضل ، المبرزين في
النظم والنثر ، كان موجودا في سنة ٤٥٥ هـ وذكر له ثلاثة أبيات آخرها :
إِنَّ لِي غَيْرَةَ عَلَيْكَ مِنْ أَسْمِي إِنَّهُ دَائِمٌ يُقَبِّلُ فَالْكَ
وقال : قلت هذا الشعر يزيد أن اسمه حمد ، ٤٥١ هـ .

وقال الباخريزي في (دمية القصر) ص ٩١ : حمد بن فورجة ، هو في
الصنعة من الفحول ، والتفنيه على فضله طرف من الفضول ، وشعره فرخ
شعر الأُمى ، أعني شاعر معرفة النعمان ، وإن كان هذا الفاضل منزها من معرفة
العبيان ... ، ثم أورد له أبياتا منها ما سمعه بالري .

وفي رواية (البغية) عن النعالي أنه كان موجودا سنة ٤٥٥ هـ خطأ ،
لأن النعالي توفي سنة ٤٢٩ هـ ، على ما ذكره ابن خلكان ، وكذلك قوله
إنه ولد سنة ٣٣٠ هـ لأنه اجتمع بأبي العلاء سنة ٤٠٠ هـ ولم يكن عمره
سبعين بل كان شابا .

وفي (كشف الظنون) ج ١ ص ٥٢٢ : محمد بن أحمد المعروف بابن فورجة
النحوي وكان حيا في سنة ٤٣٧ هـ ، في ج ٢ ص ١٧٢ محمد بن حمد وكان
حبّا في سنة ٤٢٧ هـ فقد جعل أباه مرة أحمد ومرة حمداً ، وجعله
حيا سنة ٤٢٧ هـ وسنة ٤٣٧ هـ .

وذكر العكبري ج ٢ ص ٤٣٠ عن ابن فورجة أنه قال : قرأت
على أبي العلاء العمري ، ومنزله في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب ،
فلت له يوما في كلمة : ماضراً أبا الطيب لو كان قال مكان هذه الكلمة
كلمة أخرى أوردتها ، فأهان لي عوار الكلمة التي ظننتها ثم قال : لا تظن
أنك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها ، فجرب
إن كنت مرافها

وقال البديعي في (الصبح النبي) : قال ابن فورجة في كتاب (التحيي)
عن أبي العلاء المعري عن رجل من أهل الشام .. ، ثم أورد قصة خلاصتها :
أن المتبي استدعى غلاماً ، وبات معظم ليلة يكتب من دفاتره لا يلتفت
إلى الغلام ، ثم نام وكان وكيل المتبي معه شاهداً

هذه جملة مما قاله العلاء في ابن فورجة وأبي العلاء ، وقد رأينا ما فيها
من الاختلاف والتباين . وإذا رجعنا إلى قول أبي العلاء نجد فيه ما يفتح
الباحث من بعض الوجوه ويدفع الشك من بعض النواحي .

فقد ذكر في (التنوير^(١)) ج ٢ ص ٨٠ أن أبا علي النهاوندي محمد بن حمد بن
فورجة مدح أبا العلاء بقصيدة أولها :

أَلَا قَامَتْ تُجَاذِبُنِي عِنَانِي وَتَسْأَلُنِي بِعَرَصَتِهَا مَقِيلَا
فأجابه أبو العلاء ، وهو في مدينة السلام ، بقصيدة أولها :

كَفَى بِشُحُوبٍ أَوْجُهِنَا دَلِيلَا عَلَى إِزْمَاعِنَا عَنْكَ الرَّحِيلَا
وفيها يقول ، وقد بين كنية ابن فورجة ، وأنه كان بالعراق :

كَلِمَا بِالْعِرَاقِ وَخَزْنُ شَرْخٍ فَلَمْ نُلَمِّمْ بِهِ إِلَّا كَهُولَا
وَشَارَفْنَا فِرَاقُ أَبِي عَلِيٍّ فَكَانَ أَعَزَّ دَاهِيَةٍ نُزُولَا

ثم وصف السيف بما لم يسبق إليه ، وبين اسم ابن أبي فورجة بقوله :
فَذَلِكَ شِبْهُ عَزْمِكَ يَا بَنَ حَمْدٍ وَلَكِنْ لَا نُبْسُ وَلَا فُلُولَا

(١) وفي التنوير ٢ ص ١١٠ طبة الكنية التجارية - مصر .

ثم بين أن هذه القصيدة جواب عن قصيدة ابن فورجة بقوله :

وَقَدْ كَافَأْتُ عَنْ شِعْري بِشِعْري وَلَكِنْ حَازَ مَنْ بَدَأَ الْجَمِيلَا

وأشار إلى مر ابن فورجة بقوله :

بَهَرْتَ وَيَوْمَ غُفْرِكَ فِي شُرُوقِي قَدَامَ ضَحَى وَلَا بَلَغَ الْإِصِيلَا

وبين من هذه الآيات أن كنية الرجل أبو علي ، وأن أبا هـ حمد ، وأنه لقي المعري في شروق عمره وضحوته ، وأن اللقاء في بغداد . فأقرب الأقوال في حياته أن يكون جياً سنة ٤٢٧ هـ ليصح كلام التعالي ، وغيره .

اجتماعه بالخليفة

لم أر أحداً من مؤرخي العرب وأدباءهم ذكر أن أبا العلاء اجتمع بالخليفة أو بأحد من وزرائه إبان إقامته في بغداد . وقد قدمنا أن الخليفة في ذلك العهد هو القادر بالله أحمد بن إسحق بن المقتدر بالله . ولكن دولت شاه الفارسي قال في كتابه (تذكرة الشعراء) ما هذه ترجمته : (١) المعرة من جملة بلاد الشام في جوار حمص ، ومنها أبو العلاء ، وكان ذا فضل كامل وعلم شامل ، وله تصانيف في علمي المعاني والبيان ، وكان أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي يعزه ، وكانت ولي نعمته ، ولأبي العلاء قصائد في مدح البيت العباسي .

ويحكي أن أبا سعيد الرستمي كان تلميذاً لأبي العلاء ، وأبو سعيد هذا من أكابر الشعراء الفضلاء ، وفي نهاية الحال همي أبو العلاء وبسمى لذلك أبا العلاء الغرير . وكان أبو العلاء كلما نظم قصيدة في مدح الخليفة قاده أبو سعيد الرستمي

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦٦ عن تذكرة الشعراء - لدولت شاه .

وأحضره مجلس الخليفة . ويجكون أنه كان لدار الخلافة أرباب عالية بحيث
يتمكن حاملو الأعلام أن يبروا نحتها دون أن ينكسوا أعلامهم ، إذ كانوا
ينشاءمون بخفض العلم . وكان أبو سعيد الرستمي كلما بلغ بأبي العلاء الباب
يقول : أيا الأستاذ ، نحن أفينخي أبو العلاء ، فيضحك الخليفة وأركان
الدولة ، فيقول أبو العلاء : أحسنت كثيراً نعم التليذ البار أنت ا ثم قال :
قال المعري هذه اللطعة في ماء رمجاء أهل زمانه :

أَبَا الْعَلَا يَا بَنَ سُلَيْمَانَا عَمَّاكَ قَدْ أَوْلَاكَ إِحْسَانَا^(١)
إِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَ هَذَا الْوَرَى لَمْ يَرَ إِنْسَانَكَ إِنْسَانَا
وقال أيضاً^(٢) :

أَلَا إِنَّمَا الْأَيَّامُ أَبْنَاءُ وَاحِدٍ وَهَذِي اللَّيَالِي كُلُّهَا أُخَوَاتُ
فَلَا تَطْلُبَنَّ مِنْ عِنْدِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خِلَافَ الَّذِي مَرَّتْ بِهِ السَّنَوَاتُ
وقال^(٣) :

مَنْ رَاعَهُ سَبَبٌ أَوْ هَالَهُ عَجَبٌ فلي ثَمَانُونَ حَوْلًا لَا أَرَى عَجَبًا
الدَّهْرُ كَالدَّهْرِ وَالْأَيَّامُ وَاحِدَةٌ وَالنَّاسُ كَالنَّاسِ وَالدُّنْيَا مِثْلُ غَلْبَا
هذه خلاصة ما ذكره .

(١) وفي تعريف القدماء ص ٤٦٥ : « أبا العلاء ابن سليمان » .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٣٨ .

(٣) البيتان مما لم يرو في الديوانين .

ودولت شاه هذا ، ابن علاء الدين بخت شاه من أدباء الفرس ، وضع
(تذكرة الشعراء) وهو كتاب في طبقة شعراء الفرس . بدأ في تأليفه حين
أشرف على الحسين ، وأتمه في سنة ٨٩٢ هـ ، وقد ذكر في مقدمته فضل العرب
على الشعر الفارسي وأزعم العظم فيه . وصدر كتابه هذا بذكر جماعة من
شعراء العرب ، كالبيد ، والفرزدق ، ودعبل ، وابن الرومي ، والمتنبي ،
وأبي العلاء المعري ، والحريري ، والبستي ، وزهير بن أبي سلمى .

أما أبو سعيد الرستمي ، فلا أعلم مكنى بهذه الكنية ، إلا محمد بن محمد بن
الحسن .. بن رستم من فضلاء أصبهان . وقد ذكره النعالي في بنية الدهر
ج ٣ ص ١٢٩ في المختصين بالصاحب ابن عباد ، ولم أر من ذكر أنه كان يختلف
إلى الخليفة القائم بأمر الله ، ولا من ذكر أنه كان تلميذاً لأبي العلاء ، ولا من
ذكر أن أبا العلاء اجتمع بالخليفة المذكور . وفيما ذكره دولت شاه أغلاط
كثيرة ، منها قوله : إن المعرة في جوار حمص ، وهو غير صحيح لأن حماء
وضاحتها ، كلها تنصل بين حمص والمعرة ، ومسافة الطريق من حمص إلى
المعرة نحو من ١٣٥ كيلو متراً . ومنها قوله : إن لأبي العلاء تصانيف في
علمي المعاني والبيان ، وهذا لم يذكره أحد غيره ، ولا يعرف لأبي العلاء
كتاب في هذين العلمين . ومنها قوله : إن لأبي العلاء قصائد في مدح
البيت العباسي ، وإن القائم بأمر الله ولي نعمته وكان يعزه .. وإليه
الرستمي لتبذره .. فكل هذا بما انفرد برأوته ولم نره لغيره . وأغرب
ما في كلامه قوله : وفي نهاية الحال عني أبو العلاء . لأن المؤرخين مجمعون
على أنه ممي في بداية الحال . وفي كلامه تناقض بين لأنه يقول : إن
الخليفة يعزه ، وإن الرستمي كان يقول : نحن . فينحني ، فيضحك
الخليفة . ومن البعيد أن يقع مثل هذا مرات في حضرة الخليفة مع
من يعزه .

ومجموع ما ذكرناه يشهد بأن ما ذكره دوات شاه لا نصيب له من الحقيقة ، ولو كان شيء منه واقعاً لتضافرت الروايات على نقله ، ولذكره أبو العلاء في شيء من كلامه ، لا سيما اجتماعه بالخليفة ومدمحه إياه . وأكبر غلط فيه جعل الحادثة مع القائم بأمر الله مع أن أبا العلاء كان في بغداد في سنة ٤٠٠ هـ ، والقائم بأمر الله ولي الخلافة في سنة ٤٢٢ هـ بعد وفاة أبيه القادر بالله فتأمل .

ويقرب من هذا ما ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية) في ترجمة أبي العلاء ، حيث قال (١) : ودخل بغداد سنة ٣٩٩ هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر ، ثم خرج منها طريداً منهزماً لأنه حال سؤلاً بشعر ، يدل على قلة دينه وعقله فقال (٢) :

تَنَاقَضَ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ
البيتين

ثم قال : ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثاله ، هرب ورجع إلى بلده ولزم منزله ، فكان لا يخرج منه ، (٣) وكان يوماً عند الخليفة ، وكانت الخليفة (٤) يكره المتنبي ويضع منه ، وكان أبو العلاء يحب المتنبي

(١) تحريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠٢ عن البداية والنهاية - لابن كثير .

(٢) الزواريات ص ١٥٢ ، والبيتان :

تَنَاقَضَ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ وَأَنْ لَوْذَ بَعْلَاتِنَا مِنَ النَّارِ
يَدُ بَخْسٍ مِمَّنْ عَجِدَ فَنَرِيَتْ مَا بَالُهَا قَطَطَتْ فِي رَجِ دِنَارِ

(٣) عمل هذا في طبقات الشعراء والقوانين ص ١٧٥ عن ابن الجوزي في المنتظم ، ولم أجد في القسم المطبوع منه في تحريف القدماء بأبي العلاء وعنه البيهقي في عقد الجمان عن ابن كثير (ج) .

(٤) كذا ، وإنما هو العريف الرضى .

يرفع من قدره ويمدحه ، فجرى ذكر المتنبي في ذلك المجلس ، فذمه الخليفة ، فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبي إلا قصيدته التي أولها :

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ

لكفاه ذلك ، فنضب الخليفة وأمر به ، فسحب يرجله على وجهه . وقال : أخرجوا عني هذا الكلب ، وقال الخليفة : أنتدرون ماذا أراد هذا الكلب من هذه القصيدة وذكره لها ؟ أراد قول المتنبي فيها :

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمُومِي مِنْ نَاقِصٍ فَبِي الدَّلِيلُ عَلَى أَنِّي كَامِلٌ^(١)

وإلا فالمتنبي له قصائد أحسن من هذه ، وإنما أراد هذا ، وهذا من فرط ذكاه الخليفة حيث تذب لهذا . وقد كان المعري أيضاً من الأذكياء . ولم أر أحداً ذكر أن فقهاء بغداد عزموا على أخذه من أجل شعره ، ولا أنه هرب إلى المرة ، ولا أنه اجتمع بالخليفة الذي لم يسته ابن كثير ، وقد قدمنا أن هذه الحادثة وقعت مع الشريف المرتضى ، ورواها جمهور كبير من المؤرخين والعلماء ، وابن كثير انفرد بهذه الرواية ، وأغفل ذكر اسم الخليفة ، واختلق هرب أبي العلاء . وأخل بوزن بيت المتنبي المشهور . فلا يقام لكلامه وزن ولا يعول عليه .

(١) المشهور في رواية البيت : « نهي الشهادة لي بأنني كامل » . ورواية ابن كثير مختلفة الوزن (ج) .

المجالس العلمية في بغداد

لم يكن في ملوك الأرض قاطبة ، في ذلك العهد ، من يشبه الخلفاء العباسيين في ترقية العلم وتنبيهه ، ولا في إعلاء شأن العلماء ، وكتب التاريخ والأدب طافحة بالهمم من الأعمال الجليلة ، وبما أنقوه من الأموال الجزيلة في هذا السيل . وحسبك دليلاً على ذلك أن الرشيد ، على عظم شأنه وجلالة سلطانه ، صب الماء على يدي أبي معاوية الضرير بعد أن أكل طعاماً عنده ، ثم قال له : أنتدري من يصب الماء على يدك ؟ قال : لا ، قال : أنا . فقال : أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، إجلالا للعلم .

وعهد إلى الكسائي بتأديب ولديه الأمين والمأمون ، ثم أشرف عليه ، وهو لا يراه ، فقام الكسائي ليلبس نعله ، فابتدراها ، فوضعها بين يديه ، فأقسم عليها أن لا يعاودا ذلك . فلما جلس الرشيد مجلسه قال : أي الناس أكرم خادماً ؟ قالوا : أمير المؤمنين ، قال : بل الكسائي ، يخدمه الأمين والمأمون . ثم حدثهم الحديث .

وكذلك فعل المأمون ، بل زاد على أبيه ، حين عهد إلى الفراء أن يلحق ولديه النحر ، فأراد يوماً أن ينهض إلى بهض حاجته ، فابتدرا إلى نعله وتنازعا أهما يقدمها له ، ثم اتفقا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة . فكتب صاحب الخبر إلى المأمون ذلك . فاستدعى الفراء ، فلما دخل عليه قال له : من أعز الناس ؟ قال : لا أحد أعز من أمير المؤمنين . قال : بل من إذا نهض تقاثل على تقديم نعله ولياً عهد المسلمين ، حتى رضي كل منهما أن يقدم له فرداً . فقال يا أمير المؤمنين ، لقد أردت منعها عن ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعها عن مكرومة سبأ إليها . فقال له المأمون :

لومنتها عن ذلك لأوجحك لوما وعذا ، وما وضع ما فعلاه من شرفها بل رفع قدرها . ثم عوض كلاً منها عشرين ألف دينار ، وأعطى الفراء عشرة آلاف درهم على حسن تأديبه وإماما . ثم طبع من بعده من الخلفاء على غرارهِ .

ولما نشأت الزندقة ، والسمت ثقة الخلاف بين أصحاب المذاهب والآراء ، أخذ الخلفاء يحضرون العلماء على تصنيف كتب في مواضيع متعددة . وكانت هناك مجالس يجتمع فيها العلماء المناظرة ؛ حتى إذا كان عهد المأمون ، وظهر اللول بخلق القرآن ، أخذ يعقد مجالس للمناظرة فيه وفي سواه ، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، فإذا حضر المقام ومن يناظر من أهل المقالات ، ادخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : اتزعوا اخفافكم ! ثم أحضرت الموائد ، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء ، ومن كان خفه ضيلاً فليزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها ، فإذا فرغوا أتوا بالهامر فتبغروا وتطيبوا ثم خرجوا ، فاستدناهم حتى يدنوا منه ، ويناضهم أحسن مناظرة وألطفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تَول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون .

ثم استفاضت مجالس العلم في بغداد ، فكانت تعقد عند الحاجة إلى إثبات رأي جديد ، أو إدحاض شبهة أو ما مائل ذلك .

وقد كان ليحيى بن علي بن المنجم مجلس يحضره جماعة من المتكلمين بحضرة المكتفي . ولأبي حامد الإسفرائيني مجلس يحضره ثلاثمائة فقيه أو سبعمائة ، وقد أشار ابن السبكي في طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٤ فما بعد إلى ما كان يقع بينه وبين غيره من المناظرات ، وذكر شيئاً من المناظرات التي وقعت بين أبي إسحق الشيرازي والداعاني ، وبين أبي الطيب الطبري وأبي عبد الله البصري ، وبين أبي إسحق وعبد الجبار المهزلي ، وبين الطبري وأبي الحسن الطالقاني ، وبين الطبري والقديري ، وغيرها .

وكان للشريف المرتضى علي بن الحسين مجالس ، يلى فيها ضرباً من المسائل . وكتابه الذي سماه (الفرر والدرر) مجالس أعلاما في فنون من معاني الأدب كالنحو واللغة وغيرهما .

وكانت لأبي القاسم علي بن الحسن التنوخي حلقة يحضرها طائفة من العلماء والأدباء . وقد ذكر في (مماهد التنصيص) ص ٩٨ أن البندادين اعترضوا على أبي العلاء في كلمة (بوح) في حلقة التنوخي ، وكذلك ذكر البطليمي في (شرح السقط) ج ١ ص ٢٧٩ هذه الحادثة في حلقة التنوخي .

أقواله الصفا

وقد ذكر صاحب (ذكرى أبي العلاء) ص ١٧٩ وتجديده ص ١٥٠ أن أبا العلاء كان يحضر الجمع الخاص الفلاني الذي كان يأتلف يوم الجمعة بدار عبد السلام البصري ، وفيه يقول من قصيدة بعث بها إليه : (١)

تَهَيَّجُ أَشْوَاقِي عَرُوبُهُ إِنَّهَا إِلَيْكَ زَوَّغْتَنِي عَنْ حُضُورِ بِمَجْمَعِ

ثم قال : وهذا الجمع السري الذي أسماه «إخوان الصفاء» لشيوخ هذا الانظر بين المسلمين في ذلك العصر ، ودلالته الخاصة على جماعة فلسفية تشترك في الأغراض والآراء ، وذلك حيث يقول من أبيات ثلاثة (٢)

وَإِذَا أَضَاعَتْنِي الْخُطُوبُ فَلَنْ أَرَى لِعُمُودِ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ مُضِيْعَا

(١) النظر ما سبق ص ٢٣٦ الحاشية ٣ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٢١ ، والأبيات :

كم بلدة فارتفتها وماسر	يُذَرُونَ مِنْ أَسْفَافِ عَلِيٍّ دُمُوعَا
وإذا أضاعني
خالفت توديع الأصدقاء لنوى	لَنْ تَنَى أَوْدِيْعُ خَلِيٍّ التَّوْدِيَا

وزاد على ذلك في المقدمة التي وضعها لكتاب (رسائل إخوان الصفاء) فقال في ص ٧ : « هذا الكتاب . . . يثب من جهة فساد الحياة السياسية الإسلامية في ذلك الوقت ، لأن الذين كتبوه جماعة لا نعرف منهم أحدا ، لأنهم كانوا يعملون من وراء ستار . وكانوا يعملون لفرض سياسي قبل كل شيء . . . وإذا كانت لهم أغراض سياسية متطرفة ، مسرفة في التطرف ؟ فهم من غلاة الشيعة ، ولعلمهم من الإسماعيليين . . . » .

وقال في ص ٨ : « كان هؤلاء الناس إذن يعملون من وراء ستار ، ويؤثفون جماعة سرية ، وكان قوام جماعتهم هذه ، فيما يظهر ، سياسي عظمي ^(١) ، فهم يريدون قلب النظام السياسي المسيطر على العالم الإسلامي يومئذ . . . » .

وقال في ص ٩ : « وقد احتاط هؤلاء الناس في التستر والاستخفاء ، فلم نكد نعرف منهم أحدا — كما قلنا — وإنما سميت أسماء لا تتجاوز الحمة ، ولا تخلو من أن يحيط بها الشك . وكل ما نستطيع أن نعرفه من أمر هذه الجماعة ، أنها نشأت في البصرة في منتصف القرن الرابع ، وعرف لها فرع في بغداد . وليس تخدي شك في أن أبا العلاء قد اتصل بهذا الفرع حين ارتحل إلى بغداد آخر هذا القرن . وكان يحضر اجتماعه يوم الجمعة من كل أسبوع . نرى ذلك في (سقط الزند) ، بل نرى بعض أسماء الذين كانوا يحضرون جلسات هذا الفرع ؟ ونكاد نعرف المكان الذي كانوا يجتمعون فيه يوم الجمعة من كل أسبوع ؟ ونكاد نلمح في هذه الاجتهادات شيئا من اللهو المعتدل . . . وقد نُشرت إلى شيء من ذلك في (فكرى أبي العلاء) حتى أنني أشد استيقانا به الآن ، وأعتقد أننا نجد في رسائل إخوان الصفاء أحسن تفسير لكثير من غوامض اللزوميات . . . » ، إلى آخر كلامه .

(١) كذا في الأصل (ج) .

ويُلغِصُ قوله : بأن جماعة إخوان الصفاء من غلاة الشيعة أو من الاسماعيليين ؛ وأنهم يعملون لفرض سياسي وهو قلب نظام الحكم ، وأنهم يجتمعون مرآ في دار عبد السلام ، وهو مجدهم الخاص في كل يوم جمعة ؛ وأنهم احتاطوا في التستر والاستخفاء . . .

وهذا كله وهم باطل ، والدليل على ذلك أمور كثيرة منها :
أن قول العمري «عَنْ حُضُورِ بَجْنَمَ» ليس فيه تصريح بأن المجمع دار عبد السلام ، ولأنه مجمع فلسفي . والأقرب أن يكون ذلك المجمع دار الكتب التي كان عبد السلام خازنة لها . وتخصيص يوم الجمعة يجوز أن يكون عبد السلام اختاره للعمري لتمكن من زيارته بسبب فراغه في ذلك اليوم ، أو ليجتمع رجال من العلماء والأدباء كانوا يجتمعون فيه في دار العلم أو غيرها للمحادثة والمذاكرة وانفاكة ونحوها . وهذا أقرب إلى القبول ، وأكثر ملاءمة لما عرف به عبد السلام من الصدق والتقوى ، والاشتهار بالقرأة ورواية الأحاديث والتفسير والأخبار وغيرها ، ولو شمر الناس أنه ينحدر منى الفلاسفة في عقيدته لأعرضوا عن روايته .

ومنها أن هذا اليوم ، لو كان يوم المجمع السري ، لما صرح بذكره أبو العلاء ، كيلا يتنبه له خصومه . على أن من البعيد أن يركن إخوان الصفاء إلى أبي العلاء ، وهو غريب عنهم ؛ وقد نقل عن أبي حيان أنهم كانوا يجتمعون في منزل أبي سليمان النهرجوري ، فإذا اجتمع معهم أجنبي التزموا الكنايات والرموز والإشارات . . .

ومنها أن كلمة ، إخوان الصفاء ، في أبيات العمري المتقدمة ، لاتدل على ما أرادها الأستاذ . بل الأقرب أن يراد بالصفاء هنا مصافاة المودة ؛ وقد وقعت هذه الكلمة في كلام كثير من الشعراء والكتاب ، منهم ممدوح بن شاس الأسدي حيث يقول : (١)

(١) مجد البدان (أرمات) . (ج)

تَذَكَّرْتُ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ تَيَمَّمُوا فَوَارِسَ سَعْدٍ وَاسْتَبَدَّ بِهِمْ جَهْلًا

ومنهم الخنساء حيث تقول : (١)

وَلَمْ يُجْزِ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ وَيَكْتَسِبِي عَجَاجًا أَثَارَتُهُ السَّنَابِكُ أَكْدَرًا

ومنهم البراء بن ربيعة الفقعسي حيث يقول : (٢)

أُولَئِكَ إِخْوَانُ الصَّفَاءِ رُزِ تُمُهُمْ وَمَا الْكَفُّ إِلَّا إِيضَبَعٌ ثُمَّ إِيضَبَعٌ

ومنهم إسماعيل بن بشار أويار ، حيث يقول : (٣)

وإِنْ أَتَيْتَ أَنْ الْغَيِّ فِيمَا دَعَاكَ إِلَيْهِ إِخْوَانُ الصَّفَاءِ

ومنهم عبد السلام بن رغيان ، حيث يقول : (٤)

فَهَاكَ أَخَا لَمْ تَخُوهِ بِقَرَابَةٍ بَلَى إِنَّ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ أَقَارِبُ

ومنهم ابن الرومي حيث يقول (٥) :

لَوْ أَنَّ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ تَنَاصَفُوا لَمْ يَفْرَحُوا بِتَفَاضُلِ الْأَعْمَارِ

ومنهم ابن الفقع حيث قال في باب الحامة المطوقة من كتاب (كلية ودمنة) :

« فهذا مثل إخوان الصفاء واختلفهم في الصحة » .

(١) ديوان الخنساء ص ١٢٣ (ج) .

(٢) حسانة أبي تمام - شرح التبريزي - ج ١ ص ٣٥٢ . (ج)

(٣) حسانة البحرني (ج) . ص ٢٥٣ من مقطعة مطلها :

فدع عنك المراء ولا ترده لعل خير أسباب المراء

(٤) زهر الآداب ج ٣ ص ١٧١ . (ج)

(٥) ديوانه ص ٥٣ - كامل كيلاني .

فهؤلاء كلهم ذكروا إخوان الصفاء ، وهم يريدون إخوان المودة الصافية الخالصة قبل أن تؤلف جمعية إخوان الصفاء . وأبو العلاء اخذ على مشالهم .

على أن يافرقنا روى في (معجم الأدباء) ج ١ ص ١٧٥ عن أبي الوليد الدربندي ، قال : « أنشدني أبو العلاء التنوخي في داره عند وداعي إياه » . وذكر الأبيات الثلاثة العينية التي ذكر فيها إخوان الصفاء . وأبو الوليد هذا هو الحسن بن محمد البلخي الدربندي المحدث الصوفي طاف الآفاق في طلب الحديث ، ثم رجع إلى سمرقند ، وتوفي بها سنة ٤٥٦ هـ ، كما قال ابن عساكر في ج ٤ ص ٢٤٧ ، وذكره ياقوت في (درند) . وفي (مقط الزند) ج ٢ ص ١٣٦ : أنه قال هذه الأبيات على لسان البلخي . وفي كلام الدكتور تناقض صريح بنقل في أقواله : « لانكاد نعرف منهم أحدا ... احتاط هؤلاء في النشر . . فلم نكد نعرف أحداً منهم . . لا نختار من أن يحيط بها الشك .. وكل ما نستطيع أن نعرفه ... أنها نشأت في البصرة ... وعرف لها فرع في بغداد » .

وفي أقواله : « ليس عندي شك في أن أبا العلاء اتصل بهذا الفرع وكان يحضر اجتماعه ... نرى ذلك في سطر الزند . . نرى بعض أسماء الذين كانوا يحضرون ... ونكاد نعرف المكان ... ونكاد نلح . . على أبي أشد استيقانا » . إلى آخر ما قال .

والواقف على كلامه لا يدري على أيها يعول ، أعلى قوله : « لانكاد نعرف » ؟ أم على قوله : « نكاد نعرف . . ونرى . . ونلح » ومن الغريب حكه على إخوان الصفاء بأنهم من غلاة الشيعة أو الإسماعيليين ؛ ثم جعله أبا العلاء منهم ، وهو أشد الناس إنكاراً على الفريقين .

وأغرب منه ، أن يكون من يعمل لأغراض سياسية متطرفة .
وأغرب من كل ذلك ، أن يرى الدوكتور ، بعد ألف سنة تقريباً
وهو في مصر ويعرف ويلج . ما لم يره ويعرفه ويلجحه أهل البصرة وبغداد
من هذه الجماعة مع شدة تحري الحكومات والعلماء والبحث عنهم .
وقد بينت بطلان هذه المزاعم بأوسع من هذا في مقالة نشرت في
مجلة الجمع العلمي الدمشقي في الجزء ٧ من المجلد ١٦ ص ٢٤٦ .

وقد ذكر ابن تينة في (منهاج السنة) ج ١ ص ٢٣١ : أن الرافضة
كذبوا على جعفر بن محمد الصادق حتى نسبوا إليه كتاب (الجفر والبطاقة
والهفت) . وحتى زعم بعضهم أن كتاب (رسائل إخوان الصفاء) من
كلامه ، مع علم كل عاقل بنهها ، ويعرف المسلم أنها تناقض دين الإسلام .
وأيضاً فهي إنما صفت بعد موت جعفر بن محمد ، رضي الله عنه ، بنحو
مائة سنة ، فإن جعفر بن محمد توفي سنة ١٤٨ هـ وهي صفت في أثناء المائة
الرابعة ، لما ظهرت الدولة العبيدية بمصر وبنوا القاهرة ، فصنفت على
هذه أوثانك الاسماعيلية ، كما يدل على ذلك ما فيها . وقد ذكروا فيها
ما جرى على المسلمين من امتلاء النصارى على سواحل الشام ، هذا
إنما كان بعد المائة الثالثة في الهجرة .

منبه إلى المعرفة وهو في بغداد

كان أبو العلاء ، وهو في بغداد ، يكثر الحنين إلى وطنه ، ويفيض
شعره بالشوق إليه . والذي ظهر لي أن ذلك لأمرين .
أحدهما : فقد أمه التي كانت تتمهده ، وفقد أمرته الذين كان يفضي

إليهم بشقوره ^(١) ، وفقد أصحابه الذين ألهم وألهم منذ الصبا ، ورضي عنهم ورضوا عنه .

ثانيها : ان أبا العلاء كان شديد الأنفة والإباء ؛ وقد ضاق المال الذي اصطعبه إلى بغداد عن حاجاته الكثيرة في السفر ولم يستطع ان يستقدم غيره من المعرة بعد الشقة ، اولعدم وجود ما يسد حاجته ؛ كما انه لم يستطع ان يبذل ماء وجهه بسؤال أحد . ويدل على هذا قوله في بغداد ، منها قوله من قصيدة : ^(٢)

تَمَنَيْتُ أَنْ الْخَمْرَ حَلَّتْ لِنَشْوَةِ تُجَهِّلُنِي كَيْفَ أَطْلَعُ أَنْتَ بِي الْحَالُ
فَأَذْهَلُ أَنِّي بِالْعِرَاقِ عَلَى شَفَا رَذِيَّ الْأَمَانِي لَا أُنِيسُ وَلَا مَالُ ^(٣)
مُقِلٌ مِنَ الْأَهْلَيْنِ يُسِرُّ وَأَسْرَةٌ كَفَى حَزَنًا بَيْنَ مُشْتٍ وَإِقْلَالُ ^(٤)

. . .

مَتَى سَأَلْتُ بَغْدَادُ عَنِّي وَأَهْلِيهَا فَإِنِّي عَنْ أَهْلِ الْعَوَاصِمِ سَأَلُ
إِذَا جُنَّ لِيْلِي جُنَّ لُبِّي وَزَائِدُ خُفُوقُ قُوَادِي كُلَّمَا خَفَقَ الْآلُ ^(٥)
وَمَاءِ بِلَادِي كَانَ أَنْجَعَ مَشْرَبًا وَلَوْ أَنَّ مَاءَ الْكَرْخِ صَهْبَاءُ جِرْيَالُ

(١) الثور بالضم : الحاجة والأمور اللاصقة بالقلب .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥١ .

(٣) شفا : بجة النية ، وإذا قرب الرجل الملكة ، والرذوي : البير الذي أخذه

السفر فلا يندر على القيام ، شبه به أمه .

(٤) خقوق الآل : اضطرابه في المجاعة .

إلى أن قال :

فَيَا وَطَنِي إِنْ فَاتَنِي بِكَ سَابِقٌ^(١) مِنْ الدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ لِسَاكِتِكَ الْبَالُ
فَإِنْ أَسْتَطِيعَ فِي الْحَشْرِ أَنْ تَكْزَأِثِرَا وَهَيْمَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْغَالُ^(٢)

ولما ذكر الإقلال من البسر ، خشي أن يسبق إلى الظن مالا يتفق مع كرامة نفسه ؛ فصرح بإياديه وشحمه في هذه اللصيدة بقوله :

وَكَمْ مَا جَدِي فِي سَيْفٍ دِجْلَةٌ لَمْ أَشْمِ لَهُ بَارِقًا وَالْمَرَّةَ كَأَلْمُزْنِ هَطَالُ
إلى آخر الأبيات الآتية منها .

ومنها قوله من قصيدة ثانية : (٣)

وَمَنْ لِي بِأَنْبِي فِي جَنَاحِ غَمَامَةٍ تُشَبِّهُهَا فِي الْجِنِّحِ أُمُّ رِثَالٍ^(٤)
تَهَادَانِي الْأَرْوَاحُ حَتَّى تَعْطِئَنِي عَلَى يَدِ رِيحٍ بِالْفُرَاتِ شَمَالٍ
فَيَأْتِرُقُ لَيْسَ الْكَرْخُ دَارِي وَإِنَّمَا رَمَانِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لِيَالٍ
فَهَلْ فِيكَ مِنْ مَاءِ الْمَعْرَةِ قَطْرَةٌ تُغِيثُ بِهَا ظَمَانَ لَيْسَ بِسَالٍ

وكلمة : « رماني إليه الدهر . . » تدل على حزن عميق لفراق داره ،

(١) رواء البلطوسي « فائق » .

(٢) في الفروع : « وإن أستطع » .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٢ .

(٤) الجينح بالكسر والضم : أقبال الليل ، وأم رثال : النامة .

وأسف شديد من مقامه في الكرخ التي اجترأها . ثم أسبق أن يظن ظان
أنه ذهب إلى بغداد ليتخلى عن شمله وعزة نفسه قال :

إِخْوَانُنَا بَيْنَ الْفُرَاتِ وَجِلْقٍ يَدَ اللَّهِ لَا خَبْرُ نَكْمٍ بِمُحَالٍ (١)
أُنَبِّئُكُمْ أَنِّي عَلَى الْعَهْدِ سَالِمٌ وَوَجْهِي لَمَّا يُبْتَدَلْ بِسُؤَالٍ ...

. . .

نَدِمْتُ عَلَى أَرْضِ الْعَوَاصِمِ بَعْدَ مَا غَدَوْتُ بِهَا فِي السَّوْمِ غَيْرَ مُغَالٍ ...

عزمه على مفارقه بغداد وأسبابها

اختلفت كلمة القوم في أسباب رحلته من بغداد ؟ كما اختلفت في أسباب
مغرمه إليها ، كما قدمنا . فذهب صاحب (الذكري) إلى أن أبا العلاء إنما
رحل إلى العراق يلتس الشهرة وخفض العيش ، ولغير من الحياة السياسية
السيئة بحلب . وقال (٢) : « فأما الشهرة فقد ظفر بها ، إذ لم يبق من
أدباء بغداد وعلمائها وظهرائها من لم يعرفه ولم يعجب به . وأما الدعة
السياسية ، وخفض العيش فلم يوفق إليها . ذلك أن حال العراق لم تكن
خيراً من حال الشام ؛ ولأسباب في عهد أبي العلاء . . . وكذلك لم ينح
لأبي العلاء من الثراء ما كانت يريده ؛ فإن تشدده في العفة ، وإبائه
النكس بالشعر ، وامتناعه عن سؤال الناس ، جعل وصوله إلى الثراء
أمراً لا ميسل إليه . وفوق كل هذا لم يسلم من حسد الحاد ، ومن أن

(١) يد الله : أي ألزم عسي عهد الله . والمراد بقوله « بين الفرات وجلق » للمرة (ج)

ورواه البطبري : « أجبراتا » .

(٢) ذكرى أبي العلاء - لطف حبيب - ط ٢ ص ١٨١ وما بعدها .

ينلقاه بعض الناس بما يكره ؛ إما لخطأ منه أو لحد من خصومه . واستشهد
للأول بقصته مع الشريف المرتضى وتعصبه للفتي . وللثاني بقصته مع
علي بن عيسى الربيعي ... ثم قال : « وإنما كل تلك خصال قهرية ، اجتمعت
لإزعاج أبي العلاء عن بغداد ، وانضم إليها خبر جأه من المعرة ينه برض
أمه ... » . وذهب المبني^(١) إلى أنه لقي في مجلس المرتضى غضاظة ، ورأى
ببغداد مظاهر العز والخفض ، وليس يده غير أصفار الراحة . ثم أضاف
إلى هذا حسد حماده ، وورود خبر بمرض أمه ، وأنه كان يرغب أن
لرآته الله رغدا من العيش من وجهه ؟ ولكن مظنته أخفقت ...

وقد قدمنا عن ابن كثير وغيره ، أنه هرب إلى بلده لما عزم الفقهاء على أخذه .

هذه جملة ما قاله العلماء في الأسباب التي أزعجت من بغداد . أما
أبو العلاء ، فقد بين الأسباب التي حملته على مفارقة بغداد ، فقال من قصيدة كتبها
إلى القاضي الترخي بعد عودته إلى المعرة : (٢)

أَنَارَنِي عَنْكُمْ أَمْرَانِ : وَالِدَةٌ لَمْ أَلْقَهَا وَثَرَاءُ عَادَ مَسْفُوتًا^(٣)
أَحْيَاهُمَا اللَّهُ عَصْرَ الْبَيْنِ ثُمَّ قَضَى قَبْلَ الْإِيَابِ إِلَى الذَّخَرَيْنِ أَنْ مُوتَا
لَوْ لَا رَجَاءُ لِقَائِيهَا لَمَّا تَبِعْتَ عَنِّي ذَلِيلًا كَسِرَ الْغِمْدِ إَصْلِمَتَا^(٤)

(١) أبو العلاء وما إليه - للبيهي ص ١٧٢ .

(٢) شروح سقط الرند : ق ٤ ص ١٦٣٤ .

(٣) وفي الشروح : « أسأوني » . ومسفوتا : فليل البركة . (ج)

(٤) سر الرند : البف . (ج) الاصل : البف المصت الماضي .

وقد تقدم في قصيدته اللامية المرفوعة ، شكواه من فقد المال والأهل ،
حتى نغى حلّ الحرّ ليزهل أنه في العراق 'مُعِيلٌ' من الأهلين البسر والأسرة .
وقال في رسالته التي كتبها إلى خاله ، بعد رجوعه إلى المعرة^(١) : « وكنت
أظن أن الأيام تسمح لي بالإقامة هناك ، فإذا الضاربة^(٢) أحبا بعراقها ،
والأمة أبجل بِصَرْبَتَيْهَا^(٣) ، والعبء أخف بكُراعِهِ^(٤) ، والغراب أضن
بشِرتِهِ ، ووجدت العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جرة العقبه ، وأرخى
من الصَّيْحَانِي^(٥) بالجابرة^(٦) ، وأمكن من الماء بمُخْضَرَةٍ^(٧) ، وأقرب
من الجريد^(٨) بالهامة ، ولكن على كل خير مانع ، ودون كل درة خرساء^(٩)
صُوحِيَّةٌ^(١٠) أو خضراء طامية^(١١) .

-
- (١) رسائل أبي العلاء المري — لثاين عطية — ص ٧٣ ، وفيها « ظننت » .
(٢) الضاري : للفرس المولع بأكل اللحم ، وحبرى بالشئ : ضن به وتمك به ،
والدُّراق : اللحم والنظم . (ج)
(٣) لعل المراد بالضربة السِّل ، وفي نسخة جبرتها ، بالصاد المهملة ، وهي واحدة
الصرب ، وهو اللبن الحلو المالحض . (ج)
(٤) الكراع : صندوق الساق . (ج)
(٥) غر أسود صلب المغن . (ج)
(٦) اسم للدينة . (ج)
(٧) البحر . (ج)
(٨) سف النخل ، وهو كبير بالهامة ، قصير الساق . (ج)
(٩) سحابة لا رعد فيها ولا برق ، تمنع من التقاط الحر . (ج)
(١٠) مجة . (ج)
(١١) لجة مرهقة . (ج)

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعَّهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ^(١)

يكفيك ما بقلبك الهل ، إن عجز ظل^٢ عن شخصك ، فلا يمجزن
عن عضو منك . فلما زَبَنْتَ^(٢) الضروس^(٣) الحالب . وَنَزَتْ^(٤) العنود^(٥)
نَحْتَ^(٦) الراكب ، ومنعت القلوع^(٦) النازع ، ولم تَعْمُ^(٧) القلثوت^(٧) شاكي
الأريز^(٨) وغشي القول^(٩) وجه الشنار^(٩) ، وخيبت رائدأ^(٩) سحاب^(٩) ، وكذب^(٩)
شافم^(٩) برق^(٩) ، وأخلف روبيعاً^(١٠) مَظِنَّة^(١٠) . عادت^(١٠) إلى عتريها ليس^(١١) ،

(١) هنا البيت لسروين مدي كرب . (ج) . من عينه وهي في الحزاة ، وروايتها :
« ففرو » .

(٢) دفعت برجلها . (ج)

(٣) الناقة البنية الملقى . (ج)

(٤) وثبت . (ج)

(٥) العنود بالنون : الهابة الخففة في السير ، وناقاة عنود : تكب الطريق من
نشاطها وقوتها ، والعنود من الإبل الذي لا يخالطها ، ولا يزال ينفرد عنها ،
وفي نسخة (العنود) بالذاء ، وهو من أولاد المز ما أتى عليه حول ، وفي
حديث عمر ، ولله ذكر سياسته فقال : « وأضم العنود » ، أي أردته إذا
تد وعرد . (ج)

(٦) القوس إذا نزع فيها اهتلت . (ج)

(٧) كساه لا ينضم طرفاه صرأ وضيقاً . (ج)

(٨) الصقيع والبرد . (ج)

(٩) مكذا في النسخ ، ولا معنى للقول هنا ، ولله محرف عن القول : وهو جماعة
النحل . والشنار : من يشتر الصل ، أي يحببه ويخرجه من وقته . (ج)

(١٠) منزع راع ، والظنة : الموضع يظن فيه الشيء . (ج)

(١١) أي إلى أصلها ، وهو مثل يضرب لمن رجع إلى خلق كان تركه . (ج)

وذكر رجاءه (١) ثعالة (٢)، وطرب لوكته (٣) ابن دأية (٤) .

فهذه النصوص تدل على أن أبا العلاء ضاق ذروعه ببغداد لضيق ذات يده ، وأن إفراطه في التعفف مع فقده ماله ، لاشك بما يخرج صدره ، ويضيق ببغداد على رحبها به . وفرق هذا حنبه إلى أمه ، ورجاؤه لقاءها كان من أكبر البواعث على إزهاجه من بغداد . وليس في كلامه ما يدل على تدمره من الحياة السياسية أو الاجتماعية في بغداد أو المعرة ، ولا رغبة في تعظم من عامل ، أو على أن لحد الحساد أثراً في ذلك . ولكن قوله المتكدم : « على كل خير مانع .. فلما زينت الضروس الحالب .. » يدل على أنه كان منفصلاً لفقد الدعة ، والخفض ، آسفاً لحلولة الناقة بين وبين كثير مما كان يتناه .

اعتفاء البغداديين به

لم نعتز فيما وصل إلينا من تاريخ أبي العلاء ، على تفصيل مقامه في بغداد ، ولا على ما كان يلقاه من كل واحد ممن عرفه فيها ، ولكننا رأينا في كلامه شذرات يدلنا مجموعها على أنه كان يلقى من ضروب الخفاوة القولية شيئاً كثيراً ، وأنهم عرضوا عليه أموراً أبتها قناعته ، ولعلمهم عرفوا أنه لا يقبل من أحد هبة ولا صلة ، فعرضوا عليه ما عرضوا ولم يتعدوا حدود القول . يشير إلى ذلك قوله السابق : « ... على كل خير مانع

(١) جمره . (ج)

(٢) التلب . (ج)

(٣) عشه . (ج)

(٤) الثراب . (ج)

ودون كل درة خرساء موجية ، فلما زينت القروس الحالب . . وخيت رائداً صاحب ، وكذب شامخاً برق . .

أما مالمية من الإيناس في مقامه ، والأسف لفراقه ، فقد ذكره في رسالتك إلى خاله أبي القاسم وأشار فيها إلى ارتيابه فيها لقيه منهم ، وهذا كلامه في الرسالة بعد أن ذكر فيها أن أبا طاهر مازالت كتبه تطرق أصدقاؤه محافظة على المكارم ، ومراعاة لأمر غير لازم ، قال :^(١) « وكلما عرضوا قضاء حاجة ، أعرضت عن تكليف الشقة ، لأنني أعتقد حكمة زهير في قوله :

وَمَنْ لَا يَزَلْ يَسْتَحْمِلُ النَّاسَ نَفْسَهُ وَلَا يُعْفِيهَا يَوْمًا مِنَ الذَّمِّ يَسْأَمُ

ولو علمت أنني أرجع على قروائي^(٢) لم أتوجه لهذه الجهة . ولكن البلاء موكل بالنطق ، والخيرة مغيبة . والخطوب مثل دوك^(٣) النوفل ، يفتح بعضه عن مثل نبات الفتق^(٤) وبعضه عن ذوات الفسق . لا يدري الرجل بم يولع هزيمته^(٥) . ولا إلى أي اجنة يسوقه جده ، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾^(٦)

يَا أَيُّهَا الْمُضْمِرُ هَمًّا لَا تَهَمَّ إِنَّكَ إِنْ تُقَدَّرَ لَكَ الْحُمَى تُحْتَمَ^(٧)

(١) الرسائل - لاهين عطية . ص ٧٦ ، وتعرف القديما بأبي اللاه من ٨٣-٩١ .

(٢) قاي (ج) .

(٣) الدوك : ضرب من حمار البحر ، والنوفل : البحر (ج) .

(٤) الفسق : ركوب الدمى الأرض ، ولحق النبات : فد من كثرة الأنداء عليه

فوجئت لرحمة خفة ونقاد (ج) .

(٥) هفه (ج) .

(٦) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .

(٧) في تعريف القديما ص ٨٨ عن إرشاد الأريب - لياقوت - زيادة وهي : « وجد

في لوح :

يَا أَيُّهَا الْمُضْمِرُ هَمًّا لَا تَهَمَّ إِنَّكَ إِنْ تُقَدَّرَ لَكَ الْحُمَى تُحْتَمَ »

واظفر الرسائل - لاهين عطية ص ٧٦ .

وَلَوْ عَلَوْتَ شَاهِقًا مِنَ الْعَلَمِ كَيْفَ تَوَقَّيْكَ وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ
وُحْطَ أَيَّامُ الصَّحَاحِ وَالسَّقَمِ^(١)

ورعاية الله شامة^(٢) إن عرفت بيفداد؛ فلقد أفردوني بحسن المعاملة،
وأنتوا علي في الغيبة، وأكرموني دون النظراء والطبقة. ولا آندوا
تشيري للرجل، وأحسوا بناهي للظن، أظهروا كسوف بال، وقالوا من
جميل كل مقال، وتلفعوا من الأسف ييُرد قشيب، وذرفت عيون أشياء
وشيب. فلا إله إلا الله، أي ثابتة ليست لها راعية إلا مخلوقا غيبة^(٣) من سائفة^(٤).
ولا تعدم الحرقاء^(٥) تلك^(٦)، ولا الثقال^(٧) سائفة، ولا السبحة قانية.
وأمروني، لرغبته في صقي^(٨) منهم، بأمور تهى عنها القناعة، وتكف
دونها العادة، وما أبعده نضاد^(٩) من جبال القريب^(١٠)، وأشد اختلاف
الفاز والمنجدين.

(١) لم ترد منه الشطرات الثلاث في الرسائل ومعرف الصماء.

(٢) زهر الحناء (ج).

(٣) شامة، ساف: ضم (ج).

(٤) الحرقاء: الأرض الواسعة (ج).

(٥) جماعة النعم، والتل المشهور: لا تعدم الحرقاء، والحرقاء: الحقاء، والقة الحديث
يشغل صاحبه عن حاجته، كأن تلك القة صارت شغلاً ثابتاً منه عن شغل الأول.
والمنى: أن اللال كثيرة موجودة تحسها الحرقاء، فضلاً عن الكيس، وهنا مثل يقال
لكل مثل متغير وهو يغدر (ج).

(٦) البطة (ج).

(٧) فري (ج).

(٨) جبل بالهالة (ج).

(٩) الثلج (ج).

شَتَان مَا يَوْمِي عَلَى كَوْرَهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِر^(١)

. . .

عَلَى حِينَ أَنْ ذَكَّيْتُ^(٢) وَأَبْيَضُ مَفْرِقِي أَسَامُ الَّذِي أُعْيَيْتُ إِذَا أَنَا أَمْرُدُ

. . .

أُمَاوِيٍّ مَا يُغْنِي الثَّرَاهُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجَتْ^(٣) يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

والله بحسن جزاءهم . إن كان ما فعلوه حفاظاً^(٤) فهو منته عظمة ، وإن كان ثقافاً فهو عشرة جيلة . وانصرفت ، وماه وجبي في لقاء غير صريب^(٥) ، ما رقت منه فطرة في طلب أدب ولا مال . وقد^(٦) فارقت العشرين من العمر ، ما حدثت نفسي باجتهاد علم من عراقي ولا شام . ﴿ مَنْ حَمْدَاهُ فَهُوَ الْمُهْتَدُ وَمَنْ بَضَلِيلٌ فَلَمَنْ نَجِدْهُ وَرَيْثًا مُرْسِدًا ﴾^(٧) والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها .

وَلَسْتُ وَإِنْ أَحْبَبْتُ مَنْ يَسْكُنُ الْغَضَا بِأَوَّلِ رَاجٍ حَاجَةً لَا يَنَالُهَا

(١) البيت للأعشى ، ومعنى شتان : تباعد ما بينها (ج) ديوانه ص ١٠٤-١٠٨ .

(٢) كبرت ، وفي نسخة : الذي أعيت ، وفي نسخة : أعيت (ج) . وأعيته : أراد ، عدده عياً . والقياس : « أعيت » تعريف القدماء ص ٨٩ .

(٣) غرغرت عند اللوث ، البيت لحاتم الطائي . (ج) . من قصيدة له في مجموع خصة دواوين العرب ص ١١٨ .

(٤) غيرة . (ج)

(٥) سائل . (ج)

(٦) وفي نسخة : « ومنذ فارقت » . (ج) . ورواها هكذا ياقوت في إرشاد الأريب .

انظر تعريف القدماء بأبي اللؤلؤ ص ٨٩ .

(٧) سورة الكهف ، الآية ١٧ .

شرفاً لذلك المنزل منزلاً ، وللاساكنين به نفراً ، ولله دجّة وادياً
ومشرباً .

وإني وتيأمني بعزةً بعدما تَخَلَّيْتُ مِنْ حَبْلِ الْهَوَى وَتَخَلَّتْ
لِكَالْمَرْتَجِي ظِلَّ الْعِمَامَةِ كُلَّمَا تَبَوَّأَ مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اَضْمَحَلَّتْ^(١)

وكنْتُ إذا خَبَرْتُ رجلاً بميري بانت فيه كآبة ، وبدت عليه
كبوّة ، فكنت ذلك عنهم كتمان المرأة ضرئها بالغيب ، ما في جسدنا
من سوء وعيب ، فلما علّق حرّها^(٢) البين تَنَضَّبَتْ^(٣) ، ووقف صرَد^(٤)
الفراق موقفه ، كنت وإياهم كأي قابوس^(٥) وبني رداحة :

قَالَ لَهُمْ خَيْرًا وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ وَوَدَّعَهُمْ وَدَاعَ أَنْ لَا تَلْقَا .

فهذا صريح في أن أبا العلاء لم يُرِقْ ماء وجهه في سؤال مال ولا
علم ولا أدب . وأن القوم جاملوه بالشرة الحنة ، ولم يتعدوا حدود
القول ، وأنه غير جازم بأن ما فعلوه كان حفاظاً أو نفاقاً . وأظن أنه
لم يورد هذا الشك إلا وهو يعتقد الشك الثاني منه ، ولكنه كان كثير
الاعتراف بالجليل ، كثير الشكر لأية بد أسديت إليه . وفي قوله السابق :

(١) البيان لكثير عزة . ويروي : « كاللتي ظل » . (ج) . انظر أمالي الغالي ج ٢

س ١٠٧ — ١١٠ .

(٢) الحرياء : هي ذكر أم حين تستقبل الشمس وتندور معها كيفما دارت ، وتلون
ألواناً ، والنضب : شجر له شوك تألفه الحرائر ، واحدته نضبة . (ج)

(٣) طائر ينشام به . (ج)

(٤) النمان بن المنذر ، طلبه كسرى ، فجعل يطوف على القبائل ولا يقبله أحد منهم
غير أن بني رداحة بن قطيفة بن عبس قالوا له : إن شئت فأتنا منك ، لئلا كانت
له عندهم في أمر مروان الفرط ، فقال : ما أحب أن أهلككم ، فإنه لا طافة
لكم بكسرى . أغاني ٢ / ٢٩ . (ج)

« ولو أعلم أني أرجع على قروائي . . » ما يشعر بأنه آسف على ذهابه إلى بغداد ، وأن بقاءه فيها كان ممضاه . ولذلك جعلها أجرة ساقه إليها جده . وفي قصيدته اللامية ما يشعر بمثل ذلك كقوله : (١)

نَدِمْتُ عَلَى أَرْضِ الْعَوَاصِمِ بَعْدَمَا غَدَوْتُ بِهَا فِي السَّوْمِ غَيْرُ مُغَالٍ

وصرح في رسالته التي أنفذها (٢) إلى أهل المعرة ، بأنه ما سافر إلى بغداد ليشكّر من المال ، ولا ليشكّر بقاءه الرجال ، وإنما آثر الإقامة بدار العلم . وأشار في هذه الرسالة إلى أن القوم ألحوا عليه بالأموال ، فأبى . وسنذكر هذه الرسالة .

ونستنتج من هذه الآثار أن البغداديين أجعلوا عشرته ، وعرضوا عليه الأموال رغبة في بقاءه عندهم ، وأنه لم يقبل شيئاً ، ويعترف بالجميل كيف ما كان ، وأن الذي أشغفه إلى بغداد دار العلم والإقامة فيها ، والذي أزعجه منها إقلاله من المال والآل ، وشوقه إلى أمه . وليس فيها ما يدل على أن لاضطراب الحياة السياسية أو الاجتماعية في بلده أو بغداد أثراً في رغبته إليها أو عنها ، ولا أثر فيها للتظلم من عامل أو غيره .

منى خريج من بغداد

قال في رسالته إلى خاله (٣) : « وصرت عن بغداد لست بيقين من شهر رمضان » . كما سيأتي . وكفانا بذلك مؤونة الاختلاف . فعلى قول

(١) شروح سقط الزند : ج ٣ ، ص ١٢٠٧ .

(٢) تعرف القدماء بأبي اللاد ص ٩٢ من إرشاد الأريب - لياقوت . وفي الرسائل

لناجين عطية ص ٨١—٨٣ .

(٣) انظر ما سبق ص ٢٧٢ الحاشية (١) .

من قال : إنه أقام فيها سنة ونسعة أشهر ، يكون وصوله إليها في ٢٤
ذوي الحجة سنة ٣٩٨ هـ . وعلى قول من قال : إنه أقام فيها سنة وسبعة
أشهر ، يكون وصوله إليها في ٢٤ صفر سنة ٣٩٩ هـ . وعلى قول من
قال : إنه أقام فيها سنة وستة أشهر يكون وصوله إليها في ٢٤ ربيع
الثاني سنة ٣٩٩ هـ . والخطب يسير على جميع هذه الأقوال . أما من قال :
إنه دخلها سنة ٤٠٠ هـ أو إنه رحل إليها مرتين ، فلا يتفق مع شيء مما
ذكر ، لأنه قال في ثبت كتب : « لزمتم مكنتي منذ سنة أربع مائة » .
وهذا كان بلا شك بعد رجوعه من بغداد وإقامته فيها سنة فأكثر .

صبره عن بغداد وطريقه إلى المرة

يفهم من قوله في قصيدته اللامية المكسورة : (١)

دَعَارَجَبٌ جَيْشَ الْعَرَامِ فَأَقْبَلَتْ رِعَالٌ تَرُوذُ الهمَّ بَعْدَ رِعَالِ
يُغِرْنَ عَلَيَّ اللَّيْلَ إِذْ كُلُّ غَارَةٍ يَكُونُ لَهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ تَوَالِي

أن شوقه إلى بلاده وأهله ازداد لما دخل شهر رجب . وقد ذكر
رحلته من بغداد إلى المرة في رسالته إلى خاله أبي القاسم ، وبين الطريق
التي سلكها ، والمطبة التي ركبها فقال : (٢)

« وصرت عن بغداد لست ببقين من رمضان ، صيرت تنحيط إليه ،

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٦٥ ، والرجال : واحدا رعة ورعيل وهي
جماعات الحبل وغيره .

(٢) النظر ما سبق ص ٢٧٢ الحاشية (١) .

وَتَشِطُّ نَسْوَهُ ^(١) ، وَتَوَقَّعُ الْفَرْقَ سَفْنُهُ ، يَرِدُ الْمَانِي الرَّجِيلَ ^(٢)
فِيهِ أَنَّهُ بَعْضُ الرِّكَبِ ، وَلَوْ كَانُوا رُكْبَانُ الْجَذْوَعِ ، وَأَنَّهُ انْتَلَّ ^(٣)
لَوْ بِأَدِيمِ الْوَجْهِ وَالْجَيْنِ ، وَاضْطَجَعَ وَلَوْ عَلَى الْقَصْدِ وَالشَّيْهَانِ ^(٤)
عِنْدَ الصَّاحِ بِحَمْدِ الْقَوْمِ الشَّرِيِّ . الْغَمَرَاتُ ثُمَّ يَنْجَلِينَ . وَمَرَرْتُ بِطَرْفِ
الشَّهَاءِ ، لِأَنِّي سَلَكْتُ طَرِيقَ الْمَوْصِلِ وَمِيفَارَقِينَ ، وَفِيهَا أَمْوَاهُ كَأَمْوَاهِ
الطُّفْرَةِ وَالْعُذِيبِ ^(٥) . . . ثُمَّ قَالَ : « وَلَمَّا نَزَلْنَا بِالْحَسَنَِّةِ تَسَاوَى حَامِلُ
الْمَالِ وَحَامِلُ الرَّمَالِ ، وَقُلُ بِلَاءِ الْغَادِي ابْنِ قَالَ ، وَالزَّانِعِ ابْنَ عَمْرُسَ
وَبَاتَ . فَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى بَلَفْنَا آمَدَ ، ثُمَّ لَمَّا ^(٦) عَادَتِ السَّيْلُ إِلَى
غَوَانِهَا ، وَصَدَّكَ ^(٧) الرِّفَاقُ بِمَخَافِهَا .

فَمَا بَلَّغْتَنَا إِلَّا جَرِيضاً بِلَانِقِي الْعِظَامِ وَلَا سَنَامٍ ^(٨) .

فَتَكُونُ رَحْلَتُهُ هَذِهِ مِنْ بَغْدَادَ عَلَى طَرِيقِ الْمَوْصِلِ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى
طَرَفِ دَجَّةَ ، تَقَابِلُ مِنَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ نَيْنَوَى وَمِيفَارَقِينَ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ

(١) غَطَطَ يَغْطِطُ كَضَرَبَ : زَنَرَ ، وَأَطَّ بَطَطَ : مَوْتٌ ، وَالنَّسْوَعُ : جَمْعُ نَسْعٍ ، سَبَّرَ
يَضْفَرُ عَلَى حَبَّةِ أَعْنَةِ النَّعَالِ ، تَضْفَرُ بِهِ الرَّحَالُ . (ج)

(٢) الْقَوِيُّ عَلَى الشَّيْءِ الصَّابِرُ . (ج)

(٣) هَكَذَا فِي رِسَالَتِهِ ، وَفِي يَاقُوتَ : انْتَلَّ ، وَهُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ . (ج)

(٤) الْقَصْدُ : الْمَوْسَجُ ، وَالشَّيْهَانُ : نَبْتٌ يَشْبُهُ الثَّامَّ أَوْ ضَرْبٌ مِنَ الْعُضَاءِ . (ج)

(٥) طَائِرَةٌ : وَادٍ فِي دِيَارِ بَنِي أَسَدَ . وَالْعُذِيبُ : مَا بَيْنَ الْقَادِسِيَّةِ وَالْقَبِيَّةِ ، وَقِيلَ :

وَادٍ لِبَنِي تَيْمٍ وَهُوَ مِنْ مَنَازِلِ الْحَاجِّ لَلْكُوفَةِ . (ج)

(٦) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَفِي الرِّسَالَةِ - لِتَاغِيَةِ عَطِيَّةَ ، وَالْإِرْشَادَ - لِتَاغُوتَ : « ثُمَّ عَادَتِ ،

(٧) سَدَّكَ بِالْشَّيْءِ : لَزَمَهُ . (ج)

(٨) الْجَرِيضُ : غَضَنُ الْمَوْتِ . وَالْجَرِيضُ : الْفَلَكُ بَدَنُ شَرٍّ ، وَأَفْلَتَ فُلَانٌ جَرِيضاً :

أَيُّ يَكَادُ بِغَضِي . وَالتِّي : مَعَ النَّظَامِ وَشَعْبِهَا . (ج)

بديار بكر بقرب آمد . ثم إلى الحسنة ، وهي بلدة شرقي الموصل على
 يمين بينها وبين جزيرة ابن مر . ثم منها إلى آمد ، وضبطها بعضهم
 بضم الميم ، وهي بلدة بالثغور في ديار بكر ، ودجلة يحيط بأكثرها ثم منها إلى الرقة ،
 وهي مدينة على الفرات معدودة في بلاد الجزيرة ولما وصلها كتب فيها إلى خاله كتابا
 شرح له فيه ما حله على النزول . ولبس في كلامه ما يدل على أنه نزل بالموصل
 أو ميفارقين .

والظاهر من كلامه أنه عاد من بغداد على فاقة ، فإنه قال : « سرت عن
 بغداد سيرا تنحط إليه وتشت نسوعه » . وقال في قصيدته العينية : (١)

وَلَيْتَ قِلَاصًا مِلْعِرَاقٍ خَلَعَنِي جُعِلَن لَمْ يَفْعَلَنَّ ذَاكَ مِنَ الْخَلْعِ

وقد وصل المرة ، فوجد أمه قد توفيت قبل مقدمه بمدة يسيرة ، ولم
 يعلم بذلك قبل قدومه ، كما يدل على ذلك عنوان رسالته إلى خاله
 أبي القاسم (٦٧) (٢) ، وعنوان مراثيته في التنوير ج ٢ ص ٨٧ ، وقوله
 في رسالة إلى بعض العلوية أنفذها إليه من المرة قال فيها ص (٨٤) (٣) ،
 « ووجدت الوالدة رحمها الله قد سبق بها القدر إلى الدر ، فأنت البنة بالنية » .
 فقول صاحب (الذكري) والبيهي : (٤) « ورده خبر مرض أمه » . يحتاج إلى
 ما يؤيده . وقال البطليموس في شرحه ص ١٤٥٣ : « قال أبو العلاء على قافية
 الميم في أمه ، وكانت توفيت قبل مقدمه من العراق . ولذلك قال في بعض شعره :

وَوَالِدَةٌ مَنِيْتُ نَفْسِي لِقَاءَهَا فَعَاجَلَهَا يَوْمَ أَلَمْ خَوْوُنُ»

وهذا البيت لم نجده في ديوانه .

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٦٥ ، وخلصني : أي أخرجني .

(٢) الرسائل - لشاهين عطية .

(٣) الذكري - لطف حبيب - ط ٢ ص ١٩١ ، وأبو العلاء وما إليه - للبيهي ص ٢٦ .

إصمحاء على الانفراد والعزلة وسبب ذلك

ففى أبو العلاء نحو خمس وثلاثين سنة فى المعرة ، ونحو سنة وتسعة أشهر فى بغداد . وكان دقيق الحس شديد الفطنة كثير الشك ، لا تكاد تمر به حادثة إلا أشبعها بحثاً ودراسة وتفكيراً ، وربما فهم من هم الشفاء وحركات الأعضاء أكثر مما يفهم البصراء . وكان منذ حداثة سنه مبهى الظن بالناس لا ينظر إليهم بنظر الرضى والطأينة ، وكان كما قال : « وحشى الغريزة أنسى الولادة .. » . فزبن ذلك كله له الانقباض عن الناس ، وجبب إليه العزلة .

فلما رحل إلى بغداد ، وكانت ملتقى الأمم من عرب وعجم ، وراى ماراى أو سمع ماسمع ازداد مقتنه للناس بقدر ما ازداد علمه بهم ، واطلاعه على ماتكنه صدورهم من أخلاق لا تتفق مع شبهه ، ومعرفته من أممالم ماتباه الإنسانية . وقد صرح فى قصيدة درعية بسبب سجنة فقال : (١)

بَنُو الْوَقْتِ إِنْ غَرُّوكَ مِنْهُمْ بِحِكْمَةٍ فَمَا خَلَفَهَا إِلَّا غَرَائِزُ جُهَالٍ
لِذَاكَ سَجَنْتُ النَّفْسَ حَتَّى أَرَحْتُهَا مِنَ الْإِنْسِ مَا أَخْلَاهُ رَبِّعٌ بِإِخْلَالٍ
إِذَا مَا حَلَلْتُ الْجَذْبَ فَرْدًا بِلاَ أَدَى فَسَقِيَا لَهُ مِنْ رَوْضَةٍ غَيْرِ مُحَلَّلٍ

وكان فوق ذلك كله قليل المال كثير الأنفة ، مفرطاً فى التصف والإباء ، شديد الحسرة لفقد ناظره ، وضيق ماله عن بلوغ آماله ، وتلبية سؤاله ، كثير الحساد ، كثير الحياء ، شديد الاحتياط والحذر . يكره أن يرى الناس منه مالا يحمدون ، أو ما يجعله عرضة للازدراء والاستهزاء به . ولم يجد شيئاً ينبجو به من كل ذلك أو من جله إلا اعتزال الناس . وزاده ضغناً على إبتالة فقد أبه ، ومالجه فى بغداد من الخشونة فى بعض

(١) ترويح سخط الزند : ق ٤ ص ١٨٨٠ .

الطبقة التي كان يتوقع أن تقدره حق قدره ، وتعرف له فضله وأدبه وطهه ، فأسودت الدنيا عنده ، كما اسود أهلها ، وقوى ذلك في نفسه الميل إلى الانفراد عن الناس ، وربما كانت نفس أبي العلاء تطمح إلى أسمى مكانة في الحياة ، ولكن الدهر ضرب بينه وبين أمانته بالأسداد ، فزهّد في الدنيا كلها ، لأنه لا يرضيه إلا أن ينال الإنسان أعظم منزلة فيها ، أو يعرض عن كل ما فيها . ولعله فكر في الزمان وتصرفاته ، فلم يجد فيه سبيلا إلى الحياة الطيبة التي يبتغيها ، وجرب الناس ، فلم يزد ذلك إلا زهداً في الدنيا وأهلها ، ولقد أشار إلى هذا بأبيات من قصيدة قالها في بغداد جواباً لابن فورجة ، حيث يقول :^(١)

تَأَمَّلْنَا الزَّمَانَ فَمَا وَجَدْنَا إِلَى طِيبِ الْحَيَاةِ بِهِ سَبِيلًا
ذَرِ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تَحْظَ مِنْهَا^(٢) وَكُنْ فِيهَا كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا
وَأَصْبَحْ وَاحِدَ الرَّجُلَيْنِ إِمَّا مَلِيكًا فِي الْمَعَاشِرِ أَوْ أَيْلًا^(٣)

وبقوله من قصيدة قالها في بغداد أيضا :^(٤)

جَرَبْتُ دُهْرِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكْتُ لِي التَّجَارِبُ فِي وُدِّ أَمْرِي غَرَضًا

منى حدث له فكرة العزلة وأبى طامه ذلك ؟

زعم بعضهم أن فكرة العزلة حدثت لأبي العلاء في بغداد ، وأنها انزاع من آثار اطلاعه على كتب الفلسفة فيها واحتكاكه بالفلاسفة . وأطال في

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٧٠ .

(٢) البطليوسي : « فيها » .

(٣) الأيل : التدين أو القس ، والمراد به الراهب حاشا .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٥٦ .

إثبات ذلك . وبظهر عند التأمل أن ذلك غير صحيح ، وأن هذه الفكرة قديمة في نفس أبي العلاء ، تدور في خلدّه قبل ذهابه إلى بغداد . ولعله لم يتمكن من المجاهرة بها قبل سفره . يدلنا على ذلك قوله في كتابه الآتي إلى أهل المعرة : ^(١) « وهو أمر أمري عليه بليل ... ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر والسنة ، ولكن غذي الحقب المتقادمة ، وسليل الفكر الطويل » .

منى جاهر بالمعزة وأبى طامه ذلك ؟

أجمع أبو العلاء على اعتزاله الناس وانفراده عنهم ، وجهر بهذه الفكرة ، من في بغداد ، كما يتبين ذلك من رسالة كتبها إلى علوي يقول له فيها : ^(٢) « وقد كنت عرفتُ بالعراق ، ما عزمت عليه من انفراد ، يحجز عن المراد ، ووجدت الوالدة ، رحما الله ، قد سبق بها القدر إلى المدر ، فأنت الثبّة بالمنية ، فانطويت على يأس ومجانبة للناس ... » . وفيها يقول : ^(٣) « ولما فاتني المقام بحيث اخترت ، أجمت على انفراد يحطني كالظي في الكناس ، ويقطع ما بيني وبين الناس ، إلا من وصلني الله به وصل الذراع بالبد ، والليقة بالقد ... » .

وكتب إلى أهل المعرة كتاباً مقدّمه من بغداد ، ولم يصل إليهم . وقد رسم في هذا الكتاب خطه التي يسير عليها مدة إقامته بين ظهرانهم ،

(١) الرسائل - لاهين عطية . ص ٨٢ ، وتعرف القديما ص ٩٢ عن إرشاد الأريب - لباقوت ، وبه : « سُري عليه » .

(٢) رسائل أبي العلاء - لاهين عطية ، ص ٨٤ .

(٣) الذم من رساله إلى خاله أبي القاسم كما في الرسائل - لاهين عطية ، ص ٨٠ ، وكافي تعريف القديما ص ٩١ ، وليس من رساله إلى العلوي كما ذكر المؤلف ، والكناس : مأوذ الظبي .

ويجبرهم فيه عما أجمع عليه من العزلة، وبنهاهم عن زيارته؛ ربيح لهم السبب الذي رحل من أجله إلى العراق، وما ليه فيها. وهذا الكتاب. وإن لم يصل إلى أهل المرة، درج عليه أبو العلاء مدة حياته. وهذا هو الكتاب: (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب إلى السُّكْنِ المقيم بالمرة، سَمِّيلَهُم الله بالسعادة، من أحمد بن عبد الله بن سليمان، خَصَّ به من عرفه وداناه، سَلَّمَ اللهُ الجماعةَ ولا أَسَلَمَهَا، ولم شَعْنَهَا ولا آلَهَا.

أما الآن فهذه «مناجاتي»^(٢) بعد منصرفي عن العراق، مجتبع أهل الجدل، وموطن بقية السُّلَف، بعد أن قَضَيْتُ الحداثة فاستقضت، وودَّعْتُ الشَّيْبَةَ قَضَيْتُ، وَحَلَبْتُ الدهرَ أَشْطَرَهُ، وَجَرَّبْتُ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ، فوجدت أوفق^(٣) ما أصنع في أيام الحياة عَزْلَةً تجعلني من الناس كبارح الأروى^(٤) من مانع الطعام، وما التَوْتُ نصيحة لنفسي، ولا فُشِرْتُ في اجتذاب المنفعة إلى حِزِّي؛ فأجملت على ذلك، واستغفرت الله فيه، بعد جلانه على نفر برئى بخصائلهم، فكلمهم رآه حزمًا، وعده إذا تم رشداً،

(١) انظر ما سبق من ٢٨٢ الحاشية (١).

(٢) كنا في الأصل، وفي الرسائل، وإرشاد الأرب: «مناجاتي أيام مُشْغَرَّتِي».

(٣) في ابن العميد: «أقوى ما أصنع أيام الحياة أن أخفت». (ج)

(٤) البارح من الصيد: ما سرَّ من يامك إلى ميسرك، وبض الرب يطبرون به،

والأروى: الوعول. والمانع: ما سرَّ من ميسرك إلى يامك. ومن أمثالهم «من

يجمع بين الأروى والغام»، وذلك أن ساكن الأروى شغف الجبال،

وساكن الغام السهولة، فهما لا يجتمعان أبداً. (اللسان، نم).

وهو امر اسري عليه بلبل^(١) ، قضي يرفقة^(٢) ، وخبت^(٣) به النعامة ،
لبس بقتيج الساعة ، ولا ربيب الشهر والسنه ، ولكته غذي^(٤) الحب
المتقادمة ، وسلب الفكر الطويل . وبادرت إعلامهم ذلك ، مخافة أن يتفضل
منهم متفضل بالنهوض إلى المنزل الجارية عادي بسكناءه ، ليلقاني فيه ، فيتعذر
ذلك عليه ، فأكون قد جمعت بين سميجين^(٥) . (٤) : سوء الأدب وسوء
القطيعة . ورب ملوم لا ذنب له . والمثل السائر : خل امرأ وما اختار .
وما سمعت^(٦) القرون بالاياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة : نبذة كنبذة^(٧)
فتيق النجوم ، واقتضابا^(٨) من العالم كاقضاب القائبة من القلوب ، وثباتا في
البلدان^(٩) حال^(١٠) أهل من خوف الروم . فإن أبي من يثقف علي أو
يظهر الشفق إلا النقرة مع السواد كانت نفرة الأعفر^(١١) أو الأدماه .

-
- (١) في جمع الأمثال : أمر سري عليه بلبل . أي قد تقدم فيه ، وليس فجأة . (ج)
(٢) في نسخة : ريفة ، وهو الصواب . ورفقة : موضع قرب الحيرة ، كان به
جنينة الأبرش ، فاستشار قصباً بالمبر ال الزباء ، فأشار عليه فلما قرب منها ،
وأخط به جيشها ، قال : ما الرأي يا قصير ؟ فقال له : بيفة خلقت الرأي .
ولفظه في جمع الأمثال : بيفة صرم الأمر . وقال : بقة موضع بالنام من شاطئ
الفرات ، وذكره مرة أخرى فقال : بيفة خلقت الرأي . (ج)
(٣) من الحب : وهو ضرب من الشئ .
(٤) فيجن .
(٥) كنا ، وفي الرسائل - لثامين عطية ، وإرشاد الأريب : سمحت ، والفرعون : النفس .
(٦) نبذة : من بذ الشيء إذا طرحه ، والنبق : ما انشق عن الشيء ، والنجوم :
مفرد ما نجم ، ما نجم من النبات على غير ساق ، يريد أنه بطرحه كما بطرح
هنا النبات على وجه الأرض بعد أن تنشق الحبة عنه وينجم .
(٧) اخضاباً : اخطاعاً ، القائبة : البينة ، القوب : الفرخ .
(٨) في الديم : إن جلا أهله . (ج) وحال أي تحول .
(٩) ونه : الأعصب . (ج) ، والأعفر : الذي تلو ياضه حرة ، وقررة الأعفر :
مروده .

وأحلف ما سافرت أشتكر من النش ، ولا أتكفر بقاء الرجال .
ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت أنف مكان^(١) لم يصف الزمن
بإقامتي فيه ، والجاهل مطالب القدر . فأكسبت مما استأثر به الزمان .
والله يجعلهم أحلاس الأوطان ، لا أحلاس الحيل والركاب . ويسبق
عليهم النعمة سبورغ الفمراء^(٢) الطلقة على الظبي الفرير ، ويحمن جزاء
البغاديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالنسبة على غير
علم ، وعرضوا عليّ أموالي عرض الجيد ، فصادفوني غير جديل بالصفات ،
ولا هش . إلى معروف الأقوام ، ورحلت وهم لرحلي كارهون ، وحسي
الله وعليه يتوكل المتوكلون .

وقال في الفصول والغايات ج ١ ص ٢٧٢ : « طفت الآفاق ، فإذا الدنيا
نفاق ، ومللت من مداراة العالم بما يضر غيره الفؤاد ، فاخترت الوحدة
على جلس الصدق ، ليتني مع الظلم المهجاج^(٣) . »
وقال في ص ٢٩٧ : « إنما أنا حي كاليت ، أو ميت كالحي ، وما اعتزلت
إلا بعد ما جددت وهزلت ، فتوجدتني لا أنفدني في جدي ولا هزل ،
ولا أخصب في التصريح^(٤) ولا الأزل ، فلي بالصبر ، لا بد للبهمة
من اقتراج . »

ومحصل ما يستنتج من أقواله : أن فكرة العزة كانت تدور في خله
قبل أن يخصص إلى بغداد ، وأنه هزم على إخراجها إلى حيز الوجود في
بغداد ، ثم في المعرة . ولبست أثرا من آثار احتكاكه بالفلسفة وإطلاعه
على كتبهم .

(١) وفي ابن الدمج : « آخر ما كان » . (ج)

(٢) البيضاء . (ج) . والطلقة : البلة لا حرنيا ولا برد .

(٣) الظلم : ذكر النام ، والمهجاج : النور أو الكبير الصباح . (ج)

(٤) كذا في الأصل ، وفي الأصول : « في التصريح » . والأزل : الحبس .

ماذا فعل بعد رجوعه الى المعرة ؟

بعد أن عاد إلى المعرة ، وجد أمه قد ماتت ، أقام في منزله حينا لا يدخل عليه ، ثم اضطره أفراده وأصحابه إلى فتح بابه لـ الزائر والمتلعين ولم يوفق إلى الاعتزال ، كما سبقي في لزومه بيته .

حنينه الى بغداد

قدمنا فيما سبق شيئا من حنينه إلى المعرة والعواصم حين كان ببغداد ، وبعد أن عاد إلى المعرة ، وألقى عصا التسيار فيها ، تذكر ببغداد ومن كان بلة م فيها من إخوان الصفاء والمردة ، وما مر له معهم فيها من الأوقات الطيبة والمجالس المستعذبة ، فهاجت الذاكرة أشواقه ، وجعل ييمث الزفرة تلو الزفرة ، والحسرة بعد الحسرة على مفارقتهم . وكان كلما ضاق فرعا ببغداد تشوق إلى المعرة وعلها ، فصار كلما ضاق فرعه في المعرة تشوق إلى بغداد ومن عرفه فيه . شأن كل إنسان يحتوي مكانه ويسأم من حوله من إخوانه وأخذانه . وقد أكثر في شعره من اللوعة والحنين إلى بغداد ومن فيها ، ومدحها ومدحهم . من ذلك قوله في قصيدة كتبها إلى القاضي التتوخي (١) :

سَقِيًّا لِدِجْلَةٍ وَالْذَّنْيَا مُفَرَّقَةً حَتَّى يَعُودَ اجْتِمَاعُ النُّجْمِ تَشْتِيَتَا (٢)
وَبَعْدَهَا لَا أُرِيدُ الشَّرْبَ مِنْ نَهْرٍ كَأَنَّمَا أَنَا مِنْ أَصْحَابِ طَالُوتَا (٣)

* * *

(١) خروج سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٣٨ .

(٢) النجم : التريا . يريد أن الدنيا تفرق كل مجمع حتى التريا . (ج)

(٣) طالوت : ملك ، يشير إلى الآية الكريمة (فلما فصل طالوت بالجنس : قال إن أفة

مبليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني) . (ج)

ذَمَّ الْوَلِيدَ^(١) وَلَمْ أَذْمُمْ جَوَارِكُمْ فَقَالَ مَا أَنْصَفْتَ بَعْدَ دُحُوشِيَّتَا
فَإِنْ لَقِيتُ وَلِيدًا وَالنُّوَى^(٢) قَذَفَ^(٣) يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ أَعِدْهُ تَبَكُّيَّتَا
وقوله من فصيدة أرسلها إلى أبي أحمد عبد السلام البصري : (٤)
أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَنِّي تَفَرَّدْتُ بَعْدَكُمْ.

مِنَ الْإِنْسِ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْعِدِّ يَنْقَعُ^(٥)
نَعْمَ حَبِذَا قَيْظُ الْعِرَاقِ وَإِنْ عَدَا يَبُثُّ جِمَارًا فِي مَقِيلٍ وَمَضْجَعٍ
فَكَمْ حَلَّةٌ مِنْ أَصَمَعَ الْقَلْبِ آيسٍ
يَفُوقُ ابْنَ أَوْسٍ فَضْلُهُ وَابْنُ أَصَمَعَ^(٦)
أَخِفُّ لِدِكْرَاهُ وَأُحْفَظُ غَيْبُهُ وَأَنْهَضُ فِعْلَ النَّاسِكِ الْمُتَشَرِّعِ^(٧)

. . .

-
- (١) الوليد : البصري ، قال من أبيات :
ما أنصفت بعدد حين نوحث لتزليها وهي المثل الآنس . (ج)
(٢) الحواري : « والدي » والحنف : البيدة .
(٣) البطيوسي : « كتب » .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٨٨ .
(٥) الد : الماء الذي لا ينقطع ، ونعم : يروي ويثني غله . (ج) . وفي الشروح :
« عن الإلس » .
(٦) ابن أوس : أبو تمام حبيب بن أوس : وابن أسهم : عبد الملك بن حرب الأصمعي .
ورواه التبريزي : « بطول ابن أوس » وقال : هو حبيب بن أوس الطائي ، وكنتك
البطيوسي . وقال الحواري : ابن أوس ، هو أبو زيد سيد بن أوس بن ثابت
ابن زيد الأنصاري ولد سنة ١٢١ هـ ومات سنة ٢١٤ هـ ، ثم قال : ويحتمل أن يريد
أبا تمام حبيب بن أوس فراجعه ص ١٥٨٩ . (ج)
(٧) وفي الشروح : « للتختم » .

ومنها :

لَقَدْ نَصَحْتَنِي فِي الْمَقَامِ بِأَرْضِكُمْ رِجَالٌ وَلَكِنْ رُبُّ نَصَحٍ مُضَيِّعٍ
فَلَا كَانَ سِيرِي عَنْكُمْ سِيرَ^(١) مُلْحِدٍ يَقُولُ بِيَأْسٍ مِنْ مَعَادٍ وَمَرْجِعٍ

وقوله من قصيدة كتبها إلى خازن دار العلم : (٢)

وَلِي حَاجَةٌ عِنْدَ الْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ فَإِنْ تَقْضِيَاهَا فَالْجَزَاءُ هُوَ الشَّرْطُ
سَلَا عُلَمَاءَ الْجَانِبَيْنِ وَفَتْيَةً أَبْنَاهُمَا^(٣) حَتَّى مَفَارِقِهِمْ سُخْطُ
أَعِنْدَهُمْ عِلْمُ السُّلُوكِ لِسَائِلِ بِهِ الرِّكْبَ لَمْ يَعْرِفْ أَمَا كَيْفَهُ قَطُّ
وَمَا أُرْبَى إِلَّا مُعَرَّسُ مَعْشَرٍ هُمُ النَّاسُ لَا سُوقُ الْعُرُوسِ وَلَا الشُّطُّ

. . .

ومنها :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَدِينُ رَكَابًا أَمْطُ بِهَا حَتَّى يُطْلَحَهَا الْمَطُ^(٤)
وَهَلْ يُنْشِطُنِي مِنْ عِقَالِي إِلَيْكُمْ رَضِيَ زَمَنِي أَمْ كُلُّ شَيْمَةٍ سُخْطُ

. . .

(١) وفي شروح السط : د رأي .

(٢) شروح سبط الزند : ق ٤ ص ١٦٦٨ .

(٣) ابن : ألام . (ج)

(٤) المط : اللد . طلحه : أنبه حتى أعيا . (ج)

ومنها :

وَإِنْ خَلَطْتَنِي بِالثَّرَابِ مَنِيَّةً فَبَغَضْتُ رَأْيِي مِنْ مَوَدِّ تَكْمٍ خَلَطُ
فَيَا لَيْتَنِي طَارَتْ بِكُورِي إِذَا دَنَا بِكُورِي قَطَاةً بِالصَّرَاةِ لَهَا وَقَطُ^(١)
لَا قُضِيَ هَمُّ النَّفْسِ قَبْلَ بَحْلَةٍ^(٢) كَأَنَّ عِظَامِي الْبَالِيَاتِ بِهَا خَطُ

وبما جاء في (لزوم مالا يلزم) قوله : (٣)

يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى أَنِّي رَجَعْتُ إِلَى هَذِي الْبِلَادِ وَلَمْ أَهْلِكْ بِيَعْدَاذًا
إِذَا رَأَيْتُ أُمُورًا لَا تُوَاظِنِي قُلْتُ الْإِيَابُ إِلَى الْأَوْطَانِ أَذَى ذَا
وقوله : (٤)

سُئِمْتُ يَا هِمَّةَ عَادَتِ شَامِيَّةً مِنْ بَعْدِ مَا أُوطِنْتَ عَصْرًا بِيَعْدَاذِ
وَلَسْتُ ذَاتَ نَخِيلٍ لَا وَلَا أُفٍّ كَرَمِيَّةٍ فَتَقُولِي شَفَنِي دَاذِي^(٥)

(١) الوقط : هرة في صخرة يجتمع فيها ماء المطر ترده القطا . (ج) ، ورواية الشروح :

« بكوري إذ دنا » ، والكور : الرجل ، والصراة : مجتمع دجلة والفرات .

(٢) أراد بالبحلة : القبر ، وشبه عظامه البالية بعد موته بالحيط الذي درس مظهره

وبقيت منه آثار يستدل بها عليه . وفي الحوارزمي : الساع « حلة » ، بالحاء وروي بالميم

وعب الصيغة التي فيها الحكمة . (ج)

(٣) اللزوميات ٥ ص ١١٦ .

(٤) اللزوميات ٥ ص ١١٧ .

(٥) الداذي : نبت . وقيل مرثي له عنقود مستطيل وجهه على شكل حب الشعير ،

يوضع منه مقدار رطل في القَرْق ، تنبت رائحته ويجود إسكاره ، جاء على لفظ

جاء (١٩)

النسب وليس بنسب . (ج)

مزنة في بغداد على مفارقتها ومفارقة أهلها

كان قبل أن يفارق بغداد يكثر من إظهار الوعة لفراقها ، ويكثر الولوج بمن فيها ، ويعبر بشعره عما يعتلج في صدره من الأسف على فراقها ، وما يضره في نفسه من الولاة والحب والاعتراف بالجليل لأهلها ، من ذلك قوله من قصيدة قالها في بغداد معنى القاضي التنوخي : (١)

إِذَا نَأَتْ الْعِرَاقَ بِنَا الْمَطَايَا فَلَا كُنَّا وَلَا كَأَنَّ الْمَطِيَّ
عَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ فَمَا حَيَاةٌ إِذَا فَارَقْتُكُمْ إِلَّا نَعِيٌّ (٢)

وقال من قصيدة قالها ببغداد يودعها : (٣)

أَوْدُعُكُمْ يَا أَهْلَ بَغْدَادَ وَالْحَشَى عَلَى زَفَرَاتِ مَا يَنِينُ مِنَ اللَّذَعِ (١)
وَدَاعَ ضَيٍّ لَمْ يَسْتَقِلْ وَإِنَّمَا تَحَامِلُ مِنْ بَعْدِ الْعِثَارِ عَلَى ظَلَعِ (٥)
إِذَا أَطْنَسَ قُلْتُ وَاللَّوْمُ كَارِي أَجْدُكُمْ لَمْ تَفْهَمُوا طَرْبَ النَّسْعِ (٦)
فَبِئْسَ الْبَدِيلُ الشَّامُ عَنْكُمْ وَأَهْلُهُ عَلَى أَنْتُمْ قَوْمِي وَبَيْنَهُمْ رَبِّي (٧)

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٣٠ .

(٢) كذا في التوير والتبريزي ، وروايته في الشروح : « النعي » .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٤٩ .

(٤) بنين : بقرن . (ج)

(٥) الضي : مرض ملازم ، وضن : مضى . والظلع : النزع في معنى الدابة ، وهو

شبه بالمرج . (ج) . ورواية الشروح : « وداع ضي » .

(٦) أط : موت ، والنسع : سيرة مضفور . (ج)

(٧) في الشروح : « الشامم عنكم » .

أَلَا زَوَّدُونِي شَرِبَةً وَلَوْ أَنِّي قَدَرْتُ إِذَا أَفْتِنْتُ دِجْلَةً بِالْجَرْعِ
وَأَنِّي لَنَا مِنْ مَاءِ دِجْلَةٍ نَفْبَةً عَلَى الْخَمْسِ مِنْ بَعْدِ الْمَفَاوِزِ وَالرَّبْعِ^(١)

. . .

ومنها :

سَأَعْرِضُ إِنْ نَاجَيْتُ مِنْ غَيْرِكُمْ قَتَى
وَأَجْعَلُ زَوْأً مِنْ بَنَانِي فِي سَمْعِي^(٢)

. . .

ومنها :

أَبَيْتُ فَلَمْ أَطْعَمْ نَقِيعَ فِرَاقِكُمْ مَطَاوَعَةً حَتَّى غَلِبْتُ عَلَى النَّشْعِ^(٣)

. . .

ومنها :

لَبِستُ حَدَادًا بَعْدَكُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ
مِنْ الدُّهْمِ لَا الْفُرَّ الْحَسَانَ وَلَا الدَّرْعَ^(٤)

(١) تبة : جرعة . والحس والرّبع : من أظلام الإبل . (ج)

(٢) الزوّ : الزوج . (ج)

(٣) النقيع : ما هج في ماء أو ما يجري مجراه . والنشع : الإسقاط . (ج)

(٤) الدم : السود . والنر : البيض . والفرع : قيل : التي تسود أوتالها ويبيض ساثرها

وقيل : والنر ، لبة ثلاث عمرة وأربع عشرة وخمس عشرة . والفر : ثلاث ليل

من أول الشهر ، والفرع : الثلاث من ليلالي الشهر بعد البيض . ولال الحارزغمي :

ثلاث ليل أول الشهر درع وثلاث من آخره درع . (ج)

ثم تمنى في بقية هذه القصيدة أن يحجم له أجله في العراق ، حتى لا يفارق أهلها ، وتتمى للنوق التي حملته من العراق أن تتحرر ويطبخ لحما في الخلم (١) .

ومنها قوله من قصيدة أجاب بها ابن فورجة : (٢)

وَرَدْنَا مَاءَ دِمَجْلَةٍ خَيْرَ مَاءٍ وَزُرْنَا أَشْرَفَ الشَّجَرِ النَّخِيلَا
وَزَلْنَا بِالْغَلِيلِ وَمَا اسْتَفَيْنَا وَغَايَةَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَزُولَا

ولا أعلم شاعراً زار مدينة من المدن ما أكثر من الثناء عليها وعلى أهلها ، ومن الحنين إليها وإليهم مثل أبي العلاء . فإنه أكثر من الثناء والمدح على بغداد وأهلها ، واعترف لهم بكل جميل ، وأكثر اللوعة والحزن على مفارقتها ، وتتمى أن يموت فيها في نظفه ونثوره . وقد رأيت مثلاً من ذلك .



(١) الخلم : أن ينحر الجوزور ويطنخ لحماً يذبحها ويطرح فيها توابل ثم يفرغ في جلد .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٩٩ .

المقالة الثانية الثانية

حياة أبي العلاء في المعرة

بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ بَغْدَادَ

قدمنا شيئاً من الكلام على حياة أبي العلاء ، من أول نشأته إلى أن عاد من بغداد . ورافقناه في أكثر المواقف التي استطعنا معرفتها ، وروّعنا المشاهد التي أمكننا وصفها . وألمنا بما وقع له وعليه في هذا الطور ، إلى أن رجع من بغداد ، وألقى عصاه في وطنه . والآن نذكر ما انتهى إلينا من أخباره وأطواره ، وما اكتنف حياته كلها إلى أن فارق الحياة . ولما كان المال أساس كل شيء في هذه الحياة ، وبسبب اختلافه في القلة والكثرة ، تختلف أحوال الإنسان ، رأينا أن نقدم الكلام على ماله ، فنقول :

ماله

اختلفت كلمة القوم في مال أبي العلاء . فقال القنطري^(١) : « لم يكن من ذوي الأحوال في الدنيا ، وإنما خلف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ... وكان الذي يحصل له في السنة مقدار ثلاثين ديناراً ، قدر لمن يخدمه النصف ، وأبقى النصف الآخر لمؤنته » .

وقال الذهبي وابن حجر في لسان الميزان نحواً من هذا^(٢) . وسيأتي أنه كتب الرسالة السندية إلى سند الدولة في معنى خراج على ملكه في

(١) تحريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ عن إنباء الرواة - القنطري .

(٢) تحريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٠ ، ٣١٢ ، عن تاريخ الاسلام - للذهبي -

ولسان الميزان - لابن حجر .

معرفة النعمان ، ولم أر أحداً عين هذا الملك ، ولا ذلك الوقف . وسأني أيضاً أن له داراً قوراء ، وخداماً ونحو ذلك . وكل هذا كلام مجمل غامض قائم على الظن .

أما أبو العلاء ، فقد قال في جوابه إلى داعي الدعاء (١) : « وما حدثني علي ترك أكل الحيوان أن الذي لي في السنة نيفٌ وعشرون ديناراً ، فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب ، بقي مالا يعجب » .

والنصف ما زاد على العقد ، ولم يبين مقداره ، ولا يبين الجهة التي يحصل له منها هذا المقدار ، هل هي ملك أم وقف ؟ . ولما كان هذا المبلغ قليلاً لا يبد حاجات أبي العلاء لأنه كان يجري على كتابه أرزاقاً معينة ، وينفق على طلابه ، ويعطي قاصديه ، وهم أكثر ، كانت يعد هذا المال كلاً ماله . ولذلك كان يشكو قلة المال حيناً ، وينفيه حيناً آخر ، كقوله من أبيات قالها بعد أن وهب له المعرة صالح بن مرداس : (٢)

مَا كَانَ لِي فِيهَا جَنَاحٌ بَعُوضَةٌ وَاللَّهُ أَلْبَسَنِي جَنَاحَ تَفَضُّلٍ
وقوله : (٣)

مَاذَا تُرِيدُونَ لَا مَالٌ تَيْسَّرَ لِي فَيُسْتَمَاحُ وَلَا عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ

وقوله في كتابه إلى صدقة بن يوسف : (٤) « ولم أكن صاحب ثروة فكيف الحُداء بغير بعير .. » وسأني في الكلام على المال طائفة من كلامه في ذلك .

(١) نعرف القدماء بأبي العلاء م ١٢٥ ، ٣١٦ ، عن إرشاد الأريب - باقوت - ولسان الميزان - لابن حجر .

(٢) الزوايات م ٢٢٠ ، وفيها « ألبسهم » .

(٣) الزوايات م ٣١٣ .

(٤) نعرف القدماء بأبي العلاء م ٢٥٤ عن مالك الإجاز - العمري .

فالقدي يمكن التعويل عليه ، هو أن ماله نصف وعشرون ديناراً ، يأخذ خادمه بعضها ، والباقي يسد به رمقه ، ويؤدي بها حقوق أضيافه وقاصديه ، ويجري على كتابه ، ويقوم بكل ما يحتاج إليه منها .

طعام

بعد أن علمنا ما كان لأبي العلاء من المال في السنة ، لانتكر أن نراه يعيش عيشة الشظف والحشوة ، ويصاحب صوم الدهر منذ بلغ ثلاثين عاماً ، ويقتصر على النبات حتى صار ذلك طبعاً له . وقد قال في رسالته إلى داعي الدعاة ^(١) : « فلما بلغ العبد الضعيف العاجز اختلاف الأفوال ، وبلغ ثلاثين عاماً ، سأل ربه إنعاماً ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يقطر في السنة ولا في الشهر إلا في العيدين ... وظن اقتناعه بالنبات ثبت له جميل للعافية فاقترعت على فول وبُلسن ، ومالا يعذب على الألسن ... » .

وقال في رسالة ثانية إليه ^(٢) : « فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة في التوسع ومعاردة الأطعمة ، وتركها صار له طبعاً ثانياً . وإنه ما أكل شيئاً من حيوان خماً وأربعين سنة » .

وذكر الرحالة الفارسي ، أنه لم يكن يأكل غير نصف مَنَرٍ ^(٣) من خبز الشعير ، وربما أكل طعاماً بلا إدام لبلا .

(١) ياقوت ١ : ١٩٩ ، لسان الميزان ١ : ٢٠٦ . (ج) وفي تعريف القدماء ص ١٢٣

عن الإرشاد - ياقوت - « فلم يقطر في السنة ولا الشهر إلا العيدين » .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٣٢ عن إرشاد الأريب - ياقوت .

(٣) الن : الذي يوزن به رطلان ، والرطل ١٢٨ درهماً تقريباً (ج) تعريف

القدماء ص ٤٦١ عن سفرنامه - لناصر خسرو ، وفي النص اختلاف .

وفي (لسان الميزان) (١) : « بقي خساً وأربعين سنة ، لا يأكل اللحم ولا البيض ولا اللبن ، ويقتصر على ماتنتب الأرض ، ويلبس خشن الثياب ، ويدوم الصوم » . وذكر ابن الجوزي في (المنتظم) ، ويقوت نحواً من هذا . وقال القفطي والصندي (٢) : « كان أكله العدس إذا أكل مطبوخاً ، وحلاوته اللبن » . وسيأتي أنه أكل دبا .

هذا ما قاله العلماء في طعامه ، وما نقلوه عنه ، وقد أشار في شعره إلى ما كان يرتضيه من الأطعمة ، وما كان يأباه منها . فمن الأول قوله :

يُقْنِعْنِي بِلَسْنٍ يُعَارَسُ لِي وَإِنْ أُتْنِي حَلَاوَةٌ قَبْلَسٌ^(٣)
فَلَسٌ مَا اخْتَرْتَ إِنْ أُرْوَحَ مِنْ يَسَارٍ قَارُونَ عِفَّةٌ وَقَلَسٌ^(٤)

. . .

وقوله : (٥)

وَقُوَّتِي الشَّيْءُ أَمَى مِثْلَهُ فَصِيحُ هَذَا الْخَلْقِ وَالْأَلَكُنُ

. . .

(١) تعريف القدماء بأبي الخلاص ٣١٥ عن لسان الميزان — لابن حجر .

(٢) تعريف القدماء بأبي الخلاص ٣١ ، ٢٧٤ عن إنباء الرواة — القفطي ، والوافي — الصندي .

(٣) البلس : العدس أو حب مثله ، والبلس : اللبن (ج) والبيتان في الزرويات ٥ ص ٣٢٦ ، وفيها « فإين » .

(٤) لس : أكل . ولدت الدابة الحفيس : تناوله وفتته يحطنها ، والفلس : عجم البيل (ج) .

(٥) الزرويات ٥ ص ٢٦٣ ، والألكن : من لا يقيم الرية لجلة لانه .

وقوله : (١)

أَقْفَرْتُ مِنْ جَهَنِّ قَفَرٍ مَفَازَةٍ وَطَعَامٍ لَيْلٍ جَاءَ وَهُوَ قَفَارُ

. . . .

وقوله : (٢)

وَمَا عِرْسِي حَوْرَاءَ وَلَا خُبْرِي حَوَارَى

. . . .

وقوله :

وَإِذَا غَلَا الْبُرُّ النَّقِيُّ فَشَارِكِ الْفَرَسَ الْكَرِيمَ وَسَاوِطِرْفَكَ تَمَجُّدًا^(٣)
وَأَجْعَلِ لِنَفْسِكَ مِنْ سَلِيطٍ ضِيَاءَهَا أَدَمًا وَنَزَرَ حَلَاوَةً مِنْ عَنَجَدٍ^(٤)

. . . .

(١) أقر الرجل : صار إلى الفقر ، وهو الخلاء من الأرض ، وأقر : أكل طعامه بلا إدام . (ج) والبيت من ضبعة في الزويات هـ س ١٣١ .

(٢) حوراء : من الحور ، وهو شدة سواد اللثة في شدة ياضها في شدة ياض الجسد . والحوراء : البيضاء ، والحواري : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخضره . (ج) الزويات هـ س ٢٨ .

(٣) البر : الحنطة ، والطرف : الفرس ، وللراد مساوانه في أكل النجر . (ج) والبيتان في الزويات هـ س ١١٣ .

(٤) السليط : الزيت ، والنجد كجفر وقفذ : حب الصب والزبيب ، والإدام : ما يؤتد به مائماً كان أو جليداً ، وجهه أدُم مثل كتاب وكتب ويسكن لتخفيف فبامل ساملة اللرد ، ويجمع على آدام ، مثل قل وأقال (ج) .

وقوله : (١)

يَكْفِيكَ أَذْمًا سَلِيطًا أَرِيقَ لَهُ دَمٌ وَلَا مَسَّ رُوحًا إِذْ جَرَى الْمُ

* * *

وقوله : (٢)

فَاتَرَكْ لِأَهْلِ الْمَلِكِ لَذَائِهِمْ فَحَسَبْنَا الْكَفَاءَ وَالْأَخْبَلَ

* * *

وقوله : (٣)

طَهَتْ لَكَ الشَّمْسُ مَا يُغْنِي أَخَادَعَةً عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْأَرْضِ طَاهُونًا

* * *

وقوله : (٤)

غَدَوْتُ أُعِدُّ الْحَرْفَ سَعْدًا كَأَنِّي ظَلِيمٌ تَغْدَى رَاضِيًا بِبَيْدِ

ومن الثاني قوله (٥) :

أَبَى اللَّهُ أَكْلِي دَرَّ ضَأْنٍ وَمَاعِزٍ وَإِذْ خَالِي الْأَمْرَ الْمَضِرَّ عَلَى السَّخْلِ

* * *

(١) القزوميات ٨ ص ٢٣٢ .

(٢) الأجل كأحد وإثمد : اللوياء (ج) القزوميات ٨ ص ٢٠٠ .

(٣) طهت : طبخت وأضجت ، والدعة : الحفض في العيش والراحة . (ج) القزوميات ٨

ص ٢٦٤ .

(٤) الحرف : حب الرشاد ، وهو حب كالحردل ، والظليم : ذكر النعام ، والميد :

المنزل . (ج) القزوميات ٨ ص ١٠٦ .

(٥) الدر اللبن ، والسخل جمع سحلة : ولد الشاة من الضأن والمز . القزوميات ٨

ص ٢١٠ وفيها : « أبى الله أخذي » .

وقوله : (١)

لَا أَشْرَكَ الْجَدْيَ فِي دَرٍّ تَعِيشُ بِهِ وَلَا أُرْوَعُ بَنَاتِ الْوَحْشِ وَالضَّانِ

. . .

وقوله : (٢)

لَا أَفْجَعُ الْأُمَّ بِالرَّضِيعِ وَلَا أَشْرَكَ هَذَا الْفَرِيرَ بِالْبَنِ
أَقْتَاتُ مِنْ طِيبِ النَّبَاتِ وَهَلْ يَسْلَمُ عُودُ الْفَتَى مِنَ الْأَبْنِ (٣)

. . .

وقوله : (٤)

تَقِ اللَّهَ حَتَّى فِي جَنَى النَّخْلِ سُرَّتَهُ فَمَا جَمَعَتْ إِلَّا لَا تَنْفُسُ النَّخْلُ

. . .

وقوله : (٥)

أَعْرِضْ عَنِ الثَّوْرِ مَصْبُوعًا طَائِبُهُ بِالزَّعْفَرَانِ إِلَى ثَوْرٍ مِنَ الْأَقْطِ

. . .

(١) الجدي : الذكر من أولاد المزي . (ج) الزوميات هـ ص ٢٧٧ .

(٢) الفرير : ولد البقرة الوحشية . (ج) البتان في الزوميات هـ ص ٢٨١ . وفيها : « في البن »

(٣) الأبن جمع أبة : الطعة ، وفي الزوميات « طب النها » ولها تصغير .

(٤) الجنى : السل ، وشاره بثوره : استخرجه من الرقة واجتاه . (ج) الزوميات هـ

ص ١٩٤ .

(٥) الثور : ذكر البقر ، والقطة الطيبة من الأقط ، وهو لبن جامد متعبر ،

وأطاب المزور : خيره . (ج) الزوميات هـ ص ١٧٩ .

وقوله : (١)

فَلَا تَأْكُلْنَ مَا خَرَجَ الْبَحْرُ ظَالِمًا وَلَا تَبْنَعِ قُوتًا مِنْ غَرِيضِ الذِّبَانِ

. . .

إلى آخر هذه الآيات الآتية في الرق بالحيوان .

ترك أكل لحم الحيوان وما تولد منه

يحدثنا أبو العلاء أنه ما أكل حيواناً ، ولا ماتوك من حيوان ، خمساً وأربعين سنة ، وظل منشغلاً في اجتناب اللحم إلى أن مات . وقد ذكر ياقوت^(٢) ج ١ ص ١٧٠ ، أنه مرض مرة ، فوصف له الطبيب فرءوجاً ، فلما جهء به لسه يده وقال : استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟ . وفي (نزهة الألباء) : و وصف لمريض فرءوج

سبب ترك اللحم

ذهب بعض الأدباء إلى أن أبا العلاء كان يرمي ، فكان لا يأكل الحيوان ولا ماتوك منه تدبناً واعتقاداً . وذهب بعض آخر إلى أنه كان لا يأكل ذلك زهادة .

وذكر أبو العلاء نفسه ، في رسالته إلى داعي الدعاة ، أن السبب الأول الذي حمله على ترك أكل الحيوان وما تولد منه ، هو الرأفة به ، لأن الحيوان كله حساس يقع به الألم ، ولم يوصل إلى اللحوم إلا بإيذاء الحيوان ، وأنه تركه اجتهاداً في التعبد ورحمة للذبوح . وأن مما حثه على ترك أكله

(١) الفرض : الطري . (ج) القزويني ص ٨٤ ، وفيها : « أخرج الآباء » .

(٢) انظر سبب الأدباء .

أن الذي له في السنة نيف وعشرون ديناراً ، يأخذ بعضها خادمه . وقد أشار تليذه علي بن ممام المعري بقوله الآتي في رثائه (١) :

إِنْ كُنْتُ لَمْ تُرَقِ الدَّمَاءَ زَهَادَةً

إلى أن ذلك كان منه زهادة ، وقال ابن الوردي في تاريخه ج ١ ص ٣٥٨ أن قول تليذه : « لم ترق الدماء زهادة » ، يدفع قول من قال : إنه لم يرق الدماء فلسفة ونسبة إلى رأي الحكماء . وتليذه أعرف به من هو غريب يرجع بالقب وسأني تنه القول في هذا عند الكلام في دينه وزهده . وسأني أنه لم يأكل من البطيخ الذي استقدمه من حلب للجماعة ، وأنه كان يتناول ما يقوم بأوده من أيسر الموجودات .

سرايه

لم تكن زهادة أبي العلاء في اللاذ منحصرة في ترك اللحم واللبن ونحوهما يتولد من الحيوان ، بل تعدى ذلك إلى هجر الأثربة وما يتصل بها من لذة وسرور ، وحكم على نفسه في ذلك حكماً قاسياً . فلم يحدثنا للتاريخ أنه شرب خمرأ أو نبيذاً ، ولا شهد مجلساً تدار فيه كؤوس الخمر . بل كتابه اللزوم يحدثنا أنه يعتقد في الخمر أنها باب كل بلية ، وأنها سم يودي باللب ، وأنها تجر ملاحاة الصديق ، وأنها ، وأنها ولو كانت حلالاً لما شربها ، لأنها تخفف ميزان حله . وأما قوله ، وهو في العراق :

تَعَمَّيْتُ أَنْ الْخَمْرَ حَلَّتْ لِنَشْوَةٍ

فلا يناقض اعتقاده في الخمر ، لأنه أراد بهذه الآيات أن يبين ما بلغ به الضيق والوحدة ، فتنى أن تحمل الخمر لتخفف من عنائه شيئاً ، على كرهه لها ، والتسني لبس بفعل ، وإنما هو طلب مسخيل أو مافي حكه في الغالب . وسأني في الكلام على مرضه أن ابن أخيه أياه بقدرح من سكتجين ، حين حضرته الوفاة ، فامتنع . فعلف ابن أخيه أن لابد من أن يشربه ، فأجابه بيتين .

(١) عجز البيت : « فلقد أرتت اليوم من جني دما »
انظر تريف القدماء ص ٢٥ عن ياقوت .

آتيه

ولما كان أبو العلاء زاهداً في المطعم الطيب والمشرّب الطيب ، كان زاهداً في اتخاذ الآنية النفيسة ، معرضاً عن اقتناء الفاخر منها ، ولقد بين في شعره ما كان يرتضيه وما لا يرتضيه منها فقال : (١)

وَنَشْرَبُ الْمَاءَ بِرَاحَاتِنَا إِنْ لَمْ يَكُنْ مَا بَيْنَنَا جُبُلُ

. . .

وَارْتُسِمُ بِفَخَّارٍ شَرَابُكَ لَا تُرْدُ قَدَحَ الْأَجِينِ وَلَا إِنَاءَ الْعَسَجِدِ (٢)

. . .

مِنْ مَذْهَبِي أَنْ لَا أَشْدَّ بِفِضَّةٍ قَدَحِي وَلَا أَصْنِي لِشَرَبِ مُعَوِّجٍ (٣)

. . .

فَعَجَّ يَدُكَ الْيُمْنَى لِشَرَبِ طَاهِرٍ فَقَدْ عَظِيفَ لِلشَّرَبِ الْإِنَاءُ الْمُعَوِّجُ (٤)

. . .

(١) الجبل : قدح عظيم من خشب (ج) الزرويات هـ ص ٢٠٠ .

(٢) الزرويات هـ ص ١١٢ .

(٣) شدة : أوقه وقواه . وصنى إليه : ماله ، وأصنى إليه رأسه : أماله . ومعوج :

ركب به الساج وهو ناب البيل أو عظه . (ج) الزرويات هـ ص ٧٨

ونبها : ألا أشد هـ .

(٤) الزرويات هـ ص ٧٣ .

قَدْ شَرِبْتُ الْمِيَاهَ بِالْخَرْفِ الْوُخْ — شِ فَأَغْنَى عَنْ مُحْكَمَاتِ بَهْرَشِ^(١)

ومنها يتبين أن إناءه الذي يشرب به من خشب أو فخار ، فإن لم يكن أحدهما شرب بيده ، ولا يتخذ قدحاً من فضة أو ذهب ولا مذهباً ولا مَعَوِجاً .

وقد وصف الماء الذي كان يشربه في الشتاء ، والكوز الذي كان يشرب به في الصيف فقال : (٢)

وَالْمَاءُ وَرَدِّي لَا تَزَالُ نَوَاجِذِي فِي مُنْتَضَاهُ سَوَاحِبًا كَأَوْازِمِ
يُنْفِسِي وَيُصْبِحُ كُوزُ نَائِمٍ فِضَّةٍ مَلَأَتْ قَمَّ الصَّادِي كُسُورَ دَرَاهِمِ

يقول : إنه يشرب الماء وقد جمد بعضه لشدة البرد ، فنواجهه ساجدة فيه عاضة عليه . والكوز قد حمد عليه الماء ، فكانه معول من فضة ، فإذا شرب امتلأ منه فضة ككسور الدراهم .

لباس وأثاث وفرائ

ولد الإنسان عارياً من كل ساتر ، ثم استنظم أن تكون سوائه هادية ، لأن الله لم يجعل لها في بنيت ما يسترها ، فاتخذ لها لباساً يسترها من جهة ، وبقية أذى الحر والبرد ، ويدفع عنه عادية الحيوان والطبيعة من جهة ثانية . ثم أخذ الناس يتنافسون في الملابس ، ليظهر فضل الغني على الفقير ؛ ولم

(١) الوحش : الردي . والحوش : الحدش . (ج) الزرويات ٥ ص ٣٢٨ .

(٢) شروح سقط الزند : ٤ ص ١٥١٨ ، والأوازم : العاضة ، يقال ، أزم عليه إذا عض .

يقتصروا في ذلك على الأحياء ، بل تعدى إلى اكفان الموتي كما سيأتي .
وابو العلاء يرى أن الغاية المقصودة من اللباس تحصل بأي نوع كان ، وانخاذ
اللباس الفاخر ، فيه كسر لقلب التقير وإسراف فيما يمكن الاستغناء عنه ،
ولذلك كان لباسه خشن الثياب من القطن . وكان فرائشه من لباد في
الشتاء وحصير من البردي في الصيف . وقد قص علينا في شعره ما كان
يختاره من لباس وأثاث ، وهو يمثل صورة قاضية من الزهد ألزم بها نفسه ،
من ذلك قوله :

لَمْ يَكُنْ لِي عَرْشٌ فَيَسْلَمَ عَرَشِي كَمْ جُرُوحٍ جَرَحَتْهَا ذَاتُ أُرْشٍ^(١)
مُقْنِعِي فِي الزَّمانِ سِتْرِي وَدِفْئِي مِنْ لِبَاسٍ رَاقٍ الْعِيونَ وَفَرْشٍ^(٢)

وقوله : (٣)

لِبَاسِي الْبُرْسُ فَلَا أَخْضَرُ وَلَا خَلُوقِي وَلَا أَدَكُنُ

وكان يلبس نوماً ليست له بطانة ، فيقاسي في الشتاء من شدة البرد

(١) العرش : البيت والمقر وسرير الملك ، وشبه بيت من جريد يحمل فوقه الثام .
وظم : يحدث فيه خلل . والأرش : القصاد ، ثم قيل ليدية الجراحات : أرش . (ج)
البيت والذي يسه في اللزومات ٥ ص ٣٢٨ .

(٢) العرش : الثوروش من متاع البيت . (ج)

(٣) البُرس : القطن ، والخلوق : نبة إلى الخلدوق ، وهو طيب يتخذ من الزعفران
وغيره وتطلب عليه الحمرة والصفرة . والدكنة : لون يضرب إلى النبرة بين الحمرة
والسواد وقيل يضرب إلى السواد ، دكين كفرح فهو أدكن . (ج)

اللزومات ٥ ص ٢٦٣ .

ملا يحتمله غيره ، ولذلك كان يتنى انقضاء الشتاء ، وقدم الربيع والصف
ليدفا ، كما يصور ذلك قوله : (١)

أَجَاهِدُ بِالظَّهَارَةِ حِينَ أَشْتُو وَذَلِكَ جِهَادٌ مِثْلِي وَالرِّبَاطُ
مَضَى كَأَنْتُونُ مَا اسْتَعْمَلْتُ فِيهِ حَمِيمَ الْمَاءِ فَأَقْدَمَ يَأْسُبَاطُ
تُشَابُهُ أَنْفَسَ الْحَشَرَاتِ نَفْسِي يَكُونُ لَهْنٌ بِالصَّيْفِ إِرْتِبَاطُ (٢)

وسياتي أن عبد الله بن الوليد بن عريب رأى أبا العلاء قاعداً على
سجادة ابد يبيع . وقال الرحالة ناصر خسرو : « إنه تردى بوجد » . ويأتي
عن (النور السافر) أن لأبي العلاء سريراً يجلس عليه . ولكن لم يبين لنا
نوع ذلك السرير . وكلامه في السقط يدل على أن له بساطاً وغرفة انزلت
فيها ناره مع ضعفها ، وذلك قوله : (٣)

وَلَدَيَّ نَارٌ لَيْتَ قَلْبِي مِثْلُهَا فَيَكُونُ فَأَقْدَ وَقْدَةٍ وَسَخَائِمِ
عَبَثَتْ بِثَوْبِي وَالْبِسَاطِ وَغَادَرَتْ فِي نَفْرَقِي أَثَرًا كَوَسْمِ الْوَاسِمِ

(١) الجهاد : محاربة العدو ، والمبالغة ، واستفراغ ماني الوسع والطاقة من قول أو قل ،
والظاهرة في الثوب : ماعلا وظهر ولم يل الجمد قبيض البطانة ، وهي ماوئيل الجمد
منه وكان داخلا . أشتو : أقيم في الشتاء . والرباط : ملازمة نحر العدو . (ج)
الزرويات هـ س ١٧٧ .

(٢) الحشرات : هوام الأرض . (ج)

(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ س ١٥٢٠ ، والخاتم : مفرداها سغبة ، وهي الدواة
والحفد . وفي البطليوسي : « كوسم الراسم » .

مكة

ما وقفنا عليه من تاريخ أبي العلاء لا يصور للباحث حياته تصويراً كاملاً يجعله كأنه يراه في مطعمه ومأبى ومسكنه وغير ذلك مما يقتضيه البحث . وزادنا ضعفاً على إلمامه ما في أقوال المؤرخين والعلماء من التناقص في ثروة أبي العلاء وبساره . ولم يصف أحد ممن زاره الدار التي كانت يسكنها ، إلا أن أبا الفرج محمد بن أحمد قال : « إن لأبي العلاء داراً حسنة » . كما سيأتي . وذكر العلماء في قصة الضيوف الحزين الآتية ، أنه أنزلهم في دار الضيافة ، ولم يُبين ما هي ولا إن هي . ومنهم من جعل له عبداً وخدماء كثيرة ، وهذا يحتاج إلى مسكن واسع . ومنهم من جعله حاكماً في المرة ، وجعل سكانها خدماً له . ونحو ذلك من المبالغات والإمراقات القائمة على التخيل والظن . وهذا يقتضي أن تكون له دار حسنة فوراء . والغريب الملائم لحياة أبي العلاء وزهده في كل شيء ، أن تكون داره مشابهة ببقية النواحي من حياته . وكلامه في (الفصول والغايات) ص ٤٧ يدل على أنه لبس له مسكن يأوي إليه ، وذلك حيث يقول : « الله بملك الملوك ، وأنا معترفٌ مُقِرٌّ أن تُشَدَّ الدنيا مَقِيرٌ ^(١) » ، وأن غنيها مقتقر ، أعوزني فيها مسكن آرزُ إليه ^(٢) وأمسكن . وتبوءات الناسجة بين الثاب . ومن الغريب أن يدفن في دويحة من دور أهله ، أو في ساحة منها ، ولا يدفن في داره التي وصفها أبو الفرج . وذكر الذهبي وابن حجر ^(٣)

(١) الفر : الصبر وهو عصاة شجر مر .

(٢) آرز : أوى ، والناسجة : دودة الفر أو الضفكوت ، والثاب جمع مثابة : المنزل . (ج)

(٣) تحريف القسما بأبي العلاء ص : ١٩٢ ، ٣١٢ عن تاريخ الإسلام - للذهبي -

ولسان الميزان — لابن حجر .

أن لأبي العلاء مفارقة كان ينزل إليها ويأكل فيها منفرداً ، ويقول : « العلى عورة ، والواجب استتاره في أحواله » . وقال القفطي مرة : مرداب ، ومرة : مفارقة . ولا أرادت الحكومة السورية بناء ضريحه الجديد ، وجدوا مفارقة تحت قبره ، فلزوها تراها ولم يحفروها ليعلموا ما فيها . ولا نعم إن كانت هي المفارقة التي أكل فيها ديساً أم لا .

عفافه وإياؤه

لا يعرف التاريخ شاعراً ولا عالماً قليل المال كثير العفاف والجود مثل أبي العلاء ، فقد كان يعيش عبثاً الشظف وينجلد ، ولا يبذل ماء وجهه بدوأل ، ولا يمد يده لقبول صلة أو منحة ، ولو كانت من أمير أو ملك ، بل يكتفي بما يجبره به الله كما قال : (١)

وَلَمْ يَخْبُنِي أَحَدٌ نِعْمَةً وَلَكِنْ مَوْلَى الْمَوَالِي حَبَاً

وأبو تمام والبغري والمتنبى وأمثالهم ، كانوا يجوبون الآفاق ، ويستندون الأكف بعد أن أصبح كل منهم يملك من الأموال أو الاقطاع والضياع شيئاً كثيراً . وأبو العلاء ، يعرض عليه الخلفاء والأمراء وغيرهم أموالاً جمة ، فيأبى على شدة فافته وحاجته .

فقد ذكر ياقوت وابن العديم أن المستنصر السنوي على مصر أحد العبيدين بذل لأبي العلاء ما يبيت المال بعمرة النعمان من المال الحلال ، فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

(١) اللزوميات ٥ ص ٤٤ .

كَأَنَّمَا غَاثَةٌ لِي مِنْ غِنَى فَقَدْ عَنْ مَعْدِنِ أُنْشَوَانِ
سِرْتُ بِرَغْمِي عَنْ زَمَانِ الصَّبَا يُعْجِلُنِي وَقْتِي وَاكْوَانِي
صَدَّ أَبِي الطَّيِّبِ لَمَّا عَدَا مُنْصَرِّفًا عَنْ شُغْبِ بَوَّانٍ^(١)

وكتب داعي الدعاء بمصر إلى تاج الأمراء ، ثمال بن صالح ، وكانت
إذ ذاك نائباً عن العبيدين بحلب وجمرة النعمان ، بأن يجري لأبي العلاء
ماتدعو إليه حاجته ، بجميع مهامه وأسبابه ، وما يحتاج إليه مما هو بلبقة له
من ألد الطعام ، وأن يخفف حرمة ويرفع منزلته عند الخاص والعام ،
فامتنع من قبول ذلك .

(١) البيت الثالث في رواية ياقوت ، وفيه بعدها : وقال :

لا أطلب الأرزاق والى سولى ' بينى على رزقي
إن أعطى جنس القوت أء لم أن ذلك ضف حفي

وفي نسخة (الإصاف) لابن السدي ، البتان الأولان فقط . والآيات الخمسة ليست في
ديوانه . وغائة : بلاد يكثر فيها الذهب ، وقد ذكرها أبو العلاء ، في لزوم
ملا يلزم فقال ص ١٢١ :

لي القوت فليفر سرتديب حظها من السر أو يكثر بئانه تبرها
وقال ياقوت : أنها مدينة كبيرة في جنوبي بلاد الغرب ، متصلة ببلاد الودان ،
يجمع إليها التجار ، ومنها يدخل في القازات إلى بلاد التبر . وقد ذكر في « تبر »
أن الذهب ينبت في رمل تلك البلاد ، وبين كيف يأتي به التجار منها فراجعه .
وأشوان : مدينة وكورة في آخر صعيد مصر ، وأول بلاد النوبة ، في جبالها
مقاطع المد التي بالإسكندرية ، وزعم بعضهم أن فيها معادن الذهب . وسرتديب :
جزيرة عظيمة في أقصى بلاد الهند . قال ياقوت : وفي سرتديب الجبل الذي هبط
عليه آدم (ص) ، والياقوت الأحمر على منه الجبال ، تحدره السيول والأمطار
وفيه ألاس ومنه يجلب الود . (ج)

انظر في ذلك تعريف القدماء بأبي العلاء ، ص ٩٩ ، ٦٥ . عن الارشاد لياقوت ، والإصاف
والتحري - لابن السدي .

وكتب الوزير الفلاحي الى عزيز الدولة أبي شجاع فانك متولي حلب وأعمالها ، بأن يحمل أبا العلاء الى مصر لينبئ له دار علم يكون مقدما فيها ، وسمح له بخراج معرة النعمان في حياته وبعده . فصار عزيز الدولة إلى المعرة ، واجتمع بأبي العلاء ، وقرأ عليه السجل فاستهله وكتب الى الوزير الفلاحي يستغفیه من ذلك ، فأعفاه وسمح بتوك ذلك كله .

وقال أبو اليسر شاکر بن عبد الله المعري التنوخي في أبي العلاء :
« لم يكن من شأنه أن يلتبس من أحد من خلق الله شيئا ، ولم يدح أحداً
لأخذ عطاء أو جائزة ، ولم يقبل هدية أو صلة من شريف » . وقد صرح
في رسالته الى أهل المعرة بقوله ^(١) : « ما سافرت أستكثر من النشأ . . »
وقال فيها عن البغداديين : « و عرضوا علي أموالهم عرض الجد » ، فصادفوني
غير جَدَلٍ بالصفات ، ولا هَشٍّ الى معروف الافوام » . وصرح وهو في
بغداد بقصيدة قالها فيها بقوله : ^(٢)

أَنْبِئُكُمْ أَنِّي عَلَى الْعَهْدِ سَالِمٌ وَوَجْهِي لِمَا يُبْتَذَلُ بِسُؤَالِ

وقال في قصيدته إلى أبي حامد الإسفرائيني : ^(٣)

وَلَمْ أَكُنْ وَرَسُولِي فِي رِسَالَتِهِ مِثْلَ الْفَرَزْدَقِ فِي إِرْسَالِ وَقَّاعِ

وقال في قصيدته ^(٤) إلى التنوخي ، يذكر فيها بغداد ورجلها :

(١) رسائل أبي العلاء المعري - لثامين عطية - ص ٨٣

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٠٥

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٦٠ وفيها : « ورسولي حين أرسله . . »

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٣٩

رَحَلْتُ لَمْ آتِ قِرْوَانًا أَوْ لَهٗ وَلَا الْمُهَذَّبُ أَبْغَى النِّيلَ تَقْوِيَتَا
وَالْمَوْتَ أَحْسَنُ بِالنَّفْسِ الَّتِي أَلْقَتْ عِزَّ الْقَنَاعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ الْقَوَاتَا

وذكر في مقدمة السقط ما يدل على أنه لم يمدح أحداً ابتغاء ثواب أو
صلة ، وذلك حيث يقول : (١) « ولم أطرُقْ مَسَامِعَ الرُّسَاءِ بِالنَّشِيدِ ، وَلَا
مَدَحَتْ هَالِباً لثَرَابٍ ، وَإِنَّا كَانُوا ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى الرِّيَاضَةِ وَامْتِحَانِ السُّوسِ . » (٢)
فخذ في الذي ستر بضعته (٣) من قوام العيش ، ورزق شعبة من القناعة
أوفت بي عى جزيل الوفرة . كثيراً ما كان يصرح بالقناعة والعدم ، ويتعبر
بالقناعة والصبر في مثل قوله في اللزوم : (٤)

أَعَانَنَا اللَّهُ كُلُّ فِي مَعِيشَتِهِ يَلْقَى الْعَنَاءَ قَدَرِّي فَوْقَ نَادِبِسْ
مَاذَا تُرِيدُونَ لَا مَالَ تَيْسَّرَ لِي (٥)
وقوله : (٦)

الْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ أَصْبَحْتُ فِي دَعَاةٍ أَرْضَى الْقَلِيلَ وَلَا أَهْتَمُّ بِالْقَوَاتِ
وقوله : (٧)

لَكِنْ أَقْضَى مُدَّتِي بِتَقْنَعٍ يُغْنِي وَأَفْرَحُ بِالْيَسِيرِ الْأَرْوَاجِ

(١) شروح سبط الزند : ق ١ ص ٢٢

(٢) السوس : الطيبة . (ج)

(٣) النعة : البلغة من العيش والقليل منه . . (ج)

(٤) اللزومات ٥ ص ٢٩٣ ، قال : دري ديس ، ودّيس : اسم الساء .

(٥) هبزه : ه فبفتح ولا علم فيمنبس .

(٦) اللزومات ٥ ص ٦٦ .

(٧) اللزومات ٥ ص ٧٨ .

وقوله : (١)

مَا سَرَّنِي بِقَنَاعَةٍ أُوتِيْتُهَا فِي الْعَيْشِ مُلْكًا غَالِبٍ وَذِمَارٍ

وَأَحْيَانًا يَتَعَدَّى الْجُوعَ قُرْبَةً : (٢)

إِذَا خَمِصْتُ قَلِيلًا عَدَدْتُ ذَلِكَ قُرْبَةً

وَأَحْيَانًا يَكُمُ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَشْتَبِهَ حَادَهُ ، كقولهِ : (٣)

إِنِّي أُوَارِي خَلْطِي فَأَرِيهِمْ رِيًّا وَفِي سِرِّ الْقَوَادِرِ أُوَارُ

وَيُعْتَقَدُ أَنَّ التَّقَنُّعَ يَشْتَقِي إِلَى النَّفْسِ كَمَا يَشْتَقِي عَلِيمُ الْجِهَادِ فِي الْعَمَلِ ، وَلَكِنَّهُ يُوَدِّعُ النَّفْسَ عِزَّةً وَرَفْعَةً لَصِبَاتِهَا عَنِ الْإِبْتِدَالِ كَمَا قَالَ : (٤)

فَنِعْتُ فَخِلْتُ أَنَّ النَّجْمَ ذُونِي وَسِيَّانِ التَّقَنُّعِ وَالْجِهَادِ

* * *

قبول الهربا

تقدم قول أبي البر ، أن أبا العلاء لم يقبل هدية أو صلة ، وذكر ذلك البديعي في (أوج التحري) . ولم يحدثنا التاريخ أنه قبل شيئا من المال .

(١) غالب : موضع نخل دون مصر . وموضع بالمجاز . وذمار كحباب أو قطام : مدينة باليمن على سرحتين من صناء ، سميت بجبل من أقبال اليمن ، وقبل : ذمار اسم صناء ، ولعل أبا العلاء أراد: بنال وذمار مذكرا . (ج) اللزومات هـ ص ١٦٠ .

(٢) اللزومات هـ ص ٤٣ ، وخمسَ البطن مثله : خلا .

(٣) اللزومات هـ ص ١٣٠ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٨٣ .

والأثاث والرياضات . وربما كان يقبل بعض الهدايا من أصحابه ، ولكننا لم نوفق إلى معرفة نوعها . وما لاشك فيه أنها تكون من أنواع الطرف والألطف والتعف من الأطعمة ، وليست من الذهب والفضة . وقد زعم صاحب (شرح التنوير على سقط الزند ج ٢ ص ٥١) في شرح قوله :

لَكَ الْخَيْرُ قَدْ أَنْفَذْتَ مَا هُوَ مُلْبِسِي حَيَاءٌ وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَائِلٍ عِلْمٌ^(١)

ان هذا الشاعر قد بعث تحفة إلى أبي العلاء . فهو يحمده على ذلك . وعلى هذا يجب أن تقرأ كلمة « أنفذت » ، بفتح التاء ، وعلى فرض أن ذلك صحيح فقد بين أنها ليست من التقدين بقوله بعده :

وَلَوْ أَنَّهُ أَضْعَافُ^(٢)

وفي (ضوء النقد) ما يدل على أن شاعراً عرافياً كتب إلى أبي العلاء قصيدة ذكر فيها مفض الغربة ولبسه السواد خشية سرعة الاتساخ ، فكتب إليه أبو العلاء أبيتاً وأرسل معها شيئاً من النقطة . وقال الخوارزمي :^(٣) والرواية في (أنفذت) ضم التاء على الحكاية . ورواه بعضهم (أنفذت) بفتح التاء على الخطاب ، وهو سهو لأن الأبيات التي تردف هذا البيت تدفع ذلك ، ولا سيما قوله :

فَمِنِّي تَقْصِيرٌ وَمِنْكَ تَفَضُّلٌ بَعْذِرٍ فَلَا حَمْدٌ لَدَيَّ^(٤) وَلَا ذَمُّ

وَلَوْ أَنَّهُ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مِثْلِهِ مِنَ التَّبَرِّ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ مِنْ^(٥) نَدَاكَ اسْمُ

(١) وفي شروح السقط ق ٣ ص ١١٥٧ « أخفنت » بالضم

(٢) وقامه : « ... أضفاف مثله من التبر لم يثبت له في نذاك اسم » .

(٣) الصدر السابق .

(٤) في الشروح : « علي » .

(٥) في الشروح والتنوير : « في » .

ويؤيد ما قاله في (ضوء القند) أن عنوان هذه الأبيات جاء في الدوران هكذا : « وقال في هذا المعنى » وفي شرح البطليوسي : « وقال أيضاً » . وفي الخوارزمي : « وقال أيضاً في المعنى » . والمشار إلى بكلمة أيضاً ، وبكلمة في المعنى ، أبيات تقدمت هذه الأبيات ، فلما أبر العلاء لشاعر « صريع البين »^(١) ، وأرسل إليه معها شيئاً من النفقة . فهذه الأبيات في معنى تلك ، ويكون المهددي أبا العلاء .

وقال التبريزي : « وكان هذا الشاعر قد لبس السواد كما يلبسه الغرباء ، وذكر ذلك في شعره إلى أبي العلاء مع ما ذكره من شكاية من الزمان . وسواد الثياب كناية عن اتساخها » .

ومن البعيد بعد ما تقدم أن يكون هذا الشاعر هو الذي أهدى إلى أبي العلاء مع حاله هذا . وبذلك يبين عدم صحة ما قال في التنوير ، وأن الأبيات لا تصلح دليلاً على قبول المعري هدية .

كرم وسخاؤه

عرفنا أن لأبي العلاء نيفاً وعشرين ديناراً في السنة ، يعطي بعضهم خادماً ، ويعيش بالصباغة الباقية منها ، ويجري منها على جماعة من الكتاب الذين يكتبون عنه ما يمله وما ينتظه . وقد ذكر ابن العديم^(٢) ، أن له أربعة رجال من الكتاب الموجودين في جرائته وجاريده . وكان فوق ذلك يدفع شيئاً لذوي الحاجات ممن يتردد إليه . فقد قال أبو زكريا التبريزي : « إن المعري كان يجري رزقاً على جماعة ممن كان يقرأ عليه ، ويتردد لأجل

(١) صريح البين : شاعر كان يقب هذا اللقب ، الشروح في ٣ ص ١١٤١ .
(٢) تصريف القدماء بأبي العلاء : ص ٥٢٤ و ٥٢٥ عن الانصاف والنحري

الأدب إليه . وذكر البديعي ذلك أيضا ^(١) . ونقل عن أبي الفرج محمد ابن أحمد بن الحسن الكاتب ^(٢) ، أنه رحل في سنة ٤٢٨ هـ من أذربيجان إلى الحج ، ومرة النعمان ، واجتمع بأبي العلاء ، وأنه ذكر فصلاً في تربيته والثناء عليه ؛ ومن جملة قوله : « وقصر همه على أدب يفيد ، وتصنيف يجيد ، ومتعلم بفضل عليه ، ومستوفد صلوك يحسن إليه » ، وله دار حسنة بأوجيا ، ومعاش يكفيه ويمونه ، وأولاد أخ باق يخدمونه ، ويقرؤون بين يديه ، ويدرسون عليه ويكتبون له ، ووراق برسمه مستاجر ، ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طيفة ، وما يفضل عنه يفرق على أخيه وأولاده ، واللائقين به ، وللقراء والفاصلين من الغرهاء . اهـ

انفاذ على الخطيب التبريزي مرة مقام عنده

نقل المؤرخون ^(٣) أن الخطيب أبا ركريا التبريزي قدم على أبي العلاء ، وأقام عنده مدة يقرأ عليه ، وقد أعطاه الخطيب صرة فيها ذهب ، وقال له : أوش من الشيخ أن يدفعها إلى بعض من يراه ليشترى لي بها خبزاً ولحماً ، وما تدعو حاجتي إليه ، ويجري ذلك علي في كل يوم ، لأتناوله مدة مقامي عنده للقراءة ، وأتوفر بذلك على الاشتغال ويتفرغ هالي للاستفادة ، ويترفه خاطري ، ولا يكون في شغل غير ما أنا بصدد ، فأخذ أبو العلاء الصرة منه ووضعها عنده ، وتقدم إلى وكيله ، وأجرى للخطيب ما تدعو إليه حاجته ، فتناول ذلك مدة مقامه بمرة النعمان ، وهو يظن أنه من ذهب الذي دفعه إلى أبي العلاء ، فلما أراد الانصراف ودع أبا العلاء ، فدفع إليه صرته بعينها ، فقال الخطيب للشيخ : ما ظننت أنك تفعل هذا ، ولا أردت

(١) أوج التحري - يوسف البديعي - ص ١٢ تحقيق إبراهيم الكيلاني .

(٢) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٧٥ عن الإنصاف والتحري - لابن الدم .

(٣) انظر من ذلك الإنصاف والتحري لابن الدم . في تريف القدماء ص ٥٧٦ .

التفيل عليك بغير الاستفاضة من علمك ، وعرض له بأخذها ، فقال أبو العلاء :
قد كان ذلك ولا سبيل إلى رد هذه الصرة عليّ ، وهذا ذهبك بمينه ،
وانصرف وكان فقيراً محتاجاً .

وسبأني بيان ائمة التي أقامها عنده وزمنها . ويأتي أيضاً أن أبا العلاء
أعطى صريع الدين أو الدلاء ، والقاضي عبد الوهاب ، وبعض شعراء العراق
وغيرهم شيئاً من المال ، وقد تقدم بعض من هذا .

وذكر القفطي^(١) أن أبا العلاء سمع الجماعة يذكرون بطيخ حلب ،
فتكلم وسبتر من ابتاع منه حلاً ، وأحضرهم إليه ، فأفردوا له منه عدداً
يسيراً ، وتركوه في سرداب كان يأكل فيه ، فنزل الخادم بعد أيام لتفقد
المفارة فوجد البطيخ بحاله لم يعرض له وقد فسد ، فراجع في ذلك فلم
يجبه . واستدل الجماعة بذلك على أنه ما كان يتفكه . وربما كان يتناول
ما يقوم بالأود من أيسر الموجودات .

وزار الرحالة الفارسي ناصر خسرو المرة في سنة ٤٣٨ هـ ، وقال في
رحلته : (٢) « وكان بها - أي المرة - رجل ضريب ، يدعى أبا العلاء وكان
أمير البلدة ، وله من النعمة والعبيد والخدم ما يستكثر . وكان جل أهلها
كالعبيد له ، إلا أنه - لك طريق النك ، وتردى يبرجد في بيته ، وكان
يأكل كل يوم نصف من - من خبز الشعير . وبلغني أنه فتح بابه ، ويتولى
عنه نوابه وعماله أمور البلدة إلا فيما بهم ، فيرجعون إليه ، وهو لا يمنع أحداً
مما آتاه الله . ويصوم الدهر ، ويقوم الليل ، ولا يشغل نفسه بشيء من
أمور الدنيا . وقد قيل له : إن الله خورك ماترى من المال والنعمة ، فلماذا

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٦ عن إنباء الرواة - لقفطي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦١ عن سفر نامه - ناصر خسرو .

تطلي الناس ولا تمتنع أنت بنفسك؟ فقال: ليس لي منه إلا ما أتبلغ به من القوت فحسب.

وقد ظن صاحب (الذكرى) ^(١) من كلام الرحالة الفارسي أن أبا العلاء ملك المعرة، وذهب يلتبس لذلك وجهاً، فتأول قول صالح بن مرداس لابي العلاء حين شفع عنده في المعرة: قد وهبتها لك، أنه أقطعها إياها إقطاعاً ثم اعنت نفسه في تلبية هذه القضية. وظن أيضاً أن أبا العلاء غني، واستأنس لهذا الرأي بقول الرحالة المتقدم، ربما كان يعطيه أبو العلاء من الصلات والهدايا، حتى لا يناقض حاله هذا أقواله الدالة على قلة ماله، وأغرب شيء في كلامه اعتقاده أن أبا العلاء كان يقبل الهدايا ويشكر عليها، وأن أحواله كانوا يواصلون البر إليه. وأظن أنه لم يقبل من أحواله براً إلا ما كان من باب الطرف والاطعة والفواكه. وما في رسالته، يوم ذلك، جرى فيه أبو العلاء على عادته في عد كل شيء نعمة يجب شكرها، ولو كانت سؤالاً عن حاله.

وأنا أقول: إن العادة جارية في المعرة، على عهدنا هذا، أن الرجل منهم إذا كان وجيهاً في قومه، وكان غير موسر ونزل به ضيوف، هب أهله وأصحابه إلى القيام بما يجب للمضيف من الحفاوة والإكرام من غير أن يشعر المضيف بشيء من هذا، وقد لا يشعر المضيف نفسه إلا بالارزاق والطرف والطعام تتوافد إلى بيته من غير أن يعلم بمن هي. وإذا لم يكن بيته أو آلات بيته لا تنقص بالمضيف أنزله قريبه أو صديقه في داره، ولا يشك المضيف في أنها دار المضيف. وأن كل مارآة من ماله، وربما ظن بعض القائمين بمخدمته أنهم خدم لصاحب الدار. وأهل المعرة كرماء ولو مع الفاقة، ولهم ولع شديد بليئناس المضيف والمبالغة في إكرامه وقبضه. وهم لا يعدون ذلك من باب الصلة أو الصداقة أو التفضل، وإنما يرونه من باب الواجب، لأن المضيف حفاع على البلدة كلها لا على المضيف وحده.

(١) ذكرى أبي العلاء ط ٢ ص ٢١٢ - ٢١٦ - لطفه حين.

والعادة جارية أيضا أن الناس يصدقون بالرجل السري أو العالم ، ويحصلون كلمته نافذة وإن لم يل شيئا من عمل الحكومة وإن لم يكن غنيا .

فإذا جاز قياس الماضي على الحاضر ، جاز لنا أن نقول : إن أبا العلاء نفسه كان فقيراً لا يملك غير سيف وعشرين ديناراً كما أسلفنا ، وكان يقتر على نفسه ، لأنه لا يأكل إلا من ماله لا من مال عمه ولا خاله ، وإن الناس كانوا يحصلونه ويصدرون عن أمره مكات ومكاتة أمرته في المرة . أما مكاتته فقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن ملوك دمشق وحلب وأمرأها كانوا يحصلونه وبالفن في الحفاوة به ، ويكلفونه أن يضع لهم كتباً ، وأن خليفة مصر أراد أن يعطيه ما في بيت المال في المرة ، وأنه لا يمر بالمرة رجل خطير إلا يزوده . وحسبك دليلاً على علو مكات في المرة وغيرها أنهم بعثوه سفيراً إلى صالح فوجهه المرة ، ورفع الحصار عنها .

وأما مكانة أمرته فقد كان فيهم المفتون والفنافة والعلاء والشعراء والمؤرخون ، وفيهم عمدة المرة وأصحاب الكلمة النافذة فيها مثل الحواري بن حطان ابن المعلى التنوخي الممدود من رجال الدهر ، ومن ولده أبو بشر الحواري ابن محمد بن علي . . التنوخي عميد المرة . ووادع بن سليمان من أحفاد أخي أبي العلاء ، كان قاضي المرة والمستولي على أمورهما في عصره ، وكان رجل زمانه ممة وعلماً كما قال ابن الأثير ، وهم كثيرون .

فإذا نزل به ضيوف قام إخوته وبنوهم وذوو قرياه بما يجب من القدرى ، واحاطوا به م وخدمهم وأشياعهم ، حتى يجبل إلى الضيف أنه ملك مطاع ، وأن كل من يراه من الخدم والحشم والعبيد ملك له وما يراه من غيهم أعوان له ، وما يراه من أثاث ورياش وأبنية ملك له . ولا يرى أبو العلاء في ذلك غشافة بحكم العادة المتبعة . وإذا سلمنا هذا لا نرى تناقضاً بين أحواله وأقواله . وأظن أن دار الضيافة التي أنزل بها الضيوف الحسين الذين جاءوا ليعلموه إلى حلب كانت لأحد إخوته أو

أمامه أو بني عمه . وفي كلام أبي العلاء ما يدل على أنه كان يتضرع من قلة ماله ، لأنه كان يجب أن يقوم من ماله بكل ما توجه الضيافة عليه لأضيافه وهم كثيرون ، وأن يمطي كل سائل ما يسأله أو فوق ما يأمله ، وسائره كثيرون ، ولكنه لا يجد ما يلي به طاب كل طالب ، ويشق عليه أن يأخذ من أحد شيئاً . فهذا هو السبب في تدمره من قلة المال ، وقد كثر ذلك في شعره كقوله :

صَدَقْتُكَ صَاحِي لَأَمَالَ عِنْدِي وَقَدْ كَثُرَ الضِّيَافُ وَالضُّيُوفُ^(١)

وكان الناس يظنون به البسر وكثرة المال ، فيكفرونه ما لا يطيقه إلا المومرون ، وكان ذلك يزيد تدمراً لأنه لا يستطيع أن يجيب ما يطلب منه ، ويشعر بذلك مثل قوله :

وَأَتَاهُمِ بِالْمَالِ كَلْفٌ أَنْ يُطَا — لَبَّ مَنِّي مَا يَقْتَضِي التَّغْوِيلُ^(٢)

أما أبياته الدالة على كرمه فكثيرة ، منها قوله :

إِذَا وَرَدَ الْفَقِيرُ عَلَىٰ أَحْتِيَاجِي أَعْثُ لَهُ يَفَهُ بِالْمُسْتَدَفِ^(٣)
وَلَوْ كَانَ الْكَثِيرُ لَقَلَّ عِنْدِي وَأَهْوَنُ بِالطَّفِيفِ الْمُسْتَطَفِ^(٤)

• • •

(١) الضيف من نزل بغيره ، وهو المضيف ، يكون للواحد والجمع ويكر على أضياف وضيوف وضيافان . والضيفن الذي يجي مع الضيف والنون زائدة ، والجمع

ضيافن . (ج) اللزوميات ٥ ص ٢٩٢ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٠٢ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٢٩٥ ، والمستدف : الممكن .

(٤) الطفيف : القليل والخبر التام ، والمستطف من استطف : أي أمكن ودنا .

وقوله (١) :

فَمَا دِرْهَمِي إِنْ مَرَّ بِي مُتَلَبِّثًا وَلَا طِفْلًا لِي حَتَّى تُرَى الشَّمْسُ مُطْفِئًا
وَيَرْزُقُنِي اللَّهُ الَّذِي قَامَ حُكْمُهُ بِأَرْزَاقِنَا فِي أَرْضِهِ مُتَكَفِّلًا

• • •

وقوله (٢) :

إِذَا وَهَبَ اللَّهُ لِي نِعْمَةً أَفَدْتُ الْمَسَاكِينَ بِمَا وَهَبَ

توليه المناصب

حدثنا التاريخ أن أكثر قضاء العرة وعلانها وأدبانها وشعرانها في عهد أبي العلاء كانوا من أمرته تنوخ ومن بني سليمان جد أبي العلاء الأعلى ، وأن الفتاوى كانت في بيتهم على مذهب الشافعي أكثر من مائتي سنة بالمرّة. ولم أر أحداً ذكر أن أبا العلاء ولي الإفتاء أو القضاء أو شيئاً آخر من الأهمال ، وإنما سلامه في اللزوم يدل على أنه كان يكره أمثال هذه الأمور لأقاربه وأصاذه ، فمن الأولى أن يكرها لنفسه ، يشعر بذلك من قوله : (٣)

أَنْهَكَ أَنْ تَبْلِيَ الْحُكُومَةَ أَوْ تُرَى حَلَفَ الْخَطَّابَةِ أَوْ إِمَامَ الْمَسْجِدِ
وَتَرِ الْإِمَارَةَ وَاتَّخَذَكَ دِرَّةً فِي الْمَصْرِ تَخْسِيهَا حُسَامَ الْمُنْجِدِ
تِلْكَ الْأُمُورُ كَرِهْتُهَا لِأَقَارِبِ وَأَصَادِقِي فَأَبْخَلُ بِنَفْسِكَ أَوْ جَدِ

(١) اللزومات • ص ٢٠٣ .

(٢) اللزومات • ص ٥٧ .

(٣) اللزومات • ص ١١٢ .

ولكنني رأيت قوله في اللزوم : (١)

قَلَدْتَنِي الْفُتْيَا فَتَوَجَّيْتُ عَدَا تَأَجَّا بِإِعْفَائِي مِنَ التَّقَايِدِ

وهذا يدل على أنه ولي الفتيا . وربما كانت على مذهب الشافعي أسوة بأقاربه ، ولعله استقال منها فأقبل ، لأنه كرهها لأقاربه ، ولأنه كان ينفر عقه من تركه سدى واتباع غيره كما قال : (٢)

وَيَنْفِرُ عَقْلِي مُغْضَبًا إِنْ تَرَكَتُهُ سُدَى وَابْتَعْتُ الشَّافِعِيَّ وَمَالِكًا

ولعله كان يلي القيا حين زار الرحالة الفارسي (ناصر خسرو) مدينة المعرة وراى ما رأى من مكانة أبي العلاء فيها .



(١) اللزومات ص ١١٤ .

(٢) اللزومات ص ١٨٥ .

القول الجامع في أخلاقه وسيرته

توفر أبو العلاء منذ حداثة عهده على الدرس ، وأدب أبوه فأحسن أدبه ، وأدب هو نفسه فجمع بين أدب النفس وأدب الدرس . وتوفر فيه من مكارم الأخلاق ما لم يتسن لغيره من العلماء والحكماء والشعراء بعضه .

صبره

الصبر في الأصل الحبس . ويختلف اسمه باختلاف موقعه ، فحبس النفس عن الجزع عند المصيبة يسمى صبرا ، وإمساكها في وقت المحاربة يسمى شجاعة ، وإمساكها عن الفضول قناعة وعفة ، وإمساك كلام الضير يسمى كتماناً . وقال بعض المعلقين : الصبر ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله تعالى . وقد كان أبو العلاء قليل المال كثير العطل والمحسوم . فكان يصبر على محن الأيام والأنام ، وكثيراً ما ألمع في شعره إلى صبره كقوله : (١)

طَالَ صَبْرِي فَقِيلَ : أَكْثَمُ شَيْعًا نُّ وَإِنِّي لَمُخْطَوِي طَيَّانٌ
وقوله في الزمان : (٢)

غَدَوْتُ وَرَيْبُهُ فَرَسِي رِهَانٍ يُجِيدُ نَوَائِبًا وَأَجِيدُ صَبْرًا

وفي نثره كثير من هذا فقد قال في (رسالة الإغريض ص ٥١) : (٣)

د فَمَا فِي النَّشَبِ قَلَمٌ تَرَى لِي بِحَمْدِ اللَّهِ وَبِقَاءِ سَيِّدَا بَلْفَتَانِ ؛ بَلْفَةُ صَبْرٍ

(١) الزمريات هـ ص ٢٦٣ ، والأكثم : الواسع البطن والخبان . ورجل طيان : لم يأكل شيئاً .

(٢) الزمريات هـ ص ١٤٢ .

(٣) رسائل أبي العلاء المرعي - لثامين عطية - . . . وبلغة القوي : قوامه وما يكتفي به .

وبلغة وفرة . . . وهو يعد الصبر من خير حالاته التي يكون عليها ، كما يشعر بذلك قوله في القسط : (١)

وَحَالِي خَيْرُ حَالٍ كُنْتُ يَوْمًا عَلَيَّهَا وَهِيَ صَبْرٌ وَاعْتِرَالٌ

وبديهي أن مصائب الدهر تختلف . فمنها ما لا تستطيع النفس احتماله والصبر عليه ولا رده ، ولكنها تصبر عليه كرهاً لا طوعاً ، كما قال : (٢)

وَالنَّفْسُ لَيْسَ لَهَا عَلَى مَا نَالَهَا صَبْرٌ وَلَكِنْ بِالْكَرَاهَةِ تَصْبِرُ

وهذا النوع لا يرى في الصبر عليه فضلاً ، لأن الصبر فيه عن عجز واضطرار . ومنها ما يستطيع الإنسان احتماله أو رده . وهذا النوع يرى الصبر فيه فضلاً لأنه عن قدرة واختيار . كما يشير إليه قوله : (٣)

وَصَبْرُكَ فَضْلٌ فَيْكَ إِنْ كُنْتَ قَادِرًا وَإِلَّا فَعَجْزٌ مِنْ خِلَاقِكَ الصَّبْرُ

امتهانه للوزي

وكان شديد الاحتمال للأذى من خصومه ومن غيرهم ؛ فقد قال له الوزير المنازي (٤) في قصة تأتي : علام حدودك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟ فلم يكلمه حتى قام . وقال للقاضي عبد السلام القزويني : (٥) لم أهج أحداً . فقال له : صدقت إلا الأنبياء . فلم يرد عليه شيئاً . ووقع له كثير من مثل هذا فاحتله .

(١) شروح سبط الزند : ج ٤ ص ١٦٩٩ .

(٢) الزوميات ٥ ص ١٢٧ .

(٣) الزوميات ٥ ص ١١٨ .

(٤) هو أبو نصر أحمد بن يوسف الوزير الشاعر ، ينسب إلى منازجرد من أرمينية توفي في ميافارقين سنة ٤٣٧ هـ ، انظر وفيات الأعيان .

(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٧٧ ، عن إرشاد الأريب — لباقوت .

قناعته وعفافه

قدمنا طائفة حالحة بما يدل على قناعته وعفافه وإيمانه . وفي (الزوم والسط) أمثلة كثيرة من ذلك .

لبس جانبه

لم نجد في كلام خصومه الذين ينسقطون هوانه وحيثانه ، فضلاً عن محبيه وأنصاره ، ما يدل على أنه كان ذمراً شكراً جاني الطبع متكبراً صلفاً . بل المعروف أنه كان دمث الأخلاق لين الجانب .

طهارة يده وذنبه ولسانه

لا يعرف التاريخ أن أبا العلاء لوث يده باقتراف منكر ، ولا دنس ذيله بارتكاب فسوق أو فجور ، بل كان يترك كثيراً من الحلال خشية الوقوع في الحرام . ويوبأ بنفسه من كثير من اللاذ الباحة زهداً فيها واحتشاشاً لسانها . ولم يمدننا التاريخ أنه تصدى لإبذاه أحد بلسانه أو بغيره . ولم يعرف أنه هجا أحداً مطلقاً . وقد رويت له أبيات في السقط مطلعها : (١)

وَرَأَيْتِي أُمَامٌ وَالْأُمَامُ وَرَأَاهُ إِذَا أَنَا لَمْ تُكْبِرْنِي الْكُبَرَاءُ
ولم يمتن فيها أحد . وأظن أنه يخاطب بها رجلاً متخيلاً ، كما فعل في قصائده الفخرية ، وفي بعض أبياته التي يفتخر بها أو يعرض بحماده أو أعدائه . وهذا شائع مستفيض بين الشعراء . أما البيتان اللذان قالهما في أبي القاسم : (٢)

هَذَا أَبُو الْقَاسِمِ أُعْجُوبَةٌ فِي كُلِّ مَا يَذِرِي وَلَا يَذِرِي ...

(١) نروح السقط ق ١ ص ٣٩٢ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٩٧ ، عن إرشاد الأريب - لباقون - وفيه :
« لكل من يدرى ولا يدرى » . وتأتي البيتين :

لا ينظم الشعر ولا يحفظ القرآن وهو الشاعر القاري

والبيتان مما لم يرو في البواقي .

فقد أراد بها التظرف والمزاج . وأغرب من ذلك كله أنك لا نجد في كلامه على كثرة لفظاً بذينا ، ولا لفظاً يدل على شيء من أعضاء الإنسان أو الحيوان التي يستهجن ذكرها . وقد اضطر في (رسالة الملائكة) إلى ذكر كلمة فاؤها ولاها من جنس واحد ، وقد تحذف لامها ، وليس لديه إلا كلمة « حرج » فلم يصرح بها وإنما كنى عنها بما يدل عليها .

زهده

الزهد في اللغة : ترك الشيء والإعراض عنه . وفي (اللسان) الزهد : ضد الرغبة والحرص على الدنيا . وأما عند العلماء والمتصوفة فقد اختلفت كلماتهم فيه بحسب أحوالهم ومقاماتهم على أكثر من أربعين قولاً . فقل : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، لأن لقاءهم من الدنيا وهو مرغوب فيه . وقيل : الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف ، فبقدر ما تملك من بطنك تملك من الدنيا ، وقيل : الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض ما فيها . وقيل : هو قصر الأمل . وقيل : هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال . وقيل : هو أن لا تقرح بوجود من الدنيا ، ولاأسف على مفقود . وقيل : هو بغض الحمدة . وقيل . وقيل . وقيل . وإذا تصفنا أقوال أبي العلاء في الزهد تبين لنا أنه زاهد على كل قول . فإن مثل قوله : (١)

بُعْدِي عَنِ النَّاسِ بُرْءٌ مِنْ سَقَامِهِمْ وَقُرْبُهُمْ لِلْحِجَا وَالْدِّينِ أَذْوَاهُ
طَهَارَةٌ مِثْلِي فِي التَّبَاعِدِ عَنْكُمْ وَقُرْبُكُمْ يَجْنِي هُمُومِي وَأَذْنَابِي^(٢)

(١) الزويات ٥ س ٢٣ ، وفيها : « بعدي من الناس » . وفي خروج الزوم -

له حين الأياري : « بعدي من الناس » .

(٢) الزويات ٥ س ٢٩٨ .

وَحَيْرُ بِلَادِ اللَّهِ مَا كَانَ خَالِيًا
مِنَ الْإِنْسِ فَاسْكُنْ فِي الْقِفَارِ الْبَسَاسِ^(١)

يمثل زهده في الناس وكرهه لهم . ومثل قوله : (٢)
الْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي دَعَا أَرْضِي الْقَلِيلَ وَلَا أَهْتَمُّ بِالْقَوْتِ

. . .

فَاتْرُكْ لِأَهْلِ الْمُلْكِ لَذَاتِهِمْ فَحَسَبْنَا الْكَمَاةَ وَالْأَنْحَبِلَ^(٣)

والآبيات التي تقدمت في طعامه وشرابه تمثل قناعته وزهده في الجوف
ومقدار ما يملك من بطنه . ومثل قوله : (٤)

وَنَحْنُ كَرَكِبِ الْمَوْجِ مَا يَنْبَغُ مِنْهُمْ وَبَيْنَ الرَّدَى إِلَّا الذَّرَاعُ أَوِ الشُّبْرُ

. . .

وَأَيَّامُ الْحَيَاةِ ظِلَالُ عَثَرٍ وَمَنْ لِي أَنْ تَكُونَ ظِلَالُ دَوْمٍ^(٥)

. . .

وَمَنْ لَمْ تُبَيِّنْهُ الْخُطُوبُ فَإِنَّهُ سَيَصْنَعُهُ مِنْ حَدِيثِ الدَّهْرِ صَاحِبٌ^(٦)

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٩٨ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٦٦ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٢٠١ ، والأجمل كافد واحد : اللويا .

(٤) لم نثر على هذا البيت في الديوانين أو نثا لم يرو فيها ، وقد ورد في اللزوميات ٥ ص ١١٨ بيت في لزومية يوافق في مناه ما رواه المؤلف ويختلف في مناه : عجت لركب الموج برجون كوكبا وجيش النايا من هموسهم يخر

(٥) اللزوميات ٥ ص ٢٥١ ، والنز : بات قصير يرقع عن الأرض قدر فراع ، والدوم : شجر عظيم يلو في السماء وظله مستحسن .

(٦) اللزوميات ٥ ص ٨١ .

يمثل قصر أمه في الحياة . ومثل قوله : (١)

يَسْعَى الْفَتَى لَابْتِغَاءِ الرِّزْقِ مُجْتَهِدًا
بِالسَّيْفِ وَالرُّمْحِ فَوْقَ الطَّرْفِ وَالْجَمَلِ
وَلَوْ أَقَامَ لَوَافَاهُ الَّذِي سَمَحَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ مِنْ نَقْصٍ وَمِنْ كَمَلِ

. . .

وَيَأْتِي الْفَتَى رِزْقُهُ وَادِعًا وَلَوْ كَانَ فِي الشَّيْقِ عِنْدَ الْفُدُرِ (٢)

يمثل ترك طلب المصون . ومثل قوله : (٣)

وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا مِنَ الْإِنْسِ لَمْ تَكُنْ سِوَى مُوسَى أَفْنَتْ بِمَآسَاءِ عُمْرِهَا

. . .

بِشَسِّ الْأُمِّ لِلْأَنَامِ هِيَ الدُّنْيَا وَبِشَسِّ الْبَنُونِ لِلْأُمِّ نَحْنُ (٤)

يمثل بفض الدنيا . ومثل قوله : (٥)

وَمَآسَرْنِي أَنِي ابْنُ سَاسَانَ أَغْتَدِي عَلَى الْمَلِكِ فِي الْإِيوَانِ أَصْبَحُ أُمُّ أُمِّي

. . .

(١) الزوبيات ٥ ص ٢١٤ ، والطرف : الكريم من الجبل .

(٢) الزوبيات ٥ ص ١٧١ . والنيق : أرنع موضع في الجبل ، القُدُر :

مفردها قَدَرٌ وهو الوعل الداقل في الجبل .

(٣) الزوبيات ٥ ص ١٣٨ .

(٤) الزوبيات ٥ ص ٢١٣ .

(٥) الزوبيات ٥ ص ٢٩٧ ونها « أو أمي » .

وَأَفْضَلُ مِنْ عَيْشِ الْغِنَى عَيْشُ قَاقَةِ . وَمِنْ زِيٍّ مَلِكٍ رَائِقِ زِيٍّ رَاهِبٍ ^(١)

يمثل حبه للفقير . ومثل قوله : ^(٢)

أَخْشَى عَذَابَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَادِلٌ . وَقَدْ عَشْتُ عَيْشَ الْمُسْتَظَامِ الْمُعَذَّبِ

. . .

وَلِيَّيْ وَلَمْ آتِ خَيْرًا أُعِدُّهُ . لَأَمْلُ إِزْوَاءَ بَغِيرِ ذُنُوبٍ ^(٣)

يمثل ثقته بالله . ومثل قوله : ^(٤)

وَكَيْفَ أُجِيدُ فِي دَارِ بِنَاءٍ . وَرَبُّ الدَّارِ يُؤْذِنُنِي بِنَقْلِ

. . .

هُوَ عَلَىكَ فَمَا الدُّنْيَا بِدَائِمَةٍ . وَإِنَّمَا أَنْتَ مِثْلُ النَّاسِ مَغْرُورٌ ^(٥)

يمثل نظره إلى الدنيا بعين الزوال . ومثل قوله : ^(٦)

لَا تَفْرَحَنَّ بِمَا بَلَغْتَ مِنَ الْعُلَا . وَإِذَا سَبَقَتْ فَعَنْ قَلِيلٍ تُسَبِّقُ

. . .

(١) الزوميات ٥ ص ٤٦ .

(٢) الزوميات ٥ ص ٤٥ .

(٣) الزوميات ٥ ص ٤٧ ، وفيها :

« وَايَّيَّ وَإِنْ لَمْ آتِ خَيْرًا أُعِدُّهُ . لَأَمْلُ إِزْوَاءَ بَغِيرِ ذُنُوبٍ »

ويبدو أن المؤلف قد أسقط سهواً (ان) من الشطر الأول لأنه لا يستقيم

وزنه بدونها .

(٤) الزوميات ٥ ص ٢١٨ .

(٥) الزوميات ٥ ص ١٢٣ .

(٦) الزوميات ٥ ص ٣٠١ .

لَا يَفْرَحَنَّ بِالْحَيَاةِ غَيْرُهَا فَإِنَّهَا مَهْلَكَةٌ تَسُوقُ^(١)

• • •

لَا تَأْسَفَنَّ لِفَائِتِ مَا وَاجِدُ يُقْضَى لَهُ فِي نَفْسِهِ إِثَارُ^(٢)

يمثل لنا أنه لا يفرح بوجوده ، ولا بأسف على مفقوده . ومثل قوله : (٣)

إِنْ مَدَحُونِي سَاءَ نِي مَدَحُهُمْ وَخِلْتُ أَنِّي فِي الثَّرَى سُخْتُ

• • •

دُعِيتُ أَبَا الْعَلَاءِ وَذَلِكَ مَنِ ^{وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ أَبُو النَّزُولِ^(٤)}

بدل على أنه يبغض الهمة . وهناك أبيات تدل على أنه جرى في الزهد على مذهب قوم آخرين . وعلى هذا يمكن أن يقال : إنه زاهد على كل قول ورأي . وإن تعدد قوله في هذا الغرض ليس من باب التكرار المجرد عن الفائدة . وإنما هو للدلالة على أنه زاهد على كل وجه وفي كل رأي .

مفص على العمل والكسب

رأى بعض الأدباء أن أبا العلاء أكثر من الزهد والتزهيد في الدنيا ، وحس على عدم الاسترسال إليها ، والانصراف إلى الآخرة . فظن أنه هدام للجنس ، داعية إلى الجور والكل . ومن نظر في أقواله نظر مدقق

(١) الزوميات ٥ ص ٣٠٠ .

(٢) الزوميات ٥ ص ١٢٩ .

(٣) الزوميات ٥ ص ٦٢ ، وسخت : غبت .

(٤) الزوميات ٥ ص ٢١٩ .

منصف تبين له بأجلى وجه أنه على غير ما يظن ، وأنه يريد بترهده في الدنيا وتغييره عنها أن لا يندفع بها الإنسان فيجعلها أكبر منه وأقوى أمه ، ويفعل مما تقتضيه الواجبات الإنسانية في الدنيا ، وما يجب للآخرة . يدل على ذلك ما تراه في أقواله من الحث على العمل ، وإطراح التوكل ، وامتنان النفس في المسألة . كما ترى ذلك في مثل قوله في اللزوم : (١)

اعْمَلْ لِأَخْرَاكَ شِرْوَى مَنْ يَمُوتُ غَدًا

وإِذَا بَ لِدُنْيَاكَ فَعَلَ الْغَايِرِ الْبَاقِي

. . .

وقوله : (٢)

تَرُومُ رِزْقًا بِأَنْ سَمَّوكَ مُتَكِلًا وَأَذَيْنَ النَّاسِ مَنْ يَسْعَى وَيَخْتَرِفُ

. . .

وقوله : (٣)

إِذَا قِيلَ : إِنَّ الْفَتَى نَاسِكٌ وَرَأَى الْجَمَالَ فَلَا تُسْكَلُهُ
يُصَلِّي وَهَمَّتْهُ أَنْ يُقَا لَسَابِقُ خَيْلٍ رِخَا (٤) فَسَكَلُهُ (٥)

(١) اللزومات ٥ ص ٣٠٧ ، وشروى : مثل .

(٢) اللزومات ٥ ص ٢٩١ .

(٣) اللزومات ٥ ص ٢٠٩ .

(٤) كفا . (ج)

(٥) الفكل ، كلفظ وزبرج : الفرس الذي يجي في الحلبة آخر الخيل .

وَأَفْضَلُ مِنْهُ أَمْرُو خَامِلٌ يَقُوتُ بِمَكْسَبِهِ حَسِكَلةٌ^(١)

. . .

وقوله : (٢)

لَا تَكُونِي رَوَّادَةً هَزَّالَهُ وَاحْذَرِي مِنْ نَوَائِبِ جَزَّالِهِ
أَغْزَلِي^(٣) فِي الْحَيَاةِ فَالشَّمْسُ قَدَمًا غَزَلَتْ خَيْطَهَا فَقِيلَ غَزَّالَهُ

. . .

وقوله : (٤)

لَا تَقُومَنَّ فِي الْمَسَاءِ جِدِّ تَرْجُو بِهَا الزُّلْفَ
مُعْمَلًا بَسَطَ رَاحَتَيْكَ إِلَى نَائِلٍ يُلَفِّ
وَرُمَ الرِّزْقُ فِي الْبَلَاءِ دِ فَإِنْ رُمْتَهُ أزدَلَفَ

. . .

وقوله : (٥)

خَيْرَ فِيمَا أَرَاهُ لِأَمْرَاءِ الْجَنَّةِ — دِي مِنْ بَعْدِ زَوْجِهَا الْمَقْتُولِ
إِذْ^(٦) أَغَارَتْ حَبْلَ الْقَنَاعَةِ تَبْغِي الرِّزْقَ مِنْ عِنْدِ خَيْطِهَا الْمَقْتُولِ

(١) المسك : بالكسر الصنير من ولد كل شيء جمع حائل وحكمة .

(٢) الرويات ٥ س ٢٠٩ .

(٣) في الرويات « اغزلي » وما رواه اللؤلؤ أمج .

(٤) الرويات ٥ س ٢٩٧ .

(٥) الرويات ٥ س ٢٢٣ .

(٦) أفا : شدة القتل .

وقوله في (الفصول والنبات ج ١ ص ٨٥) :

«وَحَارِثُ الْأَرْضِ عِنْدَ رَبِّهِ أَوْجَهُ مِنْ الْحَارِثِ الْحَرَابِ^(١)»

وقوله في سطر الزند :^(٢)

وَالْمَوْتُ أَحْسَنُ بِالنَّفْسِ الَّتِي أَلْقَتْ عِزَّ الْقَنَاعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ الْقُوَا

ولكن كان يكره طلب الرزق من الحروب كما كان يكره الحروب .

يدل على ذلك قوله :^(٣)

وَأَطْلَبِ الرِّزْقَ بِالْمُرُورِ مِنَ الشَّـجَرَاءِ لَا مِنَ أَسِنَّةٍ وَمَنَاصِلٍ

وقد ذكرنا في الكلام على الحروب شيئا مما يتعلق بهذا .

التشاؤم أو التطير

الشؤم في اللغة : خلاف البين ، كما في (السان) . ونقيض البين كما في (الصاح) . وضالين كما في (القاموس) . وعلماء اللغة قد يتسامحون فيستعملون كلاً من الألفاظ الثلاثة : الخلاف ، والتقبض ، والضد ، مكان الآخر . والمناطق والتكلمون ومن طبع على غرامهم يفرقون بينها . فالتقبضان عديم لا يجتمعان ولا يرتفعان ، كالعدم والوجود ، والضدان لا يجتمعان ولكن يرتفعان ، كالسواد والياض . والخلاف ، بمعنى الخالف ، أعم من الضدين ، لأن كل ضدين مختلفان . وأهل اللغة المفسرون كثيراً ما يفسرون التطير بالتشاؤم والتشاؤم بالتطير . والسبب في ذلك أن العرب كانوا يزعجون الطير ، فكان أحدهم إذا أراد مملاً أو سفراً آثار الطير من بجائها ، فكانوا

(١) الحارث الحراب : ملك من ملوك كندة .

(٢) شروح سطر الزند : ق ٤ ص ١٦٤٠ .

(٣) القزويني ٥ ص ٢٢٦ .

يتشاهمون ببارحها ، فسوا الشؤم طائراً وطيراً لتشاؤمهم بها . قال الجوهري :
وتطيرت من الشيء وبالشئ ، والاسم منه الطيرة ، مثال العنبَة . وهو
مايتشاهم به من الفأل الرديء .

وفي (المصباح) : الشؤم الشر .. وتشاهم القوم به مثل تطيروا به . وفيه :
وتطير من الشيء واطير منه والاسم الطيرة وزان عنية ، وهي للتشاؤم .
فالتطير والتشاؤم مختلفان من جهة اللفظ ، لأن المادة التي اشتق منها أحدهما
غير المادة التي اشتق منها الآخر . ولكنها متفقان فيما يصدقان عليه ، وهو
مايتشاهم به .

وقد ذكر العلماء أمانة للتطير أو التشاؤم . منها : أن النابغة الذبياني ،
وزبان بن يسار ، خرجا يريدان الفزو ، فرأى أحدهما جرادة ، فتطير وقال :
حرب ذات ألوان ، ثم رجع عن عزمه . ومنها : أن ابن الرومي تطير من
لفظ « إقبال » لأنه ينقلب إلى « لا بقا » . ومن قول العاصمير « سيق سيق »
ومن رؤية الدرفنين كهينة « اللام الف » ونحتها نوى تمر . وقال : هذا
يشبه « لا تمر » .

وإذا تأملنا أقوال العلماء في التطير أو التشاؤم ، وما ذكروه من
الأمانة لها ، تبين لنا أن المراد منها أن يتوهم الإنسان وقوع شر من
شيء أو أمر يجمل عاقبه ، وهو في ذاته ليس شراً متيقناً ، ولا دليل له
على مايتوقسه منه كما توقع النابغة أو زبان حرباً ذات ألوان ، لأنه رأى
الجرادة ذات ألوان ، ولبست الجرادة في نفسها شراً ، وليس لديه دليل
قاطع على وقوع ماتوهمه ، بل كان الأمر بالعكس ، لأن رفيقه مضى ففزا
وغنم وعاد سالماً غانماً . وكذلك ماتوهمه ابن الرومي .

وكلام أبي العلاء في (رسالة الفئران^(١) ص ١٦١) يدل على أنه كان ينكر التشاؤم فقد قال: «ومن أولع بالطيرة، لم ير فيها من خيرة، وإنما هي شر متجمل، وللأنفس أجل مؤجل، وكل ذلك حذر من الموت الذي هو ربق في أعناق الحيوان، حكم لقاؤه في كل أوان، وفي الناس من يظن أن الشيء إذا قيل جاز أن يقع، وكذلك^(٢) قالت العامة: الإرجاف أول الكون...» ثم قال: «وكان ابن الرومي معروفاً بالطير، ومن الذي أجري على التغير؟ وقد جاءت عن النبي - ﷺ - أخبار كثيرة تدل على كراهة الاسم الذي ليس بحسن، مثل «مرة» و«شباب» و«الحباب» لأنه يتأوله في معنى الحبة. ثم قال: «وإذا كان الرجل خائراً^(٣) لم يزل في الكثرة آرمًا: ^(٤) إن رأى سمامة^(٥) من الطير، حسبها من السم، أو حمامة فترق من الحمام». إلى أن قال: «ولهذه الطيرة جل «ابن الرومي» جعفرًا من الجوع والفرار، ولو هدي صرقة إلى النهر الجرار، لأن الجعفر النهر الكثير الماء. ولكن إخوان هذه الخليفة، لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة».

ثم ذكر أن الرجل قد يحتفر قبراً له في الشام فيموت في البين أو الهند، وقد يظن أنه يهلك بسيف فيهلك بحجر، أو أنه يموت على مهاد فيموت في وهاد.

(١) الرسالة بتحقيق بنت الطاطي ط ١ ص ١١٩.

(٢) في المصدر التقدم: ولذلك.

(٣) الخاتم: الرجل المتغير (ج).

(٤) الكثرة والكثرة: رفاق التراب، وثقات المجارة أو التراب مع الحجر.

وأرم: أكل وعرض ويلي وشد (ج).

(٥) السمامة بفتح السين: ضرب من الطير دون القطا وجسمها سمم. والسمام بالكسر: جمع سم.

وكلامه في (لزوم مالا يلزم) صريح في إنكار الطيرة ، وهو كثير ،
منه قوله : (١)

أَسْرَرْتَ إِذْ مَرَّ السَّيِّحُ تَقَاوُلًا وَالْقَالَ مِنْ رَأْيٍ لَعَنَكَ قَائِلُ
أَرَأَيْتَ فِعْلَ الدَّهْرِ فِي أُمِّ مَضَتْ قَبْلًا وَمَرْجَ قَبَائِلِ بِقَبَائِلِ

. . .

وقوله : (٢)

إِنْ تَطَّيَّرَ أَوْ تَقَاءَلَ فَمَا تَمْلِكُ رَبِّبَ الدَّهْرِ أَنْ تَرُسُنَهْ
خَيْرِيَّةٌ فِي لَفْظِهَا خَيْرَةٌ جَاءَتْكَ بِالسُّوءِ مِنَ السُّوسُنَهْ

. . .

وقوله : (٣)

لَا تَقْرَحَنَّ بِقَالَ إِنْ سَمِعْتَ بِهِ وَلَا تَطَّيَّرْ إِذَا مَا نَاعَبَ نَعَبَا
فَالْحَطْبُ أَقْطَعُ مِنْ سَرَاءِ تَأْمُلُهَا وَالْأَمْرُ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ تُضْمِرَ الرُّعْبَا

. . .

(١) الزوميات ٥ س ٢٢١ ، والنيح والناح : ما أتاك عن يمينك من طائر أو

ظي وأكثر الرب على التين به . والمرج : الخلط .

(٢) الزوميات ٥ س ٢٧٠ . والحيري : المتور الأصفر .

(٣) الزوميات ٥ س ٣٩ .

وقوله : (١)

زَجَرَ الْغُرَابُ تَطْيَرًا وَنَقِيضُهُ دَيْكٌ لِأَهْلِ الدَّارِ أَنْ يَضُرُّ أُنْفَرُقُ

. . .

وقوله : (٢)

تَعَرَّضُ لِلطَّيْرِ السَّوَاحِ زَاجِرًا أَمَّا لِكَ مِنْ عَقْلِ يَكْفُكَ زَاجِرُ

. . .

وقوله : (٣)

أَلَيْتُ لَا يَذْرِي بِمَا هُوَ كَائِنٌ مُتَفَائِلٌ بِالْأَمْرِ أَوْ مُتَطَيِّرٌ
كَالدَّارِ صَبَحَهَا سَوَى قُطَانِهَا فَشَوَّاهَا بِهَا وَتَحَمَّلَ الْمُتَدِيرُ

. . .

وقوله : (٤)

لِلْحَالِ بِالْقَدَرِ اللَّطِيفِ تَغْيِيرٌ فَلَيْنًا عَنْكَ تَفَاوُلٌ وَتَطْيِيرُ

. . .

وقوله : (٥)

لَا يَتَطَيَّرُ بِبَنَائِبِ أَحَدٍ فَكُلُّ مَا شَاهَدَ الْفَتَى طَيْرَةً
رُؤْيُكَ الْمِينَتِ فِي الْكُرَى سَبَبٌ يَقُولُ مَنْ يَفْقَدُ الْحَيَاةَ يَرَهُ

. . .

(١) اللزومات ٨ ص ٣٠١ ، ودك أنرق : عرفه مفروق بين الفرق .

(٢) اللزومات ٨ ص ٢٢١ .

(٣) اللزومات ٥ ص ١٢٦ .

(٤) اللزومات ٨ ص ١٢٥ .

(٥) اللزومات ٨ ص ١٤٤ .

وقوله : (١)

وَمَا طَيْرُ الْيَمِينِ بِمُتَّبِعَاتِي فَأَخْشَى اللَّهُمَّ مِنْ طَيْرِ الشَّمَالِ

. . .

وقوله : (٢)

هَلْ تَرَى نَاعِبًا كَعَنْتَرَةَ الْعَبْسِ—يِي يَنْكِي عَلَى مَنَازِلِ عِبَلَةٍ
أَوْ خُفَافٍ يَرِثِي رَجَالَ سُلَيْمٍ أَوْ سُحَيْنٍ يَخْذُو مَعَ الرُّكْبِ إِبِلَةً
لَا تَهْبُهُ وَلَا سِوَاهُ مِنَ الطَّيْرِ—رَفَمَا يَتَّقِي أَخُو اللَّبِّ تَبْلَةً (٣)

وقد زعم بعض الأدباء أن أبا العلاء كان من المنشائين . وزعم آخر أنه في طبعة المنشائين . وجعلوا موازنة بينه وبين بعض فلاسة العرب المنشائين ؛ وذكروا الوجوه التي يشابه فيها الرجلان ، والوجوه التي يختلفان فيها ، وقالوا : إن أبا العلاء ينظر إلى الدنيا بمنظار قائم ، وقالوا غير ذلك .

وإذا استقرينا أقوال أبي العلاء في هذا الباب ، وجدناها ثلاثة أنواع :

الأول منها مثل قوله في السقط (٤) :

سَنَحَ الْغُرَابُ لَنَا فَبِتْ أَعِيفُهُ خَبَرًا أَمْضُ مِنْ الْحِمَامِ لَطِيفُهُ
زَعَمَتْ غَوَادِي الطَّيْرِ أَنَّ لِقَاءَهَا بَسَلٌ تَنْكَرَ عِنْدَنَا مَعْرُوفُهُ (٥)

. . .

(١) الزرويات ٨ ص ٢١٩ .

(٢) الزرويات ٨ ص ٢٠٩ .

(٣) الجبل : الترة والنحل والداوة ونبله الدم : رماء بصروفه وأفناه .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٠٣ ، وسنح : عرض ، ورغفت الطير : زجرته .

(٥) في المروج « بدنا معروفة » . والبسل : المحرام ، وهو من الأعداء .

وقوله فيه (١) :

نَبِيٌّ مِنَ الْغُرَبَاءِ لَيْسَ عَلَى شَرْعٍ يُخَرُّنَا أَنَّ الشُّعُوبَ إِلَى الصَّدْعِ
أَصْدَقُهُ فِي مِرْيَةٍ وَقَدْ ائْتَرَتْ صَحَابَةُ مُوسَى بَعْدَ آيَاتِهِ التَّسْعِ
إلى آخر الأبيات . ولا شك أن هذه الأقوال وأشباهها لا تدل على
أنه كان يعتقد صحة الطيرة ، ولا أنه كان يتخير ، وإنما أراد أن يتلاعب
بهذا المعنى في أبياته ، جربا على عادة الشعراء المتقدمين في نسبة الفراق
إلى الغراب ، فجعل الغراب نبياً ، ووصفه به في هذه الصورة الخيالية
البديعة ، ودل على أنه لا يعتقد صحة ذلك بقوله في البيتين الأولين : « زمت
عوادي الطير . . » وبقوله في البيتين الآخرين . « أصدقه في مربة . . »
وبقوله في الدرعيات (٢) :

وَلَيْسَ غُرَبَانِي بِمَرْجُورَةٍ مَا أَنَا مِنْ ذِي الْحَقَّةِ الْأَسْحَمِ
النوع الثاني مثل قوله في (لزوم ما لا يلزم) (٣) :

يَدْعُو الْغُرَابُ أَنَا لَسُحَابًا سَفَهًا لِأَنَّهُ بِفِرَاقٍ عِنْدَهُمْ حَتَمًا
هَذَا التَّكْذُوبُ مَا لِلْجَوْنِ مَعْرِفَةٌ وَلَا يُبَالِي أَنَا الْمَدْحَ أَمْ سُبْحًا
وقوله المتقدم : « وَيُغْنِيكَ عَنْ طَرْحِ قَالَ يَبْعُدُ بِالْبَيْنِ طَعْنُكَ فِي الْغَائِلِ » .
وقوله في رسالة الغفران المتقدم . « وهذا النوع صريح في إنكار
التطير أو التشاؤم » .

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٣٢ وفيها « إلى صدع » ، والمربة : التلك .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٠٩ ، وذو الحقة الأسحم : الغراب .

(٣) الزوميات ص ٢٤١ وفيها : « أو شتا » والجون : مفرد ما جَوْنٌ وهو الأسود .

النوع الثالث ما نراه في مثل قوله (١) :

وَكَيْفَ أَقْضِي سَاعَةً بِمَسْرَةٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ مِنْ غُرْمَائِي

. . .

وَإِذَا الْفَتَى كَانَ التُّرَابُ مَالَهُ فَعَلَامَ تَسْهَرُ أُمُّهُ وَتُرَبُّتُ (٢)

. . .

تَهْوِي السَّلَامَةَ وَالْقُبُورُ مَضَاجِعُ سَلَبَتْ عَنِ الْيَقَظَاتِ مُضْطَجِعَاتُهَا (٣)

وَكَيْفَ أَرْجِي مِنْ زَمَانِي زِيَادَةً

وَقَدْ حَذَفَ الْأَصْلِيَّ حَذَفَ الزَّوَائِدِ (٤)

. . .

تَعَبَ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعْجَبُ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادٍ (٥)

. . .

وَجَدْتُ الْمَوْتَ لِلْحَيَوَانِ دَاءً وَكَيْفَ أَعَالِجُ الدَّاءَ الْقَدِيمَا (٦)

وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا دَارُ سُوءٍ وَلَسْتُ عَلَى إِسَاءَتِهَا مُقِيمَا

(١) الزوبيات ٥ س ٢٦ .

(٢) الزوبيات ٥ س ٦١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الزوبيات ٥ س ١٠٥ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ س ٩٧٧ .

(٦) الزوبيات ٥ س ٢٤٢ .

إلى آخر الآيات .

فهذا وما أشبهه ، كله لا يرى فيه التأمل شيئاً مما يراه في قصة النابغة وابن الرومي وأشباهما ، ولا يرى شيئاً بينه وبينها . لأن كلامه هذا ، إما بيان للحقيقة الواقعة في الحال ، وإما بيان للحقيقة المتوقعة في المستقبل . فمثل في ذلك مثل الطبيب الحاذق إذا عرض عليه مريض فرأى من حاله ما يدل على تفاقم مرضه ، أو على هلاكه بسبب المرض بحسب ما أرشده إليه طبه ودله عليه علمه ، فإذا سألنا هذا الطبيب عن حقيقة حالة المريض ، وعن السماح له بأكل ما يشتهي ، فإن أخبرنا بخلاف الواقع كان كذاباً خداعاً ، وإن أخبرنا بالحقيقة كان صادقاً ، ولكن هل نعدّه متشافاً لأنه قال الحق وأخبرنا بالحقيقة ؟ والحكماء والشعراء في باب الوعظ والإرشاد قد ينجحون إلى التحويل والمبالغة ، ويعملون حكم الأكثر للجميع . وقد يقتصرون في باب التحذير والتنبيه من الشيء على ذكر ماوته ومضاره ، ويمكن مما يكتنفه من ملاء ومنافع . وقد ذكرنا غير مرة أن كتب أي العلماء ليست كتباً شرعية تقدر فيها الألفاظ على قدر الحقيقة ، وإنما هي كتب أدب ، وحكمة يجري فيها على طريقة الأدباء والحكماء .

وقد كان علي بن أبي طالب (ض) يخاطب مرة ، فقال له رجل : « يا أمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا ، فقال : ما أصف من دار أولها غناه وآخرها فناء ، في خلالها حساب وفي كرامها عقاب ، من صبح فيها أمين ، ومن مرض فيها ندم ، ومن استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن » (١)

(١) الكامل للبردج ٢ ص ١٠٠ (ج)

وقال في خطبة أخرى : « انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها ،
الصادقين عنها ، فانها والله ، مما قليل تزيل الثاري الساكن ، وتفجع
المترف الآمن ، لا يرجع مانولى منها فأدير ، ولا يدرى ما هو آت منها
فينتظر ، سرورها مشوب بالحزن ، وجلد الرجال فيها الى الضعف والوهن . »
وقال في خطبة أخرى : « ألا فما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة ،
وما يصنع بالمال من عما قليل يُسلَبه ، وتبقى عليه تبعته وحدايه ؟ » .
فانظر كيف نظر علي (ض) إلى الدنيا وهو أمير المؤمنين ومن الأئمة
الزاهدين والمرشدين وكيف وصفها . ولم يمد من الملتصقين .

ولاشعراء والحكماء في باب التزهيد والوعظ ألوان مختلفة وصور متعددة
من التحذير من الدنيا ، والتخويف من الاغترار بما فيها من نعيم زائل ،
وتذكير بالمصير والمآل ، وربما كان المزهد أو الواعظ منفساً في ملاذها
مستبناً في سبيلها ، فهذا أبو تمام يقول من قصيدة مطلعها : (١)

أَتَأْمَلُ فِي الدُّنْيَا تَجِدُ وَتَعْمُرُ وَأَنْتَ غَدًا فِيهَا تَمُوتُ وَتُقْبَرُ
وَهَذَا صَبَاحُ الْيَوْمِ يَنْعَاكَ ضَوْؤُهُ وَلَيْلَتُهُ تَنْعَاكَ إِنْ كُنْتَ تَشْعُرُ
فَلَا تَأْمَنِ الدُّنْيَا وَإِنْ هِيَ أَقْبَلَتْ عَلَيْكَ فَمَا زَالَتَ تَخُونُ وَتَغْدِرُ
فَمَا تَمَّ فِيهَا الصَّفْوُ يَوْمًا لِأَهْلِهِ وَلَا الرِّتْقُ إِلَّا رَيْثَمًا يَتَغَيَّرُ
فَهَذِي اللَّيَالِي مُؤَذِّنَاتُكَ بِأَبْلَى تَرُوحُ وَأَيَّامُكَ كَذَلِكَ تُبْكَرُ

ويقول من قصيدة ثانية مطلعها : (٢)

أَلَمْ يَأْنِ تَرْكِي لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا وَعَزَمِي عَلَى مَا فِيهِ إِصْلَاحُ حَالِيَا

(١) ديوانه شرح محيي الدين الجباط ص ١٨٢

(٢) المصدر السابق ص ١٨٣

وَمَا تَبْرَحُ الْيَّامُ تَحْدِفُ مُدَّتِي بَعْدَ حِسَابٍ لَا كَعْدَ حِسَابِيَا
لَتَمَحُوْا آثَارِي وَتُخْلِقَ جِدَّتِي وَتُخْلِيْ مِنْ رَّبِّعِيْ بِكْرِهِ مَكَانِيَا
أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ مَالَتْ بِصَفْوِهَا إِلَى خَطَرَاتٍ قَدْ فَتَحْنَ أُمَانِيَا
هَبْنِي مِنَ الدُّنْيَا ظَفِرْتُ بِكُلِّ مَا تَمَنَّيْتُ أَوْ أُعْطِيتُ فَوْقَ الْأُمَانِيَا
أَلَيْسَ اللَّيَالِي غَاصِبَاتِي مُنْجَتِي كَمَا غَصَبَتْ قَبْلِي الْقُرُونُ الْخَوَالِيَا

• • •

ويقول : (١)

إِنْ شِئْتَ أَنْ يَسْوَدَّ ظَنُّكَ كُلَّهُ فَأَجَلُهُ فِي هَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ

وهذا البحر ي يقول من قصيدة : (٢)

أَطْلَ جَفْوَةَ الدُّنْيَا وَتَوَيَّنْ شَأْنَهَا فَمَا الْعَاقِلُ الْمَفْرُورُ مِنْهَا بِعَاقِلٍ
يُسَارُ بِنَا قَصْدَ الْمُنُونِ وَإِنَّا لَنَشَقُّ أُنْحِيَانَا بِطَيِّ الْمَارِحِلِ
عِجَالًا مِنَ الدُّنْيَا بِأَسْرَعَ سَفِينَا إِلَى أَجَلٍ مِنْهَا شَبِيهِ بِعَاجِلِ
غَفَلْنَا عَنِ الْيَّامِ أَطْوَلَ غَفْلَةٍ وَمَا خَوَّنَهَا النُّخْشِيُّ عَنَّا بِغَافِلِ
تَغْلَغَلَ رُؤَاذُ الْفَنَاءِ وَنَقَبَتْ دَوَاعِي الْمُنُونِ عَنِ جَوَادِ وَبَاحِلِ

(١) ديوانه - شرح محي الدين الحياط ص ٣١٢ وهو البيت السابع من قصيدة مدح بها

ابن شبابة أبا الحسن محمد بن المهيم .

والسواد الأعظم : العالم الآدمي ، أصل السواد ، الفخس .

(٢) ديوانه ٦٣٨/٢ طبعة بيروت . والأبيات من قصيدة بمدح بها الشاعر ابن بكال ، مطلعها :

تَخَضَّى الصَّبَا إِلَّا تَلَوْمَ رَاحِلٍ وَأَغْنَى الشَّبَابُ عَنْ بِلَامِ الرَّاحِلِ

وكتب الوعظ والأدب مكتظة بثل هذا من التنوير من الدنيا والنظر إليها بنظار قائم ، حتى من أناس مغرورين بنعيم الدنيا ، غرقين في ملاذها ومسراتها . ولم يعد أحد منهم متشاكساً ، لأن طبيعة الوعظ تقتضي ذلك . وما رأينا ولا سمعنا واعظاً يعدد أصناف النعيم في الحياة ويحض عليها ، لأن النفوس البشرية لا تحتاج إلى ذلك .

نهي التشاؤم عنه

إذا تأملنا سبيل الزاهدين والوعاظ والمزهدين من الأئمة والحكماء والعلماء والشعراء ، وأنعمنا النظر فيما قاله المغرورون في معنى التشاؤم والتطير ، وفيما ضربوه لها من الأمثال اتضح لنا أن أبا العلاء غير متشائم ، وأن ما في كلامه بما يورم ذلك بيان للحقيقة الواقعة في الماضي أو الحال أو المتوقعة في المستقبل . وقد فرض عليه التشاؤم فرضاً ، وألزم به وهو لم يلتزمه ، وأن سبيله في التزهد سبيل غيره . إلا أنه أكثر منه ، لأن اختباره للدنيا وأهلها كان أكثر ، وتفكيره فيها كان أدق وأعمق ، وكرهه لها أشد لأنها فجعت به وهو صغير ، ثم فجعت بسأبيه ثم بأمه فتوكته عاجزاً لا يستطيع شيئاً إلا بفعله . وهناك نبي آخر وهو أنه كان غزير المادة ، واسع الاطلاع قوي البديهة فياض الفريضة كثير الابتكار والاختراع محباً للحكمة والأمثال ، وكان يحب أن يعرض عبقريته على الناس في ثوره ونظله ، وكان يربأ بنفسه عن المدح إلا لضرورة ، ولا يحب الهجاء ولا الفزل إلا قليلاً ، فلم ير في الأغراض أوسع مجالاً من نقد الدنيا وأهلها ، والتحذير منها . واستطاع أن يكون مجلبياً في هذا الغرض ، وأن يعرض صوراً رائعة من أمثلك وحِكْمَتِهِ وأخيلته وافتتانه ، على أن هذا الغرض أقرب إلى الله ، وأبعد عن الناس ، وهذا ما يحبه ويرتضيه .

ولعل أول من نعته بالتشاؤم فريق من المشرقين ، ثم تبعهم جماعة من المشاركة المولعين بكل غريب ، ولو كان باطلا صريحا . وظنوا أنهم اطرفوا الأدب العربي بما لم تستطعه الأوائل .
ويظهر لمن استقرى آراء المنشائين وأقوالهم ، أنهم فريق متشائم مطلق ، وهذا يمتد أن الوجود كله شر محض وأن عدم الخير منه . وفريق متشائم في بعض الأشياء دون بعض ، وهذا لا يمتد أن الوجود شر مطلق ، وإنما يعتقد أن في الدنيا شيئا من الخير وشيئا من الشر ، وأن العاقل يستطيع أن يتغلب على الشر بسعيه وجهده .

اعتقاده في الخير والشر

بيننا أن أما العلاء غير متشائم للأسباب التي ذكرناها ، وأما اعتقاده في الخير والشر ، فالظاهر من أكثر أقواله أنه لا يعتقد أن الوجود شر مطلق ، وإنما يعتقد وجود الأمرين معا ، فيوافق الفريق الثاني من المنشائين أو هم يوافقونه ويدل على هذا أمور :

- ١ - منها : أنه يعتقد نزه الله عن الشر ، ولا ينسب إليه إلا الخير . ولو اعتقد فيه الشر المطلق لما أثبت له صفات الكمال والخير ، ولما اعتقد أنه عادل حكيم ورحيم يثيب الطائع ويمجزي المحسن ويضاعف الأجر .
- ٢ - ومنها : أنه أثبت وجود الخير في الدنيا ، كما أثبت وجود الشر ، في مثل قوله : (١)

خيرٌ وشرٌّ وليلٌ بعدهُ وضحٌ والناسُ في الدهرِ مثلُ الدهرِ صنوانِ

• • •

(١) الزوايات ، ص ٢٧٧ ، وفيها : « فبان » .

وَيَعْلَمُ كُلُّهُ أَنَّ لِلْخَيْرِ مَوْضِعًا وَفَضْلًا عَلَى إِثْبَاتِهِ أَجْمَعَ الدُّهُمُ^(١)

وَلَا تَكُنْ لِسَبِيلِ الشَّرِّ مُبْتَكِرًا

وَأَصْرِفْ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ تَنْهَجِ الْهُدَى سُبُلَكَ^(٢)

٣ - ومنها : أنه أثبت للخير أحكاماً إيجابية ، في مثل قوله : (٣)

وَالْخَيْرُ مَحْبُوبٌ وَلَكِنَّهُ يَعْجِزُ عَنْهُ الْحَيُّ أَوْ يَكْسَلُ

وَالْخَيْرُ أَزْهَرُ مَا إِلَيْهِ مُسَارِعٌ وَالشَّرُّ أَكْثَرُ لَيْسَ عَنْهُ نُحْجَمُ^(٤)

وَالْخَيْرُ بَيْنَ النَّاسِ رَنْسَمٌ دَائِرٌ وَالشَّرُّ نَهْجٌ وَالْبَرِّيَّةُ مَعْلَمٌ^(٥)

وَالْخَيْرُ يُغْدِي كَغَادِي مُزْنَةٍ هَطَلَتْ أَرْضًا فَلَمَّا رَأَاهَا رَأَتْهُ هَطَلًا^(٦)

مَا الْخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصَّائِمُونَ لَهُ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا صَوْفٌ عَلَى الْجَسَدِ^(٧)

وَإِنَّمَا هُوَ تَرْكُ الشَّرِّ مُطَرَحًا وَنَفْضُكَ النَّفْسِ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٢٨ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ١٩٠ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٢٠١ .

(٤) اللزوميات ٥ ص ٢٣٥ ، الزهراء بالضم : الحسن والياض ، ومنه زهر فهو أزهر .

(٥) اللزوميات ٥ ص ٢٣٥ ، والعلم : ما يستدل به .

(٦) اللزوميات ٥ ص ٢٠٤ .

(٧) اللزوميات ٥ ص ١٠٩ .

والقاعدة عند العلماء أن ثبوت نفيه لشيء فرع عن ثبوت المثبت له ،
يعنى ، إذا قلت : الشمس مضيئة ، فقد أثبتت الإضاءة للشمس ، وثبوت
الإضاءة للشمس دليل على ثبوت الشمس وفرع عن وجودها .

وقد حضت على الخير في مواطن من شعره مثل قوله : (١)

بَدَارِ بَدَارِ الْخَيْرِ يَا قَلْبُ تَائِبًا أَلَسْتَ بِدَارٍ أَنْ مَنَزِلِي الرَّمْسُ

ولا يناقض هذا مثل قوله : (٢)

مَنْ ادَّعَى الْخَيْرَ مِنْ قَوْمٍ فَهُمْ كَذِبٌ لَا خَيْرَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَا خَيْرُ

وقوله : (٣)

مَا كَانَ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَيْرٍ وَلَا كَرَمٍ

فَضَّلَ مَنْ قَالَ إِنَّ الْأَكْرَمِينَ فَنُوا

فإنه من باب الغلو المراد به المبالغة في الفقه والندرة ، كما في قوله :
« ما في البرية جيد ... فما في هذه الدنيا تقي ... » ونحو ذلك من الأبيات
الآتية . وإنما قلنا هذا لأنه صرح مرة بوجود الخير في الأبيات المتقدمة
وغيرها ، وصرح مرة أخرى بندرته في مثل قوله : (٤)

وَالْخَيْرُ يَنْدُرُ تَارَاتٍ فَتَعْرِفُهُ وَلَا يُقَاسُ عَلَى حَرْفٍ إِذَا نَدَرَا

. . .

(١) اللزوميات ٨ ص ٣٠٩ .

(٢) اللزوميات ٨ ص ١٢٢ .

(٣) اللزوميات ٨ ص ٢٦١ .

(٤) اللزوميات ٨ ص ١٤١ .

مباذره

وكان شديد الحياء ، دقيق الحس ، شديد الاحتراس ، حتى حمله ذلك على ان يأكل وحده في مغارة خجلاً من ان يرى مواكله أو غيره ما يكرهه منه . وكثيراً ما كافه الناس نظم قصائد وكتابة رسائل وإنشاء خطاب وتأليف كتب فكان الحياء يمنعه من أن يمنع أحداً منهم . ولم يخبرنا التاريخ أنه رد سائلاً أو صد مستجداً .

صرفه

لم ينل البنا التاريخ أن أبا العلاء كذب بشيء مطلقاً ، وأن اعتصامه بمجل الصدق لم يدع له صديقاً ، ولو ظفر أحد من حشاده وأعدائه على كثرتهم بكذبة منه لنشرها في القاصية والدانية . أما قوله : (١)

أُصْدِقُ إِلَى أَنْ تَظُنَّ الصَّدْقَ مَمْلُوكَةً وَبَعْدَ ذَلِكَ فَاقْعُدْ كَاذِباً وَقُمْ
فَالْمِنْ مِيتَةً مُضْطَرِئاً أَلَمْ يَرَا وَالْحَقُّ كَالْمَاءِ يُجْفَى خِيفَةَ السَّقَمِ

فإنه حض على الصدق وتنفير من الكذب إلا عند الضرورة الماجئة ، وإبداع في التشبيه ، وإحكام للطائفة ، وبيان للحقيقة الراقعة في عصره . وهو قول محض لا يدل على أنه فعل الكذب .

وقد قدسنا قوله في (الفصول والفايات ج ١ ص ٢٠٩) : « كُتِبَتْ وَأَنَا وَلِيدٌ بِالْعِلَاءِ ، فَكَانَ عِلَاءُ مَاتَ ... لَا اخْتَارَ لِرَجُلٍ صَدَقَ مَا وَلَدَ لَهُ أَنْ يَدْعَى أَبَا فَلَانٍ ... »

يدل على حبه الصدق في كل شيء ، حتى في الكنية ،

وكذلك قوله في الزوم . (١)

عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ فَلَا حَظَّ لِي فِي كَذِبٍ يَنْظِمُهُ السَّارِدُ
وقد جعل الكذب مسارياً للظلم ، وفضل الصخرة على أفضل الناس لأنها
لا تكذب ولا تظلم .
فقال (٢) :

أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لَا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

مِرْآتُهُ

وكان على ضعف جبه جريئاً قوي القلب ، لا يخاف في الحق لومة
لائم ، وفي حديث مع الشريف المرتضى حين أراد أن يفض من كرامة
المتنبي دليل أوضح من الفلق على رهاطة جأشه وجرائته ، وكذلك قوله
في مجلس المرتضى : « الكلب من لا يعرف للكل سبعين اسماً » . وأدل من
ذلك كله تصريحه بما يعتقد ، وبجاهرته بانتقاد الشرائع والنظم الاجتماعية ،
وغزوه قناة الأمراء والوزراء والشعراء وسائر أصناف الناس من غير مبالاة
ولا جزع . وفي هذا مثال جلي يدلنا على مقدار ما كانت تكنه النفس الضعيفة
من القوة والجرأة .

التقية

وزعم صاحب (الذكري) (٣) أن أبا العلاء كان يضطر إلى المصانعة
أحياناً ، ويبلغ إلى إخفاء آرائه تقيةً وضاً بنفسه . وقد بينا بطلان ذلك
في مواضع من هذا الكتاب .

(١) الزوميات ٥ ص ١٠٠ .

(٢) الزوميات ٥ ص ٣٦ .

(٣) انظر ذكرى أبي العلاء - لطفه حين - ط ٢ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٧ .

وقاؤه واحترافه بالجبل

قلما وجد الإنسان رجلاً وفياً لأصحابه ، شكوراً للجميل ، مقرأً بالنعمة مثل أبي العلاء . فإنه خالط جماعة من علماء العراق وغيرهم ، فكان كثير التشوق والتزوع إليهم كثير الثناء على ما أسدوه إليه من جبل العشرة والمؤانسة ، وقد أثنى عليهم في قصائده ورسائله ، وذكر أن لهم أبدياً جية عنده ؛ وليس لهم غير ما ذكرنا .

وكان أبو الحسن علي بن أبي هاشم وولده أبو الفتح يكتبان للعري ، فأنشأ عليها كثيراً وشكرهما ، ووضع للولد كتابين (المختصر للفتحي) و (عون الجمل) . وكان ابن أخيه بخدمة ، فأطال الثناء عليه والدعاء له ، وإذا كتب إليه أحد كتاباً عده نعمة تستوجب الشكر ، وبالفح في الثناء عليه وعلى أدبه . وإذا ابتدأ أحد بالمدح غالى في شكره ومدحه . وقد ذكرنا طرفاً من ذلك يدلنا على أنه صادق حين حدثنا عن نفسه بقوله (١) :

وَلِإِنْ وُصِّلَتْ فَشُكْرِي شُكْرُ بَرِّ وَكَفَّةٍ تَرْضَى بِبَرِّ قِيٍّ مِنَ الْأَمْطَارِ خَلَابٍ

نواضع

كان أبو العلاء شديد النواضع ، يجب أن يتفاضل ويصغر شأنه حتى يكاد يخفى لأسباب في علمه وأدبه ، وقد قال التبريزي (٢) : « إنه كان يكره أن يقرأ شعره في صباه الملقب « بسقط الزند » ويقول معتذراً من امتناع سماعه : مدحت نفسي فيه فلا أشبهه أن أسمعه » وقد بلغ من تعاليه في نواضعه أن أنكر اسمه وكتبته لما يُشعر أن به من المدح

(١) الزمانيات ، ص ٤٨ ، والبرِّ وَكَفَّةٌ : واحدة البروق ، وهي شجرة ضحلة إذا غات السماء اخضرت ، ومنه « أشكر من برِّ وَكَفَّةٍ » .

(٢) انظر مقدمة التبريزي لمرح سقط الزند ، فروح السقط ق ١ ص ٣ .

فقال (١) :

وَأَحْمَدُ سَعَانِي كَبِيرِي وَقَلَمًا فَعَلْتُ سُورِي مَا أُسْتَحَقُّ بِهِ الذَّمَّا

دُعِيتُ أبا العلاء وَذَاكَ مَيِّنٌ وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ أَبُو النُّزُولِ (٢)

وسال ذويه أن لا يملوا إلى تكررت :

سَأَلْتُكُمْ لَا تُكُونُوا لِتَكْرِمَةٍ وَصَفَرُونِي تَصْفِيرًا بِرَخِيمٍ (٣)

وَمَا أَلُومُكَ فِي خَفْضِي وَمَنْقُصِي لَكِنِ أَلُومُكَ فِي رَفْعِي وَتَفْخِيمِي

وكتبه مفعمة بما يدل على تواضعه ، منها قوله في رسالة المنج (١) :

« هل أدبي في أدبه إلا كالقنطرة في القنطرة ، والنحلة عند النحلة ... »

وقوله في رسالة الإغريض (٥) : « كنتُ عرفتُ سيدنا أن الأدب كعهودٍ

في غيبٍ عهد ... وأني نزلتُ من ذلك الغيب ببلد طسم كأثر الوم » .

وقوله في رسالته إلى صدقة بن يوسف الفلاح (٦) : « وإن العامة عهدتني

في صدرِ العمر استصحب شيئاً من أساطير الأولين ، فقالت عالم ، والناطق

بذلك هو الظالم ... ، ونشأت في بلد لا عالم فيه وإنما تشبَّثُ الثابتةُ

بالجوازع السامية ... » وقوله في (الفصول والغايات ص ٢٦٦) : « لو كنت

عبداً لغير الخالق لم يجزىء عني في الكفارة ، ولو كنت خاتمة لم أجزىء

(١) الزوميات ص ٢٣٨ .

(٢) الزوميات ص ٢١٩ ، والمبني : الكذب .

(٣) الزوميات ص ٢٥٠ .

(٤) رسائل أبي العلاء المرعي - لعاين عطية - ص ٢٩ .

(٥) المصدر السابق - ص ٥١ ، واليهود : مفرداً عهد وهو مطر بعد مطر يدرك آخره

بل أوله . والطسم . النعرس .

(٦) رسائل أبي العلاء - لعاين عطية - ص ٩٥ - ٩٧ ، وتعرف القنطرة بأبي العلاء

ص ٢٥٤ - عن ممالك الأبحار - للمرعي .

في الأضحية» وقوله في (رسالة الملائكة ص ٥) : « وحق لثلي أن لا يسأل ، فإن مثل تعبن عليه أن لا يجيب ، فإن أجاب ففرض على السامع أن لا يسمع منه ، فإن خالف باسماء» ففرضه أن لا يكتب ما يقول ... »

وفي (الزوم ما لا يلزم) ألوان مختلفة من ذلك كقوله (١) :

مَاذَا تُرِيدُونَ لَا مَالَ تَيْسِّرُ لِي فَيُسْتَمَاحُ وَلَا عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ

وقوله : (٢)

أُجْهِلُ مِنْ رَجُلٍ يَبْتَغِي عِنْدِي مَا لَسْتُ لَهُ مُحْسِنًا

وقوله : (٣)

مَنْ يَبْغِ عِنْدِي نَحْوًا أَوْ يَرِذْ لُغَةً فَمَا يُسَافِعُ مِنْ هَذَا وَلَا هُذِي

وقوله : (٤)

لَوْ يُنَادِي فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَيْهَا مَا اشْتَرَاهَا أَخُو رَشَادٍ بِفِلْسٍ

فخره

ولا يرد علي ما ذكرناه من تواضعه ماورد في كلامه في باب الفخر من الأشياء الدالة على تعاظمه وإكباره نفسه ، لأن ذلك نبيه كان في عهد الهداية ، ولأن طبيعة الفخر تنفي ذلك . والفخر غرض من أغراض الشعر يتنافس فيه الشعراء وقلما خلا شعر شاعر مجود منه ، والإتيان به لا يكون

(١) الزوابع ٥ ص ٢٩٣ .

(٢) الزوابع ٥ ص ٢٧٠ .

(٣) الزوابع ٥ ص ١١٧ .

(٤) الزوابع ٥ ص ٣٢٥ .

إلا في مدح الرء نفسه وقومه ، وسنأتي أمثلة رائعة من كلامه في الفخر
كقوله من قصيدة يقول فيها (١) :

وقد سارَ ذِكْرِي فِي الْبِلَادِ فَمَنْ لَهُمْ بِإِخْفَاءِ شَمْسٍ ضَوْؤُهَا مُتَكَامِلٌ
وقوله من قصيدة ثانية (٢) :

وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ أَمَدِي سَيَلَقَى دُوَيْنَ مَكَانِي السَّبْعِ الشَّدَادَا
وما شاكل هذا من آيات اللصدين وغيرها ، وقد قدمنا أنه كان
لا يجب أن يتسنع شعراء هذا لما فيه من المدح لنفسه .

كره الظلم

اتفقت الشرائع السجارية ، وأنجمت أهل العقول على تحريم الظلم وتكبيحه
ولم تشدد شريعة من الشرائع في تحريمه بقدر الشريعة الإسلامية ، فإن
القرآن الكريم نهى عنه في غير موطن ، وحذر وأنفذ وبين عاقبة الظالمين .
وكتب الأحاديث النبوية طائفة بتل ذلك ، منها قول النبي ﷺ فيما
يرويه عن ربه تعالى (٣) : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته
فيما بينكم محرماً فلا تظالموا » . ومنها قوله (٤) : « لا بعث إلى اليمن :
« اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . ومنها قوله (٥) :
« اتق دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة » .

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٥٢٣ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٥٦٥ .

(٣) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه (ج) .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي مختصراً ومطولاً . (ج)

(٥) رواه الحاكم (ج) .

ومنها قوله^(١) اتقوا دعوة المظلوم فإنما تحمل على الغمام ، يقول الله : وعزني وجلالي لأشعركك ولو بعد حين «ومنها قوله^(٢) : ه إن الله ليس للظالم فإذا أخذه لم يغفلته » ثم قرأ ه وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ه . إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتب السنة .

وأبر العلاء كان يكره الظلم ولو كان من ورانه فواند جمة ، ويقتبه ولا يجوز في حال من الأحوال ، وينمي على الظالمين وذلك حيث يقول^(٣) :
وَمَا سَرَّني أَنِي أَصَبْتُ مَعَاشِرًا بِظُلْمٍ وَأَنِّي فِي النِّعَمِ مُخَلَّدٌ
ويقول^(٤) :

وَالظُّلْمُ عِنْدِي قَبِيحٌ لَا أُجَوِّزُهُ وَلَوْ أُطِغْتُ لَمَّا فَاؤًا بِأَجْلَابِ
ولقد فضل الحجارة على الإنسان لأنها لا تعظم غيرها في مثل قوله^(٥) :
أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لَا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

(١) رواه الطبراني . (ج)

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

والمراد من قوله : ليس بينها وبين الله حجاب أن ليس بينها وبين القبول حجاب مانع . وقوله : كأنها شرارة كناية عن سرعة الوصول ، شبه سرعة صعودها بسرعة طيران الفرازة . وقوله : تحمل على الغمام . . كناية عن إثارة الآثار العلوية وجمع الأسباب السالوية على الانتصار له والانتقام من الظالم ويجوز غير هذا الوجه . (ج)

(٣) الزرويات ٥ ص ٨٩ .

(٤) الزرويات ٥ ص ٤٨ ، وفاؤوا : أي رجوا ، وأجلاب : مفردا تجلب وهو ما جلب من خيل أو غيره ، وأجلاب بسكون اللام : الجناية ولله التمسودها هنا .

(٥) انظر ما سبق ص ٣٤٩ .

وَقَفَّلَ صَاحِبُ الشَّرْطَةِ الْعَادِلُ عَلَى الْعَدْلِ الْجَائِرِ فَقَالَ: (١)

صَاحِبُ الشَّرْطَةِ إِنِّ أَنْصَفَنِي فَهُوَ خَيْرٌ لِّي مِنْ عَدْلٍ ظَلَمَ

وقد تعرض للظلم في مواضع من شعره ، منها قوله في وصف ناقة

بالسرعة : (٢)

رُوحُ الظَّلُومِ إِذَا هَوَتْ فَإِذَا ارْتَقَتْ فَكَأَنَّمَا هِيَ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ

وفيه إشارة إلى الحديث الثالث : « تصعد إلى السماء كأنها شرارة »

ومنها قوله : (٣)

لَأَشْيَاءَ فِي الْجَوِّ وَآفَاقِهِ أَصْعَدُ مِنْ دَعْوَةِ مَظْلُومٍ

وقوله : (٤)

وَالظُّلْمُ يُغْمِلُ بَعْضَ مَنْ يَسْعَى لَهُ وَيَحْمِلُ نِقْمَتَهُ بِنَفْسِ الظَّالِمِ

وفيه إشارة إلى الحديث الرابع والخامس ، ومن الغريب قوله : (٥)

عَجِبَ النَّاسُ لِلْجَنِيِّينَ إِذَا مَسَّهُ الْأَلَمُ

عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ إِنِّ يُطْلَى عُغْرُهُ ظَلَمَ

(١) الزوبيات ٥ ص ٢٥٦ .

(٢) الزوبيات ٥ ص ٢٥٣ .

(٣) الزوبيات ٥ ص ٢٥٤ .

(٤) الزوبيات ٥ ص ٢٥٣ .

(٥) الزوبيات ٥ ص ٢٥٨ .

فإن كان من نوع حسن التعليل عند أهل البديع فهو حسن جداً ، وإن كان يعتمد أن ألم الجنين عقاب له على ما ينفعه إذا طال عمره فهو غير صحيح ، لأن الله لا يعاقب على ذنب قبل افتراقه ، ولا يعاقب غير مكلف بلغ من التكليف . ويعتمد أن الظلم كامن في كل نفس ، تظهره عند إمكان إظهاره ، وتخفيه عند عدم ذلك .

كَانَ تَقِيًّا قَبْلَ إِمْكَانِهِ حَتَّى إِذَا مُكِّنَ مِنْهَا ظَلَمَ^(١)
وهو يشير إلى قول النبي : (٢)

الظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفْسِ فَإِنْ تَجَدَّدَا عَفْوَةً فَلَعَلَّةٌ لَا يَظْلَمُ
ويقع الظلم مهما كان صاحبه ، سواء أكان تقياً صالحاً أم شقياً طالحاً ، فهو يعتقد أن :

ظُلْمُ الْحَمَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ حُسِبَتْ
فِي الصَّالِحَاتِ كَظُلْمِ الصَّغْرِ وَالْبَازِي^(٣)

رأفة ورقة قلبه

من نظر إلى شعر المعري حين يتكلم في الناس ، يظن أن قلبه قد من صخر ، ولكن من يتقرئ أبياته بدقة لا يجد قلباً من قلوب البشر وعياً من الرأفة والرفق والمطف على كل حي معشار ما وعاه قلب المعري ،

(١) الزرويات ٨ ص ٢٥٧ .

(٢) من قصيدة مطلها :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرساً نظرت وخت أني أسلم
انظر الرف الطيب - البازي - ص ٦٣٠ .

(٣) الزرويات ٨ ص ١٢٤ .

والذي حمله على ما يرى من القسوة على الإنسان في كلامه ، حرصه على أن يكون الإنسان إنساناً كاملاً طاهراً من أدناس الخداع والرياء والحياة وما أشبه ذلك من الخلال السيئة ، فهي قسوة ولديها الرحمة له ، لأنه لا يريد أن يكون الآدمي ذنباً في صلاح إنسان . وربما ظهر عطف العربي على الحيوان الأعجم الضيف الغر أكثر من عطفه على الإنسان العاقل القوي المحتال . فهو يرفق بالحيوان ويرحمه ، فلا يأكل من لحمه ، لأنه لا يصل إلى ذلك إلا بذبحه ، وفي الذبح إبلام لحيوان يحس كما يحس الإنسان بالألم ، ويحرص على الحياة كما يحرص الإنسان عليها ، ويترقى من الأدنى كما يتوقى الإنسان . ويزيد رافة بالحيوان الضيف ، فلا يرى من الرحمة أن تنفج الطير بأوكارها ، والدك في مفارها ، وبشق عليه أن تذهب الأم لتكسب لأفراخها أو أولادها ما تسد به الرمق من طعام أو شراب فيفاجئها صياد فيودي بجبانها ويتلذذ بلحمها ، وتبقى أولادها ولبس لها من يعولها ، فتموت جوعاً أو عطشاً .

ويؤله أن يذبح ولد الحيوان أو يمنع من ابن أمه ليتسع غيره بلبنها أو يعرف به غيره ، ويكره أن تدأب الحقة الضيفة على جمع الصل ليكون غذاء لها ولصغارها ، ثم ينتزع منها فسراً ، ويعطى من يمكنه الاستغناء عنه بغيره أو يمنع من لا حاجة له به إلا قضاء الشهوة . وقد قدمنا أحياناً بين فيها ما يكرهه من هذا النوع وسأقي في باب ارتق بالحيوان والإنسان ما يدل على أمره بالإحسان لكل ذي روح ونهى عن الإساءة إلى الحيوان وغيره . ولقد غالى في عطفه على الحيوان حتى جعل تسريح البرغوث أبر من درهم يعطى لاحتاج إليه ، وسوى بين الك المطاع والبرغوث الخداع . على أنه يجوز أن يكون مراده بمثل هذه الأقوال الدلالة على

شدة تدمره من آمال الإنسان ، أو أن يريد إثناء غير الصالح منه ،
وقد سبقه إلى مثل هذا سيدنا نوح عليه السلام حين قال ﴿ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ
مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا ﴾ (١) .

رَأَتْهُ بِالْأُنْثَى

لا يقل عطفه على الإنسان عن عطفه على الحيوان ، فهو يحض على
الإحسان للضعيف والمعتز والمغاري والظالمين في مثل قوله : (٢)
إِذَا كُنْتَ فِي نَخْلٍ جَنَاهُ مُيَسَّرٌ لِّكَفِّكَ فَاهْتِفِ بِالضَّعِيفِ إِلَى النَّخْلِ

. . .

إِذَا أُوتِيتَ مِلءَ يَدٍ طَعَامًا فَأَطْعِمْ مَنْ عَرَكَ وَلَوْ كَظْفَرٍ (٣)

. . .

وَانْبِذْ إِلَى مَنْ تَشْكِي قِرَّةَ سَمَلَاً مِنْ الشَّيَابِ وَأُورِدْ ظَامِثًا سَمَاكَ (٤)

(١) لمام الآية : « وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ
ذَيَّارًا » . الآية ٢٦ سورة نوح .

(٢) اللزومات ٥ ص ٢١٠ .

(٣) اللزومات ٥ ص ١٥٥ ، وعراك : أي غشيك طالباً معروفك .

(٤) اللزومات ٥ ص ١٩٠ ، والقرة : بالكسر ما أصابك من البرد . والصل :

الثوب المثلث . والصل في آخر البيت : بنية الله .

ويحض على معاملة الرقيق بالحنى في آيات كثيرة منها قوله: (١)
 أَسَأْتَ بِعَبْدِكَ فِي عَسْفِهِ وَحَمَلْتَ غَيْرَكَ مَا لَمْ يُطَقْ ...

. . .

إِذَا كَسَرَ الْعَبْدُ الْإِنَاءَ فَقَدَهُ أَذَاهُ لَهُ إِنْ الْإِنَاءَ إِلَى الْكَسْرِ.. (٢)
 رَقِيقُكَ أَنْسَرَى فِي يَدَيْكَ فَلَا تَكُنْ غَلِيظًا عَلَيْهِمْ وَاتَّقِ اللَّهَ فِي الْأَنْسَرِ

. . .

وَلَا تَكُ تُمَنِّ قَرَبَ الْعَبْدِ شَارِحًا وَضَيْعُهُ إِذْ صَارَ مِنْ كِبَرِهِمَا (٣)..
 ويحض على رحمة الأُمى والأُمى :

تَصَدَّقْ عَلَى الْأَعْمَى وَخُذْ يَمِينَهُ لِتَهْدِيَهُ وَامْنُنْ بِإِفْهَامِكَ الصُّمَّ
 وعلى مشاركة المضيقين في النعم ، وعلى إكرام الطفلي ، وبيع الحروب
 وإراقة الدماء في طلب دولة ، وبعد الإقدام على ذلك بعداً عن
 السداد والرشاد :

فَإِنْ تَرَشُّدُوا لَمْ تَخْضِبُوا السِّيفَ مِنْ دَمٍ
 وَلَمْ تُلْزِمُوا الْأَنْيَالَ سَبَرَ الْجَرَاحِ (٤)

(١) القزوينات ٥ ص ٣٠٨ .

(٢) القزوينات ٥ ص ١٤٧ وفيها : « إل كسر » .

(٣) القزوينات ٥ ص ٢٣٨ ، والشارح : الشاب . والميم : الشيخ الفاني .

(٤) القزوينات ٥ ص ٨٤ وفيها : « لا تخضبوا ... ولا تلزموا » . والبر :

امتحان غور المرح وغيره .

وسياتي في الكلام على أغراض شعره ما يدل على شدة عطفه على الإنسان والحيوان .

رأفته بالمرأة

وقد نظر إلى المرأة من حيث أنها سبب للفصل الذي دنتس وجه البسيطة بأعماله ، فأطرها وأبلا من سحقه وقسوته ونظر إليها من حيث أنها حمى فيه حس وشعور ، وموضع لصنع البر والجمل ، فأدلاها من العطف والشفقة نصيباً أوفر مما أعطاه الرجل ، لأنه يعتقد أن الأجر يلتبس في كل نفس حية ، وإذا تأملنا حملاته في شعره على المرأة تبين لنا أن السبب في ذلك إفراطه في الغيرة عليها لأنها موطن العار والشنار ، وإفراطه في سوء الظن في الرجل بالذات لا علمه من أهل عصره ومن قبله . على أنه أوصى بها خيراً ، ونهى عما يجلب لها الضر والتفليس ، ونهى عن مضادتها وفضل الأم على الأب ، وأوصى أن يزداد برها وحفظها من الإرث ؛ كما ستري ذلك في الكلام على المرأة في أغراض شعره . وامل الإنسان لا يبالغ إذا قال : إن في قلب المعري من الرحمة والرأفة بكل ذي نفس حية ما لا يجده في كثير من قلوب الناس ، وحسبك دليلاً على هذا إعراضه عن أكل الحيوان وما تولد منه ، وامتناعه عن أكل القترّوج لما وصفه له الطبيب . وسترى في كلامه ما يدل على أن سبب كرهه الإنسان هو الإشتاق على الفصل مما يعاينه في حياته .

عدم نزوم

كان أبو العلاء فقيراً أليماً عفيفاً زاهداً في الحياة وما فيها ، وكانت أمه تقوم بأوده مدة حياتها ، فلما توفيت كانت حاجته شديدة إلى من يخدمه

وبصلح أموره ، ولا يتأني مثل ذلك إلا من امرأة . ولو أراد الزواج لوجد في بنات عمه وغيرهن من لا ياباه ، ولكنه اشتق أن يحله الزواج على إنفاق أكثر مما كان يستغله ، فيضطر إلى أن يقبل شيئاً من إخوته أو بني عمه أو أخواله أو غيرهم ، فأثر أن يصاحب الجهد والتعب مدة حياته ، ولا يبذل ماء وجهه بسؤال .

وربما أضاف الى هذا ما يحتاج إليه الولد من العناية بتربيته والإنفاق عليه ، وهو عاجز عن القيام بأمر نفسه مستطيع بغيره . وهناك شيء آخر ربما كان له أعظم أثر في إعراضه عن الزواج ، وهو رافته بالولاد وإنفاقه بما يعانيه في حياته ، شأن كل حي ، كما يشير الى ذلك قوله : (١)

إِذَا مَا اسْتَهْلَ الطُّفْلُ قَالَ وَلَا تُهْ وَإِنْ صَمْتُوا عَانَ الْخُطُوبَ وَرَشَقَهَا

وقوله في آيات منها : (٢)

فَإِمَّا أَنْ يُرِيَّهُ عَدُوًّا وَإِمَّا أَنْ يُرِيَّهُ سَقِيمًا ...

وربما خاف ألا ينجب في نسله ، فيكون ذلك منتصاً له في حياته مسبباً لسمته في حياته وبعد مماته ، ويشعر بهذا قوله : (٣)

لَوْ أَنَّ بَنِيَّ أَفْضَلُ أَهْلِ عَصْرِي لَمَا أَثَرْتُ أَنْ أُحْظَى بِنَسْلِ
فَكَيْفَ وَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ مِثْلِي خَسِيسٌ لَا يُجِيءُ بِغَيْرِ قَتْلِ

(١) اللزوميات ٥ ص ٣٠٣ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٤٣ ، وفيها : « أَنْ يُحْدِثَ » بجا .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٢١٨ . والفصل : الرذل .

ونهي آخر ربما كان هو أعظم باعث له على عدم الزواج وهو أنه كان شديد الغيرة ، مرفناً في إساءة الظن بالمرأة ، حتى لا يريد منها التعلم ولا الخروج إلى الحج والمسجد والحمام والسطح والعراف والمنجم ونحو ذلك بما رأته وستره في كلامه ، فربما خشي منها ما لا يرضاه ولا يساعده على مراقبتها مما . وقد كانت حالة المرأة في عصره ، على ما وصفه في شعره ، تدعو إلى إساءة الظن ، فهذه جملة من الأسباب التي دعت إلى عدم الزواج . وهناك أسباب أخرى ، وسيأتي تفصيل هذا في الكلام على الزواج والنسل والمرأة .

نقراه

أشرنا فيما تقدم وفيما يأتي إلى أن أبا العلاء كان شديد التسك بدينه ، محافظاً على شعائره ، وقد كانت الصلاة عنده أنقى شيء وأفضل ، يدل على ذلك مثل قوله (١) :

وَشَهِدْتُ خَالِقِي أَنَّ الصَّلَاةَ لَهُ أَتَمُّ عِنْدِي مِنْ دُرِّي وَيَأْقُوتِي
وقد حض عليها في مواطن من شعره كقوله (٢) :

خُذُوا سِيرِي فَمَنْ لَكُمْ صَلَاحٌ وَصَلُّوا فِي حَيَاتِكُمْ وَزَكُّوا...
وقوله (٣) :

إِذَا كُنْتَ فِي دَارِ الشَّقَاءِ مُصَلِّياً فَإِنَّكَ فِي دَارِ السَّعَادَةِ سَابِقُ
إِذَا الْحُرْمُ لَمْ يَنْهَضْ بِفَضْلِ صَلَاتِهِ فَذَلِكَ عَبْدٌ مِنْ يَدِ الدَّهْرِ أَبَقُ

(١) الزويات ، ص ٦٦ ، وفيها : « أجل عندي » .

(٢) الزويات ، ص ١٨٤ .

(٣) الزويات ، ص ٢٩٨ .

(٤) في الزويات : « بغرض » . والآخر : من أبى البديهي ذهب أو استحق .

ولم يحدثنا التاريخ أنه ترك صلاة في سفر ولا حضر ولا صفة ولا مرض ،
ولما عجز عن القيام كان يعلي قاعداً ، وكان يصوم الدهر ما عدا أيام
الأيام ، ولم تجب عليه زكاة ولا حج . ومن تتبع أعماله لم يجد فيها
ما يخالف التقى ، وفي أقواله ما يدل على أنه كان يحب التقى والنسك
وعمل الخير والإخلاص في العمل ، وأنه يرى التقى أفضل ذخيرة ، وذكر
الله خير ما يتكلم به المرء ، وهذه طائفة من كلامه في ذلك :

لِيُشْغَلَ بِذِكْرِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ فَذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُ كَلَامٍ^(١)

وَمَنْ يُبَلِّغَ بِالْدُّنْيَا وَسُوءَ فَعَالِهَا فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا التَّعَبُّدُ وَالنُّسْكُ^(٢)

فَعَلَيْكَ بِالتَّقْوَى ذَخِيرَةَ طَاعِنٍ إِنَّ التَّقِيَّةَ أَفْضَلُ الْأَذْخَارِ^(٣)

وَمَنْ يَذْخُرْ لِطُولِ الْعَيْشِ مَالًا فَإِنْ تَقَايَ عِنْدَ اللَّهِ ذُخْرِي^(٤)

أُعِدُّ أُنْسَى الرَّبِّحِ فِعْلَ التَّقَى فَلَا أَكْزَرَبُ مِنْ الْخَاسِرِينَ^(٥)

(١) الزوبيات ٥ ص ٢٤٦ .

(٢) الزوبيات ٥ ص ١٨٢ .

(٣) الزوبيات ٥ ص ١٦٤ .

(٤) الزوبيات ٥ ص ١٥٤ .

(٥) الزوبيات ٥ ص ٢٨٥ .

وأنه يرى الناصقين خير الناس :

قَوُّ الشُّكِّ خَيْرُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ

وَزَيْبُهُمُ بَيْنَ الْمَعَاشِرِ خَيْرُ زَيْبٍ^(١)

وأن المصيبة بالدين أجل من المصيبة بالموت :

مُصِيبَةٌ دِينِهِ كَوْ كَانَ يَنْدِرِي أَجْلُ مِنَ الْمُصِيبَةِ بِالْذِّفَنِ^(٢)

★ ★ ★

وقد ذكرنا عند الكلام في اعتقاده بالله ما يشهد بأنه من الأنبياء البررة .



(١) الزويات ٨ من ٣٤٧ .

(٢) الزويات ٨ من ٢٧٩ .

رجاءه وخوفه

الرجاء

الرجاء في اللغة الأمل والإرادة ، يقال : رجا الشيء إذا أراد ، وقال بعضهم : هو ظن يقتضي حصول ما فيه مرة ، وقال آخر : هو ترقب الانتفاع بما تقدم له سبب ما ، وقال آخر : هو لغة الأمل ، وعرفاً : تعلق القلب بحصول محبوب مستقبلاً ، وفي الصباح : « ويسعمل الرجاء بمعنى الخوف ، لأن الراجي يخاف أنه لا يدرك ما يترجاه » ، وفي التاج : « لما يستعمل الرجاء بمعنى الخوف إذا كان مع حرف نفي ، ومنه قوله تعالى ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾^(١) » المعنى : ما لكم لا تخافون لله عظيمة ، ونقل نحو ذلك من الفراء .

والرجاء مقام من مقامات السالكين ، وهو عند فريق من الصوفية ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده بعد أن تتوفر فيه جميع الأسباب التي تكون داخلة تحت اختياره ، فإذا آمن الإنسان بالله ، وقام بكل ما يجب عليه من الأعمال الظاهرة ، ونزع ما في صدره من غل وحقد ، وطهره من الأخلاق الذميمة والعقائد الزائفة ، ثم انتظر فواب الله وعونه كان انتظاره هذا رجاء محموداً ، فإن لم تتوفر جميع هذه الأسباب وانتظر الثواب أو العفو كان انتظاره هذا غروراً مذموماً ، وهذا ما أراد به يحيى ابن معاذ^(٢) بقوله : « من أعظم الاغترار التماذي في الذنوب مع رجاء العفو

(١) سورة نوح الآية (١٣) .

(٢) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جسر الرازي ، واعظ زاهد ، من أهل الري ، أقام يلغ ومات في نيسابور سنة ٢٥٨هـ انظر : الرومي على شرح الرسالة القشيرية :

١١٩/١ ، وطلعت الصوفية ١٠٧ - ١١٤ .

وتوقع الرب من الله بغير طاعة . . .
وفي كلام أبي العلاء أمثلة مختلفة تدل على أنه كان حسن الظن بالله ،
واسع الرجاء في رحمة وعدله ، كثير الطمع بعفوه ، وهذه جملة منها :
وَمَا كَانَ الْمُتَمَيِّنُ وَهُوَ عَدْلٌ لِيَقْصُرَ حِيلَتِي وَيُطِيلَ لَوْمِي^(١)

إِنْ أَدْخَلَ النَّارَ فَلِي خَالِقٌ يَحْمِلُ عَنِّي مُثْقَلَاتِ الْعَذَابِ^(٢)

أَوْمَلُ عَفْوَ اللَّهِ وَالصَّدْرُ جَائِشٌ إِذَا خَلَجْتَنِي لِلْمُنُونِ الْخَوَالِجِ^(٣)

أَخْشَى عَذَابَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَادِلٌ

وَقَدْ عِشْتُ عَيْشَ الْمُسْتَضَامِ الْمُعَذَّبِ^(٤)

وَأِنِّي وَإِنْ لَمْ آتِ خَيْرًا أَعِدُّهُ لَا مَلُ إِرْوَاءَ بِغَيْرِ ذُنُوبٍ^(٥)

لِيَفْعَلَ الدَّهْرُ مَا يَهْمُ بِهِ إِنْ ظَنُّونِي بِخَالِقِي حَسَنَةً^(٦)

لَا تَنَاسُ النَّفْسُ مِنْ تَفْضُلِهِ وَأَوْ أَقَامَتْ فِي النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ

(١) الزوبيات ٥ ص ٢٥٢ .

(٢) الزوبيات ٥ ص ٥٦ .

(٣) الزوبيات ٥ ص ٧٣ .

(٤) الزوبيات ٥ ص ٤٥ .

(٥) الزوبيات ٥ ص ٤٧ ، وفيها : ... بغير ذنوب ، ، والذنوب : الدلو

إذا كان فيها ماء .

(٦) الزوبيات ٥ ص ٢٧١ .

الخوف

والخوف في اللغة الفزع ، وقال الراغب : الخوف توقع مكروه عن
أمانة مظنونة أو معلومة ، كما أن الرجاء توقع محبوب عن أمانة مظنونة
أو معلومة .

والخوف مقام من مقامات السالكين ، وهو عند بعض التصوفة عبارة
عن تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل . وليس الرجاء مضاداً
للخوف ، بل كل منهما باعث على مجاهدة النفس والحض على الطاعة المقررة
من الله ولكن أحدهما بطريق الرغبة والثاني بطريق الرهبة .

والخوف قد يكون من المخلوق ، وهو إما أن يكون سببه
ذنب الخائف ، كمن جنى على رجل أقوى منه فإنه يخاف انتقامه ، وإما
أن يكون سببه طبيعة الخوف منه كالأسد والنار والحية .

وقد يكون الخوف من الخالق ، وهذا قد ينشأ عن ارتكاب الإنسان
ما نهاه الله عنه . وقد ينشأ عن معرفة الله وصفاته ، فإن من يعلم أن الله
شديد العقاب ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، وأنه لا تجب عليه إثابة الطائع
بل تجوز عليه معاقبته . لا يأمن عقاب الله . وقد ينشأ الخوف مما يتعرضه
الإنسان من المكروه قبل الموت ، كزوال النعم وتتابع النقم من الآفات
والسقم . أو بعد الموت كالقبر وما في القيامة من حساب وعذاب ودخول نار .
والخوف من الله إما أن يكون خوفاً من عذابه ، وهو خوف
عامة الناس ، وإما أن يكون خوفاً من الله نفسه ، وهو خوف الخاصة
العارفين من صفات الله ما يوجب الحذر منه والمدركين معنى قوله تعالى :
﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وأشد الناس خوفاً الأنبياء ثم العلماء العارفون
صفات الله التي توجب الخوف منه .

والخائفين أحوال مختلفة ، وقد وقع في كلام المعري ما يدل على أنه شارك القوم في نواح كثيرة ، فقد كان فريق منهم يرى أنه حقير في نفسه ، وأن أعماله لا تؤمّله لدخول الجنة فيستعيز بالله من النار . وقد روي عن عبد الله بن المبارك ^(١) أنه خرج يوماً على أصحابه فقال لهم : « إني اجترأت البارحة على الله وسأله الجنة » . ومن هذا النوع قول أبي العلاء : ^(٢)

يَا رِضْوً لَا أَرْجُو لِقَاءَكَ بَلْ أَخَافُ لِقَاءَ مَالِكٍ

وفريق منهم تذكر ما بينه وبين الموت من الخطر الذي يخاف منه سوء الحاققة ، وعدم الثبات على الهدى ، وتذكر ما بعد الموت من حساب وعذاب فقلب عليه الوجوم ، وقد روي أن الحسن البصري ^(٣) ما ضحك أربعين سنة . وقيل لسعيد بن جبير ^(٤) : إنك لم تضحك قط . فقال : كيف أضحك وجههم قد سعرت ، والأغلال قد نصبت والزانية قد أعدت ؟ وإليك أمثلة من كلام أبي العلاء تمثل الخوف ، ما يعانيه المرء في حياته وبعدها ويتوقفه من شر ومكروه فيها وما يخشاه من ربه .

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي الحنظلي بالولاء ، التبي . ولد سنة ١١٨ هـ وتوفي ببيت سنة ١٨١ هـ . انظر تذكرة الحفاظ ٢٥٣/١ والفتاوى ٢٩٥/١ .

(٢) القزوينيات ٥ ص ١٩١ .

(٣) هو الحسن بن يسار البصري أبو سعيد ، تابعي ، إمام ولد سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١١٠ هـ .

(٤) هو أبو عبد الله سعيد بن جبير الأسدي بالولاء ، تابعي ، ولد سنة ٤٥ هـ وتوفي سنة ٩٥ هـ ، انظر الوفيات ٢٠٤/١ .

الخوف من عناء الحياة :

ضَحِكْنَا وَكَانَ الضُّحْكُ مِنَّا سَفَاهَةً^(١)

إلى آخر البيت .

الخوف من الله :

أَمَّا الْحَيَاءُ فَلَا أَرْجُو نَوَافِلَهَا لَكِنِّي لِإِلَهِی خَافْتُ رَاجٍ^(٢)

الخوف من الغلود في النار :

يَا هُونَمَا أَوْعَدَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِهِ إِنْ صَارَ جَنَمِي فِي تَحْرِيقِهِ رِمَا^(٣)
وَلِيْنَا هُوَ تَخْلِيدٌ بِلا أَمَدٍ تَنْضِي الدُّهُورُ وَصَالِي النَّارِ مَا رَحِمَا

الخوف من تغير الحال :

لَا يُعْجِبُنْكَ إِقْبَالُ يُرِيكَ سَنًا إِنْ أَلْخَمْتُ دَلْعَمْرِي غَايَةَ الضَّرَمِ^(٤)

. . .

يَبْتَنِي رَاغِبٌ فَمَا تَكْمُلُ الرَّغْبَةَ حَتَّى يُهْدِمَ الْبُنْيَانُ^(٥)

. . .

(١) الزوميات ٥ ص ١٨٢ ، وعجز البيت : «وَحْنٌ رَأْسُكَانَ الْبَسْطَةِ أَنْ يَبْكُوا» .

(٢) الزوميات ٥ ص ٧٧ .

(٣) ورد البيتان في لزومية واحدة : المم الفتوحة واللازم حله ص ٢٤١ - ٢٤٢
وهنا كانت ثانية البيت الأول فيها : «فَمَا» .

(٤) الزوميات ٥ ص ٢٤٧ .

(٥) الزوميات ٥ ص ٢٦٣ .

فَرَأَيْبِ اللَّهُ إِنَّ السَّعْدَ يَتَّبَعُهُ نَخْسُ وَإِنْ لَجَمْعِ الدَّهْرِ تَفْرِيقًا^(١)
الغوف من الله وسخطه ومن تنويطه في حلق الله وإفراطه في
هو نفسه :

أَعُوذُ بِرَبِّي مِنْ سُخْطِهِ وَتَفْرِيطِ نَفْسِي وَإِفْرَاطِهَا^(٢)

لَوْلَا حِذَارِي أَنَّ اللَّهَ يَسْأَلُنِي عَمَّا فَعَلْتُ لَقُلْتُ عِنْدِي الْكُلْفُ^(٣)

وهناك أمثلة مختلفة من خوفه تدل على أنه كان كثير الحزن والوجوم
من خوفه من الله ومن عقابه . وقد ظن بعض الأدباء أن هذا من باب
التشاؤم ، وقد تقدم الكلام فيه .

الأمال في الأعمال

الأمال التي تصدر عن الإنسان أنواع : منها ما هو من عمل القلب ،
وهو النية واللصد ، ومنها ما هو من الجوارح ، وهذه ثلاثة أنواع :
طاعة ، ومباح ، ومعصية . وكل واحد منها لا يخلو في الغالب عند وقوعه
من نية وقصد ، والنية مع كل واحد شأن .

أما الطاعة فتتوقف صحتها أو ثوابها على النية ، وتنقلب مع النية محصية ،
كالوصلي وأراد بالصلاة أن يظهر أنه من أهل النك .

وأما المباح فينقلب بالنية إلى طاعة ومعصية ، كما لو أعطى درهماً إلى
فقير ليسد به رمقه ، أو لبشتر به خمره .

(١) الزوبيات ٥ ص ٣٠٤ .

(٢) الزوبيات ٥ ص ١٨٠ .

(٣) الزوبيات ٥ ص ٢٩١ .

وأما المعصية فلا تؤثر فيها الذبّة ولا تغلبها طاعة ، كما لو سرق درهماً .
ليصدق به .

فالتبّة هي التي تميز الغرض المقصود من الطاعة والعمل المباح .

الأهمّ

وقد اختلفت كلمة التّرم في معنى الإخلاص وتعريفه ، لسبب اختلاف مقاماتهم وأحوالهم ، وبالنظر إلى تنوع درجات الإخلاص ، واختلاف السائلين عنه ، ولعل أقرب ما يقال فيه إلى الصواب هو أن يريد الإنسان بعمله وجه الله تعالى فقط ، ولا يبر برباله شيء من الحظوظ النفسية العاجلة أو الآجلة ، وهو شرط في كل عبادة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِرِيبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١) .
وبما لا ريب فيه أن الإنسان مخوف بالشهوات منغمس في الحظوظ ، فلا يتنى له تنقية قلبه منها بسهولة ، ولذلك قال بعض العلماء : من سلم له من صمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجى .

ثم إن العبد قد يكون خالصاً محضاً بأن لا يريد به إلا الله ، وقد يكون رياء محضاً بأن يريد به غير الله ، وقد يكون مزوجاً منها بأن يريد به وجه الله شيئاً آخر من الحظوظ الدنيوية أو الآخروية أو منها . وقد انتقت كلمة الجمهور على أن الإخلاص سبب للثواب ، وأن الرياء سبب للعقاب . واختلفوا في المشوب منها ، فقليل : إنه لا ثواب له . وقال قوم : إذا كان الباعث دينياً ونفسياً فإن كانا متساويين ناسطاً ، وكان العمل لاله ولا عليه ، وإن كان الرياء هو الغالب ، فالعمل ليس بشافع ، بل يقضي إلى العقاب لكنه أخف من عقاب الرياء المحض ، وإن

كان الباعث الديني هو الغالب فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني . والأقرب إلى العقل أن العمل إذا لم يكن خالصاً فله فليس بنافع . وأبو الغلاء كان يحب الاخلاص في العمل ويحضر عليه في مثل قوله :

إِذَا مَا فَعَلْتَ الْخَيْرَ فَاجْعَلْهُ خَالِصاً

لِرَبِّكَ وَازْجُرْ عَنْ مَدِيحِكَ السُّنَا^(١)

. . .

إِذَا أَتَخَلَّصْتَ لِلْخَلْقِ سِرّاً فَلَيْسَتْ مِنْ ضَوَائِرِكَ الضَّوَارِي^(٢)

وقد وافق القوم في أن الرباء محبط للعمل في مثل قوله :

إِذَا قِيلَ : إِنَّ الْفَتَى نَاسِكٌ وَرَامَ الْجَمَالَ فَلَا تُسْك [له]^(٣)

وله في باب الأعمال أقوال وآراء يمكن ان تلخص بما يأتي .

١ - إن النكس الظاهر والتلبس بشعار الصالحين ليسا من الخير في شيء ،

وإنما الخير في تركيبة النفوس وتطهيرها من الأخلاق الذميمة ، وهذا يتجلى

في مثل قوله^(٤) :

مَا الْخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصَّائِمُونَ لَهُ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا صُوفٌ عَلَى الْجَسَدِ

وإِنَّمَا هُوَ تَرْكُ الشَّرِّ مُطَرَحاً وَنَفْضُكَ الصَّدْرَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ

(١) الزوبيات ٥ ص ٢٦٤ .

(٢) الزوبيات ٥ ص ١٥٦ .

(٣) الزوبيات ٥ ص ٢٠٩ .

(٤) الزوبيات ٥ ص ١٠٩ .

فالصوم في رايه كتب النفس عن شهواتها للظاهرة ، وتطهيرها من الشرور الباطنة والظاهرة ، وليس هو عبارة عن منعها عن الطعام والشراب والجماع فقط ، وعلى هذا يرى أن القول الباطل مبطل للصوم ، مفيت للغة المقصودة منه ، مذهب للثواب المتوقع منه وهذا مجمل قوله (١) :

إِذَا الْقَوْمُ صَامُوا فَعَاقُوا الضَّعَامَ وَقَالُوا الْحَالُ فَقَدْ أَفْطَرُوا

وقال في (الفصول والغايات ص ٢٨) : «صوم الآبد أفضل من صوم المفطر على حرام فاذا صمت عن المآثم فعند ذلك صم عن الطعام . . .»

وقد قال بعض المحققين : الصوم أقسام ، صيام العوام وهو الصوم عن مفسدات الصيام ، وصيام الخواص وهو الصوم عنها وعن إطلاق الجوارح في غير طاعة ، وصيام خواص الخواص ، وهو حفظ قلوبهم عما سوى الله ، ففطرهم ظاهراً كفطر المسلمين ، ولا يفطرون باطناً إلى يوم الدين ، فاذا شاهدوا مولاهم ونظروا إليه عياناً أفطروا .

فأبيات أبي العلاء المتقدمة تدل على أنه يريد بالصوم صوم الخواص ، ويجوز أن يكون أراد به صوم خواص الخواص .
وأما قوله :

أَنَا صَائِمٌ طُولَ الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا فِطْرِي الْحِمَامُ وَيَوْمَ ذَاكَ أُعِيدُ

فالظاهر أنه يريد به القسم الأخير .

٢- إن الإنسان مهما فعل من أنواع النك لا يعد ناسكاً إذا لم يملك نفسه عن أطعائها ، بل يعد جاهلاً بمحبة الدين وهذا يظهر في

(١) اللزومات ص ١٣٥ .

٢٥ الحام لأخبار أبي العلاء ١

مثل قوله (١) :

سَبِّحْ وَصَلْ وَطُفْ بِمَكَّةَ زَائِرًا سَبْعِينَ لَأَسْبَعَا فَلَسْتَ بِنَاسِكَ
جَهْلَ الدِّيَانَةِ مَنْ إِذَا عَرَضَتْ لَهُ أَطْمَاعُهُ لَمْ يُلَفَّ بِالْمُسْتَمْسِكِ

٣- إن كل عبادة يجب أن تكون خالصة لله ، لا يراد بها إلا تعظيها
وامتثال أمره ، يدل على هذا قوله (٢) :

وَأَعْبُدُ اللَّهَ لَا أَرْجُو مَثُوبَتَهُ لَكِنْ تَعَبَّدُ عِظَامٍ وَإِجْلَالِ
٤- إن الواجب على الإنسان أن يذهل الخير ، لأنه خير ، لا طمعاً

في الثواب المترتب عليه :

فَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِأَجْلِ ثَوَابِهَا (٣)

٥- إن ترك الواجب أقرب إلى الله من فعله إذا لم يكن خالصاً لله :

إِذَا رَامَ كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُقِيمُهَا فَتَارِكُهَا عَمْدًا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبُ (٤)

فإن ترك الصلاة عمداً كبيرة ، والصلاة لغير الله شرك ، وهو أعظم
من تركها ممدداً . وقال في (الفصول والغايات) : « صلاة المنافق صلاة
النار ، وطهارة الخلد أبلغ من طهارة الجسد بالماء » .

الرياء

يقال راءيت الرجل إذا أريته أني على خلاف ما أنا عليه . هذا هو
الأصل فيه ، والرياء عند المحققين ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله

(١) الزواريات ٥ ص ١٨٩ .

(٢) انظر فائت شعر أبي العلاء ص ١١ جمع عبد العزيز الميمني . وفيه « تعبد إكرام » .

(٣) الزواريات ٥ ص ٥٢ .

(٤) الزواريات ٥ ص ٣١ .

فيه ، وقال بعضهم : هو إظهار العمل للناس ليروه ويظنوا به خيرا . فالعمل لغير الله . وقد يكون الرياء فيها لا يوجب كفرا ، كما إذا أراه أنه غني وهو فقير ، أو أنه قوي وهو ضعيف . ومن هذا النحو ما رواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب (رض) أنه قال : فما لنا وللرمل وإنما كنا راينا به الشركين وقد أهلكهم الله . ثم قال : شيء صنع النبي ﷺ فلا نحب أن نتركه . ومعنى قوله : كنا راينا ... أردنا أن نظهر القوة للشركين بالرمل لعلوا أن لا نعجز عن مقاومتهم ولا نضعف عن محاربتهم ، وقد أهلكهم الله ، فما لنا من حاجة اليوم الى ذلك . وفي كلام أبي العلاء أبيات كثيرة تدل على أنه كان يحكم على نفسه بما يحكم به على الناس للشاكلة ، وهو يريد ذمهم بتلك الصفة كقوله (١) :
 إِذَا سَأَلُوا عَنْ مَذْهَبِي فَهَوَّيِّنْ وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِثْلُ غَيْرِي أَبْلَهُ
 ومن هذا النوع قوله (٢) :

أَرَأَيْكَ فَلْيَغْفِرْ لِي اللَّهُ زَلَّتِي بِذَلِكَ وَدَيْنُ الْعَالَمِينَ رَنَاهُ
 وَقَدْ يُخَافُ الْإِنْسَانُ ظَنِّ عَشِيرِهِ وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنَظَرٌ وَرَوَاهُ
 فإنه لا يراد منه أنه مرآة حقيقة . إذ من البعيد أن يعرج بمثل هذا لو كان حقيقيا ، وإنما يراد منه أن هذه الحصلة الذميمة تنفت في جميع الناس حتى يكاد كل واحد منهم يعمل بها لجاري الناس ، لأنهم لم يألفوا غيرها ، أو لم يرج في أسواقهم سواها ، يدل على هذا قوله بعد البيتين المتقدمين :

إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَغْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ بِنُضْحٍ فَإِنَّا مِنْهُمْ بُرَاءُ

(١) الزوبيات ٥ ص ٣٢٩ .

(٢) الزوبيات ٥ ص ٢١ .

النفاق

ومن هذا القبيل ما جاء في كلامه من ذم النفاق وأهله وفشوه في أصناف الناس وطبقاتهم . والنفاق ، في الأصل ، مصدر نافق اليربوع إذا دخل في نفاقه ، وهو موضع يرقه من جحره ، فإذا آتى من قبل القاصعاء ضرب النفاق برأيه فخرج ، وقيل إن جحره اليربوع سبعة : القاصعاء والنفاق وغيرهما . ومن النفاق اشتق المنافق في الدين ، والنفاق فعله ، وهو الدخول في الإسلام من وجه والمخرج عنه من وجه آخر ، فقبل نأتى منافقة ونفاقاً ، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ، وهو ستر الكفر وإظهار الإيمان وعمله القلب (١) .

وقد تكرر ذكر هذا اللفظ وما تصرف منه اسماً أو فعلاً في الأحاديث النبوية ، ولا يلائم تفسيره بهذا المعنى في كثير من المواطن كقوله ﷺ : « أكثر منافقي أمتي قراؤها » وهذا الحديث رواه الإمام أحمد والطبراني (٢) وقوله : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ... » . وهذا حديث صحيح (٣) . وقوله : « أربع من كنن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ... » وهذا حديث صحيح (٤) . إلى غير ذلك من الأحاديث ، ولا يصح تفسيره هنا بالمعنى السابق ، أي إظهار الإيمان

(١) وهذا يتبين أن قول الحفاظ ابن حجر الآتي وهو : « النفاق لغة مخالفة الباطن »

إلى آخره : فيه نظر لأن اللفظ إسلامي . (ج)

(٢) والبيهقي وغيرهم وأحد أسانيد أحمد ثقات . (ج)

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وغيرهم . (ج)

(٤) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد وأبو داود والشافعي . (ج)

وإبطان الكفر ، ولذلك فسر ابن الأثير الحديث الأول ، فقال : أراد بالنفاق ما هنا الرياء لأن كليهما إظهار غير ما في الباطن . ونقل الناري ذلك عن الزمخشري ، وقال الحافظ ابن حجر : النفاق لغة مخالفة الباطن للظاهر ، فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر ، وإلا نفاق العمل ، ويدخل فيه الفعل والترك وتفاوت مراتبه .

وقال القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ٢١٢) : النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر فأما إذا كان في الأعمال فهو معصية ، ثم أورد الحديث المتقدم « أربع من كنن فيه ... »

وقد توسع بعض الأدباء فاستعمل لفظ النفاق وما اشتق منه في كل ما كان فيه إظهار غير ما في الباطن وإبطان غير ما في الظاهر ، سواء أكان من الأعمال الدينية أم من غيرها ، فإذا أظهر له المحبة وأبطن غيرها عدوه منافقاً ، وإذا جاره في استحسان شيء أو استقباحه عدوه منافقاً ، وهكذا . وأبو العلاء أكثر انتدبر ممن كان على هذه الشاكلة في مثل قوله في اللفظ (١) :

وَيُظْهِرُ لِي مَوَدَّتَهُ مَقَالاً وَيُبْغِضُنِي ضَمِيراً وَاعْتِقَاداً
وقوله في اللزوم (٢) :

أَرَاهُمْ يَضْحَكُونَ إِلَيَّ غِشًّا وَتَغَشَّانِي الْمَشَاقِصُ وَالْحِطَاءُ
فَلَسْتُ لَهُمْ وَإِنْ قَرُبُوا إِلَيَّ كَمَا لَمْ تَأْتِلَفْ ذَالُ وَظَاهُ

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٥٦٧ .

(٢) اللزومات ص ٢٢ ، والمشاخص : مفرد ما مشف . وهو الطويل أو الرقيق من السهام أو النعال . والحطاء : القصار .

ومن يتأمل اقوال أبي العلاء في هذا الموضوع يتبين له بجلاء تام أن هذا الخلق الذميمة تنشئ بين الناس واستطار شره ، وقلما خلا منه أحد حتى الأخلاء والخلصان فكم :

يُضَاحِكُ خِلًا خِلَةً وَضَمِيرُهُ عَبُوسٌ وَصَنَاعُ الْوُدِّ لَوْلَا مَرَافِقُهُ^(١)
وإذا امتحن خليله لا يجد عنده غير النفاق :

وَمَا عِنْدَ خِلِّكَ غَيْرُ النَّفَاقِ وَمَا خِلَّتُهُ نَاسِيًا فَادَّكَّرَ^(٢)
وقد تقام هذا الشر حتى أضى النفاق جنةً تبقى بها شر الأعداء ، وعادة الأجاب ، وقد ضعف تأثيره وحده لطول العهد ، فأخذ الناس يؤيدونه بالآتيان الكاذبة :

أَضْحَى النَّفَاقُ دُرُوعًا يُسْتَجَنُّ بِهَا مِنَ الرَّدَى وَيُقَوَّى سَرَدَهَا الْحِلْفُ^(٣)
وأصبح الإنسان عرضة الردى والحشرات إذا لم يلجأ الى هذا الحصن الحصين ، وينجر بهذه البخاعة التي لا يروج غيرها في أسواق الناس ، وقد اضطر أبو العلاء الى مجارة الناس والتظاهر بما يالفون ويحبون على ما يشر به قوله (٤) :

أَنَافِقُ فِي الْحَيَاةِ كَفِعْلٍ غَيْرِي وَكُلُّ النَّاسِ شَأْنُهُمُ النَّفَاقُ
لأنه إذا لم يجارهم في هذا المضمار اضطر إلى أن يعش منعزلاً عنهم ،

(١) الزوبيات ٥ ص ٣٠٠ .

(٢) الزوبيات ٥ ص ١٧٠ .

(٣) الزوبيات ٥ ص ٢٩٢ ، وسرد الروع : لبيها .

(٤) الزوبيات ٥ ص ٣٠٠ .

منفرداً ، لأنه لا يجد رجلاً يريثاً من هذه الحصة كما يشعر به قوله (١) :
 تُخَيَّرُ فَإِمَّا وَحْدَةً مِثْلُ مِيتَةٍ وَإِمَّا جَلِيسٌ فِي الْحَيَاةِ مُنَافِقُ
 وقد قدمنا أنه كان يحكم على نفسه بما يحكم به على غيره من أبناء
 زمانه ، ولا يريد حقيقة ، وإنما يريد أن هذه الحصة تمت أبناء زمانه كلهم
 فهو يذممهم ويذم نفسه معهم لأنه منهم ، ولا يكاد واحد منهم يكون
 خالياً منها . وإنما قلنا ذلك لأنه كان يعتقد أن النفاق يجلب ضيراً ولا يجزئ
 خيراً ، وأنه داء عضال وبنوة لا تقال ، كما قال (٢) :

يُنَافِقُونَ وَمَا جَرَّ النِّفَاقُ لَهُمْ خَيْرًا فَعُتِرَتْهُمْ مُعْيٍ تَلَا فِيهَا
 وقوله في النصول والنبات :

« طُعِنْتُ الْآفَاقُ ، فَإِذَا الدُّنْيَا نِفَاقٌ ، وَمَلَكْتُ مِنْ مَدَارَةِ الْعَالَمِ ، بَمَا
 يُضِرُّ غَيْرَةَ الْفَزَادِ ، فَاخْتَرْتُ الْوَحْدَةَ عَلَى جَلِيسِ الصِّدْقِ (٣) » . إلى آخر
 ما تقدم يدل على أنه اختار الوحدة لله من مداراة الناس بما لا يضره فزاده .

دينه ومعتقده

انقلبت كلمة المتقدمين والمتأخرين على أن أبا العلاء واسع العلم ، كثير
 الاطلاع والحفظ ، ذكي فطن ، شاعر مقلق . واختلفوا في دينه واعتقاده على
 أنحاء شتى ، فنقل ابن الجوزي عن أبي زكريا أنه قال : « قال لي المري :
 ما الذي تعتقد ؟ فقلت له : ما أنا إلا شك . فقال : وهكذا شيخك » . وزعم

(١) الزويات ٥ ص ٢٩٩ .

(٢) الزويات ٥ ص ٣٣٦ .

(٣) كذا في الأصل . (ج)

فريق أنه في حيوة ، ومنهم ابن دقيق العيد محمد بن علي المتوفى سنة ٥٧٠ هـ .
وقال فريق : إنه كان لا يثبت على نحلة ، ولا يبقى على قانون واحد ،
بل يجري مع القافية إذا حصلت . ونقل هذا القول عن السلفي . وقيل إنه
شيعي ، وقيل معتزلي ، وقيل جعري ، وقيل يرى رأي البراهمة في إثبات
الصانع وإنكار الرسل ^(١) وتحريم الحيوان وإبذائه حتى الحيات والعقارب ^(٢)
وقال ابن الشحنة في روضة الناظر ^(٣) : إنه ترك أكل اللحم خفاً وأربعين
سنة على مذهب الهند ، وترك البيض واللبن ، وحرم إتلاف الحيوان .

وقال ابن كثير ^(٤) : إنه لا يأكل اللحم ، ولا اللبن ولا البيض ،
ولا شيئاً من حيوان ، على طريقة البراهمة الفلاسفة . وقال الياقيني ^(٥) يرى
رأي الحكماء المتقدمين إذ لا يأكلون اللحم لكيلا يذبحوا الحيوان إذ لا يرون
إلزام الحيوان . وقال باقوت ^(٦) : كان منها في دينه ، يرى رأي البراهمة ،
لا يرى إفساد الصورة ، ولا يأكل لحماً ولا يؤمن بالبعث والنشور . وقال
في مرآة الزمان ^(٧) : إنه يرد على الرسل ، ويعيب الشرائع ، ويمجد البعث .
وقال الذهبي ^(٨) : رسالة الغفران في مجلد ، قد احتوت على مزدكة

(١) لسان البزان . (ج)

(٢) الذمى . (ج)

(٣) انظر تعريف القدماء بأبي اللاه س ٣٠٩ عن روضة الناظر - لابن الشحنة

(٤) المصدر السابق س ٣٠٣ عن البداية والنهاية - لابن كثير

(٥) س ٢٩٩ ، عن مرآة الجنان - لـ الياقيني

(٦) س ٧٦ ، عن إرشاد الأريب - لـ باقوت

(٧) س ١٤٤ ، عن مرآة الزمان - لسبط ابن الجوزي

(٨) س ١٨٩ ، عن تاريخ الإسلام - للذهبي - والمزدكة :

منه مذهب مزدك المجوسي الفارسي ، الذي يقول بالثنوية التي ترد العالم إلى أصاين
هما النور والظلمة ، وأن للخير إلهاً وللشر إلهاً .

واستغفاف . وقال في المنتظم عن ابن عقيل ^(١) : إن أبا العلاء كافر في الظاهر ، مسلم في الباطن ، على عكس المناقبين .
ومنهم من قال : إنه ساحر ، واستدل على ذلك بأنه قتل الضيوف الحسين بـهره ورصده .

وزعم بعض المستشرقين أنه قرمطي . وزعم آخرون أنه درزي ، وآخرون أنه من أصحاب النقية . وزعم بعض المتأخرين أنه جامع للتناقضات فهو مؤمن كافر ، برّ فاجر ، تقي زنديق ، وما شئت أن تقول فيه فقل . وزعم آخرون غير ما تقدم .

ومنهم من جزم بصحة دينه وفوه يقينه ، ومنهم من قال : إنه تاب وارعوى وأتاب . ومنهم من قال : هو جوهرة جاءت إلى هذا الوجود وذهبت ، وهذا القائل هو الشيخ كمال الدين الزملاكي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، ومن احتذى على مثاله .

وأكثرهم على أنه كافر أو زنديق أو ملحد أو منهم في دينه ، وقلما تكلم أحد فيه وبرأه من مثل هذه التبعوت . وفيهم من لو طولب بدليل على ما يقول لما استطاع أن يأتي بشيء .

أسباب تكفيره ورصده بالزندقة ونحوها

ولعل قارئاً يقول : ما السبب في تألب الناس على تكفيره والظعن في دينه ؟ فنقول : من استقرى حياة أبي العلاء ، وأمعن النظر فيها وهب الله من المواهب الفطرية والكسبية ، وما أتبع له من الخطوة عند الملوك والأمراء وأعيان الأمة ، وجد أسباباً كثيرة للظعن فيه . من أعظمها الحمد ، وتشدد العلماء في الدين ، وحب الظهور ، والولوع بالإغراب والهمز . ولكل واحد من هذه الأمور سبب يوجهه أو أسباب تقتضيه .

(١) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠ ، عن المنتظم - لابن الجوزي - وما عده المؤلف تلخيصاً للغير .

الحسد

أما سبب الحسد ، فإن الله وهب أبا العلاء من الفطنة ، وقوة الحافظة ، وحصافة العقل ، ودقة التفكير ، وسعة الخيال ، وغزارة القريحة ، وفيض الخاطر ، وسعة العلم ما لم يجه لكثير من الشعراء والعلماء . وآتاه من العفاف والفتاة والشم ما لم يؤته كثيراً منهم . ورزقه بسبب ذلك من الحظوة عند أعيان الدولة والأمة ما لم ينل معشاه كثير من العلماء والشعراء . ومنحه من سيورة الذكر والشهرة ما لم يتح لغيره في عصره ، فكانت الملوك والأمراء وعظماء الأمة يبذلون في إكرامه والاحتفاء به ، ويكلفونه أن يصنف لهم الكتب والرسائل . وكانت الفضلاء يؤمنونه من كل حدب وصوب ، حتى قال ابن العديم^(١) : « ماعلت وزيراً مذكوراً ، أو فاضلاً مشهوراً ، مرجعة النعمان في ذلك [الصبر و] الزمان ، إلا وقصده واستفاد منه ، أو طلب من تصنيفه ، أو كتب عنه » .

وقد بذل له الخلفاء والأمراء وأصحاب الكلمة النافذة أموالاً جمة فألأها على ضيق ذات يده ، وكان غيره من العلماء والشعراء يبذل ما وجه في عتبات الأمراء والمغنين ، ويجوب الآفاق ليزيد ثروته الزائدة عن حاجاته . فهذه الحظوة عند الأمراء ، والمنزلة عند الكبراء ، وتلك المواهب ، أجمعت نار الحسد في قلوب أعدائه وخصومه ، فكانوا يكيدون له ، ويتربصون به السوء ، وقد بدفع الحسد صاحبه إلى استصغار كل كبير ، واستحسان كل قبيح ، ويزين له ما يباهي الدين والمروءة ، وزادهم حسداً وحشداً عليه أنه أحدث في النظم والنثر ما لم يوفقوا إلى مثله ، حتى

(١) تعرف القدماء بأبي العلاء من ٥٦٥ ، عن الإنصاف والحريري - لابن العديم

أخذ جذوتهم ، وأخل ذكرهم ، فكانوا يدايون في إخماد جذونه ، وإخال ذكره ، ولم يجدوا ميلاً بوصلهم إلى غاياتهم أبسر من الطعن في دينه .

النقد في الدين

كان أبو العلاء يعتقد أن كل عقل نبي ، ولذلك كان يعول في أحكامه على العقل ، ويأبى أن يتركه صدى . وكانت حراً في تفكيره جريئاً في إبداء آرائه ، فلا يماري ولا يداري ، وقد تصدى في كلامه إلى كثير من الميل والنحل ، واعترض على كثير مما يعتقد أهل كل ملة ، وجبت رؤساء المذاهب والنحل والملوك والأمراء والعلماء والشعراء بالنقد اللاذع ، والتهكم المضر ، في مثل قوله (١) :

إِنَّمَا هَذِهِ الْمَذَاهِبُ أَسْبَابُ الْجَذْبِ الدُّنْيَا إِلَى الرُّؤْسَاءِ
وقوله (٢) :

ظَلَمُوا الرِّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا فَعَدَّوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا
وقوله (٣) :

وَلَمْ آمَنْ عَلَى الْفُقَهَاءِ حَبْساً إِذَا مَا قِيلَ لِلْأَمْنَاءِ مُجُوزُوا
وقوله (٤) :

وَمَا شَعَرَاؤُكُمْ إِلَّا ذِتَابٌ تَلَصَّصُ فِي الْمَدَائِحِ وَالسَّبَابِ

(١) اللزومات ٨ ص ٢٦ .

(٢) اللزومات ٨ ص ٢٣ .

(٣) اللزومات ٨ ص ١٧٣ .

(٤) اللزومات ٨ ص ٥١ .

وقوله (١) :

تَقُولُ الْغَوَاةُ الْخَضِرُ حَيٌّ عَلَيْهِمْ عَفَاءُ نَعَمَ لَيْلٍ مِنَ الْفِتَنِ اخْضَرَا

وقوله (٢) :

مَا سَوْدَحَامٌ لِذَنْبٍ كَانَ أَحَدُهُ لَكِنْ غَرِيْزَةٌ لَوْ نِ خَطَهُ الْمَلِكُ

وقوله (٣) :

لَمْ يَسْقِكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ حُسْنٍ فَعَلِكُمْ وَلَا حَمَاكُمْ غَمًا مَّا سُوءُ أَعْمَالٍ

إلى غير ذلك مما يأتي عند الكلام على إيمانه واعتقاده في المزاعم ، وقد يتضح مما ذكرنا وما يأتي أنه لم يتخير لنقده قولاً لبناً ، ولا سلك أسلوباً لطيفاً ، وإنما كان يجيبهم بالحقائق الصريحة ، ويقرعهم بالحجج الدامغة ، وربما واجههم بالنهك اللاذع ، فوقع في أضفاف كلامه كثير مما لا يرتضيه المتشددون في الدين ، فعكسوا عليه بالكفر ، وإن لم يكن فيه ما يوجب الكفر أو المروق . والعلاء ، لا سيما الفقهاء منهم ، يسارعون إلى التكفير على الشبهة ، ويجحدون بالإلحاد على الظن ، ويضيقون الحناق على الباحث ، ولا يتحرون في البحث والتحقيق ؛ وهم أسخى الناس بالتكفير والرمي بالزندقة ، وسرى ما يدل على ذلك .

يجب أن لا ننسى أن نخطئة الناس في مزاعمهم وإنكار شيء من معتقداتهم من شأنه أن يثير سخطهم ونقمتهم ويجعل صداقتهم عداوة . وقدima قال الأول : ما ترك لي قول الحق صديقا .

(١) الرويات هـ س ١٣٧ ، وفيها : « يقول . . . »

(٢) الرويات هـ س ١٨٣ ، وفيها : « خطها الملك . . . »

(٣) الرويات هـ س ٢١٥ .

حب الظهور

إذا نظر الإنسان نظر مدقق منصف فيما كُتِبَ في أبي العلاء ، وفين كتب فيه ، رأى كثيراً منهم لم يستطع أن يفهم كلام أبي العلاء على وجه صحيح ، ولا أن يدرك مرامي كلامه الدقيقة وكتابان اللطيفة ، وقد يأتي أحدهم بشيء من كلام المعري على أنه حجة له فيما يزعم ، فيكون حجة عليه ، وقد يتصرف في القول على وفق ما يريد ، لا على وفق ما يدل عليه اللفظ والمقام ، وتؤيده القرائن ، ولكنه اعترض على المعري ليقال : إنه اعترض عليه ، وانتقده ليقال : إنه انتقد أبا العلاء . ولو أنعم النظر فيما يقول لتكشف عن مخزيات يندى لها الجبين ، وسخافات تدل على جهل فاضح وفهم سقيم .

الولوع بالادعاب

وقد رأينا فريقاً من الكتاب والمطاء ينسقط لأبي العلاء هتوة ، أو ينب عن شبهة ، فإذا ظفر بشيء يوجب الطعن في دينه ، يجنح وفتنح ، كأنما اعتدى إلى ما لم يند إليه غيره من أمرار الكائنات ، أو أتى بما لم يستطعه أحد من المعجزات ، وقد يظهر للتأمل أن كثيراً من هؤلاء أعرب بما كتب عن غباوة ، وعثر فيما قال عثرة لا تقال ، ودل فيما استدل به على جهل في العلم وسقم في الفهم ووهن في التفكير .

اللؤم

ورأينا فريقاً آخر يلصق بأبي العلاء ما هو بريء منه ، وآخر يحرف كلامه عن مواضعه ، وآخر يقول عليه أقوالاً لا علم لها ، يريد بذلك
جا (٢٥)

إهلاكه وتغيير نية إخوانه ، وقد قال النازي (١) : « حذني قوم فكذبوا عليّ وأساؤا إليّ » . ومن هؤلاء كثير من تلامذته وأوليائه .

وقد نقل باقوت (ج ١ ص ١٧٩) وغيره عن ابن العديم عن أبي اليسر المري ، وهو شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء : أن أبا العلاء كان يرمى من أهل الحسد له بالنعطل ، وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملعدة ، فصدأ هلاكه ، وإيثاراً لإفلاق نفسه فقال :

حَاوَلَ إِهْوَانِي قَوْمٌ فَمَا وَاجَهْتُهُمْ إِلَّا بِإِهْوَانِي
يَخْرُسُونِي ^(٢) بِسَعَايَاتِهِمْ فَغَيَّرُوا نِيَّةَ إِخْوَانِي
لَوْ اسْتَطَاعُوا لَوَشَوْا بِي إِلَى الْحَرِيخِ وَالشَّهْبِ وَكَيَّوَانِ
وقال أيضاً (٣) :

غَرِبْتُ ^(٤) بِذِمِّي أُمَّةٌ وَبِحَنْدِ خَالِقِهَا غَرِبْتُ
وَعَبَدْتُ رَبِّي مَا اسْتَطَعْتُ وَمِنْ بَرِّيَّتِهِ بَرِيتُ
وَفَرَّتْنِي الْجَهْلُ حَا شِدَّةَ عَلَيَّ وَمَا فَرِيتُ
سَعَرُوا عَلَيَّ فَلَمْ أَحْسَ وَعِنْدَهُمْ أَنِّي هَرِيتُ

(١) هو الشاعر أحمد بن يوسف النازي ، التوفى سنة ٤٣٧ هـ ، انظر الوفيات ، والفتي في إنباء الرواة .

(٢) في معاهد التنصيص : « يخرسوني » . (ج) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٤٠ ، والأبيات مما لم يرد في الديوانين .

(٣) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٠ ، ٢٧٠ ، ٢٩٠ .

(٤) هري به : أولع به .

وهذه الأبيات السبعة ليست في ديوانه ، وفيها روايات مختلفة ، وهي مذكورة كلها أو بعضها في (الوافي بالوفيات) ، و (النكت) و (المعاهد) و (أوج التحري) وغيرها . وروى الصفي في النكت بعد الأبيات الأخيرة هذا البيت :

وَجَمِيعُ مَا قَالُوا بِهِ كَذِبٌ لَّعَفْرِي حَبْرِيْتُ^(١)
وقد أكثر أبو العلاء من ذم الحسد والحاد ومكايدهم ، مما يدل على أن للحسد في نفسه أثراً ممضاً ، وسنذكر شيئاً من كلامه في ذلك .

ما ظاهره بغير مصادره وأعماره

حاول أعداء أبي العلاء أن يلتسوا مغزاً في علمه ، واجتهدوا ليجدوا مطلقاً في سيرته ، فلم يجدوا . فانخذوا من الدين سلاحاً لهاربه ، والنقض من كرامته ، وهو أقرب شيء تستثار به العامة ، وأقدم سلاح يتخذه المدلسون لهاربة أهل الفضل ، فتألبوا على تكفيره أو ربه بالإلحاد أو الزندقة ، أو ما شاكل ذلك من التبعوت المفقونة . وقد اختلفوا في الأسباب التي توجب تكفيره ، والطرق التي تؤذي إليها .

فمنهم من كفره بأبيات لا توجب التكفير ، وفي نسبتها إليه شك ، وفي مقدمة هؤلاء ياقوت ، فقد جعله ملحداً ، وروى له البيهقي المتقدم^(٢) :

فِي اللَّادِقِيَّةِ فِتْنَةٌ مَا يَنْ أَحْمَدَ وَالْمَسِيحَ

.

وليس فيها ما يدل على إلحاد أو كفر ، وما فيها من ركازة يشهد بأن المعري بريء منها ، وأنها لبسا من سنخ كلامه .

(١) كذب حنبريت : أي خالص .

(٢) معجم البلدان « اللادقية » .

ومنهم من زعم أن المعري عارض القرآن الكريم ، أو السور والآيات بكتساب (الفصول والغايات) كابن الجوزي ^(١) ، والباخرزي ، والذهبي ، وياقوت . وزعم بعض المعاصرين أنه لم يذكر النبي - ﷺ - في (الفصول والغايات) إلا خمس مرات ، وأنه لم يعارضه بمعارضة ، وإنما بينهما مشابة . وقد بينا بطلان هذا كله في الكلام على (الفصول والغايات) .

ومنهم من ألصق بالمعري شيئاً من أقوال غيره ، ليسكن من الطعن فيه . ومن هؤلاء ياقوت ، فقد أورد أبو العلاء في (رسالة الغفران) أبياتاً لسير بن أدكن مطلعها ^(٢) :

يَصُولُ أَبُو حَفْصٍ عَلَيْنَا بِدِرَّةٍ رَوَيْدُكَ إِنَّ الْحَقَّ يَطْفُو وَيَرْسُبُ

فقال ياقوت : « هذا يشبه أن يكون شعر المعري ، قد نخله هذا اليهودي ، أو أن إirاده واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته ومذهبه » . وهذا خطأ من ياقوت ، لأنه هو أورد هذه الأبيات ، فيجوز لقائل أن يقول : إن إirاده الأبيات المذكورة من أمارات سوء عقيدته ومذهبه ، كما قال ذلك في أبي العلاء . وياقوت أحد المفرطين في التعصب على أبي العلاء ، ولو استطاع أن يجعل كل أقواله مكفرة لما تأخر .

ومنهم عبد الوهاب السبكي ، فإنه نسب في (طبقات الشافعية ج ٣ ص ٩٧) هذين البيتين :

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلَقَّاهُ مَرْزُوقًا
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَاثِرَةً وَصَيَّرَ الْعَالَمَ التَّخْرِيرَ زَنْدِيقًا

(١) انظر تعريف القسما بأبي العلاء ص : ٨ ، ٩٨ ، ١٥١ ، ١٩٢ .

(٢) رسالة الغفران - تحقيق بنت الناطق - ط ١ ص ٣٧٧ .

إلى أبي العلاء ، وقال : فبهد الله ما أجراء على الله . وهذان
البيتان لابن الراوندي ، كما ذكر ذلك في (معاهد النصب ص ٧١) .
وأورد ابن السبكي بيتين نقضا على أبي العلاء ، في وزنها خلل ، وفي إعرابها
لحن ، وفي تأليفها ركاقة وسخف ظاهر لمن اطلع عليها .
ومنهم أبو الحسين الجزار ، فقد قال من قصيدة مدح بها يرميها الدين
ابن الفقيه نصر (١) :

وَفِي عِلْمِ الْعُرُوضِ دَخَلْتُ جَهْلًا وَغَمْتُ بِخِفَتِي فِي كُلِّ بَحْرٍ
فَأَذْكَرَنِي بِهِ التَّفْعِيلُ يَتًّا تَضَمَّنَ نِصْفَةَ الشَّيْخِ الْمَعْرِيِّ
مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ فَعُولُنْ حَدِيثُ خُرَاقَةٍ يَا أُمَّ عَمْرٍو

وقد نسب الشطر الأخير إلى أبي العلاء ، وهو من بيت لعبد الله
ابن الزبيري ، على ما قاله الهبي في كتاب (مابول عليه) وأوله :

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتُ ثُمَّ نَشْرٌ حَدِيثُ خُرَاقَةٍ يَا أُمَّ عَمْرٍو
وروي بغير هذا الوجه ، ونسبه ابن قتيبة في كتاب (الأشربة ص ٤٣)
إلى أبي نواس وروايته :

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتُ ثُمَّ بَعَثٌ حَدِيثُ ...

وأكثر الناس يتعصب لكل من أنكر على غيره شيئا باسم الدين ،
ويشابهه على أقواله من غير تثبت ولا تعين . وإذا اشتهر إنسان بشيء
ألحق الناس به كل ما هو من جنس ما اشتهر به بغير تحقيق . وعلى

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨ عن المترجم في محل المترجم ، وللمترجم
في محل المترجم .

هذه الطريقة إذا راوا بيتاً فيه مجون أو خلعة الحقوه بأبي نواس ، وإذا راوا بيتاً فيه إلحاد أو زندقة الحقوه بأبي العلاء .

وزعم بعض المتصين على أبي العلاء أنه خرج ليلة إلى بعض مراقب موسى عليه السلام ، ورفع رأسه إلى السماء ، وقال : يارب كلني ، فإني أفصح من موسى ، قال ذلك مراراً ، فلم يجبه أحد ، فأنشد هذين البيتين ^(١) :

لَقَدْ أَسْمَعْتَ كَوْنًا نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي
وَكُوْنَارًا نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءَتَ وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادٍ

وهذا اقتراء محض من قائل ذلك ، والبيتان هما من نظم عمرو بن مطي كرب ، وقيل لدريد بن الصمة ، كما ذكر ذلك ابن نباتة في (شرح الميون ، شرح رسالة ابن زيدون ص ٢٣١ و ص ٢٢٧) .

ومنها من نسب إليه أقوالاً ليست في شيء من كتبه التي وصلت إلينا . ومن هؤلاء : القفطي ، وياقوت ، وابن الجوزي ، وسبط ابن الجوزي ، ومن لف لفهم ، فقد دروا له هذين البيتين ^(٢) :

فَلَا تَحْسَبْ مَقَالَ الرَّسْلِ حَقًّا وَلَكِنْ قَوْلُ زُورٍ سَطْرُوهُ
وَكَانَ النَّاسُ فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ فَجَاؤُوا بِالْمَحَالِ فَكَدَّرُوهُ
ودروا له كثيراً من مثل هذا .

(١) ورد البيت الأول في الفصل الذي كتبه إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحى لما استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة . انظر رسائل أبي العلاء المرعى

— لشاهين عطية — ص ٩٧ ، وتعرف القديما بأبي العلاء ص ٢٥٥ ، ٥٧٤ .

(٢) تعرف القديما بأبي العلاء : الصفحات ٢٢ ، ٦٢ ، ١١٧ ، ١٥٠ .

ومنهم من كان يحرف قول أبي العلاء من سورة لا تغالف ما يقتضيه
الإيمان الى صورة نوجب الحكم عليه بالكفر ، ومن هؤلاء : أبو الفداء ،
والذهبي ، وابن الشحنة ، فقد رورا هذه الآيات (١) :

أَتَى عِيسَى قَبْطَلَ شَرَعَ مُوسَى وَجَاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلَاةِ خَمْسٍ
وَقَالُوا لَا نَبِيَّ بَعْدَ هَذَا فَضَلَّ الْقَوْمُ بَيْنَ غَدٍ وَأَمْسٍ

إلى آخر الآيات على هذا الوجه ، والمعروف في البيت الثاني :

وَقِيلَ يَجِي دِينَ غَيْرُ هَذَا

وهو المذكور في ديوانه (لزوم مالا يلزم) ، وهو على هذه
الرواية صحيح لا شك فيه ، ولكنهم حرفوه ليكفروا صاحبه .

ومنهم من كفره بغير سبب ولا مناصبه ، ومن هؤلاء الزمخشري ،
فإن أبا العلاء رثي الشريف الموسوي ، وهو ببغداد ، بقصيدة وصف فيها
نار القيرى بأبيات ، منها قوله (٢) :

حَمْرَاهُ سَاطِعَةُ الذَّوَابِ فِي الدُّجَى تَرْمِي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطِرَافٍ

فأورده الزمخشري في تفسيره في سورة الرسائل . ثم قال : « شبهها
بالطراف ، وكأنه قصد بجنبه أن يزيد على تشبيه القرآن ، ولقد هي ،
جمع الله له من الدارين ... »

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء : الصفحات ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٣١٠ . والزمخشان ص ٣٠١
وفيها :

دعا موسى فزال وقام عيسى وجاء محمدٌ بصلاة خمس

وقيل يمي دين غير هذا وأودى الناس بين غدير وأمس

(٢) فروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٣٠٧ ، والطراف : بقية من آدم .

وهذا البيت أجمل بيت قالته العرب في وصف النار فيما أعلم ، وليس فيه ، بل ولا في القصيدة كلها ، ما يدل على شيء مما زعمه الزعشمري . ولهذا أنكر عليه هذا الافتراء جماعة منهم فخر الدين الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) حيث قال : « زعم صاحب (الكشاف) أنه ذكر ذلك معارضة لهذه الآية ﴿ تَزْمِي بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ ﴾ (١) وكانت الأولى له أن لا يذكر ذلك » . وأطال الكلام في تفسيره ج ٨ ص ٣١٧ . ومنهم صدر الأناسل الحواري ، حيث قال ، بعد أن نقل قول الزعشمري : ولا أدري من أين له أنه قصد الزيادة على تشبيه القرآن . فن العلوم أن القصر أعظم من الطراف ، ولكن الزعشمري مع فضله كان حديد المزاج كثيرا .

وأنا أعتقد أن أبا العلاء ، لما نظم هذا البيت ، لم يخطر بباله هذه الآية الكريمة ، ولكن الزعشمري مهي ما في البيت من جمال وروعة ، وأبصر ما ليس فيه ، فافتدى على صاحبه . ومنهم الشيخ الباني ، فإت سعد الدين التفتازاني ذكر في شرحه (المختصر على متن التلخيص) قول أبي العلاء (٢) :

وَالَّذِي حَارَتْ الْبَرِّيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادٍ

ثم قال : يعني تحيرت الحلائق في المعاد الجسماني ، والنشور الذي ليس بنفساني ، بدليل ما قبله :

بَانَ أَمْرُ الْإِلَهِ وَاخْتَلَفَ النَّاسُ ، فَدَاعٍ إِلَى ضَلَالٍ وَهَادٍ

(١) سورة المرسلات .

(٢) فروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٠٤ .

يعني : بعضهم يقول بالمعاد وبعضهم لا يقول به « ا » .

فقال الشيخ مصطفى بن محمد البناي في (تجريده على المختصر ج ١ ص ١٨٨) : « قوله : يعني بعضهم يقول بالمعاد ؟ وبعضهم لا يقول به ، لا يبعد أن يكون تقديم القول بالمعاد في تفسير البيت ، مع أن الظاهر هو الف والنشر المرتب إياه إلى أن مراد الشاعر بالداعي إلى الضلال هو القائل بالمعاد بناء على ما اشتهر في الترايع من أن أبا العلاء ملحد منكر للحشر ، وبومىء إليه بيت المشهور عند من له ذوق سليم وهو قوله ^(١) :

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسَجَدٍ وَدَيْتُ مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ

ونقل ذلك عن الفري . وهو استنباط غريب من البناي والفري ، لأن أبا العلاء ذكر في هذه القصيدة ما يدل على المعاد كقوله ^(٢) :

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسِبُونَهُمُ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ أَعْمَا لِي إِلَى دَارٍ شَقَوَةٍ أَوْ رَشَادِ

وأمثال هذا كثير في أقوال المتقدمين والمتأخرين ، وسيأتي أن الصفدي نقل عن كتاب (الأربعين) قول الفخر الرازي في قول أبي العلاء ^(٣) : « قلتم لنا صانع قديم » وزعم أن الرازي قال عن أبي العلاء : « وقد هتدى هذا في شعره » . ولبست هذه الجملة في كلام الرازي .

(١) الزوميات ٥ ص ١٥٢ وفيها : « فُديت » .

(٢) فروع سطر الزند : ق ٣ ص ٩٢٨ .

(٣) انظر في ذلك تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٦٧ والملاحية (٢) و (٣) عن الواقي بالوقيات - للصفدي ، ورواية هنا الطبر في الزوميات ٥ ص ١٩٨ : « قلتم لنا خالق حكيم » وقامه : « قلنا مدتم كذا قول »

النظر في الأقوال والمزاعم المتقدمة وفي أدلتها

الشك

أما من ذهب إلى أنه شك ، فدلله قول التبريزي : « ما أنا إلا شك » ، وقول أبي الملا : « وهكذا شيخك » . وقد روى هذا الخبر جماعة ^(١) منهم ابن الجوزي في (المتظم) وياقوت في (إرشاد الأريب) وسبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) وغيرهم ، وكلهم اقتصر على هذا القدر ، ولم يبين الشك في أي شيء حتى يتبين ما يتروى عليه من تكفير أو تقبيل أو غيرها ، فإن أراد أنه شك في الله ، فهو باطل واقتراء ، لأن له كثيراً من الأقوال الدالة دلالة صريحة لا تخفى الشك على وجود الله وصفاته ، وسأني أمثلة منها . وإن أراد الشك في الكتب أو الأنبياء أو الرسل أو الملائكة أو الآخرة فهو باطل أيضاً ، بشهادة أقواله الكثيرة الصريحة في ذلك ، وسأني كثيراً منها . والتكفير بشيء مبهم لا يعتد به عند الطهارة . وإن أراد الشك بغير ما ذكر ، فلا نستطيع الحكم عليه حتى نعلم ما هو . واستدل بعض المعاصرين على شكه في الآخرة بقوله في مربية آية ^(٢) :

طَلَبْتُ يَقِينًا مِنْ جَهَنَّمَ وَكَانَ يُخْبِرُنِي بِأَجْوَدِ سِوَى الظَّنِّ
فَإِنْ تَعَهَّدَنِي لَا أَزَالُ مُسَائِلًا فَإِنِّي لَمْ أُعْطِ الصَّحِيحَ فَأَسْتَفْنِي

(١) تريف العلماء بأبي الملا ، الصفحات : ١٩ و ٧٧ و ١٤٤ .

(٢) فروع سط الزند : ق ٢ ص ٩٢٥ - ٩٢٧ وفيها : « سوى ظن » .

وهذا وهم وباطل ، لأنه يريد بقوله هذا أنه طلب من جبهة التي يقال في المثل : « عندهما الخبر اليقين » أن نخبره خبراً عن مات ، فلم تستطع أن نخبره ، لأن أحوال الموتى لا يعلمها إلا الله ، وهو يحرم على أن يعلم مصير أيّ ، ليظنّ به ، ولذلك يلجأ بالسؤال ، ما دام لم يقف على الصحيح . وليس في هذا شيء من الكفر ولا الشك في الآخرة بل صرح في هذه القصيدة بالآخرة وما فيها في مواطن ، منها قوله (١) :

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَخْفُو قَارُهُ إِذَا صَارَ أَحَدٌ فِي الْقِيَامَةِ كَالْغَيْنِ
وقوله (٢) :

وَهَلْ يَرِدُ الْحَوْضَ الرَّوِّيُّ مُبَادِرًا
وقوله (٣) :

وَقَدْ وَعَدَا مِنْ بَعْدِهِ جَنَّتِي عَدْنُ
إلى غير ذلك من الآيات .

وحاول فريق من الأدباء أن يجعل الشك مذهباً لأبي العلاء ، واستدل على ذلك بمثل قوله (١) :

إِنَّمَا نَحْنُ فِي ضَلَالٍ وَتَغْلِيهِ — لِي فَإِنْ كُنْتَ ذَا يَقِينٍ فَهَاتِنِي
وَلِحُبِّ الصَّحِيحِ أَثَرَتِ الرُّوْمُ مُمْ أَنْتَسَابَ الْفَتَى إِلَى أُمَمَاتِهِ
جَهَلُوا مَنْ أَبُوهُ إِلَّا ظَنُّونَا وَطَلَا الْوَحْشِ لَاحِقُ بِمَهَاتِهِ

(١) المصدر السابق ص ٩١١ .

(٢) شروح سقط الزند في : ٢ ص ٩١١ ومجزة : « مع الناس أم يأت الزلم فيناني » .

(٣) المصدر السابق ص ٩٢٢ ، صدر البيت : « وما استنذجه روح موسى وآدم » .

ورواه البطولي : « خس موسى » ، والبرزخي « ومنوره » .

(٤) الروميات ه ص ٧٠ .

ومن البديهي أن أبا العلاء لا يريد أن يقرر عقيدة دينية في هذه الأبيات ، حتى يترتب عليه حكم بالكفر أو نحوه . وإذا يريد أن يبين فيها أمرين :

أحدهما : حالة الناس في عصره ، فإنهم في ضلال وتعليل ، يبنون أمورهم على الظن ، ولا يتحرون اليقين فيها ، أو لا يجروئون على إظهار اليقين ، لما يترتب عليه من الفساد والمضار .

والثاني : تهاون المرأة بالاحتفاظ بعفافها ، لاسيما المرأة الرومية ، وكلا الأمرين لاعلاقة له بالعقائد الدينية ، وإذا هو من باب الإصراف في الظن أو من باب التصريح بالحقيقة الواقعة في الغالب ، وهو إن أساء إلى المرأة فقد أحسن إلى الأدب والحقيقة بهذه الصورة الرائعة والمعنى البديع . وزعم صاحب (ذكرى أبي العلاء) (١) أن أبا العلاء لم يؤمن بأن آدم شخص حقيقي ، واستدل على ذلك بقوله (٢) :

قَالَ قَوْمٌ، وَلَا أُدِينُ بِمَا قَا لُوهُ: إِنَّ ابْنَ آدَمَ كَابِنِ عِرْسٍ
جَهْلَ النَّاسُ مَا أَبُوهُ عَلَى الدَّهْرِ وَلَكِنَّهُ مُسَمًّى بِحَرَسٍ
فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ قَوْمٌ لِقَوْمٍ رَهْنِ طَرَسٍ مُسْتَنْسَخٍ بَعْدَ طَرَسٍ

وابن عرس : دؤيبة دون السنور ، اشترى أصلها لك لها ثياب ، ونجم على بنات عرس . والحرس : الدهر ، يريد أن قوماً زعموا أن ابن آدم لا أب له ، كما أن ابن عرس لا أب له ، فأدّم على زعمهم شيء لاحقاً . وأبو العلاء صرح بأنه لا يدين بما قاله هؤلاء . فادعى صاحب

(١) ذكرى أبي العلاء - طه حسين - ط ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) الزوبيات - ص ٣٢٥ .

(الذكرى) أن المعري لا يؤمن بأن آدم شخص حقيقي ، وجعل قوله :
« لا أدري بما .. » من باب التفة ، وهذا غريب وأغرب من كل غريب ،
لأن أبا العلاء أثبت وجود آدم في عدة مواطن في كلامه وجوز أن
يكون قبله آدم ، بل صرح بقوله (١) :

وما آدم في مذهب العقل واحدًا
كما سباني .

وبعد ما تقدم فإن الشك باب من أبواب البلاغة ، وأسلوب بديع من
أساليب البلغاء ، قد يتخبرونه لنكتة طريفة ، لا تؤدي بغير الشك كما
تؤدي به ، ألا ترى أن زهيراً قال في مجاء آل حنن :

وما أدري ولست إخال أدري أقوم آل حنن أم نساء
فاظهر أنه لم يعلم أن آل حنن رجال أم نساء ، مع أنه يعلم ذلك ،
لأن في هذه الصورة دلالة على قرب الشبه بين الرجال والنساء ، حتى
لا يكاد يفرق بينهما ، ولا يستطيع أن يميز أحدهما من الآخر ، فهو
أجل من قوله : « هم نساء » وأقرب الى التصديق . وأجل من قوله :
هم يشبهون نساءم ، أو ما شاكل ذلك من الصور .

وكان المتقدمون يسون هذا النوع التشكك . والمتأخرون يسونه :
تجاهل العارف ؟ وهو من مَلَحَ الشر وطرف الكلام . وكلام البلغاء طافح
بمثل هذه الصور ، ولا يراد بها الشك حقيقة ، وإنما يراد بها نكتة طريفة
إما مبالغة في تقارب الشبهين ، أو الإيناس أو إظهار المعجز الذي لا يعله
المخاطب ، أو التوبيخ لمن يدعى المشكوك فيه ، أو المبالغة في مدح أو ذم

(١) الزمريات ٥ ص ٢٢١ : وعجز البيت : « ولكنه عند القياس أوام » .

أو تخير ، أو تدله في الحب ، أو غير ذلك بما هو مبسوط في كتب
البدیع والأدب . وفي القرآن الكريم كثير من هذه الصور مثل قوله
تعالى لبس : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . . . ﴾ (١) وقوله : ﴿ أَنْتُمْ
أَنْتُمْ خَلَقْنَا أُمَّ السَّمَاءِ ﴾ (٢) فإن هذه الصور . وأمثالها لا يصح أن يراد
بها الشك حقيقة ، لاستحالة ذلك على الله . وكذلك نفى اليقين قد يراد
به غير ظاهره . فقد يراد به جعل الخير أو الأمر ضعيفاً حقيقة أو ادعاء ،
وقد يراد به تعجيز المخاطب أو تكليفه إثبات اليقين فيما يتعذر عليه أو يشق ،
كنفى اليقين عن حالة الموتى والآخرة ، ومعرفة الأب الحقيقي ، وما يكون
في المستقبل . وأبو العلاء يجتهد على مثال البلغاء في كلامه ، ولا يسفنا
أن نجعل كل شك ، أو نجعل نفى اليقين في كل موضع ، موجباً للكفر ،
الا ترى أن قوله (٣) :

أَصْبَحْتُ فِي يَوْمِي أَسْأَلُ عَنْ غَدِي مُتَخَبِّراً عَنْ حَالِهِ مُتَّئِداً
أَمَّا الْيَقِينُ فَلَا يَقِينَ وَإِنَّمَا أَقْصَى اجْتِهَادِي أَنْ أَظُنَّ وَأُحْدِسَا
وهو صحيح ، لأنه لا يعلم ما في غد إلا الله .

المبرة

وأما قول من قال : إنه في حيرة ، فإنه رأى في كلام أبي العلاء
ما يدل على تناقض في الرأي - بحسب زعمه - فحكم على ما رآه بحسب

(١) سورة المائدة / ١١٦ .

(٢) سورة النازعات / ٢٧ .

(٣) الزمومات ٨ ص ٢٩٦ ، والتنبيه : المنهج الخبر بشئبه . وأحدس :
أظن وأخمن .

الظاهر . ولكن هذا القائل لم يبين الحيرة في شيء ، لنظم ما هي وما يترتب عليها . وظاهر كلامهم أنه في حيرة في اعتقاده بالله ، أو بالآخرة ؟ وقد مرّ وسيبر ما يدل على بطلان هذا .

عدم الثبات على نحلة واحدة

وأما من قال : إنه كان لا يثبت على نحلة واحدة ، بل يجري مع القافية إذا حصلت فقد قرب به إلى الإسلام والتقوى أكثر من غيره . لأننا إذا استقرينا قوافيه المتعلقة باعتقاده لا نجد في المائة منها واحدة صريحة توجب الطعن في دينه . وإذا جهلنا التأخر منها ، ونظرنا إلى قوة الأدلة وتعددتها وصراحتها اضطرتنا إلى الحكم بصحة إيمانه وسلامة اعتقاده ، وإذا أسقطنا الأدلة لتعارضها ، اضطرتنا إلى أن نحكم التاريخ ، وهو يخبرنا بأنه كان صوّماً فوّاً مأبراً تقياً . وسيأتي إيضاح هذا وبسطه .

التشيع

وأما من قال : إنه شيعي ، فقد استدل على تشيعه بقوله في لزوم ما لا يلزم (١) :

لَقَدْ عَجَبُوا لِأَهْلِ الْبَيْتِ لَمَّا أَتَاهُمْ عَلِيمُهُمْ فِي مَسْكِ جَفْرِ (٢)
وَمِرَاةِ الْمُنَجِّمِ وَهِيَ صُغْرَى أَرْتُهُ كُلَّ عَامِرَةٍ وَقَفْرِ

(١) الزوايات ٢ ص ١٥٤ .

(٢) إذا بلغ ولد المزي أربعة أشهر ، وجرح جنابه وفضل عن أمه وأخذ في الرمي فهو جحر والأشئ جحر . قال الدميري في حياة الحيوان ج ١ ص ٢٩٠ : قال ابن قتيبة في أدب الكاتب : وكتاب الجحر جلد جحر كتب فيه الإمام جحر بن محمد الصادق لآل البيت كل ما يحتاجون إلى علمه وكل ما يكون إلى يوم القيامة ، وإل هذا الجحر -

— أشار أبو اللآء المري في قوله : لقد مجبوا لأهل البيت . . . وظاهر كلامه يدل على أن قوله : وإلى هذا الجفر أشار . . . من كلام ابن قتيبة ، وذلك لا يصح لأن ابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦ هـ قبل ولادة أبي اللآء . وقد ذكر ذلك ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ حيث قال : وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن وما يدعو من علم باطنه بما وقع إليهم من الجندر الذي ذكره هرون بن - مد السجلى ، وكان رأس الزيدية ، ثم أورد ثمانية آيات ، ثم قال : قال أبو محمد ، وهو جلد جفر اذعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجون إلى علمه وكل ما يكون إلى يوم القيامة . . . إلى آخر كلامه ، وهل شيئاً من ذلك في سرآة الجنان ج ٣ ص ٣١٧ مع تغيير قليل فراجعها . ثم قال العميري : وقيل ، ابن توسرت المروف بالمهدي ظفر بكتاب الجفر فرأى فيه ما يكون على يد عبد المؤمن صاحب القرب وقصته وحليته واسمه . . .

وقال ابن قتيبة في (منهاج السنج ١ ص ٢٣١) : ويقال : ثاكاً الكذب على هؤلاء في الرافضة من أعظم الأمور ولا سيما على جعفر بن محمد الصادق فإنه ما كذب على أحد ما كذب عليه حتى نسبوا إليه كتاب الجفر والبطاقة والمفت واختلاج الأعضاء وأحكام الرعود والبروق وما يذكر عنه من خفايا التفسير التي ذكر كثيراً منها أبو عبد الرحمن السلمي . . . وحتى زعم بعضهم أن كتاب (رسائل إخوان الصفاء) من كلامه . . . وقال السيد الشريف الجرجاني في (شرح الواقف ج ٦ ص ٣٢) عند قول الضد : « إذ من علم شيئاً علم علمه به بالضرورة وإلا جاز أن يكون أحدنا عالماً بالجفر والجامعة » وما كانا بل ليلي رضي الله تعالى عنه ، قد ذكر فيها على طريقة علم الحسروف الحوادث التي تحدث إلى امراض العالم ، وكانت الأئمة المروفون من أولاده يعرفونها ويمكثون بها . وفي كتاب قبول الهد الذي كتبه علي بن موسى - رضي الله عنه - إلى للأمون : ألك قد علمت من حقوقنا ما لم يعرفه آباؤك فقبلت منك عهدك . إلا أن الجفر والجامعة يدلان على أنه لا يتم . ولتأنيخ الفاربة نصيب من علم الحروف ينتجون فيه إلى أهل البيت . ورأيت أنا بالتمام نظماً أشبه فيه بالرموز إلى أحوال ملوك مصر وصمت أنه مستخرج من ذيك الكتابين ١ هـ .

وفي كشف الظنون : « الجفر والجامعة عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحصري على كل ما كان وما يكون كلياً وجزئياً . والجفر عبارة عن لوح القضاء الذي هو مثل الكل ، والجامعة لوح القدر الذي هو قس الكل . وقد ادعى طائفة أن الإمام علياً (رضي الله عنه) وضع الحروف الثانية والعشرين على طريق البسط الأعظم في جلد الجفر يستخرج منها بطرق مخصوصة وشرائط معينة وألفاظ مخصوصة ما في لوح القضاء والقدر ، وهنا علم توارثه أهل البيت ومن ينسب إليهم وقيل : لا يخفى في هذا الكتاب خيفة إلا المهدي المنتظر . . . »

قال صاحب (تزمة الجلبس ومنية الأدبيب الأنيس) العباس بن علي
المكي الحسيني من رجال القرن الثاني عشر : « هذان البيتان ، علي تشيع
أبي العلاء بدلان » . ثم قال : « وما يدل علي تشيعه أيضاً قوله من قطعة : (١)
أَمَرَ الْوَاحِدُ فَأَفْعَلَ مَا أَمَرَ وَاشْكُرِ اللَّهَ إِنَّ الْفِعْلُ أَمْرٌ
أُظْهِرَ الْخِيفَةَ وَاضْمُرْ قَلَمًا أَذْرَكَ الطَّرْفَ الْمَدَى حَتَّى ظَهَرَ
أَيْهَا الْمُلْحِدُ لَا تَغْصِ النَّهْيَ فَلَقَدْ صَحَّ قِيَاسٌ وَاشْتَهَرَ
إِنَّ تَعْدُ فِي الْجِسْمِ يَوْمًا رُوحَهُ قَمَوْ كَالرَّبْعِ خَلَا ثُمَّ عَمَرَ

— قال ابن طالع : الجفر والجامعة كتابان جليلان أحدهما : ذكره الإمام علي وهو
يُخْطَبُ بِالْكُوفَةِ عَلَى النَّبَرِ ، وَالْآخَرُ : أَسْرَهُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَسْرَهُ بِتَدْوِينِهِ
فَكُتِبَ . . . حُرُوفًا مُتَفَرِّقَةً عَلَى طَرِيقِ بَیِّنِ بَیِّنٍ فِي رَقٍّ قَدْ صُبِغَ مِنْ
جِلْدِ الْبَعِيرِ فَاشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ ، لِأَنَّهُ وَجَدَ فِيهِ مَا جَرَى لِلأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ .
وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي وَضْعِهِ وَتَكْبِيرِهِ ، فَهُمْ مِنْ كَسَرِهِ بِالْكَسْرِ الصَّغِيرِ وَهُوَ جَفَرُ
الصَّادِقِ . . . « ستة هذا القول في كشف الظنون ج ١ ص ٣٩٥ . (ج)
(١) قالوا في كتاب (تريف القدماء بأبي العلاء) في ذيل ص ٣٥٣ : هذه الأبيات
مما لم يرد في الديوانين ، ولم نثر عليهما في غير هذا الموضع . والصحيح
أنها مذكورة في لزوم ما لا يلزم وهي مطلع قصيدة عدد أبياتها أربعة عشر بيتاً
ولكن بعض الأبيات المذكورة هنا محرقة عما في الديوان ، فالعطر الأخير من
البيت الثاني روي في الديوان هكذا : أحرز الطرف المدى حتى ضم . ومن البيت
الثالث هكذا : لقد صح قياس واستمر ، وعلى هذه الرواية يكون في البيتين
لزوم ما لا يلزم . (ج) ، وفي اللزومات هـ ص ١٦٨ هذه الأبيات مع اختلاف
يراد بعض ألفاظها مما لم تثبت هذه الحاشية وذلك في قوله :

أمر الواحد فافعل ما أمر واشكر الله إن النصب أمر
أظهر الخيفة واضمر قلماً أحرز الطرف المدى حتى ضم
والطريف : بالكسر الكريم من الجبل .

وَهِيَ الدُّنْيَا أَذَاهَا أَبَدًا زُمَرُ وَارِدَةٌ إِثْرَ زُمَرٍ
يَا أَبَا السُّبُطَيْنِ لَا تَخْفِلْ بِهَا أَعْتَقَ سَادَ فِيهَا أُمُّ عُمَرَ
والشيعة فرق متعددة عند المتقدمين ، ولم يبين لنا من أي فرقة هو .
وسبأني عند الكلام على الأديان والملل عن (رسالة الغفران) و (لزوم
ملا بلزم) ملا يدل على ذلك ، كقوله في (رسالة الغفران) وقد
ذكر التايع : (١) « وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند ، وقد كثر
في جماعة من الشيعة » . وقوله : (٢) « أما الذين يدعون في علي
مايدعون ، فتلك ضلالة قديمة » . وقوله : (٣) « واعتقاد الكيسانية في
محمد ابن الحنفية عجب ، لا يصدق بثله نجيب » . وقوله في (لزوم
ملا بلزم) : (٤) .

لَعَمْرُكَ مَا أَسْرُ بِيَوْمٍ فِطْرٍ وَلَا أَضْحَى وَلَا بَغْدِيرٍ خُمٍ
وَكَمْ أَبَدَى تَشِيعُهُ غَوِيٌّ لِأَجْلِ تَنَشُّكِ بِلَادٍ قُمٍ
وهو ينكر مجيء الإمام المنتظر . ومن البعيد أن يكون شيئا
وهو يقول : (٥) .

وَالنَّاسُ فِي ضِدِّ الْمُدَى مُتَشِيعٌ لَزِمَ الْعُلُوَّ (٦) وَنَاصِييَ شَارٍ

(١) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطي ط ١ ص ٣٩٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٤٠ .

(٤) الزواريات ص ٢٥١ وفيها : « لأجل كتاب » .

(٥) الزواريات ص ١٦٢ . والناسي : واحد الناصية وم قوم متدينون بيضة علي عليه السلام .

(٦) كنا في الاصل وفي الزواريات أمماً ، ولها : « الطور » .

على أن أبا العلاء مدح ورثى كثيراً من أهل البيت الطاهر .
 من ذلك قصيدته الحانية التي أجاب بها الشريف أبا إبراهيم موسى بن
 أحمد أو إسحق ؛ وهي في (السقط ^(١) ج ١ ص ٥٦) .
 وقصيدته النونية التي أجاب بها الشريف أبا إبراهيم موسى أيضاً ؛ وهي في
 (السقط ^(٢) ج ١ ص ٩)
 وقصيدته المبية التي يحى بها عمداً يرون : وهي في (السقط ^(٣)
 ج ١ ص ١٤٠)
 وقصيدته المبية التي رثى بها أبا إبراهيم : وهي في (السقط ^(٤)
 ج ١ ص ٢٠١)
 وقصيدته الغانية التي رثى بها الشريف أبا أحمد والد المرتضى والرضي :
 وهي في (السقط ^(٥) ج ٢ ص ٥٥)
 وسيأتي أن له كتاباً جمع فيه فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
 (رضي الله عنه) . ودروى له القنطري هذه الآيات : ^(٦)

شَهِدْتُ بِأَنَّ الْكَلْبَ لَيْسَ بِنَابِجٍ يَقِينًا وَأَنَّ اللَّيْثَ فِي الْغَابِ مَا زَارَ

-
- (١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٣٧ ، ومطلع القصيدة :
 الْآخَ وَكَذَلِكَ رَأَى بَرْقًا مُلْبِجًا سَرَى فَأَتَى الْحِمَى فَضَوًّا طَلِبًا
 (٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤٢٥ ، ومطلع القصيدة :
 عَلِيلَانِي فَإِنْ يَغِيظَ الْأَمَانِي فَتَبَّتْ وَالطَّلَامُ لَيْسَ بِمَانِي
 (٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٦٣ . ومطلع القصيدة :
 عَظِيمٌ لِمَرِي أَنْ يُلَيِّمَ عَظِيمٌ بَالٌ عَلِيٌّ وَالْأَنَامُ سَلِيمٌ
 (٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٤٩ ، وفيها : قَالَ يَرَى أبا إِبْرَاهِيمَ الطُّوِي
 وَمُخَاطَبَ أَوْلَادِهِ ومطلع القصيدة :
 بَنِي الْحَسْبِ الرِّضَاخُ وَالْعَرَفُ الْجَمُّ لَنَاقِيٍّ إِنْ لَمْ أَرْتِ وَالْكَفُّ خَمِي
 (٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٦٤ ، ومطلع القصيدة :
 أَوْدَى فَلَيْتَ الْحَادِثِينَ كَفَافًا مَا لَ الْمَيْفِ وَعَنْدَ الْمَنَافِ
 (٦) نعرف القمصاء بأبي العلاء ص ٦١ عن إنباء الرواة - القنطري .

وَأَنْ قُرَيْشًا لَيْسَ مِنْهَا خَلِيفَةٌ وَأَنْ أَبَا بَكْرٍ شَكَا الْحَقِيفَ مِنْ عُمَرَ
وَأَنْ عَلِيًّا لَمْ يُصَلِّ بِصَحْبِهِ وَمَا هُوَ وَاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنَ الْبَشَرِ
وهذه الآيات انفرد بروايتها القفطي ، ولم أر من ذكرها غيره ،
ولست في شيء من كتبه التي وصلت إلينا ، وهي شبيهة بهذين المحوم .

الاعتزال

وأما من قال : إنه يذهب مذهب المعتزلة ، واستدل بما يروى ذلك
من كلامه ، فلم يبين إلى أي فريق منهم ينتسب ، ولا بأي شيء ذهب
مذهبهم ؛ وإنما رأى جملة من كلامه توافق شيئاً من آرائهم ، فعده من
الذاهبين مذهبهم ، ومن هذا النوع قول الصفدي في (الفيت المجمع) : (١)
« ووجدت منسوباً إلى أبي العلاء المأمري [أيضاً] :

زَعَمَ الْجَهْلُوكُ وَمَنْ يَقُولُ بِقَوْلِهِ أَنْ الْمَعَاصِيَ مِنْ قَضَاءِ الْخَالِقِ
إِنْ كَانَ حَقًّا مَا يَقُولُ فَلَيْمَ قَضَى حَدَّ الزَّوْنَا ، وَقَطَعَ كَفَّ السَّارِقِ
وهذه من مسائل الاعتزال ، والجواب عنها مذكور في مسألة خلق
الأفعال . وهذان البيتان لم نرهما فيما وصل إلينا من كتبه .

وقد قال صاحب (نزهة الجليس) : (٢) « وبما يدل على حسن
مذهبه وإلزامه لأهل الكسب والجهنية قوله . . . » ثم أورد هذين
البيتين ، ورواية الثاني عنده هكذا :

إِنْ كَانَ حَقًّا مَا زَعَمْتَ

(١) تحريف الصفا ، بأبي العلاء م ١٠٦ ، عن الفيت المجمع - للصفدي .

(٢) للمصنف السابق م ٣٦٣ ، عن نزهة الجليس - للعباس المكي .

فقد جعلها دليلاً على حسن مذهبه ، واسلوبها أضعف من اسلوب أبي العلاء ، وعلى فرض أنها من شعره لا نجد فيها ما يوجب القدح في دينه ، ولا ما يوجب جعله من المعتزلة . وسأني لإيضاح هذا عند قوله : (١)

إِنْ كَانَ مَنْ فَعَلَ الْكَبَائِرَ مُجْتَبِئاً فَعِقَابُهُ ظُلْمٌ عَلَى مَا يَفْعَلُ

وأبو العلاء يوافق المعتزلة في التحويل على العقل ، وفي بعض المسائل ، ولكنه يخالفهم في كثير من آرائهم ، وقد صرح بأنه لم يوافقهم وتبرأ منهم . وعدّ رؤسائهم من المازلين بأصحابهم ، وأن ما الفوه من كتبهم سببه التنافس في الدنيا ، وحسبك الآن من الأدلة على ذلك قوله : (٢)

وَمُعْتَرِي لِي لَمْ أَوَافِقْهُ سَاعَةً أَقُولُ لَهُ فِي اللَّفْظِ دِينُكَ أَجْزَلُ

وقوله : (٣)

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتْرُكُ مَا حَكَى لَهُمْ أَبُو الْمَذْنِيلِ وَمَا قَالَ ابْنُ كَلَّابٍ

وإذا وافق الإنسان أصحاب مذهب أو نخبة في قول أو رأي ، لا يجب أن يكون من أهل ذلك المذهب ، لأن المذاهب والنحل تتوافق في كثير من الأصول والفروع ، ولا يكون الإنسان من أهل مذهب حتى يلتزم كل ما التزمه أهله . وعلى هذا لا يصح أن يقال : إن أبا العلاء معتزلي . وسأني ثمة القول في هذا عند الكلام على الاعتزال في شعره .

(١) الزوميات ٥ ص ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٤ .

(٣) الزوميات ٥ ص ٤٨ ، وفيها : « استمر أهله » .

الجبر

وأما من قال : إنه جبري ، فإنه رأى في بعض أقواله ما يرمي
الجبر ، فحكم عليه بذلك من غير أن يستري جميع أقواله . وسيأتي في
الكلام على الجبر أن أقواله في ذلك مختلفة ، منها ما يرمي الجبر المحض ،
ومنها ما ينف فيه موقف الشاك* ، ومنها ما ينقل فيه آراء غيره ، ومنها
ما يصرح فيه بأنه غير جبري كقوله (١) :

وَإِنْ سَأَلُوا عَنْ مَذْهَبِي قَهْوِ خَشْيَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَا طَوْقًا أُبَيِّتُ وَلَا جَبْرًا
وأنه يرى في الجبر نسبة الظلم إلى الله تعالى في مثل قوله (٢) :

إِنْ كَانَ مِنْ فِعْلِ الْكَبَائِرِ مُجْبَرًا فَعِقَابُهُ ظُلْمٌ عَلَى مَا يَفْعَلُ
واكثر أقواله وأصرحها يدل على أنه غير جبري كما سيأتي .

البرهانية

وأما من قال : إنه برهني ، فقد استدل على ذلك بأنه لم يأكل
الحم خساً وأربعين سنة ، وأنه كان لا يرى إيلام الحيوان ... وهذا
كلام أبي العلاء في جوابه إلى داعي الدعاء (٣) : . . . ومشهور أن
الأم إذا فُطِحَ ولَدُها وَجَدَتْ عليه وجداً عظيماً ، وسهرت لذلك ليلالي ،
وقد أخذت لحه ، ونوتر على أصحاب أمه ما كان يرضع من لبنها ، فأبي

(١) الزوائد ٥ ص ١٣٦ .

(٢) أنظر ما سبق ص ١٠٥ ، الحاشية (١) .

(٣) داعي الدعاء : هو أبو نصر بن أبي عمران داعي الدعاء بصر ، أنظر تعريف
القضاة . بأبي العلاء ص ١١٩ و ١٢٩ عن إرشاد الأريب - بالقرن الهوي .

ذنب لمن تخرج عن ذنب الليل ، ولم يرغب في استعمال الابن ، ولا يزعم أنه محرم ، وإنما تركه اجتهاداً في التبع ، ورحمة للذبح ، وربة أن يجازى عن ذلك بفقران خالت السموات والأرض ... ثم ذكر الحديث الشريف : « أفبروا الطير في وكناتها » والآية الكريمة : (١) « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » ثم قال : « فإذا سمع من له أدنى حس هذا القول ، فلا لوم عليه إذا طلب التقرب من رب السموات والأرضين ، بأن يجعل صيد الحل كصيد الحرم ... وإن كان ذلك ليس بمحظور . » وقال في كتاب آخر له (٢) : « وما حشني على ترك أكل الحيران ، أن الذي لي في السنة يتف وشرون دينارا ، فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب ، بقي مالا يعجب . » وقد تقدم هذا . فكلما هذا صريح في أنه ترك اللحم اجتهاداً في التبع ، ورحمة للذبح ، وربة بفقران الله . وأن ماله يفيق عن التوسع في النفقة ، ولا يرضى أن يسأل الناس ، أو يأخذ منهم شيئاً لياكل به لما . وقد ذكر أن النبي ﷺ أي شربة من لبن وعسل تواضعاً لله . وأن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أي شربة من ماء بارد وعسل (٣) وروى ابن الوردي أن أبا طالب المكي محمد بن علي المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ألف كتابه (قوت القلوب) وفاته إذا ذاك عروق البودي ، وقال السيوطي في (البغية ص ٦) : « إن بهاء الدين بن النحاس محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٦٩٨ هـ لم يتزوج ولم يأكل العنب قط . قال : لأنني أجه فأثرت أن يكون نصبي في الجنة . وكان ثقة حجة .. » وفي (بغية الرعاة

(١) سورة المائدة الآية ٩٥ .

(٢) تعريف القدماء بأبي البلاد ص ١٢٥ عن الإرشاد - لياقوت .

(٣) تنبيه المختصر لابن الوردي وأوج التحري ص ٣٨ (ج) .

ص ٢٤٦) أن دارد بن يزيد النرناطي السعدي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ كان يأكل الشعير ولم يأكل لحماً من الفتنة الأولى ، لأجل المغانم والمكاسب . وفيها في ص ٢٧٨ أن عبد الله بن أحمد المالقي المتوفى سنة ٦٤٨ هـ كان عالماً جمع الله له العلم والعمل ، وهو آخر الورعين بالاندلس ؛ وكان لا يأكل من لا يتحقق طبيب ككبه ، ولا سبها بعد حدوث الفتن ، فإنه قطع أكل اللحم .

وقال البديعي : « وقول تليذه : لم ترق الدماء زهادة ، لم يبط من المعنى ماقلوه ، ولو أراد له لقال : فلسفة . ثم ماذا على من ترك اللحم وهو من أعظم الشهوات حساً وأربعين سنة زهادة ؟ خصوصاً وقد قال صاحب (قوت القلوب) : إباحة حلال الدنيا حسن والزهد فيه أحسن . ثم ذكر أن رسول الله ﷺ ترك شرب القدح الذي فيه لبن وعسل . وأن ممر رضي الله عنه أبى أن يشرب ماء بارداً وعسلاً في يوم صائف . ثم قال : وقد نهى النبي ﷺ عن التمتع ، والكتب مشحونة بترك السلف الصالح للشهوات والملاذ الفانية ، رغبة في النعيم الباقي ، والرحمة للحيوان من الحصال المندوبة ، كما قيل : والشاة إن رحمتها رحمتك الله . وقد ترك جماعة من الزهاد والعباد أكل الطيبات تقرباً إلى الله تعالى ، وعد ذلك في مناقبهم ومخاضهم ، ولم ينكر عليهم فكيف يجعل الامتناع من أكل اللحم تركاً للأخرة على رأي المنازي ، هـ .

وقوله : « والشاة إن رحمتها .. » لهذه يشير به إلى ما رووي عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رجلاً قال : يا رسول الله إني لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : إن رحمتها رحمتك الله . رواه الحاكم ، وقال صحيح الاسناد ، ورواه الأصبهاني . ولفظه : « قال : يا رسول الله إني آخذ شاة وأريد أن أذبحها ، فأرحمها . قل : والشاة إن رحمتها رحمتك الله . »

والتاريخ مكتظ بأخبار المتدينين الذين أمسكوا عن تناول الأطعمة والأشربة المباحة ، زهادة فيها ورغبة في التقرب إلى الله ، ولم ينكر عليهم أحد ذلك . وأبو العلاء السكين يقول للناس : أنا لا أعتقد أن اللحم حرام ، وأتركه اجتهداً في التعب . . . وهم يقولون له : أنت يرميها تعتقد حرمة ، شئت أم أبيت .

المزدكية

وأما نسبه إلى الزدكية ، فأغرب من نسبه إلى ما قبلها ، لأن مزدك كان يستحل الحرام ، ويسوي بين الناس في الأموال والنساء ، فيأخذ امرأة هذا ويسلمها إلى ذاك . . والمعروف من أحوال أبي العلاء وأقواله أنه كان يتشدد في حجاب المرأة ، فيمنعها من الصعود إلى السطح ، ومن الخروج إلى الحمام ، والعراف ، والنجم ، والمسجد ، ومن الذهاب إلى الحج ومن التوسع في تعلم القراءة والكتابة ، ومن دخول الوليد عليها ، ونحو ذلك بما بينه في كلامه . كل هذا غيرة عليها ، وكان يأبى زواج الحرائر وقد قال في الزنوم^(١) :

بَرِئْتُ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَهْلِ مَذْهَبٍ يَرَوْنَ مِنَ الْحَقِّ إِلَّا بَاحَةً لِلْأَهْلِ
وقال في الزنوم^(٢) :

قَدْ أَعْرَسَتْ عِرْسُ الْأَمِيرِ بِتَابِعٍ ضَرَعَ فَأَيْنَ حَلِيلُهَا الْغِيَارُ
فالحكم عليه بعد هذا بأنه مزدكي لا بعدوا أحد أمرين : إما أن يكون قاتله جاهلاً بالمزدكية وبأبي العلاء معاً . وإما أن يكون مقترباً على أبي العلاء .

(١) الزنوبات ٥ ن ٢١١ .

(٢) الصغر الساجي ص ١٣١ .

وستأتي تمة القول في هذا ، عند الكلام على رأيه في الزواج ، وفي المذاهب والنحل .

الدرزية

لبعض الأدباء ولع شديد بالإتيان بالغريب ، واستنباط الأحكام من الأدلة والحوادث ، ولو كانت على وجه بعيد ، كأن أحدم يظن أن الناس يتقبلون منه كل مايقوله من غير أن يعرضوه على محك العقل والنقل والتقد . وإذا لم ير من يرد عليه قوله اعتقد ان قضيته مسلمة لا يختلف فيها اثنان . وربما كان السكوت عنه احتقاراً لقوله أو رأيه . وقد ذهب بعض المتأخرين إلى أن أبا العلاء كان يعتقد المذهب الدرزي ، واستدل على رأيه هذا بأنه عاصر الدعوة الدرزية في عنفوانها ، وأنه تنوخي ، وأكثر التوخييين أجابوا هذه الدعوة ، وأنه من الممرة ، وقد كان شمالي سورية من مبادئ تلك الدعوة ، وأن في شعره شياً لما جاء في المذهب الدرزي ، وأنه ذكر العقل ، وجعله إماماً . ولهذا الكلمة عندهم معنى خاص ، وأعظم منزلة عندهم وتبة شيخ العقال إلى غير ذلك من الاستنباط الغريب .

وأنا لم أطلع على حقيقة المذهب الدرزي ، حتى أعلم منزلة هذه الأقوال من الصحة وعدمها ، ولكن ما سمعته وما رأيته في أقوال العلماء والأدباء يدل دلالة قاطعة على أنه لم يعتقد هذا المذهب .

ومن ذلك أنه أنكر التناسخ في مواطن من شعره . وأنه ترك الزواج ، وحض على تركه وعلى قطع النسل ، وعلى عدم تعليم المرأة ، ونحو ذلك مما لا يفتق مع المذهب الدرزي . وذكر في (رسالة الغفران ص ١٥٢) مذهب الحلوبية ، ثم قال (١) : « وتؤدي هذه النحلة إلى التناسخ ، وهو

(١) أنظر ما سبق ص ٤٠٢ الحاشية (١) .

مذهب عتيق يقول به أهل الهند ، وقد كثرت في جماعة من الشيعة ،
نسأل الله التوفيق والكفاية . ثم قال في ص ١٥٧ : « والحلولة قريبة
من مذهب التناسخ » . ثم أورد نصين من يقول بالتناسخ ، وقال في
(لزوم ما لا يلزم) (١) :

يَقُولُونَ: إِنَّ الْجِسْمَ يُنْقَلُ رُوحُهُ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يُهَذَّبَهَا النُّقْلُ
فَلَا تَقْبَلَنَ مَا يُخْبِرُوكَ ضَلَّةً إِذَا لَمْ يُؤَيِّدْ مَا أَتَوَكَ بِهِ الْعَقْلُ
وقال فيه (٢) :

مَضَى قَيْلٌ مَضَرَ إِلَى رَبِّهِ وَخَلَّى السِّيَاسَةَ لِلْخَائِلِ
وَقَالُوا يَعُودُ فَقُلْنَا يَجُوزُ بِقُدْرَةِ خَالِقِنَا الْآئِلِ
إِذَا هَبَّ زَيْدٌ إِلَى طَيْئٍ وَقَامَ كَلِيبٌ إِلَى وَائِلِ
وهذا وأمثاله ، مما سبأني ، يدل على أنه لم يكن يعتقد ما يعتقد
أهل هذه النحلة .

الفرطية

زعم بعض المستشرقين أن أبا العلاء كان يدين بمذهب القرامطة ، وبني
قوله هذا على شبه واهية ، وتلقفها فريق من المولعين بكل غريب من
غير بحث ولا تدبر . والدليل على بطلان هذا الزعم أن أبا العلاء كثرت
القرامطة ، ولعنهم وفضل عليهم الجامعة ، وانتفى في التهديد بهم في

(١) الزوبيات ص ١٩٥ .

(٢) الزوبيات ص ٢٢٤ والآل : الساس من آل الملك الرعية إذا ساسها .

(رسالة الغفران ^(١) ص ١٤٥ و ص ١٤٧) وفي (لزوم ما لا يلزم)
ولا أعلم كيف يستجيز هؤلاء أن يقولوا : إن أبا العلاء يدين بمذهب بسب
أصحابه ويكفرهم ويقول فيهم ^(٢) :

إِنَّمَا هَذِهِ الْمَذَاهِبُ أَسْبَابُ الْجَذْبِ الدُّنْيَا إِلَى الرُّؤْسَاءِ
كَالَّذِي قَامَ يَجْمَعُ الزَّيْجَ بِالْبَصْرِ وَالْقَرْمَطِيَّ بِالْأَحْسَاءِ
وسأني تمة القول في القرامطة على وجه لا يبقى معه شك في أنه
لم ينتحل هذه النحلة .

التقية

وقد زعم فريق أن أبا العلاء كان من أهل التقية ، يبطن غير ما يظهر
من العقائد ، كما أنه كان يستعمل الغموض في كلامه والتعريب في لفظه
ليخفي مقاصده وأغراضه ولا يصرح بها تقية ، واستدلوا على ذلك بأدلة
هي أروى من بيت العنكبوت . ومن البديهي أن الإنسان لا يلجأ إلى
التقية إلا في موطن يخاف فيه فتنة أو شرأ ، أو يخشى أذية وانتقاماً .
واعظم هذه المواطن خطراً الملوك والأمراء والكبراء ، ورؤساء المذاهب
والعقائد والأديان والشرائع ونحوها من المواطن التي تثير أهل الحول
والطول ، أو تستثير الدماء والنموغاة . وقد رأينا أبا العلاء في كثير من
هذه المواطن ، إن لم تقل في كلها ، غير هيتابة في بحثه ، ولا وجل في
إبداء رأيه . وقد صرح بكثير من الأمور التي هي أجدر من غيرها بالتقية ،

(١) أنظر الرسالة تحقيق بنت الشاطي ط ١ ص ٣٧٨ و ٣٨٠ .

(٢) الزوميات ص ٢٦ .

وجِبَّتْ الكبرياء والرؤساء بالنقد اللاذع والتدبير القارس ؟ ولم يجب لأحد
حاشا . فأبى القبة ممن يقول في ملوك عصره :

ظَلَمُوا الرِّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا فَعَدَّوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَ أَوْهَا^(١)

. . .

سَاسَ الْبِلَادَ شَيَاطِينُ مُسَلِّطَةٌ فِي كُلِّ مُضَرٍّ مِنَ الْوَالِيْنَ شَيْطَانٌ^(٢)

. . .

فَإِنِّي أَرَى الْآفَاقَ ذَانَتْ لِظَالِمٍ يَغْرُبُغَايَاهَا وَيَشْرَبُ خُمْرَهَا^(٣)

إلى غير ذلك من الأبيات الآتية في الكلام على السبابة . ويقول في الشرائع^(٤) :

إِنَّ الشَّرَائِعَ أَلَقَتْ بَيْنَنَا إِحْنًا وَعَلَّمَتْنَا أَقَانِينَ الْعَدَاوَاتِ

ويقول في الأديان^(٥) :

هَفَّتِ الْحَنِيْفَةُ وَالنَّصَارَى مَا هَمَّتْ وَيَهُودُ حَارَتْ وَالْمَجُوسُ مُضَلَّلَةٌ

ويقول في رؤسائها^(٦) :

يَتَلَوْنَ أَسْفَارَهُمْ وَالْحَقُّ يُخْبِرُنِي بِأَنَّ آخِرَهَا مَيِّنٌ وَأَوَّلُهَا

. . .

(١) الزوميات ، ص ٢٣ .

(٢) الزوميات ، ص ٢٦٢ ونبها : ساس الأنام . . .

(٣) الزوميات ، ص ١٣٨ .

(٤) الزوميات ، ص ٦٧ ونبها : . . . وأودعنا . . .

(٥) الزوميات ، ص ٢٠٦ .

(٦) الزوميات ، ص ٢٠٤ .

فَمَا الْعِظَاتُ وَإِنْ رَأَعْتَ سِوَى حَيْلٍ مِنْ ذِي مَقَالٍ عَلَى نَاسٍ تَحَوَّلَهَا

. . .

يَدْعُونَ فِي جُمُعَاتِهِمْ بِسَفَاهَةٍ لِمَلِيكِهِمْ فَيَكَاذُبُنِي الْمُنْبَرُ^(١)

. . .

وَلَمْ أَمِنْ عَلَى الْفُقَهَاءِ حَسْبًا إِذَا مَا قِيلَ لِلْأَمْنَاءِ جُوزُوا^(٢)

ويقول في الناس عامة :

قَالُوا: فُلَانٌ جَيِّدٌ فَأَجَبْتُهُمْ لَا يَكْذِبُوا مَا فِي الْبَرِّيَّةِ جَيِّدٌ^(٣)

. . .

فَقُلْ أَبُو عَالِمِنَا آدَمُ وَنَحْنُ مِنْ وَالِدِنَا أَفْسَلُ^(٤)

ولم بدع صنفًا من الناس إلا قرعته بمثل هذه الصراحة القارصة .
وقد تناول الملوك والكبراء والشعراء والخطباء والوعاظ والفضة والفقهاء
والتكلمين والنحاة والعدول والتجار ورؤساء النصارى واليهود وغيرهم من
أرباب النحل ، ولم يسلم من نقده حي ولا ميت ، وسلك في جميع هذه
المواطن سبيل الصراحة الواضحة ؛ ولو كان عنده شيء من التفة لكانت

(١) الزويات ، ص ١٢٦ وفيها : « لأمرهم .. » .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣ .

(٣) الزويات ، ص ٩٧ ، وفيها : « .. جيد لسدغه » .

(٤) الزويات ، ص ٢٠١ ، والنقل : الرذل الذي لا مروة له .

في هذه المواضع أولى منها في غيرها . ومن الأدلة الواضحة على براءته من التهمة قوله في حضور الجمعة (١) :

وَهَلْ لِي خَيْرٌ فِي الْحُضُورِ وَإِنَّمَا أَزَاحِمُ مِنْ أَخْيَارِهِمْ بِبَلَا جُرْبَا

فقد صرح بأنه لا يرى خيراً في حضورها ، وكان في وسعه أن يقول :
لأنها لا تجب عليه ، لأن بعض الأئمة اشترط لجوبها سلامة العيّن ، ولكنه
أراد أن يحافظ على المقصد الذي أراده من ذم الناس حتى خيارهم .
وأصرح منه قوله (٢) :

وَيَنْفِرُ عَقْلِي مُغْضَبًا إِنْ تَرَكَهُ سُدَى وَأَتَّبَعْتُ الشَّافِعِيَّ وَمَالِكًا

وقوله (٣) :

سَأَتَّبِعُ مَنْ يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ جَاهِدًا وَأُرْحَلُ عَنْهَا مَا لِي بِسُوءِ عَقْلِي

وقد أشرنا إلى ذلك في مواطن من هذا الكتاب فدل على أن أبا العلاء
نسج وحده في جرأته الأدبية .

★ ★ ★

(١) الزوبيات ص ٣٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٠ .

خلاصة ما أراه في اعتقاد أبي العلاء

رأينا من القيد ، قبل ان نبين رأينا في اعتقاده ، أن نذكر مقدمات تبهر لنا الوصول إلى النتيجة بسهولة ، وهي :

الأولى : اتضح لنا جلياً بما ذكره المؤرخون أن أبا العلاء كان محمداً على فطرته ، وأن حماسه وأعداءه كانوا لا يتورعون عن الافتراء عليه . وكانوا يعملون على لسانه الأبيات قصداً لإهلاكه . ولكن لم يبين لنا واحد منهم شيئاً من تلك الأبيات ، لنعلم مدى ذلك الافتراء ، ولنتبين بينها وبين شعره الحقيقي .

وأن اثنين حرقاً بيننا من (لزوم ما لا يلزم) ليكفراه ، فكتب (رسالة الضمير) إلى معز الدولة يشكوهما إليه ، وذكر أن في حلب نسخاً من هذا الكتاب بريئة من التعريف والعبث .

وأنه ألف كتاباً في الرد على من نسب إلى معارضة القرآن . وفي الجواب عن أبيات استخرجوها من (لزوم ما لا يلزم) وكفروا بسببها . وقد سماه (زجر النابح) ثم طعنوا فيه بأبيات آخر ، فوضع كتاباً آخر سماه (نجر الزجر) و (بحر الزجر) وبين فيه التعريف ووجوه الأبيات ومعانيها التي يريدونها . ولو أتبع لنا الاطلاع على تلك الرسالة وهذين الكتابين لكشفت لنا نواح عديدة تعين على الدرس وتزيل اللبس .

الثانية : اتضح لنا وسيبضح بما ذكرناه وبما سندكره أن كثيراً حرقوا أبياتاً من كلام المعري لأسباب مختلفة . فمنهم من فعل ذلك ليتخذ منه مغزاً في دين المعري . ومنهم من فعله متابعة لغيره . ومنهم من فعله

لعدم فهم كلامه ولولا خشية الإطالة لاوردنا أمثلة كثيرة من هذا القبيل
ولكننا نكتفي بالإشارة إلى ماسبق وما سيلحق .

الثالثة : أن كتب المعري التي وصلت إلينا مضمورة بالشعر الإسلامي
وليس في شيء منها مستك لأعدائه إلا ثلاثة : (الفصول والغايات)
و (رسالة الغفران) و (لزوم ما لا يلزم) .

أما الفصول والغايات : فقد زعم بعض المتقدمين أنه عارض به الحور
والآيات ، واقتفى أثرهم بعض المتأخرين ، وزعم فريق أنه ليس بين
الفصول والغايات وبين القرآن الكريم معارضة ، وإثما بينهما مشابهة ، وهذا
يدل على أن باب القول لا يزال مفتوحاً إلى هذا اليوم ، وقد بينا بطلان
هذا كله في الكلام على الفصول والغايات .

وأما رسالة الغفران : فقد زعموا أن فيها نهكاً واستخفافاً . وهما
من الأمور النسبية الخفية التي لا يستطيع أحد أن يطعها ، إلا إذا أخبره
بها صاحبها . ولم ينقل عن المعري أنه قال : أريد برسالة الغفران التهم
والاستخفاف . وإذا قيل : إن كلامه في بعض المواطن يحتمل ذلك ،
فنقول : إن الاحتمال بضعف الدليل ، ويسقط الاستدلال به ، وأكثر
كلام الناس يحتمل مثل ذلك ، والتكفير على الاحتمال لا فية له في نظر العلم ..
وأما لزوم ما لا يلزم : وهو أكثر ما يعول عليه الطاعنون في دين أبي
العلاء ، وأكثر ما عبت به وحرف من كلامه ، فقد طبعت منه نسخة
مضمورة بالتحريف والغلط ، وعيبت الشارح بضبط بعض الكلمات وفي
تفسيرها وشرحها ، كما سنرى ذلك في الكلام على لزوم ما لا يلزم ، وعلى
هذا فلا يأمن الإنسان من تحريف يقع في الآيات التي تتعلق باعتقاد
أبي العلاء ، أو خطأ في تفسيرها .

الرابعة : أن لزوم ما لا يلزم ديوان شعر ؛ والشاعر فيه يبالغ في بعض الأمور ، ويتجوز في بعض آخر ، وقد يتخيل غير الواقع واقعا ؛ ويقول ما لا يعتقد ، حرصاً على نكتة أو نادرة ، وينظم المعنى ولا يخطر في باله ما يترتب عليه ، ويقول ما لا يفعل ، وجميع في كل واحد ، وقد يعرض نفسه للمؤاخذة في كلامه لحرصه على نكتة أو غرض يريد ، كما وقع لذي الرئمة في قوله (١) :

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ
ولجرير في قوله (٢) :

أَتَصْحُو أَمْ قُودَاكَ غَيْرُ صَاحٍ
وقوله (٣) :

تَعَرَّضْتُ تَيْمِلِي [عَمْدًا] لِأَهْجُوهَا كَمَا تَعَرَّضَ لَانْتِ الْخَارِي وَالْحَجَرُ
وقد يلجأ إلى كناية دقيقة أو مجاز ، كما قال أبو العلاء (٤) .

لَا تُقَيِّدْ عَلَيَّ لَفْظِي فَإِنِّي مِثْلُ غَيْرِي تَكَلَّمِي بِالْمَجَازِ
وإذا كان الأمر على ما ذكرنا ، فليس من الحق والعدل أن نزن أقواله في (لزوم ما لا يلزم) بما نوزن به النصوص الشرعية ، من آيات القرآن الحكيم ، وأحاديث النبي الكريم ، ولا أن نحتوز في كلامه بمثل

(١) ديوانه طبعه أوربا ص ١ وعجز البيت : « كأنه من كل مفردة سرب » .

(٢) ديوانه ص ٩٧ والبيت مطلق نصبة يمدح بها عبد الملك بن مروان وعجزه : « عشية م صحك بالرواح » .

(٣) ديوانه ص ٢٨٣ وهو البيت الرابع من قصيدة يهجو بها الفرزدق ، وروايته في الديوان : « تعرض التيم لي عمداً ليهجوني . . . » .

(٤) الزوميات ص ١٧٥ .

ما يحترز به في أقوال العلماء في كتب الدين . ولا أن ندقق في مفاهيمها
وقيودها مثل ما يدقق في كتب العقائد ؛ لانا لو سلكتنا هذا السبيل
لوجدنا أكثر الثمراء كفاراً وملحدين ، من حيث لا يشعرون ولا يقصدون .
وأن تشدد بعض العلماء في مثل هذا سهل على بعض آخر أن يطمئن
في عقيدة الإمام الفزاري لقوله : « ليس في الإمكان أبدع مما كان » .
ولا يعتقد عاقل منصف أن الفزاري يريد بكلمته هذه نسبة العجز إلى الله
تعالى . وكذلك كفر بعضهم ابن الرومي بقوله (١) :

كُثِرَتْ مُوَبِّقَاتُ بُورَانٍ حَتَّى ضَاقَ عَنْهَا عَفْوُ الْغَفُورِ الرَّحِيمِ
وكفر فريق أبا الطيب بقوله (٢) :

وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُخْتَقَرٌ فِي هِمَّتِي كَشَفَرَةٍ فِي مَفْرِقِي

وكفر فريق ابن النيب بقوله (٣) :

اللَّهُ أَكْبَرُ لَيْسَ الْحَسَنُ فِي الْعَرَبِ . . .

وأمثال هذا كثير .

الخامسة : أن أبا العلاء جرى على طريقة المتزلة والحكماء النظريين ،
فجعل العقل أساساً لجميع آرائه ، وزاد عليهم فجعل كل عقل نبيا . وعلى
هذا الأساس ذهب في (النصول والغايات) إلى أن الله يقدر على المستحيلات ،

(١) ديوانه شرح كامل كيلاني طبعة القاهرة م ١١٥ الصفحة ٤٣٩ .

(٢) انظر الرف الطيب م ٣٤ ، ومطلع النقطه : « أي عمل أرعى أي عظيم أعني »

(٣) ديوانه طبعة القاهرة .

لأن عدم القدرة عليها عجز ، والمعجز صفة نقص يجب أن يفزه الله عنها .
فقد قال في (الفصول ص ١٧٤) : « يقدر الله على المستحيلات ، رد الفئات
وجمع الجسبن في مكان وما لا تحتله الالباب ، إذ كان لا ينسب إلى عجز
ولا انتقاص . . . » وفي اللزوم كثير من هذا القليل .

ولا نستطيع أن ننكر أن كثيراً من الأمور الشرعية يقصر العقل
عن إدراك حكمة الشارع فيه . فإنكار أبي العلاء بعض القضايا لقصور
عقله عن إدراك حكمته ، لا مجرد الاعتراض على الشرائع . ولو تنى
إنسان أن يطلع على قلوب العلماء ، لراى فيها من الإنكار أضعاف
ما ظهر على لسان المعري ، ولكنهم ينسئون ولا يبدون ما في ضمائرهم .
وأبو العلاء اجتراً واطهر للناس ما في قلبه .

السادسة : قد يكون فيما انتهى إلينا من أقوال المعري ، بيت أو شطر
أو جملة ، نؤم الحكم عليه بسوء الاعتقاد ، ويكون إلى جانبها
آيات وأقوال كثيرة صريحة في الدلالة على حسن اعتقاده ، فيتسكك
الطاعنون بالبيت أو الشطر على ما فيه من احتمال أو نظر أو شبهة ، ويعرضون
عن الآيات الصريحة الكثيرة . ولم يلتفتوا إلى قوة الأدلة ولا إلى لكانتها
ولا إلى رجحان الصريح على غيره ، ولا إلى ترجيح المتأخر على المتقدم .

مع أن القاعدة عند العلماء ، أن الدليل إذا طرقه الاحتمال كساه
ثوب الإجمال ، وسقط به الاستدلال ؛ وأن الصريح من الأدلة يرجع على
غيره ، إذا كانا متساويين في القوة . وأن الأدلة المتعددة أقوى من الدليل
الواحد ، إذا كانت مساوية له في طريق الإنبات . وأن الأدلة المتساوية
في القوة إذا تعارضت تسافطت . وليست لدينا نصوص تاريخية موثوق
بها نعين لنا زمن كل قول من أقوال أبي العلاء حتى نجعل المتأخر منها

فاسخاً للتعهد ، فإذا فرضنا أن أقواله الدالة على إيمانه مساوية لأقواله الدالة على كفره من كل وجه ، وجب أن نحكم بسقوطها معاً حتى لا يكون العمل بأحدهما ترجيحاً بغير مرجح ، ووجب أن نلتزم دليلاً آخر من غير أقواله نستدل به على إيمانه أو كفره ، ولم يبق لدينا إلا حياته العملية . والتاريخ يحدتنا أنه كان يصوم الدهر ، ولم يمهّد أنه ترك الصلاة حتى ترك الحياة ، وكان طاهر اللسان واليد والذليل ، ولم يعرف أنه أساء إلى أحد أو أضر بأحد أو انهك في منكر ، أو اقترف كبيرة ، أو ارتكب ما يخالف الدين والأدب ، ولم ينقل عن أحد من الناس على كثرة من كانوا ينسقطون عثراته ، وينقبون عن زلاته ومساوئه ، أنه خذ في شيء من أعماله عن سنن الشريعة الإسلامية .

وهذا القدر كاف في الدلالة على صحة إيمانه وبرائه بما تقول عليه المفترون من حساده وأعدائه ، على أن أقواله الدالة على إيمانه أكثر عدداً من أضدادها ، وأشد ثبوتاً وأكثر صراحة وإحكاماً .

السابعة : أن بعض خصومه أو حساده ، إذا رأوا في كلامه شبهة ، نوه نسبته إلى الإلحاد تمسكوا بها ، وجعلوها من الأدلة القاطعة . وربما أيدوها بما لا حقيقة له ، كما فعل الزمخشري في البيت الذي وصف فيه النار ^(١) ،

(١) البيت من فائيه أبي العلاء التي رثى بها النبي أبا أحمد الموسوي وأبو العريف الرضي والمرضى وهو :

حراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف

ولقد علق الزمخشري عليه بما فيه : « إنه أراد وصف الزيادة على نسبة القرآن

الظيم بالقصر » . وذلك في الآية : « إنها ترمي بشرق كالقصر » .

انظر شروحات القط : ق ٣ ص ١٣٠٧ ، وتعرف التمام بأبي العلاء ص ٣٦١ .

وياهوت في آيات سمير بن دكين^(١) . والبناني في قوله^(٢) :

..... فِدَاعٍ إِلَى ضَلَالٍ وَهَادٍ

وإذا رأوا في كلامه ما يوجب إيمانه من الأدلة القاطعة قالوا : هذا تقية ، وإنا إذا جربنا على هذه الطريقة الفاسدة ، نستطيع ان نحكم بالكفر على كل إنسان ، حتى في قوله : « لا إله إلا الله » فتجعل قوله « لا إله » نفياً للاله ، وهو موجب للكفر ، ونجعل قوله « إلا الله » من باب التقية . وهذا غابة في السخف والصف .

الثامنة : قد أنكر الناس على أبي العلاء مواطن كثيرة من قوله ، يكاد ينحصر معظمها في أمور :

الأول : ما يتعلق باختقاده بالله ، والناظر في أقواله يجد أنه أثبت لله جميع الصفات التي أثبتها أهل السنة ، ونفى عنه ما نفوا ، ولم يشذ عنهم

(١) كذا في الأصل ، وفي رسالة الفران تحقيق بنت السامى ط ١ ص ٣٧٦ أن اسمه سمير بن أدكن ، وجاء فيها : « ولما أجلي عمر بن الخطاب - رحمة الله عليه - أهل الذمة عن جزيرة العرب ، شق ذلك على الجالين ، فيقال إن رجلاً من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال في ذلك :

يصول أبو شخص علينا بكرة رويدك إن المرء يظن ويرسب
كأنك لم تنبع حولة مافط لتنبع ، إن الزاد عني محجب
فلو كان موسى صادقاً ماظهرتم علينا ولكن دولة ثم تذهب
ولمحن سبقتكم إل المين فامرئونا لنا ربة البادي الذي هو أكذب
مشتم على آثارنا في طريقنا وبضيتكم في أن نودوا وترهبوا

وعلق باقوت في إرشاد الأريب ج ٣ ص ١٦٥ على هذه المادنة بقوله : وهذا يشبه أن يكون شعره قد غلغله هذا اليهودي ، أو أن إيراده مثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه . اهـ .

(٢) فروح سلف الزند : في ٣ ص ١٠٠٤ ، والبيت :

بان أمر الإله واختلج الناس من فداع إلى ضلال وهاد

إلا في مسألتي الزمان والمكان ، وجعل الله قادراً على المستحيل . وقد نسب بعضهم إلى الجبر ، وصرح هو ببراءته منه ، واستدل على بطلانه . وما يراه الإنسان في بعض أعيانه ، بما يوهم الجبر ، فهو من نوع ما يقوله العلماء في إثبات الجزء الاختياري أو الإرادة أو الكسب ، وسيأتي إيضاح هذا والاستدلال عليه .

الثاني : ما يتعلق بالكتب السماوية .

أما القرآن فقد عظمه في مواطن كثيرة ، وأنكر جواز نسخه ، ووصفه في (رسالة الففران في ص ١٥٨) ^(١) وصفاً يدل على أنه خرج من قلب مفعم بالإيمان الصحيح ، وقد تقدم أن السروجي دخل عليه في وقت خلوته فسمعه ينشد أبيتاً ثم تلا شيئاً من القرآن ثم قال : « سبحان من تكلم بهذا في القدم . . . » وستكلم على هذا مفصلاً . وأما بقية الكتب السماوية فلم ينكرها ، وإنما أنكر ما أدخله أهلها عليها : في مثل قوله ^(٢) :

أَلَيْتُمْ مَا الْحَبْرُ الْمِدَادُ بِكَاذِبٍ بَلْ تَكْذِبُ الْعُلَمَاءُ وَالْأَحْبَارُ

وقوله ^(٣) :

أَلَيْتُمْ مَا تَوْرَاتُكُمْ بِمُنِيرَةٍ إِنَّ الْفَيْتَ فِيهِ الْكُمَيْتُ مُحَلَّلَةٌ

الثالث : ما يتعلق بالنبوات والرسول .

لا يجد الباحث في كلام أبي العلاء شيئاً يدل على إنكاره الرسول ، أو على تحقيره واحداً منهم ، بل لم يذكر واحداً منهم إلا أودعه بالصلاة عليه .

(١) انظر الرسالة تحقيق بنت الطاطي ط ١ ص ١١٣ .

(٢) الزويات ه ص ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦ .

وقد مدح محمداً ﷺ في مواطن من شعره ، وحسبك منها قصيدته التي يقول في أولها (١) :

دَعَاكُمْ إِلَى خَيْرِ الْأُمُورِ مُحَمَّدٌ وَلَيْسَ الْعَوَالِي فِي الْقَنَاكَالسَّوِافِلِ
وتوعد بالعقاب ، لو استطاعه ، من أنكر نبوة موسى وعيسى صلى الله عليهما وسلم في قوله (٢) :

قَالَتْ مَعَاشِرُ: لَمْ يَبْعَثْ إِلَهُكُمْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ عِيسَاهَا وَلَا مُوسَى
وإِنَّمَا جَعَلُوا لِلْقَوْمِ مَا كَلَّةٌ وَصَيَّرُوا لِجَمِيعِ النَّاسِ نَامُوسَا
وَلَوْ قَدَرْتَ لَعَاقَبْتُ الَّذِينَ طَفَعُوا حَتَّى يَعُودَ حَايِفُ الْغَيِّ مَرْمُوسَا

ولا اذكر اني رأيت في كلامه شيئاً يؤاخذ به في احد من الأنبياء ، إلا أقواله في آدم ﷺ حين يتكلم في النسل والإنسال ، ففيها شيء من الشذوذ . ولكن يمكن تأويلها تأويلاً حسناً . وإلا أبياتاً انفرد بروايتها رار واحد ، وقد ذكر له ياقوت أبياتاً من هذا النوع ولكنها ليست في شيء من كتبه التي رأيناها .

الرابع : الملائكة .

لقد اثبت أبو العلاء الملائكة في نثره ونظمه ، ولم ينف عن قدرة الله إيجادها ، وأثبت وجودها في الأرض ، وذكرها في مواطن من كلامه ، وقلنا خلا كتاب له . من ذكرها . فقد قال في لزوم ما لا يلزم (٣) :

لَسْتُ أَتَفَرِّقُ عَنْ قُدْرَةِ اللَّهِ أَشْبَا حَ ضِيَاءِ بِغَيْرِ لَحْمٍ وَلَا دَمٍ

(١) الزوبيات ص ٢١٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٦ .

(٣) للمصدر السابق ص ٢٥٨ .

وقال فيه (١) :

إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سَمَاءٍ فَوْقَنَا بَشَرٌ فَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَوْ مَا تَحْتَهَا مَلَكٌ

وقال في السقط (٢) :

هُوَ مِثْلُهُ فِي الْفَضْلِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةٍ جَبْرِيلُ

وفي (رسالة الملائكة) (٣) سُمي طائفة منهم ، وذكر أسماء بعضهم وأوزانها في ص ٥ - ٨ - ٩ - ٢٣ - ٢٥ - ٤٣ وغيرها .

وفي (رسالة الغفران) ذكر رضوان والملائكة في ص ٨ - ١٨ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٩ - ٦٠ - ٧٣ - ٧٤ وغيرها .

وذكر الملك في (ملقى السبل) ص ١٤ - ١٥ .

وذكره في (النصول والفتايات ج ١ ص ٧٣) .

وذكر الملك والملائكة في رسائله (٤) في ص ٩ - ١٠٦ - ١٦٠ وغيرها .

الخامس : الجن

زعم بعض الأدباء أن أبا العلاء ينكر الجن ، وهذا الزعم باطل لأنه صرح بذكر الجن في مواضع من كلامه منها قوله في (لزوم ما لا يلزم (٥) :

مَنْ لِي بِأَنِّي وَحِيدٌ لَا يُصَاحِبُنِي حَتَّى سَوَى اللَّهِ لِاجْنِ وَلَا إِنْسٌ

(١) الزوميات ص ١٨٣ .

(٢) شروح سقط الزند : في ٢ ص ٨٧٢ .

(٣) انظر رسالة الملائكة تحقيق المؤلف .

(٤) الرسائل - لتأليف عطية .

(٥) الزوميات ص ٣٠١ .

وقوله في سقط الزند^(١) :

وَقَدْ كَانَ أَرْبَابُ الْفَصَاحَةِ كُلِّهَا رَأَوْا حَسَنَاءَ عَذْوِهِ مِنْ صَنَعَةِ الْجَنِّ

وذكر الجن في (رسالة الغفران) في مواطن متعددة وذكر اشعاراً على السهم ، وذكرهم في (رسالة اللانكة ص ٤٠ - ٤١) ولم ينكر وجودهم لا تصريحاً ولا تلبيحاً ، وإنما قال : إنه لم يعلم حساً بحس الجني ، وما صح عنده أن المرأة تنفق بتابع من الجن ، وكلا الأمرين لا يوجب كفراً ولا زندقاً ، وسأتي تنية القول في هذا الموضوع .

السادس : الحشر .

في (لزوم ما لا يلزم) وحده أكثر من مائة بيت كلها صريحة في ذكر الحشر ، أو ما يكون فيه من جنة أو نار أو حساب أو ميزان ، أو ذكر الآخرة وما يقع فيها ، كقوله^(٢) :

إِعْمَلْ لِأَخْرَاكَ شَرْوَى مَنْ يَمُوتُ غَدًا

وَأَدَّابْ لِدُنْيَاكَ فِغْلَ الْغَابِرِ الْبَاقِي

وقوله^(٣) :

وَمَتَى شَاءَ الَّذِي صَوَّرَنَا أَشْعَرَ الْمَيِّتِ نُشُورًا فَنُشِيرَ

وفي (سقط الزند) عدد كبير من ذلك كقوله^(٤) :

فَإِنْ اسْتَطِيعَ فِي الْحَشْرِ أَنْ تَكْزَايِرًا وَهَيْهَاتَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْغَالُ

(١) فروع سقط الزند : ق ٢ ص ٩١٧ .

(٢) الزويات ٥ ص ٣٠٢ .

(٣) المصدر السابق ٥ ص ١٦٨ .

(٤) النظر ماسبق ص ٢٦٥ الحاشية ٢-٢ .

وفي (ملقى السبيل) ذكر الآخرة في مواطن كقوله (١) :

نَمْتُ عَنْ الْأُخْرَى فَلَمْ أَتَّبِعْ وَفِي سَوَى الدِّينِ هَجَرْتُ الْكَرَى

. . .

« والعين لِلنَّحْدَرِ تدمع . والشَّخْبُ بِالْأَفْضَةِ مُنْع . وفي الآخرة يكون الْجَنَسُ » (٢) . و (رسالة الغفران) كلها قائمة على الحشر وما فيه . وفي (رسالة الملائكة) ذكر الملائكة والجنة ، وما فيها من فاكهة ومنع ، وماه الحيوان ، وطوبى ، والنار ، وغيرها . وذكر في (النصول والغايات) النار ([ج ١] ص ١) والآخرة (ص ٢٣ و ١٤٣) ، والحشر (٤١ و ١٣٥) ، والقيامة (٤٨ و ٨٠) ، والبعث (١٣٥) ، وفي غير هذه المواضع ، وذكر مثل ذلك في (رسالة المنيع) (٣) ورسالته الى خاله ، وإلى أبي عثمان النكتي وغيرها . ولو جمعنا أقواله في الحشر وما يتعلق به فبما وصل إلينا من كتبه ، على قلتها ، أخرج منها كتاب عظيم ، وكلها صريحة في الدلالة على ما تقدم ، وقد نمسك بعض الباحثين بقوله (٤) :

تَحَطَّمْنَا الْآيَامُ حَتَّى كَأَنَّا زُجَاجٌ وَلَكِنْ لَا يُعَادِلُنَا سَبْكُ

فجعله منكراً للبعث فيه ، وسيأتي بطلان ذلك ، وإيضاح هذه المسألة والاستدلال عليها .

(١) ملقى السبيل - تحقيق كامل كيلاني - ج ١ ص ٣٢٨ وفيه : « نمت » . فلم تنبه » .

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٤٣ ، والحب المنع : المطرة .

(٣) انظر الرسائل - لتأهين - ص ٥ ، ٦٧ ، ١٠٥ .

(٤) القزويني ص ١٨٢ ، ورواية البيت فيها :

يحططنا رب الزمان كأننا زجاج ولكن لا يهاد كسبك

وبعد هذه المقدمة نقول :

إن الحكم على إنسان بالكفر أو الزندقة حكم شرعي ، والأحكام الشرعية طرق معروفة وشروط لابد من رعايتها حتى يكون الحكم صحيحا .

منها : أن الإنسان لا يجوز أن يحكم عليه بالكفر ، إلا إذا أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة ، أو أمراً مجمعا عليه .

ومنها : أن الحكم على إنسان بالكفر بسبب قوله لا يكون صحيحاً إلا إذا أثبت دليل صحيح أنه تكلم بذلك القول على هذا الوجه المكفر .

ومنها : أن الدليل لا يكون موجبا للحكم إلا إذا كان صحيحا في دلالته على التكفير ، سالما من الاحتمال والمعارضة بدليل يساويه في القوة أو يزيد عليه . ولم يتوفر ذلك كله في شيء من الأبيات المنسوبة الى أبي العلاء ، بعد أن علمنا ما علمنا من عبث النساخ والشراح ، وتقوّل المنقولين ، وافتراء المفتريين ، وتحريفهم عمداً أو جهالة ، وتعارض الأدلة المتناقضة . وعلى هذا لا نستطيع أن نحكم حكما جازما بكفر أبي العلاء أو بزندقته ، لقد الدليل الصحيح على ذلك ؟ فترجع القضية الى تكفيره على سبيل الشك والاحتمال ، وهذا لاقية له في نظر العلم . ولا يزن جناح بعوضة عند العلماء .

واسنأ نحاول في كلمتنا هذه أن نبرئ أبا العلاء من كل ما ألصق به ، ولا أن نجعله في مصاف الأنبياء والمرسلين ، ولا في منزلة الأولياء المقربين ؛ ولا أن ننكر أن في كلامه ما يوجب المؤاخذة ، والحكم عليه بثل ما حكموا ، إن صح ما قالوه ، وإنما نريد أن نبين أن تكفيره يتوقف على ثبوت ما نسب إليه من الأقوال المكفرة بطريق صحيح . وهذا لم يمكن للأسباب التي قدمناها . وإنما لا ننكر فوق ذلك أن في أبياته التي

نسبوه الى الكفر بسببها ، وفي غيرها أيضا ، ما لم تستند مدارك الامة بعدد لإدراك غايته منها . ومنها ما لم تستند الامة لقبوله . ولا بد أن يأتي يوم يدرك الناس فيه مرامي من أقواله وينهروها حق الفهم ، فيعلمون من هو أبو العلاء وما هو .

والذي أعتقد أن أبا العلاء ما كان يتعد الكفر في تلك الأقوال ، ولا يرى فيها ما يوجب الكفر ، لاننا رأينا كثيراً من العلماء والحكام والشعراء من يتكلم بالكلمة ، يريد أن يقرر بها رأياً ، أو يعرب فيها عن معنى استجاده ، ولا يلتفت إلى ما يترتب عليها من الوجهة الدينية أو الادبية . وقد يجوز أن لا ينتبه الى ذلك . ومن هذا القيل ما وقع من الغزالي ، وابن رشد ، وابن سينا ، وأمثالهم . فإن المشهور من حال كل منهم أنه كان مؤمناً بالله ، وأنه يريد أن يوفق بين الحكمة والشريعة الإسلامية ، ولكنه وقع في كلامه ما لا يوافق الشريعة ، إما لعدم تنبيه ، وإما لأنه كان يعتقد أن ذلك القول لا يوجب الكفر ، ولكنه لم يتعد الكفر في قوله . وفرق عظيم بين تعد القول الكفر وبين وقوعه من غير انتباه الى ما يترتب عليه ، أو وقوعه مع اعتقاد أنه غير مكفر لشبهه . وقد بينا في الكلمة التي قلناها في المهرجان الألفي لأبي العلاء العربي ونشرت في (ص ٢٨١) من الكتاب الذي نشره المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م وسماه بهذا الاسم ، طرفاً بما ذكرناه هنا ، وزيادة في بعض النواحي ؛ وسأتي تمة القول في معتقده ، ونبين فيها ما آخذه به العلماء من أقواله ، عند الكلام على فلسفته إن شاء الله تعالى .

لزوم بيته

كان أبو العلاء ، في عنفوان حياته ، يتخبط في ظلمة سجن واحد وهو العمى فلما عاد من بغداد وأجمع على الانفراد أضاف إلى الأول سجنًا ثانيًا وهو لزوم بيته ، وسمى نفسه رهن المحبين . وقد بين سبب ذلك بقوله من قصيدة درعية في (السقط ج ٢ ص ١٧٣)^(١) :

لِذَاكَ سَجَنْتُ النَّفْسَ حَتَّى أَرَحْتُهَا

مِنْ الْإِنْسِ مَا إِخْلَاهُ رَبْعٌ بِإِخْلَالِ

وقد تقدم بعض أبيات منها في الكلام على إجماعه على الانفراد والعزلة ثم لما أضمن في التفكير ، ودّرس الحياة وما فيها درساً عميقاً ، أضاف إليها سجنًا ثالثاً ، وهو حبس الروح في الجسد فأصبح في ثلاثة سجون كما قال (٢) :

أَرَانِي فِي الثَّلَاثَةِ مِنْ سُجُونِي فَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَبَرِ النَّبِيْثِ
لِفَقْدِي نَاطِرِي وَلُزُومِ بَيْتِي وَكَوْنِ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيْثِ

ولما عاد من بغداد أرسل كتاباً إلى أهل المعرة ، يؤذّنهم فيه بما عزم عليه من الانفراد والعزلة ، وينذرم بعدم زيارته . ثم أقام في منزله مدة طويلة محتجباً لا يدخل عليه أحد . ولكن الناس توسلوا بوسائل شتى حتى دخلوا إليه للزيارة والشفاعة وغيرهما . وقد كتب ابن عمته أبو صالح محمد ابن المذهب إلى أخيه أبي الهيثم قصيدة يذكر فيها شوقه إلى لقاء أبي العلاء

(١) انظر شروح السقط ق ٤ ص ١٨٨١ وفيها : « ما أخلاه . . » .

(٢) الزوميات ص ٧٢ وفيها : « وكون النفس . . » .

وفيه يقول (١) :

فَكُنْ حَامِلًا مِنِّي إِلَيْهِ رِسَالَةً تَبِينُ لِيَا (٢) فِي هِضَابِ أَبَانِ
فَإِنْ قَالَ: أَخْشَى مِنْ فُلَانٍ تَشْبَهًا فَقُلْ: مَا فُلَانٌ حِندَنَا كَفُلَانِ
هُوَ الْخَلُّ مَا فِيهِ اخْتِلَالُ مَوَدَّةٍ فَلَا تَخْشَ مِنْهُ زَلَّةَ بَضْمَانِ
فَإِنْ خُنْتُ عَنْدًا أَوْ أَسَأْتُ خَلِيقَةً وَلَمْ يَكْ شَأْنِي فِي الْمَوَدَّةِ شَانِي
فَلَا أَحْسَنْتُ فِي الْحَرْبِ إِمْسَاكَ مَقْبِضِي

يَمِينِي وَلَا يُسْرَائِي حِفْظَ عِنَانِ
أَعْلَى حَيَاتِي أَنْ تَعُودَ نَضِيرَةً لَدَيْهِ كَمَا كَانَتْ وَطِيبَ زَمَانِي

ثم فتح بابه للزائرين والتعلمين ، فكانوا يقدون إليه من كل حدب وصوب . ولم أوفق لمعرفة اليوم الذي قبل فيه الزائرين ، ولا معرفة السبب الأخير الذي حمله على ذلك . وكان يندمر أحيانا من ملازمة البيت ، ويتخذها أحيانا حجة لأمر يريده ، قال في (سقط الزند ج ٢ ص ١٥٦) (٣) :

مَا لِي جَلَسَ الرَّبْعَ كَالْمَيِّتِ بَعْدَ السَّبْعِ لَمْ آسَفْ وَلَمْ أَنْدَمِ
عَلَى أَنْاسٍ مَنْ يُعَاشِرُهُمْ تُعَوِّزُهُ فِيهِمْ عِشْرَةُ الْمَكْرَمِ

(١) تعريف القدماء. بأبي اللاه من ٥٤٨ ، وقد أورد ابن الدمج هذه القصيدة في الإصناف والتحرير ، ومطلها :

بشمس زرود لا يدر معان أما وإن كان الجميع شجاني

(٢) كذا في الأصل ولعلها : « إلينا » ، وفي تعريف القدماء : « تبين إليه . . . » .

(٣) شروح السقط ف ٤ من ١٨١٠ .

وتطرق إلى هذا المعنى في رسالته إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي حيث قال: ^(١) «فَقَدَوْتُ حِلْسَ رَبِيعٍ ، كَالَيْتِ بَعْدَ ثَلَاثِ أَوْ سَبْعٍ ...» وقال في (الفصول والغايات [ج ١ ص ٢٩٧]) : «إِنَّمَا أَنَا حِي كَالَيْتِ ، أَوْ مَيْتِ كَالْحِي ، وَمَا عَزَلْتُ إِلَّا بَعْدَ مَا جَدَدْتُ وَهَزَلْتُ ، وَقَدْ تَقَدَّمُ . وقال نحواً من هذا في (رسالة الملائكة ص ٣) «فَأَمَّا أَنَا فَعِلْدَسُ الْبَيْتِ إِنْ لَا أَكُنِ الْمَيْتَ ، فَشَيْءٌ بِالْمَيْتِ .» وقد قال البطليموسي في (شرح السقط ص ١١٩٦) : «وَكَانَ الْمَرْي مُتَدَبِّناً كَثِيرَ الصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ ، تَسْمَعُ لَهُ بِاللَّيْلِ مِئْنَةٌ لَا تَقْنَهُمْ ، وَكَانَ لَا يَقْرَعُ أَحَدٌ عَلَيْهِ الْبَابَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فَإِذَا سَمِعَ قَرَعَ الْبَابَ عَلَّمَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ طَلَعَتْ فَقَطَعَ تِلْكَ الْمِئْنَةَ ، وَأَذِنَ فِي الدَّخُولِ عَلَيْهِ . وَكَانَ لَا يَرَى أَكْلَ اللَّحْمِ وَلَا شَرْبَ الْمُسْكِرِ وَلَا النِّكَاحَ . وَكَانَ ذَا عِفَّةٍ وَزَهَادَةٍ نَفْسٍ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُخَالَفاً لِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ السَّنَةِ .»

حليبة أبي العلاء

لم أعر في كلام أحد من المتقدمين على وصف جامع حليبة أبي العلاء ، وإنما ورد منها طرف في كلامهم ، وفي كلامه طرف آخر ، وهذا ما عثرت عليه من الكلامين :

قامته

روى باقوت (ج ١ ص ٣٠٧) ^(٢) أن صالح بن مرداس لما حاصر المعرة خرج شيخ قصير أمى يقوده رجل . فقال : هذا أبو العلاء . وكان كما قال . وقال أبو العلاء في رسالته إلى أبي الحسين النكتي وقد قصر اسمه ^(٣) : «فَمَا كَفَانِي ذَلِكَ ، مَعَ قَصْرِ الْجَسَمِ ، حَتَّى يَضَافَ إِلَيْهِ قَصْرُ الْأَمْرِ ١٢» .

(١) رسائل أبي العلاء المري - لثاين عطية - ص ٩٦ ، والمجلس : من يلزم مكانا لا يبرحه .

(٢) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .

(٣) رسائل أبي العلاء المري - لثاين عطية ص ١٣٤ .

نُحَافَةُ

يدل قوله في اللزوم (١) :

تَحَفُّوْا بِالْكَلَامِ وَأَكْرُمُوْنِي عَلَى مَا كَانَ مِنْ جَسَدٍ نَجِيلٍ

وقوله في رسالته إلى داعي الدعوة عن نفسه (٢) : « فإذا بسط يده انهضة ، ضربت عظامه ، لأنها عارية من كسوة كانت عليها . . » يدل على أنه كان قليل اللحم نحيف الجسم . وهذا أمر طبيعي أن يقل الغذاء ويكتفي بما تطهره ذكاه .

انحناء قامته

وقد انحنى قامته من الضعف ، وعجز عن القيام والوقوف في آخر عمره . كما قال نفسه في رسالته إلى داعي الدعوة (٣) « إن شخصه أشبه العمود المنحني ، وإنه ضعف حتى عجز عن القيام في الصلاة ، فلما يصلي قاعداً ، وإذا اضطجع عجز عن القعود ، فربما استعان بإنسان .

عيناه

تقدم أن الجدري أصابه في السنة الرابعة ، فذهب بعصره ، فكانت عينه اليسرى نادرة ، وقد غشيها بياض . وكانت اليسرى غائرة ، فكان كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا .

(١) الزوميات ص ٢١٩ .

(٢) تعريف القدماء بأبي اللاه ص ١٣١ عن إرشاد الأريب - لياقوت .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٢ . جا (٢٨)

وجبه

وقد أنز الجدرى في وجهه ، فلم تكن أدمة وجهه مستوية ، بل كان فيها نتوء وانخفاض .

أسنانه

ولم نشأ الإبهام أن تترك أسنانه سليمة ، حتى لاتسلم له جراحة من آفة . وقد قال في الزوم (١) :

فَمَعِيَ أَخَذَتْ مِنْهُ اللَّيَالِي وَإِنِّي لَا أَشْرَبُ مِنْهُ فِي إِثْنَاءِ مُثَلِّمٍ
وَأَوْدَى بِظَلَمِ الشَّغْرِ صُبْحٌ وَحَدِسٌ مَتَى يَنْظُرَا فِي نَيْرِ الْعَيْنِ يُظْلِمِ

والظاهر أن أسنانه وأضراره دب إليها الفساد قبل أن يبلغ الحسب . يدل على ذلك قوله في رسالة أرسلها جواباً لأبي الحسن محمد بن سنان الحلبي (٢) : « الآث عالت السن ، وضُعف الجسم .. وعُطِلَّت رحي .. كنتُ أَقصر طاحتها على نفسي .. ولم يبقَ إلا أن يخلو مكانها العامر .. وإن تَشَبَّه بها في الظمن أخواتها ، صار لفظي من أجل ذلك مشيناً ، وجعلتُ بين الكلمة شيئاً .. فإذا قلتُ العَسلُ ظن أني أقول العَسل ، بالشين المعجمة .. » .

وهذه الرسالة جواب عن كتاب كتبه إليه محمد بن سنان ، يخبره فيه أن سلطان حلب يطلب من أبي العلاء أن يضع له كتاباً يُذكر فيه أمثال على معنى (كلیة ودمنة) ، فوضع له كتاب (القائف) .. وهذا

(١) الزوميات ص ٢٤٤ ، والظلام : بفتح وسكون ، ماء الإنسان وبريقها .

(٢) رسائل أبي العلاء المرعي - لثاوين عطية - ص ٢٢٢ .

السلطان هو عزيز الدولة أبو شجاع فاتك بن عبد الله الرومي ، مولى منجوتكين ، ولي حلب من قبل المصريين سنة ٤٠٧ هـ ، وقتله ملوك الهند سنة ٤١٣ هـ وكان أبو الغلاء مل لعزير الدولة كتاب (الصاغل والشاحج) كما سبأني . فيكون جوابه لابن سنان نحو سنة ٤١٠ هـ أو سنة ٤١٢ هـ ، ويكون مبدا ذهاب أسنانه في ذلك العهد تقريبا .

سمه

يدل قوله في رسالته الى داعي الدعاء^(١) : « وقد علم الله ان سمي نقيب ... » ، وقوله لابن أخيه^(٢) :

أَجِدْكَ مَا تَرَكْتَ وَأَنْتَ قَاضٍ تَعُدُّ مُقْعِدٍ أَعْمَى أَصَمَّ
على ان سمي نقيب في آخر مره .

شعره

كان شعره أسود ، وقد رخطه الشيب قليلا قبل رحلته الى بغداد ، ولذلك قال في قصيدة فالما فيها^(٣) :

طَوَيْتُ الصَّبَاطِي السَّجِلَ وَزَارَتِي زَمَانٌ بِهِ لِلشَّيْبِ حُكْمٌ وَإِسْجَالُ

(١) انظر ما سبق ص ٤٣٣ الحاشية - ٢ .

(٢) تعريف القدماء بأبي الغلاء ص ٤٩٧ عن الإصناف والتحري - لابن الدم ، والبيت من مقطعة لم ترو في الديوانين مطلقا :

أعبد الله ما أسدى جيلا نظير جبل نذك غير أمي

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٢ .

ولكن شعره لم يبيض كله ، وإنما تأخر شيبه ، وقد قال في قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم التنوخي بعد رجوعه من بغداد (١) :

وَحُلْتُ كُلِّي سِوَى شَيْبٍ تَجَاوَزَنِي وَلَمْ يُبَيِّضْ عَلَى طُولِ الْمَدَى الشَّعْرَا

ويطلب على ظني أن هذه القصيدة قالها في سنة ٤٢٠ هـ . ويظهر من كلامه أنه كان غير مستعجب تأخر الشيب عن وفاته ، فقد قال من أبيات (٢) :

أَيَّامُ فِرْقِي هَلَّا أَبْيَضْتُ عَلَى الْمَدَى فَمَا سَرَنِي أَنْ بَتَّ أَسْوَدَ حَالِكَا

فَبِيحُ بِفَوْدِ الشَّيْخِ تَشْبِيهُ لَوْنِهِ بِفَوْدِ الْفَتَى وَاللَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ

وقال (٣) :

تَأَخَّرُ الشَّيْبُ مِنِّي مِثْلُ مَقْدَمِهِ عَلَى سِوَايَ وَوَقْتُ الشَّيْبِ قَدْ حَضَرَ

وذلك لأنه لا يسهو أن يكون لون شعره لون شعر الشباب ، وأن يكون ضعفه ضعف الشيوخ كما قال (٤) :

وَمَا يَنْفَعُ الْغَرِيبَ وَالضَّعْفُ وَاقِعٌ إِذَا كَانَ لَوْنُ الرَّأْسِ غَيْرَ هَجَانٍ

وكان لا يخضب شعره ، وإنما يعتقد أن

مَنْ يَخْضِبِ الشَّعْرَاتِ يُخْسِبُ ظَالِمًا وَيُعَدُّ آخِرَقَ كَالظَّلِيمِ الْخَاضِبِ (٥)

(١) فروع القط : ق ٤ ص ١٧٤٣ ، ورواه الحوارزمي : « .. مجاورني » .

(٢) الزوبيات ٨ ص ١٨٥ .

(٣) الزوبيات ٨ ص ١٤٠ وفيها : « .. الشيب عني .. ما خيرا » .

(٤) الزوبيات ٨ ص ٢٧٥ . والريب : البيع يسود شبه بالخضاب . والمجان :

كتاب ، الخالص من كل شيء ووردت (الريب) مضمومة الآخر في الزوبيات .

(٥) الزوبيات ٨ ص ٥١ ، والظلم الخاضب : ذكر الناصب إذا اغتم فاحمرت ساقه ،

أو أكل الربيع فاحمر ظنبواه . والنبيج : الدم الطري .

وَالشَّيْبُ فِي لَوْنِ الْحَسَامِ فَلَا تَدْعُ جَسَدَ النَّجِيعِ عَلَى الْحَسَامِ الْقَاضِبِ

ولعله يكره الحضاب ، لأن فيه تغييراً لما ارتضته الطبيعة ، وشبهاً من
الفش والتبويه . وقد رغب المتنبى قبله عن الشعر الكذوب فقال (١) :

وَمِنْ هَوَى الصَّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَتِهِ رَغِبْتُ عَنْ شَعْرِي فِي الرَّأْسِ مَكْذُوبِ

وقد قطع على نفسه عهداً لشعره أن لا يروعه بقراض بقلبه ، ولا
يحناه بخفيه ، حيث يقول (٢) :

أَيُّهَا الشَّيْبُ لَا يُرِيْبُكَ مِنْ كَفِّسِي مَقْصٌ وَلَا يُوَارِيكَ خَطَرٌ

وله أبيات يفضل بها الشيب على الشباب وهي في (السقط ج ٢
ص ٢٢٦) (٣) :

خَبَّرَنِي مَاذَا كَرِهْتَ مِنَ الشَّيْبِ فَلَا عَلَمَ لِي بِذَنْبِ الْمَشِيبِ
أَضِيَاءَ النَّهَارِ أَمْ وَضَحَ اللَّوْءُ لَوْ أَمْ كَوْنُهُ كَشَفَرِ الْحَبِيبِ
وَإِذْ كُرِّي لِي فَضْلَ الشَّبَابِ وَمَا يَجُـمَعُ مِنْ مَنَظَرٍ يَرُوقُ وَطِيبِ
عُدْرُهُ بِالْخَيْلِ أَمْ حُبُّهُ لِلْفَيِّ أَمْ أَنَّهُ كَدَّهَرِ الْأَرِيبِ

ومن مراجعاته الرائعة قوله في (السقط ج ١ ص ١٢٧) (٤) :

هِيَ قَالَتْ لِمَارَاتِ شَيْبِ رَأْسِي وَأَرَادَتْ تَنْكُرًا وَازْوَرَارًا

(١) العرف الطيب ص ٤٨٢ .

(٢) الخطر : نبات يحمل ورقة في الحضاب الأسود ينحضب به الشيوخ . (ج)

انظر الزوبيات ص ١٣٤ .

(٣) وفي الفروع ق ٥ ص ٢٠٧٣ .

(٤) المصدر السابق ق ٢ ص ٦٥٢ .

وقد ذكرت الآيات في [الكلام على] أسلوبه . ويدل قوله من قصيدة درعية في (القط ج ٢ ص ١٧٢) (١)

وَقَدْ طَالَ فَوْقَ الْأَرْضِ كَوْنِي وَشَبَّهَتْ

نَغَامًا بِجَوْنِي عَاذِلَاتِي وَعُذَالِي

. . .

وَلَمْ تُغْدِرِ الْأَيَّامُ بَيْنَ مَفَارِقِي وَأَرْجَائِهَا كِنًا لِأَذْهَمَ جَوَالِ

على أن الكبير ذهب بشعر رأسه حتى لم يدع فيه ، كتنا لبوغوث آدم . وقد أجل ما أثره الكبير في شعره وجهه بقوله (٢) :

بَقِيتُ حَتَّى كَسَا الْخَدَّيْنِ جَوْنُهُمَا ثُمَّ اسْتَحَالَ وَمَسَّ الْجِسْمَ تَخْدِيدُ

ضعف وإفعاده

يدل قوله المتقدم في ابن أخيه :

« تَعَهَّدَ مُقَعَّدٍ أَعْمَى أَصَمٌّ » (٣)

وقوله في رسالته الى داعي الدعاة : « وُمْنِيت في آخر همري بالإفصاد ، وعداني عن النهضة عاد » . وقوله في رسالة أخرى إليه : « أنه عجز عن القيام في الصلاة وإذا اضطلع عجز عن القعود .. » . على أنه مني بالإفصاد فلم يستطع القيام ولا القعود بنفسه .

(١) الشروح في ١ ص ١٨٧٨ و ١٨٨٠ ، والصحاح : نبت أبيض . والجون : الأسود . وتندر : أي ترك ، وقال الخوارزمي : « عن بآدم جوال : القمل » .

(٢) الزمويات ٥ ص ٩٥ .

(٣) انظر ما سبق ص ١٣٥ الحاشية ٢ - ٢ .

وقد صور شخصه بصورة تم على ما كانت يعتوره من البلبا ، في مثل قوله (١) :

شَخْصِيْ هَذَا غَرَضٌ لِلرَّدىِّ وَلَمْ يَزَلْ مَعْدِنَ عِصْيَانِ
مِنْ كُلِّ فَنٍ فِيهِ أَعْجُوبَةٌ كَأَنَّهُ جَامِعُ سُفْيَانِ

هذا ما أمكنت معرفته من حياته الظاهرة ، وما أثره فيها الزهد والمهرم . وأما القوى الباطنة فلم يعتوه خلل ولا آفة في شيء منها ، إلا قبيل موته ، فإنه أملى على بعض طلابه شيئا ففعل فيه ، فأخبر بذلك المختار ابن بطلان ، فأخبرهم بقرب موته كما سيأتي .

من طالع ينمونه ويخبرونه

رجع أبو العلاء من بغداد ، فرجذ أمه قد ماتت ، وقد فم علينا تفصيل حياته البتية ، لأن ما وصل إلينا من تاريخ حياته لم يكفل بيان ذلك . وكل ما علمناه من التنف البعثة في أقوال المؤرخين والعلماء ما يأتي : قال المسي (٢) : « ذكر في رسالة له إلى خاله أبي القاسم أنه كانت له خادمة عجوز تسمى مكينة ، فاستدعاهما إلى حلب لضبط منزله ، فاعتل أخوها ، فأرادت الخروج إليه . ولحقت بها العلاء معه ، فأظهرت أن خروجها إليه وأنه محتاج إليها ، وكانت [هذه العجوز] تسخن له الماء وتصلح له القدر ، وتوقد النار ، وعزم على خاله ألا يوقفها على كتابه ، إلا يدركها ما يدرك الآدميين إذا سمعوا في أنفسهم مثل ذلك » . وجاء في بعض الروايات في قصة وزير محمود والضيوف الخمين ، أنه قال

(١) الروايات : ص ٢٨١ .

(٢) النظر (أبو العلاء وما إليه) ص ١٨٩ .

لغلامه قنبر : « قدم الماء . وانظر المريح أين هو . » (١) وذكر في جوابه الى داعي الدعاء أن خادمه كان يأخذ من ماله بعض ما يجب . وذكر ابن العديم في ترجمة أبي محمد عبد الله بن أبي المجد أخيه أبي العلاء أنه تولى خدمة عمه بنفسه وكان برأ به (٢) . وذكروا أن رجلاً كان معه في رحلاته ، ولكن النار - يخ لم يبين لنا أمم واحد ممن صحبه الى بغداد أو حلب أو غيرها ، وأمله كان يكابد عنه من خادم كان لا يطيعه ، كما يشعر به قوله (٣) :

وَمِنْ عَنَاءِ اللَّيَالِي خَادِمٌ ضَعِيفٌ إِنْ يُؤْمَرِ الْأَمْرَ يَفْعَلْ غَيْرَ مَا أَمِرًا

ومن مجموع هذه الأقوال لا نستطيع معرفة الحقيقة ، لأن ابن أخيه كان قاضياً ، ومن البعيد أن يقوم بنفسه بكل ما يتطلبه عمه من نهضة طعام وغسل ثياب وآنية وما شاكل ذلك ، والذي أظنه أن ابن أخيه كان يخدمه في تقديم طعامه ولباسه وما يحتاج اليه في مجالسه ، وهذا يتولاه بنفسه . وأما ماعداً فإنه يقوم به خدام ابن أخيه أو خدمه ، وهو يتولى الإشراف على ذلك ويتعمده .

مرض الأخير ووفاته

حالف أبو العلاء البؤس من المهد الى اللحد ، وكانت الأوصاب والعلل تفتابه حيناً بعد آخر . قال أبو البسر شاعر التنوخي : « كان أبو العلاء كثير الأمراض . . » وقد أشار في مواطن من شعره الى ما بلغ به

(١) ورد هذا الخبر في تعريف القدماء في الصفحات (١٥٣ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٣٢٦) .

ولم يذكر اسم الغلام قنبر .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء س ٤٩٦ عن الانصاف والحريري - لابن العديم .

(٣) الزويات ٥ ص ١٤١ .

مر الزمان وتعب الحياة ، وما كان يغتوره من الملل ، من ذلك قوله في الزوم ^(١) :

وَأَخْلَقَنِي مَرُّ الزَّمَانِ وَكَدُّهُ فَصَارَ أَدِيمِي كَالسَّقَاءِ الْمُرَّمِ

وقوله في (السلط ج ٢ ص ١٧٣) ^(٢) :

أَبْلُ مِنْ الْأَمْرَاضِ وَالْعِلْمِ وَاقِعٌ بِعِلَّةِ يَوْمٍ جَاءَتْ بَتْ كُلِّ ابْلَالٍ...

وقد قدمنا شيئاً مما كان ينتابه من الضعف والخلل ، ولم يتبين لنا ما هو مرضه الذي توفي به ، غير أنهم ذكروا أن الأطباء وصفوا له في مرضه فزُوجاً ، فله يده وقال : « استصفوك ... » ويروى : « استصفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟ » . ولم ينص أحد على أن هذا الوصف في مرضه هذا . ذكر لفظي أنه : « لما حضرته الوفاة ، أتاه ابن أخيه عبدالله بلدح من سجنين فامتنع من شربه فعلف ابن أخيه إيماناً مؤكدة أنه لا بد أن يشربه ، فقال مجبأله عن يمينه :

أَعْبَدَ اللَّهُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي وَطُولَ ذِمَّاتِهَا مَوْتُ مُرِيحٍ

نُعَلِّلُنِي لِتَسْقِيَنِي ^(٣) فَذَرْنِي لَعَلِّي أَسْتَرِيحُ وَتَسْتَرِيحُ

وقد مرض ثلاثة أيام ، ومات في اليوم الرابع ، وكان عنده بنو معه . فقال لهم في اليوم الثالث : اكتبوا عني ، فتناولوا الأقلام والدوي ،

(١) الزوميات ص ٢٤٥ .

(٢) وفي السروح ق ٤٠ ص ٨٧٩ .

(٣) كذا في الأصل ولها محرفة عن « لتسقيني » تأمل (ج) الظر تعريف القمصاء

ص ٦٤ ، عن إنباء الرواة - لفظي . والنماء : بجة النفس .

فأملى عليهم غير الصراب ، فقال ابن أخيه القاضي عبد الله : أحسن الله عزاءكم في الشيخ ، فإنه ميت ، فمات في اليوم الثاني .

وكان المختار بن بطلان إذ ذاك في المرة ، فحدثه بعض الطلبة أن أبا العلاء قد أملى عليهم شيئاً ففعل فيه ، فتنبأ ابن بطلان بأن ذبابة قاربت الذبول ، لأن من كان مثله في قوة العقل والذكاء لا يدركه الخطأ فيما يجلي إلا إذا اضطربت قواه وفسد مزاجه . ولم يبين لنا أحد ما الذي أملاه وغلط فيه وإناروى ذلك المتأخر عن التقدم ، على ما فيه من غموض وإبهام .

سبب موته

وقد اتفقت كلمة القوم على أنه مرض فمات ، إلا ابن المباركة (١) ، فإنه زعم أنه سم نفسه فمات لما أمر داعي الدعاة بإحضاره إلى حلب ، وقد تبين بطلان ذلك .

يوم وفاته

اختلفت كلمة القوم في يوم وفاته ، وقيل : ليلة الجمعة ، وقيل : يوم الجمعة ثاني ربيع الأول سنة ٥٤٤٩ هـ ، وقيل : في ثالثه ، وقيل : في الثاني عشر منه ، وقيل : في الثالث عشر منه .

مجموع عمره

قدمنا أنه ولد في ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ ، وذكرنا هنا أن وفاته في ربيع الأول سنة ٥٤٤٩ هـ مع الاختلاف في يومي الولادة والوفاة ، فيكون مجموع عمره ٨٦ سنة تقريباً .

(١) انظر تعريف الصمدية بابي الثلاث ص ١٥٦ عن سرآة الزمان . وص ٣٢٧ عن طه الجان .

وصايا

ذكر ابن خلكان ، والذهبي ، والبديعي وغيرهم (١) : أن أبا العلاء لما قارب الموت أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هَذَا جَنَاءُ أَبِي عَلِيٍّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ

ورواه بعضهم :

هَذَا جَنَاءُ أَبِي عَلِيٍّ

بالتاء لا هاء ، والجَنَاءُ : ما يحنى من الشجر كالجَنَى ، أو واحدة الجنى . وقال (في نسة السحر) : « إنه كان يقوله ويكرره في مرضه » . ولم أر هذا البيت على قبره ، ولا أعرف أحداً ذكر أنه رآه عليه ، وهو غير موجود في نبي من كتب التي اطلعنا عليها فلعل من أوصاهم بكتبه لم ينجزوا وصته .

وفي (أوج التحري) وغيره أن هذا البيت متعلق باعتقاد الحكماء ، فإنهم يقولون : « إيجاد الولد وإخراجه الى هذا العالم جنابة عليه لأنه يتعرض للحوادث والآفات » .

وقال في (الفصول والغايات ص ٧٩) : « أَوْصِيَكُمْ إِنْ تَقَعْتَ الرَّصَاةَ ، إِذَا أَصْبَحْتَ عَلَى مَوَدِّ جُرْهُمٍ وَعَادٍ ، أَلَّا يَلِجَ عَلَيَّ آسِرٌ ، وَلَا يَكْثُرَ حَوْلِي الْعُرَادُ ، وَلَا يَكُنَّ عِنْدِي بَاكِبَةٌ ، وَلَا يُحْسَ فَاذِي فِي النَّدَابِ » .

(١) انظر الصفحات ١٥٦ ، ١٨٤ ، ٢٠٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ .

٣٤٨ من تعريف النماء بأن العلاء .

وله وصايا أخر يحض بها على أخذ سيوره ، ومتابعتة على آرائه ،
وسبئد كثر بعض منها في موطنه .

قبر أبي العلاء

في الممره مسجد ، يقال له مسجد أبي العلاء ، ومقام أبي العلاء ، وضريح
أبي العلاء ، وهو في الحلة القبلية . وله باب صغير من الغرب ، يدخل منه
الى ساحة ، ويقابل الباب المذكور غرفة صغيرة لها قبة ، وفي وسط الغرفة
قبر أبي العلاء ، وطوله ١٢٥ سانتيم ، وعرضه ٧٥ ، وفوقه حجران قائمان
مكتوب عليهما بالخط الكوفي ، وطول الحجر الذي عند رأسه متر واحد .
وفي جنوبي هذه الغرفة غرفة ثانية تزيد في طولها عن الأولى نحو متر .
وكلتا الغرفتين متجهتان إلى الغرب . وفي جنوبي الساحة مسجد فيه محراب
يتجه بابه إلى الشمال . وفي شرقيه وشرقي الغرفتين ساحة فيها بئر ماء ،
وبعض شجرات من التبن والرمان . وكانت فيها قبور كثيرة ، فأخذ
حجارنها جيران المسجد ، وجعلوها في عمائر دورهم ، وبقي فيها قبر طوله
نحو مترين ، وارتفاعه شاهده نحو متر .

هذه خلاصة صفة المسجد التي كان عليها يوم هاجرت من الممره
سنة ١٣١٩ هـ ، ورأيت مراراً بعد ذلك على هذه الصفة . وأصل هذا
المسجد ، ساحة من دور أهله بني سليمان . والغرفة التي فيها القبر ليس لها إلا
باب يتجه إلى الغرب . وبنائه حادث ، وقد زاره القفطي بعد السبائة ،
فراى عليه خبائزى يابسة ، وهو على غاية من الإهمال . ثم زاره علاء
الدين بن المظفر الوداعي سنة ٦٧٩ هـ فرآه قد دثر ولصق بالأرض ، وهذا
يؤيد أن البناء الذي فوق القبر حادث ، وقد رأيت مراراً كما رآه القفطي
والذهبي . وفي سنة ١٣٤٤ هـ الموافق سنة ١٩٢٥ ميلادية ، عزمت الحكومة السورية

على بناء ضريح لأبي العلاء ، ثم وقفت عن العمل بسبب الثورة السورية ،
ثم أصدرت طوابع بريدية في سنة ١٣٥٢ هـ الموافق سنة ١٩٣٤ م نقش عليها اسم
أبي العلاء ، ثم هدمت المسجد . وفي سنة ١٣٥٨ هـ الموافق سنة ١٩٣٩ م وضع الحجر
الأساسي من البناء المذكور ، ثم تم بناؤه على شكله الحاضر بعد حين .
أما الحجارة التي على قبره ، وما عليها من كتابة ، فقد بسطنا القول فيها
وفي هذا القبر والمسجد الجديد في (تاريخ المعرة) . على أن الحكومة هدمت
بناؤه الأخير وبنته على نخط أجل بما قبله ، وإن كان لا يرتضيه أبو العلاء
والناس أيضاً .

ما فعل على قبره بعد موته

ردي يافوت (ج ١ ص ١٧١) ^(١) أن أبا العلاء لما مات أنشد على قبره
أربعة وثلاثون شاعراً مرثياً . وفي تاريخ ابن الوردي ^(٢) : « قرئ على قبره
سبعون مرثية » . وقال غيره ^(٣) : « ختم على قبره في أسبوع واحد مائتا
خنة » . وفي (أوج التحري) ^(٤) : « اجتمع على قبره ثمانون شاعراً ، وخشوا
في أسبوع واحد مائتي خنة » ، وقرئ على قبره سبعون مرثية » . والغالب
على الظن أن أكثر من رثاه من أهل المعرة ، ومن للتوخين الذين كانوا
يقرؤون عليه . فقد ذكر ناصر خسرو ^(٥) أنه كان في جميع أوقاته يحيط
به مائتان من الطلاب .

(١) لإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٨ عن تبة المختصر في أخبار البعير - لابن الوردي .

(٣) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ، الصفحات ٢٠٠ ، ٣١٤ ، ٣٤٠ عن تاريخ

الاسلام - للذهبي ، ولسان الميزان - لابن حجر ، ومساعد التميمي - لباسي .

(٤) أوج التحري - للبدوي - ص ٣٧ تحقيق الدكتور ابراهيم كيلاني .

(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦٣ ، عن سفرنامه - لناصر خسرو .

الذين رثوه

ذكرنا أن الذين رثوه على قبره أربعة وثمانون أو سبعون ، ولم يتبين لنا من رثاه بعد ذلك على غير قبره ، كما أننا لم نعلم من رثاه إلا نفرًا يسيرًا منهم : علي بن المهام على قول ياقوت^(١) ، وعلي بن همام على قول غيره^(٢) وقد نقلوا عنه هذه الأبيات من قصيدة طرية :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرِقِ الدَّمَاءَ زَهَادَةً فَلَقَدْ أَرَقْتَ الْيَوْمَ مِنْ عَيْنِي دَمًا
سَيَّرْتَ ذِكْرَكَ فِي الْبِلَادِ كَأَنَّهُ مِنْكَ مَسَامِعُهَا تَضْمَخُ أَوْفَمَا^(٣)
وَتَرَى الْحَجِيجَ إِذَا أَرَادُوا لَيْلَةً ذِكْرَكَ أَوْجِبَ فِدْيَةٍ مَنْ أَحْرَمًا

يريد أن ذكرك طيب ، والطيب لا يحل للحرم فإذا ذكرك وجبت عليه فدية . وقبل إنه أشار في البيت الأول إلى ما كان يعتقده ويتدين به من عدم الذبح . وقال البديعي^(٤) : « قول تليذه : لم ترق الدماء زهادة ،

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، انظر تعريف القدماء ص ٧٧ .
(٢) رأيت في التوحيين همام بن عاصم جد بني المهذب ، وهذا توفي سنة ٢٢٤ هـ ، وهمام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب ، وهذا هو صاحب التاريخ ، وقد أدرك أبا العلاء ، وأظن أن عليا الذي رثى أبا العلاء هو ابن هذا وهو المهذب ينتسبون إلى عدي بن الساطع التوخي ، وهو سليمان جد أبي العلاء ينتسبون إلى أسحم بن الساطع التوخي (ج) .

(٣) في السامد وأوج الحرري : « فاسمه يضخ » وروي « فاسمه بصر » وروي « مك يضخ منه سمًا أو فاسم » . وفي ابن الوردي « فاسمة يضخ . . » . وهذه الأبيات رواها ياقوت في (معجم الأديب) وصاحب (معاهد التنصيص) و (نكت المبيان) ، (الوفيات) و (اليافعي) و (أوج الحرري) وغيرهم ، وكلهم نقلوا علي بن همام . إلا ياقوت فإنه قال : ابن المهام (ج) .

(٤) البديعي - أوج الحرري عن حبيبة أبي العلاء الحرري ص ٣٧ تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني .

لم يبط من المعنى ما قالوه ولو أرادوه لقال فلسفة . . . وقوله ، زهادة ،
 رد على من يقول : إن عدم إراقة الدماء مجازاة للبرائة .
 ورواه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد . . . بن أبي
 حصينة المعري . وبنو حصين ينتسبون إلى أسحم بن الساطع التتويحي
 جد أبي العلاء . وكان أبو الفتح من الشعراء اليهوديين ولد قبل سنة
 ٣٩٠ هـ وتوفي سنة ٤٥٧ هـ وقد قيل : إن أبا العلاء جمع شعر الأمير
 هذا ، وشرح مواضع منه في ثلاث مجلدات . وهذا ما وقفنا عليه من
 روايته لأبي العلاء (١) :

والأَرْضُ خَالِيَةٌ الْجَوَانِبِ بَلَقَعُ	الْعِلْمُ بَعْدَ أَبِي الْعَلَاءِ مُضَيَّعُ
تَسْرِي كَمَا تَسْرِي النُّجُومُ الطَّلُعُ	أَوْدَى وَقَدْ مَلَأَ الْبِلَادَ غَرَائِبُ
أَنَّ الثَّرَى فِيهِ الْكَوَاكِبُ تُودَعُ	مَا كُنْتُ أَعْلَمُ وَهُوَ يُودَعُ فِي الثَّرَى
أَنَّ الْجِبَالَ الرَّاسِيَاتِ تُزْعَزَعُ	جَبَلٌ ظَنَنْتُ وَقَدْ تَزْعَزَعُ رُكْنُهُ
وَيَضِيقُ بطنُ الْأَرْضِ عَنْهُ الْأَوْسَعُ	وَعَجِبْتُ أَنْ تَسَعَ الْمَعْرَةَ قَبْرُهُ
مَا اسْتَكْثَرَتْ فِيهِ فَكَيْفَ الْأَدْمُعُ	لَوْ قَاصَتْ الْمُهْجَاتُ يَوْمَ وَفَاتِهِ
أُمِّمٌ وَأَنْتَ بِمِثْلِهِ لَا تَسْمَعُ	تَتَصَرَّمُ الدُّنْيَا وَتَأْتِي بَعْدَهُ
مِنْ قَبْلِ تَرْكِكَ كُلِّ شَيْءٍ تَجْمَعُ	لَا تَجْمَعُ الْمَالَ الْعَتِيدَ وَجُذِبَ بِهِ
تَأْمَنُ خَدِيعَةً مَنْ يَغُرُّ (٢) وَيَخْدَعُ	وَلِإِنْ اسْتَطَفَتْ قَسِرَ بِسِيرَةِ أَحْمَدِ

(١) انظر أوج الصري للبيدي ص ٣٨ - تحقيق الدكتور ابراهيم كيلاني .

(٢) في مصبم الأدباء ، بضر ،

رَفَضَ الْحَيَاةَ وَمَاتَ قَبْلَ مَمَاتِهِ مُتَطَوِّعًا بِأَبْرَ مَا يُتَطَوِّعُ
عَيْنُ نُسْهِدُ لِلْعَقَافِ وَلِلتَّقَى أَبَدًا وَقَلْبُ لِلْمَمْنِ يَنْشَعُ
شَيْمٌ تُجَمِّلُهُ قَهْنَ لِمَجْدِهِ تَاجٌ وَلَكِنْ بِالشَّاهِ يُرْصَعُ
لَجَادَتْ تَرَاكَ أبا العلاء غَمَامَةً كَنَدَى يَدَيْكَ وَمُزَنَةٌ (١) لَا تُقْلَعُ
مَا ضَيَّعَ الْبَاكِي عَلَيْكَ دُمُوعَهُ إِنَّ الدُّمُوعَ عَلَى سِوَاكَ تُضَيِّعُ (٢)
قَصَدْتَكَ طُلَّابُ الْعُلُومِ وَلَا أَرَى لِلْعِلْمِ بَابًا بَعْدَ بَابِكَ يُفْرَعُ
مَاتَ النَّهْيُ وَتَعَطَّلَتْ أَسْبَابُهُ وَقَضَى التَّأْدِبُ وَالْمَكَارِمُ أَجْمَعُ (٣)

وهذه الأبيات روائع ما يافت في (معجم الأدباء) وابن الوردي في تاريخه (٤) .

ورثه أبو الرضا عبد الواحد بن الفرج بن نوت المعري المنزفي سنة ٤٨٠ هـ ، هكذا ذكره صاحب (فصول الحكماء) وذكره العماد في (الحريدة) في رجال بني أبي حصين المعريين ، ونقله عن العماد صاحب (بدائع البداهة ص ١٧١) وذكر الصفدي في (نكت الهيات) اسمه

-
- (١) في أوج التحري : « سرية » (ج) .
(٢) في معجم الأدباء : « إن البكاء على سواك مضيع » .
(٣) « « « : « وقضى اللا واللم بك أجمع » .
(٤) تعريف اللغاة بأبي العلاء ص ٢٠٩ ، عن نسخة المختصر في أخبار البشر - لابن الوردي .

عبد الوهاب بن نوت المري . . وذكر في الوافي اسمه عبد الواحد ، ولم أقف على شيء من مرتبته الا قوله (١) :

سُفَرُ الرِّمَاحِ (٢) وَبَيْضُ الْهِنْدِ تَشْتَوِرُ فِي أَخْذِ ثَأْرِكَ وَالْأَقْدَارُ تَعْتَذِرُ
وَالذَّهْرُ قَاقِدٌ (٣) أَهْلُ الْعِلْمِ قَاطِبَةٌ كَأَنَّهُمْ بِكَ فِي ذَا الْقَبْرِ قَدْ قُبِرُوا
فَهَلْ تُرَى بِكَ دَارَ الْعِلْمِ عَالِمَةٌ أَنْ قَدْ تَزَعَزَعَ مِنْهَا الرُّكْنُ وَالْحَجَرُ
وَالْعِلْمُ بِغَدِكَ غِمْدٌ قَاتَ مُنْصَلُهُ وَالْفَهْمُ بِغَدِكَ قَوْسٌ مَالَهُ وَتَرُ

كيف روي في النوم بعد موته

مات أبو العلاء ، وانقطع عمله في هذه الدنيا ، ركبد أعدائه وحساده حي لم يميت ، وافتراؤهم عليه لم ينقطع . وكان أدام في حياته مقتصراً على ما كان في اليقظة ، فتعدى ذلك إلى النوم . ومن طبيعة الخفاء أن أحدم إذا عجز عن الدليل في اليقظة لجأ إلى المنام والأحلام ، فافترى ما شاء من زور ، وخلق ما شاء من إفك ، ورأى حوله كثيراً ممن يصدق ما يقول ، وإن كذبه العقول . وقد روي أبو العلاء في النوم على حالتين : إحداهما سبئية ، وهي السابقة على أخيها في الزمن . والثانية حسنة ، وهي المتأخرة .

(١) انظر تعريف القدماء الصفحات ٢٨٤ ، ٢٩٦ .

(٢) وروى : « الوالمى » (ج) .

(٣) في بعض الروايات : « نالده » (ج) .

الرؤيا السيئة

نقل القفطي ، والذهبي ، وسبط ابن الجوزي ، والعيني ، وصاحب (معاهد التنقيص) وغيرهم ^(١) عن غرس الذمعة قال في كلامه على أبي العلاء : « اذكر عند ورود الخبر بموته ، وقد تذاكرنا إلحاده ، ومعنا غلام يعرف بأبي غالب بن نيهان ، من أهل الخير والعفة ، أو الفقه ، فلما كان من القد ، حكى لنا ، قال : رأيت في منامي البارحة شيخاً ضرباً ، وعلى عاتقه أفعيان متدليان إلى فخذه ، وكل منهما يرفع فيه إلى وجهه ، فيقطع منه لماً يزدوده ، وهو يستغيث ، فقلت وقد هالني ما رأيت منه : مَنْ هذا ؟ فقبل لي هذا الممرى الملحد ، فعجبنا من ذلك ، واستطرفناه ، حيث وقع عقب ما تفاوضناه من أمره » .

الرؤيا الحسنة

وقال القفطي في (إنباء الرواة) ^(٢) : « كنت في سنّ الصبا ، وذلك في حدود سنة خمس وثمانين وخمسة ، أقدم في اعتقاد أبي العلاء ، لما أراه من ظواهر شعره ، وما ينشد له في محافل الطلب ، فرأيت ليلتي في النوم ، كأنني قد حصلت في مسجد كبير ، في شرقه صفة كبيرة ، وفي الصفة حلّ الحصر مفروش من غير نسيج ، وعليه رجل مكفوف سجين ،

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٦٤ ، ١٩٦ ، ١٥٢ ، ٣٢٨ ، ٣٤٤ .

(٢) نوم صاحب (ذكرى أبي العلاء) نظن فائق هذا هو أبو عمرو عثمان الكرجي لتقديم ذكره في كلام القفطي ، والصواب ما ذكرناه ، لأن أبا عمرو توفي قبل ذلك التاريخ . والذي زار المرة سنة ٦٠٥ هـ هو القفطي كما نقله الذهبي تأمل (ج) . انظر تعريف القدماء ص ٥٢ ، عن إنباء الرواة - لقفطي .

متوسط البياض ، ورأسه مائل إلى جهة كتفه الأيسر ، وهو مستلجق
الذبة في جلسته ، وإلى جانبه طفل ، وكانني فهِت أنه فائده ، وكانني
واقف أسفل الصفة ، ومعني ناس قليل ، ونحن ننظر إليه ، وهو يتكلم
بكلام لم أفهم منه شيئاً . ثم قال في أثناء كلامه مخاطباً لي : ما الذي
يحملك على الوقفة في ديني ؟ وما يدريك لعل الله غفر لي ؟ فنجلت من
قوله ، وسألت عنه من إلى جانبي ، فقال لي أحدهم : هذا أبو العلاء المعري .
فابتسمت متعجباً للرؤيا ، واستغفرت الله لي وله ولم أعد إلى الكلام في حقه
إلا بخير . ومرت على ذلك سنون ، فلما كان في سنة خمس وسبعمائة أرسلني
من كنت في صحبة بحاب إلى القوم المقيمين في جبل جِراء^(١) في حصرهم ،
لإصلاح ما بينهم وبين أمير من أمراء الدولة ، يعرف بأحمد بن علي بن
أحمد ، وكان قد خشي عاديهم ، فلما عدت ، اجتازت بالمرعة ، فدخلت
للصلاة في جامعها ، وعندما شاهدته رأيت قريباً بما رأيت في المنام ، فأذكرني
من ذلك ما أنسبته على طول المدة . ونظرت فإذا الصفة إلى جانبه الشرقي ،
وهي قريب بما رأيت ، وإذا فيها رجل عليه هيئة الرهبان ، ويده مقل
يفتله ، فقصده وسألت عما يفعله ، فقال : إن هذا الجامع إذا احتاج إلى
حصر حصل له التواب هذا البردي ، وعلى رهبان الدير الذي أنا منهم ممل
ذلك ، وقد آلت التوبة إلي ، فحضرت لذلك ، فنجبت من أمر الرؤيا .
وقربها بما رأيت من الصحة بعد حين . . .

★ ★ ★

(١) جِراء قرية من العرب يضاف إليها هنا الجبل ، قال الاسطخري : جبل الكمام
داخل في بلاد الروم - ويظهر في بلد الإسلام بين سرعش والمارونية وعين زربة
فيسمى الكمام إلى أن يجاوز اللاذقية . ثم يسمى جبل جِراء وتوخذ إلى حمص ،
ثم يسمى إلى جبل لبنان ، ثم يمتد على الشام حتى ينتهي إلى بحر القلزم (ج) .

المقام الأول في الفقه

٣٠. الجامع لأحكام الفقه ١

شهرة أبي العلاء ومن أخذ عنه

اشتهر أبو العلاء ، منذ حداثة سنه ، بالنباهة والذكاء ، حتى بلغ جماعة من أعيان حلب ما لم يصدقوه من فطنته وعبريته ، فقصده واختبروه ، فرأوا من حدة ذهنه وقوة قريحته فرق ما سمعوا ، فانصرفوا وهم معجبون بما رأوا منه .

ولم يكد يبلغ العشرين من عمره ، حتى ظهر نبوغه ، وايز من علمه وأدبه ما حدثنا به بقوله (١) :

وَلَيْتَنِي وَإِنْ كُنْتُ الْآخِرَ زَمَانُهُ لَا تِ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْوَائِلُ

فلأصبته الآفاق ، وذاعت شهرته في الأصقاع الناصبة والدانية ، كما قال (٢) :

وَقَدْ سَارَ ذِكْرِي فِي الْبِلَادِ فَمَنْ لَهُمْ بِإِخْفَاءِ شَمْسِ ضَوْؤِهَا مُتَكَامِلُ

وكانت المعرفة في عهده مجازاً يصل ما بين حلب وما يليها إلى العراق والفرس والهند والترك ، بما بين دمشق وما يليها إلى أقصى جزيرة العرب ومصر والمغرب والأندلس . فكان الناس ينقلون أخباره ، ويروون أشعاره . كما كان كثير من العلماء والشعراء والأمراء يكتاتونه ويقارضونه الشعر ، ويعجبون عوده ، ويرجعون إليه في المضلات الطبية ، والمشكلات الأدبية .

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢٣ .

ولما ذهب إلى بغداد ، وكانت يومئذ ملتقى الشعوب والأمم ، وينبوع المدينة العربية ، اتصل بكثير من رجالها ، وحضر كثيراً من مجالسها العلمية ، وأهان في بعضها عن علم واسع وأدب جم ، وتثبتت في الرواية والحفظ ، وذكاه بآمر ، فازدادت بذلك شهرته .

ثم لما عاد إلى المعرة ، قصد طلبة العلم من عرب وعجم ، وأقبل الناس عليه بأخذون عنه ، وكان به العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، وأتاح الله له آسنة حسنة ، فانتشر بذلك فضله ، وازداد صيته ذيوماً ، حتى ضرب المثل بذكائه ونباهته ، قال ابن سعيد^(١) في أبي بكر الخزومي وهما أندليان :

يَا ثَانِيَاَ لِلْمَعْرِيِّ فِي حُسْنِ نَظْمٍ وَنَثَرٍ

وسرى أن رجالاً من الفرس ، والأندلس ، والبن ، وغيرها من الأصقاع القاصية ، كانوا يؤمنونه لدراسة ، أو رواية ، أو زيارة ، أو استرشاد ، أو شقاعة ونحو ذلك . وإن جماعة مختلفين كانوا يكتبونه نثراً ونظماً ، طلباً للاستفادة من علمه ، أو الاشتمار بمكاتبتهم وإجابته . ولما نظم قصيدته الحانية^(٢) .

فَدَوَتْ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالْدِّينِ فَالْقَنِي

انتقلت إلى مصر بأسرع من لمح البصر ، واعترض عليه داعي الدعاة من أجلها .

(١) البيت أول آيات ثلاثة رواها المفري في فتح الطب ١١٧/١ وقامها :

وفرط ظرف ونبل وغوس فهم ونار
صل نم واصل حبياً بكل شكر وبر
(٢) القزوينيات ٨ ص ٨٤ ، وعجزه : د لنسج أبناء الأمور الصالح ،

تلاميذه

لم نوفق إلى التعرف على أسماء جميع الذين قرؤوا على أبي العلاء ،
وروا عنه ، وهم كثير بلا شك ، وفيهم عدد عظيم من أهل المرة ،
من أقاربه وغيرهم . وقد ذكر ابن الوردي أنه « كان يلي على بضع عشرة
مبصرة ^(١) » . وقال الرحالة الفارسي في كلامه على أبي العلاء ^(٢) : « ولا يزال
جماعة وافرة من الطلبة يقيمون ببابه ، وقرؤون عليه كتب الشعر والأدب
وهم أكثر من مائتي رجل » .

وسنذكر فيما يلي أسماء الذين عرفناهم من تلاميذه :

أسماء من أخذ عنه في المعرفة .

أما الذين أخذوا أو روا عنه في المرة - وإن لم نعرف ما أخذوه على
وجه التفصيل - فمنهم :

أبو المظفر إبراهيم بن أحمد بن أبي الأزدى .

وفي بعض النسخ « الأزدى » ولعله نسبة إلى أذربيجان .

إبراهيم بن الحسن البليغ المعري ابن أخت المتع .

إبراهيم بن علي بن إبراهيم الخطيب المعري (كاتب) .

وكان كاتباً حسن الخط ، متقدماً في الضبط ، كتب معظم كتب المعري
وتصانيفه بخطه ، وكتب عنه في السماع عليه ، والإجازة منه ، وقرأ
عليه . وقد ذكر في جملة كتّابه .

(١) تحريف القسما بأبي العلاء ص ٢٠٧ عن حجة المختصر - لابن الوردي .

(٢) العصر السابق ص ٤٦٣ عن سفرنامه - ناصر خسرو . مع اختلاف بغير
في رواية الخبر .

القاضي أبو الفتح بن أحمد بن أبي الروس السروجي .

أبو سعد أحمد بن حماد المعري (رار) .

وهو الذي روى عنه (ملحق السيل) وفي نسخة الأسكوريال :
أحمد بن كمال .

أبو العباس أحمد بن خلف المتع المعري .

ذكره ابن العديم^(١) فبين قرأ على أبي العلاء وروى عنه من أهل المعرفة .
وذكره أبو العلاء في (رسالة النفران ص ١٧٤)^(٢) بقوله : « وبدي الشيخ
أبو العباس المتع ، في السن ولد ، وفي المودة أخ ، وفي فضله جد وأب .. » .
أبو مالك أحمد بن الصنديد المواقفي (شارح) .

قال باقوت (ج ١ ص ١٥)^(٣) كان من أهل الأدب والشعر ، روى
شعر المعري عنه . وله فيه شروح ، وله مع الحصري مناقضات ، دخل
الأندلس ، وكان عند بني طاهر ، ومدح الرؤساء والأكابر .

أبو الفضل أحمد بن علي بن عبد الطيف المعري المعروف بابن زريق .

قرأ على أبي العلاء ، وروى عنه سبعة أجزاء من حديث أخيه أبي الهيثم .

أبو اليقظان أحمد بن محمد بن حواري المعري .

أبو الخطاب أحمد بن أبي المغيرة الأندلسي .

(١) تعريف القدماء ص ٥١٨ عن الأنصاف والتحريري - لابن العديم .

(٢) النفران تحقيق بنت الشاطيء ط ١ ص ٤٥٩ .

(٣) ارشاد الأرب الى معرفة الأدب .

أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني : التوفى سنة ٤٤٩ هـ .

قال ياقوت (ج ٢ ص ٣٤٨) (١) أنه دخل المرة ، فلقى أم العلاء .
وروى عنه البخارزي في (دمية القصر ص ٥١) (٢) ثلاثة أبيات من (القزوم)
وغنائية عشريناً من قصيدة :

ياساهرَ البرقِ أبيضُ راقِدَ السمرِ (٣)
.....
وقوله :

حيّ من أجل أهلنّ الديارا (٤)
.....
وهو أربعة أبيات . وقوله في وصف الشعة :

وصفراء لونَ التبر مثلي جليلة (٥)
.....
وهو أربعة أبيات .

الشيخ الزاهد أبو سعد إسماعيل بن علي بن الحسين . الرازي الحان التوفى

سنة ٤٠٥ هـ .

(١) لرشاد الأرب إلى معرفة الأدب .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٩ عن دمية القصر ، ومطلع الأبيات :

محمودنا الله والمحمود خاقه فهد عن ذكر محمد محمود ومحمود
وانظر القزوميات ص ١١٠ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١١٤ وعجزه : « لعل بالجزع اعرافاً على الهر » .
وهي قصيدة طويلة روى منها البخارزي في الدمية ثمانية عشر بيتاً ، انظر تعريف القدماء
ص ٩ - ١٠ .

(٤) وعجزه : « واليك حنذاً لا النوى والأحجارا » .

انظر شروح السقط ق ٢ ص ٦٥٢ .

(٥) عجزه : « على نوب الأيام والليثة الضنك » . انظر شروح السقط ق ١ ص ١٧٢٣ .

كان شيخ المعتزلة في الري ، وكان حافظاً رحّالاً ، روى عن أبي العلاء ، وقرأ عليه بالمرّة ، وقد ذكرنا له حديثاً رواه ابن العديم في الإنصاف (١) .

جعفر بن أحمد بن صالح بن جعفر بن سليمان الموي .

قرأ على أبي العلاء ، وكتب الكثير عنه

أبو عبد الله الحسن بن إبراهيم بن محمد الحاجي .

وذكر الميني (٢) (ص ٢٢١) ، من أخذ عنه .

الأمير أبا النتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة الموي .

شاعر أمد الدولة ، وقد ولّاه الممرّة ونوفي حدود سنة ٥٠٠ هـ .
والصحيح أنه توفي سنة ٥١٧ هـ ولم يتول الممرّة ، وإنما مدح نصر بن صالح ابن مرداس فقال : تمن علي* ! قال : أتني أن أكون أميراً . فجعله أميراً ، واستلم الجبل بتأثيره سنة ٤٥١ هـ من قبل المستنصر العلوي ، وكان وفد إليه رسولا من قبل تاج الدولة ومدحه سنة ٤٣٧ هـ ، ثم مدحه سنة ٤٥٠ هـ ، ولم أر من ذكر أنه أخذ عن أبي العلاء ، وإنما قال ابن العديم (٣) : إن أبا العلاء جمع شعر الأمير في ثلاث مجلدات ، وشرح مواضع منه كما سبّاق .

أبو محمد الحسن بن علي بن عمرو المعروف بفتح العلم .

قال ابن العديم في (ملحق السيل) : « أخبرنا به أبراسحاق إبراهيم بن عثمان

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٤ عن الإنصاف والتحري - لابن العديم .

(٢) انظر (أبو العلاء وما إليه) .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤١ عن الإنصاف والتحري - لابن العديم .

الكامري (كذا) قال اخبرنا نفع العلم ، قال : اخبرنا أبو العلاء .
وقال الذهبي في (ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢٤٦) : « الحسن بن علي ...
كثير المحفوظ ، واطع قصاص » . وقال ابن السمان : « لم يكن مرثوقاً به ،
وزعم أنه لقي أبا العلاء بن سليمان . ومات سنة ٥١٥ هـ » .

أبو الوليد الحسن بن محمد بن علي بن محمد الصوفي البلخي الدربندي الحافظ
الوفى سنة ٤٥٦ هـ .

روى عنه باقوت في (معجم الأدباء) أنه قال : أنشدني أبو العلاء التتويح
في داره عند وداعي إياه (١) :

كَمْ بَلَدَةٍ فَارَقْتُهَا وَمَعَاشِرٍ يَذْرُؤُونَ مِنْ أَسْفِ عَلَيَّ دُمُوعاً
الآيات . وسنأتي . وذكر في (معجم البلدان) أنه كان يكنى قديماً بابي
قتادة ، وكان بمن رحل في طلب الحديث . وذكر ابن عساكر (ج ١
ص ٢٤٧) ، أنه شيخ مشهور معروف من المشايخ الجرائين في طلب الحديث ،
المكثرين منه ، طاف في الآفاق ، ودرخ البلاد والأطراف ، وحصل
الأسانيد والفرائب والحكايات ، ثم رجع إلى حمقند ومات بها ، وفي
(سقط الزند ج ٢ ص ١٣٦) أنه قال الآيات المذكورة على لسان ابنه (٢) .

أبو إبراهيم الغليل بن عبد الجبار القزويني .

ذكره في (لسان الميزان) (٣) في جملة من أخذ عن أبي العلاء ، وروى

(١) تعريف القمصاء بأبي العلاء ص ٨٢ عن ارشاد الأريب - باقوت .

(٢) في شروح الفط ق ٤ ص ١٧٢١ .

(٣) تعريف القمصاء بأبي العلاء ص ٣١٥ عن لسان الميزان - لابن حجر .

السلفي عنه حديثاً رواه عن أبي العلاء بالمرّة ، يرويه عن أصحاب خيشة
ابن سلمان القرشي الطرابلسي . وقال ابن العديم (١) : « الحليل بن عبد الجبار
ابن عبد الله التميمي القرائي . ٤٠٠ . وهذا توفي سنة ٥١٠ هـ .
أبو الحسن رشأ بن نظيف بن ماشاء الله المروى . »

وفي (مختصر ابن عساكر) : المعري انتهت إليه الرئاسة في قراءة ابن عامر .
وكان ثقة وقرأ على جماعة من فراء العراق ومصر بعدة روايات ، وهو
صاحب دار القرآن الرشيدة التي كانت في دمشق ، شمالي السباطية ولد
نحو سنة ٣٧٠ هـ وتوفي سنة ٤٤٤ هـ وذكره ابن العديم (٢) فيمن قرأ على
أبي العلاء .

أبو الربيع سليمان بن أحمد السرقسطي المتوفى سنة ٤٧٩ هـ عن ثمانين سنة .
نقل الذهبي وابن حجر في (اللسان ج ٣ ص ٧٥) عن أبي القاسم الأرجسي
عن هبة الله بن علي المروى قال : أنشدنا أبو الربيع السرقسطي ، أنشدنا
أبو العلاء المعري لنفسه (٣) :

أَنَا صَائِمٌ طُولَ الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا فِطْرِي الْحِمَامُ وَيَوْمَ ذَلِكَ أُعِيدُ
واورد أربعة آيات آخر .

القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حمصين عبد الله بن أبي القاسم الحسن بن
عمرو بن سعيد التنوخي المروى .

كان عالماً جليلاً وشاعراً مجيداً ، ولي قضاء المرة ، وهو ابن خمس

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٨٥ عن الإصناف والتحري - لابن العديم .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص ٣٧٨ - عن سر العالين لفتزالي .

وعشرين سنة ، ورأيت له كتاباً في القوافي في المكتبة الظاهرية في دمشق .
يقول في خاتمة : « سألت الشيخ أبا العلاء ، ما تسمى القصيدة من الرجز
تجتمع فيها الغاية المتكارسمة ، والمتراكبة والتداركة .. » .

أبو القاسم ، عبد الدائم بن مروزق بن خير الليروالي (١)
نحوي قديم ، روى عنه (السقط) آخر ابن السيد البطليمي
أبو الحسن علي بن محمد وتوفي بطليطة سنة ٤٧٢ هـ .
القاضي أبو سعد عبد الغالب بن أبي حصين عبد الله بن أبي القاسم
السابق ذكره .

عبد الله بن أبي القاسم المحسن بن عمرو بن سعيد التنوخي .
أبو محمد عبد الله بن محمد بن حنون بن بازل .
أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي .
القاضي أبو محمد عبد الله بن أبي الجهد محمد أخي أبي العلاء .
ولد بالمرّة سنة ٣٩٧ هـ ، وكان أديباً شاعراً وله ديوان شعر ،
ورسائل ، وولي القضاء في المرّة سنة ٤٤٣ هـ ، وروى عن أبيه أبي
الجهد محمد ، وعن عمه أبي العلاء ، وتولى خدمة عمه بنفسه ، وكان يكتب
له تصانيفه ، ويكتب عنه بإذنه السماع والإجازة لمن يطلب ذلك من
عمه . وكان يخدمه ويملكه في مرضه ، فقال فيه أبو العلاء : (٢)

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٨٦ عن الفهرست - لابن خرايشيلي .
(٢) المصدر السابق الصفحات ٦٥ ، ٤٩٦ ، وانظر (أبو العلاء وما إليه) لبني ص ١٢ في
ثالث شعر أبي العلاء .

وَقَاضٍ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ عَنِّي وَطَوَّلُ نَهَارِهِ بَيْنَ الْخُصُومِ
يَكُونُ أَبْرَّ بِي مِنْ فَرَخٍ نَسْرٍ بِوَالِدِهِ وَالْطَفِّ مِنْ حَوِيمِ
سَأَنْشُرُ شُكْرَهُ فِي يَوْمٍ حَشَرٍ أَجَلَ وَعَلَى الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ

وقال فيه :

أَعْبَدَ اللَّهَ مَا أَسْدَى جَمِيلًا نَظِيرَ جَمِيلٍ فِعْلِكَ غَيْرُ أُمِّي
سَقَتْنِي دَرَّهَا وَدَعْتُ وَبَاتَتْ تُعَوِّذُنِي وَتَقْرَأُ أَوْ تُسَمِّي
هَمَمْتُ بِأَنْ تُجَنِّبَنِي الرِّزَايَا فَرُمْتُ وَقَاتِي مِنْ كُلِّ هَمٍّ
كَأَنَّ اللَّهَ يُلْهِمُكَ اخْتِيَارِي فَتَفْعَلُهُ وَلَمْ يَخْطُرْ بِوَهْمِي
حَمِدْتُكَ فِي الْحَيَاةِ أَتَمَّ حَمْدٍ وَأَيَّامِي ذَمَمْتُ أَتَمَّ ذَمٍّ
أَجْدَكَ مَا تَرَكْتُ وَأَنْتَ قَاضٍ تَعْتَدُ مُقَعْدٍ أَعْمَى أَصَمٍّ
جَزَاكَ الْبَارِي ابْنَ أَخٍ كَرِيمٍ أَبْرَّ بِمُفْجَزٍ فِي بَرٍّ عَمٍّ

وتقدم قوله فيه لما أراد أن يسقيه الكعجين . ونوفي عبد الله سنة

٤٦٥ هـ . وقد ترجمته في (تاريخ المعرة) .

أبو منصور عبد الحسن بن محمد بن علي الصوري البغدادي .

أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأسدي .

وقيل : ابن محمد بن عبد النعم الأسدي المالكي الأبهري . روى
السني جمعة من الأشعار والأخبار عنه عن أبي العلاء وقد روى (السقط)

وكثيراً من غيره عن أبي العلاء ، قال السمعاني (١) : « تلد لأبي العلاء ،
وقرأ عليه الأدب » وروى أبو عبد الله الحسين بن عبد الملك الحلال
بأصبهان قال : انشدنا أبو العلاء الماري لنفسه :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي (٢) . . .

وروى ابن العديم (٣) عن مزيد بن نهران أن أخ أبي المكارم الأجهري
قال : « بقي عمي - يعني أبا المكارم - عند أبي العلاء أربع سنين يقرأ عليه ،
وكان الحافظ يني على أبي المكارم كثيراً وقال أحمد بن محمد الأصماني
الحافظ : هذان الإمامان - يعني أبا زكريا التبريزي وأبا المكارم الأجهري -
من أجلة من رأيت من أهل الأدب والتبحر في علوم العرب ، وإلى
أبي العلاء ابتازهما ، وقد أقاما عنده برهة من الزمن للقراءة والأخذ عنه
والاستفادة . وقد أدركت سوامهما جماعة من أصحابه التافلين عنه بركة
والعراق ، والجليل والشام ، وديار مصر ، وأنشدوني عنه ما أنشدهم
وحدثهم . ومن جملتهم أبو إبراهيم الحليل بن عبد الجبار القراني ، رأيت
بقزوين ، وروى لي عنه حديثاً واحداً مسنداً يرويه عن أصحاب خبشة
ابن سليمان القرشي الطرابلسي » .

أبو القاسم هبید الله بن علي بن عبد الله الرقي الأديب (٤) .

سكن بغداد وكان من العلماء بالنحو والأدب والفتنة والفرائض وكان

(١) الأنساب .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ١٧١ وعجزه : « نوح بالكرولا ترم شاد »

(٣) تهريف القدماء بأهل العلاء ص ٥٢٠ ، عن الإصناف والتجري - لابن العديم
وقد اختصر المؤلف رواية النس .

(٤) البنية ٣٧٠ والأنساب ٢٧٠ (ج) .

جا (٣٠)

صدوقا ، أخذ عن الربيعي والمري وله كتاب في القوافي وتوفي سنة ٤٥٠ هـ .

أبو عمرو السفاقي عثمان بن أبي بكر بن حمود الصدي .

رحل إلى المشرق بعد سنة ٤٢٠ هـ وعاد إلى الأندلس سنة ٤٣٦ هـ وروى عن أبي العلاء خطبة النصيح .

أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم الأندلسي المري (١)

ويعرف بأبن أبي الفيرة ، وفي ابن الأديم (٢) : « أبو الخطاب العلاء بن حزم » .

أبو القاسم علي بن أحمد المقرئ الحلبي .

شيخ الإسلام أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الهكاري الزاهد (٣)

من ولد عتبة ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية التوفي سنة ٤٨٦ هـ . لقي أبا العلاء وسمع منه ، فلما انفصل عنه سأله بعض أصحابه عما رآه منه ، وعن عقيدته ، فقال : هو رجل من السليين . والمكارية قبيلة من الأكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جهتها الشرقية .

أبو الحسن هلي بن عبد الله بن أبي هاتم المعري .

مستبلي أبي العلاء ، ومتولي أوقاف جامع المرة ، وفي نسخة من (العدل والتحرير) علي بن عبد الله . وكان من العدول الأمناء الفضلاء

(١) فتح الطب ٢/١٢ ، والبعث ٢١٤ (ج) .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٨ عن الإصناف لابن الأديم .

(٣) الرقيات ، لسان اليزان ١٤٣/٣ ، الإصناف . (ج) .

لزم أبا العلاء ، وكتب كتبه بأمرها ، وكتب من المصنف الواحد عدة نسخ . وكان حسن الخط والإنفاق والعبط ، وقد قال أبو العلاء في بعض كتبه أو في مقدمة فهرست كتبه : « لزمْتُ مَكِّيَ مِنْذُ سَنَةِ أَرْبَعِمِائَةٍ ، وَاجْتَهَدْتُ أَنْ أَتَوَفَّرَ عَلَى تَسْبِيحِ اللَّهِ وَتَعْبِيدِهِ ، إِلَّا أَنْ أَضْطَرَّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، فَأَمَلَيْتُ أَشْيَاءَ ، وَتَوَلَّى نَسْخَهَا الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي هَاشِمٍ ، أَحْسَنَ اللَّهِ مَعْرَتَهُ ، فَالْزِمَنِي بِذَلِكَ حَقَّقًا جَمَّةً ، وَابْدِئِي بِيَضَاءٍ ، لِأَنَّهُ أَفْنَى فِي زَمَنِهِ ، وَلَمْ يَأْخُذْ مَا صَنَعْتُ مِنْهُ » . وكتب أبو العلاء (رسالة الضبعين) إلى ثمال بن صالح ، وفيها يذكر بني أبي هاشم وسيأتي ذلك .

أبو الحسن علي بن غنائم الرخيمي الكفوطابي المروزي .

القاضي أبو الحسن علي بن محمد أخيه أبي العلاء .

ولد سنة ٤٠٥ هـ وكان فاضلاً ، سمع على عمه أبي العلاء جميع أماليه ، ونسخها بخطه . وقد ولي قضاء المرة وحماة ، وتوفي سنة ٤٥١ هـ .

أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الطيف المروزي .

المعروف بابن زريق ، ووالده أحمد السابق ذكره .

أبو الحسن علي بن همام المروزي .

وهو الذي روى أبا العلاء بقوله المتقدم (١) :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرَقِّ الدِّمَاءَ زَهَادَةً فَلَقَدْ أَرَقْتَ الْيَوْمَ مِنْ عَيْنِي دَمًا

أبو تمام غالب بن ميسرة الأنصاري الأندلسي .

ذكره ابن حجر في (لسان الميزان ج ١ ص ٢٠٦) في جملة من

روى عن المري وذكر ابن الأبار في (التكملة) أنه روى عن المري وروى عنه :

أَبَا الْعَلَاءِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَمَّاكَ قَدْ أَوْلَاكَ إِحْسَانًا^(١)
لَوْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ هَذَا الْوَرَى لَمْ يَرَ إِنْسَانًا

وفي ابن العديم أبو الهمام غالب بن عيسى بن أبي يوسف الأنصاري ، وقد ترجم ابن الأبار في التكملة .

القاضي أبو القاسم المحسن بن عمرو بن سعيد بن عمرو التنوخي .

وفي (الحريدة) المحسن بن عبد الله بن محمد بن عمرو بن سعيد أبو الطاهر محمد بن أحمد بن أبي العطر الخطيب الأنباري المتوفى سنة ٤٧٦ هـ .
قرأ عليه بالمرعة ، وقد ذكره في (لسان الميزان) وذكره البرطي في (بغية الوعاة) وروى عنه حديثاً في ص ٤٥١ . رواه عن المري قراءة عليه بالمرعة ، وذكره ابن العديم^(٢) فيمن روى عنه .

أبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسن الكاتب الوزير .^(٣)

أبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسن التبريزي^(٤)

القاضي أبو سعد محمد بن أحمد .

روى عن المري فوائد كثيرة ، ووجد على حاشية نسخة من

(١) التكملة ٦٩٩/٢ وفيها : هـ إن المسمى أَوْلَاكَ إِحْسَانًا هـ وانظر تعريف القدماء بأبي

الملا الصفحات ٤٠٨ ، ٤٦٥ .

(٢) تعريف القدماء بأبي الملا ص ٥١٦ عن الاخفاف والتحري .

(٣) ابن العديم . (ج)

(٤) ابن العديم . (ج)

(الجهرة) يقول فيها : « قال لي الشيخ أبو العلاء ، وقد ذكره القفطي في (إنباء الرواة) .

أبو الفضل الوزير محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحرث
ابن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان النخعي
الدارمي البغدادي . (١)

خرج من بغداد سنة ٤٣٥ هـ رسولاً عن الخليفة القائم بأمر الله العباسي إلى صاحب إفريقية المزمع بادي ، واجتمع بأبي العلاء في المرة ، وأنشده قصيدة لامية ، مدح بها صاحب حلب ، فقبل عليه ، وقال له : « أنت من ناظم » ، ثم خرج من إفريقية إلى طليطلة ، وتوفي نحو سنة ٤٥٥ هـ وكانت ولادته سنة ٣٨٨ هـ . وهو من بيت علم وأدب . والظاهر أنه روى شيئاً عن أبي العلاء ، لأن أبا بكر بن الخير الأندلسي قال في (فهرست مروياته) : وحدثني بالسقط أيضاً عبد الملك بن محمد ابن هشام عن أبي محمد بن السيد البطليوسي عن أبي الفضل البغدادي عن المعري .

أبو اليمن محمد بن الغضنفر بن أبي مهزول الملقب بالسابق المعري .

وكان شاعراً مجيداً عالماً باللغة حسن الخط ، وله رسالة سماها (تحفة الزمان) أو الندمان أتى فيها بكل معنى غريب ، وكل شعر مختار لأدب وتوفي بعد المائة الخامسة ، ونجد ترجمته في (الفوات) و (بنية الطلب) و (ابن عساكر) و (الشذرات) و (بدائع البداهة) وقد استوفينا ترجمته في (تاريخ المعري) وعدّه ابن العديم فيمن قرأ عن أبي العلاء من أهل بلده .

(١) مع الطب ١٠٣/٢ ، ابن الدمج ، المجلد ٢١٢ . (ج)

أبو النصر محمد بن محمد بن أحمد بن مهيار الرامشي النيسابوري النحوي
المتوفى سنة ٤٨٩ هـ .

قال باقوت (ج ٧ ص ١٠٠) أنه أخذ الأدب عن أبي العلاء ، وفي
ابن العديم : ابن هشام وفي (بغية الوعاة ص ١٠٠) ابن همياد^(١) .
أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني .

وكان عالماً فاضلاً ، قصد المعرفة ولازم أبا العلاء مدة حياته ، يقرأ عليه .
وروى عنه كتباً متعددة من تصانيفه ، وسأله أن يشرح له (حفظ الزند)
فشرحه له ، وسماه (ضوء السقط) وفي ابن العديم : روى عن أبي العلاء ،
وعن أبي صالح محمد بن المذهب المعري وتوفي سنة ٤٩٦ هـ وسيأتي ذكره
في الكلام على (ضوء السقط) وفي أفرال العلماء في المعري ، والظاهر أنه
قدم المعرفة نحو سنة ٤٤٧ هـ كما سيأتي .

الشيخ أبو صالح محمد بن المذهب بن علي بن المذهب المعري .

ابن عم أبي العلاء وكان عالماً فاضلاً محدثاً شاعراً ، حدث بالكثير
عن أبي العلاء .

أبو الفضل بن صالح المعري .

ذكره ابن العديم فيمن أخذ عن أبي العلاء وقرأ عليه .

نصر بن صدقة اقباسي الأندلسي النحوي أبو عبد الله .

كما في (بغية الوعاة ص ٤٠٣) وفي ابن العديم : « أبو القاسم نصر . »
كان أديباً فليح مصر ، وأخذ عن أديبائها وعلمائها ، ثم توجه الى المعرفة ،
فلازم أبا العلاء ، وأخذ عنه ديوانه (حفظ الزند) وكتب منه نسخة

(١) انظر السمعاني ص ٢٤٤ ، والمنظم في وفيات سنة ٤٨٩ هـ . (ج)

جيدة ، ورجع إلى مصر ، فقدمها للحاكم ، فقرأه عليه فأعجبه نظمه ، وأرسل إلى عزيز الدولة الوالي بطلب أن يحمله إلى مصر ، فاعتذر فكف عنه .

القاضي أبو الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير .

قال في (معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٠) : د ولعله لقي أبا العلاء المعري وقرأ عليه شيئاً ، وهو من أجداد كمال الدين بن العديم الحلبي ، وذكره ابن العديم فيمن قرأ على أبي العلاء وروى عنه .

أبو غالب ممام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المذهب المعري المؤرخ .

وقد سبق ذكره ، وذكره ابن العديم فيمن قرأ على المعري .

أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبداللطيف المعروف بابن زريق المعري .

اجتمع بأبي العلاء صغيراً ، وسمع منه بيتين من شعره ، وله تاريخ على ترتيب السنين ، قبل إنه ولد سنة ٤٤٢ هـ وفي (كشف الظنون) سنة ٤٢٢ هـ .

أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي .

المعروف بالخطيب وقبل : هذا وهم بل هو ابن الخطيب ولد سنة ٤٢١ هجرية . وقرأ على جماعة كثيرين ، حتى كانت له معرفة تامة بالأدب والنحو واللغة . ومنهم أبو العلاء وكان سبب توجهه إليه أنه حصلت له نسخة من كتاب (التهذيب في اللغة) تأليف أبي منصور الأزهري ، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة ، فدل على أبي العلاء ، فحل الكتاب في محلاة على كتفه من تبريز إلى المعرة ، إذ لم يكن له ما يستأجر به مراكباً . فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل ، وذكره في (البقية ص ١٣٦) فيمن قرأ على أبي العلاء في بغداد ، وهو خطأ لأنه ولد بعد رجوع أبي العلاء منها بنحو ٢١ سنة ، وقرأ على أبي العلاء شيئاً من كتب اللغة ، وشيئاً

من تصانيفه ، وكان يحثه على الاستئصال بغير (السقط) من كتبه ، وكان يقول :
 [أفضل من رأيت من قرأت عليه أبو العلاء ، ولا قرأ عليه (إصلاح المنطق) طالبا
 بسنده متصلا فقال له : إن أردت الدراية فخذ عني ولا تتعد ، وإن قصدت
 الرواية فعليك بما عند غيري . وله كتب كثيرة منها (ذرح الحماسة) وهي
 طائفة بأقوال أبي العلاء ، وآرائه ، ونحريجه في اللغة ، ومنها (شرح سقط
 الزند) و (ذرح ديوان المنبي) و (القوائد الشر) و (المفضليات) وله
 (تهذيب غريب الحديث) و (إصلاح المنطق) و (مقدمات في النحو)
 و (الملخص في إعراب القرآن) و (الكافي في العروض والقوافي) وغيرها .
 وقد أقام بالمعرة يقرأ عليه أكثر من سنتين في قول ابن العديم . وقد
 تقدم عن الففطحي أنه قال : قال الخطيب التبريزي : قرأت كتاب (غريب
 الحديث) لأبي عبيد سنة ٤١٥ هـ على أبي العلاء ، ولم أر من العلماء من
 ذكر في أية سنة قدم التبريزي على أبي العلاء ، وفي أية سنة فارقه ،
 ولكن قالوا إنه قرأ عليه (غريب الحديث) سنة ٤٤٥ هـ وأنه أقام
 عنده أكثر من سنتين . وأنه قرأ على أبي القاسم التنوخي وهذا توفي سنة
 ٤٤٧ هـ . وبفهم من مجموع هذه الأقوال وأشباهاها أنه فارق المعرة نحو
 سنة ٤٤٦ هـ وأقام فيها نحو ثلاث سنوات قبلها .

أبو الحسن يحيى بن محمد الوازي .

قال الففطحي (١) قصد : أبا العلاء : من الطلبة رجل أعجمي يعرف
 بالكرداني وكتب عنه فيما كتب (ذكرى حبيب) فتقدم أبو العلاء إلى
 بعض نساته بما كتبه له على الكتاب المذكور وهو :
 وقال أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي من أهل معرة النعمان :

(١) تعرف العلماء بأبي العلاء ص ٣٧ عن إنباء الرواة - الففطحي .

قرأ علي هذا الجزء وهو الجزء الثاني من الكتاب المعروف (بذكرى حبيب) الشيخ الفاضل أبو الحسن يحيى بن محمد الرازي ، أدام الله عزه من أول الجزء الى آخره ووقع الاجتماع مني في تصحيح النسخة ، وكان ابتداءه بقراءته لسبع بقين من شعبان سنة ست وأربعين وأربعمائة ، وفرغ من قراءته لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وأجزت له أن يرويه غني على حسب ما قرأه ، وبشهادة الله أني معتذر الى هذا القاريء من تقصيري فيها هو علي مقتوض من حقوقي ، والاعتراف بالمعجزة تمنع من اللائمة المعجزة .

وكتب جابر بن زيد بن عبدالواحد بن عبدالله بن سليمان بإذن أحمد بن عبدالله ابن سليمان [المعري] في المحرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة .
أبو الفتح بن أحمد السروجي أخو القاضي أبي المذهب عبد الله
وسياتي أنه دخل عليه فوجده يبكى .

أبو عبد الله بن جابر القرطبي .
روى عن أبي العلاء شعره ذكره ابن الأثير في التكملة .

الذين كتبوا نثرأ

الذين كتبوا أبا العلاء ودارت بينه وبينهم رسائل كثيرة كثير من منهم :
النكتي أبو الحسن أحمد بن عثمان البصري .

وهذا كتب رسالة ^(١) لأبي العلاء ، فقصر كنيته ، وبدل اسمه ، فأجابه برسالة انتقد فيها ذلك ، كما سيأتي ، ويتبين من فحوى هذه الرسالة أن أبا العلاء كان يعرفه من قبل ، وأنها كتبت بعد أن حبس نفسه في البيت ، وأن له صديقاً يقال له أبو القاسم المبارك بن عبد العزيز حدث أبا العلاء عن ابن خالويه .

أبو القاسم الوزير المصري الحسين بن علي التوفي سنة ٤١٨ هـ .

والظاهر من كلام أبي العلاء في (رسالة المنيع) ^(٢) أن أبا القاسم زار المرة وهو صغير قبل أن يلي الوزارة ، ثم ذهب مع أبيه إلى مصر ، فكتب منها رسالة إلى أبي العلاء ، وأرسل معها قصيدتين ، ميمية وواوية ، ثم أرسل إليه كتاب (مختصر إصلاح المنطق) فأجابه أبو العلاء عن الأولى برسالة المعروفة (برسالة المنيع) وهذا كله قبل أن يصير وزيراً ، لأنه ولد سنة ٣٧٠ هـ وقتل الحاكم أباها سنة ٤٠٠ هـ وذهب أبو القاسم إلى الرملة ، فالحجاز ، فلعراق هارباً من الحاكم ، فأقام في بغداد حيناً ، ثم ذهب إلى الموصل ، ثم وزر في بغداد سنة ٤١٥ هـ لمشرف الدولة البرجي ، ثم توجه إلى ديار بكر ، فوزر لمطائنا .

وقد مدح أبو العلاء في (رسالة المنيع) كتاب الوزير وأثنى على براعته وبلاغته ، وأشار إلى الكتاب والقصيدتين ، وأثنى على والده ، إلى غير ذلك مما يدل على أن كتاب أبي القاسم كان إلى أبي العلاء من مصر ، وأن ذلك كان قبل سنة ٤٠٠ هـ . وأما (رسالة الإغريض) فقد أرسل أبو القاسم إلى أبي العلاء كتاب (مختصر إصلاح المنطق) مع رجل يقال

(١) انظر الرسالة في (رسائل أبي العلاء) ص ١٠٥ - لاهين عطية .

(٢) رسائل أبي العلاء ص ٥ - لاهين عطية .

له موسى ، وكتابها مع آخر يقال له الزهيري ، فمدحه أبو العلاء ، ومدح أباه ، وتكلم في (مختصر إصلاح المنطق) وشواهد ، واعتذر عن عدم مكاتبة أباه . وذكر أنه علم أن رسالته الأولى (النسخ) وصلت إلى أبي العاصم ، إلى غير ذلك ، ما يدل على أن الرسالة والمختصر والكتابين وردت من مصر قبل سنة ٤٠٠ هـ ، ولما مات أبو القاسم رثاه أبو العلاء بأبيات في لزوم ما لا يلزم أولها : (١)

لَيْسَ يَبْقَى الضَّرْبُ الطَّوِيلَ عَلَى الدَّهْرِ — وَلَا ذُو الْعَبَالَةِ الدَّرْحَايَةَ (٢)
أبو الحسن علي بن منصور بن طالب الحلبي الملقب بدوخلة

والعروف بابن القارح .

درس بحار على ابن خالويه ، وسافر إلى بغداد والموصل ، وأقام بمصر ، وأدب أبا القاسم المغربي ، وولدي الحسين بن جوهر القاندي ، وأقام بالمعرة سنة على ما يشعر به قول أبي العلاء في (رسالة الغفران ص ١٩٢) : « كان حتى الشيخ إذ أقام في معرة النعمان سنة ألا يسمع لي بذكر (٣) » . . . كتب إلى أبي العلاء رسالته المشهورة ، فأجابه عنها (برسالة الغفران) ونقل باقوت أنه ولد سنة ٣٥١ هـ ، وفي (رسالة الغفران ص ١٤٩) : « ولا يجوز أن يجبر نجر ، منذ مائة سنة ، أن أمير حلب ، حرسها الله ، في سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، اسمه فلان ابن فلان ، وصفته كذا ، فإن ادعى ذلك مدح ، فإنما هو متغرض كاذب (٤) » هـ .

وترجمته في (البغية ص ٣٥٥) و (باقوت ٢٤/٥) (٥) ويمكن أن تكون هذه السنة هي التي كتب فيها (رسالة الغفران) بل هذا الظاهر من كلامه .

(١) اللزوميات ص ٣٤٦ .

(٢) العبالة : اللفظ ، والدراحاية : القصير .

(٣) انظر الغفران تحقيق منت الشاطي ط ١ ص ٥١٥ ، وفيها : « إذا أقام » .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨٧ .

(٥) لإرشاد الأربعة إلى معرفة الأدب .

أبو الحسن محمد بن سعيد بن سنان .

كان بينه وبين أبي العلاء تَراور ونُحاور ، كتب إليه كتاباً في أمر اختصار (كلية ودمنة) وأجابه أبو العلاء برسالة ذكر بعضها في (رسائله ص ٢٢١) (١) وفيها يقول : « أحبب إدام الله قدرته بحسني على ما يعهد من القوة والصبر ، ولست كذلك .. » .

مرجعه بن كوثر المقريء النحوي المؤدب أبو القاسم .

قال ياقوت : نحوي مقيم بحلب له (المفيد) في النحو وكتاب في الضاد والظاء ، وبينه وبين أبي العلاء مكانة (٢) .

داعي الدعاة أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران .

اشتهر أن أبا العلاء يمتنع عن أكل الحيوان ، ويحض على تركه ، واجتناب ما تولد منه ، فاتخذ ذلك حصاده وخصومه وسيلة للظن في دينه ، وقالوا إنه يدين بدين البراهمة ، فلما قال قصيدته التي مطلعها : (٣)

عَدَوْتُ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالِدِينَ فَالْقَنِي لِيُخْبَرَ أَنْبَاءُ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ

كتب إليه داعي الدعاة أبو نصر المذكور كتاباً ، يذكر فيه أنه مريض بهذا المرض ، وقد أتاه مستشفى ، ثم جرت بينها مكاتبات في هذا الموضوع ، والظاهر أن داعي الدعاة كتب إليه ذلك ، وهو في بلاد الشام ، لأنه يقول في بعض أجوبته : (٤) « فلما رمت بي المرامي إلى

(١) انظر الرسائل شرح شامين عطية .

(٢) البنية ١٩٠ (ج)

(٣) الزوابع ص ٨٤ وفيها : « لتسع » .

(٤) تحريف القمصاء بأبي اللاص ص ١٣٤ من إرشاد الأرب - بابلون .

الشام ، وسمعت أن الشيخ يفضل في الأدب والعلم .. فتصنعه قصد موسى للطور اقتبس منه فارا .. » .

وقد نقل ياقوت (ج ١ ص ١٩٤) عن ابن المبارك « أنه جرت بينها مكاتبات كثيرة ، أمر في آخرها بإحضاره إلى حلب ، ووعدته على الإسلام خيراً من بيت المال ، فلما علم أبو العلاء أنه يحمل للقتل أو الإسلام سم نفسه ومات » . ثم قال ياقوت : « لما وقعت على هذه القصة ، اشتيت أن أقف على صورة ما دار بينها على وجهه ، حتى ظفرت بمجلد لطيف وفيه عدة رسائل من أبي نصر هبة الله بن موسى إلى المري في هذا المعنى ، انقطع الخطاب بينها على الساكنة ، ولم يذكر فيها ما يدل على ما ذكره ابن المبارك من سم المري نفسه ، ونقلها على الوجه يطول ، فلخصت منها الغرض دون تفاسيح المري وتشدق » ثم أورد ثلاث رسائل لداعي الدعاة ، ورسالتين لأبي العلاء يظهر أثر الحذف والمسخ فيها .

وقال ابن حجر في (لسان الميزان ج ١ ص ٢٠٧) : « وقد طالعت ما دار بينها - المري وداعي الدعاة - واستفدت منه فيما يتعلق بترجمة المري ، أنه ذكر عن نفسه ، قال : قضى علي وأبا ابن أربع لا أفرق بين البازل والرابع . قال ومست^(١) في آخر مري بالإفصاد وحكم الله عليّ بالإزهاد ، خضرت من اللعوا^(٢) في جهاد » . وقال في جوابه عن ترك العلم : « قالوا : إن كان ربنا لا يريد إلا الخير ، فأكسر لا يجتو من أمرين : إما أن يكون على أولاً ، وعلى الأول فإن كان يريد فوجب أن ينسب الفعل إليه ، وإن كان بغير إرادته جاز عليه

(١) في ياقوت : « ومنبت » (ج) .

(٢) وفيه : « من العلم » (ج) .

ما لا يجوز على أصغر الأمراء (١) ، إلا أنه لا يرضى أن يفعل في ولاية ما لا يريد . وهذه عقدة قد اجتهد المتكلمون في حلها ، فاعوزم .
ومن تأمل ما قاله ياقوت ، وما فعله من مسح رسائل أبي العلاء ، وما قاله ابن حجر ، يتبين له الفرق بين المؤرخ العالم والمؤرخ الأديب .
ومن تأمل أجوبة أبي العلاء ، يلوح له من خلال كلماته ، أنه كان يستشعر الريبة والخوف من ملائنة داعي الدعاة وتعظيمه أمر المعري ، وأنه كان يكبح جماح قه ، فلا يسترسل في الجواب .

والذي يمكن فهمه من أجوبة أبي العلاء ، أنه كان يصوم الدهر منذ بلغ ثلاثين عاماً ، وأنه ما أكل شيئاً من حيوان منذ خمس وأربعين سنة ، والذي حث على ذلك أن غلته في السنة نيف وعشرون ديناراً ، يعطي خادمه بعضها ، وأنه لا يريد في رزقه زيادة ، وأنه لم تبق فيه بقية ، وعجز عن القيام في الصلاة ، والقفود إذا كان مضطجعاً ، وقد هربت عظامه من اللحم .

وقد كاتب ابن عمران داعي الدعاة ، فاج الأمراء (٢) أن يجري له ما هو بلفة أمثاله من ألد الطعام ، ويعيشه على أحسن صورة فأبى .

. . .

(١) في ياقوت : « ما لا يجوز على أمير مثله في الأرض » . (ج) .
(٢) ذكر ياقوت ج ١ ص ١٨٨ أن أبا العلاء عمل كتاب (اللامع الزيزي) في هجر شر المتني للأمير عزيز الدولة وخرسها ابن تاج الأسراء أبي الدوام ثابت بن غمال بن صالح بن مرداس ثم قال : وبهال له (اللامع الزيزي) . وقال ابن السديم : عمله للأمير عزيز الدولة أبي الدوام ثابت بن غمال ... وبهال له (الثابت الزيزي) .
وقال المبحي ص ٢٣٤ وضع أبو العلاء لخبذه وصماه الأمير عزيز الدولة وخرسها ابن تاج الأسراء أبي الدوام ثابت بن غمال كتابه اللامع الزيزي في هجر شر المتني وسمى (سبز أحمد) أيضاً وعزا ذلك إلى ياقوت ، وأعاد نحوه ذلك في ص ٢٧٤ ، —

الفهره كانبوه نظما :

وأما الذين كانبوه نظما فكثيرون منهم :
الشريف أبو ابراهيم محمد بن أحمد العلوي .

مدح أبا العلاء بلصيدة أولما : (١)

غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ وَصَالُ الْغَوَانِي بَعْدَ سِتِّينَ حِجَّةً وَثَمَانِ

وفها يقول :

كُلُّهُ عِلْمٌ مُفَرَّقٍ فِي الْبَرَائِيَا جَمَعَتْهُ مَعَرَّةُ النِّعْمَانِ

فأجابه أبو العلاء بقصيدته وهي (في السط ج ١ ص ٩٠) (١) :

عَلَّلَاتِي فَإِنَّ بَيْضَ الْأَمَانِي فَنَيْتَ وَالزَّمَانُ لَيْسَ بِفَانِ

— وقال في ص ٢٤٦ : وهذا التاج هو أبو الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن سرداس الذي عمل لابنه عزيز الدولة وغرسها صاحبنا (اللاح الزري) ... قد توم أن تاج الأسماء لقب ثابت بن ثمال ، وعبرة بانوت قد توم ذلك ، وقد ذكر ابن الدعي في الكلام على حرته عند الملوك .. أن داعي الدعاء كتب الى تاج الأسماء ثمال بن صالح ، وكان إذ ذاك نائباً عن البيدين بجلج وبجرة الثمان . وفي كتاب داعي الدعاء : وقد كاتب مولاي تاج الأسماء . وقد ذكره أبو العلاء في جوابه ، فألقى ما ذكره ابن الدعي ، لأن أبا الدوام لم يكن نائباً لبيدين ، وكانت ولاية ثمال من سنة ٣٣٤ هـ الى سنة ٣٤٩ هـ وهذا يدل على أن هذه المكاتبة في آخر حياة المري ، وذكر ابن قاضي شبة في (طبقات النعاة والقنوين) أن الخطاب بين المري وداعي الدعاء اهتم على المساكنة . وذكر ياقوت (ج ٦ ص ٣٥٨) أن أبا العلاء وجه الرسالة ١٩ الى أبي منصور محمد بن أحمد بن طاهر بن حمد المولود سنة ٤١٧ هـ - ٤١٨ هـ والمتوفى سنة ٥١٠ هـ والمأذن لدار الكتب القديمة (ج) .

(١) النظر شروح السط في ١ ص ٤٢٥

وَمَدَحَهُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ بِقَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا : (١)

بِعَاذُكَ أَسْهَرَ الْجَفْنَ الْقَرِيحًا وَدَارُكَ لَا تَنِي إِلَّا نَزْوَحًا

فَأَجَابَهُ بِقَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا (ج ١ ص ٥٦) (٢) :

الْأَحَ وَقَدْ رَأَى بَرَقًا مُلِيحًا سَرَى فَأَتَى الْحُمَى نَضْوًا طَلِيحًا

(١) فروع سقط الزند : ق ١ ص ٢٣٧ .

(٢) ذكر صاحب النور في ج ١ ص ٥٦ و ص ٩٠ أنه قال : « علائي فان

بيض .. » و « ألح وقد رأى .. » يجب بها الشريف أبا إبراهيم موسى
ابن إسحق . فقد جمل الحجاب والمدوح فيها واحداً وهو موسى بن إسحق
وجعلها البني في (ص ١٦٥) أخوين أحدهما أبو إبراهيم محمد بن إسحق
والثاني أخوه موسى .

وفي التبريزي والحوارزي والطلبوسي : « قال يجب الشريف أبا إبراهيم »
وبضمهم زاد « العلوي » في القصيدتين ، فقد جلاوا الحجاب والمدوح فيها واحداً .

وأبو اللؤلؤ يَن في القصيدة الأولى أن كنيته أبو إبراهيم بقوله :

يا أبا إبراهيم تَهَرَّ عَنكَ الْكُـرُ لـا 'وَصِفْتُ بِالْقِرَآتِ
وأن اسمه محمد وأباه أحمد بقوله :

واقْدَاسَ ابْنِ أَحْمَدَ اسْمَ رَسُولِ الْـ لـا نوافي الرضات

وسجايَا مُحَمَّدٍ أَعْبَزَتْ فِي الْوَصْفِ لُطْفَ الْأَنْكَارِ وَالْأَذْهَانِ

ويَن في القصيدة الثانية أنه علوي بقوله :

وَأَرِيَابَ الْجِيَادِ بَنُو عَلِيٍّ

وأله ابن أحمد بقوله :

ومِرْفَةَ ابْنِ أَحْمَدَ آمَتْنِي

فقد جمل الرجلين ابن أحمد ، وما أظن إلا أنها واحد ، على أن أبا اللؤلؤ ،

قال لي هذه القصيدة :

وَأَحْسَى السَّالِمِينَ فَعَارَ مَجْدَ بَنُو إِسْحَاقَ إِنَّ مَجْدَهُ أُنِجَا

وقال :

ظَلَوُ مَعَ النَّاسِخِ كُنْتُ مُوسَى وَكُنْتُ أَبُوكَ إِسْحَاقَ الذَّيْحَا —

وقال البطليموسي في (شرح السقط ج ٢ ص ٢٥٠) : إن أبا العلاء مدح الشريف أبا إبراهيم العلوي بقصيدته التي مطلعها :

إِلَيْكَ تَنَاهَى كُلُّ فَخْرٍ وَسُودِدَ قَائِلُ اللَّيَالِي وَالْأَنَامِ وَجَدِدَ

القاضي أبو الطيب الطبري ، طاهر بن عبد الله بن طاهر المتوفى

سنة ٤٥٠ هـ .

كتب إلى أبي العلاء أبياتا على روي اللام التفرّ فيها بعد أن دخل بغداد ، ثم دارت بينها محاوراة ذكرناها في الكلام على بداعته .

أبو القاسم علي بن جليان المعري .

مدح أبا العلاء بقصيدة فأجابه بقصيدة مطلعها (١) :

يَرُومُكَ وَالْجُوزَاءُ دُونَ مَرَامِهِ عَدُوٌّ يَغِيبُ الْبَدْرَ عِنْدَ تَمَامِهِ

وفي (ضوء القند) أن قول أبي العلاء (٢) :

أَيْدِفَعُ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ قَوْمٌ وَفِيكَ وَفِي بَدْيَتِكَ اِغْتِبَارُ

— واسحق ربما كان جداً للدوح مثل علي وعمد ، وقد قال صاحب (بحر الأنساب ص ٦٧) في لب بني زهرة . وجمهور عقب اسحق المؤمن ينتهي ال ابراهيم العالم الشاعر مدوح أبي العلاء المعري وهو عمد الحراني بن أحمد المجازي ، ولعل الأصل ال أبي ابراهيم العالم ..

ويجوز أن يكون قول أبي العلاء في القصيدة الأولى :

حبا حبت للطي ولو أذ—حبت عنها مآك ال حران

إشارة ال أن المدوح حراني (ج) .

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) للصمد السابق ص ٨١٠ .

إلى آخر الأبيات . أجاب به أبا القاسم بن جليات ، وقد ذكرت ترجمة أبي القاسم في (تاريخ المرة) .

أبو علي النهاوندي محمد بن حمد بن فورجة

كتب إلى أبي العلاء قصيدة أولها (١) :

أَلَا قَامَتْ تُجَاذِبُنِي عِنَانِي وَتَسْأَلُنِي بِعَرَضَتِهَا مَقِيلًا

فأجابه بقصيدة في (السقط ج ٢ ص ٨٠) (١) أولها :

كَفَى بِشُحُوبِ أَوْجُهِنَا دَلِيلًا عَلَى إِزْمَاعِنَا عَنْكَ الرَّحِيلًا

أبو الخطاب الجلي محمد بن علي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ .

مدحه بقصيدة ، فأجابه بقصيدة في (السقط ج ١ ص

١٥٣) (٢) أولها :

أَشْفَقْتُ مِنْ عِبْوِ الْبَقَاءِ وَعَايِهِ وَمَلَلْتُ مِنْ أَرْزِي الزَّمَانِ وَصَايِهِ

ومدحه بعض الشعراء بقصيدة قيل (إنه المفضل بن سعيد بن عمرو المعوي)

فأجابه بقصيدة في (السقط ج ١ ص ١٤٢) منها قوله (٣) :

يَا لِلْمُفْضَلِ تَكْسُونِي مَدَائِحُهُ وَقَدْ خَلَعْتُ لِبَاسَ الْمَنْظَرِ الْأَثَقِ

وفي (ضوء القند) أنه يجيب بها بعض تلاميذه ، وقد زاد بيتا في

أول القصيدة .

(١) فروج سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٦٩ .

(٢) الأري : السل ، والصاب : شجر مر ، مفردا صابة . الفروج ق ٢ ص ٧١٥ .

(٣) انظر الفروج ق ٢ ص ٦٧٣ .

ابن نعيم البرقي .

كتب إلى المري أبياتا يعاتبه ، لأنه لم بعده في مرضه ، فأجابه
بأبيات ، منها قوله في (السقط ج ٢ ص ٩٨) :

أُمَعَارِي فِي الْهَجْرِ إِنَّ جَارِيَتِي طَلَّقَ الْجَدَالَ وَجَذَّتْ عَيْنَ الظَّالِمِ^(١)

وفي (سقط الزند) كثير من الأبيات التي أجاب بها غيره ، ولكن لم
يتبين لنا من هو الجواب بها ، ولعله أسقط أسماء كما أسقط بعض الأبيات
من شعره كقوله في (السقط ج ٢ ص ٣٦) (٢) :

أَوَالِي نَعْتِ الرَّاحِ مِنْ شَعَفٍ بِهَا كَأَنَّكَ خَالَ لِلْمُدَامَةِ أَوْ عَمَّ

فإنها جراب لشاعر عراقي ، عن قصيدة نعت فيها الحر وتغزل ، وذكر
مضى العربة كما في (ضوء القند) .

• • •

الذين زاروه في المعرة

الذين زاروه في المعرة كثيرون ، ولكن من عرفاه منهم
قليل ، منهم :

الشيخ أبو سعيد الخوارزمي ، أحد بن محمد بن محمد بن علي بن نجر

المتوفى سنة ٤٤٨ هـ .

كان حافظاً متقناً للغة ، ولم يكن في عصره بعد أبي الطيب الطبري
أفقه منه ، تفقه على الشيخ أبي حامد الإسفرائيني ، وقد زار أبا العلاء

(١) الفروج ق ٤ ص ١٥١٦ .

(٢) الفرج الشروح ق ٣ ص ١١٥٠ . وفيها : « لك » .

في المرة في رمضان سنة ٣٩٨ هـ ، وكان يحمل كتابا من أبي الطيب الطبري إلى أبي العلاء ، فذهب أهل البادية في جملة مانبهوه ، وكان أبو العلاء بعد العدة للسفر إلى بغداد كما تقدم (١) .

الوزير أبو نصر أحمد بن يوسف السليكي المنازي الكاتب المتوفى

سنة ٤٣٧ هـ .

وزر لأبي نصر أحمد بن مروان ، صاحب ميفارقين ودبار بكر ، واجتمع بأبي العلاء في مرة الثمان ، فشكا إليه حاله ، وأنه منقطع عن الناس وهم يؤذونه ، فقال : ما لهم ذلك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة فقال أبو العلاء : والآخرة أيضاً ؟ ! وجعل يكررها ويتألم لذلك ، وأطرق ولم يكله إلى أن قام (٢) وقال غرس النعمة : « حدثني أبو نصر بن جبير ، حدثنا أبو نصر المنازي ، قال : اجتمعت بأبي العلاء ، فقلت ما هذا الذي يروى عنك وبحكمتي ؟ قال : حسدوني وكذبوا علي ، فقلت : علي ماذا حسدوك ؟ فقد تركت لهم الدنيا والآخرة ، »

وتل الحافظ ابن حيد الناس العمري الأندلسي أن أبا نصر المنازي دخل على أبي العلاء في جماعة من أهل الأدب ، فأنشد كل واحد منهم من شعره ماتيسر ، فأنشده أبو نصر في وادي بطنان :

وَقَانَا لَفَحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ (٣)

(١) ترجمه في طبقات الشافعية (٣٣/٣) (ج) .

(٢) الوفيات ٥٥/١ (ج) .

(٣) تعريف القدماء بأبي السلا م ٣٥٩ ، ٤١٣ ، وأوج التحري ٣٧

تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني ، ورواية الباس المكي في نزعة المجلس :

« وقام مضاعف البث السيم »

إلى آخر الأبيات ^(١) فقال أبو العلاء : « انت أشعر من بالشام » .
ثم رحل إلى بغداد ، فدخل عليه النازي في جماعة من أهل الأدب
ببغداد ، وأبو العلاء لا يعرف منهم أحداً ، فأنشد كل واحد ما حضره من
شعره ، حتى جاءت نوبة النازي فأنشد :

لَقَدْ عَرَّضَ الْحَمَامُ بِسَجْعٍ إِذَا أَصْفَى لَهُ رَكْبٌ تَلَا حَى ^(٢)

إلى آخر الابيات ، فقال أبو العلاء : « ومن بالعراق » عطفاً على قوله :
من بالشام . وفي (نسة السحر) أن العرض الثاني وقع بالهرة بعد نحو
عشرة أعوام ، قال : « وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم » .

وقال ابن العديم في (تاريخ حلب) : وبلغني أن النازي حمل
هذه الأبيات (البنية) ليعرضها على أبي العلاء ، فلما وصل إليه أنشده
الآبيات ، فجعل النازي كلما أنشده المصراع الأول من كل بيت سبه

(١) تنكبتها :

نزلنا دَوْحَه فَمَعَا عَلَيْنَا	خرو الوالدات على العظيم
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظُلَا زَلَا	أَلَدَ مِنَ الدَّامَةِ قَنَدِم
بِمَدِّ النَّصْرِ أَتَى وَاجِبَتَا	فِيحْبِجَا وَأُذُنَ الْقَنِيم
تَرَوُعَ حَامِ حَالِيَةِ الْفَارَى	نَطَسَ جَانِبَ الْعَدَدِ النَّظِيم

(٢) وبسده :

سَجَا لَبَّ الْخَلِّ قَالَ غَيَّ وَبَرَّحَ بِالْجَبِي قَالَ نَامَا
عزاهما (العريفي ج ١ ص ١٦٥) إلى ابن فاضي بية . ولد سبه أبو
العلاء إلى هذا الذي بقوله :
بِأَرْضِ الْقَهْمَةِ أَنْ قَتَى بِهَا وَلَمْ تَأْسَفْ أَنْ يَنُوحَا

أبو العلاء إلى المصراع الثاني الذي هو تمام البيت كما نظمه ، ولما
أنشده قوله :

نَزَلْنَا دَوَّحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا

قال أبو العلاء :

. حُنُوُّ الْوَالِدَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ

فقال المنازي إنما قلت « على اليتيم » فقال أبو العلاء : « الفطيم أحسن » .
وقول المنازي : « تركت لهم الدنيا والآخرة » يدل على أن هذه
الزيارة كانت بعد رجوع المعري من بغداد . وقولهم : « ثم رحل إلى
بغداد فدخل عليه المنازي . . » يدل على أن زيارته التي أنشده فيها
الآبيات الميسبة كانت قبل ذلك ، وقول نسمة الحر : « لئن عرض
الآبيات الحاتبة كان في المعرة بعد عشر سنوات » ، يشمر بأن العرضين
وقعا بعد رجوعه من بغداد ، ولم نجد نصاً يبين أن عرض الآبيات الميسبة
كان في الزيارة التي قال له فيها : « تركت لهم الدنيا والآخرة » أم في
غيرها ، ولكن قولهم : « فاطرق ثم لم يكلمه إلى أن قام » بأن العرض
كان في غير هذه الزيارة ؛ ولعلها كانت بعد العرضين أو قبلها .

وقال البديعي في (أوج التحري) (١) : « وروى عن أبي نصر أحمد
ابن يوسف المنازي الكاتب وزير أبي نصر . . وكان من أعيان الفضلاء ،
وأماثل بشعراء » قال : اجتمعت بأبي العلاء المعري بمرة النعمان ، وقلت :
ما هذا الذي يروى عنك ويحكى ؟ فقال : حسدي قوم وكذبوا علي
وأساءوا ، فقلت : على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟

(١) أوج التحري ص ٣٦ تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني .

فقال : والآخرة أيضاً ! والآخرة أيضاً ! قلت : أي والد ثم قلت له :
لم تمتنع عن أكل اللحم ، وتلوم من يأكله ؟ فقال : رحمة للحيوان .
قلت : لا ، بل تقول إنه من شره الناس ، فلمصري إنهم يحدون
ما يأكلون ويتجزّون به عن اللحم ، ويتموضون ، فما تقول في الباع
والجوارح التي خلقت لاغذاء لها غير لحوم الناس والبهائم والطيور ورفاتها
وعظامها ، ولا طعام تعاض به عنها حتى لم يخلص من ذلك حشرات
الأرض ، فإن كان الخالق لها الذي نقوله نحن ، فما أنت منه بخلفه أعلم
ولا أحكم منه في تدبيره ، وإن كانت الطائعات المحدثه لذلك على مذهبك ،
فما أنت بأحقق منها ، ولا أتقن صنعة ، ولا أحكم ملاحق تعطّلها ،
ويكون رايك وعقلك أوفى منها وأرجح ، وأنت من إيجادها غير
محوس عندها فامسك (١) .

على أن المنازي هذا هو الذي مدح أبا العلاء بقوله :

لِللَّهِ لَوْ لَوْ أَلْفَاظُ تُسَاقِطُهَا لَوْ كُنَّ لِلْغَيْدِ مَا نَسْنَا نَسْنَ بِالْعَطَلِ
وَمِنْ عُيُونٍ مَعَانٍ لَوْ كَحَلَنَ بِهَا نُجَلِّ الْعُيُونِ لَاغْنَاهَا عَنِ الْكَحَلِ
سَحَرْتُمْ مِنَ اللَّفْظِ لَوْ دَارَتْ سُلاَفَتُهُ عَلَى الزَّمَانِ تَمْشِي مَشْيَةَ الشَّمَلِ .

والأبيات المبينة قالها المنازي يصف واديا يقال إنه عند بُزَاعَة ،
ويقال له بُطْنَان ، فيه أنهار جاربة ، وفرى متصلة كانت فصبتها يزاحة ،

(١) وفي كلام المنازي نظر ونباس مع الفارق ، فإن كون الباع خفت لاغذاء لها
غير لحوم الإنسان والحيوان ، لا يوجب على الإنسان أن يأكل الحيوان ، ألا
ترى أن الباع تقتل الإنسان وتجرحه ، وكون ذلك من طبيعتها لا يبيع قتل
الإنسان للإنسان ولا جرحه . وتبين ما في كلامه كله من الغالطة يحتاج إل
تطويل لا ينسج له هذا القام خيبة الآفة . (ج)

وبالقرب منها بلدة يقال لها الباب ، ويعرف بباب بزاعة ، وقرية أخرى
ويقال لها تاذف ، وقد ذكرها امرؤ القيس بقوله :

وَيَارُبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ قَدْ شَهِدْتُهُ بِتَأْذِفِ ذَاتِ التَّلِّ مِنْ فَوْقِ طَرَطْرَا

وطرطر : قرية في وادي بطنان ، يسمونها ططنطل . وقد مررت
بطرف هذا الوادي سنة ١٣٥٠ هـ بطريقي إلى منبج ، وهو كثير المياه
والأشجار بالنسبة إلى تلك الأصعاع . وإذا جاوز الإنسان قرية بزاعة
بمقدار ربع ساعة لا يرى شجراً ولا ماء حتى يصل إلى منبج . ولعل
النازي قدم من هذه الطريق القاحلة ، فاذفته الشمس واحتد به العطش ،
فلما وصل إلى هذا الوادي رأى تلك البقعة الخضراء قطعة من الجنة .

وقد نسب هذه الأبيات الميمية إلى النازي ياقوت في (معجم
البلدان) ، وأبو الفداء في (تاريخه) ، والعماني في (معاهد التنصيص
ص ١٢٤) وابن الوردي في (تاريخه) وابن حجة في (خزنة الأدب)
وصاحب (مندرجات الذهب) ، و (ثمرات الأوراق) وفي (عنوان
المرقصات) ، وابن الشحنة في (الدر المنتخب) وغيرهم . على اختلاف في
الرواية ، ففي بعضها : « مقام مضاعف الظل ... والنبت » وفي بعضها :
« حور المرضعات ... » .

وذكر في (نفع الطبيب ج ٢ ص ٤٩١) أن هذه الأبيات لمدة
أو محدودة بفت زياد المؤدب ، من وادي آش ، وأنا قالتها قبل أن
يخرج النازي من العدم إلى الوجود . ومن العجيب أن يتفق هذا الجمهور
من المؤرخين والرواة على نسبتها إلى النازي وهي ليست له .

أبو الوليد الحسن بن محمد البلخي الدربندي : وقد تقدم ذكره .

أبو يوسف عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ .
قال باقوت في (معجم الأدباء ج ١ ص ١٧١) : « قال القاضي أبو يوسف
عبد السلام القزويني : قال لي المري : لم أجد أحداً قط ، فقلت له صدقت
إلا الأنبياء ، عليهم السلام ، فتغير وجهه » . وروى عنه في (ج ١ ص ١٧٢)
أنه قال : قال لي ملحد المرة : ما سمعت في أمر الحسين بن علي ، رضي الله
عنها ، شيئاً يجب أن يحفظ ، فقلت له : قد قال سوادى من أهل بلاده
أبياتاً لا يقول مثلها تنوخ جدك الأكبر :

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيهِهِ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى قَنَاءٍ يُرْفَعُ
وَالْمُسْلِمُونَ لِيَنْظُرَ وَلِيَشْهَدَ لَا جَارِعَ فِيهِمْ وَلَا مُتَفَجِّعٌ^(١)

إلى آخر الأبيات الخمسة ، وهي مذكورة في (ج ٩ ص ٢٦٦ من
الكامل) لابن الأثير ، وكان عبد السلام هذا مولعاً بجمع الكتب ، وله
تفسير كبير قيل إنه في سبعة مجلد كبار ، على قول السبكي في (طبقاته
ج ٣ ص ٢٣٠) وثلاثمائة على قول ابن حجر ، منها سبعة في القافية ،
وقد قال في (لسان الميزان ج ٤ ص ١١) وله توسع في العلماء الذين يخالفونه ،
وكان طويل اللسان قارء بعلم ، ودارة بسفه ، وطول لسانه مع أبي العلاء
في هذا المقام من النوع الثاني .

(١) في تعريف القمصاء ص ٧٩ : « ينظر ويحشد » ونكة الأبيات :

كملت بمنظرك البيون مماية وأسمُ رزؤك كلُّ ائذ نس
أهبط أجاناً وكنت لما كرمي وأنت عبأ لم تكن بك نهج
ماروضة إلا نمت أنها لك تربة ولحط فبرك ضج

الفاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر .

من ذرية مالك بن طوق النخلي ، كان فقيهاً أديباً شاعراً له تصانيف كثيرة ، ضاقت يده في بغداد حتى قال لأهلها : لو وجدت بين ظهرانيكم رغبين كل غداة وعشية ، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنية ، ورحل في آخر عمره عن بغداد ، واجتاز بالمرّة ، فأضافه أبو العلاء ، ثم شخص إلى مصر وتوفي فيها سنة ٤٢٢ هـ . وقال في (التنوير ج ٢ ص ١٣٢) : « قال أبو العلاء يخاطب بعض الفقهاء وكان أبو العلاء قد بعث من القطيعة إليه قدراً من الدرام ، وكتب إليه هذه الأبيات :

أَيْبَسْتُ عُذْرِي مُنْعِمَ أُمِّ يَخْصُنِي بِمَا هُوَ حَظِّي مِنَ أَلِيمِ عِتَابٍ .

. . .

وفها يقول :

فَيَا لَيْتَنِي أَهْدَيْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً مَضَتْ لِي فِيهَا صِحَّتِي وَشَبَابِي
وَقُلْتُ لَهُ فَاتْرُكْ ثَلَاثِينَ أَسْوَدًا مَتَى مَا تُكْشَفُ تُلَفَّ غَيْرُ لُبَابٍ

وذكر بعضهم أن الدرام ثلاثون . والقطيعة : محلة في بغداد ، كانت أبو العلاء نزل بها وهذه الأبيات يجوز أن تكون في أبي المتوج مقلد بن نصر ، ولكن يشكل على ذلك إرسال الدرام إليه ، ويجوز أن تكون في الفاضي عبد الوهاب ، أرسلها إليه وهو في بغداد ، ولكن يشكل على هذا قوله : « فَيَا لَيْتَنِي أَهْدَيْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً .. » لأنه لم يبلغ هذه السن وهو في بغداد . وبشكل عليه أيضا قوله :

وَيَنْ يَدَنِيهِ كَفَرَطَابٌ وَلِإِنْسَاهَا يَعْيشُ لِقَفْدِ الْمَاءِ غَيْشَ ضَبَابٍ

إلا أن يريد أن كفرطاب ماؤها قليل ، وهي في طريقه .
والدراهم التي أرسلها إليه ، لا تكفي إلا لشراء الماء للشراب والطهور ،
كتابة عن قتلها ، وكلام التبريزي في (ج ١ ص ٨٣) (١) يصرح بأن قوله :
« فياليتني أهديت خمين حبة ... » في القاضي عبد الوهاب المالكي .

وقد علمنا أن العربي ولد سنة ٢٦٢ هـ فيجب أن تكون هذه الأبيات
قيلت في نحو سنة ٤١٣ هـ إلا أن يكون أبو العلاء ذكر الخمين وسكت
عما زاد لضرورة الشعر ، وزعم بعض المستشرقين أن القاضي عبد الوهاب
اجتاز بالمرة سنة ٤٢٠ هـ ، ويجوز أن يحتج لقوله هذا بقول أبي العلاء الآتي :
« وألمى خاطري وسن عشرين حولاً ... » لأنه عاد من بغداد سنة ٤١٠ هـ ،
وأبو العلاء ذكر هذا القاضي في قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم التتري
بعد عودته من بغداد ، وهي في (السط ج ٢ ص ١٣٩) (٢) وفيها يقول :

والمالكي ابنُ نصري زار في سفرٍ بلادنا فحمدنا النأي والسفراً
إذا تفقه أحياء مالكا جدلاً وينشر الملك الضليل إن شعراً

• • •

ثم قال فيها :

جئيتُ ذنباً وألهمى خاطري وسن عشرين حولاً فلما نبهت اعتذراً

وذكر ابن عساكر في (تبيين كذب المفتري ص ٢٥٠) : « أن عبد الوهاب
خرج في آخر عمره إلى مصر فمات بها سنة ٤٢٢ هـ » وقال البطليوسي

(١) انظر شروح السط ق ١ ص ١٧٣٢ .

(٢) شروح سبط الزبد : ق ٤ ص ١٧٤٠ وطلع العبيدة :

لولا ما عيك لم نعد ما عينا ولم نام بأحكام اللاضرا

(ص ١٧٣٢) (١) : « إنه يخاطب بهذه الأبيات القاضي عبد الوهاب بن نصر ، وكان اجتاز بالمرّة ، فبعث إليه بثلاثين درهما » وقال الخوارزمي : « كان أبو العلاء قد تلمذ عليه » (٢) . وهذا يحتاج إلى دليل ، لأن أبا العلاء ما تلمذ على أحد بعد ما جاوز العشرين كما تقدم .

أبو الحسن علي بن عبد الواحد النقيّ البغدادي المعروف بصريع الدّلاء .

قبل الغواني . أو الغواني . ذي الرفاعتين . وقيل : اسمه علي بن عبد الرحمن . وقيل : اسمه محمد بن عبد الواحد القصار البصري ، قدم مصر سنة ٤١٢ هـ . وتوفي فيها في تلك السنة ، وطلب من أبي العلاء شرابا ، وما يليق به ، فبصر إليه قليلا من النفقة ، واعتذر إليه بأبيات ، المذكور منها في (السقط ج ٢ ص ٣٤) (٣) اثنا عشر بيتا أولا :

تَفَهَّمْ يَا صَرِيْعَ الْبَيْنِ بُشْرَى أَتَتْ مِنْ مُسْتَقَلٍّ مُسْتَقِيلِ
دُعِيَتْ بِصَارِعٍ قَدَّارَكُنْهُ مُبَالَغَةٌ قَرَدٌ إِلَى قَعِيلِ

. . .

وفيها يقول :

قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْكَ فَلَا تَكِلْنِي إِلَى شَيْءٍ سِوَى عُذْرِ جَمِيلِ
وَقَدْ أَنْقَذْتُ مَا حَقِّي عَلَيْهِ قَبِيحُ الْهَجْوِ أَوْ شَتْمُ الرَّسُولِ

. . .

(١) انظر فروع القط .

(٢) المصدر السابق .

(٣) فروع سقط الزند : ق ٣ ص ١١٤١

وآخرها :

فَإِنْ يَكُ مَا بَعَثْتُ بِهِ قَلِيلًا فَلِي حَالٌ أَقْلُ مِنْ الْقَلِيلِ

وترجمته في (الوفيات) ، وفي (أبي الفداء) وابن الوردي .

أبو الحسن طلي بن محمد النهامي .

سيأتي ذكره في الكلام على فراسته .

أبو محمد بن سندی القنبري .

روى ابنه القاضي أبو عبد الله محمد بن سندی القنبري ، قال :
« حدثني أبي ، قال أتينا عند أبي العلاء المبري ، في الوقت الذي كان
يجلي فيه شعره المعروف (بلزوم ما لا يلزم) فألمى في ليلة واحدة ألفها بيت .
نقل ذلك ابن العديم^(١) عن (جنان الجنان) وسيأتي الكلام في قوله هذا .

أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي .

وقد ذكرنا في ذكائه أبي العلاء أنه زاره في المرة ، واستنشدته ،
فحرفه وحذره الناس .

أبو الخطاب محمد بن طلي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف

بالجبلي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ .

وجبل : قرية بين النعمانية وواسط ، في الجانب الشرقي . كان
شاعراً مجيداً ، وكان بينه وبين أبي العلاء المبري مشاعة ، وفيه قال
أبو العلاء قصيدته :^(٢)

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرْنُمُ شَادٍ

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء س ٥٦٠ عن الإصناف والشمري - لابن الدمج .

(٢) مروج سبط الزند : ف ٣ ص ٩٧١ .

كذا زعم ياقوت في (معجم البلدان ج ٣ ص ٥١) . وقال السمعاني :
« كتب إليه أبو العلاء هذه القصيدة » . وقال ابن خلكان (ج ٢ ص
٢٢٦) : هذا غلط من بل كتبها أبو العلاء إلى أبي حمزة الحسن بن
عبد الله الفقيه الحنفي ، قاضي منبج ، ونقله عن ابن العديم .

والذي يظهر أن هذه القصيدة ، رثى بها أبا حمزة الحسن بن عبد الله
ابن محمد بن عمرو بن سعيد التتوخي المعري المتوفى قبل سنة ٤٠٠ هـ لأنه
يقول فيها :

قَصَدَ الدَّهْرُ مِنْ أَبِي حَمْزَةَ الْأَوَّلِ ابِ مَوْلَى حِجِّي وَخِذْنِ اقْتِصَادَ

رأه كتبها إلى الحسن أخي أبي حمزة ، لأنه يقول فيها :

فَلْيَكُنْ لِلْمُحْسِنِ الْأَجَلُ الْمَعْدُودُ رَغْماً لِأَنْفِ الْحَسَادِ
وَلْيَطْبَعْ عَنْ أَخِيهِ نَفْساً وَأَتَبْنَا وَأَخِيهِ جَرَائِحَ الْأَكْبَادِ

وفي (الأضي القريب) أنه قالها يرثي بها أحد أقاربه من بني حماد .
وعزى فيها أهله .

وعلى كل حال ليست هذه القصيدة من المشاعرة أو المساجلة في
نبيء ، وإنما هي تعزية ، وأما القصيدة التي كتبها أبو العلاء إلى أبي الخطاب
فهي في (السقط ج ١ ص ١٥٣) (١) وعدد أبياتها ٢٢ بيتاً وأولها :

أَشْفَقْتُ مِنْ عِبَادِ الْبَقَاءِ وَغَايِهِ وَمَلَلْتُ مِنْ أَرْزِي الزَّمَانِ وَصَايِهِ

وكان أبو الخطاب قصيراً فمدح قصره وفضله بقوله :

(١) وفي الفروع ج ٢ ص ٧١٠ .

عَجِبَ الْأَنَامُ بِطُولِ هِمَّةِ مَا جِدَ أَرْتَمَى بِهِ قِصْرَ عَلَى أَضْرَابِهِ
سَهْمُ الْفَتَى أَقْصَى مَدَى مِنْ سَيْفِهِ وَالرُّمَحَ يَوْمَ طَلْعَانِهِ وَضْرَابِهِ
وأشار الى خروجه من العراق بقوله :

هَجَرَ الْعِرَاقَ قَطْرُثًا وَتَغْرُثًا لِيَفُوزَ مِنْ سَمَطِ الْعُلَا بِغْرَابِهِ
وأشار الى ان ابا الخطاب مدحه بشعر ، فاجابه بهذه القصيدة بقوله :
الْبَسْتَنِي حُلَّ الْقَرِيضِ وَوَشِيهِ مُتَفَضِّلًا فَرَفَلْتُ فِي أَثْوَابِهِ
وَوَظَلَمْتُ شَعْرَكَ إِذْ حَبَوْتَ رِيَاضَهُ رَجُلًا سِوَاهُ مِنَ الْوَرَى أَوْلَى بِهِ
فَأَجَابَ عَنْهُ مُقْصِرًا عَنْ شَأْوِهِ إِذْ كَانَ يَقْصُرُ عَنْ بُلُوغِ ثَوَابِهِ

وذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ٢٢٦) (١) « انه مضى الى الشام ، ولقي
المري ، وعاد ضريراً وله شعر » وفي (النجوم الزاهرة) « انه رحل
الى البلاد ، ثم عاد الى بغداد ، وقد كف بصره ، فأتى بها ، وكان
رافضياً خبيثاً . وذكر له بيتان . وفي (تاريخ بغداد) للخطيب
(ج ٣ ص ١٠١) : « سافر في حديثه الى الشام ، فسمع بدمشق ،
ثم عاد الى بغداد ، وقد كف بصره ، وأنه كان وافضياً ، ثم روى عن
أبي القاسم علي بن الحسن التتوخي ، قال : انشدنا أبو الطلاء أحد بن
عبد الله بن سليمان المري لنفسه ، يجب أبا الخطاب الجبلي ، عن أبيات
كان مدحه بها عند وروده معرة النعمان » ، ثم ذكر القصيدة . وهذا
يدل على أن هذه القصيدة قبلت قبل سفره الى بغداد .

محمد بن أبي بكر الحاتمي .

ذكر ابن المديم عنه أنه قال : (١) « ارتحلت أريد المعرة ، لألقى أبا العلاء بن سلبان ، فيينا أنا في بعض طريقي ، وإذا بشاب حسن الصورة ، وهو أعور راكب على غير ، ومعه شخص وضئ الوجه يعقبه عتابا لطيفا ، فلما انتهى الى آخر عتابه ، قال له الشاب الأعور : نشدا :

إِنْ كُنْتُ حُشْتُكَ فِي الْهَوَى فَحُشِرْتُ أَقْبَحَ مِنْ فَضِيحَةٍ

قال الحاتمي : فرمت أن أزيد على هذا البيت شيئا ، فلم أستطع لكثرة طربي به . الى أن انتهت الى المعرة ، ودخلت على أبي العلاء ابن سلبان ، وكان أول حديثي معه ، أن تذاكرنا في أبيات من الشعر ، ذكر منها بيت جهل قاله وهو :

إِنَّمَا تَسْرَحُ أَسَادُ الشَّرَى حَيْثُ لَا تُنْصَبُ أَشْرَاكُ الْحَدَقِ

فقال . لقد أضاء بصيرة وإن ممى بصرا . فقلنا له : أتعرف لمن الشعر ؟ قال : لا . فبحثنا عنه ، فوجدناه لبشار بن برد ، ثم خلوت معه ، فسألني : من أنت ؟ فقلت : أنا فلان . فقال : أنشدني شيئا من شعرك ؟ فأنشدته ، ثم انتهى حديثي معه الى أن حكيت له حكاية الشاب الذي لقيناه في طريقي ، وأثبت أن أقول له إنه كان أعور ، فلما أنشدته :

إِنْ كُنْتُ حُشْتُكَ فِي الْهَوَى فَحُشِرْتُ أَقْبَحَ مِنْ فَضِيحَةٍ

قلت له : لم أستطع أن أزيد على هذا البيت شيئا فأسرع أن قال لي : فلا زدت عليه :

وَجَحَدْتُ نِعْمَةً خَالِقِي وَفَقَدْتُ مُقْلَتِي الصَّحِيحَةَ

(١) تعرف القمصاء بأبي العلاء س ٥٦١ - ٥٦٢ عن الإمام والنحري - لابن المديم .

قال : فقلت : والله ما كان إلا أعور ، فمن أين لك هذا ؟ قال : شمت إحدى عينيه على بيته . ولعله محرف عن شمت إحدى عينيه ، أي نظرت .

أبو الحسن المختار بن بطلان المتطبيب البغدادي المتوفى سنة ٤٤٥ هـ .

ذكر القفطي (١) أن ابن بطلان كان يألف أبا العلاء المعري ، وكان قبل موته بالمرة ، فحدثه بعض الطلبة أن أبا العلاء قد أملى عليهم شيئاً ، فنظط فيه ، فتنبأ ابن بطلان بأن ذاك فاربت الذبول ، كما تقدم . ونقل في (طبقات الأطباء) عن المختار أنه ذكر أبا العلاء المعري في جملة من فقد من العلماء .

أبو الحسن الدانقي المصمي .

قال النعالي في (تمة النبذة ج ١ ص ٩) : « وكان حدثني أبو الحسن الدانقي المصمي الشاعر ، وهو من لقيت فديما وحديثاً ، في مدة ثلاثين سنة . قال : لقيت بكرة النعمان عجبا من العجب ، رأيت أمي شاعراً ظريفاً ، بلمب بالطنرج والترد ، ويدخل في كل فن من الجدل والمزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعت يقول : أنا أحمد الله على العبي كما يحبه غيري على البصر . فقد صنع لي وأحسن لي ، إذ كفاني رؤية الثفلاء والبغضاء . قال : وحضرته يوماً وهو يلقي في جواب كتاب ورد عليه من بعض الرزماء :

وَأَمَّا الْكِتَابُ فَأَوْجَبَ الشُّكْرَ فَضَمَّمْتُهُ وَلَثَمْتُهُ عَشْرًا
وَفَضَضْتُهُ وَقَرَأْتُهُ فَإِذَا أَحْلَى كِتَابٍ فِي الْوَرَى يُقْرَأُ
فَمَحَاهُ دَمْعِي مِنْ تَحَدُّرِهِ شَوْقًا إِلَيْكَ فَلَمْ يَدَعْ سَطْرًا

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٦٥ عن إنباء الرواة - القفطي

فحفظتها واستعملتها كثيراً في مكاتبات الإخوان . هذا هو نص (تة البنية) وقد نقله ياقوت (ج ١ ص ١٧٢) عن (البنية) والصواب عن (تة البنية) وفي روايته . « وهو من لقيه قديماً وحديثاً » . فإذا هو أجلى كتاب في الوري . وزاد ياقوت بعد الأبيات الثلاثة قوله : قال وانشدي لنفسه :

لَسْتُ أَذْرِي وَلَا الْمَنْجُمُ يَذْرِي مَا يُرِيدُ الْقَضَاءُ بِالْإِنْسَانِ
غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ قَوْلَ مُحِقٍّ قَدْ يَرَى الْغَيْبَ فِيهِ مِثْلَ الْعَيَانِ
إِنْ مَنْ كَانَ مُحْسِنًا مَا بَكَتْهُ لُجْمِيلُ عَوَاقِبُ الْإِحْسَانِ
هذه رواية ياقوت وفي (تة البنية) :

..... مُحْسِنًا قَابَلَتْهُ بِجَمِيلِ عَوَاقِبُ

والأبيات الثلاثة الأول ، الرائية : لم ترد في ديوان أبي العلاء . والأبيات الثانية ، النونية ، لم ينسبها الثعالبي الى أبي العلاء ، وإنما نسبها لأبي أقمام المحسن بن هوو . المعوي ، في ترجمته في (تة البنية) . فتروم ياقوت أنها لأبي العلاء .

وقد نقل هذه القصة عن الثعالبي جماعة ، منهم : (١) صاحب (معاهد التنصيص) ، والصندي في (الوافي بالوفيات) وفي (نكت المبيان) نقلوا الى قوله : « كما يحمد غيري على البصر » ونقلها ابن العديم الى قوله : « إذ كفاني رؤية النفلاء والبغضاء » ونقلها البديعي في (أوج التحري ص ٤) مع الأبيات الثلاثة الأول .

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٦٥ ، ٢٨٦ ، ٣٣٦ ، ٥٥٨ .

وأبو الحسن الدلفي .

قال الميني (ص ٥٥) (١) : دانه استفرغ مجهوده في التطلب عنه ، فوجده في (الصبح النبوي) . وهو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن حمدان الدلفي الدجيلي النحوي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ . ونقل ما نقله صاحب (البغية ص ٥٢) عن ياقوت .

وفي ذيل (تعريف القدماء ص ٣) : هو أبو الحسن علي بن مأمون الدلفي المصبي ، وقد روى عنه الثعالي (ج ١ ص ٢٢ ج ٢ ص ٢٨٦) . هكذا قالوا . . وكلا الرجلين كان معاصراً للثعالي ولأبي العلاء . ولكن الذي نقل عنه الثعالي في (تمة النبوة) هو أبو الحسن الدلفي المصبي الشاعر كما تقدم . والذي ظنر به الاستاذ الميني أبو الحسن الدلفي العجلي النحوي واسمه محمد بن عبد الله . والذي ذكره الثعالي في (النبوة) ذكره في صور مختلفة : ففي (الجزء الأول ص ٢٠٦) قال أبو الحسين المصبي ، ثم قال : المصبي . وفي (ص ٢٢٠ ، ٢٢٢) : أبو الحسن علي بن مأمون المصبي . وفي (ص ٢٢٣ ، ٣٥٢) : المصبي وفي (ص ٢٤٧) : علي بن مأمون المصبي وفي (ص ٥٣٥) : أبو الحسن المصبي الشاعر . وفي (الجزء الثاني ص ١٣٦) أبو الحسن المصبي . وفي (ص ٢٨٦) : علي بن مأمون المصبي . ولم يذكر في موضع من هذه المواضع أنه دلفي أو عجلي . ولم أجد نصاً يدل على أن الثعالي نال عن الأول ، ولا نصاً يدل على أن الثاني دلفي فتأمل ، وتذكر أن الأول توفي سنة ٤٦٠ هـ . والثعالي توفي سنة ٥٢٩ هـ وكان لقيه وعرفه منذ ثلاثين عاماً ، حين روى عنه هذه القصة فيجب أن يكون عمره فوق الثمانين .

(١) أبو اللاه وما إليه .

أبو محمد الغفاجي الحلبي :

وسياتي ذكره في الكلام على فراسته .
هبة الله بن موسى المؤيد في الدين : وسياتي في الكلام على حفظه .

أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيوس الشاعر المشهور :

قال ابن عساكر في ترجمة عبد المحسن الصوري : « وذكر أن أبا العلاء
ابن سليمان كان يعيب عبد المحسن الصوري بقصر النفس ، فحدثت أن أبا الفتيان
ابن حيوس لما حضر عند أبي العلاء المعري أنشده أبو العلاء أبياتاً لعبد
المحسن الصوري ، وقال : هذه لقصيرك ، فقال له أبو الفتيان : هو أشعر من
طويلك ، يعني المتنبّي ، فدأب أبو العلاء يده إليه ، وقبض على ثوبه ، وقال :
الأمراء لا يناظرون » .

منزلة عند الملوك والأمراء وعظماء الناس

حاول أبو العلاء أن ينقبض عن الناس ، ويقع في منزله ، ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، فاضطره الناس إلى أن يفتح بابه على مصراعيه ، وأن يبسط جباهه عند العظماء في الشفاعات . ويطلق لسانه للإفراء والإملاء والنألف والاجابة .

وقد ذاع صيته في الناصبة والدانية وأرلح أهل الفضل بأدبه وعلمه ، وأحبوا مكاتبه ومخاطبته ، وطعموا في الاستفادة منه . فكان لا يمر بالمرء رجل مشهور إلا قصده واستفاد منه ، أو طلب منه نظم أبيات على لسانه أو تصنيف كتاب باسمه .

وقد كان فريق من الفضلاء يرسله أو يمدحه ، ويلتص الوصائل لتعرف إليه ، ولم يكن أبو العلاء من الملوك أو العظماء ، ولا الأغنياء حتى يظن أن الناس يتوقعون منه صلة ، أو يطلبون عنده جاهاً ومنزلة . وإنما كانوا يتوقعون شهرة تتصل بشهرته ، وخلوداً في شهره الخالد ، وآثاره الباقية . ومن تتبع ما وصل إلينا من أخباره ، يتضح له أن الناس كانوا يحشمونه خروباً من التكاليف ، وكان لا يرد سائلاً ولا يجيب آملاً ، إلا أن كثيراً من أبيانه ورسائله ، لم تصل وافرة إلينا ، ولا ذكر فيها أسماء أصحابها . ومنها ما ذكر فيه لفظ « الشيخ » أو « أبي فلان » ومنها ما أغفل فيه وما ترتب عليه ، ونحو ذلك من الأمور التي تحول بين الباحث والحقيقة التي يتوخاها في دراسة آثاره . من ذلك ما جاء في (السقط ج ١ ص ١٨٧) : « وقال ، وقد سئل إجازة هذا البيت بالمعنى الذي يأتي ... » ، ثم ذكر ستة عشر بيتاً لأبي العلاء في الغزل أجاز بها البيت المذكور ، ولم يبين من سأل ذلك . ومنه في (ج ١ ص ١٤٧) : « وقال حينئذ بعض الأمراء بمصر ، بعد أن تقضاه ذلك ... » ، ثم ذكر أربعة وثلاثين بيتاً على روي السين ، ولم يعلم من سأل ذلك ولا المدوح بها ، ويظن أنه أحد الدولة صالح ابن مرداس ، لأنه ذكر فيها حلب ، وأن المهنا بها رال شجاع فارس ، يدعوه العدي أسداً .

ومنه في (ج ١ ص ١٧٤) : « وقال وكان أبو عبد الله بن السقا الكاتب سأله أن يعمل قصيدة الى صاحبه يصف له ما شاهده من الوفاء والإخلاص منه ... » . ثم أورد ثلاثة وعشرين بيتاً على روي الدال الموصولة بالماء ، ومنه ما جاء في (السقط ج ٢ ص ٢١٣) : « وقال على لسان امرأة نوصي ابنها بلبس الدرع وترك الزواج ... » . وفي (ص ٢١٩) : « وقال على لسان سائق الحاج ... » ، وفي (ص ١٧٣) : « وقال على لسان رجل يخاطب امرأة خانه أبوها في درع ... » وأمثال هذا كثير في السقط . وفي رسائله كثير من الرسائل المحفوفة بمثل هذا الغرض . منها رسالة كتبها الى أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملاً .. وهي في (ص ٥٣ من رسائله) (١) .

ويزيد الباحث ضئفاً على إثباته أن أكثر رسائله فاقص ، وأكثر الرجال فيها لا يسون ، وإفما يقول فيها : « سيدي أبو فلان أو سيدي الشيخ ... » أو ما شاكل ذلك . وإليك طرفاً من الأخبار الدالة على حرمة عند المظاه في زمانه .

الدولة العلوية بمصر وحلب :

ذكرنا أن المستنصر العلوي صاحب مصر ، بذل لأبي العلاء ما لبيت المال في المرة من المال فلم يقبل منه شيئاً . وأن الحكم العلوي أعجبه نظمه ، فأوصل الى عزيز الدولة ، والي حلب ، أن يحمله الى مصر فاعتذر .

وأن داعي الدعاة كتب الى تاج الأمراء أن يضاعف حرمة عند الخاص والعام ، وأن يجري عليه ما تدعو إليه حاجته بجميع مهامه ، فلم يقبل شيئاً . وأن الوزير الفلاحى (٢) كتب الى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، متولي حلب وأعمالها أن يحمل أبا العلاء الى مصر ليبني له دار علم . وسمح له بخراج المارة في حياته ، فأبى

(١) رسائل أبي العلاء المري - لكاتبين عطفه .

(٢) هو علي بن جعفر بن فلاح وزير الحاكم (ج) .

ذلك كله ، وكان عزيز الدولة هذا يطلب من أبي العلاء أن يصنف له تصانيف ويحترمه ويقبل شفاعته .

وكان أنوشكين الدزيري أمير حلب ودمشق يثني على أبي العلاء ، ويسأل عنه ، ويوجه إليه بالسلام .

وأن أبا القاسم الوزير المغربي استدعاه الى مصر .

وأن صالح بن مرداس وهب له المرة ، ورفع الحصار عنها واطلق السجني من أهلها . الى كثير من مثل هذا .

وسنذكر أن رجلاً من المتدينين سأله أن يضع له كتاباً ، فوضع له (سبب الخطبة) وأن أبا الفتح عبد الله بن إسماعيل سأله وضع كتاب ، فوضع له (الحلى والجلى) الى غير ذلك مما يأتي ذكره في رسالته وتآليفه . وقد ذكرنا شيئاً مما وقع له من العلماء والشعراء ، وسنذكر شيئاً آخر مما يدل على علو مكانته بين العلماء والشعراء والكبراء .

أقوال العلماء فيه

اتفقت كلمة العلماء على أن أبا العلاء عالم لغوي ، شاعر حكيم ، ذكي فطن ؟ واختلفوا في عقيدته ، حتى إن الرجل الواحد ليدح فضله وعلوه وذكاؤه ، ثم يقدح في معتقده ونحلته . ومنهم من اقتصر على مدحه ، ومنهم من اقتصر على ذمه . وهذه جملة من أقوالهم :

أما ما قيل في مدحه فكثير منه :

أن شيخ الإسلام علي بن أحمد المكاربي ، مثل عنه فقال : هو رجل من الملحنين ^(١) .

ونقل السلفي عن القاضي أبي المذهب عبد النعم بن أحمد السروجي ^(٢) . « أنه سمع أخاه القاضي أبا الفتح يقول : إنه دخل على أبي العلاء في المرة ، ذات يوم في خلوة ، على غير علم منه . وكان يتردد إليه ويقرأ عليه فصره بفشد :

(١) وفيات ج ١ ص ٣٤٦ وغيره (ج) .

(٢) رواها في معاهد التمسيس ص ٦٧ والذهبي في تاريخ الإسلام وفي نزعة الجلبس وأوج التحري (ج) .

كَمْ بُودِرَتْ غَادَةٌ كَعَابُ وَعُمِّرَتْ أُمُّهَا الْعَجُوزُ^(١)
 أَخْرَزَهَا الْوَالِدَانِ خَوْفًا وَالْقَبْرُ حِرْزًا لَهَا حَرِيزُ
 يَجُوزُ أَنْ تُبْطِئَ الْمَنَايَا وَالْخُلْدُ فِي الدَّهْرِ لَا يَجُوزُ
 ثم ثارته مرات ، وتلا قوله تعالى :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنِ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ
 لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ يَوْمَ
 يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ خَافِيٌّ وَسَعِيدٌ^(٢)﴾ ثم صاح
 وبكى بكاءً شديداً ، وطرح وجهه على الأرض زماناً ، ثم رفع رأسه ،
 ومسح وجهه ، وقال : سبحان من تكلم بهذا في القدم ، سبحان من
 هذا كلامه . قال : فصبرت ساعة ثم سلمت عليه ، فرد علي ، وقال :
 متى أتيت ؟ فقلت : الساعة . ثم قلت : ياسيدي ! أرى في وجهك أثر
 غيظ ، فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق ، ولتوت
 شيئاً من كلام الخالق ، فلحقني ما ترى . فتحقت صحة دينه ، وقوة يقينه .
 وقال ابن خلكان : « كان متضلعا من فنون الأدب وله
 التصانيف الكثيرة المشهورة ، والرسائل المنثورة وحكى لي من
 وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب (المهزلة والردف) ، وقال :

(١) يروى : « كم غودرت » . ويروى : « غادة كموب » . وهذه الأيات من شعره
 في مقياس البيل ص ٩ وأولها :

يموت قوم وراء قوم وبيت الأول العزيز
 ورواية البيت الثاني فيه :

كم هلكت غادة كعاب (ج) .

(٢) هود الآية ١٠٤ وما بعدها .

« لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد . وكان علامة عصره . وأخذ عنه الناس ، وسار إليه الطلبة من الآفاق ، وكتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار » .

وقال الصندي : « كان آية في الذكاء المفرط ، عجباً في الحافظة » ثم ذكر قصة التبريزي وجاره الأعجمي ، وإعادة أبي العلاء مآدار بينها بالغة الأذربيجانية . ثم قال : « وهذا أمر معجز ، فإنه بلغنا عن جماعة من الحفاظ ، وما يحكى عن البديع الهذاني ، وابن الأنباري وغيرهما ، ما هو أمر قريب من الإمكان ، لأن حفظ ما يفهمه الإنسان ويعرف تراكيبه ومفرداته سهل ، وأما أنه يحفظ ما لم يسمعه ، ولا يعلم مفرداته ولا مركباته ، وهو أقل ما يكون أربعمائة سطر من سؤال غائب عن أهل بلده سنين وجوابه . وكان اطلاعه على الآلة وشراهدا أمراً هامراً » .

ونقل عن الشيخ كمال الدين بن الزمكاني ، أنه قال في حقه : « هو جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت ... » .

وقال السيوطي فيه : « كان غزير الفضل ، شائع الذكر ، وافر العلم غابة في الفهم ، عالماً باللغة ، حاذقاً بالنحو ، جيد الشعر ، جزل الكلام شهرته تغني عن صفته . وأما حافظته ... (١) » ثم ذكر قصة التبريزي وجاره .

وقال الباخريزي فيه : « ضريح مالا في أنواع الأدب ضريب ... » (٢)

وقال ابن الأثير فيه : « عليه أشهر من أن يذكر ... » (٣)

(١) بنية الرواة ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) دمية النصر ص ٥٠ طبعة المطبعة الطبية بجلب سنة ١٣٤٩

(٣) الكامل ٢٣٨/٩ يولان سنة ١٢٩٠ .

وقال ياقوت (١) : « كان غزير العلم ، شائع الذكر ، وافر العلم ، غاية في الفهم ، عالماً بالغة ، حاذقاً بالنحو ، جيد الشعر جزل الكلام ، شهرته تفني عن صفته . وفعله ينطق بسجيته . . » إلى أن قال : « وسمعه المرتضي فاستدناه ، واختبره فوجده عالماً مشبعاً باللفظة والذكاء ، فأقبل عليه ، إنبالاً كثيراً . . » ثم ذكر قصة التبريزي وجاره ، وقال : « وهذا غاية ليس بعدها شيء في حسن الحفظ ، وأنا كثير الاستحسان لقوله :

أَسَأَلْتُ أَنِّي الدَّمْعُ فَوْقَ أَسِيلٍ وَمَأَتْ لِظْلٌ بِالْعِرَاقِ ظَلِيلٌ

الآيات . .

وقال في (معاهد التنقيص) : « وكان اطلأعه على اللغة وشواهدا امرأ باهراً . . وتصانيفه كثيرة جداً ، وشعره كثير إلى الغاية ، وأحسنه (سقط الزند) .

وقال الذهبي (٢) : « ويقال عنه : إنه كان يحفظ كل ماير بسمعه . . وكان عجباً من الذكاء المفرط ، والاطلاع الباهر على اللغة ، وشواهدا . وقال الخطيب في (تاريخ بغداد) (٣) : « كان حسن الش : جزل الكلام ، فصيح اللسان ، غزير الأدب ، عالماً بالغة حافظاً لها . . » وقال السمعاني في (الأنساب) والقفطي في (إنباء الرواة) مثل قول البغدادي .

وقال ابن الأبناري في (نزهة الألباء) : « كان غزير الفضل ،

(١) تعريف القدماء بأبي اللأه الصفحات ٦٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ عن إرشاد الأرب - ياقوت .

(٢) تاريخ الإسلام ، الطر تعريف القدماء بأبي اللأه ص ١٩١ .

(٣) تاريخ مدينة السلام ٢٤٠/٤ .

وافر الأدب ، عالماً باللغة ، حسن الشعر ، جزل الكلام ، وصف
تصانيف كثيرة ، وأشعاراً جمة (١) . . .

وقال ابن الجوزي في (المنتظم) : « وله أشعار كثيرة ، وسمع
اللغة ، وأملى فيها كتباً . وله بها معرفة ، ثمة (٢) ... »

وقال سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) : « سمع اللغة ،
وأملى فيها كتباً ، وله بها معرفة ثمة ... ولا خلاف في سعة علم الرجل
وغزارة فضله وصحة نسبه ؛ وأنه أوحى زمانه ، وله المصنفات الحسان » .

وقال أبو الفداء في (المختصر) : « وكان عالماً لغوياً شاعراً (٣) » .

وقال ابن الوردي في (تيسر المختصر) : « وله التصانيف المشهورة ،
والرسائل الماثورة وكان متضلماً من فنون الأدب (٤) .. »

وقال ابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار) : « وكان مطلعاً
على العلوم . لا يخبئ في علم من الأخذ بطرف . متبحراً في اللغة ، متسع
النطاق في العربية ، جامع الشعوب للطرق الأدبية ، نادرة في العالم ،
وشذرة في بني آدم ، ما ولدت مثله الهالبي ، ولا أوجدت مثله العالي (٥) » .
وقد أطلال في مدحه ووصفه .

وقال اليافعي في (مرآة الجنان) : « ... الانفوي الشاعر المشهور ،
صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة ، والرسائل لبلغة الماثورة ، والزهد

(١) نزعة الألباء ص ٤٢٥ طبعة القاهرة سنة ١٢٩٤ .

(٢) المنتظم في أخبار الأمم ١٨٤/٨ طبعة حيدرآباد سنة ١٣٥٨ .

(٣) المختصر في أخبار البحر حوادث سنة ٤٤٩ طبعة الأستانة سنة ١٢٨٦ .

(٤) تيسر المختصر في أخبار البحر ، حوادث سنة ٤٤٩ طبعة المطبعة النورية سنة ١٢٨٥ .

(٥) تعريف القدماء بأبي البلاد ص ٢١٨ .

والذكاء المفرط ، كان متضلماً من فنون الأدب . . . وكان علامة عصره في فنون . . . (١) » .

وقال ابن حجر في (لسان الميزان) : « اللغوي الشاعر المشهور ، كان عباً في الذكاء المفرط ، والاطلاع على اللغة . (٢) » .

وقال العيني في (عقد الجمان) : « الشاعر اللغوي صاحب الدواوين ، والمصنفات في الشعر والافقة . . وكان علامة دهره (٣) . . » .

وقال المكي في (نزهة الجليس) : « فاضل ، سار ذكر فضله في البراري والبحور ، وأجمع على تقدمته الجمهور ، بأنه فارس المنظوم والمنثور (٤) » .

المنتهى منه له

وقال الصفي في (نكت المبيان ص ٢٩٧) : « إن مكي بن ريان ابن شبة الماكيني المتوفى سنة ٦٠٣ هـ كان يتمصب لأبي العلاء المعري ، ويضطرب إذا قرئ عليه شعره ، للجامع بينهما من الأدب والعلم ، لأنه أضر بأخرة » .

وقال السيوطي في (البنية) : « إنه أضر بالجدي وسنه ثمان أو تسع » .
وأما ما قيل في ذمه فكثير جداً منه ما يأتي :

قال الذهبي فيه : « له (رسالة الغفران) في مجلدة قد احتوت على مزدكة واستخفاف . . . والذي يظهر أن الرجل مات متعيراً ، لم يتم بدن من الأدبان » .

(١) مرآة الجنان حوادث سنة ٤٤٩ طبة حيدر آباد سنة ١٣٣٩ .

(٢) لسان الميزان ٢٠٣/١ طبة حيدر آباد سنة ١٣٢٩ .

(٣) تعريف القضاة بأبي العلاء ص ٣١٩ .

(٤) نزهة الجليس ٢٧٨/١ طبة مصر سنة ١٢٩٣ .

وقال في (العبر) : « ولعله مات على الإسلام ، ولاب من كفراته ،
وزال عنه النك والارتباب » . وقال غرس النعمة فيه : « كان يرمي
بالإلحاد في شعره ، وأشار دالة على ما يزن به » . واول من نشر
شعر إلحاده غرس النعمة .

وقد نقل السيوطي في (بغية الرعاة) ما قاله باقوت ، والصفدي ،
والسلفي ، وابن العديم ، ولم يذكر رابه فيه ، وإنما ذكر أنه أسند
حديثه في الطبقات الكبرى .

ونقل عبد الرحيم العباسي^(١) ما ذكره باقوت ، والصفدي ، والتبريزي ،
والقزويني ، والسلفي .

ونقل ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٥٧) ما قال ابن خلكان ،
وباقوت ، وأبو الفداء ، وذكر قصة الضيوف الحسين . وأن بعض الناس
زعم أن المعري قتلهم بدعائه وتمجده ، وبعضهم زعم أنه قتلهم بسحره
ورصده . وكان ابن الوردي يتعصب له لكونه من المرة ، ثم اطلع على
كتاب (استغفر واستغفري) و (لزوم ما لا يلزم) فأبغضه وتبرأ منه ،
ثم وقف على كتاب (ضوء السقط) فكان عنده مصححاً لفساد أبي العلاء
موضحاً لصحة اعتقاده . وسيأتي تمام ذلك .

وقال ابن قاضي شبة في (طبقات النحاة والتغوين ص ١٧٨) :
« وزعم بعضهم أنه أفلح عن ذلك ولاب . وقال فصبته التي أولها :

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ
وَيَرَى مَنَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخِّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النَّحْلِ
أَمْنُنْ عَلَيَّ بِتَوْبَةٍ تَمْحُو بِهَا مَا كَانَ مِنِّي فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

(١) انظر كتابه الموسوم بـ (معاهد النصب على مراح شواهد التلخيص) .

وذكر الصفي في (نكت المبيان ص ١٠٣) رحلته إلى طرابلس ،
واجتيازه باللاذقية ، وسماعه كلام راهب فيها . ثم قال : « والناس
مختلفون في أمره ، والأكثر على إكماره وإلحاده . وأورد له الإمام
فخر الدين الرازي في كتاب الأربعين ^(١) قوله :

قُلْتُمْ لَنَا صَانِعٌ قَدِيمٌ قُلْنَا صَدَقْتُمْ كَذًّا نَقُولُ ^(٢)

إلى آخر الآيات الثلاثة . ثم قال : « وقد هذى هذا في شعره » .
وأورد مثل هذا في (الوافي بالوفيات) ثم أورد قول القزويني ،
والمنازي ، والتبريزي . ثم قال : « وأما الشيخ شمس الدين الذهبي ،
فعلم بزندقته ، وذكر عنه قبائح وأطن الحافظ السلفي قال إنه قاب
وأقاب : ثم ذكر أبحاثا تدل على أن أهل الحمد كانوا يعملون على لسانه
أشعاراً يضمنونها قول الملاحدة ثم قال : « أما الموضوع على لسانه ، فلعله
لا يخفى على من له لب » . وأما الأشياء التي دَوَّنَهَا وقالمها في (لزوم
مالا يلزم) وفي (استغفر واستغفري) فما فيه حيلة وهو كثير كما بياني .

(١) هذه الأبواب ذكرها فخر الدين الرازي في كتاب الأربعين في المسألة الرابعة ،
في أن الله قديم أزلي ، بان ، سمردي . وهي في ص ٩٥ من كتاب الأربعين
وروايته : « قُلْتُمْ لَنَا صَانِعٌ حَكِيمٌ » ، ورواية لزوم مالا يلزم « لنا خالق
حكيم » ، وليس في كتاب الأربعين : « وقد هذى هذا في شعره » ، وإنما عد
هذه المسألة عقدة محيرة . ومن المنايق المضة الملية ، ولم يدفع اعتراض الحرري
بحجة واحدة فراجع إن شئت . ورواها البدعي في أوج التحري ص ٤٠ ،
وقل قول الرازي وقد هذى هذا في شعره (ج) .

(٢) به : ثم زعمت بلا زمان ولا مكان ألا تقولوا
هنا كلام له خبي مناه لبيت لنا عقول

ونقل عن ابن دقيق العيد أنه كان يقول في أبي الملا : « هو في حيوة »
ثم أورد قصة وزير محمود بن صالح ، والضيوف الحنين ، وأياتاً قبلت
في الرد عليه ، وذكر قوله (١) :

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ
لِنَمَّا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَالٍ
وقوله (٢) :

ضَحِكْنَا وَكَانَ الضُّحْكُ مَنَاسِفَةً
وجعل البيتين الأولين اعترافاً بالمعاد ، والبيتين الأخيرين إنكاراً له .
وقال : « وهذه الأشياء كثيرة في كلامه وهو تناقض » . وسنجد ما في
البيتين الأخيرين .

قصيدة الضيوف الحنين

قال سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) قال الغزالي (٣) : « حدثني

(١) تحريف القدماء بأبي الملا المنفحات ٢٧١ ، ٢٩١ ، ٣٣١ . وشروح سبط
الزند : ق ٣ ص ٩٧٨ وتكملة البيت :

أمة محبوبهم قدام

إلى دار شغوة أو رشاد

(٢) الروميات ص ١٨٢ وقام البيت :

وحق لكان البطة أن يكونا

تخطنا الأيام حتى كأننا

(٣) انظر الجبرل تحريف القدماء المنفحات ، ١٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٩٢ ، ٣٢٦ .

يوسف بن علي بأرض الهركار (١) ، قال : دخلت مرة النعمان وقد
وشى (٢) وزير محمود بن صالح ، صاحب حلب إليه ، بأن المعري زنديق ، لا يرى
إسناد الصورة . ويؤم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله
إليه من المرة الى حلب ، وبهت خمسين فارساً ليعملوه ، فأنزلهم أبو العلاء
دار الضيافة ، فدخل عليه معه مسلم بن سليمان ، وقال له : يا بن أخي قد
نزلت بنا هذه الحادثة ، الملك محمود يطلبك ، فإن متعتك عجزنا ، وإن
اسلناك كان عاراً علينا عند ذوي الذمام ، ويركب تنوخا (٣) العار والذلة !
فقال له : هون عليك [يا عم] فلا بأس علينا ، فلي سلطان يذب عني ، ثم
قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل ثم قال لغلामه (وقد سماه بعضهم قنبراً)
انظر أين الريح ؟ فقال : في منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه ، واضرب
تحت وتداً ، وشد في رجلي خيطاً ، واربط به إلى الوند . ففعل غلامه
ذلك ، فسمّاه وهو يقول : يا قديم الأزل ، يا علة العلل ، يا صانع المخلوقات
وموجد الموجودات . أنا في عزك الذي لا يرام ، وكفك الذي لا يضام ،
الضيوف الضيوف ! الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم وإذا بيده
عظيمة . فسأل عنها ، فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها ،

(١) حكنا وردت في سيرة الزمان ، وهكذا تملأ كل من عليها عنه ، ولم أجد
لفظ الهركار في معجم البلدان ، ولا في غيره مما لدي من المظان (ج) .

(٢) في تاريخ ابن الوردي . « اغرت به حساده وزير حلب فجهز لإحضاره عشرين
فارساً ليقتله فأنزلهم أبو العلاء في مجلس له بالمرّة ، فاجتمع بنو معه إليه .. »
وفي فوات الوفيات ج ١ ص ٢٣٣ ذكر وزيراً للمحمود بن صالح سماه أبا نصر
محمد بن الحسين ابن النحاس . وذكر ابن العديم أن أبا العلاء وضع كتاب شرح
خطبة أدب الكاتب لأبي الرضي سالم بن الحسن بن علي الحلبي وهو ابن أخت
الوزير أبي نصر محمد بن الحسن ابن النحاس الحلبي (ج) .

(٣) كذا في الأصل (ج) .

فقتلت الحمين . وعند طلوع الشمس ، دفعت بطاقة من حلب على جناح طائر ، لا تزجروا الشيخ ! فقد وقع الحتام على الوزبر .

قال يوسف بن علي : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعري ، فقال : من ابن أنت ؟ قلت : من أرض المراكر ، فقال : زمروا أني زنديق . ثم قال : اكتب ، وأملئ علي :

بَا تُنَوِّا وَحَتْفِي أَمَانِي مُصَوَّرَةٌ وَبِتُّ لَمْ يَخْطُرُوا مِنِّي عَلَى بَالٍ

ثم أورد بعد هذا البيت ثمانية أبيات آخر . وذكر قبل ذلك ثمانية أبيات .
اولها :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ^(١) فِي أَمْنِي وَأَوْجَالِي

ووصلها بقوله : « بَا تُنَوِّا وَحَتْفِي » وذكر بعده خمسة أبيات . وقد اثبتناها كما ذكرها الصفيدي في (الوافي بالوفيات) .

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي أَمْنِي وَأَوْجَالِي مِنْ غَفْلَتِي وَتَوَالِي سُوءِ أَعْمَالِي
قَالُوا هَرِمْتَ^(٢) وَلَمْ تَطْرُقْ تَهَامَةً فِي مُشَاةٍ وَفَدٍ وَلَا رُكْبَانٍ أَجْمَالٍ
فَقُلْتُ : إِنِّي ضَرِيرٌ وَالَّذِينَ لَهُمْ رَأْيٌ رَأَوْا غَيْرَ فَرَضِ حَجٍّ أَمْثَالِي^(٣)
مَا حَجَّ جَدِّي وَلَمْ يَحْجِجْ أَبِي وَأَخِي وَلَا ابْنُ عَمِّي وَلَمْ يَعْرِفْ مِنِّي خَالِي
وَحَجَّ عَنْهُمْ قَضَاءٌ بَعْدَ مَا ارْتَحَلُوا قَوْمٌ سَيَقْضُونَ عَنِّي بَعْدَ تَرْحَالِي

(١) والأبيات مما لم يروى في الديوانين ، انظر تعريف القدماء ص ٢٨١ عن الوافي .

(٢) في امرأة الزمان : « هدمت » (ج)

جا (٢٢)

(٣) في الأصل : « فرض الحج » (ج)

فَإِنْ يَفُوزُوا بِغُفْرَانٍ أَفْزَمَهُمْ أَوْلَا فَإِنِّي بِنَارٍ مِثْلَهُمْ صَالٍ
وَلَا أَرُومُ نَعِيمًا لَا يَكُونُ لَهُمْ فِيهِ نَصِيبٌ وَهُمْ زَهْطِي وَأَشْكَالِي
قَدْ لَأَسْرُ إِذَا حُمَّتْ مُحَاسِبَتِي أَمْ يَقْتَضِي الْحُكْمُ تَغْتَابِي وَتَسْأَلِي^(١)
مَنْ لِي بِرِضْوَانٍ أَذْعُوهُ فَيَرَحِمَنِي وَلَا أُنَادِي مَعَ الْكَفَّارِ أَمْثَالِي^(٢)
بَاتُوا وَحَتْفِي أَمَانِيهِمْ مُصَوَّرَةٌ وَبَتْ لَمْ يَخْطُرْ وَامْنِي عَلَى بَالٍ^(٣)
وَفَوْقُوا لِي سِهَامًا مِنْ سِهَامِهِمْ فَأَصْبَحْتَ وَقَعًا مَنِيَّ بِأَمِيلٍ
فَمَا ظَنُّوكَ إِذْ جُنْدِي مَلَائِكَةٌ وَجُنْدُهُمْ بَيْنَ طَوَافٍ وَبِقَالٍ
لَقِيْتَهُمْ بِقَصَا مُوسَى الَّتِي مَنَعَتْ فِرْعَوْنَ مُلْكًا وَنَجَّتْ آلَ إِسْرَافِ
أَقِيمْ خَمْسِي وَصُومُ الدَّهْرِ أَلْفُهُ وَادِمِنْ الذِّكْرَ أَتَبْكَارًا بِأَصَالٍ
عِيدِنِ أَفْطَارٍ مِنْ عَامِي إِذَا حَضَرَ عِيدَ الْأَضَاحِيِّ يَقْفُو عِيدَ شَوَالٍ

(١) فِي الْفُطْطِي : « تَنَانِي » (ج)

(٢) فِي الْفُطْطِي : « أَدْعُوهُ فَأَرْجُوهُ » وَلَهُ أَرْخُهُ مِنَ التَّرْخِيمِ أَيْ أَقُولُ لَهُ :
بَارِضُو وَقَدْ أَشَارَ إِلَى مِثْلِ هَذَا فِي رِسَالَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْفَرَّانِ وَفِيهِ : « مَعَ الْكَفَّارِ
يَأْمَالِ أَيْ يَأْمَالِكَ (ج)

(٣) وَفِي الْمَرَاةِ : « وَحَتْفِي أَمَانِي لِنَاكِيهِمْ » وَفِي سِرِّ الْعَالَمِينَ : « أَمَانِي لِنَيْتِهِمْ »
وَفِي الْمَرَاةِ بَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ :

قَالُوا وَهُمْ كَقِيُولٍ فِي كَتَاذِهِمْ وَلَا تَجْأَحَ لِأَقْيَالِهِ كَأَقْيَالِهِ
لَا تَهْتَفُتُ بِمُضَرِّ اللَّهِ أَيْدِي كَانَ خَصْرَتٌ يَجِيرُ بِلٍ وَمِكَالٍ
وَجَاءَ إِذْ ذَاكَ عَزْرَائِيلُ بِغَضَبٍ لِي فَيَبِضُ الرُّوحَ مِثْلَ ظُلْمٍ بِأَعْيَالِهِ (ج)

إِذَا تَنَافَسَتِ الْجُمَلُ فِي حُلَلٍ رَأَيْتَنِي مِنْ خَسِيسِ الْقَطَنِ سِرْبَالِي
لَا أَكُلُ الْحَيَوَانَ الدَّهْرَ مَأْتِرَةً أَخَافُ مِنْ سُوءِ أَعْمَالِي وَأَمَالِي
وَأَعْبُدُ اللَّهَ لَا أَرْجُو مَثُوبَتَهُ لَكِنْ تَعَبَّدُ إِكْرَامًا وَإِجْلَالًا^(١)
أُصَوِّ دِينِي عَنْ جُعَلٍ أَوْ مَلَّةٍ إِذَا تَعَبَّدُ أَقْوَامٌ بِأَجْعَالٍ
وهذا النص مذكور في كتاب (مر العالين وكشف ما في الدارين) وهو

يخالف ما هنا كثيراً في عباراته وفيه زيادة هذين البيتين :

وَكَيْفَ أَقْرَبُ طَعْمَ الشَّهْدِ وَهُوَ كَذَا غَضَبٌ لِمَكْسَبِ نَحْلِ ذَاتِ أَطْفَالٍ
نَهَيْتُهُمْ عَنْ حَرَامِ الشَّرْعِ كُلِّهِمْ وَيَأْمُرُونِي بِتَرْكِ الْمَنْزِلِ الْعَالِي

بعد قوله : « لَا آكُلُ الْحَيَوَانَ الدَّهْرَ » وقد نقل البديعي في (أوج
التحري ص ٣٤) هذه القصة بصورة مجملة ، ثم قال : « فالقائلون إنه
كان زنديقا ملحدا ، يقولون : إنه قُتِلَ الْوَزِيرُ وَالْحَمِيْنُ بِمَهْرِهِ وَرُصَدِهِ ،
وَالْقَائِلُونَ : إنه كان على غاية ما يكون من الدين والزهد ، يقولون :
قتلهم بدعائه ونهجه » .

ونقل هذه القصة عن سبط ابن الجوزي الصفي في (الوافي بالوفيات)
وفي (نكت المعبان) ورواها العيني في (عقد الجمان) ولم يذكر الأبيات .
ونقلها العباسي في (نزهة الجليس) عن كتاب (الأنباء في تاريخ الأطباء)
لابن أبي أصيبعة ، وذكر ستة أبيات أروها : « بانوا وحتى .. » ورواها
صاحب (نزهة الدهر) وصاحب (مسكر دان السلطان) . وذكرها

(١) في الرأية رواية ثانية : « بَارِكْ اللَّهُ لَا أَرْجُو ... » (ج) .

ابن الرودي بصورة مجملة . ورواها غير هؤلاء ، وفي الروايات تفاوت في الزيادة والنقص . وأكثرهم قالوا : إنَّ معه مسلم بن سليمان ، إلا صاحب (طبقات النحاة واللغويين) فإنه [ذكر] في (ص ١٧٨) [أن] معه مسلم ابن سليمان .

وقد أنكر صاحب (الذكري) هذه القصة ، فقال : « إنما تكذب ^(١) نفسها ، فإنَّ عم أبي العلاء مات قبل أبيه ، ولم يكن أبو العلاء يتحل السر ، ولا يعرف الطلسمات » . وأنكرها الميمني ^(٢) أيضاً واستدل على ذلك بأمر منها :

- ١ : أن أبا العلاء لم يكن يعلم من النجوم إلا ما يلزم المتأدب .
 - ٢ : أن قوله « بإقديم الأزل . . » لا يشبه كلام العربي .
 - ٣ : أن محموداً ابن شبل الدولة بن صالح لا ابن صالح .
 - ٤ : أن ولاية محمود حلب بعد وفاة العربي بثلاثة أعوام .
 - ٥ : أن هذه الحادثة على عظمها لم ينقلها أحد من بلدي أبي العلاء ، كأبي البسر ، وأبي غالب ، وابن العديم ، والقفطي ، ولا أحد من تلامذته .
- والاعتراض الأول والثاني والخامس ليس بمقتنع . لأننا لا نعلم حقيقة علم العربي بالنجوم ، ولا نستبعد أن يقول : « بإقديم الأزل » . لأن ذلك جرى على السنة بعض الحكماء من قبله ، وأنتا لم نطلع على جميع أخبار العربي ، ولا على تاريخ أبي غالب ، وابن العديم ، وإذا لم يذكرهما القفطي ونحوه ، فلا يلزم أن لا تكون معروفة عند غيره ، لأنَّ عدم ذكر الشيء لا يستلزم عدمه ، ولجواز أن يكون هؤلاء لم يطلعوا على ذلك أو اطلعوا عليه ولم يذكروه لعملة .

(١) ذكرى أبي العلاء ط ٢ ص ٢٠٧ - لطف حسين .

(٢) أبو العلاء وما إليه ص ٢٤٧ - ٢٥٠ .

على أن القفطي ذكر نحو عشرة أبيات من القصيدة ، بقي الاعتراض الثالث والرابع . ويمكن أن يقال أيضا : إن أسلوب الأبيات أدنى من أسلوب المعري في شعره ، فإنه لم يكن بكثير من معاني هذه القصيدة في مثل قوله (١) .

وَصَرُورَةٌ بِالْمُعْنَيْنِ لَأَنْنِي مَذْكُنتُ لَمْ أَحْجِجْ وَلَمْ أَنْزَوِجْ

. . .

وقوله (٢) .

أَنَا صَاتِمٌ طُولَ الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا فَطَرِي الْحَمَامُ وَيَوْمَ ذَلِكَ أَعِيدُ

. . .

وقوله (٣) .

يَا رِضْوَا لَا أَرْجُو لِقَاكَ بَلْ أَخَافُ لِقَاءَ مَالِكٍ

وفي أبياته التي تدل على عدم أكله الحيوان وما تولد منه ، وإن بين أسلوبه في هذه القصيدة ، وأسلوبه في غيرها ، فرقا ظاهرا ، من حيث قوة التأليف ، وطلاوة الديباجة ، وإحكام الرصف . وفي هذه القصيدة جل ركيكة لا يعرف مثلاً في شعر المعري ، مثل قوله : « غير فرض الحج أمثالي » وقوله : « عبدن أنظر في عامي . . »

وخلاصة القول : أن في هذه الحادثة مجالا واسعا للشك في صحتها ، لاسباب وقد ذكر فيها عم لأبي العلاء ، سمي مائلا أو سلا . ولم أر من

(١) اللزومات ص ٧٨ ونها : « في شبتين » والضرورة : في الاسلام ،

الذي لم يحج ، وفي الجاهلية . الذي لم يتزوج .

(٢) انظر ماسبق الصفحات : ٣٧٣ ، ٤٦٢ .

(٣) انظر ماسبق ص ٣٦٨ ورضو : ترخيم رضوان وهو خازن الجنة ومالك خازن النار

ذكره في أممائه . على أننا لا نعلم يلينا جميع أممائه ، وهذا لا يوجب أن لا يكون له عم مسمى بهذا الاسم . وإذا أريد تسويتها ، فمن الجائز أن يدم البيت على الضيف رجال أعدوا لذلك ، وينسب عمهم في الظاهر إلى مافله أبر العلاء ، كما يجوز أن يقع ذلك بطريق الاتفاق . ولكن وفور الختام على الوزير ، مع سقوط البيت على الضيف في وقت متقارب ، يزيدنا اعتقاداً في بعد ذلك عن الصحة .

وفال ابن الأنبر في تاريخه ^(١) (ج ٩ ص ٢٦٦) في ترجمته : « أكثر الناس يرمونه بالزندقة ، وفي شعره ما يدل على ذلك ، ونقل قوله للزويدي : « ما هجرت أحداً قط » . وقول القزويني له : هجوت الأنبياء ، فتغير وجهه ، وقال : « ما أخاف أحداً سراك » .

وقال ابن خلكان ^(٢) (ج ١ ص ٤١) بعد أن مدحه : « ومكث مدة خمس وأربعين سنة لا يأكل اللحم تدبناً ، لأنه كان يرى رأي الحكماء المتقدمين ، ولم لا يأكلونه ، كيلا يذبحوا الحيوان ، ففيه تعذيب له . ولم لا يرون الإيلام مطلقاً في جميع الحيوانات (. . . كذا) ، وأوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هذا جَنَاهُ أَبِي عَلِيٍّ

وهو أيضاً متعلق باعتقاد الحكماء ، فإنهم يقولون : إحياء الولد وإخراجه إلى هذا العالم جنابة عليه ، لأنه يتعرض للحوادث والآفات ، ثم ذكر الأبيات .

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرَقِّ الدِّمَاءَ زَهَادَةً

(١) انظر الكامل لابن الأنبر .

(٢) وبنات الأعيان .

وقال : وقد أشار في البيت الأول الى ما كان يعتقد ويندين به من عدم الذبح . . . وقد صرح أبو العلاء في (لزوم ما لا يلزم) بأن الراصد يجني على الولد .

وقال الدميري : . . . أحسن ما قيل فيه إنه في خيرة .

وقال أبو الحسن علي بن الحسن البخاري المتوفى سنة ٤٦٨ هـ في (دمية القصر ص ٥٠) : « أبو العلاء ضريب ، ماله في أنواع الأدب ضريب ، ومكثوف في قبص الفضل ملفوف . وعجرب ، خصه الألد بحجوج . وقد طال في ظلال الاسلام آناؤه . ولكن ربما يترشح بالالحاد إناؤه . وعندنا خبر بصره ، والله أعلم ببصيرته ، والمطلع على سريره . وإنما تحدثت الآن بلسانه ، لكتابه الذي زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنوانه بالفصول والغايات . وعجدة السور والآيات ، وأظهر من نفسه تلك الحياة ، وجذ تلك المهرسات كما يجذ العنبر الصليانة (١) . حتى قال القاضي أبو جعفر قصيدة أولها :

كَلَبَّ عَوَى بِمَعَرَةِ النُّعْمَانِ لِمَا خَلَا عَنْ رِبْقَةِ الْإِيمَانِ
أَمَعَرَةَ النُّعْمَانِ مَا أَنْجَبَتْ إِذْ أَخْرَجَتْ مِنْكَ مَعَرَةَ الْعُمَانِ

وذكر أنه لم يجد في ديوانه الذي سماه (سقط الزند) ما يصلح لكتابه ، فرجع الى تعليقاته ، ففكر بما أنشده الشيخ اسماعيل الصابوني عن أبي العلاء وذكر ثلاثة أبيات من (لزوم ما لا يلزم) وستة وعشرين بيتاً من (سقط الزند) . ولا أعلم كيف استعنها بعد أن لم يجد في

(١) الصليانة : بكسر الصاد وتشديد اللام المذكورة ، ضرب من البت ينبت صفاً وأضخه أعجازه وأصوله ، فأنما كدسه البر فيه اجت من أصله .

السطح ما يصلح لكتابه . والظاهر أنه لم يعلم قيمتها الأدبية ، حتى أرشده إليها الصابوني .

وقال في ترجمة حمد بن فورجة : « وشعره فرخ شعر الأسمى ، أعني شاعر معرفة النعمان ، وإن كان هذا الفاضل منزهاً عن معرفة العميان » . وقال ابن الجوزي ^(١) في تاريخه : « زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندي ^(٢) ، والتوحيدي ^(٣) ، وأبو العلاء المعري . وشرم على الاسلام التوحيدي ، لأنها صرحا ، وهو 'مُجَحِّمٌ' ولم يصرح » .

وقال في (تلبس إبليس) : ^(٤) « ومن زنادقة الاسلام ، من لم يبرح على نعمته ، ففاته الدنيا والآخرة ، مثل ابن الراوندي والمعري . . وأما أبو العلاء ، فأشعاره ظاهرة الاتحاد ، وكان يببالغ في عداوة الأنبياء ،

(١) ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المروفي بابن الجوزي ، نبة إلى علة بالبصرة ، يقال لها : علة الجوزة . شاعر واعظ له تصانيف كثيرة ، منها (التنظيم في أخبار الأمم) درج فيه على طريقة ابن جرير انتهى فيه إلى سنة ٥٧٤ هـ . ولد سنة ٥١٠ هـ . وتوفي سنة ٥٩٧ هـ (ج)

(٢) هو أحمد بن يحيى الراوندي النكلم ، منسوب إلى راوند ، وقد ضبطت في الأسباب وباقوت ، والوفيات ، والبداية ، بألف بد الرا . وابن الجوزي رسمه الربوندي بالياء بد الرا . وفرق باقوت بينها ، فجعل راوند من نواحي فاسان ، وروند ناحية بنسبور وابن خلكان جعل البلدين بألف بد الرا . واختلف في وفاته من سنة ٥٢٤ هـ إلى سنة ٥٣٠ هـ (ج) .

(٣) أبو حيان علي بن عماد التوحيدي ، متصوف معتزلي فيلوف له تأليف كثيرة منها القباب ، والبصائر والذخائر ، والامتناع والمؤانسة ، وغيرها ، ولما اهلته به الأيام رأى أن كتبه لا تغني ، وضم إليها على من لم يعرف قدرها ، فأحرقها ولم

يسلم منها إلا ما نقل عنه ، بل الإحراق . توفي نحو سنة ٤٠٠ هـ (ج) .

(٤) تلبس إبليس لابن الجوزي ص ١١٢ طبعة مطبعة النهضة بصر .

ولم يزل متخبطاً في تعثره ، خائفاً من القتل الى ان مات بخسرانه .
 وقال في ترجمته في (المنتظم) : « وكانت أحواله تدل على اختلاف
 عقيدته » . ثم حكى قوله للتبريزي : « وهكذا شُبِّخك » حين قال له :
 ما أنا إلا شاك . ثم قال : « وكان ظاهر أمره يدل على أنه يميل الى
 مذهب البراهمة ، فإنهم لا يرون ذبح الجوان . ، ويجحدون الرسل . وقد
 رماء جماعة من العلماء بالزندقة والالحاد ، وذلك أمره ظاهر في كلامه
 وأشماره . وأنه يرد على الرسل ويعيب الشرائع ويجحد البعث . ونقل
 من خط [أبي] الوفاء ابن عقيل (١) أنه قال : من العجائب ان العمري
 أظهر ما أظهر من الكفر البارد الذي لا يبالغ منه مبلغ شبهات الملحدين ،
 بل قصر فيه كل التقصير ، وسقط من عبون الكل ، ثم اعتذر بأن لقوله
 باطنياً ، وأنه مسلم في الباطن ، فلا عقل له ولا دين لأنه تظاهر بالكفر .
 وزعم أنه مسلم في الباطن ، وهذا عكس فضايا المنافقين والزنادقة ،
 حيث تظاهروا بالاسلام وأبطنوا الكفر . . . » . ثم قال : « قال المصنف
 (ابن الجوزي) : وقد رأيت للعمري كتاباً سماه (الفصول والغايات)
 يعارض به السور والآيات ، وهو كلام في نهاية الركة والبرودة ، فجحان
 من أمي بصره وبصيرته » . ثم أورد جملة منه ، وقال : « وكلته على هذا
 النمط البارد » .

وقال ياقوت في (إرشاد الأريب ج ١ ص ١٧٧) : « انه قرأ بخط
 عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الحفاجي (٢) في كتاب له : ان جماعة

(١) هو علي بن عقيل الشيباني البغدادي ولد سنة ٤٢١ هـ وتوفي سنة ٥١٣ هـ
 وله مشاركة في كثير من العلوم ، وأخباره في الكامل والتنظم والبداهة (ج) .

(٢) كان يرى رأي الشيعة ، وتوفي غيلة سنة ٤٦٦ هـ فوات الوفيات ج ١ ص

نظروا على أسلوب القرآن . وأظهر ذلك قوم ، وأخفاء آخرون . وبما ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه : أقسم بخالق الحبل . والربيع الهابة بين الشترط ومطلع مهبل . ان الكافر لطويل الويل
وهذه القطعة من كلامه في (الفصول والغايات ج ١ ص ٢٥٢) وقد تقدم الكلام فيه وسأني تتمه .

وقال ياقوت (ج ١ ص ٢٣٤) في ترجمة الوجيه بن الدهان : « حضر الوجيه النحوي بدار الكتب ، التي برهاط المأمونية ، وخازنهما يوشع أبو المعالي أحمد بن هبة الله ، فجرى حديث المعري ، فذمه الخازن . وقال : كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيف فضله . فقال له الوجيه : وأي شيء كان هذا الكتاب ؟ قال : كان نقض القرآن ، فقال له : أخطأت في غسله ، فعجب الجماعة منه ، وتغامزوا عليه واستشاط ابن هبة الله ، وقال له : مثلك ينهى عن مثل هذا ؟ ، قال : نعم ، لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن ، أو خيراً منه أو دونه ، فإن كان مثله أو خيراً منه ، وحاشى له أن يكون ذلك ، فلا يجب أن يفرط في مثله ، وإن كان دونه ، وذلك مما لا شك فيه ، فتركه معجزة للقرآن ، فلا يجب التفريط فيه ، فاستحسن الجماعة قوله ، ووافق ابن هبة الله على الحق وسكت . »

وقال ياقوت (ص ١٧٨) (١) : « والناس في أبي العلاء مختلفون ، فمنهم من يقول : إنه كان زنديقا ، وينسبون اليه أشياء مما ذكرنا . ومنهم من يقول : انه كان زاهداً عابداً ، متقللاً يأخذ نفسه بالرياضة والحشونة ، والفناء بالبسر ، والإعراض عن أعراض الدنيا . »
وقال (ص ١٧٠) (١) : « وكان منها في دينه ، يرى رأي البراهمة ، لا يرى إفاد الصورة ، ولا يأكل لحماً ، ولا يؤمن بالرسل والبعث والنشور . »

(١) الجزء الأول من إرشاد الأريب الى معرفة الأديب .

ثم قال : « وقد أوردنا من شعره ما يستدل به على سوء معتقده ،
ويجبرك بنعته ومستنده ، وحدثت غرس النعمة أبو الحسن الهادي : أنه
بقي خساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم ولا البيض ، ويجرم إبلام الحيوان ،
ويقتصر على ما تنبت الأرض ، ويلبس خشن الثياب ، ويظهر دوام
الصوم » . ثم نقل ما دار بينه وبين المازي ، وقوله للتبريزي : « وهكذا
شيخك » . ثم أورد له آياتاً تدل على سوء عقيدته من (لزوم ما لا يلزم)
منها أربعة آيات أولها : (١)

أَلَا فَانْعَمُوا وَاحْذَرُوا فِي الْحَيَاةِ مُلِمًا يُسَمَّى مَزِيلَ النِّعَمِ
وأربعة أخرى يقول فيها : (٢)

دَعَا مُوسَى وَزَالَ وَقَامَ عِيسَى
وَجَاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلَاةٍ خَمْسِ

(١) والآيات الثلاثة الأخر :

أنوكم بأقوالهم والحسام فتدّ به زاعم مازنم
تلوا باطلاً وجلوا صارماً وقالوا صدقنا قلنا نعم
زخارف ما تبنت في القلوب ب عتّى عليكم حين المم
انظر تعريف القدماء بأبي اللاه من ١١٢ ، والزوماني من ٢٥٨ وفيها :
« أنوكم بأقوالهم . . . »

(٢) أولها :

قد طال الساء فكم تمانى سطوراً عاد كاتنها بطرس

. . .

والثالث والرابع :

وقبل يجيء دين غير هذا فأودى الناس بين غد وأمس

. . .

إذا فلت المحال رفعت صوتي وإن فلت البقن أطلت همي

انظر تعريف القدماء بأبي اللاه من ١١٢ ، والزوماني من ٣٠١ .

واربعة أخرى أولها : (١)

وَجَدْتُ الشَّرْعَ تُخْلِقُهُ اللَّيَالِي كَمَا خَلَقَ الرَّدَاءُ الشَّرْعِيَّ

وقوله : (٢)

إِذَا مَا ذَكَّرْنَا آدَمًا وَفَعَّالَهُ وَتَزْوِيجَهُ بِنَتْنِهِ لَا بِنَتْنِهِ فِي الدُّنَا
عَلِمْنَا بِأَنَّ الْخَلْقَ مِنْ أَصْلِ رَيْبَةٍ وَأَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ عُصْرِ الزَّانَا

ثم أورد أبياتا خمسة ، قالها رجل من عهود خير ، يعرف بسمي بن
ادكن ، لما أجلى ممر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب أولها : (٣)

(١) وقامها :

ممي العادات يجري الشيع منها على شيم نمودها الصبي

* * *

وأشوى الحق غاور مشرق ولم يرزقه آخر مغرب

فنا عمر يمول وذا سواء كلا الرجلين في الدعوى غبي

تعريف القدماء بأبي اللؤلؤ س ١١٣ ، والزيويات س ٣٤٣ ، وفيها :

« وذا علي » .

(٢) الأيات مما لم يرو في الديوانين ، أنظر فائت شعر أبي اللؤلؤ جمع البني

س ١٣ - ١٤ وفيها : « في الحنى » .

(٣) تمام الأيات :

مكاثك لا تنفع حولة ما قطر لنشبع إن الزاد شيء محب

فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتم علينا ولكن دولة ثم تذهب

ولنحسبناكم إلى البن فامرؤوا نار تبة البادي الذي هو أكفب

مشيت على آثارنا في طريقنا وبيتكم في أن تسودوا وترهبوا

انظر رسالة النضران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٧٧ ، وتعريف القدماء بأبي اللؤلؤ

س ١١٣ - ١١٤ .

يَصُولُ أَبُو حَفْصٍ عَلَيْنًا بِدِرَّةٍ رُوِيَ بِكَ إِنَّ الْمَرْءَ يَطْفُو وَيَرْحُبُ

ثم قال ياقوت بعد ذكرها : « وهذا يشبه ان يكون شعره قد نخله هذا اليهودي ، أو أن إirاده لثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته ، وفتح مذهبه » . ثم أورد أبياتا تدل على سوء اعتقاده منها قوله : (١)

يَدٌ بِخَمْسٍ مِثْلِينَ عَسَجَدٍ قُدَيْتَ مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعٍ دِينَارٍ

ثم قال ياقوت : « كان المعري حاراً لا يقدر شيئاً ، وإلا فالمراد بهذا بيتن ، لو كانت اليد لا تقطع إلا في مرقعة خمسمائة دينار ، لكفر مرقعة ما دونها طمعاً في النجاة ، ولو كانت اليد تقضى برقع دينار ، لكفر من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية » .

وبعد أن أورد كثيراً من الأبيات الدالة على كفره وتصريحاً ، قال : « نقلت هذا كله من (تاريخ غرس النعمة) (٢) » . ثم قال : « قرأت في كتاب (فلك المعاني) (٣) أن كثيراً من الجهال يعد الموت ظمأ من الباري ويستبجه بما فيه من النعمة والحكمة والراحة والصلحة . وقد

(١) هما بيتان في الترويات ص ١٥٢ وأولهما :

تناقض ما لنا إلا الكوث له وأن نرد ببولانا من النار

انظر تعريف القضا بأبي اللاه ص ١١٥ .

(٢) هو أبو الحسن محمد بن هلال بن الحسن بن إبراهيم الصابي الملقب بغرس النعمة ، له ذيل على تاريخ والده ، الذي هو ذيل على تاريخ ثابت بن سنان الذي هو ذيل على تاريخ ابن جرير ، وتوفي غرس النعمة سنة ٤٨٠ هـ (ج) .

(٣) فلك المعاني لأبي يعلى محمد بن محمد بن صالح اللخروج بابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٩ هـ ربه على أبيه عمر بابا على ترتيب البروج (ج) .

قال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ، مع تحذله ، ودعواه الطويلة العريضة ، وشهرة نفه بالحكمة ، ومظاهرتة :

وَتَمَيَّنْتَ عَنْ قَتْلِ النَّفُوسِ تَعَمُّدًا وَبَعَثْتَ أَنْتَ لِقَتْلِمَا مَلَكَيْنِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ لِمَا مَعَادًا ثَانِيًا مَا كَانَ أَغْنَاهَا عَنِ الْحَالَيْنِ^(١)

وهذا كلام مجنون معتوه ، يعتقد أن القتل كالإثبات ، والموت كالقتل ، فليت هذا الجاهل لما حرم الشرع ويرده ، والحق وحلارته ، والهدى ونوره ، واليقين وراحته ، لم يدع ما هو يري منه بعيد عنه ولم يقل :
عَدَوْتُ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ فَالْقَنِي لِتُخْبِرَ أَنْبَاءَ الْعُقُولِ الصَّحَائِحِ^(٢)
حتى سلط الله عليه أبا نصر بن أبي عمران ، داعي الدعاة بمصر ، فقال له : أنا ذلك المريض رأيا وغلا ، وقد أتيتك مستشفيا فاشفني . وجرت بينهما مكاتبات كثيرة ، أمر في آخرها بإحضاره حلب ، ووعدته على الإسلام خيرا من بيت المال ، فلما علم أبو العلاء أنه يحبل للقتل أو الإسلام مع نفه ومات

(١) البتان مما لم يرو في الديوانين ، وهما من آيات ثلاثة أولها :

صرف الزمان مفرق الالفين

فاحكم الهي بين ذاك وبينى

انظر إرشاد الأريب - لياقوت ١/١٩٢ ، وتاريخ الإسلام الذهبي ص ١٣١

ونكت الهبان - ص ١٠٦

(٢) مكنا رواه لياقوت ١/١٩٤ ، (ج) وفي اللزومات ه ص ٨٤ :

غدوت مريض العقل والدين فالقني

لنسم أنباء الأمور الصحائح

وقال ياقوت في (معجم البلدان) في الكلام على اللفظة : وقال
المعري الماحد : اللفظة فتنة . . . وقد تقدم .

وقال أبو الفداء في (تاريخه ج ٢ ص ١٧٦) : وثبت عنه [أي
عن أبي العلاء] أشعار وأقوال علم بها فساد عقيدته ، ونسب إلى
التنذهب بمذهب الهند ، وتركه أكل اللحم خماً وأربعين سنة ، وكذلك
البيض والابن ، وكان يحرم إبلام الحيوان . وله مصنفات كثيرة أكثرها
ركيكة (كذا) فهجرت لذلك ، وكان يظهر الكفر ، ويزعم أن لقوله
باطناً ، وأنه مسلم في الباطن . فن شعره المأذون بفساد عقيدته قوله :

عَجِبْتُ لِكِسْرَى وَأَشْيَاعِهِ وَغَسَلَ الْوُجُوهَ بِبَوْلِ الْبَقَرِ
وَقَوْلِ النَّصَارَى إِلَهَ يُضَامُ وَيُظْلَمُ حَيًّا وَلَا يُنْتَصَرُ
وَقَوْلِ الْيَهُودِ إِلَهَ يُحِبُّ رَسِيسَ الدَّمَاءِ وَرِيحَ الْقَتْرِ
وَقَوْمِ أَتَوْا مِنْ أَقْصَى الْبِلَادِ لِرَمِي الْجَمَارِ وَلَثَمِ الْحَجَرِ
فَوَا عَجَبًا مِنْ مَقَالَتِهِمْ أَبْغَى عَنِ الْحَقِّ كُلِّ الْبَشَرِ
ومن ذلك قوله :

زَعَمُوا أَنَّنِي سَأُبْعَثُ حَيًّا بَدَدَ طُولِ الْمَقَامِ فِي الْأَرْوَاسِ
وَأُجُوزُ الْجَنَانَ أَرْتَعُ فِيهَا بَيْنَ حَوْرٍ وَوَلَدَمِ الْكَيْسِ
أَيُّ شَيْءٍ أَصَابَ عَقْلَكَ يَا مَنْ كُنْتُ حَتَّى رُمِيتَ بِالْوَسْوَاسِ

ومن ذلك قوله :

أَتَى عِيسَى قَبْطَلَ شَرْعَ مُوسَى وَجَاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلَاةٍ خَفِيسٍ
وَقَالُوا لَا نَبِيَّ بَعْدَ هَذَا فَضَّلَ الْقَوْمُ بَيْنَ غَدٍّ وَأَمْسٍ
إلى آخر الآيات الأربعة .

ومن ذلك قوله :

تَاهَ النَّصَارَى وَالْحَنِيفَةُ مَا هَتَدَتْ وَيَهُودُ هَطَرَى^(١) وَالْمَجُوسُ مُضَلَّلَه
قَسَمَ الْوَرَى قَسَمِينَ هَذَا عَاقِلٌ لَا دِينَ فِيهِ وَدَيْنٌ لَا عَقْلَ لَهُ

وقال ياقوت (ج ٥ ص ١٣٢ من إرشاد الأريب) إنه « قال
أبا الحسن علي بن الحسن بن غنتر بن ثابت المعروف بشيم الحلبي النعمري
القفوي المتوفى سنة ٦٠١ هـ ممن تقدم من العلماء ، فلم يحسن الثناء على
أحد منهم ، فلما ذكرت له العمري نهرني وقال لي : وبلك كم تسيء الأدب
بين يدي ، فمن ذلك الكلب الأعمى حتى يذكر بين يدي في مجلسي ؟ » .
وذكر في (ص ١٢٨) في جملة كتب شيم كتاب (الإشارات المعربة)
بجلد ولم يبين ما هو ، وترجمته في (ياقوت ج ٥ ص ١٢٩)
و (البنية ص ٣٢٣) .

(١) كذا في الأصل ، وفي الديوان : « ويهود حارت » .
وقال : هطر الكلب إذا قتل أو هبجه بالخشبة . وهاطرى : يسكون الطاء .
قرية بسر من رأى كان أكثر أهلها اليهود (ج)

ما ألفه العلماء في مدحه والانتصار له ، أو في ذمه والنيل منه :

بقيين ، قدمناه وما سنذكره ، أن أبا العلاء شغل الناس حباً ومبتاً .
وقد اختلفت كلمة القوم فيه ، فذهب فريق منهم إلى العز في دينه ،
وسرد ما تورمه من العقائد الزائفة في كلامه ، واستنتاج ما يؤدي إلى
إلحاده ، وتوجيه بعض كلامه إلى ما يوجب الحكم بزندقته ولو بغروب
من التأويل والتكلف . وذهب فريق آخر إلى تبرئته من كل ما يورم
الزبغ في عقيدته ، وتأويل المذهب من كلامه . وفريق حار في أمره
فنسب إلى الحيرة . وفريق رابع توقف في الحكم عليه . وقد ألف جماعة
فيه كتباً ورسائل في مدحه والانتصار له . وألف آخرون في تكفيره
والطعن فيه

الكتب المؤلفة في دفع الطعنة والنظم عنه

أظن أن الكتب التي وضعت للدفاع عنه كثيرة ، ولكن ما وصل
إلينا منها قليل ، منها :

كتاب دفع المعرة عن شيخ المعرة :

ولم يساعنا الدهر بالاطلاع على هذا الكتاب ، ولا عرفنا مؤلفه ،
ولا السبب الذي حمى على تأليفه ، وإنما ذكره ابن الودي في (تاريخ
ج ١ ص ٣٦٠) حيث قال : وصنف بعض الأعلام في مناقبه [أي
أبي العلاء] كتاباً سماه (دفع المعرة عن شيخ المعرة) ، وذكر أن فيه
فصلاً من نوادر ذكائه ، وإجابة دعائه والاعتذار عن طعن أعدائه .

ومنها كتاب وضعه أبو طاهر الحافظ السلفي ، أحمد بن محمد بن أحمد
ابن سلفه الأصمباني ، صدر الدين المتوفى سنة ٥٧٦ هـ . وهو تنفيذ أبي
جا (٢٤)

زكريا التبريزي ، تلميذ أبي العلاء . وهذا الكتاب لم نقف عليه ، وإنما ذكره ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٦١) قال : « ووضع أبو طاهر الحافظ السلفي كتاباً في أخبار أبي العلاء وقال فيه مسنداً عن القاضي أبي الطيب الطبري [رحمه الله] كتبت إلى أبي العلاء المعري حين وافي ببلاد ... »

وما ذَاتُ دَرٍّ لَا يَحِلُّ لِحَالِبٍ تَنَاوُلُهُ وَاللَّحْمُ مِنْهَا مُحَلَّلٌ».

وقد تقدمت الأبيات وجرامها . وكذلك ابن خلكان (ج ١ ص ٢٩٢) روى هذه الأبيات وعزاها إلى الجزء الذي وضعه أبو طاهر السلفي في أخبار أبي العلاء . وأكثر من كتب في أبي العلاء نقل عن السلفي ، كالصفي ، و (معاهد التنقيص) و (لسان الميزان) والذهبي وغيرهم .

ومنها كتاب وضعه صاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن

هبة الله بن أبي جراحة النقيبي الحلبي المتوفى سنة ٦٦٦ هـ المعروف بابن

القديم وسماه: (العدل والتجوي في دفع الظلم والتجوي) عن أبي العلاء المعري

كما ذكره ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٥١) وسماه الصفي في (نكت افيان ص ١٠٥) : «التجوي في دفع التجري عن أبي العلاء المعري وفي (ص ١٠٩) دفع التجري . وسماه في (الوافي بالوفيت) : «دفع التجري على أبي العلاء المعري .»

(١) ثم أُر من سهل نطق التجري ، أن «تجري» واشتهر أن قلب الضمة كسرة انما يكون في النمل لا في المهور ، ولا في الصبح ، ولكنه عد الحريري في (درة القواس) : «الباطي والتوضي واليوي والتيزي» من أوهام الخواص ، وجعل السواب : «الباطي والتوضي والتيزي» ، خامل (ج) .

وقد اطلعت على قطعة من هذا الكتاب عثر عليها في مدينة حلب ، وفي مقدمته يقول مؤلفه : « وسميت كتاب الإنصاف والتعري في دفع الظلم والتعجري عن أبي العلاء المعري » . وقلت كثيراً منها في هذا الكتاب وفي (تاريخ المارة) وأكثر من كتب في أبي العلاء استمد منه وعمل عليه ، وقد قال ابن الرردي : « قال ابن العديم في (العدل) إنه اعتبر من ذم أبا العلاء ومن سده فوجد كل من ذمه لم يره ولا صاحبه ، ووجد كل من لقيه هو المادح » . ومنها كتاب المجتلى بأخبار أبي العلاء :

وضع الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الشافعي ، المشهور بابن أبي عذبية المولود في القدس ، والتوفى فيها سنة ٨٥٦ هـ . قال في كتابه (دول الأعيان) ، شرح قصيدة نظم الجمان ، في ذكر من سلف من أهل الزمان في ترجمة أبي العلاء (ج ٤ ص ١٢) :

« أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري الأعمى » . ثم ذكر صهره وصاه وما يعرفه من الزلوان ثم قال : « وكان عالماً شاعراً لغوياً ، آية من الآيات ، وشعره في غاية الرفقة والانسجام ، إليه التوبة . . . وذكر عنه أقوالاً وأشعاراً يدل ظاهرها على فساد عقيدته ، ثم نقل قول ابن دقيق العيد أنه في حيرة ، وقول الذهبي أنه مات متحيراً ، ثم قال : « ويقال إنه كان يرجع لمذهب الخنود البرهمية » . ثم قال : « وله مصنفات كثيرة ، وأشعار جيدة مشهورة ، لولا ما شأنا .. » ثم قال : « وقد ذكرته في مصنف مفرد ، وذكرت أشعاره وما فيها ، وكثيراً من أقواله وسميته المجتلى بأخبار أبي العلاء .. » (١) .

(١) انظر مجلة المجمع العلمي في دمشق ج ٢ مجلد ٢١ ص ٣١٤ (ج) .

ومنها كتاب اسمه أوج التحري عن حبيثة المعري :

للشيخ يوسف البديعي المتوفى نحو سنة ١٠٧٣ هـ ، وقد اطلعت على هذا الكتاب في المكتبة الظاهرية في دمشق . ونسخته خطية مؤرخة في سنة ١٠٥٤ هـ ، ونقلت عنه شيئا . ثم لما طبع في دمشق سنة ١٢٦٣ هـ ١٩٤٤ م صدرته بمقدمة بينت فيها قيمة هذا الكتاب وخصائصه .

* * *

الكتب والرسائل التي ألّفت في الطمع فيه أو الرد عليه

منها كتاب نصر الأعيان على شعر العميان :

لابن الوزير الباني ، صاحب (إشار الحق على الخلق) وضعه في التنفير من شعر أبي العلاء .
ومنها وجهة الغفويت :

وضعه أبو منصور الكاتب عبد الله بن سعيد بن مهدي الخوافي المتوفى سنة ٥٤٨٠ هـ . رد فيه على المعري (١) .

ومنها كتاب الاشارات المعوبة :

لشيخ وقد تقدم ذكره .

ومنها كتاب الصلة القارح :

ذكر باقوت في (ج ٦ ص ٢٤٦) في ترجمة محمد بن احمد الابوردي أن من جملة تصانيفه كتاب الصلة القارح ، رد فيه على المعري سقط الزند .

(١) البنية ٢٨٢ (ج) .

ومنها كتاب المطاول :

ذكر السيوطي في (البقية ص ٧٩) في ترجمة محمد بن علي بن المفضل اللامفاز الحلي أن له كتاب المطاول في الرد على الماري في مواضع منها .

. . .

كتب المؤلفين في أبي العلاء الجامعة بين ما قبل فيه ممدأ وزمأ

ذكرى أبي العلاء :

هذا كتاب وضعه الدكتور طه حسين ، أديب مصر في سنة ١٩١٤ م وقدمه إلى الجامعة المصرية ، وقال به إجازة عالية . وقد نجح فيه المنهج الحديث الذي نهجه علماء الغرب في دراسة آدابهم وأدبائهم . وهو أفضل ما رأيت من الكتب التي تشتمل على دراسة أبي العلاء ، وأحدثها نقسباً وترتيباً للباحث ، وأجمعها للنواحي التي نجح دراستها من آثار الأديب ، وأكثرها استنباطاً للأحكام من كلام الشاعر والنثر . وقد جعل درس أبي العلاء في هذا الكتاب درسا لعصره . واستنبط حياته بما أحاط به من المثرات . واتخذ شخصية أبي العلاء مصدراً من مصادر البحث ، بعد أن وصل إلى تعيينها وتحقيقها .

والكتاب لا يخرج من أمور تنتقد على صاحبه ، منها : استنباطه من كلام أبي العلاء ، أحكاماً لا يدل عليها ذلك الكلام . ومنها بناؤه أحكاماً على شبهة وامية ، ومنها أنه إذا اعتقد في أبي العلاء شيئاً ، حاول أن يوجه كل كلامه إلى ذلك الشيء ، وقد يظهر أثر التكلف في ذلك . ونحو هذا من الأمور ، وقد بينا طرفاً منها في كتابنا هذا كما رأيت وكما ستري . وقد ذكر مؤلفه في مقدمة (تجديد ص ٤) أنه « ما زال ينتظر نقد الناقد المحلل ، لا يدعو إلى نده ، إلا حب العلم والرغبة في

الإصلاح . ولعله يجد فيها كتباً ما ينتظره ، لأننا لا نريد فيها كتباً
إلا الإصلاح ، وإمالة الشام عن وجه الحقيقة .

والكتاب على ما فيه خير كتاب أخرج للناس في أبي العلاء . وقد طبع في
مصر ، ثم أعاد مؤلفه طبعه وسماه (تجديد ذكرى أبي العلاء) ولم يزد
على الكتاب السابق شيئاً يذكر .

أبو العلاء وما إليه :

وهو كتاب وضعه الأستاذ عبد العزيز الميحي الراجكوتي الهندي ،
رُطبِعَ في القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ . تولى فيه تصحيح ما في كتاب
(ذكرى أبي العلاء) المتقدم ذكره . وما في مقدمة (رسائل أبي العلاء)
للأستاذ مرجليوث .

وهذا الكتاب أجمع كتاب ألف في أبي العلاء . فقد أفاض في الكلام
على بلد أبي العلاء وبنائهما ، وفي زبده وترجمة حياته ، ورحلاته ومعارفه
في بغداد وغيرها ، ومن عاصره من الملوك . ومفكراته عندهم وعند العلماء
والعظماء . وما قبل فيه حياً وميتاً ، وما تركه من الآثار الأدبية
والعلمية ، وفي معتقده . وذكر طائفة من أسماءه التي لم يذكر معظمها
في ديوانه .

ويمكن أن يقال : إنه حشر في كتابه هذا كل ما علمه مما له علاقة
بأبي العلاء ، واستفرغ مجهوده في الجمع والبحث والتعقيق ، ولم يحل
كتاباً مما ينقد عليه ، وقد بينا جملة منه في كتابنا هذا .

ولا أنكر أن هذين الكتابين (ذكرى أبي العلاء) . و (أبو العلاء وما
إليه) هما أفضل ما رأيته مما كتب في أبي العلاء . وقد اقتبست منها
فوائد جمة في كتابي هذا .

الذين ردوا عليه بعض أقواله وهجره نظراً

منهم: أبو رشاد أحمد بن محمد بن القاسم المنقب بندي الفضال الاخشيكي

(وأخشيكت بالشاء والشاء مدينة من فوغانة) المتوفي سنة ٥٢٨ هـ .

له كتاب (زوائد في شرح سقط الزند) قال ياقوت (١) : « د فرات في ديوان شعره بخطه أنشدت لأبي العلاء .

هَفَّتِ الْحَنِيْفَةُ وَالنَّصَارَى مَا هَتَدَتْ » (٢)

البيتين قلت مجبياً له :

الدِّينَ أَخَذَهُ وَتَارِكُهُ لَمْ يَخْفَ رُشْدُهُمَا وَعَيْبُهُمَا (٣)
رَجُلَانِ أَهْلُ الْأَرْضِ قُلْتُ فَقُلْ يَا شَيْخَ سُوْدِ أَنْتَ أَيُّهُمَا

والبيتان المذكوران . في (نكت المديان) ، و (معاهد التنصيص) .
وفي (بغية الرعاة) : « وتوفي سنة ٥٢٦ هـ ومنهم .

(١) لرشاد الأريب الى معرفة الأديب ج ٢ ص ١١١ .

(٢) تمام البيت .

ويجد حارث والمجوس مضلة

انسان أهل الأرض ذر عقل بلا دين وآخسر دّين لا عقل له
وهما من لزومة مطلبها :

إن ملأت أنوامكم فقلوبكم وهوكم دون الحقوف مهلك
انظر اللزومات هـ ص ٢٠٦ .

(٣) انظر تعريف للضماء بأن الحلاء الضمعات : ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٣١٣ .

القاضي أبو محمد الحسن بن أبي عقابة اليمني :

رد عليه بينه :

إِذَا مَا ذَكَرْنَا آدَمًا وَفَعَالَهُ وَتَزْوِيجَهُ بِنْتَيْهِ لَا بَنِيهِ فِي الْحَنَاءِ^(١)

البيتين ، وأجابه بقوله (٢) :

لَعَمْرُكَ، أَمَّا فِيكَ فَالْقَوْلُ صَادِقٌ وَتَكْذِيبُ الْبَاقِينَ مَنْ شَطَأَ أَوْ دَنَا

كَذَلِكَ إِقْرَارُ الْفَتَى لَا زِمَ لَهُ وَفِي غَيْرِهِ لَعْنٌ كَذَا جَاءَ شَرْعُنَا

ويردئ البيتان الأولان :

وَتَزْوِيجَهُ ابْنَيْهِ بِبَنِيهِ

ويردئ :

عَلِمْنَا بِأَنَّ الْخَلْقَ مِنْ أَصْلِ رِيَّةٍ

ويردئ الأخيران : لعمرى أما . .

ومهم :

محمد بن عتيق أبي بكر بن أبي نصر النيمي انقرواي المعروف بابن أبي

كديبة المتوفى سنة ٥١٢ هـ .

قدم الشام مجتازاً ، فسمع قائلا ينشد قول أبي العلاء :

(١) ثاني البيتين :

علمنا بأن الخلق من أصل رية وأن جميع الناس من عنصر الزنى

أنظر مجمع الأدباء ج ١ ص ١٩٠ ونكت المبيان ص ١٠٦ .

(٢) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ١٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٣٤٢ ، ٤١٨ .

ضَحِكْنَا وَكَانَ الضَّحْكُ مَنَافَاهُ^(١)

البيتين فقال يرد عليه :

كَذَبْتَ وَبَيَّنَّ اللَّهُ خَلْفَةَ صَادِقٍ سَيَسْبِكُنَا بَعْدَ الثَّوَى^(٢) مَنْ لَهُ الْمَلِكُ
وَنَرْجِعُ أَجْسَامًا صَحَاحًا سَلِيمَةً تَعَارَفُ فِي الْفِرْدَوْسِ مَا عِنْدَنَا شَكٌّ

ويروى :

سَيَسْبِكُنَا بَعْدَ الثَّرَى

وسمع بعضهم قوله :

وَلَا تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسُلِ حَقًّا وَلَكِنْ قَوْلَ زُورٍ سَطْرُوهُ^(٣)

فقال رداً عليه :

فَلَا تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسُلِ زُورًا وَلَكِنْ قَوْلَ حَقٍّ بَلَّغُوهُ^(٤)
وَكَانَ النَّاسُ فِي جَهْلِ عَظِيمٍ فَجَاءُوا بِالْبَيَانِ فَأَوْضَحُوهُ

(١) الزواريات ص ١٨٢ .

(٢) كذا رواه في النجوم الزاهرة (ج) . وانظر تعريف القدماء الصفحات : ٤٠٤ ،

٤١٦ ، ٤١٩ .

(٣) ثاني البيتين :

وَكَانَ النَّاسُ فِي عَيْشٍ رَغْبٍ نَجَاؤُوا بِالْهَالِ فَكِدَرُوهُ

انظر تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٣١ : ومعجم الأدباء ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) انظر تعريف القدماء الصفحات : ١٩٤ ، ٣٠٥ .

ومنهم النوارى : (١)

اجاب العربي عن قوله :

دينٌ وكُفْرٌ وأنباءٌ تُقالُ وفِرٌّ (٢)
قَانٌ يُنْصَرُ وَتَوْرَاةٌ وَإِنْجِيلٌ
في كلِّ جيلٍ أباطيلٌ يُدانُ بها فهل تَفَرَّدَ يَوْمًا بِالْهُدَى جِيلٌ
بقوله :

نعم أبو القاسم الهادي وأُمَّته فَرَادَكَ اللَّهُ ذُلًّا يادَ جَنِينِ (٣)

ومنهم علم الدين السخاوي علي بن محمد المصري الدمشقي المتوفى سنة ٩٤٣ هـ

رد على أبي الملاء في قوله :

يَدٌ بِخَمْسٍ مِثْلِينَ عَسَجَدٍ وَوَدَّيْتُ مَا بَالُهَا قَطَّعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ
تَحْكُمُ مَا لَنَا إِلَّا السَّكُوتُ لَهُ وَأَنْ تَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ (٤)

(١) نبه في معاهد التنصيص الى الذهبي ونبه الذهبي الى النوارى وفي تعريف
الشمس النورى ويقال فيه النوارى نسبة الى نوى من قرى حوران ولد سنة
٦٣١ هـ وتوفي سنة ٦٧٦ هـ وله تصانيف كثيرة . ترجمته في البداية والنهاية وطبقات
النافية والنفرات (ج) .

(٢) هكذا في المعاهد . وفي الديوان : « وأنباء خمس وفرقان بنس » هـ ص ١٩٧ (ج) .
(٣) انظر تعريف التمداد صفحات : ١٩٤ ، ٣٤٢ .
(٤) هكذا رواها الصندي في نكت المبيان ، ورواها في الوافي : « يد بخمس مائة
من عسجد فديت » وكذلك في المنتظم ، وانباء الرواة للنفطي . وفي الذهبي :
« بخمس مائة من عسجد وديت » . ومائة اسم عدد يوصف بها ، والجمع شات
وشون ومائة ، وانكر سيبويه الأخيرة (ج) .

بقوله :

صِيَانَةُ الْعَرَضِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا صِيَانَةُ الْمَالِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي^(١)

مكذاجاه في (نكت الميمان) وورد في (معاهد التصيص) البيت الأولين على هذا الشكل ، وبيت البخاري فيه هكذا :

عِزُّ الْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا ذُلُّ الْحَيَاةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي

وفي (حاشية الشرفاوي على التحرير لشبغ الاسلام ج ٢ ص ١٨٣) :
و لا نظم أبو الغلاء المعري المله . البيت الذي شكك به على أهل السنة في الفرق بين الدبة والقطع ، وهو قوله :

يَدُ بِخَمْسٍ مَثْنٍ عَسَجِدُ وَدُبْتُ

أجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

وَقَايَةُ النَّفْسِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا وَقَايَةُ الْمَالِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي

وفي بعض النسخ : « ذل الحياة » أي لو دبت بالقليل كثرت الجناية على الأطراف المزدية لازهاق النفوس لسهولة القرم في مقابلتها . ولو لم تقطع إلا في الكثير لكثرت الجناية على الأموال .

وقال ابن الجوزي ، لما سئل عن هذا : « لما كانت أمانة كانت فنية ، فلما خانت هانت » . وذكر في (النور السافر) البيت المتقدم :
« يد بخمس مثن . . » ثم قال : فقال الشريف الرضي راداً عليه :

(١) انظر شريف القداما ، بأن الغلاء الصفحات ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٣١٢ ، ٣٩١ ،

صِيَانَةُ النَّفْسِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا خِيَانَةُ الْمَالِ فَانْظُرْ حِكْمَةَ الْبَارِي

نسبها القزويني زكريا بن محمد الأنصاري القزويني المتوفى سنة ٦٨٣ هـ إلى الرضي الموسوي ، وروايته في الشطر الثاني : « صيانة المال . . . » ونقل الذهبي عن التبريزي أنه قال : « لما قرأت على أبي العملاء بالمرعة قوله : « تناقض مالنا . . . » البتين ، سألت عن معناه ، فقال : هذا مثل قول الفقهاء : « عبادة لا يعقل معناها » قال الذهبي : لو أراد ذلك لقال : « تَعْبُدُ مالنا إلا السكوت . . . » ولما اعترض على الله بالبيت الثاني . وقال البلوي (١) في (ألف وباء ج ٢ ص ٣٨٢) ويقال : إن العربي كتب إلى ابن حزم بهذا البيت :

كَفُّ بِخَمْسِ مِئَةٍ فِي الشَّرْعِ قَدْ وُودِيَ مَابَا لَهَا قَطِيعَتٌ فِي رُبْعِ دِينَارٍ
نقال :

صِيَانَةُ النَّفْسِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا خِيَانَةُ الْمَالِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي
وبلفغ غيره فقال :

بِذَلِكَ سُنَّةُ خَيْرِ النَّاسِ قَدْ وَرَدَتْ : فَلَا سَبِيلَ إِلَى تَغْلِيلِ آثَارِ (٢)

وسياقي . في هذا عند الكلام على الإسلام .

(١) البلوي أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي الأندلسي ، المعروف بابن شيخ ، من أهل مالقة بنى في بلده خة وعشرين مسجداً من ماله ، وغزا عدة غزوات ، وله شعر كثير وكان شديد الولوع بالزوم ، وضع كتاب ألف باب لابنه ليرأه بعد موته وجهه شرحاً للصبغة وضما على عدد حروف المعجم ، وشرحها كلمة كلمة مع مغلوب كل كلمة وعكسها ونوفي سنة ٦٠٤ هـ (ج) .

(٢) تعريف القدماء بأبي الدلائل ص ٣٩١ وفيه : « تغليل آثار » .

ومنهم الحضر الوصلي

فتدرد على قول أبي العلاء من أبيات سناني رفيها بقول :

تَقَدَّمَ صَاحِبُ التَّوْرَةِ مُوسَى وَأَوْقَعَ بِالْخَسَارِ مَنْ افْتَرَاهَا
فَقَالَ رَجَالُهُ : وَخِيَّ أَنَاهُ وَقَالَ الْآخَرُونَ : بَلْ افْتَرَاهَا
وَمَا حَجَّيْ إِلَى أَحْجَارٍ بَيِّنَةٍ كَوُوسُ الْخَمْرِ تُشْرِبُ فِي ذُرَاهَا
إِذَا رَجَعَ الْحَكِيمُ إِلَى حِجَاهُ تَهَاوَنَ بِالْشَّرِّ رَائِعٍ وَازْدَرَاهَا^(١)
بقوله :

جَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَعْمَى لَعِينٍ بَصِيرَتُهُ تَنَاهَتْ فِي عَمَاهَا

(١) هكذا رواها في لسان الميزان ، ومساعد النخعي ، وفي المنتظم : « وقال الناظرون بل افتراها » « إذا رجع الحليم » « تهاون بالذهاب » وفي القفطي : « وقال الآخرون .. » وقد رواها ياقوت ، وابن كثير ، والمني ، وسبط ابن الجوزي ، والمفدي ، وغيرهم بروايات يخالف بعضها بعضا في شيء. ويوافقه في آخر ، ورواية الآيات في لزوم مالا يلزم هـ س ٣٣٨ : الأول : « وادفع في الحمار .. » والثاني : « وقال رجاله ... وقال الظالمون بل افتراها » والثالث : « وما سيري إلى أحجار .. » والرابع : « إذا رجع الحبيب .. تهاون بالذهاب .. » وهذه الآيات من قصيدة في لزوم مالا يلزم عدد أياتها ثلاثة وأربعون بيتاً بجم قوله : « تقدم صاحب .. » الخامس عشر : « وقوله : « وقال رجاله » السادس عشر : « وقوله : « وما سيري إلى أحجار » الثالث والشرين وقوله : « إذا رجع الحبيب .. » السابع . ولكن هؤلاء التفقة أخروه ليكون أقوى في الدلالة على ما يريدونه من التكبير ، وهو في موضعه في لزوم لا يدل على شيء من ذلك . والقصيدة يجليتها منسوبة بالإيمان بالله والفر ، ولكنها طافعة بنم الناس وأعمالهم النكرة لاسيما في الأماكن المقدسة فتأمل (ج) .

يقول: إِذَا الْحَكِيمُ رَعَى حِجَاهُ تَهَاوَنَ بِالشَّرَائِعِ وَازْدَرَاهَا
فَمَا هَذَا الْخَبِيثُ إِذَا حَكِيمٌ وَلَكِنْ لَيْسَ يَذْرِي مَا طَحَاهَا
ومنهم القاضي أبو جعفر محمد بن إسحق البجلي الزوزني المتوفى سنة ٥٦٣ هـ

قال في أبي الغلاء قصيدة أولها (١) :

كَلْبٌ عَوَى بِمَعْرَةِ النُّعْمَانِ لَمَّا خَلَا مِنْ رِبْقَةِ الْإِيمَانِ
أَمْعَرَةَ النُّعْمَانِ مَا أَنْجَبَتْ إِذْ أَخْرَجَتْ مِنْكَ مَعْرَةَ الْعُمَيَّانِ

وإذا تأمل النصف أفعال هؤلاء ، وما فيها من سخافة في التأليف ،
ضعف في الحجة ، تبين له أن مثلهم مثل من يريد أن يفتق صخرة بآخرة
أو يقتلع جبلا بشجرة ، أو يحذف بحراً بجرعة ، وليس فيها بيت جيد
الوصف إلا قول السخاوي :

عَرُّ الْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا ذُلُّ الْحَيَانَةِ

واكثرهم لم يفهم مراد المؤلف ، ولم ينشبت من نسبة الأبيات إليه .

. . .

(١) انظر تعريف القدماء المنفحات : ٨ ، ٥٥ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ ، ٣٤٤ ، ٤٢٦ .

ذكاء أبي العلاء

قلنا : إن كلمة العلماء قد اختلفت في اعتقاد أبي العلاء ، ولكنهم اتفقوا على فرط ذكائه ، وحدة ذهنه ، وسدّة حفظه ، وضبطه لكل ما يسمع من آية لغة كانت . وعلى حجة اطلاعه على الفصح والنادر والغريب والشاذ من اللغة العربية ، واضطلاعه بقرون مختلفة من العلوم التي كانت معروفة في عصره . وقد ذكروا له من نواذر الفطنة والذكاء وصدق الفراسة وسرعة البدعة ، ما يكاد يدخل في عداد المسجلات . وهذه جملة مما ذكروه في هذا الباب ، وفيها طائفة صلف القول فيها ، وأخرى قد نضطر إلى ذكرها مرة ثانية .

ما قبل في حفظه وضبطه

ذكر ابن العديم وغيره أن أبا العلاء كان على غاية من الذكاء والحفظ ، فقبل له : بم بلغت هذه الرتبة في العلم ؟ فقال : ما سمعت شيئا إلا وحفظته ، وما حفظت شيئا فنبت^(١) .

وذكر القنطري^(٢) : « أن مشايخ الأدب باليمن ، يذكرون أن أبا العلاء كان يحفظ ما يمر بسمعه ، وكان عنده من الطلبة من يطالع له التصانيف الأدبية لغة وشعرا وغير ذلك ، وكان لا يكاد ينسى شيئا مما يمر بسمعه . »

(١) انظر صريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٢٤ ، ٥٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣ عن إنباه الرواة - لقنطري .

وقال الذهبي ^(١) : « كان عجبا في الذكاء المفرط ، والاطلاع الباهر على اللغة وشواهدهما ، ويقال عنه إنه كان يحفظ ما يمر بسمعه . »
وقال الصفدي في الوافي ^(٢) : « كان عجبا في الذكاء المفرط والحفاظة . »
ثم ذكر حظه تلكمات التي دارت بين تلميذه أبي زكريا وجاره بالسان الأذري ، وقال : « وهذا معجز » ثم قال : « ولأناس حكايات يصفونهم في عجائب ذكائه ، وهي مشهورة وأخذها مستحيلة ، وكان أضاعه على اللغة وشواهدهما أمرا بامرا . » وذكر محرا من ذلك في (نكت الميمان) .

وذكر ابن العديم وغيره ، أن رجلا من طلبة العلم باليمن ، وقع إليه كتاب في اللغة ، سقط أوله ، وأعجبه جمعه وترتيبه ، فاتفق أنه حج . فحمله معه وكان إذا اجتمع بأديب أراه ذلك الكتاب ، رساله عنه هل يعرفه أو يعرف مصنفه . فلم يجد أحدا يجزبه بذلك ، فأراه في بعض الأحيان لبعض الأدباء وكان ممن يعلم حال أبي العلاء ، وتبحره في العلم ، فدله عليه فخرج ذلك الرجل إلى الشام ، ووصل إلى معرفة النعمان ، واجتمع بأبي العلاء ، وعرفه ما حمله على الرحلة إليه ، وأحضر إليه ذلك الكتاب ، وهو مقطوع الأول . فقال له أبو العلاء : اقرأ منه شيئا فقرأ عليه ، فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا ، ومصنفه فلان بن فلان . ثم ابتدأ أبو العلاء فقرأ له من أول الكتاب إلى أن انتهى إلى ما هو عند ذلك الرجل ، فنقل ما نقص من الكتاب عن أبي العلاء ، وكمل النسخة وانفصل إلى اليمن ، وأخبر أهل العلم بذلك ، وقيل : إن هذا الكتاب هو (ديوان الأدب) لفارابي . وهذه القصة رواها النقطي في إنباء الرواة ^(٣) .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ، ص ١٩١ عن تاريخ الاسلام — للذهبي .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٤ — ٥ عن الوافي بالوفيات — للصفدي .

(٣) انظر الخبر في تعريف القدماء الصفحات ٣٣ ، ٣٤ ، ٢٤٩ ، ٥٦٠ .

وحكوا من تليذه أبي زكوي التبريزي ، انه قال : « كنت قاعداً في مسجد أبي العلاء في معرة النعمان بين يديه اقرأ عليه شيئاً من تصانيفه ، وكنت أتمت عنده سنتين ، ولم أر أحداً من أهل بلدي ، فدخل المسجد مفاصة (١) بعض جيراننا للصلاة ، فرأيت وعرفته ، وتغيرت من الفرح فقال لي أبو العلاء : ما أصابك ؟ فعكبت له أني رأيت جاراً لي بعد أن لم ألق أحداً من بلدي منذ سنتين ، فقال : قم وكله ، فقلت : حتى أتم السبقي (٢) فقال : قم أنا أنتظر ، فقلت وكلته بالأذربيجية شيئاً كثيراً إلى أن سألت عن كل ما أردت ، فلما عدت وقعدت بين يديه ، قال لي : أي لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أذربيجان ، فقال : ما عرفت اللسان ولا فهمته غير أني حفظت ما قلنا ، ثم أعاد عليّ اللفظ بعث من غير أن يتقص منه أو يزيد عليه ، بل أعاد جميع ما قلنا . فجعل جاري يتعجب غاية العجب ويقول : كيف حفظ شيئاً لم يفهمه ؟ . وهذه القصة رواها ياقوت في (معجم الأدباء) والبديعي في (الصبح المنبي) وفي (أوج التحري) وصاحب (معاهد التنصيص) والسيوطي في (البغية) وصاحب (نزهة الجليس) والسعدي في (الأنساب) والصفدي في (الوافي بالوفيات) و (نكت المبيان) وغيرهم بروايات متقاربة ، وبعضهم قال : « وكنت أتمت عنده سنتين » . وقال بعضهم : « هذا غاية لبس بعدها شيء في حسن الحفظ » . وقال الصفدي : « هذا أمر معجز » وقال البديعي : « هذا من أعجب العجب .. » (٣) .

(١) يريد ملاجأة (ج) .

(٢) يريد بالسبق العرس ولم أرها في شيء من اللامع بهذا المعنى (ج) .

(٣) انظر تعريف القدماء الصفحات : ١٣ ، ١٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٢٢٤ ، ٢٦٣ ،

٢٨٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٣٥٦ ، ٤٢٤ ، ٥٥١ .

ورواها الوطواط في (غرر الحقائق الواضحة ص ١٨٧) في
مبحث لذلكه المفرط عند العميات ، علي غير هذا الوجه حيث قال :
« ومنهم أبو العلاء بن سليمان المصري ، ومن عجب سكانه أن أبا زكريا
التبريزي كان يقرأ عليه ، فأثابه رسول من عند الله من تبريز ، فجاه
حالة أبي العلاء ، فسأل عنه فأخبر أنه غائب في بعض شأنه ، فقال له
أبو العلاء ، ما تريد به ؟ قال : بعثت برسالة من عند الله ، فقال :
هاتما حتى نوصلها إليه ، قال : إنما مشافة ، قال : فأسمها حتى نوصلها
إليه ، قال : إنما بالآرامية . قال : لا عليك أن تسمها ، ولا
نقط منها حرفاً ، فأوردها عليه ، فلما جاء التبريزي ، أخبر أن رجلاً
جاء من تبريز معه رسالة من أهلك ، فقال : لينكم أخذتموها منه ،
فلاني مشوق لما يرد من أخبارهم . فقبل له : إنه قال إنما مشافة ، فتأسف لذلك ،
فلما رأى أبو العلاء تأسفه ، قال : لا عليك إنني سمعتها منه وحفظتها .
ثم أملاها عليه فجعل التبريزي يضحك مرة ويبكي مرة ، فسأله أبو العلاء
عن ضحكه وبكائه ، فقال : قارة يخبرني بما يسرني فأضحك وقارة يخبرني
بما يحزنني فأبكي » .

وروى القاضي أبو الحسن أحمد بن علي .. بن الزبير المصري في (جنان
الجنان ورياضة الأذهان) عن حبة الله بن موسى المؤيد في الدين ، وكانت
بنيته وبين أبي العلاء صداقة ومراسلة ، قال : كنت أسمع من أخبار
أبي العلاء وما أوتي من البسطة في علم اللسان ما يكثر تدجي منه ، فلما وصلت
المرة قاصداً الديار المصرية لم أقدم شيئاً على لقائه ، فحضرت إليه وانفق
حضور أخي معي ، وكنت بصدد أشغال يحتاج إليها المسافر ، فلم أسمع
بمنارفته والاستئصال بها ، فتحدث معي أخي حديثاً باللسان القارمي ، فأرشدته

إلى ما يعمل فيها ، ثم عدت إلى مذاكرة أبي العلاء ، فنبهنا الحديث إلى أن ذكرت ما وصف به من مرة الحفظ ، وسألت أن يريني من ذلك ما أحكيه عنه ، فقال : خذ كتابا من هذه الخزانة القريبة منك ، واذا ذكر أوله فاني أوردك عليك حفظاً ، فقلت : كتابك لبس بغريب إن حفظته . قال : قد دار بينك وبين أخيك كلام بالفارسية ، إن شئت أعدته . قلت : أعد ، فأعاده ما أخل والله بحرف منه ولم يكن يعرف اللغة الفارسية . وقد نقل هذه القصة ابن العديم وصاحب (مسالك الأبصار) (١) .

وكان لأبي العلاء جار أعجمي بمرة النعمان ، فذاب في بعض حوائجه عن المرة ، فحضر رجل غريب أنجمي قد قدم من بلاد العجم يطلبه ، ووجده غائباً ، وهو مجتاز لم يكن المقام ، ولا يعرف اللسان العربي . فأشار إليه أبو العلاء أن يذكر حاجته . فجعل يتكلم بالفارسية ، وأبو العلاء بصفي إليه ، إلى أن فرغ من كلامه ، وهو لا يفهم ما يقول ، ومضى الرجل ثم قدم جار أبي العلاء للعجمي الغائب ، وحضر عند أبي العلاء ، فذكر له حال الرجل وطلبه له ، وجعل يعبد عليه بالفارسية ما قاله ذلك الرجل بالفارسية ، والرجل يبكي ويستغيث ويلطم على رأسه ، إلى أن فرغ أبو العلاء ، فسئل عن حاله ، فأخبر أنه أخبر بموت أبيه وإخوته وجاعة من أهله . ذكر هذه القصة ابن العديم والبدیهی فی (الصبح النبوی ص ١٠) وفي (أوج التحري ص ١٦) وابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار) (٢) .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٢٤ ، ٥٥٢ .

(٢) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٢٥ ، ٥٥٣ .

وقال ابن العديم : د قال لي والدي : وباتني من ذكاه أبي العلاء
وحسن حفظه ، أن جاراً له سمنا كان بينه وبين رجل من أهل المرة معاملة
فجاء ذلك الرجل فدفع إليه السمان رقاعاً كتبها إليه يستدعي فيها حوائج
له ، وكان أبو العلاء في غرفة مشرفة عليها ، يسمع محاسبة السمان له ،
وأعاد الرجل الرقاع إلى السمان ، ومضى على ذلك أيام ، فسمع أبو العلاء
ذلك السمان وهو يتأوه ويتلجلج ، فسأله عن حاله ، فقال : كنت حاسبت
فلاناً برقاع كانت له عندي وقد عدتها ولا يحضرنى حسابها . فقال : لا عليك ،
نعال إلي ، فإني أحفظ حسابكما ، وجهل إلي عليه معاملته جميعها ، وهو
يكتبها إلي أن فرغ وقام . فلم يمس إلا أيام يسيرة ، فوجد السمان
الرقاع ، وقد جذبها الفأر إلى زاوية في الحانوت ، فقابل بها ما أملاه
عليه أبو العلاء فلم يخطئه في حرف واحد . وقد أورد هذه القصة في
(الصبح التي ج ١ ص ١٢) وفي (أوج التحري) وفي (طبقات النعاة
والفقرين ص ١٧٣) وفي (مسالك الأبصار) (١) .

ونقل ابن العديم عن شهاب الدين أبي المعالي أحمد بن مدرك بن سليمان ،
فيما تأثره عن المعريين ، أن الشيخ أبا العلاء لما دخل بغداد لم يعرض عليه
شيء من الكتب إلا وحفظه ، وأخبرهم أنه يحفظ كل شيء سمعه ، وطلبوا
كتاباً لا يعرفه ليتمنوه به ، فأحضروا دستور الخراج في الدبوان ،
وجعلوا يرددون عليه ذلك مياومة ، وهو يسمع إلى أن فرغوا من ذلك
فابتدأ أبو العلاء ومرد عليهم كل ما أوردوه عليه . وهذه القصة في (طبقات
النعاة والفقرين ص ١٧٤) و (مسالك الأبصار) (٢) .

(١) انظر تعريف القدماء ص ٥٣-٤ ، وأوج التحري — قديمي ص ١٦ تحقيق

الدكتور إبراهيم الكيلاني .

(٢) وانظر تعريف القدماء الصفحات ٢٢٦ ، ٥٥٤ .

ونقل عنه انه قال : أخبرني جماعة من سلفنا ، أن بعض أمراء حلب قبل له : إن اللغة التي ينقلها أبو العلاء إنما هي من (الجهرة) وعنده من الجهرة نسخة ليس في الدنيا مثلها ، وأشاروا عليه بطلبها منه فصداً لأذاه ، فسير أمير حلب رسولاً إلى أبي العلاء يطلبها منه ، فأجابه بالسمع والطاعة ، وقال : تقيم عندنا أياماً حتى نقضي شغلك ، ثم أمر من يقرأ عليه كتاب الجهرة ، فقرئت عليه حتى فرغوا من قراءتها ، ثم دفعها إلى الرسول وقال له : ما قصدت بتعويقك إلا أن أعيدها على خاطري خوفاً من أن يكون قد شذ منها شيء عن خاطري ، فعاد الرسول وأخبر أمير حلب بذلك فقال : من يكون هذا حاله لا يجوز أن يؤخذ منه هذا الكتاب ، وأمر برده إليه . وهذه القصة ذكرها في (ممالك الأبصار) (١) .

ما قبل في فرائسه وأصابه هدم

حكى أن أبا محمد الحفاجي الحلبي دخل على أبي العلاء بالعمرة ، فلم عليه ، ولم يكن أبو العلاء يعرفه من قبل ، فرد عليه السلام وقال : هذا رجل طوال ، ثم سأله عن صناعته فقال : أقرأ القرآن ، فقال : اقرأ علي شيئاً منه ، فقرأ عليه عشرأ ، فقال له : أنت أبو محمد الحفاجي الحلبي ؟ فقال : نعم . فسئل عن ذلك فقال : أما طوله فعرفته بالسلام ، وأما كونه أبا محمد فعرفته بصحة قراءته وأدائه بنعمة أهل حلب ، فلأنني سمعت بحديثه . وقد روى هذه القصة ابن العديم (٢) .

(١) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢٧ عن ممالك الأبصار — قهري وس ٥٠٩

عن الإصناف والتحري — لابن العديم .

(٢) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٠٣ عن الإصناف والتحري — لابن العديم .

ونقل عن ابن إسحاق في (الذخيرة) : « أن أبا الفضل محمد بن عبد

الواحد البغدادي أنفذ من بغداد رسولا عن الخليفة القائم بأمر الله إلى
العزيز بن باديس الصنهاجي ملك القيروان ، حين رام الخطبة لبني العباس ،
ومخالفة ملوك مصر العبيدين . فلما اجتاز بالمرّة اجتمع بأبي العلاء ،
فاستنشده ، فأنشده قصيدة لامية يردح بها صاحب حلب ، فقبل المعري بين
يديه ، وقال له : بأبي أنت من قاطم ، وما أراك إلا رسول أمير المؤمنين
القائم إلى العزيز ملك القيروان فاطر خورك فالعيون لم ترك ، فلحق بالعزيز .
هكذا رواها ابن العديم وفي (نفع الطيب ج ٢ ص ١٠٣) « قبل بين عينيه »
وهذه الرواية أقرب إلى حال المعري من الأولى .

وفي أوج التحوي^(١) : « أن أبا العلاء لما سمع مرثية أبي الحسن علي
ابن محمد المعروف بالنهامي استحسنها ، وكان كلما ورد عليه أديب يستنشد
منه ، حتى ورد عليه النهامي وهو بالمرّة ، ولم يكن عرف بقدومه ، فقال
له أبو العلاء : أتروي قصيدة النهامي التي رثي بها ولده أبا الفضل فقال :
نعم فاستنشد إياها ، وهي .

حُكْمُ الْمُنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارٍ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ
فلما أنما قال له أبو العلاء : أحسنت ولأنت صاحبها النهامي ، وأنت أشعر
من بالشام . ولما خرج النهامي - مثل أبو العلاء كيف عرفه ؟ فقال : سمعت
منه القصيدة سمعا يدل أنه صاحبها بخلاف سماعي إياها من غيره .

(١) أوج التحوي — للبديعي ص ١٢٧ ، ١٤٠ ، وتاريخ القدماء ص ٥٦١ .

وهذه القصة رواها ابن العديم . وفي رواية « فأنشدها فقال له : أنت
التهامي ، فقال : نعم كيف عرفني ؟ فقال : لأنني سمعنا منك ومن غيرك
فأدركت من حالك أنك تنشدها من قلب فريح فقلت أنك قائلها » .
ويقال : إن التهامي بعد هذه القصيدة بسبع عشرة سنة ، ورد مدينة
السلام ، وأبو العلاء إذ ذاك بها ، فاستنشه ما جده من الشعر فأنشه .

هَلِ الْوَجْدُ إِلَّا أَنْ تُلَوِّحَ خِيَامَهَا فَيَقْضِرَ بِإِهْدَاءِ السَّلَامِ ذِمَامَهَا

فلما أتمها استحسنها أبو العلاء ، وقال له : ومن بالمراق . فتكون
الحادثة الأولى في نحو سنة ٣٨٣ هـ وعمر أبي العلاء نحو عشرين سنة .
وروي أن صبياً أتى أبا العلاء ، فقال له أنت القائل :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ لَا تَبِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ؟^(١)

فقال : نعم . فقال له : إن الأرائل جعلوا حروف الهجاء ثمانية وعشرين
حرفاً ، فزد عليها ، وانتنا بما لم يستطيعوه . فأطرق أبو العلاء ملياً ، ثم قال
لهم : هذا الغلام حادّ الذهن ، مفرط الذكاء ، وإنه لا يلبث أن يموت . ثم
لم تمض إلا أيام قليلة . حتى مات الصبي .

. . .

دافبل في زكائه

وفي ابن العديم : « كان أبو العلاء على غاية من الذكاء من صغره ،
وتحدث الناس بذلك ، وهو إذ ذاك صبي صغير يلعب مع الصبيان ... »

(١) البيت من قصيدة مطلها :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإنعدام وحزم وتائل
انظر شروح سقط الزند : في ٢ من ٥١٩ ، ٥٢٥ .

فخرج جماعة من أهل حلب إلى معرة النعمان ، وقصدوا أن يشاهدوه
وينظروا ما يحكى عنه من الفطنة . فسألوا عنه فقيل لهم : هو يلعب مع
الصبيان ، فجاءوا إليه وسلموا عليه ، فرد عليهم السلام ، فقيل له : إن هؤلاء
جماعة من أكابر حلب جاءوا لينظروك ويتحنوك ، فقال لهم : هل لكم
في القافزة بالشعر ؟ فقالوا : نعم . فجعل كل واحد منهم ينشد بيتاً وهو
ينشده على قافيته حتى فرغ محفوظهم بأجمعهم وقهرهم ، فقال لهم : أعجزتم
أن يعمل كل واحد منكم بيتاً عند الحاجة إليه على القافية التي يريد ؟
فقالوا له : فافعل أنت ذلك ! فجعل كلها أنشده واحد منهم بيتاً أجابه
من نظمه على قافيته ، حتى قطعهم كلهم ، فمجبوا منه وانصرفوا (١) .

وروى العبدروس في (النور السافر) . « أن أبا العلاء كان له مرير
يجلس عليه ، فجعلوا في غيبته تحت قوائمه أربعة دراهم ، تحت كل قائمة
درهم ، فقال : إن الأرض قد ارتفعت عن مكانها شيناً يسيراً أو السماء
نزلت ، ورواهما القزويني في (عجائب البلدان) . وأنكر ابن كثير في
(البدابة والنهاية) ذلك وتابعه العيني في (عقد الجمان) .

(١) روى هذه الحادثة ابن الديم في الإنشاف ، ورواهما ابن فضل الله في ممالك
الأبحار . وابن ناظم شعبة في طبقات النحاة . وغيرهم . والقافزة : كلمة ولدة لم ترد
في كتب اللغة ، والمراد بها على ما يظهر من هذه القصة أن ينشد الرجل بيتاً على
روي اللام مثلاً ثم ينشد الآخر بيتاً على ذلك الروي ، وفي دمشق وغيرها من
بلاد الشام لعبة يدونها مذاكرة الأقسام ، وهي أن ينشد الرجل بيتاً على روي
اليم مثلاً ، فينشد الآخر بيتاً يكون أول حرف من بيتها ، فإذا كان آخره باء
مثلاً أنشد من بعده بيتاً يكون أول حرف من بيتها ، وهكذا فإذا اتفق أن
يكون أوله وآخره حرفاً واحداً أسقطوه ولم يتدوا به ويسمى هذا البيت
مجبوكاً (ج) .

وفي (روحات الجنات) « قيل : إن أبا العلاء أخذ حصاة ، وقال : هذا يشبه رأس البازي . وهذا تشبيه عجيب من أدبي الأبصار فضلاً عن الأكمة » . وروى ذلك زكريا بن محمد القزويني في (آثار البلاد وأخبار العباد) ، عجائب البلدان .

وفي ابن العديم والغفطي عن أبي طاهر السلفي : « عرض على أبي العلاء الكفيف كف من اللوبياء ، فأخذ واحدة واسها بيده ، ثم قال : ما أدري ما هي إلا أنني أشبهها بالكلية ، فتعجبوا من فطنته وإصابته حذسه » . وفي (عجائب البلدان) للقزويني أن أبا العلاء ذكر عنده أن البعير حيوان يحمل حملاً ثقيلاً فينمض به ، فقال : ينبغي أن تكون رقبتة طرية ، ليستد نفعه ، فيقدر على النهوض .

وزعموا أنه سافر إلى بغداد وهو راكب على جمل ، فاجتاز بشجرة فقليل له طأطؤه رأسك فإن ههنا شجرة ، ففعل . ثم أقام ببغداد ما أقام فلما عاد منها إلى المعرة اجتاز بذلك الموضع وقد قطعت تلك الشجرة ، فطأطأ رأسه ، فسنل عن ذلك فقال : قد كان ههنا شجرة حين انحدرت إلى بغداد ، فحفروا في ذلك الموضع فوجدوا أصل الشجرة . روى ذلك ابن العديم ، والديلمي وصاحب (مالك الأبصار) و (طبقات النحاة والفقهاء) وغيرهم ، وأنكرها ابن كثير وتابعه العمري .

وزعموا أنه لما سافر إلى بغداد ، دفع بعض أهله إلى خادمه الذي سافر معه ماء من بئر بالمعرة ، يقال له بئر القراميد ، وكان يستطيع ماؤه ، وقالوا له : إذا أراد العود من بغداد فاسله من هذا الماء . فلما خرج من بغداد إلى المعرة سقاه ذلك الماء . فقال : ما أشبه هذا الماء بماء بئر القراميد . وقيل : بل قال : هذا ماءها فأين هواؤها ، وقيل : إن

أمه سیرت إليه شبتاً من ذلك الماء . روى ذلك ابن العديم والبدیهی وغيرهما بروایات متقاربة .

وقال أبو الحسن علي بن مهند بن علي بن بقلد بن منفذ في كتابه المرسوم (بالبداية والنهاية) قال : « حدثني أبي قال حدثني جد أبي قال : وصل إنسان عراقي إلى المرأة ، فأنفذ مختبر الشيخ أبا العلاء مع بعض تلاميذه ، فقال : قل للشيخ ما في هذه الأبيات الرجز من المعاني والافقة :

صَلَبُ الْعَصَا بِالضَّرْبِ قَدْ دَمَّاهَا إِذَا أَرَادَتْ رَشْدًا أَنْغَوَاهَا
يَبُودُ أَنْ اللَّهَ قَدْ أَفْنَاهَا ؟

فلما طرحت على الشيخ ، فكر فيها ساعة ، ثم قاله : غريبة والله هذا يصف راعياً بصلابة عصاه أنه يضرب الإبل لينخير لها المرعى ، فقد دمَّاه أي جعلها مثل الدمى . إذا أرادت رشداً وهو حب الرشاد وهو (١) أغواها رعاها في حب (٢) بود أن الله قد أفناها أي أطعمها حب الفنا ، وهو عنب الثعلب . فمضى تلميذه فمرف الرجل العراقي فلم يلبث (٣) الرجل في المرأة . هكذا رواها ابن العديم (٤) . وفي لسان العرب في « دمي » وأنشد أبو العلاء .

صَلَبُ الْعَصَا بِرَعِيَّةٍ دَمَّاهَا يَبُودُ أَنْ اللَّهَ قَدْ أَفْنَاهَا

(١) هكذا في الأصل (ج) .

(٢) هكذا في الأصل (ج) .

(٣) في نسخة : « فلم يلبث » (ج) .

(٤) تعريف القدماء ص ٥٦٤ - عن الاضاف والتحرير .

أي أوعاها ، فسمت حتى صارت كالدمى . وفيه في مادة : « في » وروي
أبو العباس عن ابن الأعرابي أنه أنشد قول الراجز :

صَلَبُ الْعَصَا بِالضَّرْبِ قَدْ دَمَّاهَا يَقُولُ لَيْتَ اللَّهَ قَدْ أَفْنَاهَا

قال يصف راعي غنم ، وقال : فيه معنيان ، أحدهما أنه جعل دماها
ميتل دماها بالضرب خلافاً عليه ، والثاني في قوله : حلب العصا ، أي لانحرج
إلى ضربها فعصاه باقية ، وقوله : بالضرب قد دماها أي كساها السن ،
كأنه دتماها بالشحم لأن يرعيها كل ضرب من اللبث . وثانها أنبت لها
الفنا حتى تغزر وتسمن ، ورواه في (التكملة) : « ضخم العصا . . »

وفي (أوج التحري) (١) : « ويحكى أن أبا العلاء ، دخل يوماً على
عمه القاضي أبي محمد الترخي ، فلما رآه من بعيد يقصده ، قال لجارته :
قومي إلى سبدك وخذي بيده ، فقامت وأخذت بيده ، وسكت ساعة ،
فلما قام أشار إليها عمه فأخذت بيده لتوصله إلى حجرتة ، فلما أمسك يدها
التفت إلى عمه وقال : دخلت وهذه الجارية يركر ، والآن فهي ثيب ،
فقال : ومن أين تعلم ؟ أبحى إليك ؟ كأنه يتكر عليه ذلك ، فقال :
حاشا وكلا ، وقد انقطع الرحي بعد نبينا محمد المصطفى ﷺ ولكنني لما
دخلت مسست يدها وأعصاب الزند كالأوتار المشدودة ، فملت أنما بكر .
والآن فند ارتخت أعصابها فملت أن البكارة زالت . فبحث القاضي أبو محمد
عن ذلك ، وإذا ابن له قد دخل بها في تلك الساعة . »

وقد ذكرنا أن بعض الطلبة قال له : أكلت ديباً ، فسح صدره .
وأنه روي له بيت من الشعر فهو أن قائله أعمى . وروي له بيت فعر

(١) أوج التحري — للبدعي ص ١٥ تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني .

أن فائده أعور . وأنه قال للوزير النازي : ومن بالعراق ، بعد مضي بضع عشرة سنة عطفاً على قوله : أنت أشعر من بالشام . وقال للتهامي غمراً من هذا .

وفي بعض هذه النوادر ما يستجده العقل ، وتنكره العادة ، وقد ذكرنا أن بعض العلماء أنكر شيئاً منها . ولا يضير أبا العلاء أن ينكر كلها أو بعضها فإن في آثاره الباقية ما هو أدل على ذكائه وفطنته وسدّة حفظه من كل ما تقدم . من ذلك معرفة الكلمات التي وضعها له بعض تلاميذه ليختبروه . ومنه تغيير كلمة في القافية في بيتي النمر بن تولب على^(١) جميع الحروف المجانية مع المحافظة على الوزن والمعنى . ومنه إيراد الشواهد والأمثلة والأشياء والنظائر والشواذ والنوادر في الكلمات اللغوية في المسائل التي تشتمل عليها (رسالة الملائكة) . وأشياء هذا كثير ، وأعظم منه استطاعته أن يخضع المسائل العلمية للشعر ، وقدرته على التصرف بالألفاظ اللغوية في أي معنى أراد . وعلى جمع الصور الخيالية في لفظ قليل ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره .

ولو شئت أن تقول : إن أبا العلاء آتبه في كل شيء . لكنني غير مبالغ ، وسأرى في الكلام على دراسة أدبه وآثاره ما يشهد لذلك ويؤيده .

. . .

بدراسة

كان أبو العلاء غزير المادة ، قوي العارضة ، حاضر البديهة ، وقد ذكرنا نظمه الأبيات للأحليين الذين جاءوا ليختبروه وقافاهم . وأجوبته الارتجالية للقاضي أبي الطبيب الطبري حين زار بغداد . وقد ذكر ابن المديم وابن فضل الله العمري عن كتاب (جنان الجنان) : « عن القاضي محمد بن سديّ القنيسريّ عن أبيه ، قال : بقنا عند أبي العلاء العمري في الوقت

(١) رسالة الفخران تحقيق بنت الناطق ط ١ ص ٣٢ — ٤٤ .

الذي كان يملئ فيه شعره المعروف بلزوم ما لا يلزم ، فأملئ في لية واحدة ألفي بيت ، كان بسكت زماناً ثم يملئ قريباً من خمسمائة بيت ، ثم يعود إلى الفكرة والعمل إلى أن كملت العدة المذكورة ، (١) .

وهذه الرواية لا تخلو من مبالغة ، لأن كتابة ألفي بيت تستغرق أكثر من لية ، فكيف يتأتى نظمها وتأليفها ثم إملؤها وكتابتها في لية ؟ ويجوز أن يقال : إنه كان نظمها وأعدّها من قبل ، ثم كان يفكر في تذكرها ثم يملئها . ولكن قوله : ثم يملئ قريباً من خمسمائة بيت ، لا تخلو من المغالاة على أي وجه قلّبت .

وقال الفطحي : « ذكر أنه قرىء بحضرته يوماً أن الوليد لما تقدم بهارة جامع دمشق ، أمر المتولين بهارته ألا يصنعوا حائطاً إلا على جبل ، فامثلوا وتصترو عليهم وجود جبل لحائط جهة جبرون ، وأطالوا الحفر امتثالاً لمرسومه ، فوجدوا رأس حائط مكين العمل كثير الاحجار ، يدخل في ملهم ، فأعلموا الوليد أمره ، وقالوا نجعل رأسه آتاً ، فقال : اتركوه واحفروا قدّامه لتتظروا آتاً وضع على حجر أم لا ؟ ففعلوا ذلك ، فوجدوا في الحائط باباً ، وعليه حجر مكتوب بقلم مجهول ، فأزالوا عنه التراب بالغسل ، ونزلوا في حفره لونا من الاصابع ، فتيزت حروفه ، وطلبوا من يقرؤها فلم يجدوا ذلك ، وتطلب الوليد المترجمين من الآفاق حتى خسر منهم رجل يعرف بقلم البرغانية الأولى المسمى ليطين (٢) ، فقرأ الكتابة الموجودة فكانت : باسم الموجد الأول أستمين ، لما أن كان العالم محدثاً ، لاتصال أمارات الحدوث به ، وجب أن يكون له

(١) تعريف القدماء بأهل الملاة ص ٥٦٠ - ١ عن الإنصاف والتحرّي - لابن النديم .

(٢) في فهرست ابن النديم : « ليطون » (ج) .

حدث لا كهؤلاء ، كما قال ذو السنين وذو اللحيين وأشيائهما ، فوجبت عبادة خالق الخفوفات (١) ، حينئذ أمر بعبادة هذا الهيكل من صلب ماله حب الحبل (٢) على مضي ثلاثة آلاف وسبعمائة عام ، لأهل الأسطوان (٣) فإن رأى الداخل إليه ذكر بآيه عند بآيه بخير فعل والسلام .

فأطرق أبو العلاء عند سماع ذلك ، وأخذ الجماعة في التعجب من أمر هذا الهيكل وأمر الأسطوان المزخ به ، وفي أي زمان كان ، فلما فرغوا من ذلك ، رفع أبو العلاء رأسه وأشد في صورة متعجب :

سَيَسْأَلُ قَوْمٌ مَا الْحَجِيجُ وَمَكَّةُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ مَا جَدِيسٌ وَمَاطِسْمُ

وأمر بطر الحكاية فطارت على ظهر جزءه من (استغفر واستغفري) بخط ابن أبي هاشم كاتبه وأكثر من نقل الكتاب نقل الحكاية على مثل [مامل] الجزء الذي هي مطورة عليه ، (٤)

هذا البيت من أبيات ستة ذكرت في (لزوم مالا يلزم) وروايتها فيه : (٥)

(١) جملة فوجبت الخ غير موجودة في نص الففطي وإنما هي في معجم البلدان الذي نقل الحكاية عن الففطي ، وعبارته : فوجدت عبادة . كذا في الأصل وفيما نقل عنه (ج) .

(٢) وفي معجم البلدان : « حب الحبر » (ج) .

(٣) أهل الأسطوان قوم من الحكماء الأول كانوا يملكون ، حكى ذلك أحمد بن الطبيب الرخسي الفيلسوف . وروى هذه القصة ابن أمير الحاج في شرحه على التحرير لابن المهام ج ٣ ص ٨٤ بخير بير . واستدل بذلك على أن فريقاً من الفلاسفة يقولون بمجدوث العالم (ج) .

(٤) تحريف التمداء بأبي العلاء ص ٥٣ - ٤ عن إنشاء الرواة للقفطي .

(٥) اللزومات ه ص ٢٢٦ .

سَيَسْأَلُ نَاسٌ مَا قَرِئَتْ وَمَكَّةٌ كَمَا قَالَ نَاسٌ مَا جَدِيسٌ وَمَا طَسَمُ
أَرَى الْوَقْتَ يَفْنِي أَنْفُسًا بِفَنَائِهِ وَيَمْخُوفَمَا يَبْقَى الْحَدِيثُ وَلَا الرَّسْمُ
لَقَدْ جَدَّ أَهْلُ الْمَلْعَبَيْنِ فَأَتَدُّوا بِنَاءً وَلَمْ يَثْبُتْ لِرَأْفِهِ وَتَسْمُ
وَفِي الْعَالَمِ الْغَاوِي بَخِيلٌ مُمُولٌ وَسَمَحٌ فَقِيرٌ شَدُّ مَا اخْتَلَفَ الْقَدَمُ
وَكُونَ الْفَتَى فِي رَهْطِهِ نَيْلُ عِزَّةٍ عَلَى أَنَّ دَاءَ الدَّهْرِ لَيْسَ لَهُ حَسْمُ
وَيُرْزَأُ جِسْمُ الْمَرْءِ حَتَّى إِذَا أَوَى إِلَى الْعُنْصُرِ التَّرْبِي لَمْ يُرْزَأِ الْجِسْمُ

. . .

ثَفَّةٌ بَعْلَمَ وَاعْتَدَاهُ بِنَفْسِهِ

كان أبو العلاء -- كما قلنا -- شديد الذكاء سريع الحفظ ، كثير التجسس والتثبت ، إذا سمع شيئاً حفظه ، وإذا حفظ شيئاً رسخ في ذهنه فلم ينسه ، وإذا رسخ شيء في ذهنه استطاع أن يتصرف فيه تصرف اللبى الحاذق ، ولم يكن منها بالكذب والتدليس والغرور ، وقد عرف تمكن هذه الحلال من نفسه ، فوثق بها وعول عليها فيما يقول ويكتب . وقد اختبر هذه الثقة مراراً فلم يزد إلا يقيناً بها ، وقد أنشد في العراق قوله :

وَيُوشَعُ رَدُّ يُوْحَا بَعْضَ يَوْمٍ وَأَنْتَ مَتَى سَفَرْتَ رَكَدَتْ يُوْحَا

هالباة المناة ، فقيل له : برحا ، هالباة المفردة ، واحتجوا عليه بما ذكره ابن السكيت في اللأظه ، فلم يجد عن اعتقاده ، وقال لهم : هذه النسخ التي بأيديكم حرفها شيوخكم ، فأخرجوا النسخ العتيقة ، فأخرجوها فكانت كما قال .

وفي (المعامد ص ٥٩٨) « هذه نسخ محدثة غيرها شيخكم ، ولكن أخرجوا ما في دار العلم من النسخ القديمة » . وذكر أن ذلك كان في حلقة ابن الحسن الترخي^(١) ، والقصة في (لسان العرب) (ولج العروس) (والافتضاب ص ٢٨٠) وفي ابن الأثير : « ويقال يوحى على وزن فعل ، وقد يقال بالباء الموحدة لظهورها » .

واختلف في بيت المتنبي مع محمد بن عبد الله بن سعد حين كان يلأ عليه شعر المتنبي ، فكان القول ما قاله أبو العلاء ، ولفتى له تلاميذه كلمات وأدخلوها في غيرها ليختبروه ، فعرفها وعرف ما أرادوا من عملهم هذا . وقال الفنطلي : « شأدت على نسخة من كتاب إصلاح المنطق ، يقرب أن يكون بخط العربيين ، أن الخطيب الأزركري التبريزي قرأه على أبي العلاء ، وطالبه بسنده متصلًا ، فقال له : إن أردت الدراية فخذ عني ولا تعتمد ، وإن قصدت الرواية فعليك بما عند غيري ، وهذا القول من أبي العلاء يشعر بأنه قد وجد من نفسه قوة على تصحيح اللغة ، كما وجدها ابن السكيت مصنف (الإصلاح) وربما أحس من نفسه أوفر من ذلك ، لأن ابن السكيت لم يصادف اللغة منقحة مؤلفة ، قد تداولها العلماء قبله وصنفوا فيها وأكثروا ، كما وجدها أبو العلاء في زمانه »^(٢) .

ولعل أظهر موطن يتجلى فيه اعتداده بنفسه ، واعتماده على حفظه ، وثقته بعلمه (رسالة الملائكة) فإنه صرح فيها في مواضع مختلفة ، بما يدل على ذلك .

(١) وفي شرح الفط البطلوسي - ١ - ٢٧٩ ، فأخرجوها فوجدوها مقيمة كما قال

ووجدوها كذلك في الجهرة ، وكانت بخط أبي بكر بن دريد (ج) .

(٢) تريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١ عن إنباء الرواة - للفنطلي -

كقوله من الأول ، في الكلام في « سندس » : والذي اعتمدته أنت
النون زائدة ، ولا أمتنع أن يكون « فُعْلًا » . وقوله في طوبى : والذي
تذهب إليه ، إذا حملناها على الاشتقاق ، أنها من ذوات الياء . وقوله :
ولا أمتنع أن يجيء الفعل على « فعلن » وإن لم يذكره المتقدمون . وقوله :
ولا أمتنع أن يخالف الأول مخالف .

وقوله من الثاني : ليس في كلامهم مثل « اسفرجل يسفرجل » .
... مفقود في كلامهم الباء بعدما وار . . . وقوله في « ومن » : هذا فعل مات ،
ومن لم يذكره أحد من المتقدمين فيما أعلم . وقوله : ولم يستعمل « التلق »
ولا التلق ولا التلق ... » وقوله : ولم يستعملوا في الأفعال الماضية ما يجتمع
فيه الياءان غير « عيَّ وحيَّ » وقوله : لم يجيء على « افعية وافعيل » إلا
« انجيل ... » إلى غير ذلك بما ذكرناه في مقدمة (رسالة اللانكة) التي
طبعت في دمشق سنة ١٣٦٣ هـ . وما هو مذكور في الرسالة المذكورة نفسها ،
وقد تجد مثل هذا في رسائله أيضا كقوله في رسالتك إلى أبي عثمان النكتي (١):
« والفعل مفقود في شعر العرب . زعم سعيد بن مسعدة أنه لم يسمعه وقد
جاء بيت لزهير وبعضهم يرويه لابنه » .

وفي (لزوم ما لا يلزم) (٢) :

مَفْعُولٌ خَيْرٌكَ فِي الْأَفْعَالِ مُفْعَلٌ كَمَا تَعَذَّرَ فِي الْأَسْمَاءِ فَعْلُولٌ

• • •

(١) رسائل للمري - لكاهن عطية - ص ١١٣ .

(٢) الروميات هـ ص ١٩٧ .

اعفاده بنفسه

يعتقد أبو العلاء أنه وإن تأخر زمانه ، يفوق بفضل ونبله من تقدمه من اعلام الأمة ونوابها . ويأتي عالم يستطيعه من ضروب العبقريّة والبراعة :
وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْآخِرَ زَمَانُهُ لَأَتِ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَّلُ^(١)

وأنه قام بما يجب عليه من النصح والارشاد إلى ما يفيد الإنسان في حياته ، وإذا ذمّ كفد الناس من يؤشدهم بنصح وإخلاص ، ولا يجدون من يد مدّة :

فَأَسْمَعُ كَلَامِي وَحَاحِلِ أَنْ تَعِيشَ بِهِ فَسَوْفَ أُعَوِّزُ بَعْدَ الْيَوْمِ طُلَامِي^(٢)
وأنه 'مخلص في آرائه كما كان مخلصاً في أقواله :

خُذِي رَأْيِي وَحَسْبُكَ ذَلِكَ مِنِّي عَلَى مَا فِي مِنْ عَوَجٍ وَأَمْتٍ^(٣)
وأنه سار في حياته العملية سيرة حسنة ، من اتبعه فيها كان أمره إلى صلاح وفلاح :

خُذُوا سِيرِي فَهُنَّ لَكُمْ صَلَاحٌ وَصَلُّوا فِي حَيَاتِكُمْ وَزَكَّوْا^(٤)
وأن فريقاً من الناس حسدوه على ما آفاه الله من فضله ، فهم لا يألون جهداً في الافتراء عليه ، وقلب الحقائق التي يرشد إليها :

(١) فروع سبط الزند : ق ٢ ص ٥٢٥ .

(٢) اللزوميات ٨ ص ٤٨ .

(٣) اللزوميات ٨ ص ٦٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٤ .

لَحَسَى اللَّهِ قَوْمًا إِذَا جِثَّتْهُمْ بِصِدْقِ الْأَحَادِيثِ قَالُوا: كَفَرُوا^(١)

وهم يحارلون بذلك تشويه سمعته ، وإخماد جذوته ، ولكنهم لم يستطعوا ولن يستطيعوا أن يطفئوا بأفواههم نور الله الذي أذكاه فيه ، ولا يخلوا ذكره الذي عم القاصية والدانية :

وَقَدْ سَارَ ذِكْرِي فِي الْبِلَادِ فَمَنْ لَهُمْ بِإِخْفَاءِ شَمْسِ ضَوْوِهَا مُتَكَامِلٍ^(٢)

. . .

كتب

كان لأبي العلاء خزانة كتب مكتظة بالكتب الصحيحة ، غير أن التاريخ لم يبين لنا ما كان فيها من الكتب ولا مقدار ما كان فيها . وقد تقدم قوله لهبة الله بن موسى حين سأله أن يريه ما يحكيه عن حفظه : « خذ كتاباً من هذه الخزانة القريبة منك » . وأن أمير حلب أخذ من عنده نسخة من (الجهرة) ثم ردها إليه ، وأن رجلاً من اليمن قرأ عليه كتاباً مقطوع الأول . وهو (ديوان الأدب) للفارابي ، وأن أبا العلاء قرأ من أوله إلى أن انتهى إلى ما عند الرجل .

غير أن ما تقدم وما أمكننا معرفته ، لا يعلم منه ما كان في خزائنه من الكتب على التحقيق ، لفقد الوثائق التاريخية ، ولكن سيأتي أسماء عدد كبير من الدواوين والكتب التي ذكرها أو روى منها شيئاً في كتبه التي وصلت إلينا وهي كثيرة جداً .

(١) الزوبيات ٥ ص ١٧٠ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٢٣ .

كتاب

من البيّن أن أبا العلاء كان مستطعاً بغيره ، لا يتأتى منه أن يدون ما يريد أن يكتبه ، وقد اتخذ عدداً من الكتاب ، منهم من كان يكتب له بأجرة ، ومنهم من كان يكتب له بدون شيء . وقد ذكر ابن الوردي في تاريخه (ج ١ ص ٣٥٨) أن أبا العلاء كان يلي على بضع عشرة محبرة في فنون من العلوم . وقال في (مرآة الزمان) عن التبريزي : إنه كان لأبي العلاء عشرة من الكتاب ، يلي على كل واحد فنوناً غير ما يلي على الآخر وم يكتبون .

وذكر باقوت (ج ١ ص ١٧١) أنه نقل فهرست كتبه من خط أحمد مستلي أبي العلاء . وقال : « قرأت في نسخة أخرى فهرست كتبه .. » الى آخر العبارة التي تأتي بعد . وفيها : « وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم .. »

وذكر ابن العديم أن أبا العلاء كان له أربعة رجال من الكتاب الموجودين ^(١) في جرابته وجاربه ^(٢) يكتبون عنه ما يكتبه الى الناس وما يليه من النظم والنثر والتصانيف ، وقد كتب له جماعة من أهل معرفة النعمان ، وفي البديهي كان له أربعة رجال يكتبون عنه ما يرتجله . وفي (مسالك الأبصار) : « أربعة من الكتاب المحدثين .. وغير هؤلاء من الكتاب الذين يفيون ويحضرون » ^(٣)

(١) في مسالك الأبصار : « المحدثين » (ج) .

(٢) هكذا في ابن العديم ونقل البيني عنه من ١٩٢ في جرابته وجاربه (ج) .

وانظر تعريف القدماء من ٥٢٤ عن الإصناف - لابن العديم -

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٢٢٢ عن مسالك الأبصار - العمري .

والذي يمكن فهمه من عبارات المتقدمين أن له كتاباً يجري عليهم
رزقاً وآخرين ليسوا كذلك ، ولكن لم أر من ذكر الذين كانوا في
جرايته وجاربه . وإنما ذكروا طائفة من كتابه ، ولم يبينوا كل واحد من
أي فريق .

وأخص كتابه به ابن أخيه .

أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان ، وهو الذي نزل خدمته
وتبعه ، وكتب تصانيفه بخطه ويقع من المصنف الواحد نسختان وأكثر
وقد تقدم ذكره . فمن كان بخدمة .

ومن كتابه : أبو الحسن علي بن محمد آخر عبد الله السابق ذكره
نسخ بخطه جميع أمالي عمه أبي العلاء وسمع منه ، وكان فاضلاً ولد سنة ٥٠٥ هـ ،
وولي قضاء المعرة وحماة ، وكانت ولايته قضاء حماة سنة ٥١٤ هـ .
ورثاه ولده القاضي أبو مرشد سليمان .

ومنهم : جابر بن زيد بن عبد الواحد أخيه أبي العلاء ، وقد ذكر الفنطحي
أنه كتب إجازة بإذن عم أبيه أبي العلاء على الجزء الثاني من (ذكرى حبيب)
لأبي الحسن يحيى بن محمد الرازي سنة ٤٤٨ هـ وقال ابن العديم : إن زيدا
له ولد اسمه منافر ، ولعله محرف عن جابر وقد بخطه كتباً من تصانيف
عم أبيه أبي العلاء تدل على فضله وحسن نقله .

ومنهم جعفر بن أحمد بن صالح بن جعفر بن سليمان بن داود بن المطهر
ويجتمع نسب مع أبي العلاء في سليمان بن داود ، كان من أعيان كتابه ،
وكتب الكثير عنه ، وقرأ عليه كثيراً من كتب الأدب وروى عنه ،
ونسخه على غاية من الصحة والضبط .

ومنهم أبو الحسن علي بن عبدالله بن أبي هانم المري ، لزم أبا العلاء
وكتب كتبه بأسرها وكتب من المصنف الواحد عدة نسخ وقد تقدم ذكره .
ومنهم أبو الفتح محمد بن علي بن عبدالله بن أبي هانم المقدم ذكره ، كتب له من
تصنيفه ، ووضع له أبو العلاء كتاباً لقبه (المختصر الفتح) وكتاباً
يعرف بـ (عون الجبل) وقد مر ذكره وسيأتي ، وقد كان هو ووالده
خادمين لأبي العلاء على ما قاله ابن العديم ، وكان يقول في نسخ ما يؤلف
من العلم عليهما .

وقال ابن العديم ^(١) : « ومن كتائبه جماعة من بني أبي هانم لا أتحقق
أسماءهم . وإنما أستدل على ذلك بقول أبي العلاء في (رسالة الضميين)
وفي حلب نسخ من هذا الكتاب بخطوط قوم يعرفون ببني أبي هانم ..
.. جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه ... » .

ومن كتائبه : إبراهيم بن علي بن إبراهيم الخطيب المري ، كتب معظم
كتبه بخطه وكتب عنه في السماع والإجازة منه وقرأ عليه كما تقدم .

ثم الجزء الأول وبلية الجزء الثاني وأورد :

مقابلة أبي العلاء المري

(١) تعريف الضمياء بأبي العلاء . ص ٢٦ . من الإنصاف والتحري - لابن العديم .

فهرس الكتاب (*)

(*) سجع كتاب الجامع في أخبار أبي اللؤلؤ المرعي وآثاره في ثلاثة أجزاء أو أربعة ، وقد رأينا أن ثبت فهرسه العامة التفصيلية ل ذيل الجزء الأخيرته واقتصرا في هذا الجزء على فهرسة أبوابه وفصوله موجزة كما وضعا مؤلفه ،

الصفحة	الصفحة
إضافتها إلى حص وغيرها .	٢٦
تسميتها ذات القصور .	٢٦
المرة من العوامم .	٢٧
المرة من الثغور .	٢٧
النسبة الى معرفة النعمان .	٢٧
المرة في شعر ابنائها .	٢٨
المرة قبل الإسلام .	٣١
المرة بعد الإسلام .	٣٣
موقع المرة ووصفها في كلام المتقدمين .	٣٣
المرة مركز للبريد في القديم .	٣٨
اتهام أهلها بالبخل .	٣٩
وصف المرة الآن .	٤١
<u>ترجمة أبي العلاء</u>	٤٩
اسمه وكنيته ولقبه .	
لقبه .	٥٠
نسبه من قبل أبيه	٥١
تعميد	١
<u>توطئة</u>	
أول اتصال بأبي العلاء المعري وسببه .	
ألفاظ أبي العلاء ومعانيه .	٢
نائب العلاء والأدباء عليه والدعوة	٨
السبب إلى شعره للتغفير منه .	
سبب تأليف هذا الكتاب .	٩
الغاية من وضع هذا الكتاب .	١٠
تقسيم الكتاب وترتيبه .	١١
• • •	
<u>مقدمة الكتاب</u>	
لمحة عن الشعر والشعراء .	١٤
تقسيم الشعراء .	١٤
علاقته بالشعر ومنزلة بين الشعراء .	١٥
عناية العلاء بأبي العلاء .	١٥
<u>مولد أبي العلاء</u>	١٨
سياث أو المرة القديمة .	٢٢

الصفحة	الصفحة
١٠١	٥٣ مزيا تنوخ .
عهد أبي العلاء بالعراق وغيرها .	٥٦ نسبه من قبل أمه .
١١١ الحياة السياسية في شعر أبي العلاء .	٦٤ ميلاد أبي العلاء
١١٢ الحياة الاقتصادية في عهده وشعره .	٦٥ مهاب
١١٩ الحياة الدينية في عصر أبي العلاء .	٦٦ أثر الجدرى في وجهه .
١١٩ ظهور الزندقة والخلاف في العقائد .	٦٦ أثر الجدرى والعلم في نفسه .
١٢٧ الحياة الاجتماعية	٧٠ ما يطلع من الألوان .
١٢٥ الحياة العقلية	٧١ الحياة السياسية في عصر أبي العلاء
١٣٦ انواع العلوم	٧١ الدولة الحسانية .
١٣٦ الخط .	٧٧ الدولة المرداسية .
١٣٦ القرآن والتجويد .	٨٧ طائفة من الأحداث التي حدثت في
١٣٨ الحديث .	حياة أبي العلاء في حلب والمرة
١٣٨ الفقه .	وما يتعلق بها منها .
١٤٠ أصول الفقه .	٩٣ الأحداث التي وقعت في المرة في
١٤٠ اللغة .	عهد أبي العلاء .
١٤٢ النحو والصرف .	٩٩ الخلفاء الفاطميون الذين أدر كهم
١٤٤ علم المعاني والبيان والبديع .	أبو العلاء .
١٤٥ العروض والقوافي .	١٠٠ الخلفاء العباسيون الذين أدر كهم
	أبو العلاء .

الصفحة	المصنف	الصفحة	المصنف
١٤٥	التاريخ .	١٧٤	لعبه في حدائقه وبعدها .
١٤٧	تقويم البلدان والجغرافيا .	١٧٦	تعاليمه .
١٤٨	الفلك .	١٧٧	العلماء الذين كانوا في الحريرة في عهده .
١٤٩	الفلسفة	١٧٩	الشعراء الذين كانوا في عهده في الحريرة .
١٤٩	الترجمة .	١٨٣	الطريقة التي درس العلوم فيها .
١٥١	العلوم الفلسفية عند المتقدمين .	١٨٥	شيوخه .
١٥٢	طريقة فلاحية المسلمين .	١٨٥	الحديث .
١٥٥	الأدب .	١٨٥	الفقه والنحو .
١٥٥	المخطابة .	١٨٧	من أتم تعلمه .
١٥٦	الكتابة .	١٨٧	أين أتم تعلمه .
١٥٨	النقد .	١٨٨	رحلاته
١٦٦	الشعر	١٨٨	رحلته الى حلب .
١٦٧	ألفاظ الشعر .	١٩١	رحلته الى انطاكية .
١٦٧	المعاني .	١٩٦	رحلته الى اللاذقية .
١٦٨	فنون الشعر .	٢٠٢	رحلته الى طرابلس .
١٦٨	الرواية .	٢٠٦	رحلته الى صنعاء .
	. . .	٢٠٨	رحلته الى بغداد
	المقالة الأولى	٢١١	أسباب رحلته الى بغداد .
		٢١٧	ابتداء سفره .
١٧٣	نشأته وحياته .	٢١٨	طريقه الى بغداد .

الصفحة		الصفحة
٢١٩	دخوله بغداد .	٢١٩
٢٢٠	منزله في بغداد .	٢٢٠
٢٢٢	حياته في بغداد .	٢٢٢
٢٣١	الدين مولهم ببغداد	٢٣١
٢٤٢	الاجتماع الأول .	٢٤٢
٢٤٤	الاجتماع الثاني .	٢٤٤
٢٤٤	الاجتماع الثالث والأخير .	٢٤٤
٢٥٢	اجتماع بالحليقة .	٢٥٢
٢٥٧	المجالس الطبية في بغداد	٢٥٧
٢٥٩	اخوان الصفا .	٢٥٩
٢٦٤	حنينه الى المرحه وهو في بغداد .	٢٦٤
٢٦٧	عزمه على مفارقة بغداد وأسبابها .	٢٦٧
٢٧١	احتفاء البغداديين به .	٢٧١
٢٧٦	من خرج من بغداد .	٢٧٦
٢٧٧	مسيره عن بغداد وطريقه الى المرحه .	٢٧٧
٢٨٠	إجماع على الانفراد والعزلة .	٢٨٠
	وسبب فقه .	
٢٨١	من حدثت له فكرة العزلة وابن	٢٨١
	كان ذلك ؟	
٢٨٢	من جاهر بالعزلة وابن كان ذلك ؟	٢٨٢
٢٨٦	ماذا فعل بعد رجوعه إلى المرحه ؟	٢٨٦
٢٨٦	حنينه الى بغداد .	٢٨٦
٢٩٠	حزنه في بغداد على مفارقتها ومفارقة	٢٩٠
	أهلها .	
	. . .	
	<u>المقالة الثانية</u>	
٢٩٥	حياة أبي الصلاء في المرحه بعد موته	٢٩٥
	<u>من بغداد</u>	
٢٩٥	ماله .	٢٩٥
٢٩٧	طعامه .	٢٩٧
٣٠٢	تركه أكل لحم الحيوان وما تولى منه .	٣٠٢
٣٠٢	سبب تركه اللحم .	٣٠٢
٣٠٣	شرابه .	٣٠٣
٣٠٤	آتيته .	٣٠٤
٣٠٥	لباسه وأثاثه وفراشه .	٣٠٥
٣٠٨	مسكنه .	٣٠٨
٣٠٩	خافه وإباضه .	٣٠٩
٣١٣	قبوله الهدايا .	٣١٣
٣١٥	كرمه وسخاؤه .	٣١٥
٣١٦	إتقائه على الخطيب التبزي مده	٣١٦
	مقامه عنده .	

الصفحة	الصفحة
٣٢١	توايه المناصب .
٣٢٣	القول الجامع في أخلاقه وسيرته
٣٢٣	صبره .
٣٢٤	احتماله للأذى .
٣٢٥	قناعته وعفافه .
٣٢٥	لبن جانبه .
٣٢٥	طهارة يده وذيله ولسانه .
٣٢٦	زهد .
٣٣٠	حظه على العمل والكسب .
٣٣٣	التشاؤم أو التطير .
٣٤٤	نفى التشاؤم عنه .
٣٤٥	اعتقاده في الخير والشر .
٣٤٨	حياؤه .
٣٤٨	صدقه .
٣٤٩	جرانه .
٣٤٩	التقية .
٣٥٠	وفاؤه واعترافه بالجميل .
٣٥٠	تواضعه .
٣٥٢	فخره .
٣٥٣	كفره الظلم .
٣٥٦	رافته ورقة قلبه .
٣٥٨	رافته بالإنسان .
٣٦٠	رافته بالمرأة .
٣٦٠	عدم تزوجه .
٣٦٢	تقواه .
٣٦٥	رجاؤه وخوفه
٣٦٥	الرجاء .
٣٦٧	الخوف .
٣٧٠	إخلاصه في أعماله .
٣٧١	الإخلاص .
٣٧٤	الرياء .
٣٧٦	النفاق .
٣٧٩	دينه ومعتقد .
٣٨١	أسباب تكفيره ورب بالزندقة ونحوها .
٣٨٢	الحسد .
٣٨٣	التشدد في الدين .
٣٨٥	حب الظهور .
٣٨٥	الولوع بالأغراب .
٣٨٥	القوم .
٣٨٧	ما كان ينفذ حساده وأعداؤه .

الصفحة	الصفحة
٤٣٤ وجه .	٣٩٤ النظر في الأقوال والمزاعم المتقدمة
٤٣٤ أسنانه .	وفي أدلتها
٤٣٥ سمعه .	٣٩٤ الشك .
٤٣٥ شعره .	٣٩٨ الحيرة .
٤٣٨ ضعفه وإقعاده .	٣٩٩ عدم الثبات على نحة واحدة .
٤٣٩ من كان يتعهدده ويخدمه .	٣٩٩ التشيع .
٤٤٠ مرضه الأخير ووفاته	٤٠٤ الاعتزال .
٤٤٢ سبب موته .	٤٠٦ الجبر .
٤٤٢ يوم وفاته .	٤٠٦ البرهية .
٤٤٢ بمجموع عمره .	٤٠٩ المزدكية .
٤٤٣ وصاياه .	٤١٠ الدرزية .
٤٤٤ قبر أبي العلاء	٤١١ القرطية .
٤٤٥ ما فعل على قبره بعد موته .	٤١٢ القبة .
٤٤٦ الذين رثوه	٤١٦ خلاصة ما أراء في اعتقاد أبي العلاء
٤٤٩ كيف روي في النوم بعده موته .	٤٣٠ لزومه بيت .
٤٥٠ الرؤيا البينة .	٤٣٢ حلية أبي العلاء .
٤٥٠ الرؤيا الحنة .	٤٣٢ قامت .
• • •	٤٣٣ نخافته .
المقالة الثالثة	٤٣٣ اغناء قامت .
٤٥٥ شهرة أبي العلاء ومن أخذ منه	٤٣٣ عيانه .
٤٥٧ تلاميذه .	

الصفحة	الصفحة
٥٣٣	٤٥٧ أسماء من أخذ عنه في المرة .
٥٣٥	٤٧٤ الذين كاتبوه نقرأ
٥٤٣	٤٧٩ الذين كاتبوه نظماً .
٥٤٣	٤٨٣ الذين زاروه في المرة .
٥٤٣	٥٠١ منزله عند الملوك والأمراء وعظما
٥٤٩	الناس
٥٥١	٥٠٢ الدولة العلوية بمصر وحلب .
٥٥٦	٥٠٣ أقوال العلماء فيه .
٥٥٩	٥٠٨ المتعصبون له .
٥٦٢	٥١١ قصة الضيوف الخمين .
٥٦٣	٥٢٩ الكتب المؤلفة في دفع المرة
٥٦٤	والظلم عنه .
	٥٣٢ الكتب والرحائل التي ألف في
	الطعن فيه أو الرد عليه .

استدراك

جاء في الصفحة ١٩٣ نقلٌ من كتاب الذكرى لطفه حسين حذف منه المؤلف بعض الجمل التي بدت له فائقة ، ولدى الرجوع إلى النص في مطبته رأينا أنه يحسن إثبات جملة مكان النقاط في السطر ١٣ من الصفحة كي تستقيم العبارة فتصبح : « فن الواضح أن يؤس الملمين قد كان ظاهراً ينطبع هذا الصبي [الذي بلغ من الرشد] أن يتردد إلى المكاتب ويدرس فيها العلم [ملاحظته والتفكير فيه] . . » .

الناشئ

